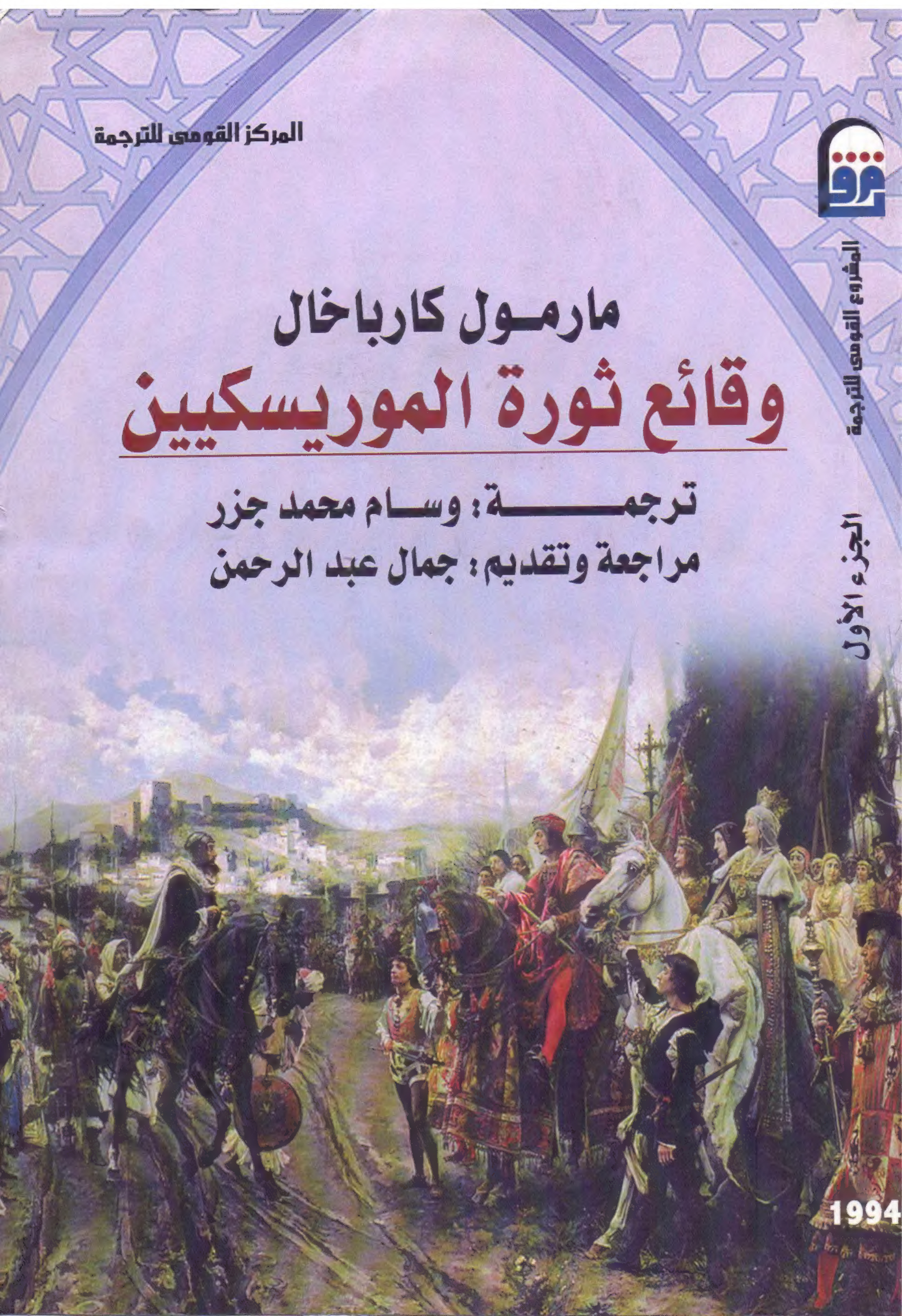


المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

مارمول كارباخال

وقائع ثورة الموريسكيين

ترجمة: وسام محمد جزر

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

الجزء الأول

1994



يروى هذا الكتاب وقائع ثورة الموريسكيين، التى وقعت بين عامى 1568 و1570؛ احتجاجًا على سوء أوضاعهم، وإعادة تنصيب ملك مسلم فى غرناطة خلال تلك الفترة.

ويعد مؤلف الكتاب أكثر انحيازًا إلى وجهة النظر الرسمية من غيرها، وقد حاز شهرة واسعة؛ بحيث صار عمدة المؤرخين الإسبان، وغيرهم فيما يتعلق بهذه الأحداث.

ينقل المؤلف هنا عدة وثائق لا يتضمنها كتاب آخر، وبصدور هذا الكتاب نضع أمام المؤرخ العربى وجهات نظر متعددة، يكمل بعضها بعضًا، كما نقدم قاعدة مكتملة لدراسة وقائع ثورة الموريسكيين.

استسلام غرناطة فى عام ١٤٩٢ للفنان: فرانسيسكو أورتيز
تصميم الغلاف: هانى عبد الخالق

وقائع ثورة الموريسكيين

(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1994
- وقائع ثورة الموريسكيين: الجزء الأول
- مارمول كارباخال
- وسام محمد جزر
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:
Historia de la Rebelión y Castigo de los Moriscos
del Reino de Granada
Por: Luis del Mármol y Carvajal

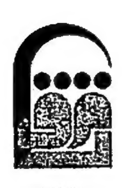
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

وقائع ثورة الموريسكيين
(الجزء الأول)

تـألـيـف : مـارمـول كـارباخـال

ترجـمـة : وسـام مـحـمـد جـزر

مراجعة وتقديم : جـمـال عـبـد الرحـمـن



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كارباخال ، مارمول.
وقائع ثورة الموريسكيين (الجزء الأول) / تأليف : مارمول كارباخال،
ترجمة : وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن
ط ١- القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٢
٦٤٠ص، ٢٤ سم
١- إسبانيا - تاريخ - أسرة هابسبرج - الفترة الأولى (١٥١٦-١٥٩٨)
٢- المسلمون فى أوربا.
(أ) جزر، وسام محمد (مترجم).
(ب) عبد الرحمن، جمال (مراجع ومقدم)
(جـ) العنوان ٩٤٦,٠٤

رقم الإيداع ٢٠١١/١٩٦٦٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704-833-0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تقديم المراجع

يسعدنا أن نقدم إلى القارئ العربى كتابًا جديداً عن ثورة مسلمى إسبانيا فى الفترة ما بين عامى ١٥٦٨-١٥٧٠، احتجاجا على الاضطهاد الذى تعرضوا له على يد السلطات الكاثوليكية الحاكمة، بعد أن نقضت تلك السلطات معاهدة تسليم غرناطة التى وقعها الملكان الكاثوليكيان فى نوفمبر عام ١٤٩١، وهى فترة لم يلتفت إليها المؤرخون العرب كثيراً، والسبب فى ذلك جلى واضح: فوثائق تلك الفترة كلها إسبانية اللغة، اللهم إلا رسالة هنا أو هناك موجهة إلى سلطان مسلم فى تركيا أو مصر، أو بعض فقرات وردت فى كتاب.

كنا قد ترجمنا منذ سنوات كتاب أورتادو دى مندوثا[١]، وهو - كما سيرى القارئ - أكثر موضوعية من الكتاب الذى نقدم له، نظراً لمكانة مندوثا وطبيعته الثائرة التى تأبى الضيم. ثم ترجمنا كتابًا آخر -"الحرب ضد الموريسكيين" لبيريث دى إيتا[٢] - هو أقرب إلى الأدب منه إلى التاريخ. أما هذا الكتاب فهو أكثر انحيازًا إلى وجهة النظر الرسمية، (عنوان الكتاب يؤكد أن موقف مارمول واضح تمامًا) وحاز شهرة واسعة، وصار عمدة المؤرخين الإسبان وغيرهم عند الحديث عن ثورة الموريسكيين. ربما كان هذا الانحياز هو الذى صادف هوى فى نفوس المؤرخين الإسبان القدامى،

---

(١) حرب غرناطة" تأليف أورتادو دى مندوثا، ترجمة إيمان عبد الحليم وسلوى محمود، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨

(٢) "الحرب ضد الموريسكيين" تأليف بيريث دى إيتا، ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩

وهو الذى أدى - بالتالى - إلى أن يحتل مكانة لا نرى أنه يستحقها. هناك عامل آخر دفعنا إلى ترجمة الكتاب، هو أنه يتضمن بعض وثائق لا نجدها فى كتاب آخر.

بصدور هذا الكتاب نضع أمام المؤرخ العربى وجهات نظر متعددة، يكمل بعضها بعضًا، ونقدم قاعدة مكتملة لدراسة وقائع ثورة الموريسكيين، ذلك أن الكتب الأخرى التى عالجت الموضوع - وهى كثيرة ووافرة - لم تخرج عن نطاق الكتب الثلاثة التى صدرت عن المركز القومى للترجمة.

مؤلف الكتاب من مواليد غرناطة عام ١٥٢٠ وتوفى نحو عام ١٥٩٩ فى بلش مالقة، هذا معناه أنه ولد وعاش فى أجواء المشكلة الموريسكية وشهد تطوراتها. وكان أبوه كاتبا بمحكمة غرناطة (هذا عامل آخر من عوامل اقترابه من أبعاد قضية الموريسكيين) اشترك فى الحملة على تونس عام ١٥٣٥ وأمضى اثنين وعشرين عامًا فى إفريقيا، منها ثمانية أعوام قضاها أسيرًا فى الجزائر. كان من المعتاد أن يعود الأسير إلى إسبانيا ويقدم تقريرًا إلى محكمة التفتيش يؤكد فيه أن إيمانه الكاثوليكى لم يتزعزع خلال فترة الأسر، لكن مارمول لم يفعل ذلك. ربما لهذا السبب (ولأنه ابن لزوجة غير شرعية، قد تكون زوجة ثانية) اتهم بأن أصوله موريسكية. خلال ثورة الموريسكيين، عينه الأمير خوان دى أوستريا مفتشًا على مشتريات الجيش الإسبانى، لهذا أتيح له أن يتابع تطورات الحرب ضد الموريسكيين عن قرب. بعد إخماد الثورة استقر فى غرناطة وبدأ فى وضع كتابه عن إفريقيا، أما الكتاب الذى نقدم له فقد نشر عام ١٦٠٠، أى بعد وفاة المؤلف بعام واحد.

قضى مارمول نحو اثنين وعشرين عاما فى إفريقيا، وهو ما يوحى بأنه كان يجيد اللغة العربية كأهلها، ومع ذلك فإننا نتساءل: هل كان مارمول كارباخال ملما باللغة العربية؟ أكاد أجزم بالنفى، على ضوء الأخطاء غير المقبولة فى ترجمة أسماء المدن والقرى التى يوردها. إذا كان الأمر كذلك، فمن أين جاء بالترجمة الإسبانية الدقيقة لشواهد قبور سلاطين بنى نصر؟ ربما كانت الترجمة من عمل ألونسو ديل كاستيو أو

ميغيل دى لونا وهما موريسكيين كان لهما حظ وافر من الثقافتين العربية والإسبانية، وكان لهما دور ثقافى واضح خلال القرن السادس عشر. توصلنا إلى شاهدى قبرين أوردهما ابن الخطيب فى "الإحاطة"، لكن البحث عن الشاهدين الآخرين أعيانًا دون أن نتوصل إلى نتيجة. عموما فالموضوع يغرى بالدراسة لأنه يتعلق بمستوى الدراسات العربية فى إسبانيا خلال القرن السادس عشر، وما له من صلة وثيقة بالحروب التى كانت إسبانيا تخوضها ضد الشمال الإفريقى الذى تدعمه قوات عثمانية.

قضية أخرى يثيرها الكتاب هى قضية أسماء المدن والقرى الصغيرة، وقد اجتهدنا فى التوثيق ما استطعنا إلى ذلك سبيلا. رجعنا بطبيعة الحال إلى دراسات محمد عبد الله عنان[1] وحسين مؤنس وغيرهما من المؤرخين العرب، لكن هذه الدراسات تقتصر على المدن الكبرى ولا تفى بالحد الأدنى الذى ينتظره القارئ منا. طالعنا نصوصا تاريخية قديمة لابن الخطيب وابن خلدون والمقرى، ونصوصًا أخرى مجهولة المؤلف مثل "نبذة العصر"، فأدركنا أن اسم البلدة قد يختلف من مؤلف إلى آخر مما يجعل عملية البحث صعبة. كان من الطبيعى أن نتجه إلى الدراسات الإسبانية الحديثة، وهنا توصلنا إلى نتيجة مفادها أن الاسم الإسبانى كذلك لم يخل من تحريف على مدى الزمن. إن قرية بيناكى على سبيل المثال قد ورد اسمها بيناكيث فى مصادر مسيحية، كما ورد بصيغة بيناتى فى مصادر أخرى[2] ها نحن نرى أن القرية الواحدة لها ثلاثة أسماء فى المصادر الإسبانية، وقد رأينا الشىء نفسه يحدث فى المصادر العربية.

---

(١) محمد عبد الله عنان: "الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية.."، منشورات المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد، ١٩٧٦

(٢) Gozalbes Gavioto "La transformaciín de la alquería en la Axarquia malagueña..."en Isla de Arriaran, XVIII, 2001, pp. 13-30

فى أثناء البحث وقعنا على مفاجأة غير سارة بالمرة: ما زلنا بحاجة إلى فهرس كامل للأعلام الجغرافية الأندلسية وفقا للمصادر العربية وذكر ما يقابلها فى الإسبانية. صحيح أن بعض الباحثين كتبوا شيئًا من هذا القبيل: د. محمد عبد الله عنان، وسيمونيت، لكنها دراسات جزئية لا تفى بالمطلوب. يوقظنا سوط الوقت عن الاستغراق فى البحث، فنكتفى بذكر اسم المدينة أو القرية كما ينطق فى الإسبانية الحالية، مع إدراكنا التام أن الموضع المذكور كان له اسم عربى فى فترة غير بعيدة عن زمن الأحداث. على أى حال فقد وضعنا الاسم بالإسبانية أمام العربية فى أول مرة تجنبًا للخلط بين الأسماء.

لا ينبغى أن يظن القارئ أن أسماء المدن كلها فى العصر الأندلسى كانت عربية، فقد نزل الفاتحون المسلمون على شعب كانت له مدائنه وقراه، واكتفوا بتعريب اسم البلدة، أو إيجاد أقرب نطق له بالعربية، أما المدن التى أسسوها فمن الطبيعى أن تكون أسماؤها عربية خالصة.

مهمة إعادة كتابة الأسماء العربية للمدن الصغيرة والقرى فى الأندلس ليست مستحيلة: هى فقط صعبة وتتطلب جهدًا ووقتًا، إذ يتعلق الأمر بالرجوع إلى المصادر العربية، وإلى دراسات الباحثين الإسبان الحديثة التى تستند إلى مخطوطات لم تكن متاحة منذ سنوات.

يشير مارمول إلى أنه استقى بعض معلوماته عن مؤلفين عرب، ويذكر اسم ابن رشيد على وجه التحديد، وقد أعيانا البحث عن ابن رشيد هذا، وظننا أنه ابن رشيد القيروانى (٣٩٠ - هـ ٤٥٦) صاحب كتاب "العمدة" ، لكن كتابًا وقع بين أيدينا - هو "وصف مملكة غرناطة" لسيمونيت(*) - أراحنا من عناء البحث، فقد ذكر المؤلف صراحة أن مارمول اعتمد على كتاب الرازى، صاحب "الروض المعطار"، وهو كتاب اعتمده

(*) Simonet Descripción del reino de Granada, Madrid, 1860.

المؤرخون العرب فيما بعد مثل ابن الخطيب وابن خلدون والمقرى. لكننا لا نطمئن كثيراً إلى اسم الرازى ولا إلى ابن الخطيب بوصفها مصادر لكتاب مارمول، فالكتاب يتحدث عن أمور وقعت بعد عصر الرازى بكثير، بل بعد وفاة لسان الدين بعقود، وبالتالى فمن الواضح أن مؤلفنا اعتمد على مصدر عربى لم نتوصل إليه حتى الآن. إذا وضعنا فى الاعتبار أن مارمول لم يكن يجيد العربية (هذا واضح من أخطائه فى ترجمة معانى أسماء المدن، وإن كان أمضى عقدين كاملين فى بلاد العرب) فمن المؤكد أنه اعتمد على ترجمة مكتوبة، فأين يمكن أن نبحث عنها؟ مصادر مارمول تمثل موضوعاً يغرى بالبحث، لكننا نفيق من استغراقنا فى البحث مرة أخرى على سوط الوقت يلهب ظهورنا، وندرك أن أمامنا موعداً لا يجب أن نخلفه، فنقدم الكتاب إلى المطبعة، ويحدونا الأمل فى أن يكمل المهمة باحث عربى ظروفه أفضل.

يجب أن نتوقف كثيراً عند بعض فقرات توردها كتب التاريخ، فقد يضع المؤرخ على لسان شخص ما عبارة لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه. لعل المثل الأكثر وضوحاً نجده فى تلك الخطبة الشهيرة التى نسبت إلى طارق بن زياد، وهى خطبة فصيحة لا يمكن أن تصدر عن قائد حديث عهد باللغة العربية. فى هذا الكتاب الذى نقدم له نجد عبارة منسوبة إلى أم الملك المسلم حينما رأته يبكى إذ قالت له" ابك مثل النساء ملكاً لم تدافع عنه كالرجال". إن سير الأحداث يوضح أن الملكة الأم شهدت ابنها وهو يدافع بكل ما يستطيع، وهى تعلم يقيناً أن سقوط غرناطة لم يكن بسبب ابنها[1]، بل بسبب مجموعة عوامل بدأت قبل أن يولد، وبالتالى نستبعد أن توبخ ابنها.

(١) المطالع لتطورات الأحداث التى سبقت سقوط غرناطة يدرك أن أبا عبد الله الصغير قد جاهد قدر استطاعته، بل إن اتفاقية تسليم غرناطة كانت نتيجة مفاوضات عسيرة أدارها شخص حريص على مستقبل الأندلسيين، وكثير من المؤرخين الإسبان يحاولون إنصاف أبى عبد الله، لكن مؤرخينا يصرون على إلقاء اللوم عليه وكأنه هو الذى أضاع الأندلس.

نفتقد فى كتاب مارمول وصفًا لملحمة غاليرا، وكيفية هروب الموريسكيين ليلاً، بعد أن تنكر أحدهم فى زى جندى مسيحى. نفتقد كذلك الجانب الإنسانى فى الأحداث، مثل قصة التوزانى الموريسكى الذى انتقم من الجندى الذى قتل حبيبته، ولم يجد القائد المسيحى بدًا من أن يغفر له فعلته، بعد أن تفهم الموقف. لا نجد فى الكتاب كذلك أية قصيدة شعبية تمنح النفس راحة وسط هذا الكم من الحروب والمآسى (كل هذا نجده عند بيريث دى إيتا. ألم أقل إن كتابه أقرب إلى الأدب منه إلى التاريخ؟)

الشىء الذى نجده هنا ولا نجده هناك هو هذا الكم من الأفعال الوحشية التى يقول مارمول إن الموريسكيين ارتكبوها. إن من يتوقف عند وصف تلك الأفعال يدرك أن المؤلف كان يستخدم عبارات مكررة، وهو ما قد يوحى بتعميم حالات فردية أو بالمبالغة. قد يكون من المناسب أن نحاول الاقتراب من الهدف الذى كان يسعى إليه مارمول من هذه الصفحات. لقد نشر الكتاب عام ١٦٠٠ ، حين كانت المشكلة الموريسكية أشد ما تكون احتدامًا، ولعل إحدى الجهات كانت وراء نشره لكى تدعم قرارًا تريده أن يصدر.

اتبعنا فى ترجماتنا لكتب التاريخ الموريسكى كتابة الاسم العربى للمدينة حتى سقوط غرناطة، والتزمنا فى الفترة اللاحقة بكتابة الاسم الحديث كما ينطق فى اللغة الإسبانية، أما فى هذا الكتاب فقد كتبنا الاسم العربى للمدينة أو القرية كلما كان ذلك ممكنًا للسبب الذى نسوقه الآن. عندما أشعل الموريسكيون ثورتهم أرادوا أن يعودوا إلى ثقافتهم العربية التى حرموا منها طويلاً، من حيث أسماء الأشخاص والمدن والقرى. واحترامًا لتاريخ الموريسكيين ورغبتهم عمدنا فى هذا الكتاب إلى كتابة الأسماء العربية خلال فترة الثورة. لم يكن من المناسب أن نكتب اسم البلدة الواحدة بالعربية ثم بالإسبانية ثم بالعربية. لذلك عممنا الاسم العربى على مدى صفحات الكتاب. وحتى لا نسبب إرباكًا للقارئ الباحث فقد كتبنا الاسم بالإسبانية فى أول مرة يذكر فيها.

النص الأصلى ليس به فقرات، مما جعل ترجمته عسيرة إلى حد ما، وقد قسمناه فى اللغة العربية إلى فقرات حتى تسهل قراءته. توخينا الوضوح فى الأسلوب قدر جهدنا، فابتعدنا عن اللفظ الغريب، واللفظ الذى يحتمل أكثر من معنى، ثم أدخلنا لفظ الفاعل عندما كان المؤلف يتحدث عن المسيحيين والموريسكيين معا بصيغة الغائب الجمع، تجنبا للغموض. ورجعنا إلى مصادر أخرى لحل المشكلات التى نجمت عن غموض أسلوب الكاتب فى بعض الأحيان، حين كانت عبارته تحتمل أكثر من معنى.

نترك بين يدى القارئ كتابًا جديدًا يتناول ثورة مسلمى إسبانيا احتجاجًا على سوء أوضاعهم، وهو كتاب يتضمن وثائق جديدة ويعرض وجهة نظر السلطات الرسمية فى الأحداث، ونحسب أنه - لذلك - يمثل إضافة مهمة إلى مكتبة الدراسات الأندلسية والموريسكية.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

جمال عبد الرحمن

القاهرة فى يناير ٢٠١١

إهداء

اعتاد قدامى الكتاب المشاهير دائمًا عرض أعمالهم تحت حماية أعلى المبادئ؛ قدراً واحتراماً في عصورهم. في هذا العمل، وسيرًا على هذا المبدأ، وأنا أقوم بكتابة "تاريخ ثورة موريسكيي مملكة غرناطة وعقابهم"، فقد وضعت نصب عيني إعطاء الفضل لسيادتكم، يا من اجتمع فيكم الالتزام الديني وإتقان فن الحرب، وهما الأمران اللذان يتناولهما هذا الكتاب تحديداً. كما أن مجلس قشتالة الملكي - الذي يتشرف برئاستكم له - قد حقق انتصاراً كبيراً بقضائه على شوكة المسلمين في هذه المملكة، بعد أن حولوها إلى هاوية تغص بالفاحشة والخطيئة خلال قرون مديدة. لقد بذلتم الدم أثناء محاربتكم إياهم عند مضيق فريخيليانا Fregiliana. آنذاك اضطلعتم بدور القائد الحكيم والجندي الجسور؛ وكانت إصابتكم بأحد السهام دليلاً على شجاعة موروثة لا تقهر. ولكم خشيت بوضعي أسلوبي المتواضع - الذي لا يناسب قدركم - بين يدي عظمتكم أن أُنعت بالجهل والجرأة في غير موضعها، بيد أن بشاشتكم قد طمأنتني، وكذلك نبلكم الذي ازدان نسبًا وثروةً وعلمًا: أما النسب فإن ثونييغا Zúñiga، وأبيانيدا Avellaneda، وباثان Bazán، وكارديناس Cárdenas هي أعرق وأنبل عائلات مملكتي قشتالة ونابارًا Navarra؛ وأما الثروة فأنت كونت ميراندا Miranda وماركيز بانيثا Bañeza وعميد عائلتي أبيانيدا وباثان؛ أما العلم، فإن حكمكم الرشيد لإمارة قطالونيا Cataluña ومملكة نابولي Nápoles أثناء توليكم منصب نائب الملك، وكذلك رئاستكم لمجلس جلالة الملك، وللمجالس الملكية في كل من قشتالة وإيطاليا - محل إقامتكم - لهو خير دليل.

لذا فقد قررت، بعد أن أخذت تلك الأمور بعين الاعتبار، أن أغامر بالكتابة إلى أخى بدرو ثاباتا دى مارمول Pedro Zapata de Mármol – وهو كاتب بمجلس قشتالة الملكى، لكى يقبّل يدى سيادتكم، راجيًا أن يلقى كتابى هذا قبولكم. وقد أجابنى أنكم قد حققتم جلّ آمالى إذ حظى بإعجابكم؛ وإنه لشرفٌ كبير أن تتبوأ بنات أفكارى المتواضعة تلك المكانة الرفيعة التى لا أدرى كيف سأتمكن من استيعابها فيما تبقى لى من عمر، بعد بلوغى ستة وسبعين عامًا. ولسوف أقضى ما تبقى من عمرى فى خدمة سيادتكم. وهو ما أعلنه اليوم من جديد، تخليداً لعظمتكم وحنوكم.

لويس ديل مارمول كارياخال

مقدمة

جرت العادة، التى ما زالت ساريةً حتى اليوم بين العلماء المستنيرين، على كتابة ما توصلت إليه قريحتهم، أو وثَّقه آخرون من أمور يعدونها نافعة لتخرج إلى النور. وهناك العديد من أصحاب الخلق المتميز ممن ألَّفوا أعمالاً أخلاقية تحث النفس على الفضيلة، وهناك آخرون وضّحوا لأبناء جلدتهم أشياء غريبة وغير مألوفة عن طريق الترجمة. كما أنهم خلَّدوا أمورهم الخاصة لتبقى ماثلةً فى ذاكرة الأدب، وقد منحوا كلاً منها قدره، بوصفهم شهوداً على الحقيقة وقضاة لمعيار الجودة. فمن خلط هذا الاجتهاد بالالتزام بتحقيق المنفعة المشتركة، وتقييم هذه الأعمال الشهيرة وفقًا لقيمتها ووزنها، فى محاولة لتزويد من يخلفه بالحقيقة، فهو يستحق الثناء والتقدير لعمله نظراً لما بذله فيه من عاطفة.

كل شىء يسعى إلى الخلود بطريقته؛ فالعناصر التى تزودنا بها الطبيعة ولا تمتد إليها يد الإنسان تمتلك فى حد ذاتها قدرة على التجدد والعطاء، وعند مجابهتها للخطر تقوم الطبيعة نفسها بتجديدها ولإعطائها قالبًا جديداً تحتفظ فيه بخواصها. أما العناصر غير الطبيعية، والتى هى من صنع الإنسان، فإن افتقارها لصفة تجديد ذاتها - نظراً لأن حياة الإنسان القصيرة لا تتيح له تلك الفرصة - فكان ضروريًا أن يقوم البشر أنفسهم، لرغبتهم فى تخليد أسمائهم فى الذاكرة، باللجوء إلى استخدام الآداب التى تقوم بتقديم أعمالهم فى المستقبل.

فالكلام المنطوق تقتصر مدة حياته على اللحظة التى يُنْطَق فيها، لاعتماده على الأحياء، وهو يتشابه فى ذلك مع الزمن الذى يذهب دونما رجعة. أما الآداب - التى تتكون من رموز جامدة - فهى تمتلك بداخلها روح الحياة وتهبها لكل ما يحويه

عالم الإنسان، وذلك من خلال تكرارها فى الذاكرة وترديدها بين البشر لمنحها الخلود. عندما تحين نهاية العالم ستخلد الآداب أشخاصنا وكلامنا وأفعالنا على هيئتها الحالية، ونحن نرى أن ما قاله وفعله من عاشوا قديمًا لا يزال محفوظًا فى ذاكرة الحروف. وبما أن الأعمال تكون خالدة لأنها نتيجة العقل والإرادة - فهما روحانيان يجعلان الأعمال خالدة - فكان من الطبيعى أن نستخدمهما حتى يفيد منها الآخرون.

ما مصير تاريخ الكلدانيين والآشوريين والماديين(*) والفرس والإغريق والرومان ، لو لم يسجله أمثال بيروسو كالديو Beroso Caldeo، وميتاستينيس Metástenes، وديودورو سيكولو Diodoro Sículo، وبروكوبيو Procopio، وتروغو بومبيو Trogo Pompeyo، وهيرودوت Herodoto، وأليكارناسيو Halicarnasio، وخوستينو Justino، وتيتو ليفيو Tito Livio، وآخرون؟

إن الاهتمام بتوثيق كل الأمور بأمانة وحفظها فى ذاكرة الآداب، التى تحافظ على كل هذه الأعمال، هو شأن بالغ الأهمية فى بلدنا إسبانيا؛ فالإسبان يملؤهم التأهب والحماسة عندما يخوضون أحداثًا تستدعى اللجوء إلى فنون الحرب، بيد أنهم عادةً ما يُغْفِلون تدوين تلك الحوادث، وخوفًا من أن تضيع من الذاكرة أحداثٌ عديدة ومجيدة - بدأت تقع فى دائرة النسيان - فقد قمتُ بتجميع كل ما هو جدير بالحفظ، وضمّناه فى الجزء الثانى من كتاب "وصف إفريقيا" Descripción de Africa، الذى خرج إلى النور فى عام ١٥٧٣ من ميلاد مخلص البشرية. وقد أهديناه إلى راعينا الملك الكاثوليكى السيد فيليبى الثانى Felipe II الذى أمر بوضعه فى مكتبته فى دير الإسكوريال؛ ثم واصلنا فيما بعد اضطلاعنا بمهنة التأريخ الجسيمة ، فقمنا بتأليف كتاب "تاريخ ثورة موريسكيى مملكة غرناطة وعقابهم" El Rebelión y castigo de los moriscos del reino de Granada بكل ما يحويه هذا الحدث من وقائع خالدة؛ وهو ما

(*) نسبة إلى ماداى فى إيران. (المترجمة)

أمكننا تحقيقه بسهولة عن غيره، نظراً لمشاركتنا فى جيش صاحب الجلالة منذ البداية وحتى النهاية[١] بعد وضع خطة الكتاب وتوصيفها ، عرضناه على المجلس الأعلى بقشتالة، لكون العمل يتناول واحداً من أعظم انتصارات هذه المملكة؛ وقد نُشر بتصريح منه. وكان قد درسه – وقدّم وصفًا له – العالم خوان ديّاث دى فوينمايور Juan Díaz de Fuenmayor عضو المجلس الملكى، وأخيراً من قبل السيد ريبادنيرا Rivadeneyra المستشار بمحكمة غرناطة الملكية فى أثناء تلك الحرب وعضو المجلس الأعلى؛ وقد عرضه على المجلس وجاءت الآراء لتصدر القرار بطباعته. بالنسبة إلىّ فإن هذا الكتاب ثمرة عمل بادرت به، وقلّدت فيه أمنا الأرض، وأديته بعناية واجتهاد يفوقا الذى ما كنت لأبذله لو عُهِدَ إلىّ القيام به. يدفعنى إلى ذلك التزام داخلى وفرح يكاد يصل إلى حد الحسد، بالنصر العظيم الذى حققه المسيحيون الأوفياء، وأُهْدِرَت من أجله دماؤهم واستشهدوا من أجل مخلصنا(*).

تم تقسيم العمل إلى عشرة كتب يتناول أولاها : وصف مملكة غرناطة وفتحها على يد الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيسابيل، وتحويل المسلمين إلى ديننا الكاثوليكى المقدس، والتوتر الذى نشأ بسبب ذلك – مستعيناً فى ذلك بايرناندو دى ريبيرا Hernando de Ribera، وألونسو دى بالنثيا Alonso de Palencia، وإيرناندو ديل بولغار Hernando del Pulgar، ولويس دى كارباخال Luis de Carvajal وآخرين؛ إضافةً إلى بعض الكتب العربية التى أمكننا التأكد من صدقها. أما الكتاب الثانى فيعرض الطرق التى اتبعها الأمراء الكاثوليك لحمل المتنصرين الجدد على ترك عاداتهم

(١) المؤلفون الإسبان الذين أرّخوا للحرب ضد الموريسكيين –أورتادو دى ميندوثا وبيريث دى إيتا ومارمول– كانوا شهود عيان وإن اختلفت توجهاتهم. (المراجع)

(*) ينعت ميغيل أنخيل دى بونيس إيبارا فى كتابه "الموريسكيون فى الفكر التاريخى" كاتبنا كارباخال بالمؤرخ – الجندى، فهو باعتباره جنديا لا يستطيع التشكيك فى القرارات التى تتبناها السياسات الملكية، وهو ما دفعه إلى تبنى وجهة النظر الرسمية، كما أن مؤلّفه يفيض بمشاعر الكره تجاه الموريسكيين، وتخلو روايته من أى تأملات فلسفية حول قسوة الحرب. (المترجمة)

وشعائرهم الإسلامية. ويدور الكتاب الثالث حول الآراء المعارضة ذات الدافع المعنوى التى تبناها أولئك المسلمون لعدم ترك تلك الأشياء التى حفظت لهم ذكرى عقيدتهم، وكيف حاولوا استحداث بدع، عن طريق إعادة صياغة بعض التكهنات التى كانوا يؤمنون بها فى أثناء اعتناقهم الدين الإسلامى. يستعرض الكتاب الرابع بداية الثورة، ودخول منفذيها الرئيسيين إلى البيّازين معلنين إسلامهم، واختيارهم قائداً من أبناء جلدتهم في البشرات، وقسوتهم البربرية فى أثناء إضرامهم النار فى الكنائس، والتعرض للقساوسة المقيمين في قراهم. الكتاب الخامس يروى الحملة التى شنها ماركيز مونديخار Mondéjar ضد أولئك الثوار، ودخول ماركيز بلش Vélez من ناحية مملكة مرسية، وتقدم هذين الجيشين، ومجىء السيد خوان دى أوستريا Juan de Austria - شقيق مليكنا - إلى غرناطة، حيث استعان بسلطته لوضع نهاية لتلك الحرب المزعجة، وكيف أخذت الثورة فى التراجع. يبرز الكتاب السادس عدم الانضباط فى صفوف جيشنا[٢]، الذى أزعج خصومنا كثيراً، حتى أنه دفع بمعظمهم إلى العودة للجبال؛ وكيف أمر جلالة الملك بإعادة مسلمي البيازين وغوطة غرناطة إلى الداخل لطمأنتهم والتأكد من ولائهم. يروى الكتاب السابع دخول ماركيز بلش إلى البشرات، والانتصار على ابن أمية Aben Humeya فى بالور Valor، وموت هذا الطاغية، وتنصيب الثوارْ لابن عبو Aben Aboo خلفًا له، وتقدم جيش ماركيز بلش. أما الكتاب الثامن فيتناول الحملة التى قادها السيد خوان دى أوستريا بنفسه على مدينة غاليرا Galera المنيعة عبر نهرى المنصورة Almanzora والمريّة Almería، ودخول دوق سيسا Sesa إلى البشرات، وطرد ما تبقى من مسلمين فى غوطة غرناطة. يبرز الكتاب التاسع المعاهدات التى أُبرمت لإخضاعهم بصورة عامة، وكذلك الحملة التى اضطلع بها السيد أنطونيو دى لونا Antonio de Luna على منطقة رندة Ronda الجبلية

(٢) لا يختلف المؤرخون الإسبان حول قسوة الجنود الإسبان وتجاوزهم لحدود الجندية فى أثناء الحرب ضد الموريسكيين، أما إدانة هذا المسلك فلم تكن محل إجماع. (المراجع)

لإخلائها ممن كانوا فيها. الكتاب العاشر يصف استسلام المسلمين فى جبال رندة المذكورة، والحملة التى خاضها السيد لويس دى ثونييغا إى ريكيسينيس Luis de Zúñiga y Requesenes القائد العام لمنطقة قشتالة ضد من أبوا الاستسلام فى البشرات، وكيفية سيرها، وطرد موريسكيي مملكة غرناطة المنهزمين، ووفاة ابن عبو، ونهاية تلك الحرب.

سيجد القارئ العديد من المميزات فى هذه الكتب العشرة، وإذا تراءى له أنها تفتقر إلى أمور يعلمها هو فليكن ذلك. لأن عملاً على هذا القدر من الشمول، يتناول كل تلك الأحداث التى دارت فى الكثير من الأماكن فى التوقيت نفسه، لابد أن يسد أى خلل بفطنة. دون أن تنقصنا الحكمة لمعرفة هذا، وإدراك أنه يُحْتَمَل أن يكون قد تم التغاضى عن عدد من الأمور(٣).

(٣) من الطبيعى أن يخطئ المؤلف إذا تناول عدة أحداث وقعت فى وقت واحد، ما نعيبه على مؤرخ ما هو عدم الموضوعية. (المراجع)

تاريخ ثورة موريسكيي مملكة غرناطة وعقابهم



الكتاب الأول

الفصل الأول

يتحدث عن إقليم أندلوثيا Andalucia، التى أطلق عليها القدماء اسم بيتيكا Betica، وكون غرناطة جزءًا منها.

منطقة بيتيكا التى ذاع صيتها على يد الكتاب القدامى هى نفسها التى سميت فيما بعد فانداليا Vandalia أو فاندلوثيا Vandalocia، نسبةً إلى جماعة يُسَمون الفَندال Vandalos(*) استوطنوها وأقاموا فيها إقطاعيات. كان هؤلاء ذوى أصول جرمانية، وقد قدموا إلى بلاد الغال - التى عُرِفَت فيما بعد باسم فرنسا - مع القنصل فستيليكون Fstilicón، وذلك قبيل سنتين من إغارة الملك القوطى ألاريكو Alarico على روما فى عام ٤١٢ من ميلاد المسيح، وهو ما يوافق مرور ١٢٦٤ سنةً على تأسيس المدينة على يد رومولو Rómulo. حارب أولئك القوم، مدعومين بكل من أهالى بورغونيا Borgoña(**) وكذا أهالى درواس وسويبو(***) ، وهم جميعًا من الجرمانيين ، الفرانكونيين - وهم أهل مقاطعة فرانكونيا Franconia ممن استوطنوا بلاد الغال؛

(*) تعنى باللغة العربية الهمجيون أو المتوحشين. (المترجمة)

(**) مقاطعة بفرنسا. (المترجمة)

(***) أطلق على جميع من القبائل الجرمانية ، التى استوطنت المنطقة الكائنة ما بين أنهار الراين والدانوب والبة فى القرن الثالث الميلادى وقد قامت هذه الجموع بغزو بلاد الغال وجزء من إسبانيا فى القرن الخامس الميلادى Rea Academia Española,Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo II. pag. 1916.

واستطاعوا أن يطردوهم منها بقوة السلاح ليستولوا هم عليها وينهبوا خيراتها كما يحلو لهم، وأجبروا الفرانكونيين بذلك على العودة إلى منطقتهم الأصلية. عندما اكتفى الفرانكونيون بقطعة الأرض تلك، التى نطلق عليها بورغونيا، انتقل الفندال وأعوانهم الجرمانيون إلى مقاطعة أكيتانيا Aquitania فى ناربونا Narbona، وعاثوا فيها فساداً، فأخذوا فى تدمير أقاليمها وسرقتها وصولاً إلى جبال البرانس. ولكنهم عجزوا عن العبور إلى إسبانيا، حيث دافع أهلها عنها وأخذوا يحاربونهم وسط وعورة وخشونة تلك الجبال.

فى تلك الأثناء قام أحد قواد الإمبراطورية الرومانية ويدعى غارثيان Garcián بالإغارة على جزيرة بريطانيا - Bretaña مسقط رأس - وطغى فيها، لكن حكمه المستبد لم يدم طويلاً، حيث قتله جنود جيشه بأنفسهم ونصّبوا جندياً خاصًا يدعى كونستانتينو Constantino إمبراطوراً عليهم، وقام هذا الأخير لاحقًا بالعبور إلى بلاد الغال ليقاتل بضراوة ضد الفندال والجرمانيين الذين كانوا قد استولوا عليها؛ ولكنه لم يتمكن من إخضاعهم قط واضطر فى النهاية إلى عقد سلام معهم، غير أنهم خدعوه عدة مرات تحت اسم السلام. كما أن هذا الإمبراطور بعث بقادته - الذين يسمون بالقضاة - إلى إسبانيا ليحكموا البلاد ويديروا شئونها باسمه؛ وقد تم استقبالهم بحفاوة بالغة ولم يرفض الانصياع لهم سوى الأخوين النبيلين الفارسين البالينثيين ديندينو Dindino وبيرونيانو .Veroniano حيث هبوا - استناداً إلى ثرائهم وأصهارهم ذوى النفوذ - لتلبية نداء أونوريو Honorio الإمبراطور الشرعى للرومان، للوقوف إلى جانبه والحفاظ على ملكه. فقاوموا اندفاع الأعداء لفترة طويلة ومنعوهم من الدخول إلى إسبانيا عبر جبال البرانس. عندما رأى كونستانتينو مقدار مقاومة الأخوين، أرسل إليهم ابنه كونستانثيوConstancio، وهو راهب قد استعان به أبوه فى إدارة شئون المملكة، وبعث معه قبائل البيتيو- pitios(*) التى يُطلَق عليها فى مواضع أخرى

(*) نسبة إلى الإله أبوللو Apolo الذى يعتبر هازم الحية بيتون Piton. (المترجمة)

الأونوريون honoricianos؛ لأنها حاربت فى بريطانيا تحت لواء الإمبراطور أونوريو، الذى تمكن من اختراق جبال البرانس بقوة السلاح، يرافقه الفندال وأتباعهم الجرمانيون - وكانوا آنذاك مسيطرين على مقاطعة أكيتانيا بأسرها كما أسلفنا. ودخل إلى إسبانيا واختلف مع الأخوين ديندينو وبيرونيانو وهزمهم وأجهز عليهم، ثم دمّر سائر أراضى البالينتيين.

وهكذا أصبح الطريق مفتوحًا أمام هؤلاء الأشخاص ، فعبرت أعداد كبيرة من الفندال والجرمانيين إلى إسبانيا؛ وأعملوا فى أهلها من القتل والإهانة والفظائع ما لم تشهده عين أو تسمع به أذن من قبل. حيث نهبوا مدينة أستورغا Astorga، وحاصروا مدينة طليطلة Toledo ثم أبادوا الإقليم بأسره إزاء عدم استطاعتهم اختراقها. ثم اقتربوا من نهر تاخو Tejo حتى وصلوا إلى مدينة لشبونة Lisbonaوحاصروها، بيد أنهم لم يتوقفوا عندها طويلاً لأن أهلها دفعوا إليهم أموالاً طائلة لكى يتركوها ويقصدوا مناطق أخرى. وهكذا فإنهم مع ما أحرزوه من انتصارات فى إسبانيا وبمرور الوقت، استقروا فى هذه المقاطعات ليضحوا سادةً عليها ويقتسموها فيما بينهم. أما لوسيتانيا Lusitania وهى البرتغال Portugal فقد استوطنتها بعض القبائل الجرمانية/ السويبو، بينما كانت غاليثيا Galicia وميريدا Mérida من نصيب بقية القبائل الجرمانية / الدرواس؛ وظل الفندال فى بيتيكا حيث امتدت سيطرتهم لاحقًا حتى إفريقيا.

هذا هو ما يسوقه أوسوريو Osorio وما يرويه البابا بيّو Pío بإسهاب فى تلخيصه لتاريخ بلوندو دى فورلى Blondo de Forli. وقد منح أولئك الفندال اسمًا جديدًا لبيتيكا، حيث أطلق عليها فيما بعد بانداليا أو باندلوثيا نسبةً إليهم، وهى التسمية التى حرفناها الآن إلى أندلوثيا Andalucia . وقد أكثر الكتاب الأفارقة من ذكر الفندال، وهم يلقبوهم بـ نيندلوس nindeluz، وهو اللقب الذى يطلقونه على قاطنى بيتيكا، كما يشمل كل ما امتلكه الفندال فى إفريقية. ونحن نسوقه للعلم: حيث سيطروا على الأرض الموجودة بين جبل مورينا Morena حتى البحر المتوسط

وموريتانيا Mauritanias وتينخيتانا Tingitana وثيساريِنسى Cesariense، وجزءًا من أراضى نوميديا Nomidia وإفريقية Africa، وخاصةً ما يقع على مقربة من سواحل بحرنا.

قام الفندال بتدمير قرطاج Cartago، وذلك وفقًا لما ذكره الخوريّ (الجوهرى؟) Johori فى مؤلفه لوغا Loga، وكذلك محمد بن جوهر (جهور؟) Mahomete Aben Jouhor فى كتاب الجغرافيا Geográafica . على الرغم من أن كلمة نيندلوس أخذت فى الاندثار بين أهالى شمال إفريقية، فإنها ظلت محفوظة على الدوام فى إسبانيا، وأطلقت على كل من مسلمى ومسيحيى هذا الإقليم. لابد أن أذكر فى هذا المقام أن بعض الكتّاب العرب أطلقوا على الفندال - بغرض التحقير - نيندليث Nindelez، وهى لفظة مشتقة من ديليث Delez، وتعنى فى اللغة اللاتينية لدى العرب " شيء زائف لا يمكن الوثوق به"(٤)، وهكذا فهم ينسبون إليهم صفة الزيف. وإذا ما تدبرنا الأمر مليًا لوجدنا أن الجرائم والفظائع التى ارتكبها الفندال، وما أظهروه من قلة إيمان، وكثرة ما اقترفوه من شرور فى فرنسا وإسبانيا وإفريقيا، وعدم اكتراثهم بأى أمر مقدس أو إنسانى، قد حمل العرب الساخرين على منحهم ذاك اللقب الذى يحقرهم. وهم محقون فى ذلك بعض الشىء لأن الاختلاف بين التسميتين طفيف للغاية.

فيما بعد انتقل الفندال إلى إفريقية فى صحبة ملكهم خنسيريكو Genserico، وذلك لإغاثة بونيفاثيو Bonifacio فى حربه ضد سيسولفو Sisulfo؛ حينئذ قام القوط -الذين كانوا قد رفعوا ضده السلاح - باحتلال مقاطعة بيتيكا وبسطوا سيطرتهم عليها حتى مجىء العرب إلى إسبانيا وتدميرهم إياها؛ حيث رسخوا أساس إمبراطوريتهم وديانتهم فى قرطبة Córdoba، وجعلوا منها عاصمة بيتيكا أو فانداليا.

(٤) لا ندرى من أين جاء المؤلف بهذه المعلومة من ناحية أخرى فإن اللغة العربية لها أساليبها الخاصة فى التصغير والتحقير ، ومن ثم فليست هناك حاجة لاستعمال صيغ لاتينية . (المراجع)

ولكن إبان تدهور أحوال العرب فيها لاحقًا وتعدد ملوكهم وتضاؤل نفوذهم ، نظراً لقتالهم مع أربعة وأربعين ملكًا مسيحيًا على مدار سبعمائة وثلاثة وسبعين عامًا، فقد انتهى بهم المآل إلى خسارة المدن والقرى والقلاع التى سيطروا عليها شيئًا فشيئًا ليدفعهم المسيحيون فى اتجاه ساحل البحر، حيث تقع آخر بقعة من مقاطعة بيتيكا ألا وهى مملكة غرناطة. وقد أعلى من شأن هذه المدينة وعمّرها المسلمون الفارون من أسلحة الأمراء المسيحيين، فازدهرت مدينة غرناطة العظيمة ذائعة الصيت وأثرى ملكها وازداد رعاياه، وكثر عنده السلاح والذخائر؛ ومن هنا نبعت قدرته على الصمود لأزمنة طويلة. لقد منحت هذه المدينة النبيلة المملكة اسمها، ولكن لم يغير ذلك من تسمية أهلها بالأندلوثيين أو نيندلوس، شأنهم شأن غيرهم من بقية سكان بيتيكا أو أندلوثيا - وهو اللقب الذى يطلقه عليهم الأفارقة حتى الآن.

الفصل الثانى

يتعلق بوصف مملكة غرناطة، وكيف بسط الملك المسلم أبو الحسن نفوذه عليها إبان حكم الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيسابيل لقشتالة وليون.

تقع مملكة غرناطة فى آخر ركن من مقاطعة بيتيكا يطل على البحر المتوسط كما أسلفنا الذكر، وكانت آخر ما تبقى للمسلمين - أعداء عقيدتنا المقدسة - فى إسبانيا. وهى أول موقع احتله العرب فى بداية مجيئهم إلينا، وقد أطلقوا على هذه البقعة بلاد الأندلس وتعنى بلغتنا الإسبانية أرض الأندلوثيين؛ بيد أن بعض القدامى لقبوها بمقاطعة إلبيريا Iliberia نسبةً إلى إحدى المدن الشهيرة بها آنذاك، والتى سنفرد لها ذكرًا فى هذا الكتاب.

كانت حدود هذه المملكة عندما تولى الملكان الكاثوليكيان فيرناندو وإيسابيل عرش قشتالة وليون بمشيئة الرب، كانت على النحو التالى:

تبدأ غربًا من الحدود البحرية الشرقية لمدينة جبل طارق ، التى أسماها العرب جبل الفتوح Gibel fetoh وتعنى جبل مقدمة الانتصارات، بدءًا من المكان الذى يطلق عليه أهل تلك الأراضى حاليًا تريس بيدراس Tres Piedras(*)، وهى تمتد لمسافة طويلة على سواحل المتوسط وصولاً إلى مملكة مرسية شرقًا، وتحيط بها بحار إيركوليو Hercúleo والأيبيرى Iberio وجزء من ساردو Sardoo الذى يقع غرب البحر المتوسط.

(*) أى الأحجار الثلاثة . (المترجمة)

تتاخم المملكة من جهة الشمال مواقع أخرى من أندلوثيا بسط الملكان الكاثوليكيان سيطرتهما عليها فى أزمنة ومعارك مختلفة مثل قرى كاستيّار Castellar، وخيمينا Gimena، وإسبيرا Espera، والصخرة Zara، وتورى الحكيم Torre el Haquín(*)، وإولبيرا Olvera، وبيّا مارتين Villa Martîn، وكانيتى Cañete، وأرداليس Ardales، واستيبة Estepa، وبونتون دى دون غونثالو El Pontón de don Gonzalo، واللسانة Lucena، وقبرة Cabra، وباينا Baena، وروتى Rute، ولوكى Luque، ومارتوس Martos، وتورّيخيمينا Torrejimena. وهناك مدن مثل جيّان Jaén، ولاغوارديا la Guardia، وبيغالاخار Pegalajar، وتورّيس خيمينا Torres Jimena، وبيلمار Belmar، وخودار Jōdar، وكيسادا Quesada. وإذا تقدمنا للأمام سنجدها تجاور مشارف كاثورلا Cazorla، وسفح جبل سيغورا Segura الذى يصلها بمملكة مرسية.

ضمت مملكة غرناطة أنذاك كل ما يقع ضمن هذا النطاق، وكان يدخل تحت حكم الملك المسلم. وقد حوت مدنًا وقرى احتلها الملكان الكاثوليكيان وجعلوها خطوط دفاعهما الحدودية وهى: أنتقيرة Antequera، وقلعة يحصب Alcalá la Real، وأرشدونة Archidona وغيرها مما لا يدخل الآن فى إطار مملكة غرناطة وإنما فى الجزء الآخر من أندلوثيا. بيد أن كل القرى والقلاع التى لم تكن ضمن التقسيم القديم لمدينتى قرطبة وإشبيلية دخلت قديمًا فى حدود مقاطعة أو مملكة إلبيريا (غرناطة)، وذلك وفقًا لما ذكره ابن رشيد(٥) فى كتابه المعنون " حدود أراضى إسبانيا وقدوم العرب إليها واحتلالها" Departimiento de las tierras de España, y entrada y conquista que los alárabes hicieron en ella والذى ألفه فى قرطبة بتكليف من الخليفة فى دمشق.

(*) أى برج الحكيم . (المترجمة)

(٥) يذكر سيمونيت فى كتابه عن وصف غرناطة، صفحة ٣٢، أن المؤلف العربى الذى أخذ عنه مارمول ما يقول هو الرازى . (المراجع)

الآن لنعد لاستكمال وصفنا لملكة غرناطة، حيث يخترقها من الغرب إلى الشرق جبلان أحدهما أكبر وأكثر ارتفاعًا ووعورة من الآخر. يقع أكبرهما باتجاه البحر المتوسط حيث يبدأ على مقربة من مدينة جبل طارق وهو يكوّن منطقة رندة الجبلية ويمتد بين مدينتي مالقة Malaga وأنتقيرة، حيث يوجد المنخفض والجزء الشرقي من المدينة على الجانب الأيمن؛ ثم يعرج بين بلش والحامة Alhama. في هذا المحل ميناء يطلقون عليه صالحة Zalia أو Calha، نسبةً إلى قرية منيعة كانت توجد إلى جواره آنذاك من ناحية الشمال، تم إخلاؤها من قاطنيها بعد أن استولى الملكان الكاثوليكيان على تلك المملكة، وأسسوا فيها قلعةً أسفل الحصن القديم ، حيث اعتاد الجنود التمركز خلال أعوام طوال لتأمين ذاك المعبر. إلى وقتنا هذا يمكن مشاهدة جدران القلعة على يسار الطريق الفاصل بين بلش والحامة. ويتفرع من الجبل الأكبر سلسلة جبلية عند هذا الميناء باتجاه البحر يُطلَق عليها أراضي تيخيدا Tejeda، لكثرة ما بها من أشجار التيخو – وهي أشجار تتصف بالاستقامة وطول الجذع كأشجار السرو، وأخشابها تشبه الصنوبر، وتستخدم كاملةً دونما حاجة إلى نشرها حيث تُغطى بها المنازل، كما تدخل في العديد من الأمور الأخرى. إذا ما تتبعنا هذه السلسلة الجبلية نزولاً، حيث المناطق عالية الارتفاع وشديدة الوعورة، سنجد أنه يلاصقها من الجانب الأيمن جبل آخر أقل ارتفاعًا، وهو يسير بمحاذاتها وصولاً إلى البحر ويسمى جبل منتميس Bentomiz، نسبةً إلى قرية صغيرة كان قد أقامها فوقه العرب الأوائل الذين استعمروا إسبانيا وكذلك أحد أجيالهم اللاحقة كانوا يدعون بني طُمي Beni Tomi. وهم كانوا مقيمين أيضًا في إقليم الجزائر في شمال إفريقيا، وقد فرضوا سطوتهم على تلك المدينة لأعوام طويلة. وقد استوطن العرب العديد من المواقع على طول جبل منتميس، وتمتعوا برغد العيش لاشتغالهم بتجارة الحرير والزبيب والتين واللوز. وهناك أيضًا صخرة عالية شديدة الوعورة باتجاه البحر تسمى جبل فيخينيانا، نسبةً إلى مكان يقع على مقربة منها وسوف نفرد له الذكر لاحقًا عندما نتناول الحملة التي شنها عليه السيد لويس دي ريكيسينيس، القائد العام لقشتالة. إذا ما عدنا أدراجنا إلى ميناء ثاها (صها؟) Zaha سنجد في أعلى الجبل مرجًا جميلا من الأعشاب وغابات أشجار

الصنوبر أسماه العرب فحص الرعاية Hesfaaraaya ويعنى حقل الرعاة، وأطلق عليه أبناء جلدتنا سافارّايا .Safarraya. ما زال الجبل الأكبر يتابع امتداده تاركًا على يمينه مدينة ألمنكب Almuñécar على ساحل البحر وعلى يساره مدينة الحامة. كما أنه ينبثق منه جبل آخر أعلى مواقع غواخاراس Guájaras لا يقل وعورة وقسوة عن جبل فيخيانا Fixiana أو فيخينيانا Fexiniana؛ الذى كان مسرحًا لمعركةٌ لا تُنْسَى فى تلك الحرب. تحتل القوات البحرية هذا الموقع على ساحل البحر القرية والقلعة المنيعة المسماة شلوبانية Salobreña، وبعدها يصل الجبل إلى وادى ليكرين L.ecrín على يسار الوادى ذاته تقع غوطة غرناطة الفسيحة والخصبة، وعلى الجهة اليمنى توجد قرية موتريل Motril وأراضيها. ثم يعاود الجبل الارتفاع والعلو مواصلاً سيره باتجاه الشرق حيث نجد فى الجنوب جبال لانخارون Lanjarón وطاعة أورخيبا Órgiba، وفى الشمال مدينة غرناطة الشهيرة والعظيمة. انطلاقًا من هذه النقطة يُطْلَق على الجبل سيرا نيبادا " Sierra Nevada الجبل الجليدى" نظرًا لما يكسوه من ثلج على الدوام، وقد أسماه القدامى أوروسبيدا Orospeda وأطلق عليه العرب جبل شُلَيْر Xo-lair؛ تقع البشرات فى جانب الجبل الكائن باتجاه البحر، ويسميها ابن رشيد(٦) Aben Raxid أرض السيرغو tierras de Sirgo لكثرة الاشتغال فيها بتجارة الحرير. لقّب العرب هذه الأراضى الفاجرة Abujarra، وتعنى العربيدة أو الفاسقة(٧)؛ لأنه فى أعقاب

---

(٦) لعله يقصد ابن رشيد القيروانى (٣٩٠ - هـ ٤٥٦) صاحب كتاب العمدة، وصاحب البيتين الشهيرين:

مما يزهدنى فى أرض أندلس | أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها | كالهر يحكى انتفاخًا صورة الأسد

لابن رشيد مؤلفات منها "معالم التاريخ" و "ميزان العمل فى تاريخ الدول". (المراجع)

(٧) هناك أقوال متضاربة حول أصل تسمية البشرات، منها ما يقوله ميغيل دى لونا، وهو موريسكى قريب من الفترة الزمنية ومن الموقع الجغرافى، إن الاسم يعود إلى "إبراهيم أبو شرة"، (انظر ترجمتنا لكتاب كارو باروخا "مسلمو مملكة غرناطة" ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، ٢٠٠٣) كان من الشائع أنذاك أن تنسب مدينة إلى مؤسسها . (المراجع)

استعمار العرب لإسبانيا - استناداً إلى ما سطّره كتابهم - قاتلهم المسيحيون عدة مرات على هذه الجبال الوعرة، وكلما بسط العرب سيطرتهم عليهم كانوا يشترطون أن يُتركوا على ديانتنا، بيد أنهم أخذوا فى الابتعاد عنها شيئًا فشيئًا، والدخول فى شعائر وطقوس عقيدة الغزاة. وقد دام اعتزازهم بصلابتهم وعدم إمكانية هزيمتهم فى جبالهم إلى وقتنا هذا.

يقول ابن رشيد، مبالغًا فى مقدار قوة إسبانيا: "هذه البلاد تحوطها ثلاثة أسوار منيعة حبتها إياها الطبيعة لحماية أهلها والدفاع عنهم. إلى الجنوب توجد جبال سيرغو شديدة الوعورة - والتى ظلت فى أيدى المسيحيين لفترة طويلة. وفى الشرق هناك جبال البرانس؛ وفى الشمال جبال أخرى لجأ إليها قاطنو الأرض هروبًا من نفوذ الرومان والقوط والعرب". إلى هنا ينتهى حديث ابن راشد.

على بعد تسعة فراسخ(*) إلى الجنوب من غرناطة، وفى السهول المنبسطة على سفح جبل شلير، توجد مدينة وادى آش Guadix فى الجزء الشمالى، تليها مدينة بسطة Baza على مسافة ثمانية فراسخ - فى الموضع الذى يُشكّل فيه الجبل الكبير واديًا يسمى وادى نهر المنصورة Almanzora، إذ يقطعه نهر يحمل الاسم عينه. وعلى الجانب الأيمن تقع مدينة ألمرية، التى نافست غرناطة لبعض الوقت فى الثروات وتعداد السكان. ينبع من الجبل الأكبر عدة أفرع تصب فى البحر، وتحمل أسماء المدن التى تعبر خلالها مثل غادور Gádor وفيلابريس Filabres وغيرهما الكثير. على الرغم من فقدان الجبل الرئيس لعلوه عند نهر المنصورة، فهو يعاود ارتفاعه ومسيرته - ولكن يقل طوله. بعد أن يغادر مدينتى بيرا Vera وموخاكار Mojácar الكائنتين على الساحل يشرع فى التوغل داخل مملكة مرسية، وهو الموضع الذى سنتركه فيه لأن استكمال الوصف لن يضيف جديداً إلى ما نرمى إليه فى كتابنا هذا.

(*) الفرسخ هو مقياس طول يعادل ثلاثة أميال، أو ما يوازى ٥٥٥٥ متر و ٥٥ سنتيمتر. (المترجمة)

كل هذه الجبال التى تحدثنا عنها، وما ينبثق عنه من جبال أخرى، تتميز جميعها بشدة الوعورة. غالبية أحضان هذه الجبال وسفوحها آهلة بالسكان - الذين يمتلكون أراضى شاسعة شديدة الخصوبة ووفرة فى الأعشاب لتربية الماشية، خاصةً فى السهول المنخفضة بين أجزاء الجبل الأكبر المرتفعة؛ والتى ينبع منها العديد من عيون الماء البارد، الذى يسيل فى الأودية والشقوق، وتمتلئ ضفافها بالأشجار الكثيفة من كل صنف ونوع. وهى تنقسم فيما بعد إلى أنهار مختلفة، يجرى بعضها نحو البحر ويسيل الآخر باتجاه الشمال. كَثُرَت لدى المسلمين وانتشرت فى جميع أنحاء المناطق العامرة أناس أثرت من تجارة الماشية وإنتاج الحرير، وهما مصدرا الرزق الرئيسان فى تلك الأراضى.

يقع الجبل الأصغر فى الشمال متاخماً لما نسميه الآن أندلوثيا. إنه جبل إيورة Illora الذى لقبه العرب بارباندارا Barbandara، ولا تمتاز تضاريسه بالوعورة الشديدة كسابقه الذى أسلفنا ذكره. ويوجد به العديد من القرى والقلاع الحصينة التى استخدمها ملوك غرناطة لفترات طويلة فى التصدى للمسيحيين؛ وأرضها مناسبة جداً للزراعة، حيث تُنْتَج فيها كميات وفيرة من القمح؛ وذلك لأنها تتشقق عدة مرات، مكونةً أودية وربوات ومنخفضات يمكن زراعتها كلها بالمحراث. وهكذا يواصل الجبل مسيرته فى نفس مواضع الجبل الأكبر - من الغرب إلى الشرق - ولكن بأسماء مختلفة، ليكتمل إعمار ما يحويه من قرى وقلاع. بين هذين الجبلين تتواجد أصول النبلاء فى مملكة غرناطة وذلك فى مدن رندة، وأنتقيرة ، والحامة ، ولوشة، وغرناطة، ووادى آش، وبسطة؛ وعلى ساحل البحر هناك مدن ساحلية أخرى مثل مربلة Marbella، ومالقة، وبلش، وألمنكب، وألمرية، وموخاكار، وبيرة، وهى كلها مسقط رأسٍ العديد من الفرسان والنبلاء الذين تعود أصولهم إلى الغزاة؛ وقد أجزل الملكان الكاثوليكيان لهم العطاء نظير ما أدوه من خدمات. تتضمن هذه المملكة ثلاثة بلدان أخرى تحمل أسماء مدن هى: أوخيخار Ugijar، وكوبدا Cobda فى البشرات، وبورشينا Purchena فى وادى نهر المنصورة - وهى أقل من سابقتيها فى تعداد السكان. هذا بوجه عام ما يمكننا قوله عن مملكة غرناطة؛ فيما بعد سنعود من جديد إلى الوصف بتحديد أكثر للأماكن التى سنتطرق إليها فى غمار الأحداث.

الفصل الثالث

ويتناول مدينة إلبيريا القديمة التى كانت موجودة فى مملكة غرناطة.

تقع مدينة إلبيريا القديمة، التى أشار إليها بعض الكتاب القدامى – كما سنقص عليكم لاحقًا – فى مقاطعة بيتيكا. يتحدث ابن رشيد عن هذه المقاطعة – فى كتابه الذى أخبرنا أنه قد ألفه فى قرطبة – ويوردها على النحو التالى: "إلبيريا غير أن البعض يقرؤونها إيليبيريا بتشديد كسر الألف فى اللغة العربية، فكثيراً ما يُقْرَأ حرف e على أنه i، وحرف o على أنه u؛ نظراً للاختلاف الطفيف بينها فى الخصائص والمواضع التى ترد فيها؛ كما هو الحال أيضًا فى العبرية التى تفرق بين حروف العلة بوضع نقطة أو اثنتين فى المكان نفسه وحسب). وأخيراً فان ابن رشيد يقول: "إلبيريا مدينة جميلة تتميز بالثراء، لغزارة إنتاجها من الحرير الذى يخرج منها إلى سائر أنحاء إسبانيا. ويفصلها عن قرطبة ستون ألف قدم باتجاه الجنوب، وتبعد ستة آلاف قدم إلى الشمال من جبل إيلادا[٨] Helada؛ ويدخل ضمن إطارها القلاع التالية: جيّان وبياسة – حيث يُشْغَل السجاد الفاخر – ولوشة وألمرية وغرناطة – التى أطلق عليها قديمًا مدينة اليهود لأن سكانها كانوا من اليهود، وهى أقدم بلدان إلبيريا. ويعبر فى منتصفها نهر سالون Salón الذى ينبع من جبل الريان[٩] Arrayán، وتتخلل رماله

(٨) ربما يقصد جبل الثلج أو جبل شلّير او سيرا نيبادا. (المراجع)

(٩) اللفظ ينطق "الريحان" أيضًا. (المراجع)

ذرات من الذهب الخالص. وينضم إليه لاحقًا نهر يفوقه حجمًا ويدعى سينخيلو Singilo وينبع من جبل الثلج. فى تلك الناحية توجد قلعة غزالة Gacela، والتى لن يعثر المرء على مكان يشبه مدينة دمشق Damasco في بهائها وأبهتها سواها. وتحتوى أركانها على أحجار نفيسة من الرخام بيضاء وسوداء وأخرى تشوبها ألوان مختلفة." هنا ينتهى كلام ابن رشيد. وهو ما نستنبط منه أن اسم غزالة كان قد أُطلِق فى وقت ما على القصبات القديمة فى مدينة غرناطة، والتى سكنها العرب دونما شك، وكانت أول ما أسسوه فى هذه المدينة – التى سنذكر لاحقًا أننا اكتشفنا أنها قد سُمِّيت أيضًا بحصن الرمّان[١٠] .Hizna Román . تلك الأسباب تدفعنا لأن ندرك جيدًا أن مدينة إلبيريا القديمة كانت بالقرب من ضفاف نهر كوبيلا Cubila الذى يجرى عند سفح الجبل الذى يسميه المحدثون جبل إلبيرا Elvira، وذلك من جهة الشمال حيث رأينا العديد من آثار وبقايا مبانى بالغة القدم. وقد أنهك سكان البقاع المجاورة أنفسهم فى البحث دون جدوى، ظنًا منهم فى وجود كنوز، وقد عثروا هناك بالفعل على ميداليات قديمة للغاية تعود إلى عصر الوثنيين. أكثر ما يدلل على صحة هذا الأمر أن المسافة من ذاك المكان إلى قرطبة وجبل الثلج هى عينها التى أوردها ابن رشيد[١١].

وأخيرًا فقد كانت إلبيريا مدينة عامرة بالسكان، وهى رأس الأسقفية. وكان القديس سيسيليو San Cecilio هو أسقف الكنيسة الأولى لها؛ وتحتفل اليوم كاتدرائية مدينة غرناطة بعيده. ويُرجع عقد المجمع الدينى الإلبيرى الذى يرأسه بومبونيو ميلا Pomponio Mela فى هذه المدينة عنه فى بلدة إيبيريا Iberia الكائنة بمدينة قطالونية، والتى تسمى حاليًا كوليبرى Colibre. من يسمون هذه المدينة إيليبريا Eliberia يقولون إن أساسها وضعته إيليبريا Eliberia ابنة إسبان Ispan،

(١٠) الجدير بالذكر إن لفظ "غرانادا" فى الإسبانية معناه "الرمانة" (المراجع)

(١١) يستند المؤلف إلى دقة وصف ابن رشيد للأماكن لكى يصدق روايته. (المراجع)

وإنها أطلقت عليها اسمها؛ وهو ما لا أعارضه للسهولة التى يمكن بها استبدال ذلك الحرف الأول خلال تلك القرون الطويلة. إضافةً إلى أننا لو وضعنا فى اعتبارنا أسماء المدن التى ازدهرت آنذاك فى إسبانيا، والتى زودنا بها تيتو ليفيو وغيره من الكتّاب القدامى، لوجدنا معظمها يبدأ بحرف "إى" وهو أول حرف فى اسم إسبان الذى عَمَّر هذه البقعة؛ كما هو الحال مع إليتورخى Iliturgi، إليردة Ilerda، إليخيتا Ile-gita، إليبا Ilipa، إلوثيا Ilucia، إيبيرة Ibera وغيرها الكثير. وكذلك فإن أسماء مدن إفريقية الرئيسة تبدأ جميعها بحرف "تى" T. وما برح العديد منها يحتفظ بتسميته القديمة مثل تافتانا Taftana، تاكوليت Taculet، تاغاوست Tagaost، تارودانت Tarodant، تاثاروت Tazarot، تاماروكس Tamarrocx وغيرها الكثير. هذا ويُطْلَق على اللغة الإفريقية القديمة تامازيغت Tamazegt. ويسميها المسلمون "لسان النبلاء" فى اللغة العربية ويطلقون عليها كَلام أماريك (أمازيغ؟) quelem amaric على أساس أن التاء T صفة، لأنه الحرف الأول من اسم أول من عَمَّر أرضهم وهو توت Tut حفيد نوح.

نعود إلى الحديث عن إلبيريا، فنقول إن ذلك الكاتب العربى ذكر أن الوثنيين – الذين يسمونهم بالجاهليين Gehela – قد دمروا تلك المدينة قبل احتلال العرب لإسبانيا؛ وأن الفندال قد رفعوا من قدرها وكانت مدينة مزدهرة فى عصرهم. وقد فرض العرب سطوتهم عليها بقوة السلاح، فخربوها ودمروا جزءًا كبيرًا منها. وأخيرًا كانوا هم من أبادوها عن بكرة أبيها، عندما نقلوا من بقى من سكانها إلى مدينة غرناطة – التى سيرد ذكرها لاحقًا – لكننا فقط ننبه القارئ إلى أن إلبيرة هو اسم محرف بلسان العوام من أبناء جلدتنا. حيث أطلق العرب على الجبل الذى يحوى مدينة إلبيريا تلك جبل البيرة Gebel Elbeira(*)، وتعنى التسمية جبل غير ذى نفع أو قليل

(*) لفظ مشتق من البوار، وذلك للسبب المذكور آنفًا. (المترجمة)

الثمر؛ لأنه يفتقر إلى الماء والحطب وحتى العشب. وقد لقَّبه آخرون بجبل الأمراء؛ لأنه فى أحد جوانبه الكائنة على مقربة من مكان يسمى الطُّرفى Atarfe، أقام كل من الأمير خوان Juan وابن أخيه - الأمير بدرو Pedro حفيد الملك ألفونسو الحكيم Alonso el Sabio - معسكرهما، وقد هزمهما أودريلان Odrilán أو عثمان[١٢] - Hozmín قائد جيش اسماعيل Ismael ملك غرناطة؛ وأوقعهما فى فخ وأجهز عليهما فى عام ١٣٢٠ من ميلاد المسيح.

فى أعقاب إخلاء إلبيريا من سكانها، لم يبق قائمًا فيها سوى القلعة وكذا بعض الأحياء على ضفة النهر، وقد منح المسلمون حيازتها إلى أقربائهم أومن ذوى الاعتبار. وقد عرض علينا موريسكى، كان حاضرًا فى غرناطة عام ١٥٧١، وثيقتين لتنصيب حاكم تلك القلعة - ترجع ملكيتها إلى أجداده. وهما مكتوبتان على ورق سميك يشبه ورق القش، تم صقله جيدًا وألوانه لامعة وعليه حروف كبيرة من الذهب. ولقد استمتعنا حقًا برؤيتهما، وبالأسلوب الذى اتبعه أولئك الملوك عند منحهم للامتيازات. ظل هذا الحصن قائمًا على مدى أزمنة طوال حتى هدمه الملكان الكاثوليكيان أثناء توغلهما فى الغوطة. ما زال ممكنًا رؤية حيين هناك إلى جوار الجسر، يطلق عليهما بينوس دى لابوينتى[*] Pinos de la Puente.

---

(١٢) هو أبو سعيد عثمان بن العلاء شيخ الغزاة على عهد السلطان أبى الوليد اسماعيل الذى انتصر على قوات قشتالة التى كانت تدعمها فرقة من المتطوعة الإنجليز، عند هضبة إلبيرة، وقد قتل فى المعركة دون بطره والدون خوان الوصيان على عرش ألفونس الحادى عشر. انظر محمد عبد الله عنان "دولة الإسلام فى الأندلس" الجزء السابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١، ص. ١١٨، نقلا عن ابن الخطيب فى الإحاطة والمقرى فى نفح الطيب وابن خلدون (المراجع)

(*) تعنى باللغة العربية أشجار صنوبر الجسر. (المترجمة)

الفصل الرابع

يوضح موقع قرية اليهود التى ذكرها ابن رشيد.

وفقًا لما ساقه ابن رشيد، فان قرية اليهود كانت جزءًا من مدينة غرناطة، التى تقع فى السهل بين النهرين المشار إليهما، -وكان الأهالى يطلقون على سالون Salón حدرّة Darro وعلى سينخيلو Singilo شنيل Genil- وذلك من إبراشية الكنيسة الكبرى Iglesia Mayor حتى كنيسة القديس ماتيًا Santo Matía، حيث توجد أساسات صروح ضاربة فى القدم. ويبدو أن الحصن قد احتل الموقع الذى تشغله حاليًا الأبراج الحمراء Bermejas، حيث أنبأنا أهل المنطقة إن السور المنحدر من هذه الأبراج، وهو متهدم ومحطم فى عدة مواضع، هو أقدم بناء فى تلك المدينة. أما بقية ما كان يحيط بالقرية فلابد وأنه قد أخذ فى التلاشى مع تزايد أعداد السكان. بمقتضى ذلك تضحى احتمالية ما ساقه الكاتب المعاصر المحب للاستطلاع غاريباى Garibay فى مُؤَلَّفه تلخيص التاريخ Compendio historial قائمًا، حيث ذكر أن غرناطة كانت تسمى غارناط Garnat، وتعنى بالعبرية المهاجرة؛ لأنها عُمِّرَت على يد اليهود الذين أمّوا إسبانيا فى شتاتهم الثانى من أورشليم. وفى هذا الصدد أرى أنه لزامًا أن يكون هؤلاء هم أهل نبوخذ نصر Nabucodonsor الذين جاءوا منذ سنوات طوال، ويرجع أصلهم إلى تيرو Tiro وسيدون Sidón فى فينيقية Fenicia وكانوا يُلَقَّبون بالماوروس ماوروفوروس Mauros mauroforos (*) . وقد استوطنوا هذه السواحل؛ وفى شواطئ

(*) أهالى موريتانيا القديمة. (المترجمة)

إفريقية سكنوا فى مدن ليبيا الفينيقية، ومنهم استمدت الموريتانيتان اسمى - تينخيلانيا Tingilania وثيساريتسى Cesariense. من الجائز أن تكون مدينة إيليبا Illlipa لقديمة قد أُسست على المرتفعات التى تكسو غرناطة التى أشار إليها تيتو ليفيو فى مُؤلَفه Quinto Ebro de la cuarta decada، عندما ذكر أن بوبليو كورنيلو استيبيون Publio Cornelio Escipión نائب القنصل الرومانى انتصر بالقرب منها على البرتغاليين الذين شرعوا فى سرقة خيرات هذه الأراضى، وأردى خمسة آلاف رجل منهم صرعى، واسترد ما كان فى حوزتهم من غنائم. وعندما بلغ مدينة إيليبا وضع الغنائم التى استردها أمام أبوابها ليتعرف أصحابها على ما سُرِقَ منهم، ثم قام برده إليهم. بموجب هذا يتعين أن يكون اليهود قد استوطنوا ما بين النهرين، وليس المرتفعات التى أَذِنَ فيها الرب بتدمير تلك المدينة وغيرها الكثير من مدن هذه المملكة.

لم أتبين معلومات أكثر وضوحًا حول قرية اليهود تلك بخلاف ما أشرت إليه. أما ما يتعلق بالبلدان التى أقامها العرب والمسلمون فى مدينة غرناطة، وزمن نشأتها، والداعى إليها، وأسماء حصونها وأحيائها، وكيفية تنامى حجمها وعلو شأنها، فسوف نسوقه ونحن متثبتون منه وموقنون؛ لأننا سعينا إلى معرفته، واكتسبناه خلال روايات لقدامى الموريسكيين، وكذا باللجوء إلى كتابات عربية وشواهد منحوتة فى صخور قديمة، شاهدناها فى أنقاض المبانى العظيمة بتلك المدينة.

الفصل الخامس V

يتناول هو وما يليه من فصول وصف مدينة غرناطة وتأسيسها

إن الموقع الذى تشغله مدينة غرناطة على وضعه الحالى رائع، ويفوق فى قوة تحصينه ما يتضح لمن يتأمله من الخارج؛ لأنها كائنة فى عدد من الربوات شاهقة الارتفاع – كانت تشغلها فى نظرى مدينة إيليبا القديمة – وهى تنبثق من مرتفعات أخرى أكبر حجمًا تطوّقها من ناحيتى الشرق والشمال. حيث تقع فى الأودية الموجودة بينها، وهى تمتد لمسافات شاسعة على سهل فسيح باتجاه الغرب، به غوطة منبسطة مربعة الشكل رائعة الجمال، تغص بالكثير من الغابات الوارفة والنباتات النضرة. حيث تتخللها كثير من القرى التى يسكنها أصحاب الحرف والمشتغلون بالزراعة، ويمكن مشاهدتها بالكامل من منازل المدينة.

خلف هذه الربوات يبزغ أحد الجبال من نهر المياه البيضاء Aguas Blancas، ويعرج بينها وبين غويخار Guéjar ثم يتجه نحو الشمال، ولكنه يتسمى بأسماء مختلفة. فيطلقون عليه فى بدايته جبل غويتى دى سانتيّانا Güete de Santillana، ثم جبل البيّازين، وفى نهايته كوغويّوس Cogollos وحصن اللوز Hiznaleuz. بحيث تكون المدينة محاطة من تلك الناحية بجبال حادة شديدة الوعورة تمتلئ بشقوق عديدة، ومن ناحية الجنوب بالجبل الأكبر والبشرات. لم يتسن للملوك المسيحيين محاصرتها قط سوى من ناحية الغوطة – التى لم يفرضوا سطوتهم عليها أكثر من مرة إلا بغرض قطع الأشجار والقضاء على زراعة القمح وكذا الغابات الكثيفة التى كانت قائمةً بها، وحتى يعرّضوا قاطنيها للمجاعة. كانت تلك المدينة على عهد المسلمين محاطة بأسوار

وبروج، بُنيَت بقوالب الطوب وخليط من الجير والرمل، بها اثنتا عشرة بوابة توجد وسط قلاع تزخر بالأبواب والحوائط الحديدية. كلها مزدوجة ومجهزة بالصفائح الحديدية، ومحاطة بالخنادق والحفر من الخارج. ويسكن بداخلها، وفى المناطق الجبلية المتاخمة لها، أعدادٌ هائلةٌ من الجند، جعلتنا محقين فى إدراجها ضمن أقوى المدن وأمنعها، بيد أنه لاحقًا تناقص مقدار الاعتناء بتحصينها وظل الأمر هكذا لأن الغزاة قد تمتعوا بالعيش فى عصر ذهبى للسلام.

أول ما بُنِى فى تلك المدينة الشهيرة – كما أسلفنا فى الفصل السابق – كان ما أطلق عليه رشيد قرية[١٣] اليهود، والتى لابد وأنها كانت تقع إلى جوار إيلبيا القديمة، كما ذكّرنا فيما سبق. بعد ذلك عندما سيطر طارق بن زياد[١٤] Tarique Aben Zara على إسبانيا، شرع نفر من العرب الذين قدموا بصحبته من دمشق فى بناء قلعة قوية على مقربة من الدلتا، وذلك فوق ربوة تقع حاليًا داخل المدينة تدعى ربوة القصبة القديمة Alcazaba. وقد أطلقوا على تلك القلعة حصن الرمان Hizna Romeán وتعنى قلعة الرمّان، فلابد أنه كانت هناك أشجار رمّان استقوا منها تلك التسمية. يشهد على ذلك الكتابات والوثائق القديمة التى عثرنا عليها فى تلك المدينة، وهى تخص ممتلكات كائنة فى نطاقها. على الرغم من أن القلعة أضحت مفككة ومهدمة من جهة المدينة – وهو ما يُعْزَى إلى عدد المنازل المأهولة الذى تزايد باضطراد، فان ما يقع منها خارج المدينة ما برحت أسواره قائمة، ويطلق المسلمون عليها القصبة القديمة Alcazaba cádima.. كما أن أحد الموريسكيين قد أطلعنا على حروف عربية مكتوبة على أحد قوالب الطوب المكونة لهذا الجدار القديم[١٥] ، ويبدو أنها قد حُفِرَت بقطعة حديد

(١٣) ربما يقصد حى اليهود، فمبلغ علمنا أن اليهود لم يكونوا يسكنون قرى منفصلة (المراجع)

(١٤) واضح عدم مطابقة الحروف الإسبانية للاسم العربى. هذا ما يصعب التحقق من أسماء شخصيات أقل شهرة (المراجع)

(١٥) لابد أن ذلك حدث منذ فترة طويلة، فقد حظرت السلطات التحدث باللغة العربية والكتابة بها، ومن ثم كان مجرد العلم بها يجعل الشخص موضع ارتياب (المراجع)

أو بعصا مدببة، حين كان خليط الرمل والجير والماء لا يزال لينًا لم يشتد بعد؛ بينما كانوا هم آنذاك يكسونه بالطوب. وهى تُظْهِر كلمات من القرآن لتدلل على إنشائها فى عصر أول من وصل من المسلمين وليس قبل ذلك. وقد شَهِدَ لنا الرجل عينه أنه قد مر عليه أربعون عامًا، منذ أن شاهد أحرفًا عربيةً منحوتةً على صخرةٍ قديمةٍ كانت تغطى فتحة الجب الخاص بكنيسة القديس خوسيبى San Jusepe، تشرح كيفيةَ حفر أهالى حصن الرمّان لذاك البئر من نقود الصدقات، وذلك لخدمة المرابطين فى ذلك المسجد؛ لأنه فى موقع هذه الكنيسة وتحت برجها القديم كان يوجد هناك رباط يسمى مسجد المرابطين Mezquit el Morabitín، وكان من أول ما أسسه العرب فى تلك الأرض – وموقعه خارج أسوار حصن الرمّان بعيداً عن نهر حدرّة، فى منتصف أحد جوانب الربوة– ونظراً للمشقة التى لاقاها المرابطون فى النزول حتى النهر للتزود بالمياه؛ لذا فقد اتفق الأهالى على إمدادهم بذاك البئر. وكان دييغو فوستيرو Diego Fustero رئيس خُدّام تلك الكنيسة قد أزال الصخرة ليبنى مأوى له فوق الجب ذاته.

وقد أخبرنا آخرون أن أحد كبار الموريسكيين يدعى الثغرى Zegrí كان قد أمر بنزع سائر اللافتات المكتوبة باللغة العربية فى البيازين والقصبة، وأنه قد أزال ذاك الحجر مع غيره، وذلك بمناسبة زيارة الإمبراطور كارلوس لمدينة غرناطة فى عام ١٥٢٦. تكفى تلك المقولة للدلالة على أن تلك القصبة كانت تُسَمى حصن الرمّان. وقد نما تعداد سكانها لتمتد باتجاه النهر، وفى سنة ١٠٠٦ من ميلاد المسيح كانت قد أُقيمت قصبة جديدة بين القصبة القديمة والنهر، ضمت ما يربو على أربعمائة منزل وكانت تدعى القصبة الجديدة Alcazaba Gidid. يُقَال إن أساس هذه البلدة الثانية كان قد وضعه أحد الأفارقة المنتمين إلى جبل بلش فى غمارة Gomera واسمه باديس بن حابوس Bedicí Aben Habuz، وقد أطلق عليها غزالة؛ وهو اسم أحد الحيوانات الموجودة فى إفريقية يتميز بتناسق أجزائه ورشاقته الفائقة، وهو دائمًا يسير فى حذر، ولا يشعر بالطمأنينة سوى فى قمم الجبال والمناطق العالية، التى يستكشف منها ما أمامه من أراضٍ ويفرض سيادته عليها، ويسميه الأفارقة غزال. هذا الرجل المحارب قد علمته خبرته حتمية توخى الحذر على الدوام لمن يرغب فى البقاء فى هذه الأراضى.

يضم إطار القصبة الجديدة ثلاثة أحياء، يبدو أن كلاً منها كان مسوراً على حدةً في أزمنة مختلفة، كما يحيط بها جميعًا سور رئيس. أولها وأكثرها ارتفاعًا موجود بجانب القصبة القديمة، في دائرة القديس ميغيل San Miguel، وتوجد به قصور باديس بن حبوس – عند بيت الديك – حيث يُشَاهَد برج صغير يعلوه فارس يرتدى الثياب المورسكية، ويمتطى فرسًا أصيلاً حاملاً حربةً طويلةً، وشاهراً درعًا في يده. التمثال بأكمله من البرونز وهناك لافتة بعرض الدرع كُتِبَ عليها Calet el Bedicî Aben Habuz guidate habez Lindibuz ومعناها :" قال باديس بن حابوس أن هكذا تكون الأندلس". بما أن أية حركة طفيفة في الهواء كانت تدفع الفرس لإدارة وجهه، فقد سماه الموريسكيون "ديك الريح"؛ أما المسيحيون فيلقبون ذاك البيت "بيت الديك". أما الحى الثانى فهو حى دائرة القديس يوسف San Josef كانت تتم فيه المقاولات والتعاقدات الكبرى، حيث صار يجمع مسجد المرابطين وكذا منازل التجار وأصحاب الحوانيت. ثالثها هو حى دائرة القديس خوان دى لوس رييس San Juan de los Reyes، وهى كنيسة أنشأها الملكان الكاثوليكيان فى محل مسجد كان المسلمون يدعونه مسجد التائبين mozchit el Teibin - والتسمية تعنى المسجد الخاص بمن دخلوا فى الإسلام[١٦]، وقد أطلقوا على الحى اسم كاوراتشة Cauracha، نسبةً إلى مغارة كائنة به كانت تبعد مسافة كبيرة تحت سطح الأرض، وكَوْرَة Caura باللغة العربية تعنى كهف. من هنا ألف البعض أسطورة مفادها أن سيدة تدعى ناطة Nata كانت تخبئ الخبز فى تلك المغارة – وهو المصدر الذى اشتُق منه اسم غرناطة؛ لأن غار gar معناها كهف أو شىء عميق. بمرور الزمن اتسعت بلدة القصبة الجديدة حتى بلغت نهر حدرّة نفسه، حيث أُقيم حى آخر جذاب وممتع للغاية يطلق عليه "الشجر"[١٧].

(١٦) المتتبع لترجمات مارمول للأسماء العربية يدرك إنه لم يكن ملمًا بلغة الضاد، وهذا سبب إضافى يجعل روايته محل نظر. (المراجع).

(١٧) يرى سيمونيت (فى "وصف غرناطة") أن الاسم تحريف للفظ Xacharia أى شجيرات أو مكان به شجر. (المراجع).

Haxariz وتعنى التسمية للهو والتسلية، وقد اشتهر كثيراً فى قصائد الشعراء العرب، لما حواه من نافورات وبساتين وأشجار صغيرة داخل منازل قاطنيه الوجهاء. وهو يبدأ من حى القديس خوان دى لوس رييس ليمتد حتى نهر حدرّة - حيث توجد خورنية القديس بدرو San Pedro والقديس بابلو San Pablo - وينتهى عند دير عذراء النصر الذى يقع داخل نطاقه.

الفصل السادس VI

يستكمل وصف مدينة غرناطة وتأسيسها

كل هذه البلدان أحاط بها في زمن لاحق سور واحد، من الممكن رؤية بقاياه وآثاره في مواضع شتى بين مساكن المواطنين. من الخارج لا يزال السور الذي يصل باب وادي آش في أعلى الربوة نزولاً إلى باب إلبيرا قائماً. ود البعض الزعم أن إحاطة كل حي بسور على حدة، ودخولهم جميعاً تحت إطار سور رئيس - وهي الطريقة التي يوضع عليها القشر داخل الرمانة - وكون موقع القصبة القديمة على رأس الربوة، أدى إلى تسمية المدينة غرناطة. وهو أمر لا أقره أو أنفيه، رغم أنه يستحضر تشابه تكوين المدينة مع اسمها(١٨).

هذا وقد أُسس حي آخر أسفل بيت الديك وخارج أسوار القصبة على هيئة ضاحية سُمِيَت زناتي Cenete سكنها جيل من المسلمين الأفارقة يلقبون ببني زناتة Beni Ceneta قصدوا إسبانيا ليعملوا مرتزقة في الحروب، وقد استعان بهم الملوك المسلمون كحراس لحماية ذويهم، ومنحوهم تلك البقعة لكي يقطنوها، انطلاقاً من رغبتهم في الاحتفاظ بهم على مقربة منهم - حيث تواجدت قصورهم عند بيت الديك. وهو مكان وعر، يمتد نزولاً على أحد جوانب الجبل حتى يصل إلى المنطقة المنبسطة. بعد ذلك هجر سكان إلبيريا المدينة نتيجةً للأضرار التي ألحقها القرطبيون بالذين ظلوا

---

(١٨) يشير مارمول إلى أن كلمة غرناطة - ونطقها بالإسبانية غرانادا التي تعني كلمة رمانة في اللغة العربية - ربما استوحت اسمها من أن تكوينها شبيه الشكل بالرمانة. (المراجع)

مكانهم، أو رغبةً فى تحسين أحوالهم بالانتقال إلى المدينة الجديدة، التى ازدهرت وأخذت فى النمو يومًا تلو الآخر. وكان جل ما فيها قريب الشبه للغاية من مدينة فاس التى أُنشئت قبل سنوات قلائل فى تنخيتانيا الموريتانية ، وأعلى شأنها الأدارسة - كما ذكرنا من قبل فى كتابنا عن إفريقيا[١٩] ، وقد استوطن الأشخاص النازحون منها ذلك السهل الذى يقع أسفل زناتة والجزء الكائن من الغوطة حتى الميدان الجديد plaza Nueva.

مع مرور الأعوام ملأت المنازل الرقعة التى باتت خاليةً مابين القصبة وحى اليهود، وكانت عبارة عن بساتين وغابات من الأشجار الكثيفة. بعد أن أضحى للمكان كيانه الخاص وتحول إلى مدينة، أحاطه الملوك بالأسوار والقلاع – وهو ما نشهده فى يومنا هذا، وكان يحوى أربعة عشر بابًا رئيسًا يستخدمهم السكان، بخلاف البابين الكائنين فى حى البيّازين. وقد حملت كلها أسماءً عربية، وإن كانت محرفة: الباب الأول والرئيس سُمِّى باب إلبيرة Bib Elbeira – ويقع فى الجزء الذى كانت تشغله مدينة إلبيريا فى جبل إلبيرة. إذا ما اتجهنا غربًا يقابلنا باب بُنيتة Bib Bonaita ويعنى باب العصور، والآن يُطلَق عليه باب القديس خيرونيمو San Jerónimo لأنه يفضى للطريق المؤدية إلى دير القديس خيرونيمو. يليه باب المارستان Bib el Marstán ويعنى باب مستشفى من لا يرجى علاجهم؛ وقد أسماه المسيحيون باب الماثان Bib Almazán؛ لأنه كان يوجد مشفى لغير القابلين للعلاج فى المكان الذى يقوم فيه الآن القديس لاثارو Sant Lázaro.[٢٠] يتبعه باب (الرملة) Bibarrambla، ويحمل المعنى نفسه باللغة الإسبانية. ثم باب التوابين Bib Taubin أى باب الدبّاغين، وبعده باب العشار Bib La-cha بمعنى باب السمك، يعقبه باب أبو النجد Bib Abulnest الذى أُطلق عليه باب المجدولية Madalena، فباب لاوخار[٢١] Bib el Laujar ويُسمَّى حاليًا باب الحمراء

(١٩) يشير بالتأكيد إلى كتابه " وصف إفريقيا " (المراجع).

(٢٠) واضح أنه اسم لأحد المعالم، لكن مارمول لا يحدده (المراجع).

(٢١) جاء فى إحدى موسوعات مدن أندلوثيا الصغيرة أن الاسم تحريف للفظ "القصور" (المراجع)

Puerta de Alhambara أو باب شارع غمارة calle de los Gomeres، يأتى بعده باب وادى أش Bib Gued Aix. الباب التالى يدعى باب العظم Bib Adam، أما الآن فيطلق عليه باب البيّازين Albaicîn. يتبعه باب البنود Bib el Bonut ويُقْصَد به باب الرايات، نظرًا لأن الرايات كانت ترفع وترفرف على البرج الذى يعلوه عند اختيار ملك جديد أو أى أمر ذى شأن تشهده غرناطة. عندما نتوجه للأمام قليلاً يقابلنا ما كان يُدعَى باب البيز Beiz وقد تم هدمه، ويعنى اسمه باب العمل Trabajo أو العُمّال Trabajadores. يليه باب سيادة Bib Ceida، وقد ظل مغلقًا لأزمنة طويلة بموجب نبوءة لدى المسلمين مفادها أن خراب البيازين – وهو حى كبير للغاية سنأتى على ذكره لاحقًا – سوف يتم من خلاله. وقد أمر بفتحه بدرو دى ديثا Pedro de Deza رئيس محكمة غرناطة الملكية فى عام ١٥٧٣، الذى تقلّد فيما بعد منصب كاردينال كنيسة روما المقدسة. ثم باب العقبة Bib el Alacaba، ويُفْضِى إلى قطعة الأرض المعلقة التى تنحدر إلى الأسفل خارج أسوار القصبة.

أما حى البيازين هذا فقد بدأ يعمر بالسكان إبان حكم الملك فيرناندو القديس Hernando el Santo لقشتالة حوالى سنة ١٢٢٧ من ميلاد المسيح. وقد استوطنه المسلمون الذين هجروا مدينتى بياسة Baeza وأبدة Ubeda يقصدون العيش فى غرناطة لأنهم لم يكونوا ضمن مدجنى الملك[٢٢]، وقد رحب بهم ابن هود Aben Hut ملك المدينة تلك ومنحهم هذه البقعة ليسكنوها. لقد أمّها أولاً قاطنو بياسة، ثم لحق بهم أهالى أبدة بعد مرور سبعة أعوام. تحمل المدينة اسم سكانها الأوائل، وقد تنامى حجمها حيث باتت وجهة الأشخاص الفارين من أسلحة الأمراء المسيحيين من كل صوب وحدب، إلى الدرجة التى مكنتها من المنافسة على الثروات وعراقة الأبنية وعقود المقاولات مع أهالى غرناطة القدامى.

---

(٢٢) أى لا تنطبق عليهم لائحة المدجنين التى كانت تضمن للمسلم المقيم فى الممالك المسيحية حرية ممارسة شعائر الإسلام. (المراجع)

الفصل السابع

يستكمل وصف غرناطة ويتناول ملك بنى الأحمر وما شيدوه

فى أعقاب الحروب الطاحنة التى نشبت بين المسلمين فى إسبانيا، ظهر العديد من القادة الثائرين ممن أضفوا على أنفسهم ألقاب الملوك ونجحوا فى مضايقة غيرهم أكثر من اكتسابهم للنفوذ. كان من بينهم رجل يدعى محمد أبو سعيد بن الأحمر Mahamete Abuzeid Aben Alahmar – وقد أفردنا له ذكراً فى كتابنا "تاريخ إفريقية" – بسط سيطرته على غرناطة بأسرها، وتولت ذريته الحكم فيها حتى عام ١٤٩٢. وقد امتلك أولئك الملوك الثروات والنفوذ، منتهزين الفرصة التى منحتهم إياها الأقدار، وشرعوا يعلون من قدر مدينتهم، وقد تأسى كل منهم بالآخر، فجددوا الأسوار واستكثروا منها فى أماكن عديدة، وأحاطوا البيازين بالجدران وأقاموا القلاع والحصون، وأسسوا قصوراً فخيمة لسكناهم. أثناء حكم أبى عبد الله Abí Abdilehi ابن أبى سعيد وثانى ملوك بنى الأحمر، الذى حقق انتصارات كبيرة على أعدائه – بدأ إنشاء قصر الحمراء وكان هو من أطلق عليه هذا اللقب. وضِعَت أساسات قصر الحمراء فى المكان الذى يشغله الآن ما يسمى ببرج الناقوس، وذلك على قمة ربوة مرتفعة تشرف على المدينة، فى مقابل الربوة التى تضم القصبة، وعلى مقربة منها بحيث لا يفصلهما سوى النهر. وقد شيد الملك ذاته قلعة أخرى صغيرة لها برجها، على سبيل التوقير والذكرى، وذلك على أطلال حصن آخر قديم – يُرَجح أن يكون هو الخاص بقرية اليهود، ويسمونه حاليًا أبراج الحمراء. كذلك أنشأ برجًا منيعًا فى باب التوابين أقام عليه الملكان الكاثوليكيان فيرناندو وإسابيل قلعةً

صغيرة. إلى جانب ذلك فقد أرسى قواعد خمسة بروج فى الريف المحيط بالمدينة، فى جزء من الغوطة، من أجل إغاثة المسلمين من أرباب الحرف عابرى السبيل - إذا ما دعت الحاجة.

اقتدى بهذا الملك وسار على هديه إخوانه ممن خلفوه وفاقوه سلطةً وغنى، حيث أكملوا مسيرة قصر الحمراء، فوسعوه ورفعوا من شأنه بصورة فائقة الروعة. ونذكر على وجه الخصوص أبا الحجاج يوسف بن أبى الوليد Abi Hagex Jucef, hijo de Abil Gualid الذى تولى الحكم قرابة عام ١٣٣٦ من ميلاد المسيح الموافق ٧٤٥ من الهجرة، فأقام المبانى الخلابة للقصور وأنفق فيها جزءًا ضخمًا من كنوزه خلال اثنتى وعشرين سنة، حكم خلالها فى سعادة متمتعًا بسلام طويل الأجل.

عدد هذه القصور الملكية اثنان، يجاور كل منهما الآخر، بحيث لا يفصل بينهما سوى جدار واحد. أولها وهو الرئيس يدعى برج قمارش Comares، نسبةً إلى برج مشغول ببذخ من الداخل بزخارف محببة للغاية إلى نفوس الفرس والسوريين تُدْعَى قماراشية Comaragia. وكان يضم الغرف التى يرتادها الملك خلال فصل الصيف، حيث تشرف نوافذه - التى تفتح ناحيتى الجنوب والغرب - على منازل القصبة، والبيّازين، والجزء الأكبر من المدينة، وضفاف نهر حدرّة بأسرها، والغوطة؛ إضافة إلى إطلالة جميلة ماتعة على البساتين والغابات تبعث السرور الغامر فى نفس من يراها. فى مدخل هذا القصر يوجد فناء صغير به حوض منخفض على الطراز الإفريقى، حجمه كبير للغاية وقد صُنِع من قطعة واحدة شُغِلَت زخارفها بالصدف. على طرفيه هناك قاعتان مزدانتان بالذهب والأحجار المختلفة يصل بينهما القيشانى، اعتاد الملك أن يعقد فيهما مجلسه ويحضر مقابلاته. أثناء تغيبه عن المدينة، كان القاضى يُصْغى إلى المحتكمين إليه؛ وقد وُضِعَ على باب القاعة قطعة من القيشانى بداخل الجدران، عليها كلمات عربية تقول: "ادخل واطلب. لا تخش طلبًا للعدالة، فلابد لك أن تجدها."

أما القصر الثانى، الكائن بالجهة الشرقية، فيدعونه بهو الأسود - نسبةً إلى عين رقراقة بديعة توجد فى منتصف فناء مُبلّط كله من الألبستر(*)، تحيط به أعمدة ذات نقوش فخمة، تحمل دعامات القصور والقاعات. تحوى هذه النافورة حوضًا ضخمًا من الألبستر، فى أعلاه اثنا عشر أسداً من نفس المادة تحملهم عجلة. جسد الأسد فى حجم العجل الصغير، وهى مثقوبة بمهارة وحرفية، بحيث يسيل الماء من واحد إلى الآخر لينساب من أفواهها أجمع فى الوقت عينه. وينبثق من أعلاها رذاذ مياه مداه واسع جداً، لينهمر على كل الأسود ويغمرها. يضم هذا المأوى الغرف والحجرات والقاعات الملكية التى يقيم فيها الملوك فى أثناء فصل الشتاء، والتى لا تقل تكلفة زخرفتها عن مثيلاتها فى برج قمارش. وقد أقيم هناك الحمام الاصطناعى المشمس المزدان بالألبستر والنافورات والأعمدة حيث اعتاد الملوك أن يغتسلوا.

خلف قاعة الأسود باتجاه الجنوب أقيمت مقبرة ملكية كان يُدْفَن فيها موتاهم. وقد عُثِرَ فيها عام ١٥٧٤ على قطع من الألابستر كانت موضوعة فيما يبدو على رأس أضرحة أربع من ملوك هذه العائلة. أما الجزء الظاهر منها فوق سطح الأرض -لأنها غُرِسَت قائمة - فيوجد على كلا وجهيها أجزاء من الكتابات الخاصة بالقبور، بحروف عربيةٍ مذهبةٍ على خلفية زرقاء، تضم مدحًا وإعلاءً لذكرى الراقدين فيها - شعراً ونثراً، وسوف نستخرج منها بعض ما نُقِلَ لنضمنه تاريخنا هذا، انطلاقا من كونه أسلوبًا نادرًا يختلف عما اعتدناه؛ وبغية عدم قطع تسلسل وصف المدينة، فسوف نسوقه بعد الانتهاء من الوصف وذلك فى فصل منفرد.

(*) نوع من الرخام المُعْرَق. (المترجمة).

الفصل الثامن

ويستعرض ذكريات الماضى ويتناول وسائل المتعة والترويح عن النفس لدى الملوك المسلمين فى تلك المدينة.

أضحى لدى أولئك الملوك الكافرين، إلى جانب هذين القصرين الفخمين، العديد من وسائل التسلية الأخرى تمثلت فى البروج والقصور والبساتين والحدائق الخاصة ، داخل أسوار كل من المدينة والحمراء وكذا خارجها؛ كما هو الحال فى قصر وبستان جنة العريف Ginalarife – وتعنى بستان صاحب السمر. وهو على هيئة حزام من حدوات الفرس عند البوابة المطمورة لذاك الحصن من الناحية الشرقية، ويحوى بداخله الكثير من الأشجار الضخمة ذات الظلال الوارفة من أشجار الفاكهة والزروع والزهور زكية العبير. كما تفيض بالماء الذى تجلبه لها ساقية من نهر حدرّة – ويُحْمَل من أعالى الربوة الكائنة هناك لمسافة كبيرة جداً، حتى يمسى ممكنًا سقيا أراضى الرى والضياع الموجودة على ذلك الجانب من الجبل وصولاً حتى النهر. وكان لديهم قصر آخر ممتع، يلى الذى ذكرناه صعوداً إلى قمة الربوة يدعى دار العروسة Dar laroca ويعنى قصر العروس. وقد أفادنا البعض أنه كان من أروع البقاع التى حوتها غرناطة آنذاك، حيث تمتد إطلالته على مساحات واسعة فى كل الاتجاهات، وهو حاليًا متهدم ولا يُرَى سوى أساساته. خلف هذه الربوة التى اعتاد العامة على تلقيبها بربوة الشمس Sol أو ربوة القديسة إيلينا Santa Elena يمكن مشاهدة بقايا قصر آخر فخم يُسَمى المروج Alijares، تميزت زخارفه بنفس روعة وإحكام زخارف قاعة برج قمارش، أحاطته حدائق غنّاءة وبرك مياه ضخمة ومزارع وبساتين – كلها مُدَمَّرة فى وقتنا هذا.

إذا اتجهنا أسفل الربوة إلى نهر شنيل، الذى يقع فى جزئها الآخر ناحية الجنوب ، سنجد قصرًا آخرًا أو منزلاً للترفيه كان مخصصًا لتربية سائر أنواع الطيور. وهو مزود بحدائق وبساتين ترويها مياه نهر شنيل، ويدعى دارالويت (الوادى؟) Dar Luet بمعنى دار النهر، ويسمى حاليًا دار الدواجن. إلى جانب كل هذه القصور والحدائق، كان لديهم بساتين ملكية فى رابية وريف أبو النجد[٢٣] Abulnest – امتدت من سفح الربوة حيث رباط الشهداء حتى نهر شنيل – وتسمى حاليًا ريف الأمير.

اعتاد الملوك قضاء فصل الصيف فى تلك الحدائق لقربها من الحمراء؛ وعلى الرغم من حيازتهم لقصور أخرى فى القصبة باتجاه الغوطة، فإنهم لم يكونوا يرتادوها، وذلك لكى يبتعدوا عن حركة وأماكن مرور العامة الفضوليين ومثيرى الشغب. هذا هو ما حملهم على جعل بداية ذلك الحصن ونهايته خارج أسوار المدينة وعلى مقربة منها، اقتداءً بملوك فاس الذين أقاموا حصنًا آخر للغرض ذاته قبل سنين قليلة، حيث تركوا وراءهم ما يملكونه من قصور قصبة فاس القديمة ليشيدوا حصن فاس الجديد الذى لقبوه بالبيضاء، وعاشوا فيه أكثر أمنًا فى منازلهم مع ذويهم. ولطالما قلَّد ملوك غرناطة نظراءهم من ملوك فاس، فأضحت المدن محل الوصف وأجواءها ومبانيها وحكامها وكل ما هو دون ذلك على قدر كبير من التشابه.

---

(٢٣) هكذا ورد الاسم الأصلى فى موسوعة عن مدن أندلوثيا الصغيرة. (المراجع).

الفصل التاسع

يستكمل ذكريات الماضى ويستعرض بلدانًا أخرى على ضفاف نهرى حدرّة وشنيل.

إبان حكم أبى عبد الله أبى الحجاج يوسف، فى عصر الملك ألفونسو الحادى عشر فى حوالى عام ١٣٠٤ من ميلاد المسيح تم إنشاء الحى الذى يسمى حاليًا شارع الغماريين، نسبةً إلى جيل من الأفارقة ممن تعود أصولهم إلى جبال بلش غمارة Vélez de la Gomera، يلقبون الغماريين. وقد أمّوا إسبانيا ليلتحقوا بالمحاربين، وقد حطوا رحالهم هناك على مقربة من قصور الحمراء للسبب ذاته الذى حمل بنى زناتة على استيطان الحى الآخر. ما يطلق عليه الآن تشورًا Churra جرت العادة فى أزمنة أخرى على تسميته مورور Mauror ويعنى حى السَّقائين Aguadores، حيث أقام به أناس فقراء اعتادوا على حمل المياه وبيعها فى أرجاء المدينة. أعقب ذلك فى العام ١٤١٠ من ميلاد المسيح قدوم المسلمين الهاربين من مدينة أنتقيرة، عندما سيطر عليها الأمير فيرناندو، الذى أمسى لاحقًا ملك أراغون Aragon ومُعلِّم الملك خوان الثانى Juan el Segundo، ليعمّروا حى أنتيكيرويلا Antequeruela، الذى يقع برابية أهابول Ahabul على مقربة من معتكف الشهداء. تضم تلك الرابية سجونًا ضخمة على أعماق كبيرة اعتاد الأهالى أن يخبئوا فيها الخبز ليضحى أكثر أمنًا، إذ لم يكن ملوك غرناطة آنذاك يتمتعون بهذا القدر الكبير من القوة والسيطرة. فيما بعد باتت تلك سجونًا للأسرى المسيحيين يُحْتَجَزون فيها أثناء الليل وكذلك فى الصباح، إذا لم يُحْملوا لأداء بعض الأعمال. عندما استطاعت الملكة الكاثوليكية إيسابيل الفوز بالمدينة أمرت بتشييد

معتكف تقديس الشهداء بغرض تكريم ذكرى شهداء المسيح، من المسيحيين الأتقياء الذين عُذبوا في الأسر.

في عام ١٥٧٣ من ميلاد المسيح كان الأب المبارك الكاهن خيرونيمو غارثيان دي أنتيسكو Gerónimo Garcián de Antisco – وهو ابن السيد دييغو غارثيان Diego Garcián، سكرتير جلالة الملك – يعمل رئيساً إقليمياً لأخوية رهبان الكرمل. وهي ذات حظوة ومميزة فيما يختص بأموال الصدقات، التي اعتاد كل من كونت تينديا Tendilla وزوجته السيدة الكونتيسة كاتالينا دي ميندوثا Catalina de Mendoza دفعها، لإعانة الرهبان على شئون حياتهم وما يضطلعون به من مهام؛ لذا فقد أنشأ الأب في ذاك المعتكف ديرا لرهبان الأخوية التي ينتمي إليها، وشرع في تأسيس العديد من الأديرة الأخرى في قشتالة وأندلوثيا بصحبة الأب ماريانو Mariano، وهو رجل حياته مقدسة، كرس نفسه للدين وكان أول من بعث روح الإيمان في إسبانيا من جديد.

عندما كان المسلمون يسيطرون على غرناطة، بصفة خاصة إبان حكم أبي الحسن حوالي عام ١٤٧٦ لميلاد المسيح، كان فيها ثلاثون ألف منزل وثمانية آلاف جواد، وخمسة وعشرون ألف قوّاس. في بحر ثلاثة أيام فحسب، كان يمكن جمع ما يربو على خمسين ألف مقاتل أخرين من مناطق البشرات وجبل ووادي وغوطة غرناطة. تحتوي الأسوار المحيطة بالمدينة على ألف وثلاثمائة برج، أما مخارجها المفضية إلى الغوطة فمستوية ومملوءة بالأشجار ذات الغابات الملتفة التي تسر الناظرين. وتلك المؤدية إلى الجبل لا تقل عنها امتاعاً؛ لأن المرء يعبر من خلالها بين الضياع والبساتين التي تغض بالنضارة، خاصةً إذا ما مر ببوابة البيازين وكانت تدعى فحص اللوز Fex el Leuz، حيث توجد بها ضياع عين الدمع Aynadama، التي تعلوها ضفاف نهر حدرّة. ذاك النهر يبدأ مسيرته على بعد أربعة فراسخ من المدينة باتجاه الشرق، فهو ينبع من عين ماء ضخمة تتفجر من جبل البيازين بالقرب من غيتور Guetor وبياس Veas وكورتِيس Cortes، وكذلك الكثير من البساتين العامرة بالنباتات النضرة لمسافة تربو على فرسخين، وهو يجري بين تبتين شديدتي الارتفاع ليخترق المدينة بجوار باب وادي آش.

كما تُسْتَخرج منه المياه التى تضخها السواقى لرى الضياع والبساتين الكائنة على جوانب التبتين. أولاها تحمل الماء إلى جنة العريف لتُنقَل منه إلى الحمراء ومواضع أخرى، وثانيها تعرج إلى داخل المدينة من سفح الرابية التى تشغلها القصبة عند دير عذراء النصر، ثم تتجه يميناً إلى دير القديس خوان دى لوس رييس، ثم تعبره لتزود آبار المنازل فى حى أخاريس بالمياه، منهيةً دورتها عند الأحواض العامة والمنازل الخاصة. إلى جانب هاتين الساقيتين توجد ساقية ثالثة تَحْمِل ماءها من النهر عينه وتسمى ساقية الطواحين. وتمر إلى دائرة القديسة أنا Santa Ana من أسفل حى شورًا من ناحية الحمراء، ومن هناك توزع ماءها ولا تعطى منه شيئًا للمنزل الرئيس بذاك الحى الذى يفتقر إلى مصدر سقاية خاص به. أما باقى النهر فيعرج فى وسط المدينة، حاملاً معه أوساخها، ليصب فى نهر شنيل خارج باب الرملة.

مياه نهر حدرّة وهواؤه فائدتهما عظيمة للصحة، ويحوى النهر بين رماله ذرات من الذهب الخالص – كما ذكرنا سلفًا. يزعم الموريسكيون أن تيارات الماء تحملها من تبة الشمس الكائنة وراء جنة العريف، التى يُعْتَقد أن فيها مناجم للذهب نظرًا للمعان الشمس وتلألئها الساطع وقت إشراقها وعند الغروب. سُمِى هذا النهر قديمًا سالون، وسماه بعض الكتّاب داوريو Daureo بيد أن المسلمين أطلقوا عليه حدرّة. ويُقَال إن تسميته مُحرفة من دار ريحان Darrayhan؛ لأنه يتفجر فى جبال البيازين من جبل يطلق عليه دار ريحان . يرى آخرون أنه اسم محرف من ديار شيون Diarcheon، وهو اللقب الذى منحه إياه اليونانيون. وأخيرًا فأيًا كان الاسم الذى يُدْعَى به فهو نهر نافع أفاد الأهالى من مائه فى الداخل والخارج بغرض السقيا وأيضًا لرى الحقول.

على جانب المدينة الآخر باتجاه الجنوب يعبر على مقربة من أسوارها نهر آخر كبير يسمى شنيل، تشبهًا بالنيل، وأطلق عليه القدماء سينخيلو؛ ومنبعه يعلو أراضى غويخار فى جبل شلير – سماه المسلمون حفرة جهنم Hofrat Gihena ويعنى وادى الجحيم. هذا ويتفجر ماؤه من بركة ضخمة جدًا تقع فى أعلى قمم الجبل بجوار ميناء لوح Loh. من هناك يهوى منحدرًا فى أودية صخرية شديدة الوعورة توجد بين تلك

الجبال وغويخار، وفيه مناجم غنية باليشب المشوج بالعديد من الألوان؛ استخرج منها مليكنا وسيدنا فيليبى الأحجار الخضراء الثمينة، التى صُنِعَ منها ضريحه الكائن فى كنيسة القديس لورينثو الملكية San Lorenzo el Real. يتجه النهر فيما بعد إلى بينوس، ومنها إلى ثينيس وغرناطة، حاملاً معه سبعة أفرع أخرى تصدر جميعًا من نفس الفىء، وهى: هوة أكيلة Huet Aquila، وهوة توخار Huet Tuxar، وهوة بادو Huet Vado، وهوة الجوار Huet Alguaar، وهوة بلشتات Huet Belchitat، وهوة بيليتى Huet Belete، وهوة كاناليس Huet Canales. بعد هذه التفرعات يصب فى نهر آخر يسمى المياه البيضاء، يجىء من مسافة بعيدة ويجرى إلى الشمال من جبل غويخار عند دودار Dúdar وقنطار Quéntar. يحمل شنيل معه كل هذه المياه إلى خارج أسوار غرناطة، ليصب معه فى نهر حدرة نهرا موناتشيل Monachil الذى سماه القدامى فلوم Flumوديلار Delar؛ حيث يروى كافة أراضى الغوطة بمياه سواقيه، فتضحى شديدة الخصوبة ويُزْرَع بها القمح والشعير والذرة والكتان والفواكه ومحاصيل الحقول من كل صنف ونوع. فى أعقاب ذلك يتوجه إلى الغرب، ويرافقه نهر كوبيلا فى مسيرته أسفل قنطرة بينوس دى لابيغا " Pinos de la Vega أشجار صنوبر الغوطة"، ليترك مدينة إيورا وجبل باربياندارا Barbandara على الجانب الأيمن قاصداً مدينة لوشة. وهو يمنح الخصوبة لكل تلك الأراضى والحقول التى تقابله خلال مسيرته، لينتهى به المطاف فى نهر الوادى الكبير Guadilquivir، وهو نهر وافر المياه، يُعَد فى مصاف الأنهار الرائدة – إذا ما قارنّاه بذلك النهر وغيره من الأنهار التى لا تصب فى البحار.

الفصل العاشر

يستكمل استعراض سيرة القدماء، ووصف عين الفخار Alfacar وغيرها من العيون والبساتين الموجودة خارج غرناطة.

كل تلك المياه التى أتينا على ذكرها سلفًا لا تصل إلى القصبة أو حى البيازين. بيد أن هذا الأمر لا يعنى عدم وفرة الماء العذب فى تلك الناحية، نظرًا لوجود عين ماء فى جبل البيازين. حيث يحتوى الجبل على مغارة عميقة للغاية تشبه الهاوية، يخرج من قاعها السحيق نافورة مياه فى حجم ثورين بحيث يتوزع ماءها يُوَزَّع فى اتجاهات مختلفة. لينبع منها ثلاثُ عيون رئيسة ذائعة الصيت: أولاهم عين الملك Rey وتقع على مقربة من غويتى، والثانية عين دايفونتيس Dayfontes الموجودة إلى جوار نزل؛ وكان هذا الموقع إبان حكم المسلمين يشغله حصن يُسَمَّى دار ألفون Dar Alfun، يَبْعُد حوالى أربعة فراسخ من غرناطة فى الطريق المؤدية إلى بلدة حصن اللوز. أما ثالثتهم فهى عين الفخار Alfacar التى يفصل موقعها عن غرناطة مسافة فرسخ واحد – إلى الأعلى من قرية تحمل الاسم عينه، حيث تضخ كمية كبيرة من المياه. وقد أثبتت التجربة أن هذه العيون الثلاث تصدر من منبع واحد؛ لأن إلقاء بعض الزيت أو القش فى العين الرئيسية كان يؤدى بالتبعية إلى وصولها للفروع الباقية، وهو ما أقره سكان البيازين من الموريسكيين القدماء. وتستخدم مياه عين الفخار – التى يحصل عليها السكان من إحدى السواقى، ويحملونها على جوانب الربوة وقممها وصولاً إلى غرناطة – لرى البساتين والأراضى الزراعية فى كل من الفخار وبيثنار ومورا وكذا جزء لا بأس به من كرمات الغوطة والحدائق والضياع فى عين الدمع، التى يستمتع بها قاطنوها ذوو الحظ

الوافر على مدى ثلاثة أشهر من كل عام، كانوا يطلقون عليها الزير Azir أثناء سيطرة المسلمين على المدينة، وتعنى فصل الربيع[٢٤]، وهم يحذون بذلك حذو أهالى فاس ممن اعتادوا فى التوقيت نفسه أن يقصدوا ضياع وبساتين ثينخيفور Cingifor، وهى بقعة أخرى تكسوها النضارة والأشجار الملتفة، كانوا يقيمون فيها منازلهم ومزارعهم المليئة بوسائل المتعة.

تشغل حدائق عين الدمع مساحة فرسخ ونصف على جانب جبل البيّازين المطل على الغوطة لتنتشر على مقربة من أسوار المدينة. وكان الموريسكيون يلقبون تلك البقعة عين الدمع؛ لأن البعض يزعم أنه قبيل نقل الأهالى للساقية من الفخار إلى غرناطة، لم يكن بها سوى عين صغيرة يقطّر الماء منها نقطة بنقطة كأنها تذرف الدموع، وهو ما يمكن رؤيته إلى وقتنا هذا؛ كما أن ماءها يفيد فى شفاء أمراض المعدة. بيد أن بعض العارفين من سكان البيّازين أنبئونا أنها سُمِيَت عين الدمع نظراً للغرامات والمخالفات التى أقرها مدراء توزيع الماء والقائمون على شئون العدالة، والافتراءات التى قاموا به ضد المستفيدين من توزيع هذه المياه فى الريف أو المدينة، إذا ما سرقوها أو أخذوا منها ما يفوق مخصصاتهم أو ألقوا مخلفاتهم فى الساقية. فى النهاية يعبر مجرى هذه الساقية أسفل باب البيازين، حيث توجد الفتحات المخصصة لخروج المياه والخزانات التى تُحْفَظ بها لتوزيعها على منازل الأهالى والأحواض العامة الكائنة فى الكنائس التى لا تصلها المياه. كما أنها تُمد كل أرجاء البيازين وكذلك القصبة بكميات وفيرة منها، وتوفر الماء اللازم لرى بعض البساتين والحدائق الموجودة داخل أسوار المدينة. أما الحقول الواسعة والأراضى التى تغطيها الأشجار خارج المدينة باتجاه الغوطة فترويها مياه السواقى التى تنبع من النهرين السابق ذكرهما، كما تسهم فى تشغيل أعداد كبيرة من طواحين الدقيق. وهكذا فإن سائر أنحاء غرناطة كانت تتمتع بكميات وفيرة من مياه الأنهار والعيون. أما المنازل فهى تمتاز بإطلالات

(٢٤) لاحظ عدم تطابق اللفظ والمعنى، مما يوحى بعدم دراية مارمول باللغة العربية (المراجع).

تبعث فى النفس البهجة والمتعة على مدار العام: فما يشرف منها على الغوطة يقابله مناظر الخضرة النضرة والأشجار الوارفة والعديد من الأماكن التى تقع بينها، والأمر ذاته بالنسبة للمنازل المشرفة على المرتفعات، أما تلك المطلة على الجبال فان رؤيتها عن قرب لا تقل إمتاعًا حيث تغطيها الثلوج معظم شهور السنة، فتبدو كما لو كانت مغطاة بملاءة قطنية ناصعة البياض.

(*) لفظ مشتق من البوار، وذلك للسبب المذكور آنفًا. (المترجمة)

الفصل الحادى عشر

يستكمل ذكريات الماضى، ويستعرض اتساع أراضى غرناطة وخصوبتها. كما يتضمن شواهد القبور الأربعة التى عُثِرَ عليها فى مدافن الحمراء الملكية ؛ وكذا حساب السنة العربية القمرية والسنة اللاتينية الشمسية.

تزخر غرناطة بالفواكه من كل صنف ونوع، ولديها كميات وفيرة من الحطب، وهى عامرة باللحوم، وقد حبتها الطبيعة بقدر كبير من الأسماك الطازجة، والكثير من الزبيب والتين واللوز الذى يُحْمَل إليها من المناطق الساحلية. كما أن بها خموراً وزيوتاً غزيرة، والعديد من البساتين فائقة الجمال، وسائر أنواع الحمضيات كأشجار البرتقال والليمون والأترنج. أهم من ذلك كله أنها تقع فى دائرة يَكْثُر بها الخبز والدقيق والشعير، حيث يدخل فى إطارها بلدات إيورا ومونتيلريو Monteirío وموكلين Moclín وكولوميرا Colomera وحصن اللوز ووادى أورتونا Guadahortuna ومونتيخيكار Montexícar وغيرها مما يضم مزارع ضخمة وأراضى حرث؛ بالإضافة إلى مدينة لوشة والحامة وقلعة يحصب وكذلك بقاع أندلوثيا المتاخمة لها. هذا وتزدهر تجارة الحرير والاشتغال به فى تلك المملكة، حتى أنه يتم تأجير حق جلالة الملك فى تلك الأراضى فى مقابل ثمانية وستين عملة مرابطية، وهو ما يعادل ألف وستمائة وثمانين عملة ذهبية. رغماً عن أن كل أراضى غرناطة القريبة من البحر هى جبال وعرة وخشنة ، فإن هذا الأمر لا يمنع تمتعها بالخصوبة وتوفر المياه بغزارة من الأنهار والعيون، التى تُرْوَى بها الحقول والبساتين والأراضى المزروعة. كما أن ما تنتجه المناطق الجبلية من فاكهة ولحوم أفضل، ومذاقه ألذ، ومدة صلاحيته أطول من منتجات الغوطة،

بمقتضى ذلك فإن الخبز أثقل وزنًا وأجود نوعًا، والمياه أكثر إنعاشًا، والهواء أصح إلى حد بعيد.

خلال حكم المسلمين كانت دور هذه المدينة متلاصقة، كما كانت الشوارع ضيقة إلى درجة أن المرء يمكن أن يصل بذراعه من نافذة إلى أخرى، وفي العديد من الأحياء لم يكن باستطاعة الرجل عبورها على صهوة جواده شاهرًا رمحه بيده. يزعم الموريسكيون أن ذلك الأمر كان القصد منه تأمين حماية أكبر للمدينة. أُقيمَت بعض المبانى المهمة بالمدينة على الطراز الإفريقى، وكانت تضم عددًا كبيرًا من المساجد والمدارس وبعض المستشفيات وكذلك سوقًا عامرًا لتجارة الحرير على غرار مدينة فاس - وإن لم يكن بنفس ضخامة حجمه - حيث عُقِدَت كل المعاملات التجارية للمدينة. فيما يتعلق بالجانب الروحانى، كان للمدينة فقيه أكبر وفقهاء آخرون مساعدون، وكذلك قضاة مدنيون وجنائيون. من هذا المنطلق، وأيضًا فيما يخص رجال الشرطة وحسن الإدارة، تشبه غرناطة إلى حد كبير مدينة فاس. فقاطنوها تربطهم علاقة صداقة قوية وهم قانعون بما لديهم؛ والحكام تجمعهم صلات القرابة وهم متحدون وشديدو التدين مثلهم مثل أقرانهم الآخرين، كما أنهم جميعًا يضمرون العداء لكل ما هو مسيحى.

مضمون ما كُتِبَ على القبور بحروف عربية، وعُثِرَ عليه فى شواهد قبور ملوك غرناطة المسلمين

نُقِشَت كتابات القبور التى حوتها شواهد أضرحة الملوك المسلمين الأربع - التى ذكرنا سلفًا أنه تم العثور عليها فى المدافن الملكية لقصرى الحمراء - بحروفٍ عربيةٍ فائقة الجمال على كلا وجهيها: أحدهما سِيق نثرًا بينما صِيغ الآخر فى أبياتٍ من وزن الشعر الكبير. وكلها تمتدح ذكرى أربعة ملوك عظام هم: أبو عبد الله بن محمد أبى سعيد Abi Abdilehi, hijo de Mahamete Abuceyed، ثانى ملوك بنى الأحمر الذى تولى الحكم إبان عهد الملك ألفونسو الحكيم؛ وأبو الوليد اسماعيل بن أبى سعيد فرج

الذى حكم فى نفس زمن الملك ألونسو Abi Gualid Ismael, hijo de Abi Ceyed Farax الحادى عشر، وهو رابع ملوك آل الأحمر؛ وأبو الحجاج يوسف Abil Hagex Jucef، وقد تولى الملك فى عهد الملك ألونسو الحادى عشر الذى ذكرناه فيما سبق، وكان سادس حكام آل الأحمر؛ وأخيراً أبو الحجاج يوسف، وكانت كنيته الغانم بالله Ganem Bilehi، وقد ارتقى العرش أثناء حكم الملك خوان الثانى - الذى تعلم على يد الأمير إيرناندو الذى انتصر فى أنتقيرة، وهو الثالث عشر فى تسلسل حكام آل الأحمر. وهذا ما جاء فى كل منها:

الحجر الأقدم يقول على أحد أوجهه بأسلوب النثر:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو قبر الملك الفاضل، الشجاع، العادل، أكثر من اتقى الله، المتفرد، الورع، الحكيم، المختار، المهاب، الغازى فى سبيل الله، القانع، المتعبد، شديد القرب من الله فى السر والعلانية، دائم التفكر فى عظمته ويلهج لسانه بتمجيده، من اعتاد الاعتناء برعيته والاهتمام بشئون صحتهم وحكمهم وتطبيق الحق والعدل، من يُعَد نموذجًا لدين الرحمة، من عمل لخير العباد وصالحهم بكل حنو واجتهاد حتى يهبهم الحرية والطمأنينة والراحة - وهو ما ينبع من غيرته وحسن نواياه وطيبته وإخلاصه فى العمل وصفاء روحه - من سعى دومًا لفعل الصالحات ليأتى نوره يسعى بين يديه يوم القيامة، الملك ذو الأفعال المجيدة والصنائع المقدسة الرفيعة، المنتصر فى حربه على الكافرين بجهده وتفانيه ونيته الصادقة، من تحمل عبء تطبيق العدالة واستمر على نهج الرأفة وإرسائها، المدافع عن الناس ومُعَظِم سنة الرسول المختار، المثال على شجاعة أسلافه المغيثين الملهوف والمنتصرين ممن سبقوا وأخلصوا لله النوايا، من انتوى وأقسم أن يخدم الله ويسير على درب أجداده فقام بمآثر سامية فى غزو أعدائه والحفظ على سلامة أرضه ورعيته وصيانتهم. خليفة المسلمين وإمام المتقين وقاهر الكافرين أبى عبد الله، ابن السلف المغوار المجاهد فى سبيل الله والمنتصر بنعمته محمد أبو سعيد بن نصر Mahamete Abu Zeyed Ibni Nacer خليفة

الموحدين ومطبق الشرع والدين، أنار الله قبره وطيب مثواه برحمته وفضله. وُلِدَ – رضى الله عنه – فى اليوم الثالث والعشرين من شهر المحرم لعام ٦٢٣، وبويع ملكًا لأول مرة مع حلول هلال شعبان فى عام ٦٧١. وقد توفى – تغمد الله روحه بمنّه – بعد فراغه من أداء صلاة العشاء ليلة الأحد الثامن من شعبان سنة ٧٠١. رفعه الله إلى أعلى منازل المقربين، وحشره مع الأولين الذين اتبعوا كلمة الحق، ووعدهم الطمأنينة وجنة النعيم."

أما الوجه الآخر للحجر ذاته فكُتِبَ عليه أبياتُ شعر عربية:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا مأوى الرفعة والصدق والرفق، ضريح القائد المغوار الأمين الفريد. ليجزئ الله التضحية التى أخفت فى هذا التجويف السمو والشجاعة والفضيلة. فيه ترقد الشدة واللين والرحمة، ليست شدة الوحوش الضارية أو التحرر الذى يولده الجمود والافتقار إلى الفطنة، ولكن القدوة والأنموذج للعفة والتدين. إنه مبعث الفخار والزهو فى نفوس الملوك، السيد شريف المكمن والمخبر، الذى شغله فى كل الآونة إظهار عظمته واستئصال أعدائه من جذورهم كما يغمر السيل الأرض أو يذود الأسد عن عرينه. على ذلك تشهد أعماله عينها، وتقره بصدق ألسنة الرجال. فهو لم يخرج قط فى جيش، ولم يتأهب للقاء أعدائه إلا لوحظ عليه آنذاك الطيبة والبسالة وبشاشة الوجه. ومن إمارات شجاعته أنه لم يكن يرضى أن يمتطى جنوده سوى صهوة الخيل التى لا تشرب المياه إلا من برك وآبار الدماء. وكذلك لم يسبق له إقرار أى حكم خلال حكمه لا يحفظ كرامة واعتبار أصغر أفراد رعيته. وهكذا فإن من يجهلون اتصافه بتلك الفضائل ودفاعه المستميت عن شريعة الله عن طريق إقصاء أعدائه وإبادتهم، يصل إليهم صدى أفعاله التى تفوق شهرتها وذيوعها النار المتأججة على قمة جبل فليتغمد الله القبر الذى يضم بين جنباته هذا الرجل بسحائب رحمته وظله وجنته على الدوام".

أما ثانى شواهد القبور قدمًا فقد كُتِبَ على أحد أوجهه بأسلوب النثر[٢٥]:

هذا قبر السلطان الشهيد فتاح الأمصار، وناصر ملة المصطفى المختار ومحيى سبيل آبائه الأنصار، الإمام العادل، الهمام الباسل، صاحب الحرب والمحراب الطاهر الأنساب والأثواب، أسعد الملوك دولةً، وأمضاهم فى ذات الله صولةً، سيف الجهاد، ونور البلاد، ذى الحسام المسلول فى نصرة الإيمان، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن، المجاهد فى سبيل الله، المنصور بفضل الله، أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل ابن الهمام الأعلى، الطاهر الذات والفخار، الكريم المآثر والآثار، كبير الإمامة النصرية، وعماد الدولة الغالبية، المقدس، المرحوم أبى سعيد فرج، ابن علم الأعلام وحامى حمى الإسلام، صنوا الإمام الغالب، وظهيره المقدس العلى المراتب، المقدس، المرحوم أبى الوليد إسماعى بن نصر، قدس الله روحه الطيب، وأفاض عليها غيث رحمته الصيب، ونفعه بالجهاد والشهادة، وحياه بالحسنى والزيادة، جاهد فى سبيل الله حق الجهاد، وصنع الله له فى فتح البلاد، وقتل كبار الأعاد، ما يجده مذخورا يوم التناد، إلى أن قضى الله بحضور أجله، فحتم عمره بخير عمله، وقبضه إلى ما أعد له من كرامته وثوابه، وغبار الجهاد طى أثوابه، فاستشهد رحمه الله شهادة أثبتت له فى الشهداء من الملوك قدما، ورفعت له فى أعلام السعادة علما. ولد رضى الله عنه فى الساعة المباركة بين يدى الصبح من يوم الجمعة سابع عشر شوال عام سبعة وسبعين وستمائة، وبويع يوم الخميس السابع والعشرين لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، واستشهد فى يوم الإثنين السادس والعشرين لشهر رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، فسبحان الملك الحق، الباقى بعد فناء الخلق.

---

(٢٥) الفقرة التالية بأكملها، وأبيات الشعر التى تليها، منقولة نصًا من كتاب "الإحاطة فى أخبار غرناطة" لابن الخطيب، مكتبة الخانجى، القاهرة (المراجع).

وكُتِبَ على وجهه الآخر بأشعار عربية:

تخص قبرك يا خير السلاطين ... تحية كالصبا مرت بدارين

قبر به من بني نصر إمام هدى ... عالي المراتب في الدنيا وفي الدين

أبو الوليد وما أدراك من ملك ... مستنصر واثق بالله مأمون

سلطان عدل وبأس غالب وندى ... وفضل تقوى وأخلاق ميامين

لله ما قد طواه الموت من شرف ... وسر مجد بهذا اللحد مدفون

ومن لسان بذكر الله منطلق ... ومن فؤاد بحب الله مسكون

أما الجهاد فقد أحيا معالمه ... وقام منه بمفروض ومسنون

فكم فتوح له تزهو المنابر من ... عجب بهن وأوراق الدواوين

مجاهد نال من فضل الشهادة ما ... يجبى عليه بأجر غير ممنون

قصى كعثمان في الشهر الحرام ضحى ... وفاة مستشهد في الدار مطعون

في عارضيه غبار الغزو تمسحه ... في جنة الخلد أيدى حورها العين

يسقى بها عين تسلمى وقاتله ... مردد بين زقوم وغلسين

تبكى البلاد عليه والعباد معا ... فالخلق ما بين أحزان أفانين

لكنه حكم رب لا مرد له ... فأمره الجزم بين الكاف والنون

فرحمة الله رب العالمين على .. . سلطان عدل بهذا القبر مدفون

أما ثالث الأحجار قدماً فجاء على أحد أوجهه بأسلوب النثر[٢٦]:

هذا قبر السلطان الشهيد، الذى كرمت أحسابه وأعراقه، وحاز الكمال خلقه وأخلاقه، وتحدث بفضله وحلمه شام المعمور وعراقه، صاحب الآثار السنية، والأيام الهنية، والأخلاق الرضية، والسير المرضية. الإمام الأعلى، والشهاب الأجلى، حسام الملة، علم الملوك الجلة، الذى ظهرت عليه عناية ربه، وصنع الله له فى سلمه وحربه. قطب الرجاحة والوقار، وسلالة سيد الأنصار، حامى حمى الإسلام برأيه ورايته، المتسولى فى ميدان الفخر على غايته، الذى صحبته عناية الله فى بداية أمره وغايته، أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ابن السلطان الكبير، الإمام الشهير، أسد دين الله، الذى أذعنت الأعداء لقهره، ووقفت الليالى والأيام عند نهيه وأمره. رافع ظلال العدل فى الآفاق حامى حمى السنة بالسمر الطوال والبيض الرقاق ، مخلد صحف الذكر الخالد والعز الباق، الشهيد السعيد المقدس أبى الوليد، ابن الهمام الأعلى الطاهر النسب والذات، ذى العز البعيد الغايات، والفخر الواضح الآيات، كبير الخلافة النصرية، وعماد الدولة الغالبية، المقدس المرحوم أبى سعيد فرج بن إسماعيل بن نصر، تغمده الله برحمة من عنده، وجعله فى الجنة جاراً لسعد بن عبادة جده، وجازى عن الإسلام والمسلمين، حميد سعيه، وكريم قصده. قام بأمر المسلمين أحمد القيام، ومهد لهم الأمن من ظهور الأيام، وجلى لهم وجه العناية مشرق القسام، وبذل فيهم من تواضعه وفضله، كل واضح الأحكام. إلى أن قضى الله بحضور أجله، على خير عمله، وختم له بالسعادة، وساق إليه على حين إكمال شهر الصوم هدية الشهادة. وقبضه ساجداً خاشعاً، منيباً إلى الله ضارعاً، مستغفراً لذنبه، مطمئناً فى الحالة، التى أقرب ما يكون العبد فيها من ربه. على يد شقىٍّ قيضه الله لسعادته، وجعله سبباً لنفوذ سابق مشيئته وإرادته، خفى مكانه لخمول قدره. وتم بسببه أمر الله لحقارة أمره.

---

(٢٦) آثرنا هنا أيضاً أن ننقل النص الذى أورده ابن الخطيب فى "الإحاطة" (المراجع) .

وتمكن له عند الاشتغال بعبادة الله، ما أضمره من غدره، وذلك فى السجدة الأخيرة من صلاة العيد. غرة شوال، من عام خمسة وخمسين وسبعماية. نفعه الله بالشهادة التى كرم منها الزمان والمكان، ووضح منها على قبول رضوان الله البيان. وحشره مع سلفه الأنصار، الذين عز بهم الإيمان، وحصل لهم من النار الأمان. وكانت ولايته الملك فى غرة اليوم الرابع عشر لذى الحجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعماية. ومولده فى الثامن والعشرين لربيع الآخر عام ثمانية عشر وسبعماية. فسبحان من انفرد بالبقاء المحض وحتم الفناء على أهل الأرض ثم يجمعهم إلى يوم الجزاء والعرض، لا إله إلا هو.

وكُتِبَ على وجهه الآخر أشعار عربية:

يحييك بالريحان والروح من قبر ... رضى الله عمن حل فيك مدى الدهر

إلى أن يقوم الناس تعنو وجوههم ... إلى باعث الأموات فى موقف الحشر

ولست بقبرٍ إنما أنت روضة ... منعمة الريحان عاطرة النشر

ولو أننى أنصفتك الحق لم أقل ... سوى يا كمام الزهر أو صدف الدر

ويا ملحد التقوى ويا مدفن الهدى ... ويا مسقط العليا ويا مغرب البدر

لقد حط فيك الرحل أى خليفة ... أصل المعالى غرةٌ فى بنى نصر

لقد حل فيك العز والمجد والعلى ... وبدر الدجى والمستجار لدى الدهر

ومن كأبى الحجاج حامى حمى الهدى ... ومن كأبى الحجاج ماحى دجا الكفر

إمام الهدى غيث الندى دافع العدا ... بعيد المدى فى حومة المجد والفخر

سلالة سعد الخزرج بن عبادة ... وحسبك من بيت رفيع ومن قدر

إذا ذكر الإغضاء والحلم والتقى . . . وحدثت عن علياه حدث عن البحر

تخونه طرف الزمان وهل ترى ... بقاءً لحيٍّ أو دوامًا على أمر

هو الدهر ذو وجهين يومٌ وليلةٌ ... ومن كان ذا وجهين يعتب في غدر

تولى شهيداً ساجداً في صلاته .. . أصيل التقى رطب اللسان من الذكر

وقد عرف الشهر المبارك حق ما ... أفاض من النعمى ووفى من البر

وباكر عيد الفطر والحكم مبرم ... وليس سوى كأس الشهادة من فطر

أتيح له وهو العظيم مهابة ... وقدراً حقير الذات والخلق والقدر

شقيٌّ أتت من لدنه سعادة ... ومنكر قوم جاء بالحادث النكر

وكم من عظيم قد أصيب بخامل ... وأسباب حكم الله جلت عن الحصر

فهذا عليٌّ قد قضى بابن ملجم ... وأوقع وحشي بحمزة ذى الفخر

نعد الرماح المشرفية والقنا ... ويطرق أمر الله من حيث لا تدري

ومن كان بالدنيا الدنية واثقًا ... على حالة يومًا فقد باء بالخسر

فيا مالك الملك الذى ليس ينقضى ... ويا من إليه الحكم فى النهى والأمر

تغمد بستر العفو منك ذنوبنا ... فلسنا نرجى غير سترك من ستر

فما عندك اللهم خيرٌ ثوابه ... وأبقى ودنيا المرء خدعة مغتر

أما رابع الأحجار وأحدثها تاريخًا فيحوى أحد أوجهه بلغة النثر ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا قبر الملك السخى، الطاهر قلبًا ونسبًا، من اكتمل أدبه، المنتصر، الرحيم، الشفيق، أكثر الملوك بصيرةً وفطنةً، من زانته نعمة الله وخشيته. علمٌ فى البيان وفصاحة اللسان. من اجتمعت له الحكمة والفضل والعدل والرأفة أجمع. وهبه الله حسنًا إلهيًا تمثل فى شخصه وهمته العاليتين. عماد الأخلاق والحياء. من تجلى فيه حسن تقوى الله، ولم يدخر جهداً ولا حيلة للثأر ممن أساء إلى رعيته. إنه حامى لواء الشريعة، ذو النسب السامى، سليل الأنصار المدافعين عن الحق. هو حاكم المسلمين ومعظِّم شرع الله أبو الحجاج يوسف، ابن الملك السامى والحاكم الجسور، بحر الحكمة وبستان المعرفة والفطنة. مطاعة كلمته بين الملوك، حامى حمى المدائن بقوته وبسالته، حصن الشعوب ببصيرته وعلمه، منفق الخيرات التى ملكتها يداه الكريمتان. من أعمل جل قواه فى محاربة أعدائه، حاكم المسلمين الشجاع الهمام المجيد البارز الغنى بالله أبى الحجاج يوسف؛ ابن الملك رفيع المقام ذائع الصيت، أفضل الملوك، من بدد بنور الحق ظلمة الملوك الكافرين، حيث سعد بتوافق حظه مع الأجرام السماوية التى مهدت الطريق للعديد من الأمور الحسنة التى أعانته ليتغلب عليهم. لقد امتلك صفات على طرفى النقيض دون أى تعارض. إنه من أثنى الله عليه، ومن أجل هذا ولمحبته له ومخافته إياه هجر أمور الدنيا وابتعد عنها متذللًا للخالق. هو فاتح الممالك الشداد، الذى أفاد من الشرع وتعاليمه، وحقق العجائب فى فتوحاته. من ازدان بتقوى الله، صاحب المقام والعهد الزاهر، حاكم المسلمين الغنى بالله أبى عبد الله؛ ابن الملك المعروف لإقصاء أعداء الدين، صاحب النوايا المحققة، من شغله وأهمه إعلاء كلمة الله. من عمل لصالح المدن الكبرى كلها ودفاعًا عنها أموراً عظام نابعةً من صلاحه ورحمته وأدبه. حاكم المسلمين المجيد المدفوع والمأموم بالله أبى الحجاج يوسف، ابن الملك السالف، أكبر الملوك، غوث وعون المحتاجين، أكبر بنى نصر وأرفعهم شأنًا، وأجمل براعم تلك الشجرة ذات الجذور الراسخة الثابتة والفروع التى تصل إلى عنان السماء. فاتح الديار ومفشى السلام بين الأنصار، هو المثل والقدوة لما اعتاده

أسلافه المعظِّمين للشرع. إنه المجاهد فى سبيل الله حاكم المسلمين السعيد أبى الوليد اسماعيل فرج بن نصر. تغمده الله بفضله وأسكنه فى أعالى جنان نعيمه، واستقبله فى رحابه الطاهر ليرى ما أعده له من كرامة ومقام وذلك فجر يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان سنة ٨٢٠. كان - رحمه الله - قد وُلِدَ فى منتصف ليل الجمعة الموافق السابع والعشرين من صفر لعام ٧٩٨. سبحان من كتب لنفسه الملك والبقاء ولبقية خلقه الموت والفناء، وهو الملك الحى الذى لا إله إلا هو."

أما الوجه الآخر فكُتِبَ عليه بأوزان الشعر العربى:

"بسم الله الرحمن الرحيم. ليُحَيِّى السحاب بنداوته ومائه أرض هذا القبر! لتبعث إليه بساتين السماء عبير أشربتها، فما يحوى هذا القرار سوى الرجولة والإغاثة! لتتنزل البركات والرحمات على من يزور هذا الموضع! غمره الله بفضله وباتت جنة الفردوس مستقره. استقبلته أنعم الله بكلتا يديها فكان هذا هو النعيم المقيم الذى يرقد فيه رجل منقطع النظير - قدس الله روحه. كان يوسف فرعًا من سلفه يوسف، فما من شك فى انتمائه لعائلة الجد والاجتهاد. الدنيا فانية، وستفنى مهما قاومنا. أرادوا أن يطمسوا ذكراه فوارته تحت التراب، مع أن اسمه الناصع وإخلاصه الساطع وأعماله الفاضلة ظلت كلها تشرق وتتلألأ وتتبوأ مكانةً سلمية. فأبو الحجاج شهاب موفور الصحة، إذا ما غابت الشمس أناب عنها بريق وجهه وإشراق محياه؛ وكان عونًا للمطر تحل محله يداه المعطاءتان الكريمتان. ها قد كف عطاؤه، ونضب بحر معجزاته، وجف مرعاه، وانقطع جوده، وضعفت شوكة جيوشه، وتلاشى صوت نصائحه، وتهدمت قصوره، وسكتت حجته، وأظلم كونه، وانعدم فضله وكنفه، لكنه بفضل الله الرحيم نجا فى الدار الآخرة عندما وقف بين يدى الله. يا للأسى الذى يغمرنا جميعًا لانقضاء حياة هذا الحاكم الذى حظى بكل تلك الفضائل! إنه يسكن بين جنبات هذا القبر فى طمأنينة ولكنه يقيم حقًّا فى قلوب الرجال. لقد كان ما قدمه من عون كأجود ما يكون السخاء والكرم، وكان رضاه وصدقه كنور الحياة نفسها، ويداه شبيهتان بسيل المطر

المنهمر. لنرى، ألم يكن هذا الملك نجمًا فى شموخه؟ ألم يكن فضله وصلاحه نوراً يرتعش أمامه ضوء الشمس؟ وماذا عن شغفه؟ ألم يكن اقتلاع الشر من جذوره وتعليم الفضيلة والعفة؟ وولعه بالآداب؟ ألم يكن بين شمائله وفضائله العفة وتقوى الله والأبهة والجود؟ لنرى، ألم يكن متفرداً بين أصحاب المناصب فى الدنيا بأسرها، وما برح يتغلب على ما واجهه من مصاعب ببصيرته النافذة؟ ألم تتضح أخلاقه فى أحاديثه التى غطى بريقها على الشهب اللامعة؟ ألم يكن الشعر أحد مكونات شخصيته التى زينت مداخل المحاكم التى شارك فيها بصورة أفضل وأبهى من الأحجار الكريمة المنتقاة؟ ألم يكن حماية ومأوى لذويه وخاصته؟ وفى الحروب أمست قواه وبسالته درعًا كافيًا ؟ ألم يُعْمِل شجاعته وحماسته فى المعارك؟ كم من همم أعدائه أُخْمِدَت وقهرتها جسارة سيفه! هكذا كان هذا الملك صالحًا وامرؤ طالما تعهد بتنفيذ كلمته. ورغمًا عن أنه لم يخذل الدهر فقد خذله هو ولم يقف إلى جواره."

إلى هنا تنتهى كتابات شواهد القبور. وإذا ما أراد القارئ أن يتثبت من أوقات ولادة وحكم ووفاة هؤلاء الملوك الأربع، فنحن ننبههم إلى أن المسلمين لديهم تقويم هجرى وآخر قمرى. أما العام الشمسى فيتفق مع سنتنا اللاتينية، وقد أطلقوا على الاثنى عشر شهراً أسماءً كاللاتينية. وعادةً ما يستخدم هذا التقويم لحساب شئون الزراعة فى إفريقيا بأسرها؛ فهم لديهم كتاب مقسم إلى ثلاثة أجزاء يسمى "كنز الزارعين" Tesoro de los agricultores، يبدو أنه كان قد تُرْجِم من اللاتينية إلى العربية فى مدينة قرطبة، وبمقتضاه يحسبون أوقات الغرس والزرع والحرث والحصاد إلى آخر تلك الأمور، ويرون فيه ثلاثة عشر قمراً. بيد أن الفقهاء العرب والعلماء والمؤلفون يحسبون العام بأسلوب مختلف، حيث يشهدون خلاله اثنى عشر قمراً : ست منها قوامها تسعة وعشرين يومًا والست الأخرى ثلاثون يومًا. فيكون مجموعها ثلاثمائة أربعة وخمسون يوما، أى أحد عشر يومًا وست دقائق أقل من العام اللاتينى. وهؤلاء يحسبون الفارق بين التقويمين مع مرور ثلاثين عامًا شمسيًا بمعدل يقل عامًا إلا أربعة وخمسين يومًا. أول شهور السنة بالنسبة إليهم يولد هلاله فى شهر يوليو ويسمونه

محرم[٢٧] Maharran وهو بالنسبة إلينا يعدل أيام الحر الشديد. والثانى هو صفر Zafar، والثالث ربيع الأول Arbea el Aul، والرابع ربيع الثانى Arbea el Tani، والخامس جمادى أول Gumen el Aul، والسادس جمادى ثان Gumen el Tani، والسابع رجب Argeb، والثامن شعبان Zaabón، والتاسع رمضان Arromadán، والعاشر شوال Xevel، والحادى عشر ذو القعدة Delcaada، والثانى عشر ذو الحجة Delhexa.

هناك آخرون ممن يعدون ثلاثة عشر شهراً قمرياً، يضيفون كل اثنى عشر شهراً شمسيًا واحداً فى بداية العام، فيضحى هناك محرم الأول Maharrán primero و محرم الثانى[٢٨] Maharrán segundo. هذا وتأتى أعيادهم فى مواعيد مختلفة، وكذلك أيام الصيام، باستثناء الاحتفالية التى يقيمونها بمناسبة مولد رسولهم محمد ويطلقون عليه المولد Maulud –ويكون فى اليوم الثانى عشر من الشهر الثالث، فهم يقولون إنه وُلِدَ فى ذلك اليوم. يكفى ذلك لإمكان حساب التقويم، حيث يبدأ العد عند المسلمين من شهر يوليو فى عام ٦٢١ من ميلاد المسيح، وهو ما يعادل فى حساباتهم ٦٥٧ سنة من الزمن القيصرى/الرومانى ؛ وليس ٦١٣ عاماً عقب ميلاد المسيح، كما ذكرنا فى الطبعة الأولى من كتابنا "إفريقيا" – وذلك لوجود خطأ – لذا فقد تداركناه فى الطبعة الثانية التى ستصدر قريباً [٢٩] .

---

(٢٧) لاحظ عدم دقة المؤلف؛ إذ يختلف توافق الشهور الهجرية مع الميلادية باختلاف العام. (المراجع).

(٢٨) لاحظ كذلك عدم دقة معلومات المؤلف حول الشهور الهجرية من حيث العدد، فهى اثنا عشر شهراً وليس ثلاثة عشر، ومن حيث كتابة الأسماء. (المراجع).

(٢٩) يُحسب للمؤلف تصحيح معلوماته الواردة فى كتاب "وصف إفريقيا"، وهو ما يدل على وجود وسط ثقافى على دراية بجوانب الحضارة الإسلامية. (المراجع) .

الفصل الثانى عشر

استيلاء الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيسابيل على مدن فى مملكة غرناطة منذ عام ١٤٨٢ وحتى عام ١٤٨٥.

يُعَد غزو الملكين الكاثوليكيين فيرناندو وإيسابيل لمملكة غرناطة، الذى نسوقه فى هذا التأريخ - حتى لا نُخَلِّف وراءنا أموراً قد يؤدى عدم سردها إلى إرباك القارئ - آخر الحروب التى خاضها الأمراء المسيحيون فى إسبانيا ضد الملوك المسلمين. أما سائر المعارك التى سبقتها فقد أتى ذكرها فى كتابنا "التاريخ العام لإفريقيا"، وذلك فى الكتاب الثانى من المجلد الأول. حينئذ كان يحكم غرناطة ملك وثنى شجاع من نسل آل الأحمر يسمى أبو الحسن وذلك قرابة عام ١٤٨٠ لميلاد المسيح الموافق ٨٩٢ لقيام مملكة العرب. وقد جمع جيوشه وأحدث خسائر فادحة فى مواضع أندلوثيا ومملكة مرسية، فى أثناء الحرب التى شنها الملكان الكاثوليكيان على ملك البرتغال. نظراً لعدم استطاعتهما القتال على كل الجبهات فقد عقدوا مع أبى الحسن هدنة قام بخرقها فى عام ١٤٨٢ لميلاد مخلصنا عندما نبهه جواسيسه إلى أن المسيحيين المقيمين على حدود الصخرة(٣٠) قد تخلوا عن حرصهم بموجب هذه الهدنة، وأن الفرصة باتت مواتية لاحتلال ذاك الحصن. شرع الملك المسلم فى تجميع قادته وجواسيسه وأرسلهم سراً

(٣٠) يرد اسم البلدة فى المصادر الإسبانية أحياناً Zahra، وهى من أعمال قادش Cádiz.) (المراجع).

ليتسلقوا أسوارها ويتسللوا إليها فى إحدى الليالى حالكة الظلام. وبالفعل عندما سنحت الفرصة لتنفيذ رغبته، عبر القادة إلى داخلها، واحتلوا الحصن الملاصق للبلدة، وتعاملوا مع عمدتها(٣١)، وأسروا من وجدوهم من المسيحيين بعد مقاومة تكاد لا تذكر. شعر الملكان الكاثوليكيان بالأسى الشديد لتلك الخسارة. وتجنبًا لحدوث ضرر أكبر، اتجه الملكان لاحقًا إلى تلك البقعة - يدعمهما الاستقرار الذى ساد أراضيهما - عاقدين العزم والهمة التى لم تُهْزَم أبدًا، على مواجهة تلك الأمة التى سببت الكثير من المضايقات للشعب المسيحى، ومصممين ألا يكفا أيديهما عن القتال حتى يتأتى لهما غزوهم، واجتثاث اسم محمد وعقيدته من تلك الأراضى.

فى السنة نفسها التى بادر فيها المسلمون باحتلال الصخرة، أغار كل من ماركيز قادش والسيد بدرو بونثى ليون Pedro Ponce León ونائب حاكم أشبيلية السيد دييغو دى ميرلو Diego de Merlo وقادة أنتقيرة وأرشدونة وقادة مسيحيون آخرون من المناطق الحدودية على مدينة الحامة. وأسفرت الحيلة التى قام بها جندى موريسكى يدعى خوان دى بايينا Juan de Baena عن نجاح رجل اسمه أورتيغا المتسلق Ortega escalador فى التسلل إلى داخل الحصن، والسماح لهؤلاء القادة بالدخول، والاستيلاء عليه عنوةً فى اليوم الأخير من شهر فبراير. على الجانب الآخر هرع الملك المسلم إلى تعبئة رجاله ظنا منه فى إمكانية استعادة الحصن مرةً أخرى، فاشتبك فى اليوم الحادى عشر من شهر يوليو لهذه السنة مع المسيحيين الذين أمّوا هذه الناحية لتقديم العون والمدد. وكان النصر حليف أبناء جلدتنا، وإن توفى أثناء المعركة السيد رودريغو خيرون Rodrigo Giron ابن السيد دييغو دى كاستيّا Diego de Castilla قائد كاثايّا Cazalla - الذى تولى فيما بعد منصب القائد العام لرهبانية قلعة رباح العسكرية - وآخرون غيره. بيد أن ذلك لم يكن سببًا فى تحقيق المسلم لمراده، فقد دافع المسيحيون

---

(٣١) النص الإسبانى يحتمل أنهم قد اتفقوا مع قائد الحصن على شىء ما، أو أنهم قد أخضعوه. (المراجع).

الموجودون داخل الحصن عن أنفسهم، ثم عاونهم الملك فيرناندو بتقديم المساعدة لهم. بعد هذا لاحق العدو وطارده حتى غرناطة، فاقتحم الغوطة ودمر البساتين وقطع الأشجار فى الأراضى المزروعة، وذلك للمرة الثانية فى ذلك العام. ثم استولى على بلدة تاخور Tajora وأشاع فيها الدمار، كما بسط سيطرته على برج قنطرة بينوس la puente de Pinos- حيث كانت توجد إلبيريا - ثم عاد أدراجه إلى قرطبة متوجًا بالانتصارات، بعد أن عزز تلك الحدود جيداً، ونصّب كونت تينديًا السيد إينيغو لوبيث دى مندوثا Íñigo López de Mendoza عمدةً وقائداً على الحامة.

فى ذلك الوقت الذى كانت حاجة المسلمين إلى الانسجام فيما بينهم شديدة، أذن الرب لقواتهم بالتضاؤل بسبب الفرقة والتشتت، وذلك لكى يَسْهُل على الملكين الكاثوليكيين محاربتهم. كان أبو الحسن شيخًا مريضاً، غارقًا حتى النخاع فى هوى امرأة مرتدة تزوج منها تدعى ثريا - Zoraya ليس لأن هذا هو اسمها ولكنها كانت شديدة الحسن حتى قارنوها بنجم السحر الذى يطلقون عليه الثريا - حتى دفعه عشقه إلى تطليق زوجته الأولى عائشة[٣٢] Ayxa، وكانت ابنة عمه. ومن فرط قسوته أمر بقطع رقاب بعض أولاده عند حوض من الألبستر ما برح قائماً إلى يومنا هذا فى قصور الحمراء بإحدى قاعات بهو الأسود، وذلك بغرض إبقاء الملك بين أبناء ثريا. بيد أن عائشة، خوفًا منها أن يقتل أكبر أبنائها المدعو أبو عـبدِ الله أو أبـى عبدَ الله(*) - وكلاهما واحد - أبعدته عن جواره، فهرب سراً فى قطع من الليل حيث نزل من إحدى نوافذ برج قمارش، مستخدماً حبلاً مصنوعاً من مآزر نسائه وخمرهن. ثم حمله بعض الفرسان من بنى سراج إلى مدينة وادى آش؛ وقد أرادوا الإحسان إليه لأنهم

---

(٣٢) لا ندرى بالضبط هل كان اسمها عائشة أم فاطمة، فهناك وثائق خاصة بالأحباس يرد فيها اسم فاطمة. (المراجع).

(*) يظهر لنا هذا الموضع وغيره الحيرة والأخطاء التى وقع فيها المؤلف لعدم إلمامه بقواعد اللغة العربية. (المترجمة).

لم يكونوا على وفاق مع الملك على خلفية قتله بعض إخوانهم وأقربائهم، بحجة أن واحداً منهم - بمعاونة البقية - وُجِدَ فى قصره إحدى أخواته البكر. ولكن حقيقة الأمر أنه لم يكن يحبهم لأنهم من أقارب عائشة(٣٢)، ولهذا السبب لم يأمن جانبهم. أضحت تلك الأمور الدافع وراء اشمئزاز كل الأشخاص المهمة والرئيسة من أبى الحسن، وأدت إلى إحضارهم ابنه أبا عبد الله من وادى آش رغماً عنه. فى أثناء وجود الملك أبى الحسن فى أحد الأيام فى المروج أدخلوا عبد الله القصر وبايعوه ملكًا. عند

عودة الشيخ من الريف لم يرغبوا فى استقباله داخل القصر، ناعتين إياه بالقاسى الذى قتل أبناءه وفرسان غرناطة من النبلاء. فقام هذا الأخير بالهرب مع قليل من رجاله إلى وادى ليكرين واللجوء إلى حصن موندوخار .Mondeújar ثم قاتل ابنه فى قسوة بالغة مستعيناً بقوة أحد إخوانه البواسل، وكان يدعى أيضاً أبو عبدِ الله أو أبا عبدِ الله(٣٣).

أودت هذه الحرب بحياة كثير من الفرسان ورجال المملكة الأساسيين، وظلت العداوة تتنامى بشدة مع تلك الخسائر فى الأرواح، حتى أن أعداد الفريقين أخذت فى التناقص إلا أن ذلك لم يردعهم، أو يحمل أيًا منهم على طلب العون من الملكين الكاثوليكيين، وذلك لكرههما العميق لكل ما هو مسيحى؛ بل إن كل واحد منهم على حدة كان يشن الحرب على المسيحيين قبيل ذلك. لمَّا سلكت الأمور هذا المنحى، وفى شهر مارس عام ١٤٨٣ ميلادى الموافق ٨٩٥ لقيام مملكة العرب أقدم كل من ماركيز قادش ورئيس رهبانية سانتياغو الحربية السيد ألونسو دى كارديناس Alonso de Cardenas وغيرهما الكثير من الفرسان على جمع رجالهم، ومهاجمة

---

(٣٢) هناك روايات كثيرة حول ما تعرض له بنو سراج، لكن الأقرب إلى التصديق هنا هو خشية أبى الحسن منهم، كونهم أقرب إلى زوجته الملكة. (المراجع)

(٣٣) هو أبو عبد الله الزغل. (المراجع)

حدود مدينة مالقة التى تقع باتجاه الشرق وتسمى الشرقية Jarquía. عندما أفاق مسلمو هذه الأراضى، وكان عددهم كبيراً، وأسرعوا مهرولين إلى ديارهم اشتبكوا معهم وأجهزوا عليهم، وقتلوا كلاً من السادة دييغو Diego ولوبى Lope وبيلتران Beltrán - وهم أخوة الماركيز - والسيدين لورينثو Lorenzo ومانويل Manuel - أبناء عمومته - وغيرهم الكثير من أقربائه الآخرين وأجرائه. كما اعتقلوا كلاً من كونت ثيفونتيس conde de Cifuentes وأخيه السيد بدرو دى سيلبا Pedro de Silva وغيرهم العديد من الفرسان.

كانت تلك هى المعركة التى أُطلِق عليها روابى كوتار Lomas de Cútar، ووقعت صبيحة يوم الجمعة الموافق الحادى والعشرين من مارس. وقد قُتِلَ وأُسِرَ خلالها غالبية المسيحيين الموجودين بها آنذاك. انتشى الملك الجديد أبو عبد الله كثيراً بهذا الانتصار، فقرر التوغل بنفسه فى سائر أرجاء أندلوثيا - ظناً منه أن هذه الأراضى تفتقر إلى الحماية، نظراً للأعداد الكبيرة التى فُقِدَت فى شرق الأندلس. فجمع أكبر عدد استطاع الحصول عليه من الخيل والمشاة ، واصطحب السيد على العطار Alatar قائد لوشة ورافقه الكثيرون من فرسان غرناطة، لكى يحكم قبضته على اللسانة - وهى بلدة عمدة دونثيليس Donceles. وقد قص علينا بعض الشيوخ المسلمين إنه فى أثناء خروج الملك من باب إلبيرة اصطدمت سارية اللواء الذى كان يحمله بقوس الباب وتمزق، وأن العرافين أخبروه أن عليه العودة وعدم المضى قدماً لأنه سيلقى بأساً شديداً. وحين وصل إلى جادة بيّرو Beiro، اخترقت ثعلبة صفوف الجيش ومرقت على مسافة قريبة جداً من الملك، وهربت دون أن يتمكن أحد من قتلها. كان ذلك بالنسبة إليهم فألاً بالغ السوء، خلّف لدى العديد من المسلمين الوجهاء الرغبة فى التراجع، حيث قالوا إن هذه الحملة ستودى بهم إلى الفناء، بيد أن الملك لم يرد التوقف. إبان وصوله إلى اللسانة أمر بقطع الأشجار وأراضى القمح والكروم والبساتين الكائنة بالإقليم، وسلب كل ما تحويه تلك الأراضى. كان كونت قبرة Conde de Cabra موجوداً آنذاك فى بلدة

بايينا، فلما علم بقدوم العدو وما أحدثه من أضرار، هـرول مسرعًا ليجمع أكبر عدد ممكن من الرجال، وعاد بهم إلى اللسانة لينضم إلى عمدة دونثيليس. عندما تنامى ذلك إلى مسامع الملك المسلم، حل فسطاطه وتراجع القهقرى إلى لوشة وبحوزته عدد كبير من الأسرى وغنائم كثيرة؛ أما المسيحيون فواصلوا تقدمهم -تدعمهم العزيمة أكثر من القوة - حيث كانت أعدادهم ضئيلة للغاية مقارنةً بأعدائهم. ثم بادر المسيحيون بالهجوم على المسلمين عند جدول يُقَال له مارتين غونثاليث Martín González يقع على بعد فرسخ ونصف الفرسخ من اللسانة، وذلك فى شهر إبريل من العام ذاته. بما أن إرادة الرب شاءت للمسلمين النصر، فقد اعتقلوا الملك أبا عبد الله وقتلوا القائد على العطار وغيره الكثير من الفرسان المسلمين، واستردوا ما استولى عليه أولئك من الفيء، وعادوا إلى قراهم فرحين فائزين محملين بالمغانم، بعد أن انتزعوا فى ذاك اليوم تسع رايات.

لم يمض وقت طويل عقب أسر الملك المسلم حتى فُتِحَت هذه المملكة، حيث كان حال المسلمين يشوبه الارتباك. لذا أقدم الملك فيرناندو فى تلك السنة على اقتحام غوطة غرناطة بجيشه وعاث فساداً فى الأراضى المزروعة والبساتين والحقول والكروم، وكذلك حدود بلدتى إيّورا ومونتى فريّو Montefrio، كما حاصر قرية تاخورا التى كان المسلمون قد أعادوا تحصينها، وحاربها واستولى عليها بالقوة. ثم أمر بإعمال الدمار فيها وتخريبها مرةً أخرى، ليعود بعد ذلك إلى قرطبة ليقضى بها فصل الشتاء. قامت منافسة شرفية بين كل من كونت قبرة وعمدة دونثيليس حول من سيستحوذ على الملك الأسير، حيث أنعم عليهما الملكان الكاثوليكيان بذلك تحيةً لهما وإقراراً بمعروفهما، آمرين إياهما بحمله إلى قرطبة وهو ما قاما به بالفعل. ما إن أضحى ذاك المسلم بتلك المدينة، حتى أرسل إلى الملكين نفراً من الفرسان آملاً أن يطلقا سراحه، وفى المقابل يصير أحد رعاياهما ويدفع لهما الجزية فى كل عام، وقال إنه سيحارب تحت رايتهما كل مسلم يأبى الخضوع لهما. وقد تباينت آراء المستشارين حول هذا الشأن، وفى

النهاية استُحْسِنَ وأُقِرَ الرأى الذى يرى الاستجابة لطلب الملك؛ لأن وجود ملكين متناحرين فى مملكة غرناطة يعزز من وضع المسيحيين وقدرتهم على قتالهما. وهكذا لم يكتفِ الملكان الكاثوليكيان بتلبية رجائه فحسب، بل إنهما عرضا عليه معاونته على محاربة أبيه وكذا بقية المدن التى ثارت على حكمه خلال فترة أسره، لذا فقد قاما بمنحه حريته وأرسلاه إلى أرضه.

لدى وصول الملك المسلم إلى غرناطة لم يلق من الأهالى الترحاب الشديد الذى كان يتوقعه؛ فعندما علم أولئك بالاتفاق الذى عقده مع الملكين المسيحيين، وأنه بات أحد رعاياهما، أمسى هؤلاء الذين رفعوه إلى سدة العرش أول من انقلب ضده، وانحازوا إلى صف عمه أبى عبد الله - الذى وقف بجانبه أتباع الملك القديم - وقرروا أن يشنوا حرباً جديدةً على المسيحيين. من أجل التمييز بين العم وابن أخيه، وكان كلاهما يحمل الاسم نفسه، أُطْلِق على ابن الأخ الذى كان فى الأسر بغرض التحقير الزُغيبى - وتعنى بالعربية التعس؛ كما لُقِبَ عمه بالزغل وهو أحد مسميات الشخص المغوار، وهو ما سننعته به من الآن فصاعداً على مدار هذا الكتاب.

قام الغرناطيون فيما بعد بالتأليف بين خمسة عشر من العُمَد الرئيسين بتلك المملكة، وجمعوا لهم عدداً هائلاً من الفرسان والمشاة، ومعًا قصدوا حدود أندلوثيا، متعللين بأن مليكهم الذى كان فى الأسر ليس بوسعه إلزامهم بحالة السلم أو إخضاعهم لأى شرط من أى نوع. بيد أن حملتهم لم تسر على النحو المأمول، حيث خرج لويس إيرنانديث بويرتوكاريّرو Luis Hernández Puertocarrero سيد بالما Palma للقائهم على رأس أهالى الثغور وانتصر عليهم. فقام بقتل وأسر أعداد ضخمةً من المسلمين ، من بينهم القادة الرئيسيين، وفاز بخمسة عشر لواء من ألويتهم. وقد اغتنم ماركيز قادش شيئًا من فىء هذا الانتصار، حيث انطلق فى أثر أولئك الأعداء وعثر على من فروا من الخراب والدمار، فأعمل فى كثير منهم القتل والأسر، ومضى إلى بلدة الصخرة فتسلق أسوارها واستحوذ عليها بقوة السلاح، ثم قتل عمدتها ومن كان بصحبته من الرجال وعمّرها بالمسيحيين.

مثلت كل تلك الأحداث عاملاً ساعد على تنامى مشاعر مقت الغرناطيين للزُغيبى الذى لم يعد يشعر بالأمان فى المدينة؛ لذا فقد أقدم على الاختباء مع نسائه وبنيه فى المريّة . لما رأى منه الغرناطيون تلك الفعلة أرسلوا فى طلب أبى الحسن - الذى كان موجوداً فى موندوخار - ونصَّبوه ملكًا عليهم من جديد لتبدأ حربًا شعواء بين الأب والابن. فى عام ١٤٨٤ من ميلاد المسيح الموافق ٨٩٦ لقيام مملكة العرب جمع الملك الكاثوليكى أمراءنا واقتحم أراضى مالقة، فقطع أشجار البساتين والكروم والأراضى المزروعة وأفناها، وبحلول عيد القديس خوان San Juan فى شهر يونيو كان قد استولى على بلدة ألورا Alora بقوة السلاح - رغم أن البعض يزعم أن ذلك قد حدث فى يوليو. ثم أتبعها فيما بعد بلدتى ألوثانيا Alozania وسيتينيل Setenil، حيث ظفر بتلك الأخيرة فى يوم واحد وعشرين من سبتمبر الموافق لعيد القديس ماتيو San Mateo. وكان قد بعث كونت لوثانو Lozano فى تلك الآونة لاستطلاع أحوال قرية كاثارابونيلا Cazarabonela، فقُتِلَ على أيدى المسلمين. بما أن الضرورة دعت لاستكمال الحروب فى تلك الأنحاء التى يُطلَق عليها منخفض مالقة Hoya de Málaga فى العام التالى، ذهب الملك الكاثوليكى إلى إشبيلية لقضاء فصل الشتاء، ودبر فى تلك السنة حيلةً ما بغرض احتلال لوشة ولكنه لم ينفذ الخطة.

مع حلول ربيع عام ٤٨٥ الموافق ٨٩٧ لقيام مملكة العرب عاود الملك فيرناندو الإغارة على منخفض مالقة، فقطع أشجارها ودمر مزروعاتها على النحو الذى سلكه فى العام المنصرم. مع مجىء شهر مايو سلّمه المسلمون حصنى كوين Coin وكَرتمة Cártama، حيث قُتِلَ بدرو روِثى دى ألاركون Pedro Ruiz de Alarcón قائد قوات الملك. وكذلك فقد بسط الملك سيطرته على بنى ماكِس (بنى ماكسن؟) Benamaquex، وشوريّانا Churriana، وبوبياريا Pupiarla، وكامبانيليس Campaniles، وفَضَالة Fadala، ولاودين Laudín، وغوارو Guaro؛ ونصَّب عليها قادة من أتباعه. ثم عرج على مدينة رندة وخاض ضدها معارك ضارية؛ ورغم أنها كانت تبدو منيعة نظراً لموقعها ولأنها كانت تأوى أعداداً غفيرة من رجال الحرب المهرة، فقد سلَّمها المسلمون يوم

الأحد الموافق لعيد فصح بينتيكوستس Pentecostés (*) . فى أعقاب الفوز بالمدينة لم يرغب العمدة المسلم الموجود بالقلعة فى تسليمها، إلا أن الملك أمر بتسلق أسوارها وظفر بها عنوةً. كان أول من صعد جدرانها ألونسو إيرنانديث فاخاردو Alonso Hernández Fajardo، الذى أنعم عليه الملكان الكاثوليكيان بالكثير من العطايا.

لاحقًا استسلمت قرى وقلاع خونكيرا Junquera، وبورغوBurgo، وموندا Monda، وتولوش Tolox، ومونتيخاكى Montejaque، وحصن المارة Hiznalmara، وكارديلا Cardela، وبنى أوخان Benaoján، ومونتيكورتو Montecorto، وأوديتا Audita، وغيرها من المناطق الجبلية وأبارال. وقد رغب المسلمون الذين كانوا يقطنوها فى التحول إلى مدجنين، والدخول تحت كنف الملكين الكاثوليكيين، اللذين استقبلوهما وسط أجواء يسودها الصدق وأقسم المسلمون على كتابهم أن يصبحوا من رعاياهما المخلصين، وأن يلتزموا بأوامرهما وأحكامهما، ويحاربوا تحت رايتهما، ويسددوا كل الضرائب والرسوم التى اعتادوا دفعها للملوك المسلمين بأمانة وإخلاص دون خداع أو تدليس. وكذلك فقد أعطى الملكان الكاثوليكيان الأمان لجميع المسلمين سواسيةً دون التفريق بين من جاءهما طواعيةً لينضم إلى رعاياهما ومن أجبروه هم على الاستسلام. كما أسبغوا عليهم وعلى ممتلكاتهم حمايتهما الملكية، ووعداهم أن يسمحا لهم بالحياة وفقًا لشريعتهم، وأنهما لن يوقعا عليهم أو يأذنا لأى كائن أن يلحق بهم أى جور أو ضيم، وأن دعاواهم وقضاياهم سينظرها قضاتهم وفقهاؤهم وفقًا للقانون الذى يسمونه "الشرع" Xara. وقد منحاهم رخصة يمكنهم بمقتضاها إجراء المعاملات والتعاقدات فى حرية تامة فى شتى أرجاء وبقاع ممالكهما، طالما لا يدلفون إلى الحصون والقرى

(*) احتفال بحلول الروح القدس تحييه الكنيسة يوم الأحد الموافق مرور خمسين يومًا على عيد فصح القيامة المجيد – إذا ما حسبنا كلا اليومين. وعادةً ما يكون بين يومى العاشر من مايو والثالث عشر من يونيو. (المترجمة) -Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vi- gésima primera edición, tomo II, pag. 1568.

المسورة قبل مغيب الشمس بساعة واحدة إلا بأمر منهما أو من عُمَد القرى وحكامها. وفى الوقت نفسه فقد أذنا لكل من يأبى العيش فى تلك الأراضى ببيع أملاكهم، والسير مع نسائهم وبنيهم وعائلاتهم إلى شمال إفريقيا، مانحين إياهم سفنًا ليعبروا فيها آمنين بعد أن أمروا كافة قادة وحكام المناطق الحدودية بحسن معاملتهم؛ لذا فقد شهد العام نفسه استسلام تسع عشرة بلدة فى أبارال Havaral، وسبع عشرة بلدة فى جبال غاوسين Gausín واثنى عشرة فى جبال بيّالوينغا Villaluenga، وكذلك قرية كاثاربونيلا إلى الملكين الكاثوليكيين وذلك بالشروط ذاتها. وفى الحادى عشر من يونيو الذى يوافق عيد القديس بيرنابيه San Bernabé خضعت مدينة مربلة، وكذلك قرى مونتيمايور Montemayor، وكورتيس، وألاريثاتى (العريشة؟)، وغيرها عشرة مواقع أخرى منتشرة حول المدينة. ثم انتقل الملك لاستطلاع أحوال مالقة، فهدم حصن بنى المادلا Benalmadala، وعين قادة من أتباعه على باقى المواقع، ثم عاد ذلك العام ليقضى فصل الشتاء فى قرطبة.

فى تلك الآونة كان الزُغيبى موجودًا فى مدينة ألمريّة. وحينما أدرك الملكان الكاثوليكيان الأهمية البالغة لاستمرار المعارك الدائرة فى تلك الأرجاء من أجل تشتيت قوى العدو، قاموا بتزويده بالأموال وكل الأمور الأخرى اللازمة لذلك، وأمروا قادة وحكام المدن والقرى الحدودية المتاخمة بالوقوف إلى جانبه وإعانته على البقاع التى تخرج عن طوعه. فشرع فى محاربة أبيه وعمه بضراوة معتمداً على ما لقيه من مدد. حدث بعد ذلك أن فطن الغرناطيون إلى أن أبا الحسن قد فقد بصره، وأعاقه كبر السن والأمراض، ولم يعد أهلاً لقيادة المملكة أثناء كل تلك الحروب الطاحنة، فتخلوا عنه وقصد كل الزعماء الأساسيين الزغل - لما عرفوا عنه من بسالة وعنفوان - وبايعوه ملكًا عليهم معلنين أن الزغيبى ليس جديرًا بذلك المنصب، وذلك لتحالفه مع الأمراء المسيحيين المعادين لشريعتهم. ثم أخرجوا أبا الحسن من المدينة ومعه أهله، وأرسلوه إلى حصن موندوخار.

كانت هذه نقطة بداية أخر فصول مسلسل القضاء على مسلمى المملكة. حيث اتفق الزغل، مدفوعًا برغبته فى الانفراد بالحكم، مع نفر من فقهاء ألمرّية ليسهلوا له العبور سرًا فى إحدى الليالى إلى المدينة حتى يتمكن من قتل ابن أخيه أو اعتقاله. عندما حُذِّر ذاك الأخير من تلك الخطة، امتطى جوادًا سريعًا وفر إلى أراضى المسيحيين فى الليلة ذاتها التى شرع فيها الخائنون فى تنفيذ خيانتهم. دخل الزغل إلى ألمرّية واحتل القلعة، ثم هرع إلى القصر، معتقدًا أنه سيجد به خصمه، فلما لم يعثر عليه تملكه غضب وقسوة بالغة دفعته إلى الإجهاز على أخ له صغير كان الزُغيبى قد اصطحبه معه ليحول دون أن يقتله والده كما فعل ببقية إخوته، كما أنه أمر بذبح كل من وقعت عليه يداه من أعضاء الفريق المعادى له. كان لذلك الغدر وتلك الوحشية أبلغ الأثر فى نفس الزُغيبي، حيث لم يستطع الفكاك من تأثيرها والمضى قدمًا فى التحالف مع عمه أو الوثوق به، على الرغم من أنه سنحت له العديد من الفرص التى كان سينجم عنها فائدةٌ ونفعًا. بعد أيام قلائل من وقوع ذاك الحدث توفى أبو الحسن فى قلعة مونديخار. أما الزغل فقد جمع كل قوات تلك المملكة وأخذ يقاتل ضد المسيحيين، وتمكن من تحقيق عدة انتصارات فى ذلك العام، كان أحدها عندما قصد الملك فيرناندو قرية موكلين فى شهر سبتمبر ، حينئذ خرج ملك غرناطة ودارت معارك بينه وبين كونت قبرة على مقربة من تلك البلدة، أودى خلالها بحياة شقيق الملك السيد غونثالو دى كوردوبا Gonzalo de Córdoba، وأعمل الكثير من الخراب.

لذلك ترك الملك تلك الأنحاء على حالها وقصد فى طريق عودته بلدتى كامبيل Cambil، وأبارال المنيعتين، اللتين كانتا تشكلان جبهة المسلمين فى مواجهة جيّان فحاصرهما وقاتلهما باستخدام المدفعية حتى استسلمتا له، أما العمدة المسلم ومن صحبه من رجال الحرب فى الداخل ففروا إلى غرناطة. كما أن حامل مفاتيح رهبانية القنطرة Alcántara، الذى كان موجودًا فى مدينة الحامة، تسلق أسوارها وفرض سيادته عنوةً على قرية صالحة التى تقع على حدود بلش؛ لذا فقد أمر الملك بتقوية تحصينات تلك القرى ثم ذهب ليقضى شتاء ذلك العام فى كل من طليطلة وقلعة عبد السلام Alcalá de Henares.

الفصل الثالث عشر

ما قام به الملكان الكاثوليكيان فى أثناء غزو مدن مملكة غرناطة فى عام ٨٦.

عاود الملك الكاثوليكى اقتحام مملكة غرناطة فى العام الذى يليه - ١٤٨٦ - وحاصر مدينة لوشة، وعلى الرغم من أنه كان قد سبق له فعل الأمر عينه لعدد من السنوات دون أن يفلح فى الاستيلاء عليها؛ كما أن المسلمين كانوا قد تمكنوا فى أثناء الحصار من قتل السيد رودريغو تيبّث خيرون Rodrigo Téllez Girón رئيس رهبانية قلعة رباح الحربية(٣٥) بسهم مسموم فى الثالث من يولية عام ١٤٨٢، فإن الملك هذه المرة ثابر واستمر فى محاصرتها وقام بالعديد من الاشتباكات والمعارك القوية، حتى دفع العمدة المسلم القائم بشئونها إلى الاستسلام وذلك فى يوم الإثنين الموافق التاسع من شهر مايو من العام ذاته. بعد خضوع لوشة تبعتها فى الاستسلام كل من إيّورا، وموكلين، ومونتيفريّو، وكولوميرا، حيث انقطع المسلمون عن حماية تلك المدن وقصد المسيحيون مدينة غرناطة. عندئذ قام جلالته بتزويد كل المدن التى استسلمت بالمحاربين ثم أسلم كل منها إلى عمدة، وعاد منتصراً إلى قرطبة.

أثناء اضطلاع الملك فيرناندو بتلك الفتوحات على رأس جيشه، كانت الملكة الكاثوليكية إيسابيل تزوده بالعتاد والمؤن، فأضحت تتنقل من مكان إلى آخر لكى تمد

---

(٣٥) رغم هذه الحقيقة التاريخية فإن رئيس الرهبانية يظل يظهر فى رواية "الحروب الأهلية فى غرناطة" إلى قبيل لحظة سقوط المدينة فى يد الملكين الكاثوليكين (المراجع).

القوات الملكية بما تحتاج إليه؛ لذا فقد تمتعت القوات دومًا بوفرة فى الزاد والأسلحة والذخائر والأفراد، حيث أظهرت الملكة حماسًا واجتهادًا هائلين.

فى الوقت الذى سعى فيه الملكان الكاثوليكيان لتحقيق الفتوحات الهادفة لإرضاء الرب وأمه القديسة، أخذ المسلمون يتناحرون فيما بينهم بشراسة. أما الزُغيبى الذى انزوى فى بلش البيضاء Vélez el Blanco متمتعًا بالحظوة لدى مسيحيى الثغور، فشرع يقاتل فى تلك الأرجاء ضد الزغل الذى كان يفوقه قوةً؛ إذ كان قد بسط سطوته على غرناطة وسائر مدن تلك المملكة، وبات يقتل من يدين لغيره بالولاء. بيد أنه لم يكن فى قوة ونفوذ مليكنا الكاثوليكى؛ لأن قواته كانت مقسمة بين جبهتين، وهو ما كان يعنى الكثير لصاحبىّ الجلالة؛ لأنه يمكنهما من مجابهة تلك الحشود على النحو الذى يتراءى لهما. بما أن ذاك الأمر سار وفقًا لمشيئة الرب، فقد شاءت إرادته السماوية إحداث فرقة وشقاق آخر كبير بين صفوف المسلمين، حيث أقدم الزُغيبى مغامرًا على فعلة لا يقل التهور فيها عن الخطورة.

لقد فطن ذاك الملك إلى أن عدوه تقع تحت يديه غالبية بقاع المملكة وأفضلها، وأنه لا تجب له الطاعة فى أى من المدائن، كما أن الفرسان الذين تبعوه وخدموا تحت لوائه آخذين فى التخلى عنه دون أن يعبئوا بموتهم شبه المحقق، ومفضلين ذلك على الانضمام إلى حملته. لذا فقد اتفق على أن يتسلل خفيةً فى إحدى الليالى وبصحبته نفر ممن بقى معه من الفرسان إلى مدينة غرناطة، فشرعوا يسيرون فى الجبال الوعرة ذات التضاريس الصعبة بعيدًا عن طريقهم حتى وجدوا أنفسهم فجأة فى البيازين – تاركا وراءه سائر الركب ممن داخلهم الفزع عند رؤية الأسوار، وقد توجه هو ومعه خمسة رجال فقط إلى باب فحص اللوز، وبدأ فى التحاور مع حراسه؛ فأخبرهم بأمور شتى حملتهم على التثبت من هيئته وحضرته الملكية، وإجابته إلى كل ما أمرهم به، دون أن يكون بينهم أى اتفاق مسبق. ففتحوا له الأبواب، وأدخلوه هو وصحبه؛ فقضى تلك الليلة متنقلاً بين أبواب منازل الزعماء من أصدقائه الذين يفضلونه عن غيره بالتأكيد، فأخذ يرجو البعض ويمنّى البعض الآخر، حتى حرضّهم على حمل السلاح.

ثم سلك سائر الجيران مسلكهم، وفى صبيحة أحد الأيام أشهروا أسلحتهم وأغلقوا فتحات الشوارع والمخارج التى يتعين على أهل المدينة اللجوء إليها للخروج منها، كما أنهم أخذوا فى التزود بكل الأشياء التى تلزمهم للدفاع عن أنفسهم.

على جانب آخر قام الزغل، بعد أن انتشر فى المدينة نبأ وجود ابن أخيه فى البيازين، فى شن الهجوم عليه، مستعينًا بأكبر عدد ممكن من الرجال. خرج هؤلاء وأولئك إلى ساحة القتال، ودارت بينهم معركة حامية الوطيس، لقى خلالها الكثيرون من كلا الفريقين مصرعهم. وقد اضطر الزُغَيبى - صاحب اليد السفلى، لقلة عدد جنوده - إلى التقهقر حتى البيازين والتحصن داخلها. أما الزغل فقد جَنَّدَ كل طاقاته لمجابهته، فأخذوا يتناحرون فى قسوة بالغة على ذاك المنوال لفترة تربو على خمسين يومًا، كانت أرواح الرجال تُحصد فيها دون داع. بعد ذلك أرسل الزُغيبى فى طلب المدد والغوث من الملكين الكاثوليكيين، اللذين كانا قد قصدا جليقية ليحجا ذاك العام إلى كنيسة القديس سانتياغو، واستطاعا فى طريقهما السيطرة على بونفيرادة Ponferrada وغيرها من المدن والقلاع. أمر صاحبا الجلالة القائد بدرو إنريكيث Pedro Henríquez أن يغيثهما بقواته، فجمع هذا الأخير أكبر عدد تسنى له من الخيل والمشاة، وتوجه إلى غرناطة حيث اشتبك مع مسلمى الزغل الذين خرجوا للقائه. كما أنه زَوَّدَ البيَّازين بخمسمائة من حملة البنادق المسيحيين ليحافظوا بحماستهم على ولاء أتباع الزُغيبي، وقد تمكن من التراجع حتى منطقة الحدود دون أن تلحق به خسائر.

بينما كانت تلك الأحداث تدور فى غرناطة، غادر الملك فيرناندو مدينة قرطبة فى عام ١٤٨٧ متوجهًا لمحاصرة مدينة بلش مالقة Vélez Málaga، التى أُطلق عليها هذا الاسم لقربها من مالقة، وليس لوقوعها داخل نطاقها. حيث حاصرها بعد الاحتفال بعيد الفصح المجيد بيوم واحد، ليوافق التاريخ التاسع عشر من إبريل. حينئذ أدرك فقهاء غرناطة وشيوخها أن المسيحيين يحتلون مدن وقرى المملكة ويحصنونها، بينما المسلمون مشغولون بالتناحر فيما بينهم، لذا فقد اجتمع زعماؤهم الأساسيون وصعدوا

فى يوم من الأيام إلى قصر الحمراء، ودارت بينهم وبين الزغل مناقشة طويلة قالوا له فيها: "سيدى، لماذا تعمل جاهداً لتنصيب نفسك ملكاً، إذا كنت ستترك الأرض التى ستملكها تضيع سدى؟ لقد أمّ المسيحيون مدينة بلش لمحاصرتها، وإذا ما خسرتها ستفقد معها مالقة وكل ما تبقى من بلدان المملكة. إن ابن أخيك موجود فى البيّازين، وهو يؤخرك ويعطلك مستعيناً بإمدادات أعداء ديننا، بينما يزداد الملك المسيحى سطوةً ونفوذاً. فلترحم هذا الشعب، واعقد مع ابن أخيك صلحًا أو هدنة لكى يتم التخلص من العدو المشترك، حتى لو فقدت شيئًا من حقك الشرعى". كانت تلك الدوافع كافية لتحريك مشاعر العطف والشفقة لدى الزغل، فأجابهم بأنه عليهم التوجه لاحقًا إلى ابن أخيه للتفاوض معه لأنه سيُسَر كثيراً إذا ما وُجِدَت طريقة لرأب الصدع وإحلال السلام معه، كما أنه سيقدم له السمع والطاعة ولسوف ينضم إلى لوائه. نُقِلَت هذه الإجابة فيما بعد إلى الزغيبى عن طريق الفقهاء والشيوخ عينهم، بيد أنه رد عليهم فى حزم وثبات أن عِظَم الخيانة والفظائع التى اقترفها عمه بحقه هو وصحبه لن تحمله على الوثوق بكلمته أبداً، أو الرغبة فى عقد أية هدنة أو مصالحة تحت أى ظرف كان، ثم صرفهم وهم يجرون أذيال الخيبة.

عندما تنامى إلى علم الفقهاء والشيوخ أن الملك فيرناندو يواصل حصاره العنيف الخانق على بلش، وأن الملكين المسلمين لن يصبحا على وفاق، طلبوا من الزغل بإلحاح أن ينقذهم، وعلى الرغم من حيرة هذا الأخير -إذ لم يكن يريد أن يترك غرناطة دون حماية- فإن محاولاتهم لإقناعه كانت من الكثرة والإلحاح إلى الحد الذى دفعه أن يقرر التوجه لإنقاذ مدينة بلش، وذلك لاسترضائهم وإدخال السرور على نفوسهم. فخلّف وراءه الحمراء بعد تحصينها وتأمينها ، ثم زاد من دفاعات نقاط الضغط التى أحاط بها البيازين آنفًا، وخرج على رأس عدد من الفرسان يصحبهم أكثر من عشرين ألفًا من المشاة، ظنًا منه أنه سيفاجئ القوات الملكية المسيحية على حين غرة، وسيهجم عليهم بغتةً فى أشد بقاع الجبل الأكبر Sierra Mayor وعورةً وصعوبةً. لكن الملك فيرناندو كان على دراية بالأمر، وكانت طلائعه متمركزة على النظام الأمثل، وكانت

معسكراته ذاخرةً بالمؤن، فخرج للقائه، وهزمه وأجبره على التقهقر حتى مدينة ألمنكب بعدما ألحق به خسائر فادحة. أما ذاك المسلم فإزاء عدم استشعاره للأمان هناك، فقد انتقل بعد ذلك إلى مدينة ألمرِّية، ومنها عاد أدراجه لاحقًا إلى وادى آش، دون أن يجرؤ على الرجوع إلى غرناطة؛ لأن الغرناطيين حيال علمهم بهزيمته، ورغبةً منهم فى إحلال السلام، بايعوا الزُّغيبى ملكًا وسلموه الحمراء وباقى البقاع. وقد أمر ذاك الأخير لاحقًا بقطع رقاب أربعة من أهم زعمائها الذين كانوا قد خالفوه وعارضوه.

بعدها أخبر أبو عبد الله الملكين الكاثوليكيين بتلك الواقعة، وطلب منهم الأمان لكل مسلمى غرناطة وغيرها من بقاع المملكة، لكى يعاودوا مزاولة أعمالهم وتجارتهم وتعاقداتهم سالمين فى الأراضى المسيحية. فلما أجابوه إلى طلبه فى حفاوة وحماس بالغ، أكد لهم ما كان قد وعدهم به سلفًا من أنه - إذا ما سيطروا على ألمريّة وبياسة ووادى آش، حيث معقل الزغل - سيسلم لهم كذلك مدينة غرناطة، فى غضون ثلاثين يومًا بعد أن يؤمِّنوا أماكن وقرى بعينها ليعيش فيها. سَعِدَ الملوك بتلبية سائر رغباته، وبعدها شرعوا فى إرسال كتب الأمان إلى عمد وحكام البقاع الحدودية، آمرين إياهم بحسن معاملة أتباع الزغيبى وأن يكفلوا لهم حرية الحركة والتجارة فى شتى أرجاء البلاد. علاوةً على ذلك فقد بعثوا إخطارات إلى المدن والقرى الموالية الزغل مفادها أنه عليهم الاستسلام للزُّغيبى فى غضون مهلة قدرها ستة أشهر، منذرين إياهم أنهم إذا لم يستجيبوا، فسوف يحاربونهم ويحتلوا مدنهم.

الفصل الرابع عشر

مواصلة الملكين الكاثوليكيين فتوحاتهما في مملكة غرناطة، وفرض نفوذهما على مدينة بلش مالقة وغيرها.

من جهة أخرى قام مسلمو مدينة بلش، بعد أن فقدوا الأمل فى إنقاذهم واستشعروا الضغط الشديد الذى مورس عليهم، بتسليم المدينة إلى الملك فيرناندو، وذلك يوم الجمعة الموافق السابع والعشرين من شهر إبريل لسنة ١٤٨٧ لميلاد المسيح - وهو عام ٨٩٩ لقيام مملكة العرب. على الرغم من أن هناك من يزعم أن التاريخ كان العاشر من ذاك الشهر. تقع هذه المدينة على سفح جبل منتميس، على بعد نصف فرسخ من البحر، وقد أطلق عليها القدماء اسم مينيبا Meneba، ولكن هذه الأخيرة لا توجد فى نفس المكان، بل تقع على رابية هى أقرب إلى الغرب، حيث يمكن رؤية بعض الأبنية القديمة.

فى أعقاب فتح مدينة بلش، الذى أبلى خلاله الملك الكاثوليكى خير بلاء كفارس قوى تملأه الحماسة، حتى أنه وصل فى أحد الاشتباكات التى خاضها إلى باب المدينة وطعن بالرمح مسلماً كان قد قتل أحد غلمانه؛ فقد استسلمت قرىً وحصون منتميس وقمارش وكانيّاس Canillas وناريخا Narija وكومبيتا Cómpeta والموخيّة Almojía ومايناتى Mainate وحصن أوتى Iznate وبيناكى Benaque وابن عائلة Abní Aila وبن أداليد (بنى خالد؟) Ben Adalid وتشيمبيتشينليس Chimbechinles وبيدوبيل Pedupel وبايرو وسيناتان Sinatán وبنى كُرّام Benicorram وكارخِيش Carjix وبواس Buas وكاسامور Casamur وأبيستار Abistar وخاراراش Jararax وكوربيلا

Curbilaورويبتى Rubite ولاكوث الخضراء Lacuz el Hadara والكوتشايدة (القشيدة) Alcuchaida ودايماس Daimas والبـرج el Borge وبورغـاثا Borgaza ومـاتشـار Máchar وآخر Hajar وكوتيـتروش Cotetrox والحدق Alhadac والمدينة Almedita وأبرينا Aprina وألاوتين Alautin وبيريانا Periana ومارو Maro وغيرها الكثير فى نواحى مالقة وأراضى بلش.

بعد ذلك منح الملكان الكاثوليكيان نفس الشروط التى قُدِمَت لمدينتى رندة ومربلة وكذلك القرى والبقاع الواقعة فى دائرتها. فيما بعد عين الملك الكاثوليكى عمده ونصّب رجال جيوشه على الحصون، ثم توجه لمحاصرة مدينة مالقة التى تبعد خمسة فراسخ إلى الغرب من بلش، وفرض عليها حصاراً فى اليوم السابع عشر من شهر مايو للعام ذاته. قاومت تلك المدينة فترة طويلة، وتلقت أفدح ضرر وأبلغ خسائر بين مدن المملكة لما حوته بداخلها من أعداد غفيرة من الجنود، لكنها استسلمت فى نهاية الأمر. وقد دلف إليها كل من الملك فيرناندو والملكة إيسابيل -اللذين كانا مشاركين فى الحصار- يوم عيد القديس لويس San Luis الموافق التاسع عشر من شهر أغسطس من نفس السنة، بعد أن بسط عليها المسلمون سيطرتهم طوال سبعمائة وسبعين عاماً؛ وقد أُسِرَ كل من فيها من المسلمين. لاحقًا استسلمت شتى قرى وبقاع الشرقية وأويا Hoya، التى لم تكن قد أسلمت زمامها من قبل. حينئذ نصّب عليها الملكان عمدهما وجنودهما ، وعمّرا المدينة بالمسيحيين قبل أن يتوجها مكللين بالانتصار لقضاء فصل الشتاء فى سرقسطة Zaragoza بأراغون.

الفصل الخامس عشر

كيف تابع الملكان الكاثوليكيان فتوحاتهما، وما أحرزاه فى الناحية الشرقية من تلك المملكة خلال عام ١٤٨٨.

فى أعقاب إنهاء الملكين الكاثوليكيين للحرب التى دارت فى الجانب الغربى لتلك المملكة، عاودا تجميع صفوف جيشهما فى مرسية فى عام ١٤٨٨ ميلادية. حيث انطلق مليكنا فيرناندو صوب الناحية الشرقية التى تضم كل من بيرا وغويسكار وألمرية وبسطة ووادى آش، وكانت جميعها مواليةً للزغل، وشن عليها حربًا ضروسًا. نظرًا لأن الملك المسلم لم يكن بالقوة التى تتيح له الخروج لملاقاته، فقد استسلمت فيما بعد مدينتا بيرا وموخاكار، وقد حدث الأمر عينه مع مدن وقلاع لاس كويباس Las Cuevas، وإويركال Huércal، وساخنة Sagena، وألباركا Albarca، وبيدار Bedar، وسيرينا Serena، وكابريرا Cabrera، ولوبريل Lubrel، وأولولا Ulula، وأوبيرا Overa، وسورباس Sorbas، وتيريسا Teresa، ولوثاينا Lozaina، وتورياس Torrillas، وأويونكى Huyunque، وسويبروSuebro، وبيليفيك Belefic، ونيخار Níjar، وبيركال Vercal، وبلش البلانكو، وبلش الروبيو Vélez el Rubio، وكانتوريا Cantoria، وأوريا Oria، وخيركوس Jércos، وألبوش Albox، وألبورياس Albóreas، وبنى أندادالة (عبد الله؟) Beni Andadala، وبنى طرف التحليد Beni Taraf Atahelid، وأتارديا Atardia، والهابية Alhabia، وبنى الوزير Beni Alguacil، وبنى ليبرى Beni Libre، وبنى ثانون Beni Zanón، وبنى مينا Beni Mina، وألمارتشث Almarchez، وكوتوباو Cotobao، وبنى كالغاد Beni Calgad، وليوخار Leujar، وفينيس Fines ، وغيرها

الكثير. أما المسلمون فقد أضحوا مدجنين ورعايا لأصحاب الجلالة بنفس الشروط التى طُبِّقت على غيرهم.

بعد الانتهاء من ذلك، خرج الملك ليتعرف من جديد على مدينة ألمريّة ويستكشف بسطة؛ وقد استطاع فى طريقه أن يغنم مدن غيكا Gueca، وأورثى Orce، وغاليرا، وكاستيِّيخا Castilleja، وبنى ماوريل Beni Maurel، ثم عين عليها جميعًا ولاته. وقتئذ كان الزغل فى بسطة، وحينما أتى رجال الملك لاستكشاف المدينة، طلع المسلمون لملاقاتهم خارجها، وبدءوا معركة حامية الوطيس ضد المسيحيين، قُتِلَ خلالها السيد فيليبى دى أراغون Felipe de Aragón رئيس رهبانية مونتيسا Montesa العسكرية وابن شقيق الملك فيرناندو، فهو الابن غير الشرعى لشقيقه الأمير كارلوس Carlos؛ رغمًا عن ذلك فقد تحقق لنا[٣٦] النصر. فيما بعد واصل الملك مسيرته صوب غويسكار، التى أسلمها له المسلمون لاحقًا. هنالك ترك الملك الحصون مزودة بالمؤن وتوجه إلى مدينة ديل كامبو Medina del Campo لقضاء فصل الشتاء، وذلك لتنظيم الشئون التى تسهم فى إدارة الممالك التى يحكمها. بنهاية هذا العام، وتحديداً فى العاشر من أكتوبر استطاع الظفر ببلاسينثيا Plasencia على أيدى آل كارباخال وغيرهم من الفرسان.

(٣٦) كلمة "لنا" تعنى بوضوح أن المؤلف لا يتخذ موقف الحياد. (المراجع).

الفصل السادس عشر

كيفية تمكن الملكان الكاثوليكيان من الاستيلاء على مدينتى بسطة ووادى آش، وإنجازهما الكثير من الأمور فى عام ١٤٨٩ لميلاد المسيح.

فى أعقاب استسلام القرى والقلاع السابق ذكرها، وما كان من استطلاع أحوال المدن بالطرق التى أسلفناها، أدرك صاحبا الجلالة فى ربيع عام ١٤٨٩ مدى الأهمية المترتبة على مواصلة الحرب ضد المسلمين. فقصدا مدينة جيّان ، وأصدرا أوامرهما لجمع كل قواتهما المتمركزة فى مدينتى بياسة وأبدة، وذلك عند مقدمة كاثورلا لأنها نقطة العبور إلى تلك البقاع. عندما انتظمت الأمور على النحو الأكمل، شرع الملك الكاثوليكى فى مسيرته صوب بسطة، وفى أثناء الطريق خاض المعارك مع حصن كويار Cúllar وتغلب عليه، وسلمه المسلمون إياه بعد قتال مرير. بعدها فتح قلاع فرويلة Froila، وباثوس Bazos، وكانييس Canilles، وبن سلّيمة Benzulema؛ وذلك حتى لا يُخلِّف وراءه أى عوائق أمام آل كارباخال - los Carvajales الذين تولوا مهمة تزويد القوات الملكية بالمؤونة– ثم حاصر مدينة بسطة. وكان داخلها سيدى يحيى Cidi Yahaya عمدة ألمريّة وابن عم الزغل، وهو صاحب قدر ومنزلة رفيعة، وقد ذاد عن مدينته بإصرار وبسالة مثالين طوال ستة أشهر وعشرين يومًا. حصدت المعارك والاشتباكات أرواح الكثير من القتلى فى كلا الفريقين، وفى نهاية الأمر، فطن المحاصرون إلى مثابرة جيشنا وثباته فى موقعه، بل إن تعداده كان يزداد كل ساعة، وهو أيضا يُحكِم عليهم الحصار بما احتاط به من تشييد البروج وحفر الخنادق، لكى يمنعهم من الخروج أو الدخول دون تعريض أنفسهم للخطر المحدق. كما أنهم ليس

لديهم من يمد إليهم يد العون، فالملك الزغل محاصر فى وادى آش ولا يقدر على مساعدتهم؛ لذا فقد طالبوا العمدة يحيى أن يسعى للاستفادة من الموقف . فأسلم المدينة وسائر البروج والقلاع المحيطة تحت شروط عادلة للغاية؛ واحتلها بنو جلدتنا من المسيحيين فى اليوم الرابع من شهر ديسمبر من ذلك العام.

فى أعقاب الفوز ببسطة خضعت سائر قرى وحصون وادى بورشينا ونهر المنصورة التى لم تكن قد أذعنت بعد، وأسلم أهلها القلاع إلى صاحبى الجلالة وقدموا أنفسهم كمدجنين ورعايا لجلالتهما. وقد حدث الأمر عينه مع قاطنى مدينة وضفاف نهر ألمرية ومنطقتى غادور وفيلابلس[٣٧] Filables الجبليتين، ولم يتبق بعد ذلك سوى مدينة وادى آش ؛ وقد حاول القاضى يحيى، الذى سعى لأن تحذو كل المدن حذوه، الاتفاق مع الزغل لتسليمها. أما ذاك الأخير فأسقط فى يده، وعقد معاهدة سلام مع الملكين الكاثوليكيين منحهم بموجبها المدينة، وقرى زناتة التسع والبلدان الواقعة فى المنطقة الجبلية بين وادى آش وغرناطة. ثم عمل لاحقًا على استسلام بقاع السهلين los dos Ceheles، وأندرش Andarax، ودالياس Dalías، وبيرخا، وأوخيخار، وخوبيليس Juviles، وفيريّرة Ferreira، وبوكيّرة Poqueira – وتقع جميعًا فى البشرات وأورخيبا ووادى ليكرين – حيث قام بحث الأهالى على الاستسلام، لأنه كان يسعده أكثر رؤيتها تحت سيطرة المسيحيين من أن يبسط ابن أخيه سطوته عليها. هذا وقد أنعم عليه صاحبا الجلالة ببلدة أورخيبا ووادى ليكرين ونصف مملحات مالايا Malaba والعديد غيرها من المواريث لكى يعيش من ريعها؛ وقد ظل هو والقاضى يحيى قائمين على خدمة صاحبى الجلالة حتى وضعت الحرب أوزارها. ثم طلب الإذن بالانتقال إلى بلاد المغرب، قائلاً إنه لا يود العيش فى أرض كان ملكًا عليها، فهو لم يعد فى استطاعته العودة إلى الملك، ولم يمسِ طامحًا لنيل هذا المنصب. وقد أمر ملك فاس بأسره نظرًا لما تسبب فيه من شقاق فى مملكة المسلمين؛ وكان على قناعة تامة برأيه،

---

(٣٧) قد يكون تحريفًا لاسم مدينة فيلابريس Filabres، وليس هذا جديدًا على المؤلف. (المراجع)

وأفقده بصره بوضع قضيب من النحاس الأصفر المشتعل أمام عينيه. وقد عاد الزغل أدراجه فيما بعد إلى مدينة بلش غمارة، وعاش فيها أمداً طويلاً رجلاً بائسًا ضريراً، وكان ملك بلش يُطْعِمه ويكسوه، وصار على الدوام يرتدى فوق ثيابه لافتة كُتِبَ عليها باللغة العربية: "هذا هو ملك الأندلسيين البائس."

عندما توجه الزغل بلاد المغرب، ترفق أصحاب الجلالة بالأميرين علىّ Alí ونصر Acre – أبناء الملك أبى الحسن وزوجته ثريا – اللذين تنصرا لاحقًا وسُميا بالسيدين خوان Juan وفيرناندو Hernando[٣٨]، وأنعما عليهما بطاعتى أورخيبا وخوبيلين -Ju belein، وقد طفقا قائمين عليهما حتى انتزعهما من بين أيديهما صاحبا الجلالة أثناء ثورة البشرات فى عام ١٤٩٢، حيث عوضاهما ببعض الحقوق، وأربعمائة ألف عملة كمعاش دائم، بالإضافة إلى حيازة قلعة مونليون Monleón وحكم مملكة جليقية. وقد تحول إلى ديانتنا سيدى يحيى وأحد أبنائه فتسمى الوالد بالسيد بدرو Pedro والابن بالسيد ألونسو Alonso، وكانا فارسين مقدامين، لهما مآثر جليلة خلال فتح غرناطة، لذا فقد أنعم عليهما صاحبا الجلالة بالنصف الآخر من مملحة الملاّحة[٣٩] Malaha. وقد عوضاهما عنها لاحقًا ببلدة مارشينا Marchena إلى جانب مواريث أخرى وفيرة. أما ذاك الأب فهو ولد ابن سليم بن إبراهيم أبو ذكريا Aben Celin Aben Abrahem Abuzacari، أمير ألمريّة وحفيد إبراهيم بن المول أبو ذكريا -Brahem Aben Almao Abu zacari، الذى لُقِّبَ بالنجار Nayar لتمييزه عن الملك الأيسر .Izquierdo. وكان يحكم غرناطة إبان حكم الملك خوان الثانى Juan el Segundo وبإنعام منه. كما أنه ينتسب إلى سلالة الملك ابن هود سليل ملوك غرناطة الذين طردوا الموحدين من إسبانيا، كما أوردنا سلفًا فى المجلد الثانى من كتابنا إفريقيا.

---

(٣٨) أنجب الملك أبو الحسن من زوجته ثريا الأميرين نصر (الذى أصبح اسمه فيرناندو بعد تنصره) و سعيد (الذى أصبح اسمه خوان) (المراجع).

(٣٩) ذكرها المؤلف بالباء فيما سبق، ونظن أن الاسم هنا أصح. (المراجع).

أضحى دى غرانادا هو لقب ذرية كل من السيدين خوان وبدرو، وأمسى شعارهما رمانتين مرسومتين على خلفية زرقاء صمّاء، يتخللها لافتة كُتِبَ عليها : لا غالب إلا الله . أما ذرية السيدين بدرو وألونسو فقد تلقبت ب بينيغاس Venegas، وأيضًا دى غرانادا(*). وكان شعارهما خمس رمانات نُقِشَت على خلفية زرقاء صمّاء - وكانت فى البداية رمانة واحدة - ولكنهم غيروها إلى خمس رمانات وزينوها بنفس اللافتة. وحدث ذلك فى أعقاب تحدى عُقِدَ فى غوطة غرناطة، انتصر فيه الأب وابنه، وأردوا خمسة من المسلمين قتلى. وقد أكرمهم صاحبا الجلالة وتفضلا عليهم بعظيم الشرف أن كانا عرابيهم. وقد زوجا السيد ألونسو من خوانا دى ميندوثا Juana de Mendoza وصيفة الملكة الكاثوليكية، وابنة السيد فرانثيسكو أورتادو دى ميندوثا Francisco Hurtado de Mendoza رئيس ديوان جلالتها. وقد أنجبا ابنيهما السيد بدرو دى غرانادا بينيغاس Pedro de Granada Venegas فارس رهبانية سانتياغو Santiago والحاجب الأكبر لغرناطة، وهو والد ألونسو دى غرانادا بينيغاس Alonso de Granada Venegas سيد كل من كامبوتيخار Campotéjar وخاينا Jayena، اللتين سنتحدث عنهما فيما بعد.

إذا ما عدنا إلى روايتنا التاريخية مرة أخرى، سنجد أنه لم يتبق أمام الملكين الكاثوليكيين فى تلك المملكة سوى فتح مدينة غرناطة، وبعض الأماكن التى أبرمت العهود على موالاة الملك الزُغيبي. وقد أرسل الملكان إلى أبى عبد الله ما يفيد أن عليه الوفاء بما تعهد به آنفًا، وتسليم تلك المدينة وسائر حصونها فى غضون ثلاثين يومًا، وسوف يهباه قدرًا محددًا من الأموال ، بالإضافة إلى طاعات البشرات، التى سينتقل إليها ويعيش فيها. وقد تعكر صفو هذا الأخير عند سماعه لهذه الرسالة، وأجابهما بأن

(*) كلمة غرانادة granada تعطى معنى رصاصة أو رمانة، وهى أيضًا المرادف الإسبانى لغرناطة. أما دى غرانادة فتعنى الغرناطى . (المترجمة).

مدينة غرناطة كبيرة ومكتظة بالسكان، حيث استوطنها - فضلاً عن سكانها الأصليين - أناس من مناطق شتى تتباين آراؤهم؛ وبمقتضى ذلك فإنه لا يتسنى أو يجوز له الالتزام بما يُطلَب منه، لا سيما خلال المدة القصيرة التى يتعين عليه خلالها توفيق مآرب ومشيئة هذا الكم المتنوع من الأفراد. عندما عرف صاحبا الجلالة بذاك الرد عرضا عليه أموالاً وبلدانًا أكثر، وإن لم يمنحاه كل ما سأل، لكى يحمل الغرناطيين فيما بعد على التخلى عن أسلحتهم وإخلاء بعض منازل محددة فى مناطق منيعة ليقطنها المسيحيون. لكنه مع هذا لم يبد موافقته، بل أعلن عداوته لهما، ثم حرَّض أهالى البشرات والجبال والوادى على القيام بالثورة. وقد خرج من غرناطة وحاصر حصن بادول Padul وفتحه، قبل أن يتمكن الملك فيرناندو من إنقاذه، حيث كان موجوداً إذ ذاك بالقرب من وادى آش. نظرًا لأن الوقت كان قد تأخر للغاية، فقد أمر جلالته بتحصين حدود كل من حصن الهندين Alhendín، وكولوميرا، وموكلين، وإيّورة، ومونتيفريّو، وقلعة يحصب، ولوشة، والحامة، وجميعها تحيط بغوطة غرناطة. بعد ذلك اتجه لقضاء فصل الشتاء فى مدينة إشبيلية، حتى يصدر الأوامر حول ما يجب تجهيزه بحلول فصل الربيع.

الفصل السابع عشر

كيف عاود الملكان الكاثوليكيان مسيرة الفتوحات، وما أنجزاه فى عام ١٤٩٠

رجع الملك فى العام التالى - الموافق ١٤٩٠ فى التقويم المسيحى - لاقتحام غوطة غرناطة، وبصحبته كل من الزغل وعمدة بسطة وآخرون غيرهما من كبار المسلمين الأجلاء. وأثناء انهماك المسيحيين فى إعمال الخراب فى الحقول وتقطيع الأشجار فى الأراضى المزروعة، هب الغرناطيون فى العديد من الأحايين للاشتباك معهم والدفاع عنها. فى إحدى تلك المرات قتلوا السيد ألونسو باتشيكو Alonso Pacheco، وهو أخو ماركيز بيينا Villena الذى أصيب بطعنة رمح فى أحد ذراعيه، وقتلوا عدداً كبيراً من الفرسان كانوا يرافقونه؛ بيد أن تلك الواقعة لم تسفر عن وقف تقطيع الأشجار. وقد حصن الملك الحدود جيداً قبل أن يرجع إلى قرطبة، إلا أن قوات الملك لم تكن قد نظمت انسحابها عندما خرج الزُغيبى من غرناطة لمحاصرة برج همدان على بعد فرسخين فقط من المدينة. على الرغم من مناعة الحصن واحتوائه على مقاتلين ورجال حرب مهرة، فإن الزغيبى قاتل باستخدام الحيلة واستعمل الآلات التى كانت تستخدم آنذاك فى تصميم بالغ، حتى أن عمدة الحصن عندما رأى المسلمين قد حفروا عند الأساسات ودعموها بالحطب والأشجار ليشعلوا فيها النيران اضطر إلى الخضوع. وقد أمر المسلم بهدم الحصن وتسويته بالأرض، واقتاد من كان بداخله من المسيحيين أسرى إلى غرناطة.

حملت أصداء ذاك النصر مسلمى البشرات والجبال والوادى على الثورة ضد الحصون الموالية للملك. وقد قصد الزُغيبى نارشينا Narchena وبولودوى Boloduí -

اللتين تقعان بين وادى آش والمرية – على رأس جمع غفير، وعندما ألفاهما غير محتاطتين قاتلهما واستولى عليهما بقوة السلاح. وقد أفادنا شيخ مسلم طاعن فى السن يربو عمره على مائة عام وعشر، أنه كان موجوداً فى البيّازين بغرناطة وقت كتابتنا لمؤلفنا عن تاريخ إفريقيا، وأنه خلال تلك الواقعة تمردت كل نواحي البشرات والجبل ووادى ليكرين، وفقد المسيحيون الحصون التى كانوا قد استولوا عليها، ما عدا اثنين أو ثلاثة كان أحدهم مونوخار. وقد ذادت عنه ببسالة امرأة نبيلة تدعى السيدة ماريا دى أكونيا María de Acuña وهى زوجة العمدة، لأن زوجها كان متغيباً. كذلك فقد حاول المسلمون الاستحواذ على قلعة شلوبانية التى باتت ضمن صفوف الملك، وذلك للنفع الذى كان سيجلبه هذا الميناء الذى تستطيع سفن المغرب اللجوء إليه. فاتفق مع المسلمين المعاهدين القاطنين داخل البلدة حتى يسمحوا له بالدخول فى إحدى الليالى، لكى يسهل عليه تسلق أسوار القلعة فى يسر، وكان هذا ما حدث. غير أن عمدتها دافع عنها باستبسال، رغم أنهم أخضعوه لكرب عظيم، كان سيؤدى إلى إذعانه، لو لم يهرع الملك فيرناندو لإغاثته. كما أن الزُغيبى استحث الموريسكيين[٤٠] المعاهدين المقيمين فى مدن بسطة، ووادى آش، والمريّة للقيام بانقلاب؛ وفى نهاية الأمر تمكن من إبرام اتفاق مشترك بينه وبين السواد الأعظم من المدجنين. هبَّ الملك للحاق بتلك المعركة، وكان دخوله وجيشه إلى غوطة غرناطة الداعى وراء تأمين الملك المسلم لتلك المدينة، وهكذا تضاربت خطط كل منهما. عاد الملك أدراجه إلى قرطبة فى أعقاب تقطيع وتدمير محصول الذرة الذى كان الغرناطيون قد زرعوه، وذلك مع حلول شهر سبتمبر، ولكنه لم يتوقف طويلاً فى تلك المدينة، فهو عندما فطن إلى الاتفاق الذى عقده أهالى بسطة ووادى آش والمريّة مع الزُغيبى، وكيف أنهم أرسلوا يطلبون معونته حتى يقوموا بالثورة، أراد وضع حد لذلك على وجه السرعة التى يستلزمها الموقف. فحث

(٤٠) مصطلح "موريسكى"، بالمعنى الذى يفهمه المتخصصون فى الدراسات الموريسكية، لا يصح إطلاقه على مسلمين قبل سقوط غرناطة، وبالتحديد قبل فبراير عام ١٥٠٢ عندما صدر مرسوم يحظر ممارسة الدين الإسلامى. (المراجع).

الخطى لمسافات طويلة حتى بلغ تلك الأنحاء، ثم دخل إلى مدينة وادى آش وأمَّن كل شىء بها تحت إشرافه، حيث أمر بإخراج كل المسلمين المقيمين داخل المدن والبلدان المحاصرة ليسكنوا فى القرى والأماكن المفتوحة، ومن يود منهم الانتقال إلى بلاد البربر فقد أذن لهم فى بيع ضياعهم والذهاب إلى هناك. هكذا استطاع ذلك الملك الكاثوليكى الفطن عن طريق تلك المساعى أن يضع حداً للثورة والحرب اللتين كانتا على وشك النشوب. ثم عاد أدراجه إلى إشبيلية لتنظيم الحصار الذى كان يفكر فى فرضه على مدينة غرناطة فى العام التالى.

الفصل الثامن عشر

مواصلة الملكين الكاثوليكيين مسيرة الفتوحات فى عام ١٤٩١، وحصارهما لمدينة غرناطة

مع قدوم ربيع عام ١٤٩١ لميلاد مخلصنا، بادر الملكان الكاثوليكيان - اللذان قضيا بداية العام فى إشبيلية - بالتحرك منها لمحاصرة غرناطة، وذلك بعد انقضاء عيد القيامة المجيد. فدلف الملك فيرناندو إلى غوطة غرناطة، وأمر ماركيز بيينا أن يتوجه إلى وادى ليكرين على رأس ثلاثمائة فارس وعشرة آلاف راجل لتدمير كل الأماكن التى قامت بالثورة. وتحسبًا لاحتمال مجابهة المسلمين إياه بقوةٍ تفوق ما معه، وحتى لا تلحق بهم وعورة تلك الروابى الأذى، فقد خرج الملك فى أثرهم وبصحبته بقية الجيش. إنه رجلٌ لا يترك شيئًا للمصادفة[٤١] اقتحم ماركيز بيينا وادى ليكرين، وقضى على الأماكن المنخفضة التى لم تكن مهيأة جيداً للمواجهة، وعاد أدراجه إلى بادول ومعه أعداد غفيرة من الأسرى والفىء. لكن الملك عندما لقيه هناك أمره بالعودة من حيث أتى، فتوغل أكثر إلى الأمام حتى دمر تلك الأراضى عن بكرة أبيها؛ وكان هذا ما ينبغى فعله قبل الشروع فى محاصرة غرناطة. رغمًا عن أن الزُغيبي، إزاء معرفته بالطريق الذى سيسلكه الملك فيرناندو، أرسل بعض عُمَدِه ومعهم أناس مترجلين لاحتلال تابلاتى Tablate ولانخارون - اللذين سيعبرهما المسيحيون لا محالة - لكنهم

---

(٤١) استعمال المؤلف للفعل المضارع غريب هنا. هل كان ينقل عن أحد مباشرة؟ (المراجع).

لم يكونوا أكفاء للذود عن المعبرين. فهاجم قواد الملك منخفض تابلاتى من ناحية الجسر، وأيضًا عن طريق معبر بالغ الصعوبة فى الجزء العلوى يبعد عنه حوالى فرسخ، وقاموا بإلقاء المسلمين من أعلى قمم الروابى التى كانوا يحتلونها. ثم عبر الملك إلى لانخارون وظل بها فى أثناء إفناء رجاله لكل بقاع الوادى و طاعات أورخيبا وغيرها من البلدان الكائنة بتلك الجبال.

بعد ذلك، وبعد أن قُطِّعَت أشجار سائر الأراضى المزروعة فى المقاطعة، عاد الملك يصحبه جيشه بأكمله إلى بادول، ومنها توغل إلى غوطة غرناطة، ونصب معسكره الملكى إلى جوار عيون ماء يقال لها أوخوس دى أويركال Ojos de Huércal، تقع على مسافة فرسخين من تلك المدينة ذائعة الصيت، يملؤه الإصرار على خدمة الرب وعدم حل المعسكر حتى يفتحها. وقد دامت فترة الحصار طيلة ثمانية أشهر وعشرة أيام، دار خلالها قدر كبير من النزاع بين كلا الطرفين، وذلك منذ اليوم السادس والعشرين من شهر إبريل وحتى الثانى من يناير لعام ١٤٩٢. فى أثناء تلك المدة وقع العديد من المآثر الجليلة قام بها الفرسان والمشاة، سواء المسيحيين أو المسلمين، ممن كانوا يرغبون فى الظهور فى حضرة ملوكهم. كان بعضهم مدفوعًا بالشهرة، وغيرهم يهمه الحصول على الجوائز، وأكثرهم يحركه الوازع الدينى. وقد وفدت إلى هذا الحصار الملكة الكاثوليكية إيسابيل، التى كانت دائمة الرغبة فى الحضور فى جميع المحافل الخطيرة والبالغة الأهمية، لتشحذ همم رعاياها بحضرتها الملكية، وقد اصطحبت معها ولديها: الأمير خوان والأميرة خوانا.

لما اشتعلت النيران فى إحدى الليالى فى خيمة الملكة بسبب شمعة كانت إحدى الفتيات القائمات بالخدمة قد أهملت إطفاءها، واحترقت خيام أخرى كانت بمحاذاتها، أمر الملكان أن يُنْشَأ فى المعسكر الملكى منازل مسورة مكسوة بطبقة من القرميد يأوى إليها الناس. وقد أُسِسَت وفقًا لترتيب موضوع، مع وجود شوارع منظمة فى المنتصف، بعدها أخذت كل من تلك المدن وكذلك رؤساء الرهبانيات الحربية على عاتقهم تنظيم مقارهم. فباتت هناك مدينة تحوطها الأسوار والبروج وحولها خندق عميق، بها

شارعان رئيسـان فى النصـف الأيمن على هيئة صليـب، يؤديان إلى أربعة أبواب تقابل اتجاهـات الريح الأربع، تتوسطها ساحة فسيحة ورحبة يمكن جمع أفراد الجيش بها. وقد ترك كل بنَّاء حجراً يمثل شاهداً لقبره فى الجزء الذى تولى تشييده من الحـائط، وقـد وُضِـعَت فى أبرز مكـان يحـويه المقـر. هـذا ويمكن لمحـبى الاسـتطلاع والبـحث مشاهدتها حتى الآن إذا ما تجولوا حول المدينة من الخـارج. أطلق الملكان الكاثوليكيان على تلك المدينة سانتا فى(*) Santa Fe وهو لقب يليق بفتـوحاتـهم. أسـهمت المدينة فى تأمين المعـسكر الملكى من الحـرائق، وتقـويتـه ضـد أى زحـف من الأعـداء الذين قنطوا وأسـقط فى أيديـهم عندمـا رأوهــا وقـد شُـيدت، حـيث أدركـوا أن هـذا الحـصـار أمـر جدّى، وأن البـاعـث وراءه هو عدم حل المعسكر الملكى من هناك إلا بعد سلب غرناطة من أيديهم.

(*) "سانتا فى" تعنى باللغة العربية العقيدة المقدسة. (المترجمة).

الفصل التاسع عشر

كيف اتفق المسلمون على تسليم غرناطة، وما استلزمه ذلك الأمر من معاهدات.

حينما أدرك الزُغيبى إن مدينة غرناطة تفتقر إلى الدفاعات، وأنه ما من أمل فى إغاثتها، نزل على رغبة الغالبية العظمى من الشعب، الذى لم يعد يطيق تكبد هذا الهم الثقيل. فأرسل إلى الملكين الكاثوليكيين يطلب هدنة، يتسنى له خلالها التوصل إلى شروط وبنود معاهدة السلام التى سيسلم المدينة على أثرها. وكان - قبل أى شىء - قد سلّم ابنًا له وأبناء آخرين لقادة وأناس بارزة فى المدينة والبيّازين كرهائن حُملَت إلى حصن موكلين. فلمّا مُنحَ مهلة مدتها ستين يومًا اجتمع الفرسان والمواطنون المسلمون عدة مرات لمحاولة التفاوض عليها، وغدا وراح الكثيرون منهم لإبلاغ ما تم الاتفاق على المطالبة به إلى أعضاء المجلس الملكى المفوضين بالاضطلاع بذاك الشأن. رغم أنهم تباحثوا ما توصلوا إليه بإلحاف مبالغ فيه، فإن المنتصرين - اللذين لم يرغبا سوى فى إكمال انتصارهما - قد لبيا كل ما طُلِبَ.

فى أعقاب عقد المعاهدات وإرساء الشروط، أوفد الغرناطيون - بإجماع آرائهم - مواطنًا نبيلاً يدعى أبو قاسم المالح Abi Cacem el Maleh يملك من الصلاحيات الكثيرة أن يخول أصحاب الجلالة ما يشاءان. رغبةً فى إرضاء فضول القارئ، فإننا نكتب هنا نص تلك المعاهدات التى عقدت حرفيًا الامتيازات التى منحت لكل من الملك والملكات المسلمات[٤٢]، أو المدينة وباقى أرجاء المملكة:

(٤٢) يقصد الملكة عائشة أو فاطمة والدة أبى عبد الله الصغير، بالإضافة إلى زوجته. (المراجع).

"أن ينعم أصحاب الجلالة الملكية المستمرة، إلى أبد الآبدين، لقرى ونواحى بيرخا وداليّاس ومارشينا وبولودوى وخوشار Juchar وأندرش وخوبيليس وأوخيخار وخوبيلين وفيريّرا وبوكيّرا وأورخيبا – وكلها فى البشرات – على الملك أبى عبد الله؛ بكل المواريث والمكاسب والحقوق وغيرها من الإيجارات التى تخص صاحبى الجلالة بأى حال من الأحوال فى المناطق المذكورة، لتكون ملكية خالصة له، يمكنه بيعها أو رهنها أو فعل ما يتراءى له بها؛ على أنه إذا ما رغب فى بيعها أو رهنها، فعليه إعلام صاحبى الجلالة لمعرفة إذا ما كان لهما رغبة بها. وإذا أخذاها فسوف يدفعان له مقابل ذلك ما يتم تحديده.

يمكن لصاحبى الجلالة بناء الحصون فى أدرا Adra أو غيرها أينما يشاءون فى البشرات، وزراعتها، وكذا تملُّك بروج على ساحل البحر. إذا ما أنشىء حصن جديد إلى جوار البحر فى أدرا، فإن الحصن القديم يؤول إلى الملك عبد الله المذكور، وذلك بعد إصلاح وتحصين حصن صاحبى الجلالة. ولن يُدْفَع مقابل لقيام الحراس بإصلاح الحصون والبروج المنصوص عليها، ولابد أن يحصلوا على الأرض دون دفع أية إيجارات.

بعد تسليم الحمراء والحصون الأخرى، سوف يرسل صاحبا الجلالة للملك ثلاثين ألف عملة قشتالية ذهبية، وهو ما يساوى أربعة عشر مليون[٤٣] وخمسمائة وخمسين ريال مرابطى عداً ونقداً.

أن ينعم عليه صاحبا الجلالة بكل المواريث، ومعصرات الزيت والأراضى والحقول، التى كانت ملكه وفى حوزته فى عهد والده الملك أبى الحسن، ولا تزال حاليًا ملكه وفى حوزته سواءً على حدود مدينة غرناطة أو فى البشرات.

---

(٤٣) جاء فى شرح معانى اللفظ بالإسبانية أنه يساوى مليونًا، وإن كانت آنذاك تنطق "ألف ألف". (المراجع).

أن يتفضل الملك على والدته الملكة عائشة[٤٤]، وعلى أخواته وزوجه وامرأة مولاى أبى نصر Muley Abi Nacer بسائر البساتين والأراضى والحقول والطواحين والقرى وغيرها من المواريث التى يمتلكنها فى مدينة غرناطة المذكورة وفى البشرات. على أن تكون جميعها معفاة وخالصة من أية مصاريف أو حقوق، كما كانت حتى الآن. كما يمنحان الملك عبد الله والملكات والأمراء سالفى الذكر، وكذا الحاج رُمَيمى Haxi Romaimi كل ما يحوزونه من إرث فى موتريل بنفس الإعفاءات.

أى قرية أو بقعة من البشرات ترضخ وتستسلم إلى صاحبى الجلالة قبل تسليم الحمراء، وبعد توقيع هذا الاتفاق، يجب ردها وإعادتها إلى الملك عبد الله، وعليه حسن معاملتها.

ألا يطالب صاحبا الجلالة الملك عبد الله المذكور، أو أيا من خدمه، على الإطلاق بإرجاع ما أخذوه فيما سبق من المسيحيين أو من المسلمين، سواء من المنقولات أو الأصول الثابتة. وإذا ما أمر صاحبا الجلالة برد أى من تلك الأشياء أو المواريث التى تم الاستيلاء عليها، بمقتضى عهد أو اتفاق مع شخص ما، فعليهما سداد المقابل والمطالبة بألا يضحى لأى مسلم أو مسيحى سلطان عليه - سواء قل أو كثر - ومن يخالف ذلك يجب الأمر بمعاقبته فى هذا الخصوص، و لا يمكن معاقبة الملك المسلم بموجب أى قانون خاص بالمسيحيين أو بالمسلمين.

متى أراد الملك عبد الله، أو أمه، وإخوته، وزوجته، وامرأة أبى نصر المذكور، وعُمَدِه، وخدمه، وأهل بيته، وكل من يعمل فى خدمته الانتقال إلى بلاد المغرب، يأمر لهم صاحبا الجلالة باستئجار سفينتين من جنوة ليعبروا فيهما إلى هناك؛ هذا إذا توفر

(٤٤) لا ندرى بالضبط هل كان اسمها عائشة أم فاطمة، فهناك وثائق خاصة بالأحباس يرد فيها اسم فاطمة. (المراجع) .

ذلك فى الوقت الذى يشاءون فيه الذهاب هناك. وإذا لم يتوفرا آنذاك فعليهم الانتظار حتى يمسى ذلك متاحًا، دون أن يدفعوا أى إيجار أو مصروفات. كما يتسنى لهم اصطحاب رجالهم وثيابهم وبضائعهم وذهبهم وحليهم وحيواناتهم وأسلحتهم – على ألا تحوى طلقات بارود؛ لأنها تنتمى إلى أصحاب الجلالة – ولا يتم مطالبتهم بأى نوع من الحقوق أو الإيجار مقابل الشحن والتفريغ أو أى شىء آخر. ويُسْمَح لهم بحملهم آمنين ومكرمين ومحميين إلى أى ميناء يريدون أن ترسو سفينتهم عليه فى المشرق أو المغرب، من الإسكندرية أو مدينتى تونس أو وهران أو مملكة فاس.

إذا لم يتسن لهم قبل الصعود إلى السفينة بيع أملاكهم ذات الريع الكائنة فى مملكة غرناطة التى ذكرناها، فيمكنهم تفويض نوابهم لتحصيلها أو حملها أو إرسالها إليهم حيثما يوجدون، دون أن توضع أمامهم أى عراقيل.

إذا أراد الملك عبد الله المذكور إرسال نفر من عمده أو خدمه ببعض البضائع إلى بلاد المغرب فله أن يقوم بذلك فى حرية تامة، من غير أن يُطلب منه أثناء الذهاب أو الإقامة أو العودة أى شىء على سبيل الاستحقاقات.

يمكنه إرسال ست دواب إلى أى من أرجاء ممالك أصحاب الجلالة، بغرض المؤونة والزاد، وذلك فى وضوح وصراحة دون تكليفه إزاء ذلك أية استحقاقات فى أى مكان.

أنه مع خروجه من غرناطة بمقدوره أن يذهب ليعيش حيث يشاء فى الأماكن التى وهبت له، وأن يغادر المدينة بصحبة القادة والعلماء والفرسان، ومن يرغب فى مرافقته أو يود هو اصطحابه من العامة على أن يحملوا جيادهم ودوابهم ونساءهم وبنيهم وصبيانهم وفتيانهم – صغارًا وكبارًا – وأسلحتهم فى أيديهم أو كما يريدون حملها، وألا تُؤخَذ منهم باستثناء أعيرة البارود. كما لا يُوضَع لهم الآن أو فى أى وقت آخر على الإطلاق أى علامات لتمييز شخصهم أو أى شىء آخر بأية وسيلة، لا هم ولا

ذريتهم، وأن يتمتعوا بكل بنود المعاهدات التى أُبْرِمت أو سوف يتم إبرامها مع أبناء مدينة غرناطة تلك[٤٥].

أن يبعث صاحبا الجلالة إلى كل من الملك عبد الله وأمه وزوجه وأخواته وامرأة أبى نصر فى اليوم الذى يسلمون فيه حصن الحمراء وبقية الحصون، خطابات الامتيازات الثابتة والموثقة بكل المذكور أعلاه، مسجلة ومختومة بختم الرصاص المُعلَق بخيوط حريرية، ومجازة من قبل الأمير خوان وكاردينال إسبانيا ورؤساء الرهبانيات الحربية ورؤساء الأساقفة والأساقفة، وغيرهم من رؤساء الأديرة والعظماء والدوقات والماركيزات والكونتيسات ورؤساء المحاكم وكبار كتبة العدل فى هذه الممالك."

أُعِدَّت هذه الاتفاقية ووقِعَت فى المعسكر الملكى فى مدينة سانتا فى، فى الخامس والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٤٩١، وبعدها بثلاثة أيام اختتمت بنود الاتفاق الذى أنعم به أصحاب الجلالة على مدينة غرناطة بوجه عام وبقاع تلك المملكة التى تعلن استسلامها، وهذا هو فحواها:

"أولاً، يُسلّم الملك أبو عبد الله والعمد والفقهاء والقضاة والمفتون والوزراء والحكماء والقادة وخيار الناس وكل عوام مدينة غرناطة وضواحيها والبيازين، إلى صاحبى الجلالة الجلالة أو مبعوثهما، فى حب وسلام وعن طيب خاطر فى القول والعمل حصنى الحمراء والحصن Alhizan بكل بروجهما وأبوابهما، وسائر الحصون الأخرى والبروج والأبواب الموجودة بمدينة غرناطة والبيازين والضواحى المشرفة على الحقول، وذلك خلال الأربعين يومًا الأولى، لكى يفرضا سيادتهما عليها باسمهما، ويعمرها رجالهما وفقًا لمشيئتهما. على أن يُؤمَر رجال الشرطة بعدم السماح للمسيحيين بتسلق الجدار القائم بين القصبة والبيازين - بحيث يمكن من أعلاه كشف بيوت المسلمين. وإذا صعد امرؤ وجب عقابه بحزم فيما بعد.

---

(٤٥) لاحظ أن هذا البند بالتحديد قد انتهكته السلطات المسيحية فيما بعد، إذ صدرت قرارات تلزم الموريسكيين بوضع علامات مميزة. (المراجع).

بعد انقضاء مهلة الأربعين يومًا يسلم كل المسلمين إلى أصحاب الجلالة تلقائيًا وطواعيةً، ما يتعين على الرعايا الأوفياء الصالحين تسليمه إلى ملوكهم وأسيادهم الطبيعيين. ولتأمين عملية الاستسلام يُسَلِم الوزير يوسف بن كماشة ، ومعه خمسمائة رجل من أبناء وأخوة الأشخاص البارزين بالمدينة والبيازين والضواحي أنفسهم كرهائن قبيل تسليم الحصن بيوم. ويبيتوا فى قبضة صاحبى الجلالة لمدة عشرة أيام، يتم خلالها تسليم الحصون وتأمينها وتزويدها بالأشخاص والزاد، وفى أثناء تلك الفترة يُزَوَدون بكل ما يلزمهم لمعيشتهم، ويُطْلَق سراحهم عقب الانتهاء من تسلم الحصون.

فى أعقاب تسليم الحصون، يستقبل صاحبا الجلالة وولدهم الأمير خوان - بالأصالة عن أنفسهم ونيابةً عن خلفائهم - الملك أبا عبد الله وكذلك العمد والقضاة والفقهاء والمفتون والحكماء والوزراء والقادة والخدم وكل العوام - كباراً وصغاراً ورجالاً ونساءً - من أهالى غرناطة والبيّازين والضواحي والحصون والقرى وسائر أرجاء أراضيها وأراضى البشرات، وغيرها من البقاع التى تدخل فى إطار هذا الاتفاق وهذه المعاهدة بأى شكل، كأفراد من رعاياهما وفى زمرة الخاضعين لكلمتهما وحمايتهما وتحت كنفهما . وسوف يتركاهم فى منازلهم وضياعهم وإرثهم حينئذ وفى كل وقت وإلى أبد الآبدين، ولن يسمحا بتعرضهم لأى أذى أو ضرر إلا بأمر من العدالة ولوجود سبب ما ، ولن يبخساهم أملاكهم أو ضياعهم أو جزء منها . ولهم مقابل ذلك الامتثال والطاعة والاحترام من قبل رعاياهما ، شأنهم شأن من يحيا تحت حكمهما وسيادتهما .

أنه فى اليوم الذى يبعث فيه صاحبا الجلالة من يتولى استلام قصر الحمراء، تُصْدَر الأوامر إلى رجالهم بالدخول عبر باب لاتشا[٤٦] أو باب النجد

(٤٦) نص المعاهدة الذى أورده محمد عبد الله عنان يتحدث عن دخول المسيحيين من باب العشار. (المراجع) .

أو الحقول الواقعة خارج نطاق المدينة، حتى لا يتسبب دخولهم إلى المدينة فى أى شغب أو استهجان(٤٧).

فى اليوم الذى يسلم فيه الملك عبد الله الحصون والبروج، سيأمر صاحبا الجلالة بتسليمه ابنه مع سائر الرهائن، وكذا نساءه وخدمه، إلا من اعتنق منهم المسيحية.

يترك صاحبا الجلالة وخلفاؤهما الملك أبا عبد الله، وعمده، وقضاته، ومفتيه، ووزراءه، وقادته، وخيرة رجاله، وسائر العامة - صغاراً وكباراً - ليعيشوا دائمًا وأبداً فى ظل شريعتهم؛ ولا يوافقون على سلب مساجدهم أو مآذنهم، ولا تمس أوقافهم ولا ريعها، ولا يُخِلُّون بأعرافهم وتقاليدهم القائمة(٤٨).

أن يحتكم المسلمون فى قضاياهم إلى الشريعة التى اعتادوا الرجوع إليها، وفقًا لآراء قضاتهم ورجال عدلهم.

ألا يُسلَبوا أو يُوَافق على حرمانهم الآن أو فى أى وقت على الإطلاق الأسلحة والخيول، ما عدا طلقات البارود الصغيرة والكبيرة، التى عليهم تسليمها على وجه السرعة إلى من يخوله صاحبا الجلالة.

من حق كل المسلمين - صغاراً أو كباراً أو رجالاً أو نساءً - من أهالى غرناطة وأراضيها والبشرات وكل البقاع، ممن يودون الذهاب للعيش فى بلاد المغرب أو أى مكان يتراءى لهم ، بيع ضياعهم ومنقولاتهم وأصولهم الجامدة بالطريقة التى تتراءى لهم، لمن يريدون وكيفما يشاءون. ولا يقوم صاحبا الجلالة وخلفاؤهما، أو يسمحان أبداً بسلبهم ما شروه؛ وإذا رغب صاحبا الجلالة فى شرائه فبإمكانهما الحصول عليه

---

(٤٧) الكلمة تقبل المعنيين، وعلى هذا يكون دخول المسيحيين من الباب المذكور تجنبًا لمقاومة بعض الرافضين للاتفاقية، أو حرصًا على شعور المسلمين. (المراجع).

(٤٨) كان هذا من أهم البنود التى انتهكتها السلطات المسيحية حين أجبرت المسلمين على الدخول فى المسيحية قسراً. (المراجع).

بالثمن الذى يساوى قيمته. وإذا لم يكونا موجودين بالمدينة فيمكن للأشخاص الذين يخولانهم الاضطلاع بذلك.

من يرغب من المسلمين فى الذهاب إلى بلاد المغرب أو غيرها من الأماكن، يؤمن له أصحاب الجلالة معبراً آمناً وحراً، هم وعائلاتهم ومنقولاتهم وبضائعهم وحليهم وذهبهم وفضتهم وسائر أنواع الأسلحة، باستثناء الآلات وطلقات البارود. ومن يشاء منهم العبور لاحقاً فسيوفرون لهم عشر سفن كبيرة لتؤمن احتياجاتهم فى الموانئ التى يطلبوها بها، وذلك لمدة ستين يوماً. وينقلوهم فى أمان، ودون مقابل إلى موانئ بلاد المغرب التى اعتادت بواخر التجار المسيحيين ارتيادها. إلى جانب ذلك فإن كل من يريد الرحيل فى غضون ثلاث سنوات فبوسعه فعل ذلك، وسيأمر أصحاب الجلالة بتزويدهم بالسفن حيث يشاءون ليعبروا فيها آمنين، على أن يخطروهما برغبتهم قبلها بخمسين يوماً، ولن يدفع المسلمون إيجار السفينة أو أى مقابل.

فى أعقاب انتهاء السنوات الثلاث، كل مرة يودون فيها العبور إلى بلاد المغرب فبمقدورهم فعل ذلك، وسيمنحون الإذن مقابل تسديد دوقية واحدة للفرد إلى صاحبى الجلالة، وأيضاً إيجار المراكب التى سيعبرون فيها.

فى حال عدم استطاعة المسلمين الراغبين فى الرحيل إلى بلاد المغرب بيع أملاكهم ذات الأصول الثابتة الموجودة فى مدينة غرناطة والبيازين والضواحى، وكذلك فى البشرات وفى أماكن أخرى، فلهم أن يدعوها فى رعاية طرف ثالث مفوض لتحصيل ريعها؛ وبإمكانهم أن يرسلوا كل ما يُحَصِّلونه إلى ملاكه حيثما يكونون فى بلاد المغرب دون التعرض لأى موانع.

ألا يأمر صاحبا الجلالة، أو ابنهما الأمير خوان، أومن يخلفهم فيما بعد على الإطلاق أن يحمل رعاياهم المسلمون على ثيابهم علامات مميزة، كما هو الحال مع اليهود.

ألا يدفع الملك أبو عبد الله أو بقية مسلمي مدينة غرناطة والبيازين والضواحي الضرائب المستحقة على المنازل والممتلكات خلال أول ثلاثة أعوام تالية. ولن يسددوا سوى العشر في شهر أغسطس وفي الخريف، وعشر الأغنام التي كانت في حوزتهم وقت احتساب العشر. ومن الملائم التعريف بأن احتساب العشر يتم خلال شهري إبريل ومايو، كما جرت عادة الدفع عند المسيحيين.

إبان تسليم المدينة والمواقع، يُجْبَر المسلمون على تسليم كل الأسرى المسيحيين -ذكوراً وإناثًا - إلى صاحبي الجلالة لإطلاق سراحهم، دون أن يطالبوا أو يحصلوا على أي مقابل. ولو كان أحد المسلمين قد باع واحداً منهم في بلاد المغرب، وطُلِبَ منه بدعوى حيازته إياه، حينئذ عليه الحلف - وفقًا لشريعته - وإحضار شهود حول كيفية بيعه قبل عقد هذه المعاهدة، ولن يُطْلَب منه تسليمه ثانيةً أو يضحي ملزمًا بتسليمه.

يأمر صاحبا الجلالة بعدم مطالبة أي من الملك أبي عبد الله، أو العمد، أو القضاة، أو المفتين، أو الوزراء، أو الوصفاء بتقديم دواب الحمل أو الخدم للقيام بأي عمل في أي وقت على الإطلاق، إلا بمشيئتهم؛ وعلى صاحبي الجلالة دفع أجورهم اليومية العادلة.

ألا يوافق صاحبا الجلالة على دخول المسيحيين إلى مساجد المسلمين التي يقيمون بها صلاتهم دون تصريح من الفقهاء، ومن يدخل دون إذن يجب معاقبته على تلك الفعلة.

ألا يسمح صاحبا الجلالة بأن تكون لليهود سلطة على المسلمين، وألا يقوم اليهود بتحصيل أي ضرائب مستحقة.

أن يحسن صاحبا الجلالة ووزراؤهم معاملة الملك أبي عبد الله، وعمده، وقضاته، ومفتيه ووزرائه، وحكمائه، وقادته، وسائر عوام مدينة غرناطة والبيازين والضواحي، وكذلك البشرات وغيرها من الأماكن. وأن يظهروا لهم الاحترام ، ويصغون إلى

حديثهم، ويحافظون على تقاليدهم وشعائرهم، ويسمحون لكل العمد والفقهاء تحصيل إيجاراتهم، والتمتع بحرياتهم وامتيازاتهم كما جرت العادة. ومن الإنصاف الإبقاء عليها كما هى.

يأمر صاحبا الجلالة بعدم طرد ضيوف المسلمين، أو سلب ثيابهم أو طيورهم أو حيواناتهم أو أى صنف من صنوف زادهم رغماً عنهم.

أن تُنْظَر الدعاوى القائمة بين المسلمين وفقًا لديانتهم وشرعهم، الذى يقولون بأخذه من السنة، وعلى يد القضاة ورجال العدالة كما جرت العادة. وإن كانت الدعوى بين مسلم ومسيحى، فيتولى الحكم فيها قاض مسيحى وقاض مسلم، لكى لا يتخذ ذلك أى من الجانبين كذريعة للاعتراض على الحكم.

ألا يضايق أى قاض أى مسلم، أو يحكم عليه بجرم اقترفه غيره؛ فلا يسجن الأب عوضاً عن ابنه، أو الابن عن أبيه، أو الأخ عن أخيه، أو أحد الوالدين عن الآخر، بل من يرتكب ذنباً يلقى جزاءه.

يصدر صاحبا الجلالة عفواً عاماً عن كل المسلمين الموجودين فى سجن حامد أبى علىّ Hamed Abí Alí – أحد أفراد رعيتهما، كما يعفون عن سائر مناطق كابتيل Cabtil، فلا يؤذون ولا يضارون بسبب من قتلوا من المسيحيين، أو على خلفية عصيانهم لصاحبى الجلالة. ولن يطالبوا بأى شىء مما نهبوه أو سرقوه.

إذا استطاع المسلمون الأسرى لدى المسيحيين الهرب فى وقت ما إلى مدينة غرناطة أو أى من الأماكن المذكورة فى هذه المعاهدة يضحون أحراراً. ولا يمكن لملاكهم المطالبة بهم، ولا للقضاة إرسالهم إليهم، إلا إذا كانوا من جزر الكناريا أو من زنوج خيلوفى Gelofe أو أهل الجزر.

ألا يدفع المسلمون للملوك الكاثوليك سوى الضريبة التى اعتادوا إعطاءها للملوك المسلمين.

يُمْنَح كل مسلمى غرناطة وأراضيها، الموجودين فى بلاد المغرب، مهلة خلال السنوات الثلاثة القادمة للمجىء والدخول فى هذا العقد، والتمتع به إن شاءوا. وإذا كانوا قد نقلوا نفراً من المسيحيين الأسرى إلى شمال إفريقيا، وقاموا ببيعهم فلم يبيتوا فى حيازتهم، فلن يتم إجبارهم على جلبهم أو ردّ أى من الثمن الذى تقاضوه نظير بيعهم.

إذا رغب الملك أو أى مسلم فى العودة إلى إسبانيا، عقب ذهابهم إلى شمال إفريقيا ، حيث لم تعجبه البلاد أو أسلوب التعامل فى تلك الأرجاء، يأذن له صاحبا الجلالة فى ذلك، وله التمتع بتلك الاتفاقيات كأى شخص آخر، وذلك فى غضون مدة قدرها ثلاثة أعوام.

إذا شاء المسلمون الخاضعون لهذه الاتفاقيات والمعاهدات، الذهاب ببضائعهم للتجارة وعقد الصفقات فى شمال إفريقيا ، يسمح لهم فى ذلك فى حرية مطلقة. وينطبق الأمر عينه على سائر أرجاء قشتالة وأندلوثيا، دون دفع رسوم عبور الأبواب أو غيرها من الاستحقاقات التى درج المسيحيون على سدادها.

لن يُسْمَح لأى فرد الإساءة بالفعل أو القول إلى المسيحيين أو المسيحيات، الذين اعتنقوا الإسلام قبل إبرام هذه المعاهدات؛ وإذا كان لأحد المسلمين امرأة مرتدة عن دينها، فلن يتم مضايقتها حتى تعتنق المسيحية رغماً عنها، بل يتم استجوابها فى حضور مسيحيين ومسلمين، وتُنَفَّذ مشيئتها. ويُطَبَّق نفس الإجراء مع الصبيان والفتيات من أم مسيحية وأب مسلم(٤٩).

---

(٤٩) النص هنا يحتمل أن يكون للسلطات إجراء مراجعة لكل حالات التحول من المسيحية إلى الإسلام، وإن كان ذلك يتم بحضور فقهاء مسلمين، وهو بند لا يذكر عادةً عند الحديث عن اتفاقية تسليم غرناطة. (المراجع).

لا يُجْبَر أى مسلم أو مسلمة على الدخول فى المسيحية غصباً. إذا أرادت أى فتاة أو امرأة متزوجة أو أرملة التنصر لأسباب عاطفية، فلن يُقْبَل منها ذلك حتى يتم استجوابها. وإن كانت قد سلبت شيئًا من ثياب أو حلى من منزل والديها أو أى موضع آخر، ستُرَد إلى مالكها، وتتولى العدالة معاقبة المذنبين.

ألا يطالب صاحبا الجلالة أو خلفاؤهما على الإطلاق الملك أبا عبد الله، أو أهالى غرناطة وأراضيها، أو باقى من يخضع لبنود هذه المعاهدة، رد خيول، أو متاع، أو مواش، أو ذهب، أو فضة، أو حلى، أو أى شىء آخر ظفروا به بأية وسيلة، أثناء نشوب الحرب وقيام الثورة[٥٠]. وكذا الحال مع المسيحيين والمسلمين سواء مدجنين أو غير مدجنين. وإذا تعرف بعضهم على بعض الأشياء التى سُلِبَت منه، لا يسعه المطالبة بردها، بل ويُعَاقب إذا أقدم على ذلك.

إذا كان أحد المسلمين قد جرح أو قتل مسيحيًا أو مسيحيةً، كانوا أسرى لديه، فلن يتم مطالبته بهم، أو محاسبته على الإطلاق.

لن يدفع المسلمون، فى أعقاب انتهاء سنوات الإعفاء الثلاث، فيما يختص بإيجارات الضياع والأراضى الأميرية، أكثر من القيمة المستحقة بالضبط، والمقدرة وفقًا لثمن الأرض وجودتها.

ينبغى أن يكون القضاة، والعمد، والحكام المعينون من قبل صاحبى الجلالة فى غرناطة وأراضيها أشخاصًا فضلاء، يكرمون المسلمين ويعاملونهم بود، ويحفظون لهم تطبيق هذه المعاهدات. وإذا أتى أحدهم بفعل شائن، يأمر صاحبا الجلالة بنقله ومعاقبته.

---

(٥٠) يقصد حرب غرناطة الأخيرة قبيل تسليم المدينة. من وجهة نظر السلطات المسيحية كانت تلك المواجهات عبارة عن تمرد على اتفاقية أبرمت مع أبى عبد الله الصغير. (المراجع)

لا يطالب صاحبا الجلالة وخلفاؤهما، أو يرفعون دعاوى على الملك أبى عبد الله، أو أى من الأشخاص الذين قبلوا هذه المعاهدة، نظير أى فعل اقترفوه، تحت أى ظرف من الظروف، وذلك حتى تاريخ تسليم المدينة والحصون.

لن يتولى أى وزير، أو وصيف، أو خادم للملك الزغل أى منصب، أو زعامة على مسلمى غرناطة أبداً.

تفضلاً على الملك أبى عبد الله، وأهالى وقاطنى غرناطة والبيّازين والضواحى، يؤمر بإطلاق سراح كل المسلمين الأسرى - رجالاً ونساءً - فى حوزة المسيحيين دون سداد أى مقابل؛ فيفك أسر من فى أندلوثيا فى غضون خمسة أشهر، ومن فى قشتالة خلال ثمانية أشهر. كما يأمر صاحبا الجلالة، بعد مرور يومين على تحرير الأسرى المسيحيين الموجودين بغرناطة، بتسليم مائتى مسلم ومسلمة. علاوةً على ذلك يتم الإفراج عن ابن الحضرمى الموجود لدى غونثالو إيرنانديث دى كوردوبا، وكذلك عثمان Hozmin - وهو بحوزة كونت تينديًا - وأيضًا رضوان Reduan - وهو فى قبضة كونت قبرة - وكذا كل من ابن محيى الدين Aben Mueden، وابن الفقيه حديمى Hademi؛ وكلها شخصيات بارزة من أهل غرناطة. هذا إلى جانب الوصفاء الخمسة الذين أُسِروا خلال حملة إبراهيم بن سراج Brahem Abencerrax، إذا عُرِفَ مكان وجودهم.

يعطى ويسلم كل مسلمى البشرات الداخلين فى خدمة صاحبى الجلالة سائر الأسرى المسيحيين الموجودين فى حوزتهم فى غضون خمسة عشر يومًا، دون أن يُمْنَحوا أى مقابل. وإذا كان أحدهم قد أُعْطِى إلى مسلم آخر دفع ثمنه بنظام المقايضة، يأمر صاحبا الجلالة القضاة أن يطالبوا برده لاحقًا.

يأمر صاحبا الجلالة بالحفاظ على عادات المسلمين فى المواريث، ويتولى قضاتهم الفصل فى الشئون المتعلقة بها.

كل مسلم، بخلاف من يشملهم هذا العقد، يود الانضمام إلى خدمة صاحبى الجلالة خلال ثلاثين يومًا، بمقدوره فعل ذلك والتمتع به، وبكل ما ينطوى عليه ذلك الفعل، باستثناء الإعفاءات الممنوحة لمدة ثلاث سنوات.

كل الأحباس والإيجارات الخاصة بالمساجد، والصدقات، والأمور الأخرى التى جرت العادة على تخصيصها للمدارس وحلقات العلم والكتاتيب المعدة لتعليم الأطفال، تبقى مسئوليتها على عاتق الفقهاء، الذين يضطلعون بتقسيمها وتوزيعها كما يتراءى لهم. ولا يتدخل صاحبا الجلالة أو وزراؤهما فى هذا الشأن أو أحد جوانبه، ولا يأمرون بأخذها أو إيداعها فى أى وقت أبداً.

يأمر صاحبا الجلالة بإعطاء الأمان لكل سفن بلاد المغرب الموجودة بموانئ مملكة غرناطة، لتسيير بحرية ، على ألا تحمل على متنها أسرى مسيحيين. وألا يوافقا فى أثناء فترة بقائهما فى الموانئ على تعرضها للإهانة أو الاستيلاء على شىء من أملاكها. أما إذا حُمِلَ على ظهرها أو نُقِلَ فيها بعض الأسرى المسيحيين فلن ينفعها هذا العهد؛ لذا يجب تفتيشها قبيل إقلاعها.

لا يُجْبَر المسلمون أو يُرْغَموا على تأدية أى خدمة عسكرية رغمًا عنهم، ولو رغب صاحبا الجلالة فى الاستفادة من خدمات بعض الفرسان، واستدعياهم إلى أى من بقاع أندلوثيا، فينبغى دفع رواتبهم منذ يوم خروجهم وحتى تاريخ عودتهم إلى ديارهم.

يأمر صاحبا الجلالة بالإبقاء على قوانين توزيع مياه العيون والسواقى التى تصل إلى غرناطة، ولا يوافقون على تغييرها، أو الاستيلاء على شىء أو جزء منها. ومن يحدث تغييراً فيها أو يلقى قانورات بداخلها يُعَاقَب على ذلك.

إذا ترك أسير مسلم مسلمًا آخر رهينة نظير الإفراج عنه، وهرب الأسير إلى مدينة غرناطة أو أى من أراضيها، يصبح الاثنان من الأحرار. ولا يُجْبَر هذا أو ذاك على سداد الرهن، ولا يُرْغِمهم القائمون على تنفيذ العدالة على فعل ذلك.

يصدر الأمر بقضاء الديون القائمة بين المسلمين، والمثبتة فى صكوك ومكاتبات نقداً. ولا يترتب على نقل الملكية والسيادة إلا أن يدفع كل فرد ما عليه.

يتم الفصل بين أماكن الذبح الخاصة بالمسيحيين وتلك الخاصة بالمسلمين، ولا تُخْلَط مؤونة هذه بمؤونة تلك، ولو قام شخص بذلك يُعَاقَب على ما اقترفه.

اليهود من أبناء غرناطة والبيازين والضواحي، وكذا يهود البشرات وكل الأماكن الخاضعة لتلك المعاهدات، لهم حق التمتع بها؛ ومن لم يعتنق منهم المسيحية ينتقلوا إلى بلاد المغرب خلال ثلاثة أعوام سارية منذ الثامن من ديسمبر من هذا العام.

يأمر صاحبا الجلالة بالالتزام بكل ما ورد فى هذه المعاهدات، منذ يوم تسليم حصون غرناطة وفيما بعد. حيث يصدران أوامرهما بمنح وإعطاء كتابهما ومرسومهما الملكي موقعًا باسميهما، ومختومًا بختمهما، ومُصَدِقًا عليه سكرتيرهما إيرناندو دى ثافرا Hernando de Zafra . ويكون تاريخه فى المعسكر الملكى فى غوطة غرناطة فى اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر لعام ١٤٩١ من ميلاد مخلصنا."

أرفق صاحبا الجلالة هذه المعاهدة برسالة خطية، لتكون بمثابة الأمر واجب النفاذ، وقد تنبها إلى أن الملك عبد الله يشعر بالندم، وأنه قرر سراً منع تنفيذها؛ وهو حال من يشهد ضرورة تغير مقامه من سيد إلى فرد من الرعية، وأن قلبه يتقلب بعدد ساعات اليوم. والأمر لا يقتصر عليه، بل يشاركه فيه بالفعل العديد من المواطنين، وبخاصة المقاتلون. بيد أن الرسالة كان لها بالغ الأثر، فبين شعورهم بالخوف والخجل، لم يقدروا على التخلى عن تنفيذ ما اتفق عليه أبو قاسم المالح، وخصوصًا عندما يفطن المرء - كما أدركوا هم فى الواقع - أنه لم يحدث من قبل أن مُنِحَ أناس مهزومون قدراً أكبر من الكرامة أو مقدار أقل من التكاليف. فباتوا جميعًا يتطلعون إلى

حلول ساعة تسليم الحصون، حتى ينعموا بالسلام، الذى مَثَّلَ بالنسبة إليهم أمرًا غير ضرورى(٥١) بالمرة. وقد دارت فحوى الرسالة على النحو التالى:

" من السيد فيرناندو والسيدة إيسابيل، اللذين أنعم عليهما الرب بمُلك قشتالة وليون وأراغون وصقلية Cicilia وطليطلة وفالنسيا Valencia وغاليثيا ومايوركا Mallorca وإشبيلية وسردينيا وقرطبة ومرسية وجيّان والغرب Algarbes والجزيرة Algecira وجبل طارق؛ وأن يكونا كونت وكونتيسة برشلونة Barcelona، وسادة بيثكايا Vizcalla ومولينا Molina، ودوق ودوقة أثينا Atenas ونيوباتريا Neopatria، وكونت وكونتيسة رويسيّون Ruisellón وسردينيا، وماركيز وماركيزة أوريستان Oristán وغوثيانو Goziano.... إلخ. ، إلى العمد، والقضاة، والحكماء، والمثقفين، والفقهاء، والوزراء، والوصفاء، والشيوخ، والوجهاء، والعوام – صغارًا وكبارًا – من أهالى مدينة غرناطة الشاسعة والبيازين. لقد أخبرناكم بعزمنا وتصميمنا على محاصرة هذه المدينة انطلاقًا من تلك المدينة التى أمرنا بتأسيسها، وجيشنا متمركز ناحية الغوطة حسبما دعت الضرورة، إلى أن تُنَفَذ إرادتنا وعزمنا، بمشيئة الرب. فلا يخالجنكم فى ذلك شك. ونحن نقسم بالرب فى الأعالى على صحة ذلك، ومن يقول لكم أى شىء يخالف ذلك فهو عدو لكم. ونحن نحضكم عن طريق هذه الرسالة على الإسراع فى الدخول إلى خدمتنا وفى زمرة رعيتنا، فلا تكونوا سببًا فى إهلاك أنفسكم، كما فعل أهل مالقة، الذين لم يرغبوا فى تصديقنا، واستمروا على عنادهم، وسلكوا مسلك الأغبياء، حتى حل بهم الدمار. إذا عجّلتم وبادرتم بالالتحاق بخدمتنا، فسنجزل لكم العطاء. وإن سلمتمونا الحصون، سنؤمنكم على أرواحكم وممتلكاتكم. من يود الانتقال إلى إحدى نواحى إفريقيا، فليذهب فى أمان. ومن يشاء البقاء فليمكث فى داره، محتفظًا بأملاكه ومتاعه، كما كان الحال من ذى قبل. ونحن نقوم بهذا لأنكم أيها

---

(٥١) هكذا ورد فى النص الإسبانى، مع أن السياق يقتضى العكس، أى أن يكون المسلمون قد أرهقتهم الحرب وأصبح السلام ضروريًا بالنسبة لهم. (المراجع)

الغرناطيون أناس صالحون ونبلاء وشرفاء، ونحن نريد أن تلحقوا بركب رعايانا، ولدينا نية الإحسان إليكم. نحن نعدكم ونقسم لكم بعقيدتنا وكلمتنا الملكية، أنكم إذا سارعتم، وأردتم من تلقاء أنفسكم خدمتنا، والإذعان لنفوذنا الملكي، وقمتم بتسليم الحصون، سيتمكن كل فرد منكم من الخروج وحرث أرضه وميراثه، والذهاب حيثما يطيب له في ممالكنا ليبحث عن قوته حيث يكون. وسوف نأمر بإبقائكم على شريعتكم وعاداتكم والحفاظ على مساجدكم، كما هو شأنكم الآن. من يحب العبور بعيداً إلى هناك(*) ، فبمقدوره بيع ممتلكاته لمن يريد وقتما يريد؛ وسنأمر بحمله على وجه السرعة، إذا أراد الذهاب في سفننا، من دون إجباره على دفع أي شيء في المقابل. فمشيئتنا تتمثل في تقديم كل خير إليكم، وكذلك الحرص على فائدتكم ومنفعتكم.

احسموا أمركم في عجالة وانضموا إلى رعيتنا، وأسرعوا بإرسال واحد منكم يجيء إلينا ليحدثنا، ويعقد الاتفاقيات والمعاهدات، وينهي تلك الأمور، ونحن نمنحكم مهلة قدرها عشرون يوماً تتم خلالها تلك المعاملات. تطلعوا الآن إلى ما فيه نفعكم، وحرروا أجسادكم من الموت والأسر. إذا انقضى ذاك الأجل دون أن تلحقوا بركب خدمتنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم . نحن نقسم لكم بديننا أنه بانقضاء المدة، لن نقبل أو نصغي إلى أي حديث حول ذاك الشأن. الخير أو الشر بأيديكم ومنوط بكم: اختاروا ما يحلو لكم. وبهذا نكون قد بيضنا وجوهنا أمام الرب في عليائه. التاريخ في معسكرنا الملكي بغوطة غرناطة التاسع والعشرين من شهر نوفمبر لعام ١٤٩١، أنا الملك - أنا الملكة. كتبه إيرناندو دي ثافرا بتكليف من الملك والملكة."

(*) يقصد بلاد المغرب. (المترجمة).

الفصل العشرون

كيفية تسليم المسلمين مدينة غرناطة وحصونها للملكين الكاثوليكيين.

بحلول اليوم المحدد الذى كان يتعين فيه على الملك المسلم تسليم حصون مدينة غرناطة إلى الملكين الكاثوليكيين، والموافق الثانى من شهر يناير لعام خلاصنا ١٤٩٢، وسنة ٩٠٢ لقيام مملكة العرب، وتعادل سنة ١٥٣٣ للإحصاء القيصرى؛ وذلك وفقًا للإحصاءات العربية التى تعد ميلاد المسيح بعد مرور واحد وأربعين عامًا على حكم قيصر، توجه سيادة الكاردينال بدرو غونثاليث دى ميندوثا Pedro González de Mendoza رئيس أساقفة طليطلة لتسلم حيازتها، يصحبه العديد من الفرسان، وتحت ألويتهم عدد كاف من المشاة. ولأنه بمقتضى المعاهدة يتوجب عدم الدخول عبر شوارع المدينة، فقد سلك الركب طريقًا جديدًا، كان قد صدر الأمر بإنشائه قبل ثمانية أيام، وذلك على هيئة قضيب سكة حديد، حتى يتسنى لهم حمل عربات المدفعية. ويسير الطريق خارج الأسوار ليفضى إلى الموقع الذى يحتوى على صومعة القديس أنطون San Antón، وكذلك أمام باب الطواحين، وصولاً إلى ربوة الشهداء والحمراء.

انطلق الكاردينال ومعه الأشخاص الذين سيحتلون الحصون. لاحقًا توجه الملكان الكاثوليكيان من معسكرهما الملكى فى سانتا فى، وبصحبتهما الجيش بكامل صفوفه، كل فى موقعه، وأخذوا يتقدمون رويداً رويداً فى تلك الغوطة الفسيحة الخصبة، حتى عبروا إلى مكان صغير يدعى أرميّا Armilla - يبعد نصف فرسخ عن غرناطة. هنالك توقفت مسيرة الملكة، وسائر تنظيمات الجيش. إبان وصول الكاردينال إلى ربوة

الشهداء ذات السجون المظلمة، خرج في استقباله الملك عبد الله، حيث نزل إلى أسفل حصن الحمراء – تاركًا فيه عمدته يوسف بن كماشة – وفي أعقاب الحديث الذي دار سرًا لفترة وجيزة مع ذاك الأول، قال الملك المسلم بصوت عالٍ: "اذهب أيها السيد للسيطرة على القصور باسم الملكين القويين، من شاء الله تمليكهما إياها لعظم جدارتهما واستحقاقهما، وكذلك للمعاصي التي اقترفها المسلمون". ثم عرج إلى الدرب ذاته الذي كان الكاردينال قد صعد فيه، بغرض ملاقاة الملك فيرناندو وتقديم فروض الولاء والطاعة إليه. فيما بعد دلف الكاردينال إلى الحمراء، فألفى الأبواب كلها مفتوحة، وقد سلمه إياها ابن كماشة، وقام بفرض سيطرته عليها. في الوقت ذاته قام باحتلال أبراج الحمراء وكذلك برج كائن بباب شارع بني غمارة؛ ثم أعطى الأمر برفع الصليب الفضي الذي كان متصدراً مسيرتهم، وكذلك الراية الملكية، وتثبيتهما فوق برج الناقوس، إنفاذًا لما كان قد أمر به صاحبا الجلالة، معلنًا بذلك إشارة بسط السيطرة على الحصون.

حينئذ كان الملك فيرناندو قد تقدم في المسير، وأمسى يحث الخطى صوب المدينة في أعقاب الكاردينال. أما الملكة إيسابيل فباتت – هي وسائر الرجال الآخرون – في موقعهم بأرميًا يشوبهم حذر بالغ، حيث تراءى للملكة أن الإشارة قد تأخرت في الوصول إليها. فلما أبصرت الصليب والراية أعلى البرج، خرت إلى الأرض جاثيةً على ركبتيها في ورع، لتتوجه بوافر الشكر إلى الرب على ذاك الفتح. كما شرع أعضاء مصلاها الملكي في إنشاد ترنيمة الشكر للرب **Te Deum Laudamus**. توقف الملك فيرناندو على ضفاف نهر شنيل، في الموقع الذي يضم حاليًا صومعة القديس سيباستيان **San Sebastián**، ولحق به هناك الملك المسلم – يصحبه نفر من فرسانه وخدمه– ثم اقترب من الملك، وهو على حاله ممتطيًا صهوة فرسه؛ لأن جلالته لم يسمح له بالترجل، وقَبَّلَ ذراعه الأيمن. في أعقاب الانتهاء من تقديم فرض الطاعة ذاك، افترق الملكان: فتوجه الكاثوليكي إلى الحمراء، وعاد الوثني[٥٢] أدراجه إلى أندرش.

---

(٥٢) لاحظ فكرة المؤلفين الإسبان في القرن السادس عشر عن المسلمين (المراجع).

أراد البعض القول إنه رجع أولاً إلى المدينة، وقصد أحد منازل القصبة التى كان قد جمع أفراد عائلته بها؛ بيد أن بعض الموريسكيين الطاعنين فى السن - ممن يزعمون أنهم كانوا حاضرين فى ذلك اليوم - شهدوا لنا بأن ذلك الأخير لم يقم سوى بإظهار توقيره للملك الكاثوليكى، ثم عاد إلى البشرات؛ لأنه حينما غادر الحمراء، كان قد بعث بذويه قبله، وهو إبان وصوله إلى أحد التلال القريبة من موقع بادول - التى تستخدم حاليًا لاستكشاف المدينة - دار على عقبيه ونظر إليها، واضعًا نصب عينيه القصور العامرة التى فقدها. ثم شرع يتنهد بقوة قائلاً الله أكبر، التى توازى عندنا مقولة Dominus Deus Sabaoth، وتعنى السيد القوى رب المعارك. وحينما أبصرته أمه يتنهد ويبكى قالت له: "ابك يا بنىّ كالنساء على مُلك لم تدافع عنه كالرجال". لاحقًا أطلق المسلمون على ذلك التل اسم فج الله أكبر Fex de Alabaquibar تخليداً لذكرى تلك الواقعة[٥٣].

لنعد إذن إلى مسيحيينا الذين توجهوا إلى المدينة، فصعد كل من الملك والملكة وسائر الفرسان والسادة إلى الحمراء، وعند باب الحصن قام القائد يوسف بن كماشة بتسليمهما مفاتيحها. وقد أمر جلالتهما بإعطائها فيما بعد إلى السيد إنييغو لوبيث دى مندوثا، كونت تينديًا وابن عم نيافة الكاردينال بدرو غونثاليث دى مندوثا، الذى كان أول قائد عام لتلك المملكة. كان صاحبا الجلالة يدركان مكانة الكونت على ضوء الخدمات الجليلة التى قدمها لهما، فى هذه الحرب التى تقلد فيها منصب القائد العام لجبهة الحامة، ولاحقًا لمدينة قلعة يحصب، أو فى عام ١٤٨٦ عندما ذهب امتثالاً لأوامر صاحبى الجلالة، ليرسى أسس الوفاق بين كل من فيرناندو ملك نابولى Fernando de Nápoles والأب إنوثينثيو الثامن Inocencio VIII، فعقد بينهما اتفاقًا، وترك وراءه كل أمراء إيطاليا - الذين كانوا قد تهيئوا لشن الحرب - ينعمون بالسلام.

---

(٥٣) لم نعثر على مصدر عربى يتحدث عن هذا الاسم الجديد. (المراجع).

مع دخول صاحبى الجلالة إلى الحمراء، احتل قادة المشاة باقى الحصون والأبراج والأبواب سلميًا، دون أن يحدث شغب. حيث أغلق المسلمون على أنفسهم أبواب منازلهم، ولم يظهر منهم سوى من تعين عليه الخدمة فى أحد المواضع. فيما بعد صعد وجهاء الناس لتقديم الاحترام وتقبيل أيادى صاحبى الجلالة، وعبروا عن عظيم سرورهم لأنهما أضحيا سيديهما. وبمرور بضعة أيام، عندما تبين إنصاف هذين الملكين، وأنهما يحققان لهم ما عاهداهم عليه، حذا حذوهم عدد من المواقع فى الجبل والبشرات، وكذا سائر البقاع التى لم تكن قد قدمت فروض الطاعة حتى ذلك الحين.

الفصل الحادى والعشرون

كيف عين صاحبا الجلالة سيادة الراهب إيرناندو دى تالابيرا Hernando de Talavera رئيسًا لأساقفة غرناطة، وكيف شرع هو فى محاولة التحاور مع المسلمين.

بعد الاستحواذ على مدينة غرناطة وجميع الحصون، وتأمينها بالمقاتلين ورجال الحرب، بدأ الملكان الكاثوليكيان فى إظهار عظمتهما، والمن بالهبات والعطايا بشكل عام، وخاصةً على كل من قام بخدمتهما فى أثناء هذه الحرب. فوزعا ما اكتسباه من أراض، وولّيا من يقوم على شئون القضاء والحكم السديد، وذلك لإرساء الطمأنينة فى نفوس المسلمين الذين باتوا رعايا لهما؛ وأيضًا لتوطين وزيادة أعداد الأشخاص الذين يفدون من شتى البقاع، وذلك فى ثبات وعزيمة راسخة، حتى بدا وكأن تلك المسألة يقودها الرب لتعزيز عليائه ومجده. وأمسى بلاطهما يموج بفرسان بارزين وبواسل، من ذوى الحنكة والمراس فى شئون الحرب، وكذلك العديد من الرجال المتمرسين على شئون القضاء والحكم، وعلماء لاهوت واسعى الشهرة - خبراء بحياة القديسين والمنهاج الأمثل فى أمور العقيدة - فكانا يستحثان أشخاصًا على تلك الشاكلة لإمدادهما بالنصح، بدلاً من اللجوء إلى الملوك الآخرين من أصحاب الأبهة والعظمة. لذلك فقد أصابوا فى كل ما فعلوه، ولم يعد هناك شىء لا يقهر أمام أنصال سيوفهما.

كان ضمن رجال الدين الذين ضماهم إلى مجلسهما كاهن يدعى السيد إيرناندو دى تالابيرا، وهو راهب انضم إلى سلك الرهبنة على مذهب الأب الجليل القديس خيرونيمو San Jerónimo. وهو من مواليد مدينة تالابيرا التى تقع ضمن إطار

أسقفيات طليطلة. وهو رجل ذكاؤه متوقد وذهنه حاضر، كما أنه واعظ جليل الشأن، غزير العلم بالآداب المقدسة وفلسفة الأخلاق؛ وعلاوةً على ذلك كله نجده يتمتع بمقام رفيع لدى صاحبى الجلالة نظراً لنصاعة حياته ومذهبه. وقد شغل منصب رئيس دير القديسة ماريا دى برادو Santa María de Prado، الكائن فى بلد الوليد، لمدة تربو على عشرين عامًا ، كما أنه هو مؤسسه. عندما تناهت إلى مسامع صاحبى الجلالة أنباء عنه أرسلا فى طلبه، وقلداه منصب قسيس الاعتراف خاصتهما والناصح لهما. ثم عيناه أسقفًا لآبلة Avila، حتى اصطحباه معهما فى أثناء فتح مملكة غرناطة، حيث أسهمت خطط ونصائح وصلوات ذلك الرجل الصالح فى قدرٍ ليس بالصغير من الأحداث الجيدة التى وقعت خلالها.

أما هو بدوره، فحينما أدرك أن المدينة بدأت تعمر بالمسيحيين، وأنه أمست هناك فرصة مواتية لغرس رعية عابدة لرب السماء يرشدها أحد قساوسة الرب، اتفق على مغادرة البلاط مؤقتًا - حيث كان يتمتع بالحظوة وحسن المعاملة - ليعيش حياةً عسيرةً يحفها الكثير من المخاطر الجسدية. وقد توسل إلى الملكين الكاثوليكيين لكى يزودا أسقفية آبلة بمن يقوم على خدمتها، وطلب منهما أن يدعاه ينهى خدمته للرب فى كنيسة غرناطة الجديدة، مع أولئك الأشخاص الجدد. فلمّا أُخْتِير رئيسًا لأساقفة غرناطة، صدّق البابا أليخاندرو السادس Alejandro VI على اختياره، وأرسل إليه الإزار(*) - شعار رئاسة الأساقفة - الذى سلّمه إياه - فى توقير بالغ - السيد لويس أوسوريو Luis Osorio أسقف جيّان، الذى أتى مكلفًا بذلك؛ يعاونه كل من السيد بدرو دى توليدو Pedro de Toledo أسقف مالقة، والسيد الكاهن غارثيا كيخادا García Quejada أسقف وادى آش.

(*) علامة القبول البابوى، الذى يمنحه البابا لرؤساء الأساقفة ونفر من الأساقفة. وهو عبارة عن زنّار أو حزام من القماش الأبيض شُغِلَت عليه صلبان سوداء، ويُعلَّق على الكتف ليغطى الصدر (المترجمة).
Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo II, pag. 1508.

وحتى لا يجرؤ أحد على الزعم أن الطمع فى دخل أكبر كان هو الدافع وراء تركه لأسقفية أبلة، لم يشأ هو أن يتم إعطاؤه أكثر من القدر اللازم ليعيش حياة معتدلة دون بذخ. وهكذا خُصِصَ له ألفى ألفى ريال مرابطى فى العام، وكانت مخصصات أسقفية أبلة تفوق ذلك بكثير. وقد تجلت إرادة ذلك المطران الصالح، لأنه منذ اليوم الذى تولى فيه منصبه، ابتعد عن شئون البلاط إلى حد جعل من المستحيل إسناد أية مهمة أخرى إليه؛ فيما عدا خلاص أرواح الموحدين، وتنصير الملحدين، وتشييد الكنائس، وحسن إدارتها. وبهذه المناسبة فقد أصاب الملكان الكاثوليكيان فى النصيحة التى اتبعاها – وكانت كل أفعالهما صائبة – حيث أسندا أمر تلك الأغنام الجموحة الفظة، غير المعتادة على سلاسة عبودية الرب، إلى راع مخضرم ومحنك فى الدعوة، حتى يضحى هو السبيل إلى تجميعهم فى قطيعه. يا له من نصر سعيد! ويا للفوز المفرح الذى وهبه الرب فى تلك الآونة إلى مدينة غرناطة الشهيرة! كان من الممكن أن يظفر بها الأمراء المسيحيون فى أزمنة أخرى، ولكن من حسن الطالع أن النصر جاء بالطريقة التى تم بها، فكان من أجل المسيح عيسى. وذلك من خلال سعى وتخطيط وجهد وصلوات ذاك المطران الصالح، وكذلك حديثه العذب ونمط الحياة الطاهرة التى عاشها؛ لأن تلك الأفعال، التى منحها الرب من فضله، كان لها مكانة فى نفوس المسلمين. فبات اسم رئيس الأساقفة، الذى كانوا يلقبونه فقيه المسيحيين الأكبر، لا يضاهيه أى شىء تقديراً وتوقيراً، وهو أكثر شىء محبب إلى أسماعهم. وهو ما نجم عنه مجىء الكثيرين للتنصر من تلقاء أنفسهم وبرغبتهم(٥٤)، ومن حسن الحظ أنهم تمتعوا بقدر من الحمية يفوق غيرهم ممن قاموا بهذا لاحقًا. إلى جانب هذه النعمة العظيمة التى حلت بالمسلمين أضحى وجود هذا المطران فى تلك المدينة ذا أهمية بالغة لدى المسيحيين؛ لأن غالبية الأفراد الذين وفدوا لتعميرها كانوا رجال حرب وقتال وأناس دخلاء. وكان العديد منهم غارقين فى المفاسد والخطايا التى عادةً ما تسفر عنها الخدمة

---

(٥٤) كانت تلك هى حجة الملك الكاثوليكى حين أرسل إليه سلطان مصر يسأله عن تنصير المسلمين قسراً. (المراجع)

العسكرية؛ لذا فقد كان مجهوده ومسعاه الحميد وحياته الواسعة لازمًا لإعادتهم إلى جادة الصواب.

وقد شرع في بادىء الأمر في تعليم المسلمين أسس عبادة الرب، فصار ينقلها لهم بكلمات لم تكن ثقيلة على صدور الفقهاء أنفسهم الذين كانوا يُدْعَون لمعرفة مذهبه؛ ليس هذا فحسب، بل إن الكثيرين منهم قدموا للاستماع إليها دون أن يطلبهم هو. وكان قد خصص بيوتًا بعينها - تدعى بيت العقيدة - لمن يرغب في تغيير ديانته، حيث اعتاد ارتيادها ليعظهم ويرشدهم إلى العادات القويمة، عن طريق مترجمين أمناء. ومن أجل الغاية ذاتها، سعى في حرص بالغ أن يتعلم بعض القساوسة اللغة العربية، وقد أراد هو بنفسه تعلمها في شيخوخته، أو على الأقل الجزء الذي يكفيه منها. حتى يتسنى له إرشادهم إلى الوصايا وتعاليم العقيدة والصلوات، وكذلك الإنصات إلى اعترافاتهم. حظى منصب رئاسة الأسقفية بشغل الراهب إيرناندو دى تالابيرا له على مدار خمسة عشر عامًا، وقد توفى في سنة ١٥٠٧ على أثر إصابته بوباء فتاك.

خلفه السيد أنطونيو دى روخاس Antonio de Rojas، وكان بطريركًا ورئيسًا للمجلس الملكي، وفي عصره -حوالي عام ١٥٢٣ وفي يوم الاحتفال بذكرى عذراء مارس Nuestra Señora de Marzo - تم وضع اللبنة الأولى للكنيسة الكبرى. وبوفاته أعقبه في رئاسة أساقفة غرناطة السيد فرانثيسكو دى إيرّيرا Francisco de Herrera، وكان رئيسًا للمحكمة الملكية، وقد توفى في سنة ١٥٢٥ لميلاد سيدنا. أعقبه السيد بدرو بويرتوكارّيرو Pedro Puerto Carrero الذى توفى قبل أن يتولى مهام منصبه. فلما كان الإمبراطور موجودًا في غرناطة في عام ١٥٢٦ قام بتقليد ذاك الكرسي للكاهن بدرو راميريث دى ألبا Pedro Ramírez de Alba، رئيس دير القديس خيرونيمو بغرناطة، وقد شيد ذاك الأخير مدرسة لقساوسة الجوقة - وكان عددهم ثلاثين شخصًا - وتوفى في سنة ١٥٢٩ لميلاد المسيح. وقد خلفه فيما بعد السيد غاسبار دى أبالوس Gaspar de Avalos أسقف وادى آش، الذى أنشأ الكلية الملكية والجامعة، حيث يُدَرَّس علم

اللاهوت والقانون. كما أسس مدرسة للأطفال من أبناء الموريسكيين تطعمهم وتكسوهم وتعلمهم، ويوجد بها بيت للصدقات. ثم قُلِّدَ رئاسة أساقفة سانتياغو، وخلفه فى غرناطة السيد أنطونيو نينيو دى غيبارا Hernando Niño de Guevara رئيس تلك المحكمة، الذى أضحى لاحقًا رئيسًا للمجلس الملكى وأسقفًا لسيغوينثا Següenza وبطريركًا؛ وقد ظل فى رئاسة الأساقفة خمس سنوات. ثم تولى المنصب السيد بدرو غيرّيروPedro Guerrero، ومكث فيه تسع وعشرين سنة، وكان عضوًا بمجمع ترينتو(*). بموته تم انتخاب السيد خوان مينديث دى سالبا تيِّرا Juan Méndez de Salvatierra، الكاهن القانونى لكوينكا Cuenca، وقد تولى مهام المنصب نيابةً عنه الأب ميخيًا دى لاسارتى Mejía de Lasarte رئيس محكمة تفتيش غرناطة، وذلك فى التاسع عشر من ديسمبر سنة ١٥٧٧. بانقضاء أجله تولى رئاسة الأساقفة السيد بدرو باكا دى كاسترو Pedro Vaca de Castro، الذى كان رئيسًا لمحكمة بلد الوليد Valladolid، ومن قبلها محكمة غرناطة، وهولا يزال على قيد الحياة. وفى عصره شاء الرب أن يظهر إلى العالم رفات الشهداء الذين عانوا فى سبيل العقيدة المقدسة فى زمن وثنية نيرون Nerón، وذلك فى جبل إيبّوليتانو Illipolitano، الذى يُطلَق عليه الجبل المقدس(٥٥) حاول الملكان إمداد المتنصرين الجدد بكل أولئك المطارنة، الذين أُختِيروا بناءً على مذهبهم وأعرافهم، لتحسين تمكنهم من أصول العقيدة. يكفى ذلك فى الحديث عن رؤساء الأساقفة، لنعد إلى التاريخ الذى نحن بصدده.

فى عام ١٤٩٣ انتقل الملك الزُغيبى إلى بلاد المغرب، وباع إلى الملكين الكاثوليكيين ما كانا قد وهباه من أماكن ومخصصات فى البشرات، وذلك بعد أن تملّكها وتمتع بها لما يربو على العام بقليل. وقد أبرم ذاك البيع القائد الذى أسلفنا ذكره - والمدعو

(*) نسبةً إلى مدينة ترينتو الكائنة بتيرول، والتى كان يُعْقَد بها مؤتمرٌ سنوىٌ عالمىٌ بدءًا من عام ١٥٤٥، كاستجابة إلى الحركة التى ظهرت لتنادى بإعادة توحيد كل الكنائس المسيحية. (المترجمة)

(٥٥) هو جبل فى غرناطة لا يزال يحمل هذا الاسم "ساكرومونتى". (المراجع)

يوسف بن كماشة – وكان مفوضًا من قبله، مقابل ثمانين ألف دوقية؛ وكان صاحبا الجلالة حينئذ فى أراغون. وقد استلم ذاك الأخير النقود، وحمّلها على الدواب لينقلها إلى لاوشار (القصور) Lauxar فى أندرش، وكان سيده أبو عبد الله موجودًا بها. فقام بوضعها أمامه وخاطبه على النحو التالى: "سيدى! لقد قمت ببيع أملاككم، وها هو ثمنها كما ترون. لقد أردت أن أجنبكم المخاطر؛ لأنه طيلة وجودكم بين المسلمين، لن يبرحوا محاولة ارتكاب أمور تُشْعِركم بالضيق وتسبب عدم الاستقرار فى هذه الأراضى، إلى الحد الذى لن تنعموا معه أنتم أو من يقوم على خدمتكم بالطمأنينة، ولن يسعكم سوى فقد النذر اليسير الذى تبقى لكم فيه إزاء أقل فرصة سانحة. ويمكنكم شراء أملاك أفضل فى بلاد المغرب بهذه النقود. بمقدوركم العيش هناك فى أمانٍ وراحةٍ أكثر مما ستجدونه فى هذه الأرض، التى كنت فيها ملكًا، ولا تطمح أن تتبوأ تلك المكانة بعد الآن"(٥٦).

أنبئنا أحد شيوخ المسلمين أن الزُغيبى – عقب إتمام البيع – أظهر أسفًا شديدًا على ذلك، حتى أنه كان ليقتل القائد ابن كماشة لو لم يصرفوه من أمامه. عندما أدرك فى نهاية الأمر أنه ما من سبيل للتراجع عما حدث، عاد أدراجه من دون أية أموال(٥٧)، وبعد مرور أيام قلائل رحل مع أهله وذويه إلى مدينة فاس، على متن سفينة ضخمة أمر صاحبا الجلالة بمنحه إياها. وقد عاش هناك لأمد طويل، حتى خرج مع مولاى حامد المرينى Muley Hamete el Merini إلى الحرب لقتال الإخوة الأشراف ملوك المغرب. وقد قُتِلَ فى معركة نهر الزنوج عند المعبر الذى يطلقون عليه بواكوبا (بو عقوبة ؟) Buacuba. يا لسخرية واستهزاء الأقدار التى ساقت المنية إلى ذاك الملك فى أثناء دفاعه عن مملكة غريبة، بينما لم يجرؤ على الموت دفاعًا عن مملكته!

---

(٥٦) النص على هذا النحو يُفهَم منه أن ابن كماشة هو الذى اتخذ قرار بيع ممتلكات أبى عبد الله الصغير. (المراجع).

(٥٧) النص الإسبانى يتضمن هذا الخطأ إذ ترد كلمة " sin " ، وهو خطأ دون شك، والصواب " su " ، أن أبا عبد الله حمل أمواله وأهله ورحل إلى بلاد المغرب. (المراجع).

الفصل الثانى والعشرون

كيف بدأ الشروع فى دعوة مسلمى غرناطة إلى العقيدة الكاثوليكية، أو إرسالهم إلى بلاد المغرب.

استشهد بعض المطارنة، وغيرهم من الأشخاص المتدينين[٥٨]، بفوز الملكين الكاثوليكيين بمدينة غرناطة وسائر بقاع المملكة، لمطالبة جلالتهما فى إلحاح شديد، استنادًا إلى أن ربنا قد أنعم عليهما بنعم جليلة – إذ وهبهما نصرًا كالذى حققاه – لغيرتهما على مجده وسؤدده، وذلك حتى يصدرا الأمر لمتابعة اجتثاث اسم وعقيدة محمد من إسبانيا بأسرها، آمرين المسلمين المستسلمين الذين يودون فى البقاء فى هذه الأرض بالتعميد، ومن لا يرغب منهم القيام بذلك فعليه بيع أملاكه والذهاب إلى بلاد المغرب، وقالوا إن هذا الأمر لا يخرق بنود المعاهدة التى عُقِدَت معهم إبان استسلامهم. بل إنه تعظيم لفائدتهم بما ينفعهم فى خلاص أرواحهم، كما يفيد فى إرساء الطمأنينة والسلام الدائمين فى تلك المملكة. فمن المحقق أن أهلها لن يسالموا مسيحيين، أو يحبوهم أبدًا، أو يحتفظوا بولائهم للملوك طالما استمسكوا بشعائر وطقوس عقيدة محمد، التى تجبرهم على المعاداة الشديدة لما هو مسيحى. بيد أنه على الرغم من قداسة وعدالة هذه الاعتبارات، فإن صاحبى الجلالة لم يعزما على استخدام الشدة مع الرعايا الجدد؛ لأن الأرض لم يكن قد سادها الهدوء بعد، والمسلمون لم

(٥٨) هنا نفهم أن الكنيسة الكاثوليكية كانت وراء نقض معاهدة تسليم غرناطة. (المراجع).

يكونوا قد تخلوا تماماً عن أسلحتهم؛ وإذا ما حدث وقاموا بالثورة من أجل شيء يبلغ في نفوسهم تلك المكانة، سيضحى ذلك بمثابة العودة إلى الحرب من جديد.

إلى جانب ذلك، فقد وضع الملكان نصب أعينهما الإقدام على فتوحات أخرى، لذا لم يرغبا على الإطلاق أن يُقَال أمر شائن عن كلامهما وتوقيعيهما الملكيين؛ خاصةً وأن المسلمين أنفسهم أخذوا يهجرون عقيدتهم، ويوجد أمل أن يؤدي اتصالهم في الشئون الحياتية مع المسيحيين، وكذا معالجة ومناقشة أمور العقيدة، إلى إفهامهم الخطأ الذي يقترفوه، وتركهم إياه ليدلفوا إلى العلم الحقيقي بالدين، كما فعل في أزمنة سابقة الكثير غيرهم من الأمم البدائية، التي انقادت لمشيئة المنتصرين وأرادت محاكاتهم. وحتى يتم ذلك في مودة ورحمة، أصدرا أوامرهما إلى الحكام والعمد والقائمين على شئون العدالة في سائر ممالكهم بمحاباة المسلمين، وعدم الموافقة على سبهم أو إساءة معاملتهم. وأن يسعى المطارنة ورجال الدين إلى تعليم أمور الدين إلى من يود سماعها طواعيةً، في رفق وإظهار للمودة، دون تعرضهم لأي ضيم جراء ذلك.

الفصل الثالث والعشرين

كيف أمر صاحبا الجلالة، عندما علما بتحول المسلمين إلى الإيمان، بذهاب سيادة الكاهن فرانثيسكو خيمينيث دى ثيسنيروس أسقف طليطلة إلى غرناطة، لمعاونة أسقفها فى عمل ينطوى على كل هذه القدسية.

مع بداية رئيس الأساقفة الصالح فى حكم وإدارة رعاياه الجدد، من أجل تخليصهم من الضلال الذى كانوا يعيشون فيه لتزهر ثمار الخلاص، أرسل الملكان الكاثوليكيان - من أجل إمداده بمن يعينه فى عمل يحمل ذاك القدر من القدسية - فى طلب سيادة الكاهن فرانثيسكو خيمينيث دى ثيسنيروس، الراهب التابع لجمعية القديس فرانثيسكو San Francisco، والمولود بقرية تورديلاغونا .Tordelaguna وقد أُختِير لجدارته، وكثرة فضائله، وبلاغته، وقدسية حياته وطباعه - إبان توليه الرئاسة الإقليمية للجمعية - كرئيس لأساقفة طليطلة فى سنة ١٤٩٥ لميلاد المسيح. وذلك على أثر وفاة سيادة الكاردينال بدرو غونثاليث دى ميندوثا ، الذى وافته المنية يوم الأحد الحادى عشر من يناير فى تلك السنة. إذ ذاك انشغل هذا المطران بتأسيس المدرسة التى شيدها فى بلدة قلعة عبد السلام. وقد تركها فيما بعد فى رعاية زميله بالتانسيو Baltansio ليتوجه إلى غرناطة، التى قصدها صاحبا الجلالة فى شهر يوليو من عام ١٤٩٩، ومكثا بها حتى منتصف شهر نوفمبر، حيث توجها إلى إشبيلية؛ وكانا قد أسندا إليه متابعة تنصير المسلمين إلى جوار رئيس أساقفة غرناطة - وذلك فى لين وبمنهاج لا يحملهم على الثورة.

أمـا الطريقـة التى سلكهـا المطرانـان لإجـراء ذاك الشـأن بالـغ الأهمـيـة فكانت استدعاء الفقـهاء والنسّاك ذوى الرأى الأبرز بين المسلمين، لمحاجـجتـهم بمفردهـم فى حوار جيدٍ، وإفـهامـهم الأمـور المتعلقـة بالديانة المسـيحـيـة، ليس عن طريق الشـدة أو العنف، وإنما بأسـانيد وعبارات معتدلة. وكانوا يعالجون تلك المسألة بقدر كبير من التـواضع والدعـة؛ وعقب التجـادل معـهم لفـترة طويلة، كـانا يردانهم وهـم مفـعمـون بالسعادة، حيث يقدما إليهم ثيابًا وأشياء أخرى كثيرة، لكى لا يتخلفوا عن العودة إلى المناقشة فى أونة أخرى. عندما شهد الفقهاء والنسّاك السـلاسة التى يتعامل بها معهم القسـيسـان، والأعمـال الصـالحـة التى يؤديـاها، وأنهـمـا يسـوقـان الحـجـة لإقناعـهم، استنكروا عقيدتهم الإسلامية. كما أنهم فى الوقت عينه، رغبوا فى الاستمتاع بالحرية كشأن المتنصرين؛ لذا شرع بعضـهم فى أخذ أسانيد العقيدة الكاثوليكية وعرضها على الشـعب، مؤنبين إياهم بأن دين محـمد باطل، وأنه أحرى بهم اعتناق عقـيدة المسـيح عيسى. بات لتلك التوبيخـات بالـغ الأثر، حتى أنه فى غضـون أيام أقبل الكثـير من الرجال والنساء لطلب العماد المقدس بتأييد من فقهائهم أنفسهم. ففى يوم واحد تم تعميد ثلاثة آلاف شخص، وكانوا فى عجلة شديدة من أمرهم، حتى إنه لم يكن تعميد كل منهم على حدة أمرًا ممكنًا. حيث تحتم على رئيس أساقفة طليطلة رشهم بمرشة الماء المقدس فى مراسم تعميد عام[٥٩] وفى احتفالية أمنا العذراء تحوّل جامع البيّازين إلى كنيسة للطائفة التى تتبع القديس سالبادور San Salvador. وكانت الأمور ستـأخذ مـجراها دون شـغب أو قلاقل، لو لم يقم نفر من المسـتنكرين الذين تأسوا لرؤية هذا العمل الجليل بإثارة الشـغب ومنع تنفيذه، رغمًا عن أنه تم العمل به فيما بعد عن طريق اللجوء والتأرجح ما بين الرجاء والشدة، كما سنذكر الآن.

---

(٥٩) هذا الفصل من بنات أفكار المؤلف واسع الخيال، فمن الثابت وثائقيًا أن ثيسنيروس - لمّا رأى أن المسلمين غير راغبين فى التنصر، سوى عدد محدود جدًا منهم لأسباب مختلفة - هددهم بالقتل إن لم يقبلوا التـعـميد؛ وهكذا تنصـر الآلاف فى يوم واحد، لدرجـة أنه لم يتـمكن من تعـمـيد كل واحد منهم بمفرده، فلجأ إلى رش ماء التعميد على جموع المسلمين. فيما بعد احتج الموريسكيون بهذا الأمر للدفع ببطلان تعميدهم، وعدم خضوعهم - بالتالى - لسلطة محكمة التفتيش. (المراجع)

الفصل الرابع والعشرون

كيف أمر رئيس الأساقفة بإلقاء القبض على الثغرى Zegrí لمنعه تنصير المسلمين، وكيفية مجيئه للتنصر.

أمسى هناك العديد من المسلمين فى البيّازين ومدينة غرناطة ممن يعارضون التنصير علانيةً، حيث بدا لهم اللجوء إلى ترك الديانة التى علمها لهم أسلافهم أمرًا صعبًا، وقد ألهم رؤية طائفة محمد القديمة تتبدد فى شتى أنحاء إسبانيا. لمّا أدرك رئيس أساقفة طليطلة أن الأمر مرده إلى بعض الرجال البارزين، خشى أن يعيق هؤلاء من جديد مفعول ما يقوم به، وأمر بإلقاء القبض على من يُعْتَقد فى كونهم أشد المعارضين لمظاهر العقيدة الكاثوليكية. كان من بين المعتقلين شخص يدعى الثغرى أثاتور[٦٠] Zegrí Azaator، وهو رجل ذو مكانة يتمتع بحسن الإدراك فيما يتعلق بالشئون المعنوية، ولكنه من جهة أخرى متعجرف ومتكبر، لكونه من سلالة ملوك غرناطة. كان ذلك الشخص معارضًا بشدة لتنصير المسلمين، فقرر سيادة الكاهن فرانثيسكو خيمينيث - منحّيًا أى مشاعر إنسانية جانباً- إخضاعه لعبودية الرب قسرًا؛ لأن الحجج المنطقية لا تفيد معه. فجعل يضعه فى سجن ضيق، وأمر أن يحبس معه - لكى يرشده بحرص إلى الطريق - أحد القساوسة خاصته ويدعى بدرو دى

(٦٠) هو حامد الثغرى، وقد وردت سيرته فى رواية "غرناطة" لرضوى عاشور (المراجع)

ليون Pedro de Leóon، الذى تحلى بشجاعة الأسد[٦١] وأخذ يسلك مع الثغرى منهاجًا حَوَّله من الإنسان المغرور غير القابل للترويض كما كان إبان تسليمه للقسيس إلى شخص متواضع ووديع، متوافق مع مشيئة المطارنة فى كافة الأمور. وفى غضون أيام قلائل طلب أن يُحْمل إلى فقيه المسيحيين، سواء حدث ذلك باللجوء إلى القوة، أو على الأرجح بإلهام إلهى. فعُرِضَ مكبلاً أمام رئيس أساقفة طليطلة، وطلب الإذن لكى يتمكن من الحديث إليه فى حرية، قائلاً إن عليه أن يأمر برفع الأغلال عنه؛ لأنه لن يروق له ما سيقوله ويفعله فى أثناء وضعه إياها. وعندما أُمِرَ بإزالتها خر ساجداً على ركبتيه، مقبلاً الأرض ثم يد رئيس الأساقفة كما جرت العادة عند المسلمين، وقال: "سيدى، أود أن أكون مسيحيًا، وأنا أقوم بذلك طواعيةً، فقد أتانى وحى من الرب يأمرنى فيه بذلك، وأنا على يقين أنه يدعونى إلى جواره عبر هذا الطريق".

أحس رئيس الأساقفة بسرور غامر لرؤيته وقد غير ديانته، حيث أمر بإلباسه ثيابًا جديدةً ثم عَمَّده. رغب الثغرى أن تتم تسميته بغونثالو إيرنانديث Gonzalo Hernandez، تيمنًا بغونثالو إيرنانديث دى كوردوبا Gonzalo Hernóndez de Cordoba شقيق السيد ألونسو دى أغيلار Alonso de Aguilar، حيث كان على أتم دراية بمجهوداته وشجاعته فى تلك الحرب، وعلاوةً على ذلك فهو يدرك أن رئيس أساقفة غرناطة يُكِنّ له الحب الشديد. من هنا أتى مسلمون آخرون لتقبل ماء التعميد، وهكذا أخذوا يتنصرون يومًا تلو الآخر، دون أن يجرؤ الفقهاء[٦٢] أو أى شخص آخر على عرقلتهم، على الأقل علانيةً. وقد أخذ منهم رئيس أساقفة طليطلة عدداً ضخمًا من نسخ كتب عربية فى شتى المناحى، فقام بإحراق ما يتناول منها شئون الطائفة، وأمر بتجليد الكتب الأخرى وإرسالها إلى كليته فى قلعة عبد السلام لكى توضع فى مكتبته.

---

(٦١) لة "ليون" فى الإسبانية معناها "أسد".، وكان ذلك القسيس مشهورا باستخدام صنوف التعذيب مع من لا يريد التنصر طواعية. انظر كتاب "حياة الموريسكيين الدينية" تأليف بدرو لونغاس، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠١٠ (المراجع).

(٦٢) هنا يناقض المؤلف نفسه، فقد زعم سابقًا أن الفقهاء اقتنعوا بالمسيحية وأقنعوا بها غيرهم. (المراجع).

الفصل الخامس والعشرون

كيف أشعل مسلمو البيّازين غرناطة بالثورة لأول مرة على خلفية التنصير، والمنهج الذى سلِكَ لتهدئتهم.

تراءى للمطرانين – وخاصةً رئيس أساقفة غرناطة – إنه ليس من المستساغ أن يعيش فى غرناطة ومملكتها رجال ونساء مرتدّين عن دينهم وأبناء لمرتدّين يعيشون فى كنف طائفة محمد – وكان المسلمون يلقبونهم بالشيس(٦٣) elches – بعد فتحها على أيدى أمراء كاثوليكيين مخلصين. وعندما حاولوا اجتذابهم إلى الإيمان بالمحبة والمنهج القويم، وجدوا بينهم متصلبين لم يرغبوا فى اعتناق المسيحية، حتى لا يتخلوا عن خطاياهم وحماقاتهم، لذا فقد اتفقا على اتباع الشدة معهم وأمروا مأمورى القضاء بإلقاء القبض على بعض المعاندين. ثم حدث أن صعد سائيدو Sacedo خادم رئيس أساقفة طليطلة فى أحد الأيام إلى البيازين، برفقة أحد مأمورى القضاء الملكيين ويدعى بيلاسكو دى باريونويبو Velasco de Varrionuevo لإلقاء القبض على امرأة ابنة واحد من المسلمين، وبينما هو يقتادها أسيرة عبر باب البنود شرعت فى إطلاق صيحات عالية قائلةً إنهم يسوقونها لتضحى مسيحية رغمًا عنها، ومخالفةً لبنود معاهدة السلام. فتجمع حشد كبير من المسلمين، وكان بينهم من يكنّ العداء لذلك المأمور نظرًا للاعتقالات التى كان قد قام بها سلفًا، فبدئوا يغلظون له فى القول، ولما رد عليهم فى

(٦٣) لفظ كان يطلق على من دخل فى الإسلام من المسيحيين، فكأن السلطات كانت ترى أن هؤلاء عليهم أن "يعودوا" إلى دين جدودهم (المراجع)

استعلاء، ضربوه فى غضب شعبى عارم وأردوه قتيلاً عن طريق إلقاء حجر على رأسه من إحدى النوافذ، وعقب وفاته ألقوا به فى المرحاض. كما كانوا سيقتلون ساثيدو بدوره، لو لم تخفه إحدى المسلمات أسفل سريرها، حيث قضى ذلك اليوم وجزءاً من الليل مختبئًا، حتى تسنى لها إرساله آمنًا إلى المدينة.

بعد موت المأمور شهر المسلمون أسلحتهم وانطلقوا يهتفون باسم محمد، منادين بالحرية وقائلين إن بنود معاهدة السلام لا تُحْتَرَم معهم. واحتلوا الشوارع والأبواب ومداخل البيّازين، وتحصنوا ضد مسيحيى المدينة وشرعوا فى قتالهم، ومع حلول الليل تفاقمت أعمال الشغب. وعندما فطنوا إلى أن رئيس أساقفة طليطلة هو الباعث والمحرك وراء كل ذلك، ولمّا كانوا أناسا سئموا من مشاهدة الهمة العالية التى كان يبذلها لتحويلهم إلى مسيحيين، هرعوا إلى مسكنه الكائن بالقصبة وحاصروه بداخله؛ وقد دافع هو عن نفسه بجسارة. على الرغم من أن البعض قد نصحه بمغادرة المكان، وهو ما كان بمقدوره أن يفعله فى يسر، والصعود إلى حصن الحمراء، لكنه لم يرغب فى القيام بذلك، قائلاً إنه لا ينبغى له التخلى عنهم وإنه يتعين عليه انتظار عواقب تلك المسألة والمشاركة فى الخطر الجماعى. وهكذا قضى كل أفراد منزله تلك الليلة شاهرين أسلحتهم.

فى نهار يوم آخر نزل كونت تينديّا من الحمراء ومعه عدد لا بأس به من الأفراد، حيث هرع لمساندة رئيس الأساقفة، الذى عهد إليه بالمدينة والمقاتلين الذين كانوا بصحبته - وكان عددهم حوالى مائتى رجل - لكى يسعى على وجه الخصوص لإطفاء ذاك الغضب الشعبى. لكن رغم المساعى الحثيثة التى بذلها استمر الشغب دون أن يتمكن من تهدئته طيلة عشرة أيام، حاول خلالها المطرانان والكونت - كل من جانبه - بقدر كبير من الحذر والفطنة، سالكين كل السبل الممكنة لتهدئة أولئك الأناس الهمجيين. فاستدعوا الفقهاء والمواطنين البارزين فى المدينة، وأفهموهم الخطأ الذى اقترفوه عند قيامهم بالثورة على ملوك بكل هذا القدر من السطوة، والحسرة التى جلبوها على أنفسهم، والعقاب الذى سوف يلاقوه إذا ما وصل أهل أندلوثيا قبل أن

يهدئوا من روعهم. بيد أنهم أضفوا حجة على ما قاموا به، زاعمين أن البيّازين لم تثر على صاحبى الجلالة، بل نوداً عن توقيعهما. وأن وزراءهما هم من أشعل الثورة فى الأرض، لما أراداه من نقض معاهدة السلام التى استسلم المسلمون بمقتضاها، وأن كل الأمور ستهدأ إذا ما أبقوهم عليها دون أن يضطهدوهم ويتعسفوا معهم فى شئون دينهم. كان بعضهم يتميز من شدة الحنق، عاقداً عزماً لا يلين على التمتع بالحرية إلى الحد الذى دفع بهم إلى عدم الرغبة فى الاستماع إلى صوت العقل؛ وقد أدركوا أنه يوجد ثلاثون مسلم فى مقابل كل مسيحى، وأنهم مزودون جيداً بالأسلحة التى يدافعون بها عن أنفسهم.

إزاء تلك الثورة العارمة، كانت الأوضاع ستزداد سوءاً لو لم يقم رئيس أساقفة غرناطة - الواثق فى رحمة الرب أكثر من بطش الأسلحة - بإخمادها بعمل بطولى. فرغم أن المسلمين لم يودوا الاستماع إلى كونت تينديا أو استقبال الدرع الذى أرسله إليهم فى بادرة سلام، فرجموه وأساءوا معاملة حامل الدرع الذى كُلِفَ بتلك المهمة؛ وهو الأمر الذى يدلل على شعورهم بالسخط الشديد. رغم ذلك، اصطحب رئيس الأساقفة معه قسيساً واحداً يحمل صليبه فى المقدمة، ونفراً من الخدم الراجلين العزل، وتوجه ليقف بين المسلمين فى ميدان باب البنود -الذى كانوا قد تجمعوا فيه - بمحيّاه الحسن ووجهه السمح، كما كان حاله عندما كان يذهب لوعظهم حول شئون العقيدة. انظروا إلى القوة التى تولدها الفضيلة والزهد!. كانت تلك هى الصورة التى رآها المسلمون فأنستهم الحنق والغيظ اللذين كانا يعتملان بداخلهم، وأسرعوا إليه فى تواضع وأعطوه الأمان، وقاموا بتقبيل تنورة ملابسه كما جرت عادتهم فى وقت السلم. حضر كونت تينديا فى رفقة جنوده المسلحين فيما بعد، وخلع عن رأسه قلنسوة قرمزية كان يعتمرها وألقاها وسط المسلمين، حتى يدركوا أنه قدم من أجل السلام. فقام أولئك بالتقاطها وقبلوها، ثم منحوه إياها من جديد، وهكذا سَلِمَ هؤلاء وأولئك.

قضى كل من رئيس الأساقفة والكونت مدة طويلة فى الميدان، يعاتبونهم ويرجونهم أن يتخلوا عن الأسلحة. كما وعدوهم ألا تنالهم أى عقوبة وألا يعتبروا

جميعًا مذنبين، وأنهم سيطلبون لهم العفو والسماح لدى صاحبي الجلالة؛ حيث يجب أن يدرك الكل أنهم قاموا بالثورة من أجل المحافظة على شرف توقيعهما الملكي، وليس من أجل إحداث أمر جديد، وعلاوةً على ذلك فسوف يحفظون لهم عهودهم. وقد قام الكونت بعمل جدير باسمه حقًا، حتى يبعث فيهم الطمأنينة أكثر، حيث اصطحب زوجه الكونتيسة وأولاده الصغار، وأودعهم كرهائن أحد منازل البيازين الكائنة إلى جانب المسجد الكبير. وهكذا عم الهدوء المدينة، وهو ما أسهم فيه أيضًا من جانب المسلمين واحد من قضاتهم يدعى سيدى ثيبونة Cidi Ceibona، وهو رجل حسن الإدراك يتمتع باحترام كبير بين أولئك الناس، وقد وعد بتسليم المتورطين في مقتل المأمور إلى القائمين على شئون العدالة حتى ينالوا جزاءهم. وقد وفى، حيث أمر بإلقاء القبض عليهم، ثم قام بوضعهم بين أيدى الأب كالديرون Calderón – قاضى غرناطة – الذى أصدر حكمه بشنق أربعة منهم فى شارع بيرو، وأطلق سراح الكثيرين غيرهم من أجل إرساء السلام. وهكذا تخلى المسلمون عن حمل الأسلحة وعادوا إلى مزاولة أعمالهم.

الفصل السادس والعشرون

كيف غضب الملك الكاثوليكى على رئيس أساقفة طليطلة عندما عرف سبب ثورة المسلمين، وكيف أمره بمتابعة عملية التنصير بعد الاستماع إليه.

الشيطان، عدو الجنس البشرى، الذى طالما سهر على تخريب الأرواح، ومطاردة من يحاولون تخليصها لعبادة خالقها، كان سيعطل العمل الصالح الذى بدأ بالفعل، ويُفْقِد رئيس أساقفة طليطلة حظوته لدى الملك والملكة، ويوقعه فى الزلل معهما لو لم يسانده الرب ويقف إلى جواره. ذكرنا فى الفصل السابق أن ثورة البيّازين دامت طوال عشرة أيام. كتب رئيس أساقفة طليطلة فى ثالث أيام قيام المسلمين بالثورة رسالة إلى صاحبى الجلالة، اللذين كانا موجودين فى مدينة إشبيلية، ليقص عليهما ما حدث. وبعد أن طوى الرسالة ليبعثها مع رسول من الرجال ذوى الهمة العالية، عرض مواطن يدعى ثيسنيروس Cisneros أن يمنحه عبدًا كناريًا يسير عشرين فرسخًا فى اليوم، وإذا توجب الأمر فإنه سيقطع المسافة إلى إشبيلية فى أقل من يومين. وقد سَهُلَ إقناع رئيس الأساقفة بتصديقه، فلمّا أحضر العبد الكنارى أمامه كلّفه أن يبذل قصارى جهده ويسير ليلاً ونهارًا ليذهب إلى إشبيلية ويسلم تلك الرسالة إلى يد الملكة الكاثوليكية أو أمين السر ألماثان Almazan. وقد غادر العبد غرناطة فيما بعد عقب وعده إياه أن يفى بما أُمِرَ به. لكن كان ذلك العبد امرؤ شريرًا وخسيسًا، قرر أن يثمل فى الطريق، فكان يمشى ببطء شديد حتى أتى إشبيلية فى خمسة أيام. خلال تلك الفترة كان صاحبا الجلالة قد تلقيا تحذيرات أخرى، وعندما لم يجد الملك الكاثوليكى رسالة

من رئيس أساقفة طليطلة أدرك أنه المسبب لذاك الخطر الجسيم وألقى عليه باللوم. كما أنه غضب على الملكة، قائلاً إنها كانت الدافع وراء إحضار ذلك الرجل إلى غرناطة، وإنه أثار فيها القلاقل وعرَّض المملكة التى تكلف فتحها الكثير والكثير إلى الخطر. حتى الملكة كادت أن تصدقه، لمّا لم تر رسالة من رئيس الأساقفة، وأمرت أمين السر الماثان أن يكاتبه ويعزو إليه هذا الإهمال الجسيم، ويخبره أن عليه أن يبعث بيانًا بما حدث على وجه السرعة.

كان رئيس الأساقفة هادىء البال إلى حد كبير، ظنًا منه أن رسائله قد وصلت فى أوانها. فلما رأى ما كتبه إليه أمين السر ألماثان بعث برفيقه الكاهن فرانثيسكو رويث Francisco Ruiz لإرضاء صاحبى الجلالة، وذلك حتى يخبرهما بكل ما حدث، وعرض أن يقابلهما هو بنفسه لاحقًا ليروى تفاصيل الأمر. وقد قص عليهما ذلك القسيس كل ما وقع فى غرناطة، وبهذه الطريقة جعلهما يتفهمان الأمر، ويفقدان بعضًا من مشاعر الغضب الكامنة لديهما، ولكن وصول رئيس الأساقفة ذاته أشفى غليلهما أكثر. حيث أصلح الأمور كلها بفصاحته البليغة ورصانته، وأوضح لهما أن ما يفعله وما قام بفعله هو من أجل خدمة الرب وليس لهدف آخر؛ واعتذر إليهما بكلمات حسنة حتى بات الملكان راضيين وأضحت مكانته عندهما أعظم.

فلما رأى تلك الفرصة الطيبة سانحة فى الوقت الحاضر، نصحهما ألا ينفضا أيديهما عن مهمة تنصير المسلمين التى بدأت بالفعل. وقال إن المسلمين بناءً على تمردهم يستحقون إما عقوبة الموت أو فقد الممتلكات، وإن العفو الذى منح لهم كان مشروطًا باعتناقهم المسيحية أو مغادرتهم للبلاد. وقد استحسن الملكان الكاثوليكيان تلك النصيحة، رغم أن قرارهما تأخر ما يربو على ثمانية أشهر. وقد حاول أهالى البيّازين خلال تلك المهلة بذل مساعى هائلة لإعاقته. كما أرسلوا إلى سلطان مصر يشكون له أن القوم يريدون إجبارهم على أن يصبحوا مسيحيين قسرًا، ويتوسلون إليه أن يقف إلى جوارهم، ويبعث سفيره إلى إسبانيا ليبين لهم أنه سيعتمد

الوسيلة عينها مع المسيحيين الموجودين فى مملكته، مجبراً إياهم على التحول إلى الإسلام[٦٤] . وقد أرسل السلطان سفراءه إلى الملكين الكاثوليكيين قائلاً إنه لن يقبل باستخدام القوة مع المسلمين المستسلمين لحملهم على الدخول فى المسيحية. وإنه إذا ما تم ذلك الأمر فى إسبانيا، فإنه سيقابله بالمثل فى كل أرجاء آسيا[٦٥] مع المسيحيين من رعايا مملكته.

أحسن الملكان استقبال السفراء للغاية، وأجاباهما بأنهما لا يسعيان إلى إجبار المسلمين على التحول إلى مسيحيين، وأنهما لا يريدان وجود مسلمين فى ممالكهم، نظراً لقلة الاطمئنان إلى ولائهم. وأن من يترك ديانته إلى المسيحية طواعيةً سينال كل خير، ومن يود الذهاب إلى بلاد المغرب فسيُسْمَح له بذلك، ويُؤذَن له فى بيع أملاكه ومتاعه وأصوله الثابتة، وسيحملاهم فى أمان تام إلى الموانئ التى يريدون قصدها. علاوةً على ذلك، فقد أرسلوا بدرو مارتير Pedro Mártir - الكاهن الميلانى، والرجل المثقف الذى يعيش حياة ناصعة – والذى كان أول رئيس دير لكاتدرائية غرناطة، حتى يحاول إفهام السلطان ما تنطوى عليه تلك الواقعة بعينها، والبواعث التى دفعت بهما للقيام بما يفعلانه. وقد توجهً ذلك الأخير إلى مصر Egipto وفارس Persia، حاملاً معه شهادات من قادة البقاع الساحلية فى بلاد المغرب التى يؤكدون فيها أن المسئولين عن شئون المسلمين فى إسبانيا – الذين يقومون بنقلهم – ينزلونهم إلى الأرض فى سلام كامل، ومعهم نساؤهم وأولادهم وعائلاتهم، دون أن يضايقوهم أو يسيئوا معاملتهم. فلطالما أمر أصحاب الجلالة العمد والمأمورين المكلفين بمصاحبة المسلمين أن يأخذوا شهادة من المكان الذى أودعوهم به تقضى أنهم قد قاموا بتنفيذ مأموريتهم. عندما

(٦٤) لم تكن تلك نصيحة الموريسكيين، بل كانت فحوى رسالة السلطان المملوكى إلى فيرناندو الكاثوليكى. الجدير بالذكر إن فقهاء مصر عارضوا رغبة السلطان المملوكى، وقالوا إنه لا يمكن تحويل المسيحيين إلى الإسلام قسراً، إذ لا إكراه فى الدين. (المراجع).

(٦٥) ربما يقصد الشام. (المراجع).

فطن مسلمو مملكة غرناطة إلى قلة جدوى مساعيهم، انتقل العديد منهم إلى بلاد المغرب، ومن لم يشاءوا مغادرة البلاد اتفقوا أن يضحوا مسيحيين. وقد أجرى مراسم ذلك التنصير أسقف غرناطة المبارك، مانحًا إياهم العماد المقدس دون الاستعانة بكتاب تعليم أصول المسيحية، أو إرشادهم أولاً إلى شئون العقيدة؛ حيث جاءت حشود ضخمة لتتنصر، وكانت الحاجة ماسة إلى العجلة، حتى لم تفسح مجالاً لإمكانية تعليمهم. بيد أن الهمة العالية وحرص المطارنة كانا يمكن أن يعوّضا ذلك الخلل، لو أراد الموريسكيون نسيان الطقوس والثياب والعادات الخاصة بطائفتهم، وأن يمسوا مسيحيين خالصين فى الجوهر والمخبر، وهو الأمر الذى لم يتسن تحقيقه معهم قط.

الفصل السابع والعشرون

كيف مهدّ الملكان الكاثوليكيان السبيل ببعض التغييرات التى جرت فى مدينة غرناطة حيال تنصير المسلمين.

بعد أن سرى فى أرجاء مملكة غرناطة خبر تحول المسلمين فى مدينة غرناطة إلى المسيحية، شرع أهالى الجبال والبشرات فى الثورة، استجابةً لنصيحة بعض الرجال البارزين فى البيّازين، ممن وجدوا أنفسهم مقهورين وأرادوا أن يفعلوا فعلتهم مع تعريض غيرهم إلى عقوبة الموت. خلال ذلك العام والعام الذى تلاه - وكان موافقًا ١٥٠٠- نشبت الثورة فى بعض المواقع القائلة بأن بنود المعاهدة التى استسلموا بناءً عليها قد تم خرقها، وأنهم لا يتحملون وزر الثورة التى قامت آنفًا، وهم ليسوا مجبرين على المعاناة بسبب ما أقدم عليه الآخرون لتخليص حسابهم. عندما وصل خبر تلك الفتنة إلى إشبيلية غادرها الملكان الكاثوليكيان متوجهان صوب غرناطة فى السابع والعشرين من يناير، وأمرا كلاً من كونت تينديا وغونثالو إيرنانديث دى كوردوبا بمهاجمة قلعة غويخارGüejar، التى تجمّع بها بعض المسلمين الثائرين. وقد انطلقا باتجاهها وظفرا بها ودمراها، ولكن ليس دونما خسائر كبيرة فى أرواح حاملى الأسلحة الذين كانوا بصحبتهما؛ لأن أعداء الرب حفروا الأراضى المحيطة بالموقع، ثم حولوا إليها كل مياه السواقى، فأغرقوا الحقول بالمياه إلى حد غمر الخيول حتى أحزمة السَّرج، فلما ألفوا المسيحيين قد أعيقوا فى تلك الأماكن المرتومة، وثب عليهم المشاة الطلقاء فى الدروب والحدود التى خبروها من كل صوب وحدب،

فأصابوهم وأردوهم قتلى. أما كونت ليرين الذى تقع أملاكه فى مملكة نابارًا Navarra، فقد أغار على أندرش؛ لأن مسلمى هذه البلدة كانوا قد تحصنوا فى قلعة القصور، وعندما فتحها بقوة السلاح فجَّر بالبارود المسجد الكبير الذى تجمعت فيه نسوة وأطفال تلك البقاع.

اقتحم الملك فيرناندو وادى ليكرين، وحاصر كلاً من القلعة ولانخارون، واستولى عليهما فى يوم الجمعة الموافق السابع من شهر مارس. وكان برفقته قائد دونثيليس los Donceles، وكونت ثيفونتيس، والقائد العام لرهبانية قلعة رباح العسكرية، وغونثالو ميخيًا Gonzalo Mejía سيد سانكتوفيميا Sanctofimia – وكثيرون غيرهم من السادة والفرسان. بات هناك مسلم زنجى نصبّه الثوار قائدًا عليهم، ولم يكن يريد أن يقع تحت رحمة المسيحيين أو يتخلى عن الموت مسلمًا، فألقى بنفسه من أعلى البرج، وتمزق جسده إلى أشلاء، حينما أبصر الآخرين يستسلمون.

لَمَّا قُمِعَ المتمردون بسرعة لا تصدق ومُهِدَت الأمور فى البشرات، عاد الملك إلى إشبيلية ليحضر معه الملكة، ويتوجها إلى غرناطة فى يوم السبت الموافق الثالث والعشرين من شهر يوليو. فى غضون شهور أغسطس، وسبتمبر، وأكتوبر تنصر كل مسلمى البشرات ومدن ألمرية وباثا ووادى آش، وغيرها العديد من قرى وبلدان مملكة غرناطة. وفى ذاك الوقت ثار مسلمو بيليفيكى Belefique، وفى العام التالى الموافق ١٥٠١ – أثناء بدايته – تم اعتقالهم وإعدامهم كجزاء عادل، كما أُسِرَت النساء.

أما أهالى نيخار وغيبيخار Güevéjar، فقد استسلموا وأضحوا عبيداً، ما عدا الأطفال إذا كان الطفل يبلغ أحد عشر ربيعًا فما أقل، حيث تم تنصيرهم. فى العام ذاته اندلعت الثورة فى عدة قرى مسلمة فى منطقة رندة الجبلية، وجبال بيرميخا وبيًا لوينغا وقد بعث صاحبا الجلالة إليهم كونت أورينيا Ureña وكذلك السيد ألونسو دى أغيلار، بيد أن الأمور لم تسر على ما يرام. حيث أغاروا عليهم فى مكان يُدعَى كالالوى

Calalui يقع على مقربة من غينالواثيل[٦٦] Ginalguacil، وذلك فى ليلة الثلاثاء الموافق السادس عشر من شهر مارس وأردوا الغالبية العظمى من بنى جلدتنا قتلى، كما مات أيضًا السيد ألونسو دى أغيلار على يد مسلم اسمه الفيرى el Feri من أهالى بن استيبار Ben Estepar. وقد هرب ولده، السيد بدرو، وأسنانه مهشمة من جراء ضربة حجر؛ وكذلك فر كونت أورينيا والباقون بصعوبةٍ بالغةٍ.

على إثر تلك الهزيمة كان لزامًا على الملك الكاثوليكى ذاته أن يخرج من غرناطة، وقد نجم عن وجوده إذعان الأرض بأسرها. حيث سمح لمن لا يرغبون فى التنصر بالذهاب إلى بلاد المغرب ، بينما تنصر باقى مواطنى تلك الرقعة وسائر المملكة. وقد تنصر أيضاً فى غضون أيام قلائل المسلمون المدجنون الذين يعيشون فى آبلة وتورو Toro وسمورة Zamora، وأماكن أخرى من قشتالة لم تكن قد غيرت ديانتها حتى ذلك الحين.

(٦٦) هى بنالغواثيل (أو بنى الوزير)، ولعله خطأ مطبعى. (المراجع)



الكتاب الثاني

الفصل الأول

كيفية احتفظ المتنصرون الجدد بمشاعرهم السلبية تجاه العقيدة المسيحية، والتطرق إلى أصل لفظى مسلم ومُدَجَّن.

بعد القضاء على الثورة التى شهدتها مملكة غرناطة وتنصير المسلمين بدخولهم فى عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة كما هو موضح سلفًا، أخذ الملكان الكاثوليكيان فى إغداق الرحمات والعطايا عليهم، وأظهروا تجاههم العطف والمعاملة الحسنة، حيث أمروا المسئولين عن إرساء العدل وعن شئون الحرب بتدليلهم وتمييزهم عن غيرهم. بيد أنه اتضح لاحقًا أن إظهار حسن النية لم يسهم إلا بصورة ضئيلة فى حمل الموريسكيين على ترك الإسلام. فعلى الرغم من قولهم بأنهم مسيحيون فإنه كان من الواضح اهتمامهم بشعائر وطقوس طائفة محمد أكثر من مبادئ الكنيسة الكاثوليكية، وأنهم صموا الآذان عن وعظ الأساقفة والقساوسة ورجال الدين. كما أن ثراءهم وبسطهم سيطرتهم على ضياعهم أكثر مما كان عليه الحال أثناء حكم الملوك المسلمين لم يشعرهم بالرضا قط، فكانوا يتهامسون فيما بينهم بذكريات الحقبة المنصرمة مؤمنين بخيالات واهية كانوا يسمونها بالنبوءات[1] علقوا آمالهم عليها وحدها – لأنها أخبرتهم بعودتهم إلى سابق عهدهم ورجوعهم إلى الإسلام. فى بادئ الأمر استمر هذا الوضع مع وجود كبار السن والمسلمين، وتمتعهم بقدر من الحرية لممارسة

---

(١) تحتفظ المكتبات الإسبانية بمخطوطات يتحدث فيها الموريسكيون عن نبوءات بعودة الحكم الإسلامى إلى إسبانيا. (المراجع)

همجيتهم. بعد ذلك، أخذ من خلفوهم فى الاستجابة بعض الشىء مع تغير المعاملة، حيث قل ما تمتعوا به من تمييز وتساهل من القائمين على شئون القضاء. أضحى الموريسكيون أناسًا على وعى بكل ما يتعلق بممارسة العقيدة الكاثوليكية، لكن نواياهم السيئة جعلتهم يضيقون ذرعًا، وبمرور الوقت تنامى عداؤهم وحنقهم من تسميتهم بالمسيحيين.

إذا كانوا قد اتبعوا بعض العادات الروحانية فى معاملاتهم وحديثهم وملبسهم فى خضوع مصطنع، فإنهم ضاقوا بالديانة المسيحية فى داخلهم وقاموا سرًا بممارسة طقوس وشعائر طائفة محمد وتعليمها بعضهم البعض. وإن كانت هذه الوصمة قد لطخت أناسًا كثيرين من العامة، فإن هناك بعض النبلاء من ذوى الإدراك السليم اقتنعوا بالعقيدة وشرفوا بكونهم مسيحيين وإظهارهم لذلك، ونحن لا نتحدث عن هؤلاء فى كتابنا هذا. أما البقية فعلى الرغم من أنهم ليسوا مسلمين جهرًا فهم ملحدون سرًا، ينقصهم الإيمان ولا يجدى معهم التعميد. كلما ظهرت حدتهم وتعودهم على تلك الآثام، أضحوا أكثر وقاحةً وجهلاً بتعاليم العقيدة. كان ذهابهم لحضور القداس أيام الآحاد والأعياد بغرض المجاملة ولتجنُّب معاقبة الكهنة والقساوسة لهم. لم يعترفوا بأى ذنوب أمام القساوسة قط، ولم يقولوا الحقيقة أثناء الاعتراف. فى أيام الجُمَع كانوا يأخذون حذرهم ويغتسلون ويؤدون الصلاة فى منازلهم خلف الأبواب المغلقة. أما أيام الآحاد والأعياد فكانوا يخصصونها للعمل. عندما كانوا يُعَمِّدون أطفالهم، كانوا يغسلون أجسامهم سرًا بماء دافئ لإزالة ماء التعميد (المَيرون) والزيت المقدس، ويقومون بشعائر الختان ويسمونهم بأسماء عربية. العرائس اللاتى ألبسهن القساوسة الثياب المسيحية لمباركتهن، كن يقمن بخلعها بعد عودتهن إلى منازلهن ليرتدين أزياء إسلامية، حيث تقام أعراسهن على الطريقة الموريسكية بالآلات الموسيقية والأطعمة العربية. إذا كان البعض قد تعلم أداء الصلاة المسيحية فإن السبب هو عدم السماح لهم بالزواج إلا بعد تعلُّمها، وقد تَهَرَّب الكثيرون من تعلُّم اللغة الإسبانية ليكون ذلك عذرًا لعدم تعلمهم الصلاة. كانوا يستقبلون الأتراك والمسلمين المغاربة فى منازلهم

وقراهم، ويرشدونهم إلى قتل المسيحيين وسرقتهم وأسرهم، حتى أنهم كانوا يقومون بأسرهم وبيعهم، وهكذا كان القراصنة يأتون إلى إسبانيا للإثراء - تمامًا كما يذهب البعض إلى الهند[٢] وفى بعض الأحيان كانت القرية بأكملها ترافقهم[٣] ، ولكن كان هذا الأمر بمثابة أقل الشرور حيث أسف المسيحيون عندما وجدوا أنفسهم يُمسون فى إسبانيا ويُصبحون فى بلاد البربر مع جيرانهم وعرَّابيهم.

لمعالجة هذه المساوئ جاء ملوك قشتالة بعدة أمور من شأنها تطبيق العدالة وترسيخ الحكم، ومنها ما قامت به الملكة خوانا ابنة ووريثة الملكين الكاثوليكيين؛ إذ فَطِنت إلى أن منع هؤلاء من ارتداء ملابس المسلمين سيُضعِف من ذكرى الإسلام لديهم، فأمرت بحظرها، ومنحتهم ست سنوات للتخلص من الثياب التى لديهم، ثم تساهلت معهم لعشر سنوات أخرى؛ حتى أمر الإمبراطور كارلوس ، الذى حكم قشتالة، بتطبيق القرار فى عام ١٥١٨ ، ثم أوقفه فى السنة نفسها، ليس لرغبته فى ذلك، بل نظرًا لتوسلات الموريسكيين. فيما بعد قام كلٌ من الأب باردو Pardo الرئيس الأكبر لدير رهبان القديس سلبادور فى البيازين والكهنة القانونيون بها، ممن لديهم دراية واسعة بطرق معيشة الموريسكيين، بإخبار جلالته مرة أخرى بأن الموريسكيين مازالوا يحافظون على شعائر المسلمين وطقوسهم. فى عام ١٥٢٦ أثناء زيارة جلالة الملك لمدينة غرناطة، بعث مفتشين كَنَسيين إلى جميع أرجاء المملكة، وقد كلَّف بهذا الأمر السيد غاسبار دى أبالوس أُسقف وادى آش، والراهب أنطونيو دى غيبارا Antonio de Guevara، والأب أوتييِّل Utiel، والدكتور كينتانا Quintana، والكاهن القانونى بيرو لوبيث Pero López.

فى الفصل القادم سنتناول ما حدث آنذاك حيث نرى الآن ذِكر نبذة مختصرة حتى يتسنى للقارئ فهم معنى لفظى "مسلم" و"مُدجن" وكيفية اشتقاقهما. هناك

(٢) كان السفر إلى أمريكا المكتشفة حديثًا أحد عوامل الإثراء السريع فى إسبانيا. (المراجع).

(٣) أى تهاجر بأكملها إلى شمال إفريقيا. (المراجع).

تسميـتان مناسبـتان يجب إطلاقهما دون غيرهما على الأتباع الموالين لمُحَمَّد: العرب و العجم. العرب هم الأنصـار الأصليون، أما العجم فهم الدخلاء من أجناس أخرى ممن اعتنقوا مذهبهم. هؤلاء يُطلَق عليهم اسم محمديون، وهم يسمون أنفسهم مسلمين؛ أما نحن فنسميهم "مورروس moros" وهو لفظ غير مناسب لأن الماورروس mauros هي شعوب فينيقية أتت من تيرو لتسكن إفريقية، وقد أسسوا مدينة أوتيكا Utica ثم قرطاج Cartago، وذلك قبل تأسيس روما باثنين وستين عامًا؛ وفيما يلى سرد لتاريخهم.

اتصف الفينيقيون بالشجاعة فى فنون القتال، وكانوا هم أصل تسمية كل من موريتانيا، وتنجيتانيا، وثيساريتسى بهذه الأسماء ؛ وقد حققوا انتصارات كبيرة تحت راية قوادهم ماتشيو Macheo، وماغون Magon، وأسدروبال الأول Asdrubal primero، وأميلكار الثانى Amilcar Segundo، وأنونى Annone، وخيسغون Gisgon، وحنا بعل Anibal، وأسدروبال الثانى Asdrubal segundo، وسافو Safo، وآخرون ممن أشارت إليهم كتابات تروغو بومبيُّو ومن خَلَفَه. وقد دخلوا إفريقيا فى بادئ الأمر بالطرق السلمية للرعى. فيما بعد أقاموا مستوطنات لهم وشرعوا فى محاربتهم، ومع مرور الأحداث قويت شوكتهم، فاستعمروا الجزء الأكبر من بلاد البربر وصقلية وسردينيا، ثم عبروا فيما بعد إلى أراضى إيطاليا حيث بثوا الرعب فى نفوس الرومان ذوى النفوذ، وتمكنوا حسداً أو طمعا من وضع نهاية لازدهارهم وتقدمهم كما دمروا مدينة قرطاج الشهيرة وهدموها. انتشر الماورروس أو الفينيقيون أو القرطاجيون – فلنسمهم كما شئنا – ممن استطاعوا الهرب من غضب الرومان، فى إفريقيا، وأنشأوا إقطاعيات فى عدة أماكن منها موريتانيا على وجه الخصوص، وقد أتى من نسلهم من نطلق عليهم حاليًا أثواغوس(٤) azuagos؛ لمّا اعتنق كل من هؤلاء وكذلك الماورروس ذوى

(٤) يطلق على البربرى المسيحى الذى دخل فى الإسلام (المراجع)

الأصول الفينيقية لعقيدة مُحَمَّد، دَرَج تسميتهم بالعجم. وقد اعتاد عامة المسيحيين أن يطلقوا عليهم جميعًا لقب موروس، وهم يشرفون كثيرًا بهذه التسمية التى تعنى مسلمين وهو اللفظ الذى ينعتون به أنفسهم وترجمته أبناء الخلاص.

أما "المدجنون" فترجع أصولهم إلى العرب والعجم الأفارقة وغيرهم من الأجناس الأخرى، وقد بقوا فى إسبانيا فى المناطق التى استسلم أهلها إلى الملوك المسيحيين، وقد خدموهم وحاربوا معهم ضد باقى المسلمين، لذا فقد تم تلقيبهم خزيًا مدجلين Mudegelin، وهو لفظ مشتق من دجل Degel التى تعنى فى اللغة العربية قبل ميلاد المسيح، وليس السبب أنهم ذوو أصول يهودية كما قال البعض(٥). ونكتفى بهذا القدر حول كيفية اشتقاق هذين اللفظين والذى تم ذكره لإشباع حب الاستطلاع.

---

(٥) لفظ "مدجَّن" يطلق على المسلم الذى بقى فى الممالك التى استولى عليها المسيحيون، وكانت هناك أسباب اقتصادية وراء بقاء هؤلاء فى الممالك التى سقطت، منها أنهم يدفعون قدرًا أقل من الضرائب، بالإضافة إلى ترحيب الحكام المسيحيين بإقامتهم باعتبارهم مصدرًا مهمًا للثروة. من المعروف كذلك أن المدجَّن كان يتمتع بحرية إقامة الشعائر الإسلامية. أما الأصل اللغوى للكلمة فهو بعيد تمامًا عما يقوله مارمول كارباخال، إذ هو مشتق من " د - ج - ن". (المراجع)

الفصل الثانى

كيف أمر الإمبراطور باجتماع المطارنة فى مدينة غرناطة لإصلاح الموريسكيين.

فى أعقاب زيارة المفتشين الكنسيين لكل أماكن وجود الموريسكيين فى مملكة غرناطة، وإخبارهم للإمبراطور المسيحى كارلوس أن ترك الهيئة والعادات التى ترجع إلى عصر الحكم الإسلامى سيؤتى بثماره ويجعل من الموريسكيين مسيحيين صالحين ، قام جلالته بإقران القول بالفعل؛ - حيث كان آنذاك ما زال موجوداً فى غرناطة - فأمر بتكوين مجلس يضم أبرز علماء اللاهوت فى ذلك الوقت فى المملكة، وعَهِدَ إليهم بمهمة التوصل إلى أفضل وسيلة لحمل أولئك على تغيير نمط حياتهم. وقد اجتمع عند المقبرة الملكية التى أنشأها الملكان الكاثوليكيان فيرناندو وإيسابيل فى الكنيسة الكبرى لتلك المدينة، كل من السيد ألونسو مانريكى **Alonso Manrique** رئيس أساقفة إشبيلية والمفتش العام لإسبانيا، والسيد خوان تابيرا **Juan Tavera** رئيس أساقفة سانتياغو ورئيس مجلس قشتالة الملكى - وهو كذلك كبير قساوسة جلالة الملك - والراهب السيد بدرو دى ألابا **Pedro de Alava** رئيس أساقفة غرناطة ، والراهب السيد غارثيا دى لوايسا **Garcia de Loaysa** رئيس أساقفة أوسما **Osma**، والسيد غاسبار دى أبالوس رئيس أساقفة وادى آش، والسيد دييغو دى بيالار **Diego de Villalar** رئيس أساقفة ألمرِّية، والدكتور لورينثو غاليننديث دى كارباخال **Lorenzo Galndez de Carva-jal**، والأب لويس بولانكو **Luis Polanco** - و كلاهما مستشار بالمجلس الملكى - والسيد غارثيا بادياً **García Padilla** رئيس رهبانية قلعة رباح العسكرية، والسيد

إيرناندو دى غيبارا Hernando de Guevara، والأب بالديس Valdés – عضوا مجلس التفتيش العام – والسيد فرانثيسكو دى لوس كوبوس Francisco de los Cobos سكرتير جلالة الملك وسكرتير المجلس الملكى.

فى هذا الاجتماع تم عرض المعلومات التى توصل إليها المفتشون، وكذلك بنود وشروط الاتفاقات التى عُقِدَت مع المسلمين إبان تسليمهم للمدينة، والاتفاق الذى عقده معهم رئيس أساقفة طليطلة بعد تنصيرهم، والمنح التى منحها لهم الملكان ، وذلك جنباً إلى جنب مع أخبار عن علاقات وأحوال بعض الرجال الخطرين. على ضوء ما تقدَّم، خلص المجتمعون إلى أن استمرار الموريسكيين فى الظهور بهيئة المسلمين والحديث باللغة العربية سيحفظ لهم ذكرى تلك الطائفة، ولن يتسنى لهم أن يصبحوا مسيحيين صالحين؛ أما منعهم من ذلك فلن يضيرهم، بل سيعود عليهم بالنفع لأنهم سيدينون بما يقولون. وهكذا أمروا بتحريم لغة الموريسكيين وأزيائهم، وكذا ارتياد الحمامات، كما أمروا أن تفتح أبواب منازلهم أيام العطلات والجُمَع والسبت، وألا يحيوا ليالى وحفلات على الطريقة الموريسكية، وألا يضعوا الحناء على أيديهم وأرجلهم وشعور نسائهم، وألا يتبعوا شعائر المسلمين فى الخطبة والزواج – كما جرت العادة– ولكن تجرى المراسم وفقًا لتعاليم الكنيسة المسيحية، وألا تغلق أبواب المنازل فى أيام العرس، وأن يذهبوا لسماع القداس فى ذلك اليوم، وألا يحتفظوا بأطفال لقطاء[٦]، وألا يستخدموا أسماء المسلمين، وألا يتواجد بينهم غزاة[*] ذوى أصول بربرية من الأحرار أو الأسرى.

صِيغَت كل تلك الأمور فى بنود مصحوبة بالأسباب والدوافع التى أدت إليها وصدر الأمر بتنفيذها بعد عرضها على جلالة الملك. بيد أن الموريسكيين شرعوا لاحقًا

---

(٦) من الغريب الحديث عن أطفال لقطاء فى مجتمع متدين، وربما يتعلق الأمر بطفل من زوجة ثانية لا يسمح بها القانون المسيحى، وبالتالى فهو لقيط من الناحية الرسمية. (المراجع).

(*) الغزاة هم نفر من مسلمى إفريقية – من العبيد أو الأسرى الذين حرروا فيما بعد – و قد تمركزوا فى جبال الجنوب. انظر كتاب خوليو كارو باروخا "مسلمو مملكة غرناطة" الذى ترجم إلى العربية ونشر ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة. (المترجمة).

فى مخالفتها، وقد لجأوا إلى ذرائع معنوية ككونهم أناسا يأسفون بشدة لتركهم لباسهم ولغتهم الأم - وهو أشق الأمور عليهم - فقاموا بتقديم طلبات وأجزلوا العطاء؛ حتى استطاعوا فى نهاية الأمر حمل جلالة الملك قبل مغادرته لغرناطة على وقف تنفيذ تلك البنود للمدة التى يراها جلالته، وهو ما أدى إلى عدم العمل بها آنذاك على الرغم من أنه لاحقًا، أثناء غياب الإمبراطور عن تلك الممالك فى عام ١٥٢٠ ، أصدَرَت مولاتنا الإمبراطورة مرسومًا يقضى بتسليم نسخ من المراسيم الملكية إلى كل من رئيس أساقفة غرناطة ورئيس مجلس التفتيش والمستشارين القانونيين. وآخر للموريسكيين أنفسهم تأمرهم وتعهد إليهم بأن يصدروا توجيهاتهم حول كيفية التخلص من ذلك الزى المشين الذى يُعَد مثالاً سيئًا، وأن ترتدى الموريسكيات تنورة ودثار وقبعات تمامًا كالمسيحيات. وقد لجأوا مرة أخرى للإمبراطور متوسلين إليه أن يأمر بوقف العمل بتلك البنود، نظرًا للصعوبات الكبيرة التى ستواجههم إثر تنفيذها؛ وكذلك فقدان الإيرادات الملكية وما سيسود المملكة من قلاقل، وعلى ذلك أمر جلالته بعدم الأخذ بتلك البنود للمرة الثانية وذلك حتى عودته إلى إسبانيا. ونحن لن نذكر تلك البنود هنا لأنها سترد فيما بعد عندما نسرد معارضة الموريسكيين لما فُرِضَ فى بنود مدريد - وهى فى حقيقتها واحدة - وهو الأمر الذى نَجَمَت عنه الثورة التى يتناولها هذا الكتاب.

الفصل الثالث

كيف حُرِمَ الموريسكيون غير القادرين على خدمة أنفسهم من تملك عبيد سود، وكيف أُمِرَ من فى حيازتهم رخصة لحمل أسلحة بالتوجه إلى القائد العام لختمها.

فى عام ١٥٦٠ بينما كان راعينا الإمبراطور المسيحى كارلوس متفرغًا للتأمل فى دير يوستى Yuste بعد أن عهد أمور حكم كل ممالكه لولده الملك الكاثوليكى فيليبى الثانى، ومع بداية انعقاد المجلس الملكى فى مدينة طليطلة للعام ذاته، فَطِنَ أعضاء المجلس إلى مدى الضرر الناجم عن استمرار موريسكيى مملكة غرناطة فى تملك عبيد سود من غينيا لخدمتهم؛ وهم يقومون بشرائهم كفطاء للاستفادة منهم حيث يحتفظون بهم فى بيوتهم ليلقنوهم تعاليم طائفة محمد، ويعودوهم على تقاليدهم فتضل أرواح أولئك العبيد، فى الوقت الذى ينمو فيه تعداد الموريسكيين كل يوم وتقل الثقة فى ولائهم وإخلاصهم. لذا فقد توسل هؤلاء إلى جلالته لمصادرة أولئك العبيد، وبناء على طلبهم أُمِرَ بعدم تملُك أى موريسكى لعبيد سود، سواء فى منزله أو عمله، وعُهِدَ بتنفيذ ذلك القرار إلى القائمين على شئون القضاء فى أرجاء المملكة. وقد أدى هذا القرار إلى إشعار جميع الموريسكيين بالإهانة بوجه عام، قائلين بأن المسيحيين؛ لا يثقون بهم وبتعاملاتهم، وإذا ما دعت الضرورة إلى تحريم امتلاك العبيد، فليكن ذلك مع من تشك السلطات فى نواياهم، لا مع الأمة بأسرها. فهناك الكثير من النبلاء يُعاملون كمسيحيين ويفخرون بذلك، كما أن هناك علاقة مصاهرة بينهم وبين المسيحيين؛ لذا فما من داع أو علة تبرر توجيه مثل هذه الإهانة الكبيرة إليهم. لذا قرر جلالته بالاتفاق مع

المجلس الملكي، وذلك في البيان الذي أُذيع حول هذا الصدد، أنه ينبغي عدم التشكك فيمن كانوا - أو ما زالوا - متزوجين من سيدات مسيحيات. هذا وقد قام موريسكيو المملكة بالتضرع إلى الملك مرة أخرى، متعللين بأن العبيد السود يقومون بدور الخَدَم في بيوتهم وأماكن عملهم، وأن حرمانهم منهم يعني القضاء عليهم وقد طالبوا في عريضة مُطَوَّلة[٧] أن يُسمَح بتملك العبيد دونما استثناء، فهم جميعًا رعايا جلالته. ثم لجأوا فيما بعد إلى كونت تينديًا السيد إينيغو لوبيث دي مندوثا، وكان يشغل حينئذ منصب قائد حصن الحمراء والقائد العام لمملكة غرناطة، وذلك أثناء حياة والده السيد لويس أورتادو دي مندوثا Luis Hortado de Mendoza والذي كان بدوره رئيس المجلس الملكي في قشتالة. حيث استهلوا كلامهم بعرض المنافع التي عادت على أهالي هذه المملكة أثناء حكم أسلافه، وما أداه الموريسكيون لهم من خدمات، راجين إياه أن يتولى زمام تلك القضية ويقف إلى جانبهم فيها، ليسعى لحمل جلالة الملك على إيقاف تنفيذ هذا القرار في المحكمة لما سيلحقه بهم من ضرر. وقد أجابهم الكونت بأنه سيبذل قصارى جهده لتلبية مطلبهم، وهو ما يقوم به عادةً في أي أمر يُعرَض عليه، وقد كان. بيد أن أولئك الأشخاص المريبين عندما أدركوا أن سير العمل لن يوافق أهواءهم، بسبب الفتور في العلاقات أو معاكسة الحظ لهم، بدأ بعضهم يشعر بالاستياء وحاولوا اللجوء إلى أشخاص آخرين؛ كما أنهم عدلوا عن الهبة التي قدمها جلالة الملك - بناءً على طلب المملكة - فيما يتعلق بدفع الإيجارات والضرائب بما يوازي ألفي دوقية سنويًا للمساعدة في المصروفات، وهو ما ولَّد شعورًا بالضيق لدى كونت تينديًا.

---

(٧) النص الأصلي به خطأ مطبعي بالتأكيد في هذه الفقرة، ويهمنا أن نذكر هنا أن مارمول يشير إلى المذكرة التي تقدم بها نونييث مولاي محامي الموريسكيين، وهي مدرجة في كتاب "الموريسكيون الأندلسيون" تأليف مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣ (المراجع).

فيما بعد أخذت مشاعر الغيرة تَدُب بين الكونت والمحكمة الملكية نظرًا للخلافات بينهما فى أمور تافهة للغاية، فشرع كل طرف فى تحريف فهم الاتفاقات التى عقدها وأقرّها الملك، لتصبح تدريجيًا أكثر توافقًا مع آرائه، محاولاً بذلك إثبات تفرده والحفاظ على تفوقه. أما المحكمة فحاولت من جانبها إخفاء المعلومات عنه، أو على أقل تقدير تعديل ما يقوم به. وبسط الكونت، من ناحيته، حدود سلطته إلى أقصى مدى ممكن، الأمر الذى ولَّد مشاعر خاصة نحو بعض الأشخاص نجمت عنها أضرار بالغة أصابت كل من لم يأخذ حذره؛ لأنه فيما بعد، تذرع متحججًا باستعادة أملاك المواطنين المحليين التى كانت بحوزة بعض أعضاء المحكمة وعدد من الأشخاص بمجمع أديرة المدينة، فتوجه إلى جلالة الملك، ثم عين نفسه قاضيًا لإنهاء هذا الوضع وهو الأمر الذى أسفر عن طرد بعض الموريسكيين من ضياعهم(٨): أشخاص بائسين ضعاف الهمة حُرِموا من إرثهم والأراضى التى ورثوها، أو قاموا بشرائها، أو تملَّكها، مما جعلهم يسخطون على تلك التكليفات تمامًا كغيرهم. علاوة على ذلك فإن كونت تنديًا عندما رأى أنهم أحرجوه ولجأوا إلى خطوة أخرى للتملص من وضعهم، حاول - مستعينًا بنواب المحكمة الملكية ومجمع أديرة مدينة غرناطة - سعيًا لإخضاعهم أكثر فأكثر، أن يطلب من جلالة الملك موافقته على وثيقة كان الإمبراطور كارلوس قد أصدرها فى عام ١٥٥٣ مُفَادُها وجوب لجوء كل موريسكى بمملكة غرناطة يحمل رخصة حمل أسلحة - بغض النظر عن مكانته ووضعه - إلى القائد العام لتسجيلها حيث يأمر هذا الأخير بختمها، كما أنه لا يمكن حيازة أى سلاح أو تملكه بطريقة أخرى. وقد أُرسلَت هذه الوثيقة فيما بعد إلى المجلس(*) لاعتمادها حيث ذُكِرَ فيها أن بعض الموريسكيين قاموا بحجة امتلاك رخصة حمل أسلحة، بشراء كميات أكبر مما تدعو إليه حاجتهم وشرعوا فى بيعها أو منحها للثوار والرجال سيئى السمعة. وعلى الرغم هن هذا التناقض من

---

(٨) مبلغ علمنا أن سياسة أسرة مندوثا كانت أقل ضررًا بالنسبة للموريسكيين. (المراجع).

(*) المقصود هنا المجلس الملكى لمدينة غرناطة. (المترجمة).

جانبهم لم يستغل الموريسكيون الأمر، بل أنهم استاءوا منه، إلى الحد الذى حمل كثير منهم إلى عدم حمل أسلحة لكى لا يتعرضوا لذلك الإذلال، ولم يتقدم لتوثيق رخص الأسلحة وختمها سوى القليلون. أضحى الجميع يشعرون بالسخط والغضب والثورة. من الآن فصاعداً، نظراً لعدم الرضى الذى شاع بين ذوى المناصب العليا، كثرت الشكاوى التى رُفِعَت إلى جلالة الملك حتى كلَّت منها آذان المجلس، وبالتبعية آذان الملك، وهكذا فقدت الأوامر مردودها، وكانت تصدر العديد منها أولا يصدر أى منها؛ حيث فقدت مصداقيتها نظراً لشدة الإلحاف والإصرار. وقد صدر العديد من القرارات دون تحرى العدالة، فنظراً للظروف السائدة آنذاك كان يمكن تأجيلها أو تنفيذها بطريقة أكثر مرونة[٩].

(٩) نؤكد ما ذكرناه سابقًا: الوثائق الأخرى تقول إن سياسة آل مندوثا كانت إلى حد ما منصفةً للموريسكيين، وكان لويس أورتادو دى مندوثا - والد ماركيز مونديخار الذى يتحدث عنه مارمول - قد صعد بمفرده إلى البيّازين لمناقشة الثوار الموريسكيين فى طلباتهم، وهذا يدل على مدى ثقته فى الموريسكيين. انظر مقدمة الترجمة العربية لكتاب "حرب غرناطة" تأليف أورتادو دى مندوثا، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٨. (المراجع)

الفصل الرابع

كيف صدر قرار بعدم استضافة المجرمين الموريسكيين فى مناطق السيادة(١٠)، وعدم جواز تمتعهم بحصانة الكنيسة لمدة تتجاوز ثلاثة أيام.

فى تلك الأثناء كان رجال الشرطة والمجالس فى سائر أرجاء مملكة غرناطة، والتى اضطلعت بدور رئاسة مجموعات، تُخبر المستشارين القانونيين والقضاة بالمحكمة الملكية عن استضافة مناطق السيادة للكثير من الموريسكيين المجرمين الهاربين من العدالة، وإقامتهم فيها وتمتعهم بالأمان، بحيث يخرجون منها لقطع الطريق وسرقة الناس فى الطرقات. كما أن السادة المالكين لتلك المناطق السيادية كانوا يمدونهم بالحظوة والحماية لأنهم يعمُرون أملاكهم. وهكذا أخذ عدد الأشرار فى الزيادة وقل الشعور بالأمن فى البلاد. ومن هنا كان من المستحسن حظر استضافتهم بتلك الأماكن وكذلك قيام رجال الشرطة باقتحامها لاعتقالهم حيث وجدوا(١١) عندما تراءى للمحكمة إنه لا يجوز تمتع المجرمين بتلك الأوكار، عمدوا إلى إبلاغ جلالة الملك بالأمر أثناء انعقاد المجلس الملكى، وبعد استشارته شرع فى إصدار مرسوم مُفَاده عدم استضافة أى من سادة الإقطاع لأناس على تلك الشاكلة فى قراهم، وتمكين رجال الشرطة من دخولها للقبض عليهم أينما كانوا.

---

(١٠) يقصد بمناطق السيادة المناطق التابعة لبعض النبلاء والإقطاعيين، وتلك المناطق كانت غير خاضعة للتفتيش. (المراجع)

(١١) كان فريق أخر يرى أن قرار عدم استضافة الموريسكيين كان خاطئًا، فعندما لم يعد لدى الموريسكى ملاذ يلجأ إليه اندلعت الثورة. (المراجع)

كان العديد من الموريسكيين يقيمون هناك كما أن بعضهم أقبل على الزواج، وذلك بعد العفو عنهم ونسيان ما ارتكبوه منذ زمن بعيد. وكانوا ينعمون بقدر من السكون أثناء ممارستهم للحِرَف وأعمال الحقل، بيد أن الكتبة أخذوا يقلبون فى الأوراق بحثًا عن الأحكام، وشرع رجال الشرطة فى تنفيذ الأحكام بكل همة، وهكذا فقدت الثقة التى كانت توليها أماكن السيادة؛ وعلى ضوء عدم قدرة الموريسكيين اللجوء إلى الكنائس والانزواء فيها لمدة تربو على ثلاثة أيام؛ لأن ذلك أيضًا تم إقراره فى تلك الأثناء، بدأ أولئك فى التوجه نحو الجبال والانضمام إلى ثوار[١٢] وقطاع طرق آخرين، ليرتكبوا كل يوم جرائم أكبر فيقتلون الناس ويقومون بسرقتهم. وكانوا يسيرون فى جماعات مسلحة وعلى قدر كبير من الحيطة، بحيث غدا دور الشرطة العادية فى القبض عليهم ضئيلاً نظرًا لعدم استعانتهم برجال مسلحين. لاحقًا بدأ شعور بالشك يراود البعض حول مدى كفاءة الأحكام التى قضى بها الكونت كما أسلفنا، وإذا ما كان هذا الأمر يقع ضمن نطاق اختصاصات القائد العام[١٣] الذى طالما طبق عقوبات مماثلة لدواعى الحرب – أم الشرطة التى تضطلع بتطبيق القانون. وفى النهاية أُسنِد الأمر إلى الشرطة، ومُنِحَت الصلاحيات للسيد ألونسو دى سانتيّانا Alonso de San - tillana وكان يشغل آنذاك منصب رئيس محكمة غرناطة الملكية. وكذلك مأمورى القرى حتى يوظفوا عددًا من الأشخاص لِتَعَقُّب المجرمين، بحيث يتكفل الموريسكيون بدفع رواتبهم. هذا ولم يتم استثناء القائد العام تمامًا، حيث قام هو أيضًا بملاحقتهم وعقابهم.

وقد كوّنت المحكمة مجموعتين صغيرتين قوام كل منهما ثمانية أشخاص، لم تكونا كافيتين لتأمين البلاد أو قويتين للتصدى للثوار، وهكذا زادت الأضرار مع وجودهما.

(١٢) هذا يؤكد أن محكمة غرناطة – لا آل مندوثا – هى التى أثارت الموريسكيين. (المراجع)

(١٣) هذه الفقرة تؤكد أن الصراع كان محتدمًا بين مندوثا ورئيس المحكمة الملكية فى غرناطة. (المراجع).

حيث حملتنا خطايانا هذه الأيام على الاهتمام بالمصلحة الشخصية أكثر من الصالح العام، وعلى الرغم من أن نية المجلس الملكى كانت جيدة وصالحة، فإن الهمة المفرطة وطريقة المعالجة تسببت فى الضرر حيث كان الحُجَّاب والكتبة - وهم من اضطلعوا بتنفيذ الأحكام - رغبة منهم فى الإثراء من وراء هذا الأمر، لا يكتفون بملاحقة المذنبين، ولكنهم كذلك كانوا يشرعون فى مضايقة من كانوا يقبعون فى منازلهم فى هدوء وسلام، وقد ازداد جشعهم إلى الحد الذى لم يبق فى المملكة سوى القليل من الموريسكيين لم تنسب إليهم تُهَم. مع كل هذا القمع، الذى أُضيف إليه أيضًا ممارسات القائد العام وكذلك محاكم التفتيش ورئيس الأساقفة، لجأت أعداد كبيرة من الموريسكيين الذين لم يكونوا قد توجهوا نحو الجبال إلى هناك، حيث لم يعد بإمكانهم الاحتماء بأى مكان مأهول. وقد ساعد على ذلك من جانب آخر فساد الجنود الذين أقاموا فى القرى فى منازل الموريسكيين. وكانوا - علاوة على التكلفة العادية التى كبدوها إياهم، وكانت كبيرة بدورها - قد أصابتهم الأطماع والفواحش التى يمكن أن تلحق بالعسكريين إذا لم يردعهم الخوف من الرب، وحملتهم المجازفة - كما أدرك الجميع لاحقًا - على ارتكاب جرائم تفوق تلك التى قام بها من سعوا لمطاردتهم. بهذه الطريقة أدى الدواء إلى تفاقم الداء، وتزايدت أعداد الثوار، وعاد الكثير منهم أدراجه إلى مدينة غرناطة وتمركزوا فى البيازين، حيث قطعوا الطريق فى الليل وقتلوا الرجال، ثم شوهوا وجوههم واستأصلوا قلوبهم من ظهورهم وقطَّعوا أطرافهم إربًا إربًا، كما خطفوا النساء والأطفال بالقرب من أسوار المدينة وقاموا ببيعهم فى بلاد البربر. من هنا انطلقت بوادر الأمل فى النفوس المُهانَة، وكان هؤلاء أنفسهم هم الأداة الرئيسة للثورة كما سنفهم فيما بعد فى سياق الكتاب.

الفصل الخامس

كيف أمر جلالة الملك بعقد اجتماع فى مدينة مدريد بخصوص إصلاح الموريسكيين وخلص إلى تنفيذ القرارات الصادرة فى عام ١٥٢٦.

على ضوء الهياج الذى ساد جموع الموريسكيين، والبلاغات التى كانت تصل ساعة تلو أخرى إلى مدينة غرناطة عن الأضرار التى ألحقوها بالمكان، حيث كانوا يمارسون حياتهم على غرار المسلمين وكانوا يتصلون بمسلمى بلاد البربر؛ اهتم السيد بدرو غيرّيرو رئيس أساقفة غرناطة، الذى كان مسافراً لحضور مجمع ترنتو Trento، بهذا الأمر، وتعامل معه بحزم قاطع. وقد كلَّفه البابا باولو الثالث Paulo III أن يبلغ مولانا الملك فيليبى نيابةً عنه ضرورة إيجاد علاج، لكى لا تُهدَر تلك الأرواح. وفى مجمع دينى عقده، وحشد فيه أساقفة مالقة ووادى آش وألمريّه التابعين لأسقفية غرناطة، تناول ما يمكن القيام به لحمل المتنصرين الجدد على اتباع شعائر العقيدة الكاثوليكية بشكل صحيح. وعندما خَلَصوا إلى أن الحل يكمن فى تطبيق بنود الاجتماع المنعقد عند المدافن الملكية أبلغوا جلالة الملك بذلك، وهو بدوره أحال الأمر إلى مجلسه الملكى الذى يرأسه الأب دييغو دى إسبينوسا Diego de Espinosa وكان فى الوقت نفسه يشغل منصب رئيس محاكم التفتيش، وهو أيضًا أسقف سيغوينثا، وقد تقلَّد فيما بعد درجة كاردينال بكنيسة روما المقدسة. وبعد الاستماع إلى روايات رئيس الأساقفة ورؤساء الأديرة، ومعرفة أن الوسائل المُتَبَعَة لم تسهم فى تحقيق أى شىء سوى غرس بذرة الثأر – حيث اعتاد الأشرار الإفادة من أى قرارات جديدة فى القيام

بجرائم واعتداءات - فقد اتفقوا إزاء كل هذه الأمور على تطبيق ما اتخذ من قرارات بكل حزم، دون إتاحة الفرصة لأية مطالب أو ردود.

من أجل الإعداد لهذا الأمر قرر جلالته فى عام ١٥٧٦ عقد اجتماع فى مدينة مدريد شارك فيه السيد دييغو دى اسبينوسا - الذى تولى رئاسة الاجتماع - ودوق ألبا Alba والسيد أنطونيو دى توليدو Antonio de Toledo رئيس دير القديس خوان، والسيد برناردو دى بوريا Bernardo de Borea نائب مستشار أراغون، والمعلم غايّو Gallo أسقف أوريولة Orihuela، والأب بدرو دى ديثا عضو مجلس التفتيش العام، والأب مينتشاكا Menchaca، والدكتور بيلاسكو Velasco مستشارا المجلس الملكى. وقد توصل كل هؤلاء السادة والمثقفين إلى أن الموريسكيين قد تم تعميدهم وصاروا مسيحيين[١٤]، وعليه فلا بد أن يكونوا كذلك ويظهروا بهيئة المسيحيين. ومن ثم عليهم ترك الثياب واللغة والعادات التى اتبعوها عندما كانوا مسلمين، وينبغى تنفيذ وتطبيق البنود التى خلص إليها الاجتماع الذى عقده الإمبراطور كارلوس Carlos سنة ١٥٢٦. ومن هنا ذهبوا للتشاور مع جلالة الملك وشحذ همته، وحمله على التغاضى عن السلبيات التى ستظهر فى الأماكن التى سيُعلَن فيها القرار، حتى إبلاغه إلى الرئيس فى غرناطة لوضعه قيد التنفيذ. ونحن سنتناول تلك البنود فى هذا الموضع ولاحقًا سنعالج الاعتراضات التى أبداها الموريسكيون حتى لا نُغفِل أى معلومة قد يرغب القارئ فى معرفتها.

---

(١٤) الجدير بالذكر أن محكمة التفتيش لا ولاية لها على غير المسيحى، ومن هنا كان الاهتمام بإثبات أن الموريسكيين مسيحيون حتى يكونوا خاضعين لسلطتها، رغم علمهم بأن التعميد كان قسريًا وضد إرادتهم. (المراجع).

الفصل السادس

ويتضمن البنود التى أقرها الاجتماع الذى عُقِدَ فى مدينة مدريد حول إصلاح الموريسكيين.

فى بادئ الأمر أُمِرَ الموريسكيون بتعلم اللغة القشتالية خلال ثلاث سنوات من تاريخ نشر هذه البنود، وبعد هذه المدة لن يُسمَح لأحد بالتحدث أو القراءة أو الكتابة سراً أو علانيةً بالعربية.

جميع العقود والمكاتبات التى تُصاغ من الآن فصاعداً باللغة العربية تعتبر لاغيةً، من دون قيمة أو تأثير، ولا يعتد بها داخل النظام القضائى أو خارجه، ولا يمكن المطالبة بأى شىء بموجبها، وليس لها أى قوة.

أية كتب مؤلفة باللغة العربية، بغض النظر عن فحواها وتصنيفها، تُحمَل إلى رئيس محكمة غرناطة الملكية خلال ثلاثين يوماً ليرسلها للمراجعة والفحص، وتلك التى لا تحوى أشياء غير لائقة ترد إلى أصحابها للاحتفاظ بها خلال فترة السنوات الثلاث فقط لا غير.

فيما يتعلق بالنظام الواجب اتباعه لتعلم اللغة الإسبانية، يُعهَد الأمر إلى رئيس محكمة غرناطة الملكية ورئيس أساقفتها - وهما شخصان ذوا خبرة ومراس - لإقرار ما يرياه أفضل لخدمة الرب ومصلحة أولئك الأشخاص.

بالنسبة للثياب، أمر بالامتناع عن حياكة أية عباءات، أو ملاحف، أو سراويل، أو أى رداء كان يستخدم أثناء حكم المسلمين، وألا يُقَص أو يُحاك سوى أزياء المسيحيين.

ولكى لا تبدد كليًا الثياب الموريسكية الموجودة، سُمِحَ لهم بارتداء ما هو حريرى أو مطرز بالحرير لمدة عام، وما هو نسيج خالص لمدة عامين؛ وبانقضاء هذه المدة لا يسمح بأية حال بارتداء أيهما. وخلال هذين العامين يتعين على جميع النساء اللواتى يرتدين ثيابًا موريسكية الكشف عن وجوههن أينما ذهبن، حيث أدرك الجميع أنه رغبة منهن فى عدم التخلى عن تغطية وجوههن فى الطرقات، عمدن إلى ترك الملاحف والملاءات واستخدام الشالح والقبعات، تمامًا كما حدث فى مملكة أراغون عندما مُنِعَ الموريسكيون من ارتداء ملابسهم المعتادة.

أما الأفراح فصدر بصددها أمر يَحظُر أثناء إعلان الخِطبَة أو إقامة السهرات أو عقد الاحتفالات استخدام الطقوس والشعائر ومظاهر البهجة والفرح التى اعتادوها أثناء حكم المسلمين ، بل يجب أن يتم كل شىء وفقًا لشعائر وتعاليم الكنيسة المقدسة، والطريقة التى يتبعها المسيحيون الأوفياء. كذلك تقرر أن تُترك أبواب بيوت الموريسكيين مفتوحة فى أيام الأفراح والأعراس، وأن يُطَبَّق الأمر ذاته مساء أيام الجُمَع وخلال كل العطلات، وألا تحيى الحفلات الراقصة والليالى بآلات وأغانى موريسكية قط، حتى لو لم يُنشَد أو يُقال فيها ما يخالف العقيدة المسيحية أو يشكك فيها.

فيما يخص الأسماء أُمِرَ بعدم اتخاذ أو إعطاء أو استخدام أسماء أو ألقاب إسلامية، وعلى من يتخذها التخلى عنها لاحقًا، كما مُنِعَت النساء من استخدام الحناء.

تقرر منع استخدام الحمامات، وأن يتم هدم الموجود منها فيما بعد. وحُظِرَ ارتياد أى شخص - بغض النظر عن مكانته ووضعه - لتلك الحمامات، أو الاستحمام فيها، داخل منازلهم أو خارجها.

فيما يتعلق بالغزاة فقد صدرَ قرار بمنع إقامتهم فى أى من أرجاء مملكة غرناطة، سواء كانوا أحرارًا أو تم افتدائهم أو افتدوا أنفسهم؛ وأن يخرجوا منها فى غضون ستة أشهر من افتدائهم. وألا يتملك الموريسكيون عبيدًا من الغزاة حتى لو كانت بحوزتهم رخصة لامتلاكهم.

فيما يتعلق بالعبيد الزنوج فقد أُمِرَ كل الموريسكيين الحاملين لرخص امتلاكهم بتقديمها لاحقًا إلى رئيس المحكمة الملكية بغرناطة، ليحكم إذا ما كان هؤلاء الأشخاص باستطاعتهم استخدامهم دون عوائق أو مخاطر، ويرسل بيانًا إلى مولانا الملك بالأمر لتحريه وإقراره. وفى غضون ذلك يمتنع الشخص المخول بإصدار الرخص عن إعطائها، وفقًا للأسلوب الذى يقره رئيس المحكمة الملكية ويراه ملائمًا.

كان هذا هو القرار الذى اُتُخِذَ فى هذا الاجتماع. وإن ارتأى البعض أنه لا يجب تطبيق البنود جميعها معًا فى وقت واحد؛ لأن الموريسكيين معتادين على تقاليدهم إلى حد كبير، وإذا ما تم العمل بها شيئًا فشيئًا فلن يكون وقعها كبيرًا. بيد أن الرئيس السيد دييغو دى إسبينوسا[١٥]، واضعًا فى اعتباره التحذيرات التى ترد كل يوم من غرناطة، ومتسلحًا بقوة العقيدة والنفوذ كأى أمير كاثوليكى بحت، كانت لديه الرغبة وقام باستشارة جلالة الملك بغية تنفيذ البنود جميعها دفعةً واحدةً.

---

(١٥) هذا يؤكد دور رئيس المحكمة - الذى كان موقفه مخالفًا لتوجهات مندوثا - فى إشعال ثورة الموريسكيين. (المراجع).

الفصل السابع

كيف رَسَّمَ جلالة الملك الأب السيد بدرو دى ديثا رئيسًا لمحكمة غرناطة الملكية وأرسل إليه البنود.

فيما بعد عَيَّنَ جلالة الملك فى منصب رئيس محكمة غرناطة الملكية الأب السيد بدرو دى ديثا مستشار محاكم التفتيش العامة - والذى يشغل حاليًا رتبة كاردينال فى كنيسة روما المقدسة؛ وهو مولود بمدينة تورو، وكان ضمن المشاركين فى اجتماع مدينة مدريد كما أسلفنا. وقد تسلَّم وثيقة توليه هذا المنصب فى مدينة مدريد فى الرابع من شهر مارس سنة ١٥٦٦، وبحلول الخامس والعشرين من الشهر عينه كان موجودًا فى مدينة غرناطة؛ وفى نفس يوم وصوله جمع المجلس وتولى مقاليد الرئاسة. بعد ذلك قام رئيس الاجتماع السيد دييغو دى إسبينوسا بإرسال البنود إليه على هيئة مرسوم بحيث يتم نشرها والشروع فى تطبيقها، وذلك بعد استطلاع آراء المجلس وإحاطة رئيس أساقفة هذه المدينة علمًا، دون الاعتداد بأى اعتراض يبديه الموريسكيون؛ على أن يكون ذلك بعد محاولة تطبيق عدة وسائل، حتى لا يتسبب تنفيذها فى إثقال كاهل الموريسكيين بخسائر مالية فادحة. من جانب آخر أمر جلالة الملك السيد دييغو دى اسبينوسا بإبلاغ السيد إينييغو لوبيث دى مندوثا - وكان فى ذلك الوقت ماركيز مونديخار - بعد وفاة والده السيد لويس أورتادو دى مندوثا - وكان السيد إنييغو آنذاك عضوًا بالمحكمة - حتى يكون موجودًا أثناء إعلان البنود، وذلك لإعطاء دفعةً معنويةً إذا لزم الأمر.

لاحقًا عندما وصلت البنود إلى غرناطة أمر رئيس المحكمة بطباعتها سرًا، حتى تتوافر نسخ كافية لتوزيعها على أرجاء المملكة بأسرها فى الوقت نفسه، حيث تم الاتفاق على إشهارها فى أول يوم من شهر يناير التالى؛ وهو يوم مجيد لأنه يوافق الاحتفال المهيب الذى تقيمه تلك المدينة لإحياء ذكرى فتحها على يد الملكين الكاثوليكيين. أثناء الإعداد لذلك وانطلاقًا من رغبته فى إيجاد شعور بالرضا والقبول بين الموريسكيين، الذين كانوا على علم بما يتم تدبيره وتحدثوا عنه من قبل، أمر الرئيس بإحضار شخص يدعى ألونسو دى أوروثكو Alonso de Horozco، وهو كاهن قانونى بكنيسة مدرسة القديس سلبادور فى البيازين، ورجل له صداقات وعلاقات مع الموريسكيين – نظرًا لعمله كاهنًا على مدار سنوات عديدة فى البشرات – كما أنه يجيد الحديث باللغة العربية إلى حد كبير، وكلفه بجمع الشخصيات الرئيسية البارزة منهم فى الكنيسة، وأن يستخدم صداقاته لإبلاغهم أنه تلقى تحذيرًا أكيدًا من جلالة الملك، الذى أضجرته كثرة الشكاوى التى ترد إليه حول المواطنين المتنصرين حديثًا بتلك المملكة، فهى تخبره أنهم مسلمون وهم يتصرفون على هذا النحو، والسبب الرئيس الذى يمنع اعتناقهم للمسيحية هو استخدامهم الثياب واللغة الموريسكية، واتباعهم عادات وشعائر أخرى ترجع إلى عصر الحكم الإسلامي. ومن هنا عقد جلالته العزم على إصدار قرار بالتخلى عن كل تلك الأمور؛ ولذلك فإنه سيكون من الصواب أن يتقدموا هم بهذا الطلب طواعيةً لتطبيقه بالطريقة التى يرونها أفضل؛ وهو ما سيروق له ويجعله شاكرًا لحسن نيتهم. كما أن عليهم التغاضى عن السلبيات التى تمثلها مسألة الثياب واللغة، وعليهم المطالبة بارتداء جميع النساء المتزوجات والفتيات الملابس على الطريقة المسيحية، ومنع حياكة أية أزياء موريسكية بعد ذلك، والبدء فى التخلص من تلك الملابس الموجودة بحوزتهن. وبهذه الطريقة يشرعن فى التخلص من ذلك الزى الذى يجب أن يكرهنه بوصفهن مسيحيات، فهو دليل على عدم الصدق؛ كما أن ارتدائهن الملابس على الطريقة الإسلامية لا يجلب نفعًا. فى الوقت ذاته ينبغى طلب تعلم الفتيات والرجال متوسطى العمر التحدث باللغة القشتالية، وإقامة مدارس

لتعليمهم كيفية القراءة، والتغاضى عن ذلك فيما يخص كبار السن لاستحالة تحقيقه. أما الكتب العربية فينبغى أن يشرعوا هم أنفسهم فى الاستغناء عنها، ولو كانوا مسيحيين كما يزعمون فإن امتلاكها بالنسبة لهم لا جدوى منه، بل هو ضار لأرواحهم. عليهم كذلك التخلى عن الحفلات الراقصة ومشاعر الغبطة والمتع التى يتبعون فيها الطريقة الموريسكية، فهى مثال دنىء ووصمة كبيرة يصمون بها أنفسهم؛ كما أنها تقع فى باب البذخ الذى له مضاره، وكذلك فهناك أمور فاحشة وفاضحة تحدث فى تلك المناسبات. هذا وينبغى عليهم المبادرة بالقيام بتلك الأمور دون أن يؤمروا بذلك، وخاصةً فيما يتعلق بالحمامات، ومن المعروف أنها خطيئة كريهة تؤدى إلى ارتكاب ذنوب عديدة بحق الرب، وهى عادة آثمة لنسائهم وبناتهم. وأيضًا عليه إفهامهم بعبارات منمقة أن تركهم كل هذه الأشياء، وتعاملهم بالأسلوب عينه الذى يتبعه باقى مسيحيى المملكة، سيلبسهم ثوب الكرامة والحظوة والاحترام؛ مما سيحمل جلالة الملك على الاستعانة بهم كباقى أفراد رعيته. وسينعم أبناؤهم وأحفادهم فيما بعد بأساس قائم على الكرامة والعظمة، ويشغلون مناصب قضائية وحكومية كما هو الحال مع نبلاء المملكة ووجهائها.

كل تلك الأمور وغيرها الكثير مما بعث به الرئيس إلى الكاهن ألونسو دى أوروثكو لنقلها إليهم تم إبلاغها إلى الشخصيات البارزة فى البيازين، والذين تم جمعهم فى كنيسة القديس سلبادور؛ بيد أنهم أجابوه بعدم تجرؤهم على الإقدام على شىء من هذا القبيل؛ لأنهم يثقون فى أنه سيسفر عن رجمهم. عندما رأى الكاهن ردودهم الحادة، وبدا له أنهم لا يعتقدون فى صحة ما قيل لهم عن تصميم جلالته؛ لأنه لم يتم إخبارهم باضطلاع شخص بعينه بهذا الأمر؛ تحدث إلى الرئيس فى ذات اليوم وقص عليه ما حدث، مطالبًا بالسماح له بإبلاغهم أنه هو من سيتولى تلك المهمة، وقد سُمِحَ له بذلك. وفى غضون يومين جمع الموريسكيين مرة أخرى فى الكنيسة نفسها لإعلامهم بأن ما نقله إليهم كان بناءً على أمر الرئيس، الذى طلب إليه مجددًا أن

يبلغهم برغبة مولانا الملك فى تطبيق بنود اجتماع عام ١٥٢٦ ؛ وأنه من الأفضل أن يبادروا بطلب تطبيقها بالأسلوب الذى يظنون أنه أفضل بالنسبة لهم، وأنه سيزكى آراءهم حتى يتم الأمر وفقًا لرغبتهم. إلا أن كلماته لم تُفلِح فى إخضاعهم؛ لهذا فقد رجاهم الكاهن أن يرافقه بعضهم للحديث مع الرئيس، بيد أنهم آنذاك لم يشاءوا القيام بذلك أيضًا.

الفصل الثامن

كيف أعلنت بنود المرسوم الجديد والمشاعر التى انتابت المورسكيين.

بعد الانتهاء من طباعة المرسوم الجديد، أمر سيادة الرئيس بدرو دى ديثا بنشره فى مدينة غرناطة وباقى مدن تلك المملكة فى اليوم الأول من شهر يناير عام ١٥٦٧. فى هذا اليوم اجتمع كل من مسئولى الجرائم بالمحكمة الملكية والمأمور القضائى بجميع رجال الشرطة بالمدينة فى حشد مهيب بمصاحبة الطبول والأبواق، حيث أعلنته أصوات الحُجَّاب على أنغام الناى فى الميادين والأماكن العامة فى غرناطة والبيازين. أعقب ذلك فى التو صدور أوامر إلى رجال الشرطة لهدم جميع الحمامات، وقد هدمت بدءًا بحمامات جلالة الملك، حتى لا يتأذى مالكو الحمامات الأخرى.

ماذا نقول عن المشاعر التى انتابت الموريسكيين عندما سمعوا إعلان البنود فى ميدان باب البنود؟ غير أنه رغمًا عن معرفتهم بما يحدث فإن انزعاجهم كان واضحًا إلى الحد الذى عجز معه كل شخص عاقل عن عدم تفهم نفوسهم الجريحة. كان غضبهم عارمًا، وأخذ كل منهم فى استثارة الآخر بإطلاق التهديدات. وقد قالوا إن جلالة الملك لم تُسد إليه نصائح جيدة، وإن المرسوم لابد وأن يكون سببًا فى القضاء على المملكة. رغبةً منهم فى استكشاف قدراتهم فى وداعة قبل اللجوء إلى حمل الأسلحة فى قوة وعنفوان، شرعوا فى عقد اجتماعات سرية وعلنية كانت تسعى للحديث مع الشباب حول النماذج التى ضربها الشيوخ من قبل – فخضوعهم لبنود تلك العبودية لا يقل عن الموت؛ ومن جانب آخر اتفقوا على مقاومة الغضب الذى أثاره ما أسموه بالبلية بإظهار الخضوع المصطنع، لطلب وقف تنفيذها؛ ومن أجل هذه المهمة وكلوا أشخاصًا بالتحدث إلى جلالة الملك وأعضاء مجلسه الملكى.

الفصل التاسع

كيف عارض الموريسكيون بنود المرسوم الجديد، والحجة التى عرضها فرانثيسكو نونييث مولاى Francisco Núñez Muley على الرئيس.

عقب إعلان المرسوم، بعث موريسكيو المدن والجبال والثغور والبشرات بعض الأشخاص إلى مدينة غرناطة، فى محاولة لمعرفة المشاعر التى تجتاح أهالى البيّازين وكيفية تلقيهم للخبر. عندما وجدوا الكل مجمعًا على مشيئة واحدة، اتفقوا على إعلان معارضة المملكة بأسرها، ومن أجل ذلك توجهوا إلى النائب العام خورخى دى بابيثا Jorge de Baeza سائلين إياه أن يتقدم بطلب باسم الأمة لوقف تنفيذ القرار، أسوةً بما حدث فى مرات سابقة. كما اتفقوا على الحوار مع سيادة الرئيس بدرو دى ديثا، لإخباره مشافهةً وكتابةً بنيتهم الذهاب إلى بلاط جلالة الملك ومحاولة تليين موقفه. وقد اضطلع بهذه المهمة سيد موريسكى يدعى فرانثيسكو نونييث مولاى، زودته سنوات عمره وحنكته بخبره واسعة فى هذا الصدد؛ نظرًا لأنه كان قد تولى القيام بالدور نفسه فى مواضع أخرى أثناء حكم الملوك السابقين. عند عرضه الأمر برمته على الرئيس خاطبه بنبرات هادئةٍ وخاضعةٍ على النحو التالى:

"عندما اعتنق أبناء هذه المملكة عقيدة المسيح لم تكن هناك أى شروط تلزمهم بالتخلى عن ملبسهم، ولسانهم، وعادات إظهار السرور والغبطة، بإقامة الأفراح والاحتفالات الراقصة وأمور التسلية. لكى أُصدقك قولاً لقد كان تنصيرهم قسريًا، ومخالفًا للمعاهدات التى أقرها مجلس الملكين الكاثوليكيين عندما سلمهم الملك أبوعبد الله هذه المدينة. وخلال حياة سموهما لم أشهد أنا طوال سنوات عمرى محاولة لمنع

أبناء المملكة من ممارسة عاداتهم. فيما بعد ومع تولى ابنتهما الملكة خوانا الحكم، بدا ملائمًا - لا أدرى لمن بالضبط؟؟- أن تأمرنا بالتخلى عن الأزياء المويسكية، ونظرًا لما تضمنه هذا الأمر من مصاعب أوقِف تنفيذ القرار، وقد تكرر الأمر عينه مع ارتقاء الإمبراطور المسيحى كارلوس سدة العرش. بعد ذلك أقدم رجل وضيع من أمتنا، واثقًا من مكانته لدى السيد بولانكو Polanco المستشار القانونى بهذه المحكمة الملكية- وكان خادمًا لديه - على كتابة وثيقة معادية للقساوسة والكهنة(١٦)؛ ودون استشارة أى من حكماء الموريسكيين البارزين حمل بعض أصدقائه على توقيعها وسلمها إلى جلالة الملك. لاحقًا هرع الأب باردو رئيس دير رهبان القديس سلبادور فى البيازين للوقوف إلى جانب القساوسة، وردًا على عزله من موقعه، أخبر جلالته -استنادًا إلى منصبه كرئيس دير - أن المتنصرين الجدد مسلمون يحيون حياة المسلمين، وأن أمرهم بالتخلى عن عاداتهم القديمة سيكون مناسبًا. ومن ثم أمر الإمبراطور - بوصفه أميرًا مسيحيًا - بإرسال مفتشين كنسيين إلى جميع أرجاء هذه المملكة للتحرى عن طرق معيشة أهلها. قام بهذه المهمة نفس القساوسة، وكانوا هم أيضًا من شهدوا ضد زملائهم، لكونهم على دراية تامة بالبقعة التى لطخت ثوبنا الناصع. جرى الأمر برمته فى وقت قصير للغاية، مما جعل تنظيف الثوب شيئًا مستحيلاً. من ثم عُقِدَ اجتماع المُصلَّى الملكى (يتم توحيد الاسم: المصلى الملكى أو المقبرة الملكية) ، واتُخِذَ فيه العديد من القرارات لمنع ما تمتعنا به من امتيازات؛ بيد أننا فى هذه المناسبة أيضًا لجأنا إليهم حتى أقروا وقف تنفيذها. بعد مرور عدة سنوات أراد السيد غاسبار دى أبالوس - بوصفه رئيس أساقفة غرناطة - منعنا من ارتداء ملابسنا التقليدية، بادئًا بأهالى القرى، حيث جلب بعض الأشخاص من غيخار إلى هنا للقيام بذلك. لكنه لاقى معارضة من الرئيس الذى كان يشغل المنصب الذى تشغلونه سيادتكم حاليًا، وكذلك

---

(١٦) يرى خوليو كارو باروخا إن وثيقة نونييث مولاى لم تُنشَر كاملة، وإنما حُذف منها ما يسىء إلى القساوسة والكنيسة الكاثوليكية. (المراجع).

عارضه كل من المستشارين القانونيين بهذه المحكمة الملكية وماركيز مونديخار والمأمور القضائى، وقد أُوقِفَ التنفيذ للأسباب ذاتها. منذ عام ١٥٤٠ ظلت هذه القضية مؤجلة حتى وقتنا الحاضر، عندما شرع القساوسة أنفسهم فى إثارتها إمعانًا فى مضايقتنا بعدة وسائل فى وقت واحد.

من يقرأ المرسوم الجديد دون تمعن يعتقد أنه يحمل بين طياته أمورًا يسهل القيام بها، بيد أنها تسفر عن صعوبات كبيرة أَوَدُ تقديمها لسيادتكم تفصيلاً، آملاً أن ترحم هذا الشعب البائس وتتعاطف معه بحنان وحب، وأن تتبنى رأيه لدى جلالة الملك، كما فعل الرؤساء السابقون قبلكم:

أما نساؤنا فزيهم ليس إسلاميًا، إنما هى الثياب الخاصة بهذا الإقليم كتلك الخاصة بقشتالة وأماكن أخرى غيرها، حيث جرت العادة أن يتميزن عن غيرهن فى طريقة ارتداء القبعة، أو التنورة، أو الحذاء. فيما يخص ثياب المسلمات والأتراك، من الذى يستطيع إنكار اختلافهما الكبير عما ترتدى نساؤنا؟ بل إنهن يتمايزن فيما بينهن، فثياب فاس ليست كثياب تلمسان، وتلك الخاصة بتونس تختلف عن مثيلتها فى المغرب، ونفس الأمر يسرى فى تركيا وغيرها من الممالك. لو كان لطائفة محمد زى خاص، لكان متشابهًا أينما كان، بيد أن الزى ليس هو الذى يجعل المرء راهبًا. لقد شهدنا مجيء مسيحيين قساوسة ورهبانًا من سوريا ومصر يلبسون لباس الأتراك: خمار وقفطان يصل إلى القدمين، ويتحدثون اللغة العربية والتركية ويجهلون اللاتينية والرومانثية[١٧]، وبالرغم من كل تلك الأشياء فهم يدينون بالمسيحية. أنا أذكر ويذكر معى العديدون من أبناء عصرى أن الأزياء قد تغيرت عما كانت عليه من قبل فى هذه المملكة، حيث بحث الناس عن ثياب نظيفة وقصيرة وخفيفة ورخيصة الثمن، فصبغوا أنسجة الكتان وارتدوها. هناك من النساء من تكفيها دوقية واحدة لشراء ما ترتديه؛

(١٧) تطلق على أى لغة فى شبه جزيرة أيبريا. (المراجع).

أما ثياب الأعراس والاحتفالات الخاصة بأيام المناسبات فهى تورث لثلاثة وأربعة أجيال. إذا كان هذا هو الحال، فأى فائدة تعود ومن يجنى ثمار خلعنا لثيابنا التى - إذا فكرنا فى الأمر جيداً - لوجدنا أننا دفعنا الكثير من الدوقيات لشرائها، وهو مال ساعد آنذاك على تلبية احتياجات الملوك السابقين؟ لماذا يريدوننا أن نخسر ما يربو عن ثلاثة ملايين عملة ذهبية تُوَظَّف فى هذا المجال، وتقضون على التجار والبائعين والصبَّاغين وأصحاب المهن الأخرى، ممن يعيشون ويقتاتون من صناعة الملابس والأحذية والحلى الموريسكية؟ إذا أصبح لزامًا على مائتى ألف امرأة أو أكثر فى هذه المملكة العودة إلى شراء ما يكسوهن من رأسهن إلى أخمص أقدامهن، فكم من الأموال سيكفى لتحقيق ذلك؟ ما حجم الخسائر التى ستنجم عن التخلص من الثياب والحلى الموريسكية وتدميرها؟ إنها ثياب قصيرة حيكت من خرق وبقايا أقمشة لا تصلح إلا لهذا الغرض، ومن هنا تنبع قيمتها وثراؤها. بل إن القبعات وحتى الأحذية لن يمكن الاستفادة منها. لتنظر إلى المرأة الفقيرة التى لا تملك ما يمكنها من شراء ثوب ودثار وقبعة وحذاء نسائى، فهى تعتمر سروالاً وقميصاً من نسيج مصبوغ وملاءة بيضاء، ماذا عنها؟ من أين لها بالملابس؟ ماذا سيحل بالعائدات الملكية التى تولى اهتمامًا كبيرًا لشئون الموريسكيين؟ أين يذهب هذا القدر اللانهائى من الحرير والذهب واللؤلؤ الصغير؟ ما الداعى لوجوب التخلص منه؟ أما نحن الرجال فمعظمنا يرتدى ثيابه على الطريقة القشتالية، وإن كانت فى الغالب فقيرة ومتواضعة. لقد استمعت فى العديد من المرات إلى الكهنة والأساقفة يرددون أن من يرتدى الثياب القشتالية سيحظى بالتعاطف والحظوة، وإلى وقتنا هذا من بين كل من لبسها - وهم كثر - لم أر أى منهم مفضلاً عن غيره ولا يتعرض للمضايقات. نحن جميعًا نتلقى المعاملة نفسها. إذا عُثر مع أحدنا على سكين يتم إلقاء الشخص للتجديف فى إحدى السفن الكبيرة وترحيله، ويخسر أملاكه بسبب الضرائب الملكية أو الرشاوى والغرامات. إن جهات العدالة الكنسية والمدنية تلاحقنا. ورغمًا عن كل ذلك فنحن دائمًا رعايا أوفياء ومطيعون لجلالة الملك ومتأهبون لخدمته بكل ما نملك، ولا يستطيع أحد قط أن يزعم أننا قمنا بخيانته منذ أن قمنا بتسليم هذه المدينة.

عندما اشتعلت البيازين بالثورة، لم تكن هذه الثورة قائمة ضد الملك، وإنما تضامنًا مع إمضائه الذى نكن له توقيرًا كما لو كان أمرًا مقدسًا. لقد خالف القضاة ورجال الشرطة بنود اتفاقية السلام قبل أن يجف الحبر الذى وُقِّعَت به، بمطاردتهم للنساء ذوى الأصول المسيحية وإجبارهن قسرًا على التنصر. لترى يا سيدى، هل شارك أهالى هذه المملكة فى الثورة التى شنتها الجماعات؟ بهذه المناسبة وانطلاقًا من الحرص على مصلحة جلالة الملك، رافق ماركيز مونديخار وأخويه السيدان أنطونيو دى منــدوثا Antonio de Mendoza وبيــرناردينـو دى مندوثا Bernardino de Mendoza فى الحملة ضد المتمردين، كل من السيد إيرناندو دى كوردوبا إل أونخى Hernando de Córdoba el Ungi ودييغو لوبيث ابن عشار Diego López Aben Axar ودييغو لوبيث أثيرة Diego López Hacera، ومعهم ما يربو على أربعمائة مقاتل من أمتنا، وكانوا بذلك أول من شَهَر السلاح على الثوار فى إسبانيا بأسرها. كما أن السيد خوان دى غرانادا، شقيق الملك أبى عبد الله، كان أيضًا قائدًا فى صفوف الملك فى قشتالة؛ وقد بذل مجهودًا لإخماد الثورة على قدر استطاعته، مؤديًا دوره كفردٍ صالحٍ من رعايا جلالة الملك. ومن ثم فإن العدالة تقتضى أن يتمتع من أظهر هذا القدر من الولاء بالحظوة والتكريم والتفضيل فيما يملك، وأن تنعموا عليه سيادتكم وتكرموه وتحابوه، أسوة بمسلك من سبقكم فى تقلد هذا المنصب.

إن أفراحنا، وحفلاتنا الراقصة، ومظاهر سرورنا، ووسائل تمتعنا لا تمنع كوننا مسيحيين. لا أدرى كيف يمكن القول إنها شعائر المسلمين، فالمسلم الحق لا يُقدم على مثل تلك الأشياء على الإطلاق؛ أما الفقهاء فكانوا يغادرون الحفلات عند بداية الرقص والغناء. حتى أن الملك المسلم عندما كان يخرج من المدينة ويمر بالبيازين – حيث يوجد العديد من القضاة والفقهاء ممن يتباهون بكونهم أتقياء – كان يأمر بتوقف الآلات عن العزف حتى خروجه من باب إلبيرا، احترامًا لهم. هذه الحفلات الراقصة لا تقام فى إفريقيا أو تركيا فهى عادة محلية؛ لو كانت شعيرة دينية لكان من المؤكد إحياؤها دائمًا

على النحو نفسه. لقد كان لرئيس الأساقفة[١٨] أصدقاء عديدون من بين الفقهاء والمفتيين، وبعض من يتقاضون منه راتبًا لإخباره عن شعائر المسلمين، ولو اعتقد أن الحفلات الراقصة شعيرة إسلامية لأقدم على إلغائها بكل تأكيد، أو على الأقل لما مدحها، فهو كان يأمر بعزف هذه الموسيقى لتصاحب المراسم المقدسة فى أثناء الاحتفال بقربان المسيح وغيرها من المناسبات، وكانت القرى تتنافس فيما بينها أيها تجيد الرقص بشكل أفضل. فى البشرات - عندما كان يذهب لزيارة كنيسة - كان يستبدل الأرغن بموسيقى موريسكية كانت تصاحب الموكب حتى الكنيسة. أذكر أنه فى أثناء الصلاة، كان الكاهن يلتفت إلى الرعية، ويقول لهم باللغة العربية - بدلاً من اللاتينية - "يبارك فيكم"، ثم يبدأ العزف.

إن صبغ النساء شعورهن بالحناء ليس تقليداً إسلاميًا بل هى عادة لتنظيف الرأس، حيث تزيل ما بها من أوساخ، وهو أمر صحى. وإذا كن يضعن مع الحناء شيئًا، فالسبب هو رغبتهن فى صبغ شعورهن والقيام بما بدا لهن أمرًا جيدًا.

هذا الأمر لا يخالف العقيدة، وإنما هو شىء مفيد للصحة فهو يشد الجلد ويشفى من الأمراض. وقد أراد الكاهن أنطونيو دى غيبارا - بوصفه أسقفًا - قص شعور النساء من أهالى ماركيزية ثينيتى وإزالة الحناء من أيديهن. وقد لجأن إلى الرئيس والمستشارين القانونيين وماركيز مونديخار للشكوى حيال ذلك، فاجتمعوا لمناقشة الأمر وأصدروا قرارًا بعدم المُضى قُدمًا؛ لأنه أمر لا يقدم للعقيدة سوى النذر اليسير.

حسنًا يا سيدى، فيما يتعلق بإلزامنا بفتح أبواب المنازل على مصراعيها، ما الهدف من ذلك؟ إن هذا يمنح اللصوص الفرصة للسرقة، ويدعو ضعاف النفوس للتجرؤ على النساء، ويعين الحُجَّاب والكتبة على تغريم الفقراء وتدميرهم. إذا رغب

---

(١٨) يقصد إيرناندو دى تالابيرا. (المراجع).

شخص ما فى اعتناق الإسلام وممارسة شعائر المسلمين، ألا يمكنه فعل ذلك ليلاً؟ بهذه المناسبة فإن حب أتباع محمد للوحدة والانعزال أمر صحيح. بيد أن إغلاق الأبواب أو فتحها أمام أصحاب النوايا السيئة لا يخدم القضية كثيراً؛ فمن يقدم على الخطأ سيلقى عقابه، والرب لا يخفى عليه شىء.

هل يمكن الزعم بأن الاستحمام هو إحدى الشعائر؟ كلا بالطبع حيث يجتمع هناك العديد من الأشخاص، وعمال الحمامات أغلبهم من المسيحيين. الحمامات تمتلىء بالقاذورات؛ وشعائر المسلمين تستلزم النظافة والابتعاد عن الناس: كيف يمكن ممارسة هذه الشعيرة فى مكان مشبوه؟ لقد أُنشئت الحمامات لتنظيف الجسد؛ والزعم أن النساء هناك يخالطن الرجال هو أمر لا يُعقل، فليست هناك أسرار فى مكان يرتاده هذا الكم من الأشخاص. هناك أماكن أخرى يمكنهم الاجتماع فيها، وما هو أكثر من ذلك أن الرجال لا يدخلون أماكن النساء. دائمًا ما كانت الحمامات منتشرة فى شتى أرجاء الأقاليم، وإن كانت قد أُزيلت فى قشتالة فى وقت ما، فالسبب هو أنها كانت تُضْعِف قوى الرجال وروحهم القتالية. أما أهالى هذه المملكة فليسوا بصدد القتال، ونساءها لا يتوجب عليهن الاحتفاظ بقواهن بل المحافظة على نظافتهن. إذا كن لا يستحممن هنا فى الجداول والعيون والأنهار، ولا يستطعن أداء ذلك فى بيوتهن، فأين يمكنهن الاغتسال؟ مع أن الذهاب للحمامات الطبيعية طلبًا للعلاج أثناء المرض يتطلب مجهوداً ونقوداً وإهداراً للوقت فى استخراج رخصة للقيام بذلك.

فيما يخص المطالبة بعدم تغطية النساء لوجوههن، ما الدافع وراء ذلك سوى الدفع بالرجال نحو الرذيلة إزاء مشاهدتهم لجمال معشوقاتهم؟ وبالتبعية فإن الدميمات لن يعثرن على من يرغب فى الزواج منهن. هن يغطين وجوههن حتى لا يمكن التعرف عليهم تماماً كالمسيحيات: فهذا الحياء يعفيهن من المضايقات. ومن ثم أمر الملك الكاثوليكى ألا يقدم أى مسيحى على كشف وجه امرأة موريسكية تسير فى الطريق، ووضع لذلك عقوبات رادعة. إذا كان الأمر كذلك، ولم يكن هناك ما

يخالف العقيدة، فما الذى يدعو إلى مضايقة المواطنين حول تغطية نسائهن لوجوههن أو كشفها؟

الأسماء والألقاب القديمة التي نحملها تساعدنا على التعرف على بعضنا البعض، وأى شىء آخر سيفضى بنا إلى نسيان الأشخاص والأنساب، فما الفائدة من فقدان الذكريات؟ إذا أمعنا التفكير فى الأمر سنجده يزيد من تمجيد ومدح الملكين الكاثوليكيين اللذين فتحا هذه المملكة. كانت هذه هى نية ومشيئة الملكين الكاثوليكيين – رحمهما الله – التى من أجلها تمت المحافظة على قصور الحمراء الفاخرة، وقصور أخرى غيرها أصغر منها بنفس الهيئة التى كانت عليها فى عهد الملوك المسلمين، بهذه الطريقة تدل هذه القصور على سطوة المنتصرين(١٩).

إن طرد الغزاة من هذه المملكة لهو أمر عادل ومبارك، فما من جدوى لتواصلهم مع المواطنين، بيد أنه قد تقرر طردهم عدة مرات ولم يُفْعَل ذلك قط. ولكن المضى قدمًا فى تنفيذه الآن لا يخلو من السلبيات، ومعظمهم أصبح بالفعل من الأهالى حيث تزوجوا وأنجبوا أولادًا وأحفادًا تزوجوا بدورهم، وطرد هؤلاء سيكون أمرًا شائنًا يُثْقِل الضمائر.

كذلك لا يُمَثِّل تملُّك الأهالى للعبيد السود أى عوائق. ألا يحق لهؤلاء الأشخاص أن يقوم أحد على خدمتهم؟ هل لابد أن نضحى جميعًا سواسية؟ القول بأن تعداد الأمة الموريسكية يزيد عن طريقهم هو مجرد وهم. فبعد إخبار جلالة الملك فى مجلس طليطلة أن هذه المملكة بها ما يربو على عشرين ألف عبد أسود فى حوزة المواطنين، ثبت أن عددهم يقل عن أربعمائة، والآن لا يوجد أكثر من مائة رخصة لتملكهم؛ وهذه

---

(١٩) كان الشعراء الإسبان المتعاطفون مع المسلمين فى القرن السادس عشر يعللون إشادتهم بالموريسكيين، بأن ذلك يعنى الإشادة بملوك إسبانيا الذين انتصروا على أمة قوية. انظر د. جمال عبد الرحمن "صدى سقوط غرناطة الإسلامية فى الأدب الإسبانى" أعمال المؤتمر الدولى الخامس للدراسات الموريسكية، تونس، ١٩٩٣، الجزء الثانى، ص ١٨٥-٢٠٩ . (المراجع) .

الرخص أصدرها القساوسة، وهم من قاموا فيما بعد بضمان مالكيهم، وهم أيضًا من أفادوا منهم.

ننتقل بعد ذلك إلى اللغة العربية التى تمثل العائق الأكبر. كيف يمكن منع الناس من الحديث بلغتهم الأم التى ولدوا وتربوا عليها؟ المصريون والسوريون والمالطيون وغيرهم من الشعوب المسيحية يتحدثون ويقرءون ويكتبون بالعربية، وهم مثلنا مسيحيون، فضلاً عن أنه لم تكتب فى هذه المملكة مكاتبات أو عقود أو شهادات بأحرف عربية منذ التنصير. نشر اللغة القشتالية هو أمر نتمناه جميعًا، لكنه ليس بأيدى الناس. كم عدد الأشخاص الموجودين بالقرى والبقاع داخل المملكة وخارجها ممن لا يملكون سوى التحدث بلغة عربية، تختلف من شخص إلى أخر، لتخرج لهجات بينها تضاد شديد بحيث يكون مجرد سماع رجل من البشرات يتحدث كافٍ لمعرفة الجهة التى ينتمى إليها؟! لقد وُلِدوا وتربوا فى أماكن صغيرة لم يسمعوا فيها اللغة الأعجمية قط، وليس هناك من يفهمها سوى القسيس أو الكاهن أو شماس الكنيسة، وهؤلاء دائمًا ما يتحدثون العربية. من ثم فإنه سيكون من الصعب وشبه المستحيل أن يتعلمها الشيوخ فيما تبقى لهم من عمر، فما بالك بفترة زمنية قصيرة كهذه السنوات الثلاث، إذا افترضنا أنهم سيقصرون حياتهم على ارتياد المدرسة. من الجلى أن هذا البند قد صُمِم للقضاء علينا. على ضوء عدم وجود من يقوم بتعليم الأعجمية فهم يريدون منَّا تعلمها بالقوة، وهجر اللغة العربية التى نجيدها، وذلك حتى تسنح الفرصة لتطبيق الغرامات والعقوبات، حتى يترك الأهالى غير القادرين على تحمل كل هذه التكاليف أرضهم، ويتيهوا فى أماكن أخرى ويصبحوا ثوارًا. إن من أصدر هذا الأمر بهدف تحقيق المصلحة وإنقاذ الأرواح ومداواتها عليه أن يفهم أن تطبيقها لن يسفر سوى عن أضرار جسيمة، وأنها تجئ إمعانًا فى هلاك الأرواح. فكِّروا فى وصية المسيح الثانية وحب الغير، وألا يحب المرء لأخيه إلا ما يحب لنفسه. لو طُلِبَ أمر واحد من الأشياء العديدة التى فرضها علينا المرسوم من مسيحيى قشتالة أو أندلوثيا لماتوا كربًا وأسفًا، ولا أدرى ماذا كانوا سيفعلون؟ دائمًا ما كان رؤساء هذه المحكمة

يحسنون إلى هذا الشعب البائس ويسبغون عليه حمايتهم: إن أشعرهم شىء بالإهانة يلجئون إليهم وهم يتكفلون بمعالجته، بوصفهم أناساً يمثلون جلالة الملك ويتمنون الخير لرعيته، وهذا هو ما نرجوه جميعاً من سيادتكم.

من فى العالم بأسره أشر وأحقر من زنوج غينيا؟ رغماً عن ذلك يتيحون لهم الحديث ونقر الطبول والرقص بلغتهم لإرضائهم. معاذ الله أن يكون حديثى فيه إساءة، فنيتى كانت ولازالت حسنة. لطالما قمت بخدمة إلهنا وسيدنا، والتاج الملكى، وأهالى هذه المملكة من أجل مصلحتهم. هذا الالتزام يجرى فى عروقى كالدم ولا يمكننى التخلى عنه، وأنا أتولى هذه المهمة منذ ما يزيد عن ستين عاماً. دائماً كنت ضمن المرشحين كلما دعت الحاجة. الآن عندما تنظرون للأمر بعين الرحمة، فلن تتخلوا عمن يملكون القليل فى مجابهة من لديهم قوة الدين كلها إلى جانبهم، فتزيلون الوهم الراسخ لدى جلالة الملك وتصلحون العديد من المساوئ كما يُتَوَقَّع منكم، وتقومون بما يجب أن يفعله فارس مسيحى كريم؛ حتى يجزل لك الرب وجلالة الملك العطاء وتبقى هذه المملكة ممتنة لك على الدوام."

الفصل العاشر

رد الرئيس على الموريسكيين، وتنبيه جلالة الملك إلى فحواه وإلى بعض الأمور التي سيعود إقرارها بالنفع.

بعد سماع الحجة التي تقدم بها فرانثيسكو نونييث مولاى، أجابه الرئيس بأنه سيبذل قصارى جهده لرفع المعاناة عن رعايا جلالة الملك أينما وجِدوا. إن كان بعض رجال الشرطة يضربونهم، ويغرمونهم أموالاً يتكسبون من وراءها فعليهم اللجوء إليه، وسوف يعمل لاحقًا على معالجة ذلك وإنزال العقاب الصارم بالمذنبين. وأن ما يريده جلالة الملك هو حملهم على أن يصبحوا مسيحيين صالحين متساويين فى كل شىء مع باقى رعاياه من المسيحيين؛ وعلى هذا فإنه يحق لهم طلب الرأفة، ولجلالته منحهم إياها. بيد أن عليهم أن يعرفوا أن المرسوم الجديد لا يمكن إبطاله؛ فهو عادل ومقدس إلى حد بعيد، وقد تم إعداده بتؤدة وإجماع. إذا كان يحوى فى جنباته ما يمكن أن يلحق بهم الضرر فعليهم إخباره بذلك، فهو سيشعر بسعادة بالغة عندما يبذل أقصى ما فى وسعه لتبرئة ساحتهم. أما ما يعجز عن إقراره فسوف يرسله لاحقًا للتشاور بشأنه مع جلالة الملك، فى محاولة لتصحيح الوضع على وجه السرعة. ومن ثم فإن عليهم عدم إضاعة أموالهم واللجوء إلى المحاكم فى هذا الصدد؛ لأن الأسباب التى لديهم قيلت سلفًا عدة مرات، وهى غير كافية للعدول عن المرسوم.

فيما يخص اللغة فقد عهد إليه وإلى رئيس أساقفة غرناطة إقرارها بالطريقة التى يرياها ملائمة، وهو ما سيكون. أما الثياب فحلها فى متناول اليد عن طريق تفكيك الثياب الموريسكية ليُصنَع منها تنانير سابغة وأخرى قصيرة، وأثواب فضفاضة كتلك

التى ترتديها المسيحيات. وهكذا لن يُهْدَر الكثير من الأقمشة كما يقال. كما أن المعلمين والحرفيين الذين يخيطون الثياب ويصيغون الحلى المويسكية يمكنهم عملها على الطريقة القشتالية، أما التجار والبائعين فلن يتغير عملهم. كان رد السيد فرانثيسكو أن الصناع غير مجازين أو أن نظار الأسواق سوف يغرمونهم. فأجابه الرئيس أنه سيعمل بالطبع على منحهم رخصًا لمزاولة أعمالهم دون إخضاعهم للاختبار. وبالنسبة إلى النساء الفقيرات، فإنه سيطلب من جلالة الملك منحهم تنانير وعباءات، وهكذا فإن ارتدائهن ثياب المسيحيات سيوقف المضايقات المزعومة من قبل رجال الشرطة.

وفى نهاية الأمر ختم حديثه قائلاً بحزم إن جلالة الملك تهمه العقيدة أكثر من الضريبة، وأن إنقاذ روح واحدة يمثل لديه ما هو أغلى من كل ما يدفعه المتنصرون الجدد من إيرادات. فجلالته ينوى جعلهم مسيحيين أتقياء، ليس هذا فحسب بل إظهارهم على تلك الهيئة، حتى يرتدى نساؤهم وفتياتهم الثياب عينها التى تلبسها مولاتنا الملكة، أما هو فمن جانبه لن يمنحهم أبدًا الخطوة التى تسمح لنسائهن بارتداء ثياب المسلمات رغمًا عن كونهن مسيحيات. وهكذا صرف الرئيس هذا الموريسكى ذلك اليوم متعللاً بهذه الأسباب وغيرها الكثير.

عندما تنامى إلى علمه أنهم يريدون إرسال خورخى دى بابيثا إلى المحكمة لمعارضة القرار باسم المملكة، أرسل فى إحضاره وأمره ألا يقدم على هذا الأمر بأى أسلوب؛ لأن جلالته لن يعجبه هذا الأمر؛ وإذا ما حاولوا القيام بأى شئ فعليهم التقدم به على هيئة طلب، وهو بدوره سيقر ما يمكن إقراره، وسوف يتشاور فى باقى النقاط مع جلالة الملك. ثم أمر أن يُذاع فى سائر أرجاء المدينة أنه من يود من معلمى وحرفيى البضائع الموريسكية البدء بتصنيع ملابس قشتالية فله مطلق الحرية فى أن يزاول عمله، على الرغم من عدم اختبارهم من قبل المفتشين والنُظّار، وأنه لن تُفرض عليهم أية غرامات أو عقوبات. ومن يود منهم خوض الاختبار فله ذلك، ولن تُحَصَّل منه الرسوم. أما حائكو الملاحف والمئازر والأحجبة وغيرها من أزياء الموريسكيين، فعليهم

الانتهاء من المهام التى هم بصددها فى غضون فترة زمنية محددة، ومن الآن فصاعداً لن يصنعوا غيرها، وعليهم الالتزام بفحوى المرسوم. على ضوء أن كثيرين كانوا قد استأجروا محالاً لمزاولة مهنهم وتجارتهم، وقد وظفوا أموالهم فى الثياب والبضائع الموريسكية، فإن حظر تلك الثياب – واجب النفاذ – لن يسمح لهم بدفع إيجارات تلك المحال وهى خاوية. لذا فقد استدعى مالكى المحلات ورجاهم أن يُحلّوا الموريسكيون من دفع الإيجارات، وقد قبلوا بذلك. كما أمر بإنذار الجميع أن أى حسابات مكتوبة بالعربية ستنتهى ويوقف العمل بها خلال سنة؛ لأنه وفقًا لما ينص عليه المرسوم فإنه بدءًا من ذلك التاريخ لا ينبغى لهم القراءة أو الكتابة بتلك اللغة، بل بالقشتالية. كما أصدر أوامره إلى رجال الشرطة بأنه أثناء ملاحقتهم للنساء اللواتى يرتدين ثيابًا مخالفة، عليهم تأنيبهن وتوجيه اللوم والعتاب إليهم مرتين أو ثلاث مرات قبل اقتيادهن إلى السجن، وإذا ما ذهب بعضهن إلى هناك فلابد من إطلاق سراحهن على الفور دون إلزامهن بدفع أية تكاليف؛ وخلال العام الأول لم يوافق الرئيس على تطبيق أية عقوبة تم إخطاره بها. وبما أن الحُجَّاب العاديين مارسوا العديد من التجاوزات، فقد عيّن أشخاصًا يقومون بعملهم بأسلوب أكثر لينًا، آمرًا إياهم باحترام الموريسكيات اللواتى يرتدين الثياب القشتالية وإحسان معاملتهن.

وقد بعث رسالة بتاريخ ٢٧ من فبراير إلى جلالة الملك، ليحيطه علمًا بتطورات الموقف مع الموريسكيين وحال تجارتهم وأعمالهم، وكذلك ما يراه واجب الإقرار للقضاء على المفاسد والأضرار التى يلحقها الثوار الجبليون بهذه المملكة، مؤكداً على كونهم أكثر ما يقلق الهدوء والسلام بها، خاصةً على شواطئ البحر التى تجيئها السفن من بلاد البربر، حيث يحدثون أضراراً بالغة بما يجلبونه لهم من مساعدات ومؤن. على ضوء هذا التوافق، قررت الممالك أن تبلغ كل منها على حدة بآخر ما يدور فيها من أحداث ليتسنى بذلك معالجة الأمور بالطرق القانونية أكثر من اللجوء إلى القوة، مطالبين أن يتعهد مأمورو المحكمة الملكية بهذه المهمة، على ألا يتدخل فى الأمر – الذى يُعَد شأنًا قانونيًا – القائد العام، بل يقتصر دوره على تحصين المناطق الساحلية

فحسب. كما أبلغوا عن تحذير موريسكيي البيازين لهم من مجيء الكثير من الموريسكيين الغرباء إليهم، وما تقدموا به من طلب لتوظيف أناس - يتولون هم دفع رواتبهم - يطوفون أرجاء المكان ليلاً لحراسة أملاكهم وذويهم، وكذلك للقبض على الأشرار ومعاقبتهم.

إزاء عرض كل ما تقدم على المجلس الملكى، وبالتشاور مع جلالة الملك، أُرسِلَ الرد إلى سيادة الرئيس بدرو دى ديثا فى رسالةٍ مؤرخةٍ فى الثلاثين من مارس، مفادها أنه قد أصاب فى إجابته على الموريسكيين الذين قصدوه للحديث معه، وأنه فيما يخص النساء المعوزات اللواتى لا يستطعن تحمل كلفة شراء ملابس على الطراز المسيحى، فإن جلالته سينعم عليهن - من عائد بيع حمامين يملكهما فى البيازين - بما يشترين به أنسجة وأقمشة حريرية يرتدينها؛ وأمر بتعيين حائكين ليصنعوا لهن الثياب ذات الطراز المسيحى دون أن يدفعن أية تكلفة، وهو ما حدث بالفعل. أما بالنسبة إلى تأمين المواقع الساحلية، فإن جلالته قد أصدر أوامره بإرسال أعداد كافية من السفن لحمايتها، كما سيتم تزويدها بمقاتلين لتأمينها بمساعدة القائد العام؛ ومن ثم ستنتهى الأضرار التى يسببها الثوار الجبليون وقاطعو الطريق. كما أن عليه بدوره إقرار الأساليب التى تبدو له مناسبة لوقفها. أما المدينة فيرى أنه ليس ضرورياً اتخاذ احتياطات أخرى خلاف اعتناء مأمورى شئون العدالة والشرطة بدوريات الحراسة الليلية، وأن يتقاسموا فيما بينهم الوقت وعدد ساعات الحراسة والمعسكرات، بحيث تتواجد الدوريات فى كل مكان وفى أى وقت من الليل. وأن يزيدوا - إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك - من أعداد الحُجَّاب ومرافقيهم. بما أن الأمر يبدو أكثر أهميةً فى البيّازين عن غيرها من الأماكن، فلتتم زيادة حاجبين إضافيين ومن معهما من المرافقين، على أن يساعد فى هذه النفقات وغيرها الموريسكيون وفاءً بوعدهم، وبهذه الطريقة ستقطع عليهم السبل ولن نخشى أى ثورة أو انقلاب مرة أخرى. وسيكون الأمر مستتبًا دون الحاجة إلى نفقات أخرى. أما من حيث الموريسكيون الغرباء الذين يأتون للعيش فى البيازين، فليتخذ هو ما يراه من أوامر ويبلغ بها المجلس الملكى.

الفصل الحادى عشر

فحوى ما أخبر به ماركيز مونديخار جلالة الملك عن البنود التى أمِرَ بتنفيذها.

قضى ماركيز مونديخار بضع أيام فى البلاط الملكى، وذلك فى أعقاب حديثه مع سيادة الرئيس دييغو دى اسبينوسا، حول كيفية وضع نهاية للأثر الذى أحدثته بنود المرسوم فى موريسكيى مملكة غرناطة. وقد ضمَّن روايته شكواه من اتخاذ قرار حاسم فى أمر شديد الخطورة والتشعب دون أن يطلب منه إبداء رأيه، كما جرت العادة دائمًا مع قواد عموم هذه المملكة، لثقته بهم وبخبرتهم وتمرسهم فى هذه الأمور. رغمًا عن عدم معارضته للبنود، فقد شرع فى إيضاح ما يحتوى عليه تنفيذها من مصاعب، قائلاً بأنه سيفيد إلى حد كبير إبان تنفيذ هذه القرارات أن تُتَخَذ الإجراءات اللازمة لتطبيقها على وجه السرعة، منعًا لما يمكن أن تسفر عنه المماطلة من أضرار. وكذلك المساوئ التى ستعانى منها المملكة، والخسائر غير القابلة للإصلاح التى ستحدث فى أعقاب هذا الأمر إذا ما سلك الموريسكيون سبيل التبجح والاستهتار، نظرًا لوجود الأتراك على مقربة منهم فى المناطق الساحلية فى شمال إفريقيا؛ وتوفر السفن والمناظير لديهم، إضافة إلى قصر المسافة التى تفصل شاطئهم عن شواطئنا، والتى يمكنهم قطعها فى فترة زمنية وجيزة. ليصلوا إلى حيث يقابلهم أعداد ضخمة من الأعداء، بدءًا من أهل الموانئ وانتهاءً بالمدن الداخلية - وجميعهم من الموريسكيين الذين يتصفون بالضحالة وحب المغامرة، مشكوك فى عقيدتهم والولاء الذى يجب أن يدينوا به لجلالة الملك، كأى رعايا مخلصين لمليكهم وسيدهم الطبيعى. بناءً على ذلك، فنحن محقون فى

توقع وخشية أية ثورة قد يقدمون عليها، خاصةً في ظل الظروف الراهنة. كما أضاف أنه رغمًا عن كون دافع الأشخاص – الذين صيْغَت البنود بناء على مشورتهم – هي شعور ديني جيد؛ فإن سير الأمور في تلك المملكة آنذاك لم يكن ينم عن أية تطورات جديدة فيما يتعلق بمدى ولاء الموريسكيين. وإذا ما أزمع صاحب الجلالة تطبيق المرسوم، فإنه ينبغي أن يضطلع بالأمر جمع غفير من الرجال ليتمكنوا من السيطرة على الموريسكيين، ومنع ثورتهم – التي أخشى أنه لابد لهم من القيام بها– نظرًا لشعورهم بأسى فادح، وإلا فإن ذهابه إلى هذه المملكة لن يجدي كثيرًا، نظرًا لقلة عدد القوات وضآلة ما يملكونه من أدوات ضرورية للقيام بمهمتهم.

كان رد السيد دييغو دي اسبينوسا على هذه الحجة وغيرها الكثير مما ساقه ماركيز مونديخار، أن تلك هي مشيئة جلالة الملك، وأنه عليه التوجه إلى مملكة غرناطة حيث سيكون وجوده الشخصي على قدر كبير من الأهمية ليقضي – كسابق عهده – على أية صعوبات يجابهها. وأن هذا الأمر بحق تم إقراره، لاستئصال جذور الأمة الموريسكية من تلك الأرض. وأنه سيعرض على أعضاء المجلس ما قاله ماركيز مونديخار، فضلاً عن وجود تحذيرات وشكوك أخرى؛ وقد حكم الأعضاء – مع ما داخل نفوسهم من شك، لما يحويه الأمر من ميزات على أحد الجوانب ومصائب على الجانب الأخر – بوجوب تنفيذ الأمر على نحو عاجل. لكنهم كانوا على ثقة كبيرة من أن الأموال والعدة الممنوحة لرجال الشرطة ورجال القائد العام ستكون كافية؛ وذلك لأن الموريسكيين أشخاص دنيئون، غير مسلحين، تنقصهم الحيلة والعتاد ولا يمكنهم تأمين الغوث والمدد. ولذا فلم يتم إقرار مطالب ماركيز مونديخار، إلا في إطار توجيه الأمر إليه بالتوجه لاحقًا إلى غرناطة، مزودًا بثلاثمائة جندي إضافيين فقط، ليتمركزوا على السواحل في النقاط التي يراها؛ وأن يقوم هو بزيارة تلك الأماكن ويمكث فيها بعض الوقت من العام.

الفصل الثانى عشر

بعض الأمور التى أقرها رئيس محكمة غرناطة خلال تلك الأيام، وكيف أشعرت الموريسكيين بالإهانة.

اقترب الموعد الذى يتوجب على الموريسكيين فيه التخلى عن الملابس المشغولة بالحرير[٢٠]، وهو آخر أيام شهر ديسمبر من عام ١٥٦٧. وقد أصدر كل من رئيس المحكمة ورئيس أساقفة غرناطة أوامرهما إلى قساوسة وكهنة الكنائس الكائنة فى أماكن وجود الموريسكيين فى سائر أرجاء المملكة، ليخطروهم بذلك الأمر فى أثناء إقامة الصلاة الكبرى فى أول أيام السنة الجديدة، ليعلموا أنه من الآن فصاعداً لن يمكنهم ارتداء تلك الملابس، وأنه سيتم تنفيذ العقوبة المنصوص عليها فى المرسوم. وفى الوقت نفسه فعليهم إعداد إحصاء بكل الأولاد والفتيات من أبناء الموريسكيين بدءًا من سن الثالثة وحتى الخامسة عشرة، لإلحاقهم بالمدارس لتعلم اللغة الإسبانية والديانة المسيحية. كما نودى فى الناس أنه على كل موريسكيى الغوطة والوادى والبشرات، ممن قدموا ليعيشوا فى غرناطة مع عائلاتهم وذويهم، الخروج منها والعودة لإعمار هذه الأماكن، وإلا واجهوا عقوبة الإعدام.

كان لدى الموريسكيين الرغبة فى معارضة تلك الأمور، فاجتمع نفر منهم وتوجهوا إلى رئيس المحكمة، ظنًا منهم أنه قد ينعم عليهم بشىء ما، فأخبروه بقلوب تملأها

---

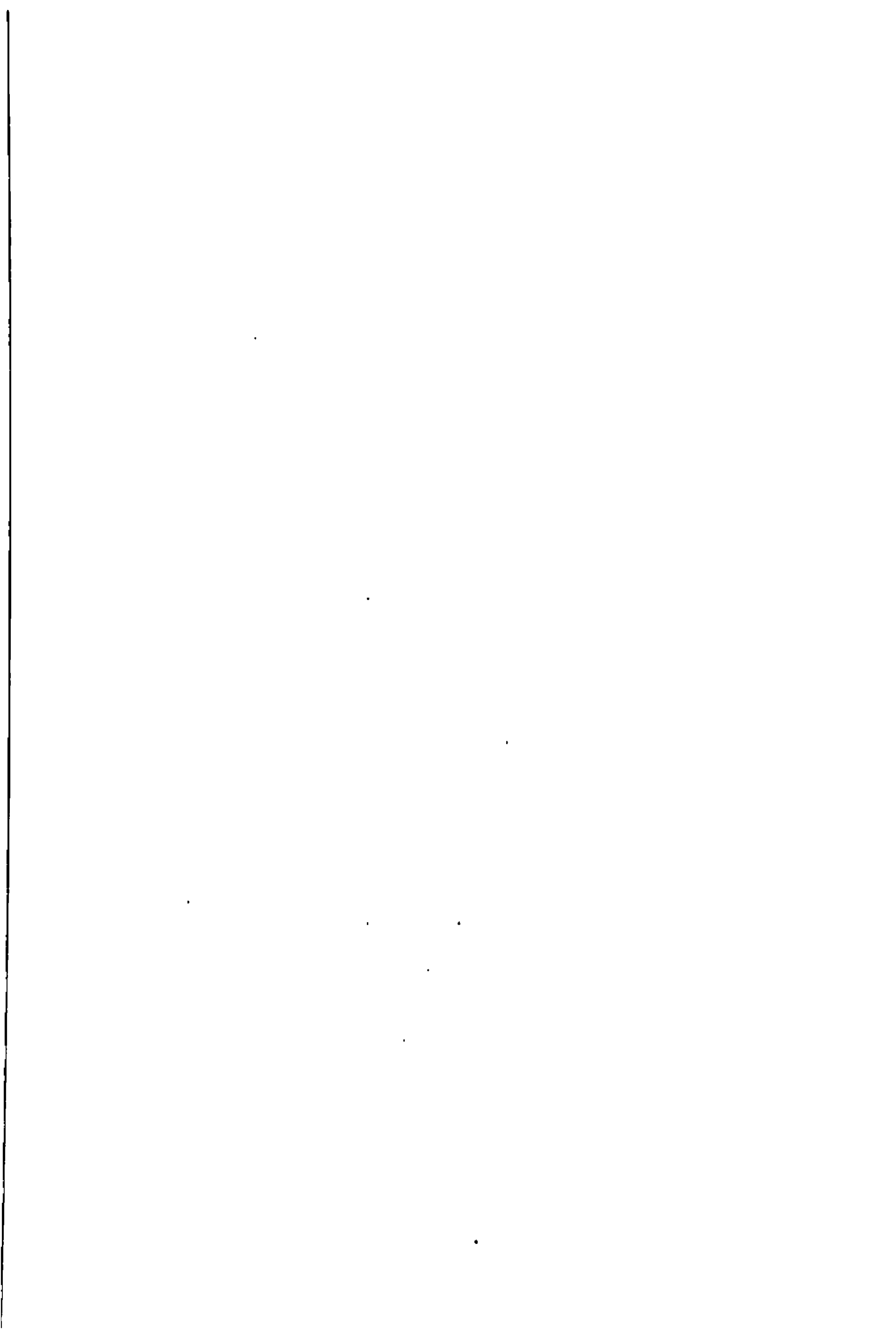
(٢٠) ربما يقصد ملابس الموريسكيات، أما ملابس الرجال فلا يستقيم أن تكون حريرية نظراً لتحريمها فى الإسلام..(المراجع).

الحسرة أن أمرهم بعدم العيش فى غرناطة فيه إهانةً لهم، بوصفهم رعايا لجلالة الملك ويمكنهم العيش بحرية فى أى مكان من أرجاء المملكة. كما أن نزوح أهالى القرى للعيش فى المدن أو خروج أهل المدن لسكنى القرى ليس بالأمر الجديد؛ وكذلك فقد تناهى إلى علمهم أن القساوسة قد أمروا بإحصاء أولادهم لإرسالهم إلى قشتالة، واستحلفوه بالله أن يسبغ عليهم من فضله ولا يعرضهم لكل هذه المضايقات والمهانة. وقد أجابهم أنه لابد أن يفكروا جيداً فيما يقولون، حيث أن رجوع الموريسكيين الغرباء للعيش فى منازلهم لهو العدل بعينه. إن من قدموا للمدن أناس شرفاء ومسالمون، لذا فإن واجبهم يحتم عليهم العودة إلى أماكنهم حتى لا يحدث خلل بين الأشخاص غير الآمنين. فيما يتعلق بالأطفال، فلم يصدر سوى أمر بتعليمهم وتنشئتهم فى ظل العقيدة؛ نظراً لأن جلالة الملك أمر بمنع استخدام الرجال البالغين الثلاثين عاماً فأكثر للغة العربية، وهو قد أدرك أنهم لن يقدروا على ذلك بهذه السهولة فقد تم مد المهلة الممنوحة لهم. أما الأطفال والصبيان فإنه من الجيد إلحاقهم بمدارس يتعلمون فيها اللغة الإسبانية والديانة المسيحية، وأن يعرفوا أن معلميهم لن يتقاضوا منهم أجراً فى المقابل، حيث سيصدر قرار بتولى جلالة الملك دفع رواتبهم. وأن الغرض من حصر عددهم هو معرفة من يتخلف، حتى يحرص والداه على إرساله للمدرسة ومتابعة ما يحصله؛ لأن عدم اهتمام الأولاد بالمدرسين والمدرسات قد يحملهم على عدم مراعاة كلامهم. وكذلك فعليهم التدبر جيداً فيما يحدث وتقديره؛ لأن هناك حرصا شديداً على مصلحتهم وخلاص أرواحهم. وكما أخبرهم فى مرات سابقة، فإن جلالة الملك ينوى القيام بواجبه، والاستعانة بهم فى السلم والحرب، وتوظيفهم فى المناصب الكنسية والمدنية، دون التفرقة بينهم وبين المسيحيين القدامى من رعاياه؛ لذا فعليهم أن يحمس كل منهم الآخر، وأن يدللوا على صدق مسيحيتهم بالأفعال وألا يعيروا انتباههم لما دون ذلك؛ وهو دائماً سيحرص من جانبه على مراعاة مصالحهم.

نظراً لأن الموريسكيين، الذين لا تنقصهم الحجة، أخبروه بأن الكثيرين منهم فقراء لا يقدرون على إرسال أولادهم إلى المدارس؛ لأنهم كانوا يتعلمون حرفًا

يساعدون من خلالها آباءهم على تحصيل قوت يومهم، ويقومون بخدمتهم إذ لم يكن لديهم، أولم يعد لديهم من يقوم على ذلك الأمر. فقد أجابهم بألا يحزنهم هذا الأمر كثيراً، لأنه سيتحدث مع المعنيين بالأمر لوضع نظام جيد يتيح للأطفال التعلم وللآباء الحصول على ما يريدون، من عدم ترك أبنائهم لأعمالهم ومساعدتهم بما يُحَصِلونه كما يقولون. وهكذا غادروا تنتابهم مشاعر التخبط نفسها التى راودتهم فى المرة الفائتة إزاء قلة جدوى حديثهم، رغم أننا عرفنا لاحقًا من بعضهم أنه دائمًا كان لديهم أمل بأن الشك فى قيامهم بالثورة سوف يخمد هذا الزخم ويوقف تنفيذ المرسوم.

الكتاب الثالث



الفصل الأول

كيف توجه السيد خوان إنريكيث وبصحبته عدد من الموريسكيين البارزين إلى البلاط لوقف تنفيذ المرسوم

اتفق الموريسكيون فى تلك الأثناء على التوجه إلى العاصمة لمعالجة هذا الأمر، وذلك على الرغم مما أخبرهم به السيد بدرو دى ديثا رئيس المحكمة. لمّا كان من المناسب أن يتوجه إمرؤ ذو مكانة من أجل أمرٍ بهذا القدر من الأهمية، حتى يمنحه أصحاب الجلالة شرف المقابلة، ألحوا فى الطلب على السيد خوان إنريكيث Juan Enríquez - سيد بسطة – الذى أضحى فيما بعد رئيسًا لخدم مولاتنا الملكة، ليقبل الاضطلاع بتلك المهمة باسم المملكة؛ بوصفه رجلاً يدرك جيداً مدى أهمية عدم تنفيذ المرسوم لاستقرار وهدوء أهل المملكة. وقد حاول الاعتذار، لعلمه أن رئيس المحكمة يعوق ذهاب أى شخص إلى صاحب الجلالة، ليتحدث فى أمر تلك القضية، بكل السبل الممكنة. هذا و قد نصحه أخوه السيد إنريكى إنريكيث Enrique Enrquez، الذى يملك مناطق سيادة مأهولة بالموريسكيين، ألا يتخلى تحت أى ظرف من الظروف عن القيام بما أوكِلَ إليه، وذلك لدرايته بنفوس الموريسكيين، وإدراكه مدى الوقع السيئ الذى ستخلفه تلك الاضطهادات، والمتاعب التى يمكن أن تسفر عنها[1].

---

(١) كانت مساندة النبلاء للموريسكيين مبعثها – كذلك – مصلحتهم الخاصة، فالموريسكيون كانوا يمثلون عصب الاقتصاد بالنسبة لأصحاب الأراضى، وكان رحيلهم عن إسبانيا معناه تعرض ذلك الاقتصاد للانهيار. (المراجع).

في نهاية المطاف قصد الرجل البلاط، دون أن يخبر الرئيس بذهابه، واصطحب معه موريسكيين حسني الإدراك يدعيان: خوان إيرنانديث مفضَّل Juan Hernández Mofadal – وهو من أهالي غرناطة – وإيرناندو دي حبقي Hernando de Abaquí المأمور القضائي بالكُوديا – وهو المكان المختص بالقضاء في مدينة وادي آش – وله نفوذ في المملكة. ولكن عندما وصلوا كان الرئيس قد كتب إلى كل من صاحب الجلالة والكاردينال دييغو دي إسبينوسا، يخبرهما كيف أن اضطلاع السيد خوان إنريكيث بالوقوف إلى جانب الموريسكيين في تلك المسألة، قاد هؤلاء إلى إزعاجه وكذا التسبب في إثارة القلاقل، بعد أن كانوا قد قطعوا شوطًا كبيرًا في تنفيذ المرسوم. حينما تمت إفادة السيد خوان إنريكيث بما كتبه الرئيس، قام ذاك برفع خبر المهمة التي جاء من أجلها والأسباب التي قادته إلى القيام بها إلى السيد أنطونيو دي توليدو، رئيس دير القديس خوان، لكي يستعلم من صاحب الجلالة إذا ما كان يجديه إطلاعه بذاك الشأن.

فلما أُذِنَ له بالمقابلة أخبر صاحب الجلالة، بالنيابة عن المملكة، كيف أُشهِرَ المرسوم وأُمِرَ بتنفيذه، مما شكل كارثةً بالنسبة للموريسكيين الذين لا يتصورون كيفية إنفاذ ما ورد فيه. وقد تضرع إلى جلالته أن يضع في اعتباره كيف أمر والده – الامبراطور المسيحي التقي – بوقف تنفيذه في آونةٍ كانت الظروف فيها أكثر موائمةً للتنفيذ؛ ونظرًا لكون الأضرار متعددة وشديدة الضخامة، فإنه حري بجلالته أن يتريث كثيرًا ويمعن النظر في الأمر. وهو بوصفه واحدًا من أفراد الرعية الأوفياء، فقد حمل على عاتقه تلك المسألة، حينما أدرك أن إيقاف المرسوم مفيد لخدمة المملكة. على الأقل فيما يتعلق بالملابس واللغة، وهما الأمران اللذان يُشعران المتنصرين الجدد ببالغ الأسى.

بعد أن أتم حديثه، سلّم جلالته مذكرةً تحوي كل ما يود الإدلاء به في تلك القضية بعينها. وقد حملها الملك بين يديه، ثم قال له إنه قد تشاور في هذا الموضوع مع رجال ذوي وعي ودراية، أخبروه أنه يتعين عليه القيام بما يفعله؛ وإنه سينظر في مذكرته ليقر

فيها ما يتماشى أكثر مع خدمة الرب وخدمته. بعد ذلك أعلم السيد أنطونيو رئيس الدير السيد خوان إنريكيث أن صاحب الجلالة يأمره بالذهاب إلى الكاردينال إسبينوسا، وهو سيتولى إطلاعه على قرار جلالته بهذا الصدد. فلمّا أتاه، أقصاه ذاك الأخيرفى إحدى الغرف، وأمركاتبه بقراءة المذكرة التى كان قد سلمها السيد خوان آنفًا، وعقب قراءتها قال له: "لقد أمرصاحب الجلالة بالمضى قدمًا فى تنفيذ المرسوم، وذلك بعد موافقة العديد من رجال الدين، الذين أوكلوا تلك القضية إلى ضميره، حينما أخبروه أن تلك الأرواح مسئولةٌ منه، وأنهم مسلمون ويعيشون كالمسلمين؛ وحتى يعالج ذلك الأمر لم يبق لديه سوى الطريق الذى سلك. وما أدهشنى كثيرًا هو أن شخصًا له قدرٌ رفيعٌ ومكانةٌ كتلك التى تتبوأها، أراد أن يقلل من شأنه وينوب عنهم؛ لأنهم عندما فطنوا إلى أنك تتهيأ للمثول أمام البلاط، استجمعوا الشجاعة والقوة، وشرعوا فى معارضة الأمر الواقع." أجاب السيد خوان إنريكيث أن المكانة التى أشار إليها الكاردينال هى التى قادته للإسهام فى مسألةٍ تحظى بأهميةٍ فائقةٍ لخدمة صاحب الجلالة ولصالح تلك المملكة. إذا لم يقم الرجال ذوو الشأن على شاكلته بذلك، فمن الذى يقدر على فعله خيرًا منهم؟ وقد رد عليه الكاردينال بأنه مصيب، بيد أنه لابد أن يكون الموضوع أكثر عدالةً وتبريرًا؛ وأن أمر المرسوم قد حُسِمَ، وقد عزم صاحب الجلالة على المضى قدمًا فيه. وهكذا فهو يرى أنه يستطيع التوجه إلى منزله وعدم معالجته بعد الآن. أخبر السيد خوان إنريكيث أعضاء مجلس الدولة بكل ذلك، وأعطى كل واحدٍ منهم نسخةً من مذكرته، معرِّفًا إياهم بالعواقب التى سيسفر عنها تطبيق المرسوم الجديد. على الرغم من أن كلاً من دوق ألبا، والسيد لويس دى أبيلا – Luis de Avila القائد العام لرهبانية الكانترا العسكرية – وغيرهما كانوا يرون تأجيل المرسوم لبعض الوقت، أو على الأقل البدء فى تنفيذه شيئًا فشيئًا، فإنهم لم يتمكنوا قط من اقناع الكاردينال بذلك.

الفصل الثانى

كيف توجه الموريسكيون لإحالة المذكرة إلى رئيس محكمة غرناطة، وما فعلوه عنده.

هرع الموريسكيون، فى أحد الأيام التى أعقبت صدور المذكرة الآمرة، إلى سيادة الرئيس بدرو دى ديثا. وكان السيد خوان إنريكيث قد قفل عائداً إلى دياره، بعد أن أوقف جهوده لمعالجة ذلك الأمر. أما الموريسكيان اللذان كانا برفقته، فقد أخذا ما تم إقراره وتوجها صوب غرناطة. حيث عاودا التضرع من جديد إلى الرئيس لتدبير الأمر، فقال لهما إن ما طالبا به صاحب الجلالة هو إصدار قرار يبطل مفعول المرسوم، وهو ما لا يمكن حدوثه، لأن تلك الخطوة قد تم اتخاذها من أجل مصلحتهم وخلاصهم. وأنهما إذا أمعنا النظر فى الأمر، سيدركان أن المرسوم يحقق أقصى ما ينبغى لهم تمنيه؛ فإن ارتداءهم ما يرتديه غيرهم من مسيحيى المملكة وتعاملهم بالطريقة ذاتها، سيؤدى يقيناً إلى تلاشى الاختلافات بين هؤلاء وأولئك، وستضحى نساؤهم أكثر كرامةً، وأنه عليهم هم أنفسهم الاجتماع والتداول سوياً، حتى يخلصوا فيما بينهم إلى الطريقة المثلى لدخول القرارات حيز التنفيذ ، وذلك لتجنب مضايقتهم أو سرقتهم أو دفعهم للرشوة. ومن ثم يقدموا مذكرة حول الطريقة التى يتراءى لهم أنها قادرة على تنفيذ البنود كلها على أحسن حال. وأنه هو بدوره سيفكر فى الأمر من جانبه، وما سيتفقون عليه سيدونه، حتى يسلك المسار الأمثل انطلاقاً منه.

لكن على الرغم من أنهم اجتمعوا فيما بعد، وتوصلوا لطريقةٍ ما، فإن القيام بطلب أمرٍ بعينه لم يبد لهم أمراً صائباً. بل إنهم عادوا وقصدوا منزل الرئيس، حيث

أخبروه أنه لمّا كان صاحب الجلالة قد عهد إليه بالأمر، فليقرر هو إذن ما يجب القيام به لتنفيذه. وبعد أن يأسوا منه أخذوا يطالعون بعض النبوءات الخاصة بهم، وتظاهر بعضهم بالتسليم؛ أما البعض الآخر ممن هم أكثر جسارة، ولم يكن لديهم الكثير مما يُخشى فقدانه، فقد بدأوا يدعون إلى الثورة. لنسق أولاً النبوءات[٢] المترجمة إلى اللغة العربية، وبعدها سنذكر المنهاج الذى ساقوه للمناداة بالثورة، وكيف تكتموا السر.

(٢) انتشرت فى أوساط الموريسكيين نبوءات تتحدث عن عودة المسلمين إلى حكم إسبانيا، وانتصار الأتراك على الإسبان. (المراجع).

الفصل الثالث

يتضمن النبوءات أو القصص الخيالية التى صاغها موريسكيو مملكة غرناطة حول حريتهم.

كان لدى موريسكيي غرناطة تكهنات بعينها أو نبوءات، أو من الأفضل أن نقول بعض القصص الخيالية، التى لابد أن بعض علماء النحو العرب قد قاموا بصياغتها، وذلك لمواساة من شهدوا انتهاء رجالنا المسيحيين من فتح تلك المملكة؛ وكانوا يعدونها إحدى وسائل بث الثقة فى نفوس القرويين الجهال،حتى يحملوهم على تصديق ما يُقرأ عليهم، وأن فحواه محقَّقة ومنزهة عن الخطأ. بما أن تلك الثقة الجوفاء كانت السبب الأكبر فى جزءٍ كبيرٍ من القلاقل التى أثاروها، فنحن نعرضها فى هذا الجزء حرفيًا، كما وردت فى ترجمة الأب ألونسو ديل كاستيّو Alonso del Castillo، مترجم محاكم التفتيش فى غرناطة، وبتفويض منه. وهو الذى أخبرنا أنه كان قد ألفاها مكتوبة بطريقةٍ سيئةٍ، ولابد أن يكون من قاموا بترجمتها عن الأصول العربية قد أساءوا فهمها؛ لذا فقد أضحى العديد منها على تلك الشاكلة: حيث خلت عباراتها من التوافق والتطابق، كما بدت شخوصها وموضوعاتها وقد أُسيء تفسيرها بما يتماشى وإرادة المسلمين المغمومين و المنكوبين، الذين وجدوا أنفسهم مجردين من حريتهم وبلادهم. كانت اللغة العربية مرتبكة بدرجةٍ كبيرةٍ، حتى أنه فى العديد من الأحايين كانت الكلمة عينها تُكتب بنبرة مشددة أو طويلة، فتعطى دلالتين متناقضتين. ويحدث الأمر ذاته عندما يُكتَب اللفظ منبوراً أو بحروف عادية فى الجمل المختلفة؛ لذا فإن قراءة

الموريسكيين – الذين ما عادوا يطالعون دروس النحو والصرف العربية إلا فى الخفاء – وفهمهم لأمرٍ ما على أنه أمرٌ آخر، لم يعد يدعو إلى التعجب.

وأخيراً، فإن النبوءات التى خدعتهم ثلاث: أول إثنتين عُثِرَ عليهما فى كتب عربية موجودة فى مقر محكمة التفتيش فى غرناطة، أما الثالثة فقد اكتشفها أحد الجنود فى كهف يدعى كاستاريس Castares فى البشرات، وهى على النحو التالى، وفقًا للطريقة التى تُرجمت إليها:

النبوءات أو القصص الخيالية التى عُثِرَ عليها فى بعض الكتب العربية الموجودة بمقر محاكم التفتيش بمدينة غرناطة

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو النظم الإلهى الذى نظمه سيدى زيد الجرجالى Zayd el Guerguali – رحمه الله – وجاء فيه: "منذ أمد بعيد وأنا أكتم ما تعهدت به النبوءات، حول ما وعد به الرسول الحق وصدَّقه الرب! الذى أُنزِل إليه، ليس بلسان البشر وإنما بالوحى. كلام السماء من قبل ربنا العلىّ الذى لا يخطئ، وسوف تتم مشيئته ويتحقق قوله. أود الحديث عن الجيل التاسع الذى رجا المشرِّع[٣] ربه مرات عديدة ليتغمده برحماته، فاستجاب الله دعاءه وها قد ظهر. أيها الناس، أريد تحديد ما تنبأ به النبى للجزيرة التى تحوطها البحار، وهى جزيرة الإسبان، وقد تجلى حكمه فى قوله وأقوال الرسل والصالحين، وهى كلها مدونةٌ بصورةٍ تثير الدهشة فى إحدى النبوءات القديمة، التى وردت فى السيرة وفى حديث علىّ ، الذى أنبأ فيه بما سيحدث وصولاً إلى زماننا هذا. وقد خبره الجميع وقالوا هذا ما رواه حذيفة Odeifa وتناقله

(٣) لابد أنه يقصد النبى صلى الله عليه وسلم. (المراجع).

عنه كل الناس، كما يُقرأ فى الوقت ذاته برواية الذهبى Zahabe ودانيال Daniel؛ لأنه لاغبار على رواية علىّ حيث يصدق الجميع ما يقول، وقد رُويت عنه مآثر عظيمة حدثت على النحو الذى صاغه. فى سياق حديثه عن الغرب وعن الأندلس فى نبوءاته، ذكر أن الكافرين سيتملكونها لا محالة - وهو ما حدث بالفعل - وقد شهده الجميع، سواءً أولئك الذين يتمتعون بالفطنة والرأى السديد، أو من يعتبرون بما يجرى من أحداث. ففى عام ٩٤[٤] سيتم احتلالها بالكامل، وسيتم إعمار سائر مدنها، وسينصّب عليها أمير. قبل أن يبدأ كل ذلك، وبموافقة من العامة، سيتوجه المواطنون لسكنى الحقول، وسيزرعون الأرض، ويحل موسم الحصاد عندما يظهر أحد الشهب معلنًا مجىء الخير والحرية. سوف تهدأ القلاقل ويخرج أهل مكة Meca، ويأتى عدو الملحدين من أراضى أراخى Haraje التى تقع باتجاه الشرق من ممالك اليمن Yamen، وسوف يفتح أرض سبتة Ceuta والقصر Alcázar وطنجة وأرض السودان؛ ثم يهبط غربًا بصحبة جيوش ضخمة من الأتراك، ليستعمر قاطنى تلك البقاع، وهم سادة ظالمون وكافرون يعبدون أربابًا كثيرة. وستعود المملكة بأسرها للانقياد إلى رسول الله، وستُعَظَّم فيها الشريعة، ويستحوذ سلالة من يعبدون إلهًا واحدًا على جبل طارق - الذى ترجع إليه أصولهم وبداية دخولهم، ولابد لهم من العودة إليه.

سوف يتحقق هناؤنا فى الجيل العاشر، أما اليهود فسوف يرزحون تحت وطأة النكبات. سوف تحل محن بالغة بطائفة اليهود الملاعين، وبأولئك الذين يعبدون التماثيل. كذلك سيكون هناك أسرار وغموض كبير فى الغرب وفى أراضى السند الموجودة فى المشرق، وأيضًا فى أراضى أثاساتى Azasate[٥]؛ ومع إحراز النصر والتمجيد سوف تزول القلاقل.

(٤) يقصد عام ١٥٩٦ (المراجع).

(٥) بعض الأسماء الواردة فى النبوءات وهمية. (المراجع).

من هناك من تامور Tamor– وهى بلاد فى المشرق تقع فى مقاطعة شيم Xem – سيجىء الفاتح إلى حصن داماس Damas، وسيقدم بصحبته قادة عظام من البربر: الشريفى Xerife، وعيدار Eidar، وزيد الأسمر Zayd el Moreno، ويحيى الفريد Yahaya el Farid، وعبد السلام Abul Celem - الذى سيبرز بقوة ذراعه العارية بين الناس أجمعين. وسيضحى عقاب غرناطة قصة تدعو للتعجب، ففى غمار الاضطرابات أثناء الحرب، ستُمحَق منازلها عبر الأصفاد التى ستكبلها بالكذب والخداع، حتى تشرف أجيال مواطنيها على الاندثار بقرار من الملحدين. عندما يذهب النبيذ بعقول الحكام، سيصدرون قراراتهم بهدم القرى، وفى النهاية سيعنى الجميع بعقد معاهدات سلام. أثناء المصالحة سوف تضيع قرى وحصون عظيمة من جراء الخيانة، وفى عامى ٩٢ و٩٣ ستُقَسّم مجتمعات ضخمة ما بين جانبين؛ ستُفقَد مالقة بالكامل، ولن تواجه ذاك المصير بمفردها بل ستضيع المدن جميعًا؛ لأن تغليب الشرف والكرامة يبيد الممالك. ومن لا يحكمون ببصيرة نافذة سوف يلحقهم الأذى.

فى مجتمع حرب البشر الطاحنة هذا سوف ينقص الإيمان، وتُهجَر فيه الشريعة. سوف يضحى العقلاء محل استهزاء الجميع. وسينشغَل الحكام بإخلاء الأهالى عن قراهم، وتخريب الأرض، وقلة الدخل. وذاك دون أن يقدر أى منهم على المساس بإفريقيا، التى خلّفوها وراء ظهورهم. سيعقب ذلك مباشرةً خوض الكافرين للحرب، ولن يتبقى رجال فى مملكة غرناطة. فى غضون العام الطويل سيتعاظم الشقاق، ولن يفلت من براثن المشقة والخزى سوى أشخاص قلائل، وستحدث وفيات. أما الظفر بالغرب وعرشه فهو بانتظار الأفارقة؛ لأن ما أخبر به الرسول الحق لا محالة واقع بين البشر: "سيفرون من قراهم؛ وعندما يخطئ الابن العاق، سيكون الرحيل أفضل؛ ولّما يحل بساحتهم أجل الله ليلاً قبل أن يغشاهم النهار، سيتهيأ البحر حتى تعبره السفن دون مخاطر". فما أنزله الله لا ولم يُنقَض. وستُطبق شريعة المسلمين فى أرض المسيحيين.

لمّا يحكم الأحدب، ستصير الأمور دومًا من سيء إلى أسوأ: سوف يأتى السود لاحتلال سبتة وأراضى مرسية، وسيقوم اليهود بتشييد حصن بالوماس Palomas.سيُغير الأتراك بجيوشهم على روما، ولن ينجو من بين المسيحيين سوى أولئك الذين يعودون إلى شريعة النبى، أما البقية فمآلها إلى السبى والقتل. تلك الجولة ستقع حتمًا فى كل من الغرب والجنوب وكذا فى أرض السودان[٦]، وستحدث تلك الظاهرة فى كل الممالك، وسيخرج من أرض تيبار Tibar فاتحون للتصدى للكافرين". وهو يقول أيضًا: " آه يا جبل طارق! إن دخولك وفتحك لهى البشارة حقًا!".

عليكم أن تدركوا مما سقناه أنه لن يتبقى غصن من فرط الفاقة فى كل من سبتة، وطنجة، والقصور، وسائر الأقاليم؛ وسوف تُفتَح جميعًا. وبهذه العودة أيضًا سوف تُحرَث وتُشيَد جزيرتا إسبانيا ومالقة، وستسعدان بتطبيق شريعة المسلمين، وكذا ستُكسَر شوكة الخيلاء التى سادت بلش والمنكب فى زمن الإلحاد، وستُمحَى خطايا قرطبة وزلاتها، وتُخرِس أصوات المؤذنين أجراسها - ولكم هى فى احتياج إليها!. سوف يتبع ذلك طرد الكفر من إشبيلية، ومع ظهور المسلمين الموحدين ستشهد إصلاح الدمار الذى لحقها أثناء خسارتها. وستتحقق نبوءة النبى دانيال، الذى قال إنه لابد من قدوم الحرية بعد الهزيمة على يد ملك طاغ، وأنا أتضرع إلى الله أن يُثبِت صحة ما قيل فيها.

قال الرب العلىّ فى كتابه المقدس: "الم(*) غلبت الروم(*) فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون(*) فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون(*) بنصر من الله ينصر الله من يشاء وهو العزيز الحكيم."(*) أولى علامات

(٦) يقصد إفريقيا الجنوبية. (المراجع)

(*) سورة الروم، مكية، الآيات ١-٥ الاستشهاد فى الأصل الإسبانى مغاير للترجمة بعض الشىء؛ لأنه ينتهى فى منتصف الآية الرابعة، ثم يستكمل الآيات على أنها جزء من فحوى النبوءة؛ والوقف غير مضبوط. (المترجمة).

تلك النبوءة أيها السادة ستكون علامة كبيرة للغاية: حيث يظهر شهاب ضخم جداً فى كبد السماء، وينشر نوراً ساطعًا، بعدها سيظفر ملك الأتراك بإحدى المدن ويأسر أهلها وملكها. عقب ذلك بفترةٍ وجيزةٍ للغاية سيستحوذ على جزيرة رودس الكبرى Rodas، التى ستبقى دومًا فى يد المسلمين، وستكون هناك انتصارات أخرى للمسيحيين، وتُعَد من العلامات الكبرى التى سوف تحدث لاحقًا. سوف تأتى جيوشهم وأهلهم إلى الأندلس بأعدادٍ هائلةٍ، حتى أنهم سيفكرون فى الإجهاز على قاطنيها، وسيدخل الكثيرون فى المسيحية خوفًا منهم. لكن فيما بعد سيظهر من بينهم صديق حقيقى، وسينصح لهم أن هبوا وثوروا لدين الله. حينئذ سيُغير هلال الأتراك على المسيحيين، وعلى كل مدينةٍ وموقعٍ وحصن.

من أجل ذلك ستنشب ثلاث ثورات: أولاها ستبوء بالخسران و الخزى، وسيغلب على الثانية الخديعة والكذب، وستلقى بهم على مشارف الموت، أما الثالثة فتقوم على الكرامة والفضل، وتضحى المدخل والمعبر للفوز بسائر المدائن والممالك. سيكون زحف الأتراك على المسيحيين عارمًا، حتى أنهم سيدخلون ويفتحون كل ممالكهم ومدنهم من بحر ديلان Dailán وصولاً إلى بحر مرقد Marcad؛ ولن يخلِّفوا وراءهم أى ذكرى، ولن يُسمَع سوى نحيب المسيحيين. هكذا إذن ستضيع تلك الجزيرة وأهلها، وسينزل عليها الغزو كسيل المطر المنهمر من السحاب، وسوف يضحى أسيادها عبيداً. عسى الله أن يبلغنا رؤية ذاك التعاقب، وهو الوهاب القدير!. ثم أضاف المؤلف متناولاً الحدث ذاته ما يلى:" عندما يروعك الزمن من الأعداء، وتجرحك الضمائر ويبتعد عنك الأصدقاء، ويتملكك الخوف من شتى الأرجاء، انتبه إلى تدبير ربنا الذى سيمدك بالحرية التى تتمناها – وهى قريبة المنال – وستتجلى الشهب ونجوم الطالع، وستأتيك رسل السكون والبشارة"؛ لذا عليك بعدم اليأس، ففى أدق خبايا وأسرار الحكمة الإلهية تكمن كبرى العجائب والأسرار، فإذا ما ألفيت قلبك فى غمار كل تلك الخطوب ينهشه الرعب، ولم تتكشف له ما كنت ترقب من علامات، أو تسمع الجديد حول الصديق الذى تنتظره فقل: "ربنا هب لنا من لدنك رحمة" ففى قولها سر عجيب. فكم من أمور يزيغ

لها القلب، ثم تغمره بعدها السعادة والسكينة! العديد من الشئون، بعد أن نسعى لنيلها، تورثنا الطمأنينة والدعة. ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾(١٣٠)(٧).

إلى هنا تنتهي حرفيًا تلك النبوءة أو القصة الخيالية، التى عثر عليها - كما أسلفنا - فى بعض الكتب العربية الموجودة فى مقر محاكم تفتيش غرناطة. ويبدو أن المدقّق يدعى أن مؤلفها مرابطى اسمه سيدى الجرجالى Cidi el Guerguali من بلدة جرجالة Guergala بمدينة ليبيا Libia، التى قدم منها المرابضون almorabidas أو المرابطون morabitines إبان استعمارهم بلاد المغرب، وفى أعقابها إسبانيا. والنبوءة على ما يبدو هى تجميع لكل الأمور التى تحويها السنة، أو علم اللاهوت العربى، حول ما قام به أولئك الأشخاص من غزو لبلدنا أندلوثيا، زاعمين استلهام المرجعية من كتابات كعب الأحبار وحذيفة وعليّ، وخلفاء غيرهم من طائفة المرابطين(٨). وهى - كما أوردنا آنفًا فى مؤلفنا إفريقيا - فيها العديد من الآراء المخالفة لعقيدة محمد، على الرغم من أنهما يندرجان كلاهما تحت مسمى وطائفةٍ واحدةٍ على سبيل العموم.

النبوءة أو القصة الخيالية الثانية التى عُثِرَ عليها أيضًا فى الكتب التى تم تجميعها فى مقر محاكم التفتيش فى غرناطة:

بسم الله الرحمن الرحيم. جاء فى السنة المطهرة أن رسول الله كان جالسًا فى أحد الأيام عقب صلاة الظهر يتحدث إلى أتباعه - رضوان الله عليهم - وإذ ذاك حضر ابن أبى طالب وفاطمة الزهراء - رضى الله عنهما - وجلسا بين يديه وقالا له:

---

(٧) سورة طه، آية ١٣٠ (المراجع).

(٨) واضح من الفقرة أن أفكار المؤلف مشوهة، حيث لا يدرى ما هو الاسم الصحيح للمرابطين ولا نقطة انطلاقهم، لكنه - مع ذلك- على دراية بالكتابات الموريسكية التى يكثر فيها بالفعل ذكر حذيفة بن اليمان وكعب الأحبار. (المراجع).

"يا رسول الله، أخبرنا بما سيؤول إليه مصير أمتك فى أخر الزمان، وكيف يأتى يوم القيامة؟ فقال لهما: سوف تقوم القيامة عندما يظهر أكثر الناس إفساداً وخبالاً، وسرعان ما يأتى جيل من آلى إلى جزيرةٍ فى أقصى أرجاء الأرض - تدعى جزيرة الأندلس - وسيكون آخر قاطنيها من أهلى، وهم يتامى هذه الديانة وختام سلالتها. فليتغمدهم الله برحمته آنذاك!. فى أثناء حديثه اغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال: " هم المضطهدون، هم المحزونون، هم من أهلكوا أنفسهم، وهم المنكوبون، الذين قال فيهم الله.﴿ مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾.﴾ اقرأوا السورة حتى نهايتها كل ما كُتِبَ بها حول تلك المسألة، وفيها يشير الله القدير إلى ما ذكرته. وسيكون ذلك نظراً لنسيان أهل الأندلس لأمور الدين، واتباعهم لأهوائهم ورغباتهم، وولعهم الشديد بالدنيا، وهجرهم للصلوات، والاعتراف بالزكاة ثم الامتناع عن أدائها، وعدم الاكتراث سوى للشهوات والقلاقل والقتل. ذلك بالإضافة إلى تفشى الكذب بينهم، وعدم احترام الصغير للكبير، كما لا يشفق الكبير على الصغير. سوف يستشرى بينهم الظلم والجور والحلف بالباطل، وسيبيع التجار ويشترون - متحرّين التربّح والتدليس والخديعة فى بيعهم وشرائهم - كل هذا سعيًا وراء متاع الدنيا، وجشعاً وراء زيادة الأموال والمحافظة عليها، دونما تريث للتدبر حول كيفية اكتسابها، وماهية ما يملكون، وهل حصلوا عليه من حلال أو حرام؟" فلمّا قال ذلك اغرورقت عيناه بالدموع مرةً أخرى وأجهش بالبكاء، فبكى الحاضرون كلهم لبكائه. ثم استطرد بعدها: "عندما تظهر الشرور فى ذاك الجيل، سيكلهم الله القدير إلى أناسٍ أشر منهم، سوف يستحسنون إذاقتهم أقصى صنوف التعذيب، عندئذ سيطلبون الغوث من أعدلهم وأبرهم، ولكنهم سيمتنعون عن إعانتهم. وسوف يسلط الله عليهم من لا يشفق على الصغير أو يوقر الكبير، ولسوف يُحاسب كل امرئ بذنبه ويلقى جزاءه. لم نشهد قط تفشى الربا فى جيلٍ من البشر أوانتشار الغش فى البيع والشراء والميزان والمكيال، إلا عاقبهم الله و حرمهم الغيث من على وجه الأرض، وحيل بينهم وبينه. لم تستشر الفاحشة إلا أرسل الله الفناء والموت. لم يستمرئ قوم الربا فى البيع

والشراء، والحلف بالباطل والتكبر، إلا ابتلاهم الله وأنزل بساحتهم صنوف شتى من الأمراض المهلكة. لم يظهر قط فى أمة ميتات السوء والقتل علنى، إلا ضيّق الله عليهم وأسلمهم إلى أيدى أعدائهم. لم يشع فى قوم عمل قوم لوط إلا عاقبهم الله بعدم قبول صلواتهم أو الاستماع إلى دعائهم فى بلواهم وشقائهم؛ لأن الخطيئة عندما تشيع فى الأرض يُنزّل الرب العليّ العقاب الواجب من السماء. ولا يلعن الله أحداً من أمتى حتى تنعدم الرحمة بينهم، ولن يعاقب عبدٌ فى هذه الحياة الدنيا بأمرٍ أسوأ من غلظة القلب، وعندما يقسو قلب المرء يلعنه الله، ولا يصغى إلى حاجته أو يتغشاه برحمته. وكلما غضب الرب على عباده أكثر، أراد أن يقترب يوم القيامة، وذلك لعظم خطاياهم، وتناسيهم أعمال الخير، وابتعادهم عن الطريق المستقيم". وهنا شرع فى البكاء وهو يقول: "ليرأف الله بأهل تلك الجزيرة، عندما تظهر فيهم تلك الذنوب والفواحش، ويمتنعون عن تنفيذ أحكام القرآن والامتثال لها؛ لأن السواد الأعظم منهم فى تلك الآونة – بحجة الورع والتدين – سيسعون وراء الحياة الدنيا، ويتظاهرون بالخضوع، وستضحى ألسنتهم أكثر عذوبةً من العسل والسكر. أما قلوبهم فهى كقلوب الذئاب، وأفعالهم هى أفعال رجال وضعاء وأشرار. من أجل ذلك سيرسل الله إليهم عذابه؛ ولن يستمع إلى صلواتهم لأنهم يساندون الظلم، ولن يكون من أمتى الجائرون الذين يسعون إلى إلحاق الأذى بغيرهم على الدوام. من يتبسم فى وجه امرىء ظالم، أو يفسح له فى المجالس، أو يساعده أو يمنحه حظوة لاقتراف الشرور، فهو يمزق حبل نجاته. إذا ما طغى أحد الملوك فى الأرض، ولم يحفظ الحقوق فى رعيته، سيضيق الله عليه فى ملكه و يجد شحة فى الخبز والفاكهة وسائر صنوف الرزق الأخرى. وعندما يحكم بالحق والعدل، ولا يمسى فى مملكته قسوة أو مظالم، فسيُغدِق الله سبحانه وتعالى رحماته على مملكتِه وأهله، وسيزداد النماء فى كل الخيرات.

وهكذا عندما يسود فى أهل تلك الجزيرة الظلم، وخذلان الحق، وتضييع الأمانة، وتسود فيهم الكبرياء والخيانة، والإساءة إلى اليتامى، وخذلان الحق، والتجبّر فى

معاملتهم، والخروج عن مبادىء الرحمة التى قضى الله بها، واتباع الشيطان، والانقياد وراء المعاصى، والكذب وشهادة الزور، واحتقار الأغنياء، والتكبر على الفقراء، انطلاقًا من قسوة قلوبهم وعجرفتهم. ولّما يمسى حديثهم عذبًا وعملهم مريرًا، حينئذ سينزل الله بهم عذابه". بعدها عاود البكاء قائلاً: "ورحمة ربى، وجلال أسمائه العلى، لولا شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى محمد رسول الله، ومحبة الله لى، لأرسل الله عليهم عذابًا رادعًا وشديداً. وازدادت حدة بكائه وهو يقول: "اللهم الطف بهم!" مكررًا تلك الكلمات ثلاث مرات. "ولكن من أجل ذلك سيرسل الله عليهم حكامًا قساةً غارقين فى الضلال، حتى أنهم سيسلبونهم ممتلكاتهم دون وجه حق، وسيجعلونهم أسرى لهم، ويقتّلوهم، ويدخلوهم فى ملتهم، ويحملونهم على أن يشاركوهم فى عبادة الأصنام، ويجبرونهم على تناول لحم الخنزير، وسيستغلونهم هم وأعمالهم، وسيمعنون فى تعذيبهم حتى يدفعوهم إلى لفظ اللبن الذى رضعوه من نهايات أظافر أصابعهم، وسيشهدون قمعًا شديداً فى تلك الآونة، حتى ليمر المرء على القبر المدفون به أخيه أو صديقه فيقول: "آه! يا ليتنى أكون معك!". وسوف يستمرون على تلك الحال، حتى يؤول بهم المآل إلى فقد الثقة تمامًا فى إمكانية النجاة إلى شريعة الخلاص، وسينقلب السواد الأعظم منهم على أعقابهم آيسين، ويرتدون عن الدين الحق". وهنا إزداد بكاؤه وهو يقول:" سيتغمدهم الله سبحانه برحمته، ويطل عليهم بوجهه الشفيق، وينظر إليهم بعين العطف والرأفة والمغفرة؛ وسيحدث ذلك عندما تتوقد فيهم سموم عدوهم وكيده، عندما يهرعون لإحراقهم فى أتون النيران المستعرة – رجالاً ونساءً، أطفالاً فى مقتبل العمر، وشيوخًا فى مرحلة الكهولة. ولّما يشرعون فى إخراجهم واستئصالهم من قراهم، حينئذ ستثير الملائكة القلاقل فى السماوات، و سيتوجهون فى حميةٍ واندفاعٍ عارمين للمثول أمام عرش الرحمن، ويقولون له: "يا إلهنا، إن نفراً من آل حبيبك ورسولك تُشوى أجسادهم فى السعير، وأنت المنتقم الجبار! إذ ذاك يبعث الرب القدير من ينجدهم ويُخرجهم من ذاك الكرب و الابتلاء العظيم. وها هنا بكى علىّ – الذى تقبل ما قيل فى رضى – وبكينا جميعًا معه. ثم قال له: "فى أى عامٍ يرسل الله الغوث ويشفى علة قلوبهم المنكوبة؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم هكذا: إيهٍ يا علىّ! سيكون ذلك فى جزيرة

الأندلس، فى العام الذى يوافق مطلعه يوم سبت؛ والإشارة التى ستنبئ بقدومه هى أن يرسل الله سرباً من الطيور يضم طائرين معلَّمين، أحدهما الملك جبريل Gabriel والآخر هو الملك ميكائيل، وسيضحى الأصل الذى تنشأ منه طيور الببغاء فى سائر الأرض؛ وهما يعلنان الناس بقرب مجيىء ملوك الشرق والغرب لإغاثة جزيرة الأندلس تلك، وعلامة ذلك أن يبدأوا أولاً بالتصدى لهم فى جهة الغرب. وإذا ما قُدِّر لتلك الطيور الكلام، فلسوف تقول إن تلك البقعة التى تنطق فيها ستشهد انقلابات ضخمة فى الغرب تنجم عن الحروب الدائرة هناك، وسيعانى الكل من مخاوف واضطرابات عظيمة. سوف تحدث قلاقل و ثورات شعبية نظراً للنزاع بين شريعة المسلمين وشريعة المسيحيين. وسيرجع العالم بأسره لشريعة الإسلام، بيد أنه لاحقاً سيقع فى معضلات كبرى. فى ذاك العام ستكثر السحب و تندر الأمطار، وتينع الأشجار بوفرة من الفاكهة، أما مواسم حصاد القمح فستُمنَى فى الجبال الباردة بمحصول أكثر وفرة من السواحل، والنحل كذلك ستترع خلاياه بالعسل فى ذاك العام المبارك". إلى هنا تنتهى تلك النبوءة.

النبوءة الثالثة التى عُثِرَ عليها فى كهف كاستاريس

بسم الله الرحمن الرحيم. أحمد الله وحده، الذى لا شريك له. هذه نبوءة مستخرجة من حديث الرسول الذى اصطفاه الإله وأخلصه، ويدعى طوق الحمامة Tauca el Hamema وذلك للمقارنة بين خلقه البديع وملاحته، وجمال الألوان التى تزدان بها صدور الحمام. وهذه هى فحواها: " إياكم والالتفات إلى الأحاديث اللاهية، وزخارف الحياة، ورفعة الشأن؛ لا يفارقن الموت مخيلتكم، فالحياة تشرف على نهايتها، وخطاياكم يفوق حجمها الجبال. فروا إلى الله، ولا تخلدوا للنوم، فتستيقظوا مدفونين بين الحسرة والندامة. لا تحصوا البساتين الظليلة العامرة، المحيطة بالمبانى الفخمة، والنساء اللاتى يلبسن تيجانا وزينة؛ وتذكروا أهوال يوم القيامة، وزفير جهنم ولهيبها.

أما الساعة فيسبق قيامها تلك الإشارات: حركة الأرض وتصدعها، سيادة الفزع والذعر الشديدين، وعلامات أخرى يعجز البشر عنتفسيرها. وحذيفة هو أكثر من تناول تلك العلامات، وعدد ما يقول إنه قد سمع منها من رسول الله الهادى ما يربو على السبعين، ثمانية منها الأكثر بروزًا، والبقية تُعَد علامات صغرى تأتى على أثرها[٩] وقد سأل الكثيرون المصطفى عنها جميعًا، فكشف لهم عن بعض المشهور منها، فقال إنه سيكون منها: ظهور رسول الله، ونزول القمر إلى بساتين تهامة، بعد طلوع الشمس المتصدعة. تلك هى أشراط القيامة التى أتى بها القرآن وتحدث عنها، والبقية التى على شاكلتها عديدة، وهى مشهورة فى تلك الآونة وفى عالمنا هذا، وتُعد أشد وضوحًا من الضوء الساطع. قال المصطفى: "عندما ترون النساء يقتفين خطى الرجال، ويسعين حثيثًا فى طلبهم دون استحياء أو خجل، وهن ينهقن كالبغال من فرط الشهوة؛ عندما يكثر الربا والكسب الحرام بين الرجال، ويضحى السب والقتل هو نهجهم، ويتضاعف عقوق الأبناء لآبائهم؛ لمّا تتكسر نفس المؤمن التقى، ويضطهد العلماء حتى ينتهى بهم المآل إلى خدمة الأشرار؛ إذا ما ألفيت سائر أرجاء دارك عامرةً بالمحرمات والرزق الحرام؛ متى أمسى حموك أقرب إليك نسبًا من أخيك الشقيق، وتخليت عن أخيك بينما أطعت صديقك؛ إذا رأيت الأم العجوز تتكسب من عرض بناتها بين الرجال، والابن يخرج عن طوع والديه فيجيب امرأته فى كل الأمور؛ عندمًا تجد التماثيل فى بيوت الله، وتتبع النساء العادات الخليعة والمفاسد الآثمة؛ إذا بات رجال الدين يعيشون فى مبان مترفة وفخيمة، وتزايد عدد الآثمين من المتعجرفين بينما قل تعداد الصالحين، فأضحى المشفقون من خشية الله فرادى كالأيتام، والخاطئون لجوا فى عنادهم ورؤوسهم أقسى من الجبال الثقال؛ كما خذل الصديق الصدوق رفيقه، وما عاد المرء بقادر على الوثوق بصاحبه؛ متى عاصرت افتقار أصحاب الجود وعلو شأن الأشحاء، متى كف كرم الأيدى المعطاءة وتزايدت أعداد السائلين؛ حينما ترى الشريعة وقد هُجِرَت، وندر

(٩) لابد أن مترجم النص العربى قد أخطأ، فالعلامات الصغرى تسبق العلامات الكبرى. (المراجع).

أنصارها كالخيلان البيضاء بين الجياد الداكنة؛ عندما تجد الرجال ذئابا يرتدون لباس بنى البشر، حيث تأكل الذئاب مع الذئاب، ومن لا يتذأب تأكله الذئاب؛ إذا ما رأيت تكاثر حدة الخلافات، وتناقص الغيث من على سطح الأرض، حينئذ تقع الواقعة.

فى كل مرة يذكرها رسول الله تمتلئ عيناه بالعبرات، ويقول:" ترى كيف ستكون حياة من يولدون فى ذاك العصر؟ كذلك فقد أورد فى سياق أشراط القيامة نيرانًا ستوقَد فى روما لتسرى بين البشر و المياه والأراضى، وستهب رائحة على وجه الأرض، فتلفح نيرانها صدور الملحدين. وأخذ يعدد سقوط قرى كائنة فى شرق حصين Hixecen، وأخرى إلى الجنوب أكثر من ساثيرة[١٠] Sacera .

عندما يستولى الرومان على القسطنطينية بقوة الأسلحة، وعندما ترون المسلمين - أعزة فى نصرهم - يفتحون روما ويظفرون بالبرتغال، آنذاك ستنمو لديهم الثروات من أحجار كريمة وأموال حتى يتخلوا عن حمل السلاح. إذا ما آل مصيرالعالم إلى ذاك الكمال، سيكون ذلك مؤشراً بدنو النقصان الذى يعقب الكمال. سوف يعصف القلق بالقلوب، وستنساب الحياة وتتفلت من بين الأصابع. ولكن قبل الخوض فى ذلك أود أن تدركوا أن الله سيقضى بخروج ملكٍ طاغٍ فى الغرب سيحكمه ويخضعه، وسيخلو محياه من أى ملمح إنسانى: حيث يسىء معاملة الناس والحكم عليهم، وسيموتون على يديه بالرغم من مآثرهم كلها. فى أعقاب ذلك الملك سيقود ملك آخر مغوار يدعى يعقوب Jacob، ستتعاظم فى عهده المحن والبلايا، وسيموت الناس من الفاقة. سوف تشهدون فى الغرب مضايقات واضطرابات على نطاق واسع، وستأخذ أعداد الناس فى التناقص بشدة. ستضحى الأندلس يتيمة من دون ملكٍ أو شخصٍ مطاع الكلمة، وستظل على تلك الشاكلة لبعض الوقت: قاتمة، ومشوشة، ومظلمة؛ إلى أن يأتيها نبأ جديد من روما. فمن هنالك سيطلع ملك لا تشوبه شائبة، ملكٌ ابن ملكٍ.

---

(١٠) تعود النبوءة الموريسكية إلى ذكر مواضع غير معروفة. (المراجع).

إيه أيها الرجال! سيعبر البحار، تصحبه جيوش عظام ستفد إليه لا محالة، وترافقه عند مجيئه إلى غرناطة : المملكة الناصعة المشرقة، حيث يقولون له: "أنت مليكنا ولا مناص، وحاكمنا على الدوام". فيصعد هو بدوره مع جيوشه وكتائبه إلى قصور الحمراء، حيث يظل متخفيًا لبضعة أيام. من تلك البقعة سيفتح العديد من الحصون المهيبة، ثم يعقب ذلك ببعض قمم الجبال والأقاليم الصغيرة؛ آنذاك ستشهدون تأسيس عرش المسلمين الثابت وصولجانهم. سيظفرون بقشتالة دونما شك، وسيستولون على تسعين مدينة من براثن الملحدين، وستتحسن أحوالهم على يديه، وتنعم كل مدن الغرب بحكمه. فى أولى صولاته سيستحوذ على مدينة أنتقيرة، حيث يعتلى أسوارها ويحطمها بذراعيه العاريتين.

سيدوم ذاك الانتصار سبع سنوات، ستُحمَل خلالها الخيرات من أراضى الملحدين. جل جلال ربى، الذى سيقضى بتطبيق العدل! حتى يتجرع الكافرون كؤوس المرارة، عندما يحين أوان تحقيق ذاك المجد، وإنفاذ قدرة الإله الأعلى. من ثم يوجّه ذاك الرجل رحلته صوب شيقوبية Segovia، ويدخلها فى شهر رمضان، لتستمر بذلك مسيرة انتصاراته، التى ستتواصل من خلال الظفر بحصون المسيحيين بمهارةٍ وحذق. فهنا تدب خلافات بين الحكام والملك. ويظهر دولارفى[١١] Dolarfe الملك المسيحى، لينقلب على الشعب بأسره، ويكسر شوكته، حتى يرغمهم على التحصن فى فاس. وعندما يهمون بعبور جبل طارق، سيعوقهم البحر عن بغيتهم، وستحاصرهم جيوش المسيحيين الضخمة التابعة للملك دولارفى من جميع الاتجاهات. فيفر الموسرون هربًا فى السفن، أما من لم يتمكنوا من العبور فيموت غالبيتهم ذبحًا، والبقية تغرق فى البحر. آنذاك يبعث الله ملكًا رفيع الشأن، خفى، هامته أعلى من الجبال، يضرب البحر بيده فينفلق، ويخرج منه جسرٌ يرد ذكر اسمه فى تلك الرواية، فتهرب جماعتان من الناس سباحةً، أما الجماعة الثالثة فتفنى بالذبح والغرق حتى يتسنى للمسيحيين

(١١) هو اسم من خيال مؤلف النبوءة. (المراجع).

تحقيق النصر. وفي مرحلةٍ ما سيدخلون فاس بقوة السلاح؛ وإبان اقتحامهم لها، سيبحثون عن ملكهم، فسيعثرون عليه مختفيًا في المسجد، شاهرًا سيف إدريس Idris في يده، وقد اعتنق الإسلام؛ فعندما يرون ذلك، يتحول معه المسيحيون كلهم إلى الإسلام. فيما بعد يتوجه الملك إلى الكعبة في مكة، ولا يزال يصلي حتى يرى فتحة بئر زمزم وماءه.

في أعقاب ذلك يولد المسيح الدجال اللعين، ويخرج على الناس. آنذاك سيرسل الله قحطًا شديدًا، يدوم سبعة أعوام(*)، لن يظهر خلالها خبزٌ أو حبوبٌ أو ماءٌ، سوى ما يُبديه ذاك العجوز الملعون؛ فيقوم حينها بغرس البذور عند منتصف النهار، ليحصدها مع المغيب، ويزرع الأشجار والنباتات بيمناه، فيحصد ثمار الفاكهة بيسراه. سيأمر الميت أن يحيا، فينهض واقفًا، فيدَّعي أنه باعث الموتى، والإله، والسيد الذي ليس كمثله شيء؛ أما من يتبعه فلن ينال خيرًا قط، وسيموت كافرًا، ويمسي مثواه في سواء الجحيم. سيتبع المسيح الدجال الناس كاشفًا لهم عن العديد من صنوف الرزق وعيون المياه(*)؛ وسوف يظهر على جبهته عبارة: استبد وعصى. ستكون ملامح

(*) وفي حديث أبي إمامة الباهلي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها. ثم يأمر السماء في الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها. ثم يأمر الله السماء في السنة الثالثة تحبس مطرها كله فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت، إلا ما شاء الله". سنن ابن ماجة (٤٠٧٧) (المترجمة).

(*) وفي حديث النواس بن سمعان: "يأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرىً، وأسبغه دروعًا، وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مُمحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك؛ فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك". رواه مسلم في الفتن برقم (١١٠)، وابن ماجة (٤٠٧٥)، والإمام أحمد في المسند (١٨١/٤)، والترمذي (٢٢٤٠)، والحاكم في المستدرك (٤٩٢/٤-٤٩٤) .. وهو في سنن أبي داوود (٤٣٢١) مختصرًا. (المترجمة).

وجهه مثيرة للفزع، فهو ليس له سوى عين واحدة، ويحمل على رأسه وعاءً ممتلئًا بالطعام اللذيذ، ورأسه مستدير كاستدارة القمر. سترون الناس وراءه بأعداد غفيرة، حتى لن تسعهم الأماكن هم وأبناءهم وأسرهم. سوف يمتطي دابةً يثير منظرها الفزع(*)، وسيمتد الطريق أمامه على مرمى البصر؛ وسيطوف الدنيا بأسرها فى سبعة أيام. ومعه نهران: أحدهما من ماء والآخر من نار، فإذا شرب من تبعوه من الماء ألفوه ملتهبًا كما النيران(**). سوف ترافقه كل أسر اليهود(***)، التى سيحجب بها ضوء النهار.

حينئذ يرسل الربُّ العليّ المسيحَ عيسى بن مريم - عليه السلام - فيخرج لمقابلته فى أراضى الشام Hexen، فلمّا يبصره يخر أمامه كأنه جبان مخنث، وتقول الحجارة والأمكنة: ليُدفن أسفلنا عدو الله، ويبقى المسيح الهادى، الذى سيسير بفضله الذئب جنبًا إلى جنبٍ مع الغنم فى وئام. سوف يلعب الصبيان مع الحيات والأفاعى السامة، ولن تضيرهم، حيث تجبر على تطبيق سنة رسولنا، والحكم بمقتضاها وحسب. يشرف على الصلوات والمواقيت سلالة رفيعة متصلة النسب من نسل محمد، وآنذاك يتحول كل ملحد إلى دين الله. لمّا يجد أهل الأرض ما هو معلوم لهم، يصعد المسيح إلى جبل طهور Tahor، ويحطم أسوار يأجوج ومأجوج، وهم

(*) فى حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "له - أى للدجال - حمار يركبه، عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعًا". رواه أحمد فى مسنده (٣/٣٦٧-٣٦٨) بإسنادين أحدهما رجال الصحيح (مجمع الزوائد (٧/٣٤٤)). (المترجمة).

(**) فى رواية عن حذيفة أنه - صلى الله عليه وسلم - قال فى الدجال: "إن معه ماءً ونارًا، فناره ماء بارد، وماؤه نار فلا تهلكوا". رواه البخارى فى الفتن باب ذكر الدجال برقم (٧١٣٠) ومسلم فى الفتن برقم (١٠٦-١٠٧). (المترجمة).

(***) وفى حديث أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم- :" الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلّى وساج". رواه ابن ماجة برقم (٤٠٧٧). الساج: الطيلسان الأخضر. (المترجمة).

الأقزام الذين يفوق تعدادهم عدد موج البحر، وتتباين أشكالهم ووجوههم وملامحهم: فبعضهم حجمه مثل الريشة التى يُكتَب بها، والبعض الآخر تفوق قامته الجبال، وهناك آخرون لهم آذان طويلة؛ حتى أنهم يجلسون عليها ويفرشون الأرض ببعضها؛ ومشيتهم مسيرة ثمانين سنة(*).

تحوى تلك النبوءة المزيد من الهراء والهذيان، الذى لن نضمنه روايتنا حتى لا يشوهها؛ وإذا كنا قد توسعنا فى سردها، فقد كان هدفنا هو منح القارئ فرصة للضحك، وكذلك فهى تُعَدُ أحد الأمور الرئيسة التى استند إليها الموريسكيون فى ضلالهم؛ وكان عدم إدراجها سيمثل تقصيراً. وهكذا أخذوا يقلبون تلك التكهنات التى كانوا يوقرونها كما لو كانت مقدسة، وشرعوا يبحثون فيها عن أمورٍ تواسيهم، فهمّ رجال الدين -الذين ربما اضطلعوا بمهمة تأليفها - بتأويلها، محاولين بشتى السبل تشكيلها على نحو يجعلها أكثر موائمة لبغيتهم، ألا وهى إشعال الثورة فى المملكة. كان فرج بن فرج، وداود، وآخرون أول من بدأ فى تأليب العامة من الجهال، مدعين أن أوان تحريرهم الذى أنبأت به التكهنات قد حل؛ لأن سموم المسيحيين - أعدائهم الحقيقيين - وأحقادهم لم تكن نيرانها قد أحرقت صدورهم قط على النحو التى تشهده تلك الآونة. حتى أن ملائكة السماء، لما شهدت المحن والنكبات التى يواجهها أهالى تلك المملكة، امتثلت أمام عرش الإله راجيةً إياه أن يتغمدهم برحمته. وأتت لانقاذهم من وطأة الإذلال والأسر، حيث شاهدهم أناس كثر يسيرون فى السحاب على هيئة طيور تحلق أعلى البشرات، يقودها طائران أضخم حجمًا وأوضح رؤية؛ كما أن العام الكبيس الذى طال الشوق إليه بدأ فى يوم سبت، وهو عينه الذى أخبر محمدٌ صهره عليًا أن ربنا سيرسل فيه الغوث لعائلته. وعلى ذلك فلم يتبق أمامهم ما ينتظرونه سوى القلاقل التى أنبأت بها التكهنات. أما المخاوف والكروب فهى حاضرةٌ الآن. وبالنظر

(*) عن أرطاة بن المنذر قال: "يأجوج ومأجوج على ثلاثة أثلاث: ثلث على طول الأرز، وثلث مربع طوله وعرضه واحد وهم أشد، وثلث يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى". تذكرة القرطبى (٧٨١-٧٨٢). (المترجمة).

إلى الخلافات والشقاق حول شئون العقيدة بين المسلمين والمسيحيين، وتلك القائمة بين المسيحيين أنفسهم، فعدّوها علامة أكيدة على قرب التوصل إلى خلاصهم؛ لذا فإنهم إذا ما تحمسوا إلى حمل السلاح، فعليهم أن يوقنوا أن ملوك الشرق والغرب سيهرعون لنجدتهم من فورهم؛ وأن فرج بن فرج وداود والبقية مستعدون للتوجه لأولئك الملوك بأنفسهم لطلب مساعدتهم.

وكان هناك آخرون ممن قصوا عليهم آلاف الحماقات - المبنية على علم التنجيم والنبوءات - فزعموا أنهم شاهدوا في أثناء الليل علامات في الهواء وفي البحر والبر: كرؤية نجوم لم تُرَ قط من قبل، واشتعال السماء باللهب وقدر كبير من البريق، مما أدى لظهور أجرام في الهواء، وأيضًا أشعة مروعة لعدد من النجوم والمذنّبات؛ وكلها أمور تُسفر دائمًا عن تقلبات مزاجية. وهكذا على ضوء الفهم المغلوط والمُحَرّف لكل تلك العوامل، إضافةً إلى الاعتداد بعلامات أخرى - وهو أمر درجت تلك الأمة على القيام به بكثرة - فقد تأكد لهم أن كرباتهم قد انتهت، وأن المسيحيين باتوا يخشون انقضاء سعادتهم ؛ خاصةً بالنظر إلى انشغال ملكهم الشديد بالحرب ضد اللوثريين(*) على حيازة الممالك التابعة لهم، وكذلك قتاله لأمم أخرى ذات نفوذ لا يقوى على إخضاعها. شرع أولئك الملحدون في الترويج لتلك الأمور كلها، فحازوا على ثقة العامة من خلال الإيعاز لهم بتلك الأسرار. وكانت جهودهم لإثبات صحة تلك الإشارات ذات فاعلية كبيرة، حتى أنهم هم أنفسهم - الذين قاموا بحياكتها - آمنوا بها، وأيقنوا بتحققها على النحو الذي ساقوه.

(*) مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦) مصلح ديني ولد في ألمانيا. بدأ عمله الإصلاحي بعد زيارة قام بها إلى روما في ١٥١٠-١١، هاله فيها ما شاهده من عمليات بيع لصكوك الغفران. له العديد من المؤلفات التي أثارت جدلاً واسعًا، طُلِبَ منه بعدها أن يمثل أمام البابا في روما ولكنه رفض وأخذ في نقد النظام البابوي بشكل علني، حتى انتهى به الأمر إلى إنشاء مذهب خاص به. تُعد ترجمة الإنجيل التي قام بها من روائع الأدب الألماني. (المترجمة).

الفصل الرابع

كيف تم تنبيه غرناطة أن موريسكيي البشرات ينوون القيام بثورة، والاستعدادات التى اتُّخِذَت لمجابهتها

إذا كان موريسكيو البيّازين قد حاولوا التعبير عن حنقهم من تنفيذ المرسوم الجديد فى ذل وخضوع، حيث تملّكهم غضب عارم من البنود المتعلقة بطائفتهم، والممتلكات، ونمط الحياة، والحاجة للترويح عن أنفسهم؛ فإن ذلك لم يثنهم عن محاولة اللجوء إلى سبل أخرى. فلمّا أخذوا يبحثون عن علاج للأمر وسط الأخطار الكبيرة المحدقة بهم، ارتأوا أن يحاولوا حمل موريسكيى البشرات على الثورة، ومن أجل حثهم على تنفيذ ذلك أفهموهم أنه السبيل الذى أوحى به الله إليهم حتى يظفروا بحريتهم، وأثاروا حماسهم عن طريق الخيالات الواهية التى وردت فى النبوءات كما بالغوا فى إشعارهم بالذل والمهانة التى يلاقونها، وكذلك تذكيرهم بمدى قوتهم، فأخبروهم أنه يوجد خمسة وثمانون ألف بيت موريسكى مقيد لدفع الضرائب فى مملكة غرناطة، هذا إلى جانب خمسة عشر ألف بيت آخرين لا يعلنها موظفو الإحصاء؛ يمكن أن يخرج منها على الأقل مائة ألف مقاتل، وأن فى مقدورهم تعديل الوضع فى إسبانيا إذا ما دعت الحاجة لذلك. أو تحقيق ما يصبون إليه جميعًا على أقل تقدير، ألا وهو وقف العمل بالمرسوم بالطرق السلمية.

وهكذا أخذ أولئك الملحدون يبثون إليهم كل تلك الأشياء، وغيرها الكثير، لإقناعهم أن يكونوا البادئين بالثورة؛ فما سعى إليه موسرو البيّازين لم يكن إشعال ثورة عامة،

أو جلب البربر إلى البلاد، ولم يكونوا يريدون الخضوع إلى حكم ملك مسلم - حيث لم يحسن إليهم أى منهم بقدر مليكهم الحالى - كانوا يهدفون فحسب إلى الإبقاء على وضعهم الراهن، والوصول إلى بغيتهم على أن يتحمل المخاطر أناس غرباء، وقد ألفوا حماسة رجال الجبل الهمجيين مواتيةً لتحقيق هدفهم. فما برحوا يفهمونهم أنهم جميعًا سيثورون لاحقًا، وأنه لن تبقى مدينة أو قرية فى مملكة غرناطة إلا وتشارك فى الثورة. بيد أنهم قاموا بذلك بتحفظٍ شديد، خوفًا من افتضاح أمرهم؛ لأنهم تصوروا السجن والتعذيب والعقوبات الجسدية الشديدة والخفية التى يمارسها مأمورو الجرائم فى المحكمة الملكية، والتى لا مفر من تعرضهم لها. لهذا السبب لم يجرؤ أى رجل عاقل على إعلان الأمر أو تقدم المسيرة، رغمًا عن معاونة نفر من الأشخاص البارزين والأثرياء لهم، فيما عدا فرج بن فرج الذى حمل الأمر على عاتقه، وأعلن استياءه من رجال الشرطة. وقد سُرَّ البقية لذلك، فهو رجل مهيأ لتحمل أى فتنة أو إساءة، ويفوق سواه فى الحرص والاجتهاد. فكان هو المحرك الرئيس للأمر برمته، وقام - بما له من علاقات فى سائر أرجاء المملكة - بعرض الأمرعلى من يعلم بامتعاضهم العارم من المرسوم ، خاصةً السيد إيرناندو الصغير Hernando el Zaguer - حاكم كاديار -Cádiar الذى يلقب أيضًا بابن جوهر Aben Jouhar . وكذلك دييغو لوبيث ابن عبو Diego Lopez Aben Aboo، الذى يسكن ميثينا دى بومبارون -Mecina de Bombaron؛ وميغيل دى روخاس Miguel de Rojas، القاطن بأوخيخار دى ألباثيتى Ugíjar de Albacete؛ وآخرين غيرهم من الموريسكيين البارزين فى البشرات، ممن تلاحقهم دعاوى جنائية فى غرناطة. وقد وافقوه جميعًا فى الرأى، واتفقوا على اشعال الثورة يوم خميس العهد لعام ١٥٦٨؛ لأن المسيحيين لن يأخذوا حذرهم فى ذاك اليوم، وسينشغلون بطقوسهم الدينية؛ لذا فمن الممكن تنفيذ أى شىء على نحوٍ مرضٍ.

فيما بعد ذاع الخبر من شخص إلى آخر متنقلاً بين القرى، وبدأ أناس يفدون إلى غرناطة ليستعلموا من مدبرى الأمر، وخاصةً فرج بن فرج، عما يتعين عليهم القيام به؛ وهو بدوره لم يستبقهم لديه طويلاً لكى لا يفتضح أمرهم، وأمرهم بأن يعودوا أدراجهم

إلى بيوتهم، ويعملوا ما يعمله غيرهم من جيرانهم؛ لأن كل شيء قد تم الاتفاق عليه؛ فهم يملكون بحوزتهم السلاح، والرجال، والإمدادات من إيطاليي جنوة والأتراك ومسلمي المغرب. وقد أسفرت تلك الأنباء عن زيادة المفاسد، فشرعت مجموعات ثوار الجبل في التجوال في سائر الأرجاء حاملين أقواسهم الفولاذية دون خجل، وشاهرين الرايات، وأخذوا يُعملون القتل والنهب في أي مسيحي تصل أيديهم إليه. فلم يكن يمر يوم دون أن يُحمَل إلى مدينة غرناطة موتى عُثِر عليهم في الحقول، وجوههم مشوهة وبعضهم نُزِعَت قلوبهم بعد شق ظهورهم. قام بعض رجال الدين والأشخاص البارزين بتنبيه جلالة الملك و نفر ممن يسدون إليه النصح إلى القلاقل التي سيثيرها أولئك الأشخاص وما يرسلون من علامات واضحة حول نيتهم في إشعال ثورة، لكن لم يكن هناك من يعلم كيفية نشوبها أو توقيت القيام بها أو السبيل إلى معالجة ذاك الوضع، لأن الطريقة الوحيدة كانت تتمثل في ايقاف تنفيذ المرسوم الذي أفتى الجميع بقدسيته ونفعه. أما فرانثيسكو دي توريّخوس Francisco de Torrejos الكاهن القانوني لداريّكال Darrical، والذي كان يشغل في الوقت ذاته منصب قاض كنسي لمدن بيرخا وداليّاس Dalías والساحل Cehel، ثم أضحى فيما بعد كاهنًا قانونيًا بكاتدرائية غرناطة، فكان التحذير الذي أطلقه أفضل وأصح ما يكون، وقدرته على القيام بذلك على نحو جيد تنبع من فصاحته في اللغة العربية، حيث أتاحت له تلك المقدرة وغيرها من الاعتبارات الأخرى، اكتساب صداقة المسلمين واحترامهم. فلمّا أنبأه نفر من صحبه بالنية التي بيتوها فيما بينهم لإنفاذها مع نهاية عام ١٥٦٨، كتب الكاهن إلى رئيس أساقفة غرناطة وكذلك ماركيز مونديخار - وكان لا يزال في البلاط - وحذرهم من أنه علم على سبيل اليقين أن موريسكيي البشرات عازمين على الثورة يوم خميس العهد.

في أعقاب ذلك بعث رئيس الأساقفة نبأ الثورة ورسالة الكاهن القانوني توريّخوس إلى صاحب الجلالة، حتى ينظر في كيفية معالجتها على وجه السرعة؛ وهو ما أسفر عن التعجيل بمجيء ماركيز مونديخار إلى غرناطة، وتوجيه الأمر إليه بزيارة البشرات

والساحل، والاستعلام عما قاله الكاهن توريخاس على وجه الخصوص. من ناحية أخرى، أرسل كونت تنديًا، بعد تأمينه للمدينة والحصون، القائد لورينثو دى أبيلا Lo renzo de Avila على رأس رجال من المدن السبعة للتمركز فى الحمراء؛ كما قام بتهيئة سائر أهالى المدينة وتسليحهم وتنبيه هؤلاء وأولئك، حتى فطن موريسكيو البيّازين أن أهالى البشرات قد علموا بالأمر، وأثار حفيظتهم عدم قدرتهم على الاحتفاظ بالسر، ونبهوهم إلى عدم القيام بأى تحركات لأن المدينة قد أخذت حذرها.

الفصل الخامس

كيف غضب الموريسكيون بعد أن قيل إنهم يرغبون فى الثورة، وكيف تم الاحتياط للأمر.

نظرًا لأن الناس فى ميادين وشوارع مدينة غرناطة لم يعد لها شغل سوى الحديث عن نية الموريسكيين للقيام بالثورة، توجه جمع من أبرز وأغنى رجال البيّازين فى تأثر بالغ إلى منزل رئيس المحكمة، واستهل أحدهم حديثه معه على النحو التالى:

إن ما نحن فيه من ازدهار لثرواتنا فى ظل الحكم السعيد لجلالة الملك، قد انقلب خزيًا وعارًا علينا نحن من عزمنا بخبرتنا طوال عمرنا أن نحافظ على الإيمان الحقيقى، حتى أن الموت أهون علينا من التخلى عنه. ويا للأسى العميق الذى يشعر به العديد من أهالى تلك المملكة إذ لاكت الألسنة أعراضهم فى الشوارع والميادين العامة، ونعتتهم بالخائنين، وتحدثت عن رغبتهم فى الثورة على الحكم! وذلك على الرغم من كونهم رعايا مخلصين لصاحب الجلالة، وهم الآن - كدأبهم آنفًا - وديعون ومسالمون وفرحون للغاية أن تغمدهم الرب برحمته وهداهم للمعرفة الحقة بالديانة الكاثوليكية المقدسة، وأن أمّر عليهم أميرًا مسيحيًا حتى النخاع، شديد الحرص على خيرهم وخلاص أرواحهم! وأن يمسى المواطنون أنفسهم، عرّابوهم وأصدقاؤهم، الذين يجب عليهم الإحسان إليهم وتشجيعهم، أول من يرغب فى تدميرهم وإلحاق الخراب بهم! وهم لا يدرون ما السبيل إلى إعلامهم وإفهامهم قدر إخلاصهم ودعتهم. من أجل ذلك نعلن نحن الموجودين هنا، بالنيابة عن الأهالى، أننا - ابتغاءً لخدمة صاحب الجلالة - سوف نودع مائتين أو ثلاثمائة من أبرز رجالنا فى الحصون أو السجون التى يأمر بها، إلى أن يتم التحقق

من براءتنا، والافتراء الذى ألصقه بنا الأشرار والحاقدون، الذين لا يرغبون فى تحقيق الاستقرار بقدر رغبتهم فى تجريدنا من ممتلكاتنا. ونظير قيامنا بذلك، فإنه من العدل أن يُقضَى بمعاقبة المشنعين ومثيرى الفضائح فى حزمٍ شديد، وذلك من أجل مصلحة الرب وصاحب الجلالة، وصولاً إلى تحقيق الهدوء المرجو والمأمول، الذى تسعون سيادتكم فى حرص بالغ إلى تحقيقه؛ ونحن نعول عليكم جل آمالنا لمعالجة الوضع".

إلى هنا ينتهى حديث الموريسكى. أما رئيس المحكمة فقد أخفى ما تلقاه من تحذير حول الأمر، وأجابه أن ما قاله حول انتشار خبر نية الموريسكيين فى القيام بالثورة وإثارة القلاقل فى المدينة أمرٌ صحيح، بيد أنه يدرك فى الوقت ذاته أن الباعث وراء ذلك هم مجموعة من ثوار الجبل والرجال الوضعاء، الذين يرغبون فى اغتنام تلك الفرص لبسط نفوذهم على ممتلكات الغير. أما بالنسبة إليه هو، فإنه على قناعة من أن أهل البيّازين لا يرتبون أمراً يخالف مصلحة صاحب الجلالة؛ لأنه يرى أنهم رجال شرفاء، ذوو عقل راجح ويدركون جيداً كيفية أداء واجبهم المنوط بهم. وأنه لا محيص من إثارة بعض الشكوك، وإن كان هو على ثقةٍ منهم، وذلك على خلفية مجىء تلك الأعداد الغفيرة من الموريسكيين الغرباء إلى البيّازين، فى صحبة نسائهم وأبنائهم، مخلفين وراءهم أعمالهم وجنى حقولهم؛ وكذا العثور على كمٍ من الأقواس الفولاذية فى حوزة نفر من القوّاسين، والتحقق إذا ما كانت معدّة للموريسكيين، كما يمكن أن تكون قد صُنِعَت لثوار الجبل. وأخيراً، أنهى حديثه بإخبارهم أنه لا داعى لتقديم رعايا صاحب الجلالة أنفسهم لإيداعهم فى السجون كرهائن، وسوف تُتَخَذ تلك الخطوة إذا ما دعت مصلحة الملك إلى ذلك؛ وعليهم تقديم التماساتهم، وليطلبوا فيها ما يرونه مؤاتمًا لهم، لكى يتولى إبلاغه إلى المجلس، الذى سيأخذ على عاتقه تنفيذ أحكام العدالة.

عقب مغادرة الموريسكيين المنزل قاصدين المجلس، أمر رئيس المحكمة باستدعاء مأمورى الجرائم فى المحكمة الملكية، واتفق معهم أن تنفيذ عدد من أحكام السجن

سيكون من شأنه توقيف أولئك الأشخاص، ونبههم إلى العرض الذى قدموه؛ ثم أمرهم أن يكلفوا الكتبة باستخراج كل الدعاوى القائمة ضد الموريسكيين، سواء كانوا مجرمين أو متواطئين، ويشرعوا فى اعتقالهم شيئًا فشيئًا، حتى لا يُفهَم أن الداعى وراء الأمر هو مسألة الثورة. وبهذه الطريقة تمكن المأمورون من اعتقال العديد من الرجال موضع الشبهات، وكان بينهم نفر من أثرى الأثرياء، ممن انقلب عليهم الرخاء خزيًا وعارًا، وحصد الموت نواصيهم فى عجالة، كما سيأتى ذكره فى موضعه. وكذلك فقد قضى بتشكيل مأمورى الجرائم فى المحكمة الملكية للجنةٍ لمصادرة البنادق والأقواس الفولاذية من الموريسكيين حاملى تصاريح اقتناء الأسلحة، ليضحى مفهوم السلاح مقتصرًا فحسب على سيفٍ وخنجرٍ وحربةٍ يحملونها عند خروجهم إلى الحقول، وذلك بمقتضى مرسوم أمر الإمبراطور كارلوس بتطبيقه عليهم. وبعد أن حملهم على مصادرتها، عاد وأمرهم بتسليمها بكفالة، وقد نجم عن ذلك غبن للعديد من الأشخاص الذين مُنِحوا تلك التصاريح فى مقابل خدمات كانوا قد أدوها هم وآباؤهم.

الفصل السادس

الكلمة التى ألقاها كونت تينديًا على مسامع الموريسكيين خلال تلك الأيام

على ضوء الأوضاع التى آلت إليها الأمور، ومع إدراك كونت تينديًا أن إقناعه للموريسكيين والنصح لهم حتى يتقبلوا المرسوم بسعة صدرٍ، ويلتزمون بتطبيق ما ورد به على النحو الأكمل، دون إثارة للقلاقل أو افتعال فضائح، يُعَد بمثابة إسداء خدمةٍ جليلةٍ لجلالة الملك؛ فقد صعد إلى حى البيّازين صبيحة يوم الأحد الموافق الخامس من إبريل، يرافقه بعض الفرسان ونفر من حرسه، لحضور القداس المقام فى كنيسة سان سلبادور، الذى كان يحضره الغالبية العظمى من الموريسكيين. وبعد أن فرغ القسيس من المراسم، أمره الكونت أن يطلب من الحاضرين البقاء فى أماكنهم لأنه يود التحدث إليهم. فلمّا أعاره الجميع انتباههم، شرع يكلمهم من قاعدة المذبح على النحو التالى: "ما أفعله الآن هو أمر قمت به العديد من المرات، ألا وهو القدوم إليكم لرؤيتكم؛ إذا كنت قد تخلفت عن زيارتكم لبضع سنين، فقد كان السبب هو أنكم كذلك لم ترتادوا منزل سيدى الماركيز أو منزلى كدأبكم من قبل، لذا فقد ارتأينا ترككم وشؤونكم. لكن على ضوء المودة والحب اللذين أكنهما لكم أسلافنا وما أشعر به أنا نحوكم، فقد رأيت أن أحضر إليكم لأحدثكم فى أمور ثلاث: أولها أن أطلب منكم وأرجوكم أن تعقدوا العزم على الالتزام بالمرسوم الذى أمركم جلالة الملك بتنفيذه، وتطبيق بنوده، فالحمية التى دفعته إلى إصداره تنبع من خيريته كأمير كاثوليكى بلغ تدينه الذروة، ورغبته فى دمجكم مع بقية رعاياه من المسيحيين، والإفادة منكم فى شتى المجالات، وكذا منحكم سائر الامتيازات التى يحصلون عليها. وثانيها هو مجىء أعداد غفيرة من

الموريسكيين الغرباء إلى القرى وهم يعيشون هنا فى البيّازين، على الرغم من أنكم قد أمرتم بطردهم، فأنتم لم تنصاعوا للأمر، مما ولّد عدداً من الشكوك. نحن نعلم جيداً أنهم أتوا هرباً من سوء المعاملة التى قد تعرضوا لها، وخوفًا من قدوم مقاتلين عن طريق البحر لينزلوا بمنازلهم، لكن رغمًا عن ذلك فإنه شأن يدفع الناس إلى التساؤل والكلام؛ من هنا باتت عودتهم إلى ديارهم وعدم إيوائهم أمراً مواتيًا، وأنا بدورى أؤكد لكم أنه لن تساء معاملتهم. الأمر الثالث هو أن نفراً منكم كان قد صعد إلى الحمراء ليتحدث إلىّ، وأخبرتمونى أن القساوسة والكهنة القانونيين يقومون بإحصاء أولادكم وبناتكم، وأنه يُقَال إنهم ينتوون سلبكم إياهم. وأنا لم أجبكم فى ذاك الصدد لأنى لم أكن على دراية بالأمر؛ لكنى قمت بمناقشته هنا مع رئيس الأساقفة، ولكم أن تعلموا أن ما يجرى هو لنفعكم، وقد أمر به صاحب الجلالة الذى يود إيجاد مدارس يتعلم فيها الأطفال جميعًا العقيدة المسيحية واللغة القشتالية؛ لأنه بمرور السنوات الثلاث لن يُسمَح بالتحدث بالعربية. فلتتأكدوا أنه ما من هدف آخر، وقد كان حريًا بكم أن تسعوا إلى ذلك وتحاولوا القيام به، لا أن تثيروا القلاقل بشأنه. قوموا بواجبكم وما تستلزمه خدمة جلالة الملك، وسوف ينعم عليكم بالكثير من العطايا؛ أما بالنسبة إلىّ فستضحى لكم حظوة عندى وفى أملاكى، وهو ما ستشهدونه عمليًا إذا ما لبيتم ندائى".

بعد أن أنهى حديثه، نهض رجالات الموريسكيون البارزون وقالوا لخورخى دى بايثا - الذى ينوب عنهم - أن يرد باسمهم جميعًا، فقام ذاك الرجل ليخبر الكونت أنه باسم أبناء المملكة يقبل يديه لدوام ما أظهر من عطف ومنة تجاههم، وهم يأملون أن يستمر نواله فى شتى المواقف التى تتعرض لها الأمة، كما أنهم بدورهم سيسعون دائمًا إلى الفوز برضاه كلما دعت الحاجة إلى ذلك؛ لذا فهم يتضرعون إليه أن يشفق عليهم ويتولى شؤونهم جميعًا. وهكذا فقد ارتأى كونت تينديًا هذه المرة - بوصفه القائد العام - وضع كتيبة من المشاة تتولى حراسة البيّازين، على أن تقيم فى منازل الموريسكيين، وذلك بغرض حمايتهم والتثبت من ولائهم. فلمّا أتى القائد غارنيكا Garnica ورجاله للقيام بتلك المهمة، هرع الموريسكيون إلى الرئيس والمأمور القضائى

لاخبارهما أن إقامة الجنود فى المنازل التى تؤوى بين جنباتها نساءهم وبناتهم سيسفر لا محالة عن الحاق ضررٍ بالغٍ بالبيّازين. فبعث الرئيس إلى القائد يعلمه أن ذاك الأمر لا يعود بالنفع على صاحب الجلالة، وعليه أن يأمر بتأجيله لأنه سيقود أولئك الناس إلى القيام بالثورة. وهكذا أُوقِفَ تنفيذه وأُمرالقائد غارنيكا بالتوجه إلى قرية شوريّانا Churriana – التى تقع فى مرج غرناطة – للإقامة بها، وقد ظل هناك حتى عشية عيد القيامة، حينها صدر إليه الأمر بصرف الجنود.

الفصل السابع

كيف دق الناقوس فى غرناطة عشية عيد القيامة، على خلفية الاعتقاد فى قيام الثورة فى البيّازين، والفوضى التى عمت المدينة أنذاك.

فى السادس عشر من شهر إبريل عام ١٥٦٨،الموافق عشية عيد القيامة، قُرِعَ الناقوس فى حصن الحمراء ما بين الساعة الثامنة والتاسعة من مساء تلك الليلة، وربما كان ذاك الأمر هو السبب الذى دفع المسيحيون إلى الشروع فى نهب البيّازين وقتل من كان به من الموريسكيين؛ حيث حملتهم الشكوك التى كانت تراودهم آنفًا على الاعتقاد فى اندلاع الثورة. أما الداعى إلى قرع ذاك الناقوس فهو أن أحد الأفراد القائمين على دوريات الحراسة – يدعى بارتولومى دى سانتا ماريا Bartolomé de Santa María - كان قد بعث أربعة من الجنود لتسلم نوبة حراسة برج الزيتون Aceituno؛ وكان كل واحدٍ منهم يحمل فى يده غصن حلفاء مشتعل لينير له الطريق؛ لأن الظلام كان حالكًا ويصحبه هطول المطر، وعندما وصلوا أسفل البرج، الذى كان الطريق الصاعد إليه وعرًا ومكشوفًا، أخذ جنديا المقدمة فى تقليب الجذوات وتحريكها لإضاءة الطريق لزميليهما الصاعدين، ثم ألقياها فيما بعد إلى الأسفل بأسلوب بدا لمن يراه شبيهًا بحركة النيران التى تُشعَل فى الحصون والأبراج للإنذار بقدوم العدو.

لمّا رأى حارس برج حصن الحمراء ذلك بادر بدق الناقوس، حيث ظن أنه قد جدّ خطب ما، وسارع بإخبار كونت تينديّا بالأمر، الذى قام بدوره بإرسال عشرين جنديًا لمعرفة كنه تلك النيران. أما حارس البرج الذى كان قد قرع الناقوس فشرع يصيح بصوتٍ عالٍ مناديًا: "أيها المسيحيون، انتبهوا واحذروا، فسوف تُذبَحون الليلة لا محالة".

فأسفرت صيحاته عن خلق حالة من الارتباك الشديد وانتشرت القلاقل فى المدينة، حتى أن السيدات المتزوجات والفتيات غادرن بيوتهن، وهرول بعضهن إلى الكنائس بينما توجه البعض الآخر صوب البرج. أما الرجال المرتاعون فقد خرجوا إلى الشوارع والميادين، حيث حمل بعضهم البنادق والأقواس الفولاذية بينما توشح آخرون بالأثواب الطويلة والجبات المزررة. لم يدر أحد ما الخبر أو إلى أين المفر: كان الجميع يموج فى بحر من الاضطراب، فى نهاية الأمر نشبت الثورة فى شتى أنحاء المدينة، حتى أن رهبان دير القديس فرانثيسكو غادروا صوامعهم وخرجوا إلى الميدان شاهرين أسلحتهم. قصد أناس آخرون الميدان الجديد Nueva plaza، حيث شكّلوا أمام المحكمة كتيبة من الرجال المسلحين بالرماح ورؤوس الفؤوس بوصفهم جنداً للمسيح، حيث كانوا يظنون أن الموريسكيين قد دبروا انقلاباً.

أما رئيس المحكمة والمأمور القضائى فقد أرسل كل منهما على حدة من يستعلم عن أنباء ما يدور داخل البيّازين من أطقم الحراسة المكلفة بحمايتها، وعندما تنامى إلى علمهما أن الأمر مرده إلى غفلة أولئك الحراس وتهاونهم، وأن الهدوء والسلام يعمان أرجاء المدينة، تبددت مخاوفهما. وقام المأمور القضائى بسد مداخل الطرق المؤدية إلى منازل الموريسكيين، ونصّب عليها نفراً من الفرسان لكى يمنعوا أى شخص من العبور إليها للحيلولة دون سلب محتويات المنازل . لم يكن ذلك الإجراء ليجدى كثيراً لولا أن زوبعة عارمة أعقبها سيل عارم من الأمطار أعاقت مسيرة المواطنين الحانقين. ففى دقائق معدودة غمرت الجداول شوارع المدينة حتى تعذر عبورها على صهوة الجياد، وأمسى من اللازم تهدئة غضب العامة. فى أعقاب العاصفة صعد المأمور القضائى إلى البيّازين وبصحبته جمع من الفرسان، بعد أن خلّف وراءه بعضاً منهم لتولى حراسة المعابر، حيث قضى ما تبقى من الليل وهو يطوف بأنحائها. عندما انبلج ضوء النهار شرع يتفحص سائر الأسوار من الجهة الخارجية وصولاً إلى تلك المشرفة على نهر حدرّة، فلمّا تبين له أنها جميعًا آمنة نزل إلى المدينة. ومنذ تلك الليلة كان يجوب الأرجاء فى كل مساء ومعه عدد من الرجال المسلحين، لكى لا يلحق

الموريسكيين أى أذى وحتى يأمن جانبهم فى الوقت عينه. على الرغم من أن الانذار الذى سرى فى تلك الليلة كان كاذبًا، فإنه لم يخلف وراءه آثارًا طفيفة، حيث أخذ المواطنون يعدون العدة أفضل من ذى قبل، من لم يكن لديه أسلحةٌ تزود بها، واشترى المجمع الديرانى كميات كبيرة من السلاح ثم قام بتوزيعها على المواطنين، وجعلهم يجلبون مزيداً من الأسلحة من الخارج. اضطلع الجنود العشرون الذين أرسلهم كونت تينديًا بدوريات الحراسة فى الحمراء بدلاً من برج الزيتون، وقد حُبِسوا هناك حتى قدوم ماركيز مونديخار إلى المحكمة، حيث أمر بإطلاق سراحهم جميعًا بعد أن فهم حقيقة الأمر.

الفصل الثامن

مجيء ماركيز مونديخار إلى غرناطة، وذهاب السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى جلالة الملك لإخباره بأحوال تلك المملكة.

وصل ماركيز مونديخار إلى غرناطة فى السابع عشر من شهر إبريل قادمًا من العاصمة، وفى اليوم التالى اجتمع رجال الموريسكيين البارزون من أبناء البيّازين بالنائب العام لمحكمتهم، وصعدوا إلى حصن الحمراء ليرحبوا بقدومه، ورفعوا إليه شكاوى عريضة قائلين أن أمرًا صغيرًا مثل قرع الناقوس الذى حدث، أسفر عن تعريضهم إلى ظروف أوشكت على القضاء عليهم، على الرغم من أن الأهالى يتسمون جميعًا بالوداعة والمسالمة. وفى ختام حديثهم تضرعوا إليه حتى يشملهم بعطفه وحظوته، كما كان العهد دائمًا مع أسلافه سيادة الماركيز لويس وسيادة الكونت إنييغو. أظهر الماركيز تعاطفه معهم وأسفه العميق لما لاقوه فى غيابه، ووعدهم أن يولى شئونهم عنايةً خاصةً ويحاول عدم تعرّضهم لأى ضير.

بدا الموريسكيون وكأنهم قد سكنوا بعض الشىء بعد قدوم ماركيز مونديخار، أما السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس – الذى أسلفنا ذكره فى الفصل السادس عشر من الكتاب الأول – فقد ارتأى الذهاب لإخبار جلالة الملك وكذا أعضاء المجلس الملكى بشئون تلك المملكة، مدفوعًا بحميته المسيحية ومتبعًا بذلك الأمثلة المشرفة التى ضربها أسلافه الذين أظهروا الولاء فى خدمتهم لملوك قشتالة منذ اليوم الذى اعتنقوا فيه عقيدتنا الكاثوليكية المقدسة. حيث أخذ الموريسكيون يشكون من سوء المعاملة التى كانوا يتعرضون لها كل يومٍ بالأقوال والأفعال، وقلة الإجراءات المعمول بها لمجابهة ذاك

الأمر، وكيف أن أصحاب النفوس السيئة والحانقين - وعددهم ليس بالقليل - يفتون في عضد الأناس المسالمين ويتجاسرون عليهم. وهكذا انطلق مغادراً غرناطة في اليوم الرابع والعشرين من شهر إبريل ، دون الافصاح عن نيته إلى أي شخص يمكنه التدخل لمنعه، وذلك على خلفية اعتقاده بإمكانية التوصل إلى الحل الذي يأمل الجميع في تحقيقه في البيّازين، مع تعيين القائد العام الجديد الذي كان يشغل المنصب آنذاك؛ ليصل إلى مدينة مدريد في أول أيام شهر مايو. أثناء اضطلاعه بتلك المهمة وصل إليه بريد من موريسكيي البيّازين، يحوي رسالةً موجهةً إلى صاحب الجلالة باسم جميع أهالي تلك المملكة، ويبدو أن السيد ألونسو لم يكن يرغب في حملها معه، أو أن الموريسكيين لم يجرؤوا على إعطائه إياها إبان مغادرته المملكة حتى لا تصل أنباء الغرض من رحلته إلى آذان أي من الجواسيس(١٢).

كان فحوى الرسالة هو إبلاغ جلالة الملك بأن الموريسكيين لم يكن لهم أي دور أو مشاركة في إثارة الفوضى والقلاقل التي عمت تلك المدينة آنفًا، وأنها لا تتجاوز كونها نتاج غفلة الحكام ورجال العدالة، وتهاونهم الذي كان قاب قوسين أو أدنى من تدمير الموريسكيين والقضاء على حياتهم وممتلكاتهم. والأسوأ من ذلك أن الشعب قد نعتهم بالكفر بديانة المسيح، وخيانة الملك، كما تم نشر خيالاتٍ حولهم تسيء إلى سمعتهم. إذا ما تبين أن بعضهم كان مخطئًا، فمن العدل أن يأمر جلالة الملك باللجوء إلى الشدة إبان معاقبتهم، وهو ما تتطلبه فداحة الجرم الذي ارتكبوه؛ لكن حين يتضح أنهم لا يحملون تبعته على عاتقهم، فإن قرار جلالة الملك بمعاقبة المذنبين سيكون أمرًا مواتيًا، لتضحى الأمور في المستقبل معدةً بصورة تتماشى أكثر مع خدمة صالح المملكة، وبذلك يمنع وقوع أحداث مشابهة. مع شعور الموريسكيين بالظلم وخوفهم من القسوة التي يمكن اللجوء إليها عند التعامل معهم، لم يجرؤوا على الاجتماع معًا

(١٢) المؤلف يناقض نفسه هنا، فإذا كان الموريسكيون لا يريدون إعطاء الرسالة للسيد لويس، فلماذا أرسلوها إليه مع البريد؟. هل لنا أن نظن أن نص الرسالة من بنات أفكار المؤلف؟ (المراجع) .

لمحاولة التوصل إلى طريقة لمعالجة الموقف. أما الآن فيبدو أن الأمور قد هدأت بعض الشيء مع وصول ماركيز مونديخار، الذى أكد لهم إمكانية اللجوء إلى سيدهم ومليكهم، والتضرع إليه حتى يأمر بمعالجة تلك الأمور بعدل وإنصاف. ونظراً لعدم قدرتهم على المجىء جميعًا فقد أرسلوا من يتولى إيصال الرسالة، حيث حُمِلَت على وجه الخصوص إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس لينوب عنهم فى ذاك الشأن، وهم جميعًا ملتزمون بالاعتراف بفضله فى شتى المناحى، وذلك للقدرة والمكانة التى يتسم بها والتى تمتع بها أسلافه. لذا فهم يتوسلون إلى جلالة الملك فى خضوع حتى يستمع إلى حديثه ويصدق ما يقول، ثم يأمر بالكشف عن حقيقة الأمر ويقضى بكيفية معاقبة المذنبين، كما يعيد إلى الأخيار والمخلصين شرفهم الضائع وسيرتهم الطيبة، ويرفع المظالم عمن يعانون منها.

إلى هنا تنتهى الرسالة التى سلمها السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى جلالة الملك[١٢]، كما أنه استرسل فى إخبار صاحب الجلالة عن ذاك الشأن. بعدها تمت إحالته إلى الكاردينال إسبينوسا Espinosa، الواعظ بالمجلس الملكى، وقد اتفقا فيما بينهما على الاستغناء عن الدوريات المكلفة بحراسة البيّازين، وكان الموريسكيون مكلفين بالإنفاق عليها، لأنهم فيما يبدو أناس مسالمون؛ أما باقى الأمور فيتم الرجوع

إلى رئيس محكمة غرناطة للبت فيها لأنه مكلفٌ بذاك الأمر، وسوف يقرر هو كيفية رفع المظالم عنهم. أعقب ذلك بوقت قصير صدور قرارات بصرف عدد من حكام البيّازين من الخدمة وكذا تسريح جنود الحراسة هناك، ويبدو أن الأوامر كان مرجعها المجلس الملكى وبعض مأمورى هيئة المحكمة الملكية ونفر من الأشخاص رفيعى القدر، لأن سيادة رئيس المحكمة بدرو دى ديثا رفع الأمر إلى نظر جلالة الملك وأخبره أنه ليس من المناسب إحداث نظام جديد، وأن الإبقاء على اضطلاع الحكام بدوريات

---

(١٢) مرة أخرى يناقض مارمول نفسه فى شأن الرسالة، فإذا كان لم يحملها معه أصلاً لسبب أو لآخر، فكيف يسلمها إلى الملك؟ (المراجع).

الحراسة أمر بالغ الضرورة، فهم رجال شرفاء ومتزوجون. وقيامهم بالحراسة فى كل ليلة دفع الأهالى إلى التحلى بالهدوء، كذلك فقد نجم عن تلك النوبات العديد من الآثار الجيدة التى أثبتتها التجربة : حيث غادر الثوار الجبليون والمجرمون من أهالى البيّازين تلك الأنحاء، ولم يعد الغرباء يأوون إليها، ومن كانوا يقومون باستضافتهم تم الكشف عن هويتهم وإلقاء القبض عليهم. أما ملاك المواشى فهم سعداء للغاية لأنه لم يعد هناك من يقوم بسرقتها. كما أن السيدات المتزوجات - اللاتى كن على خلاف مع أزواجهن - استعدن أزواجهن من جديد، وكذلك فقد لمَّ الآباء شمل أبنائهم، وأوى الأسياد إليهم عبيدهم. لم يعد ممكنًا رؤية أى شخص فى البيّازين بعد حلول الليل، وقد توقف إلقاء الحجارة على نوافذ القساوسة. أما المخمورون، وكانوا موجودين قبل ذلك الأمر بأعدادٍ غفيرةٍ، وتسببوا فى إثارة اضطراباتٍ هائلةٍ وافتعال جرائم عديدة فى أثناء الليل، فقد امتنعوا عن ذلك. والجميع ينتابه خوف عارم من الحراس، فأضحوا كلهم مسالمين يتسمون بالدعة، لا يجرؤ أى منهم على التحرك من موضعه.

إلى جانب ذلك، فإن أولئك الحراس هم القائمون على تطبيق المرسوم، فيما يتعلق بتنفيذ البنود الواجبة والتى تتمثل فى: كشف النساء عن وجوههن أثناء سيرهن فى الطرقات، وفتح أبواب منازلهن أيام الجمع وفى أثناء العطلات. وهم يقومون بذلك بمودةٍ وحميةٍ مسيحيةٍ مجردةٍ من أى غرضٍ أو رغبةٍ فى مضايقة الغير. وكذلك فإن باقى الحكام لا يخطون خطوةً إلا إذا كان الهدف من ورائها جلب المنفعة. قديمًا كان هناك مدعاة لتقديم الشكاوى، إلى جانب الوسيلة الخاطئة المتبعة لسجن الأفراد وتحصيل النفقات. لكن فى أعقاب اضطلاع تلك الدوريات بالحراسة لم يعد هناك بلاغاتٍ عن أطفالٍ مفقودين أو مخطوفين كما كان الحال آنفًا؛ لأن الناس لم تمسِ قادرةً على إخفاء الأطفال داخل البيّازين خوفًا من افتضاح أمرهم. من أجل هذه الأسباب وغيرها الكثير مما يمكن التطرق إليه، فإن عدم استحداث أمور جديدة والتكرم بالسماح باستكمال ما تم البدء فيه سيضحى أمرًا مواتيًا. فى النهاية اتُخِذَ القرار بالتغاضى عن مسألة الحكام، مع خفض عدد الأفراد المصاحبين لهم فى جولاتهم.

الفصل التاسع

كيف أن ذهاب ماركيز مونديخار لزيارة الساحل أظهر بشكلٍ أوضح مدى اضطراب الموريسكيين، وذلك من خلال بضع رسائل تمت مصادرتها من داود، وهو أحد الرؤوس المدبرة للثورة، كان فى طريقه للحصول على الدعم من بلاد المغرب.

فى تلك الأثناء غادر ماركيز مونديخار غرناطة مصطحبًا معه ولده كونت تينديًا من أجل زيارة ساحل البحر وتفقد المكان مع بعض الفرسان. يبدو أن الرؤوس المدبرة للثورة قد اتفقت على أن توجه ابن داود صوب بلاد المغرب فى أثناء تلك الزيارة سيكون مواتيًا، حيث يسعى ذاك الأخير للحصول على بعض الإمدادات من السفن والمقاتلين، وهو أمر طالما عرض القيام به. فذهب يرافقه موريسكيون آخرون من البيّازين للانضمام إلى كتائب الثوار الجبليين التى تجوب جبال بوخول Bujol، فى المنطقة الواقعة باتجاه البحر ما بين أورخيبا وزوتشيل Zuchel، فى انتظار عبور أى قارب يمكنهم أن يستقلوه للوصول إلى بغيتهم. عندما تبين له عدم وجود أية قوارب، اتفق مع صياد موريسكى من أهالى أدرا القديمة Adra la Vieja يدعى نُحْيلة Nohayla، لكى يبيعه مركبًا له على الشاطىء كان يستخدمه فى الصيد، كان ملكًا لرجل من أصحاب مراكب الصيد اسمه خينيس دى لا رامبلا Ginés de la Rambla. أما نُحْيلة فإنه لم يكتف بتقديم المركب له، بل عرض عليه الذهاب معه.

فى تلك الأثناء قام أفراد تلك الكتائب من الموريسكيين بأسر ثلاثة من المسيحيين، وكانوا يودون الإجهاز عليهم، بيد أن داود دافع عنهم، وأقنعهم أن عقيدة محمد لا تقر

قتل المسيحيين إبان استسلامهم؛ لكن السبب الحقيقى وراء دفاعه عنهم كان رغبته فى أن يقوم الموريسكيون بتسليمه إياهم لكى يحملهم معه إلى بلاد المغرب ويحصل على مكافأة من أحد القادة. مع حلول الليلة التى كانوا قد حددوها من قبل للإبحار، قصد داود ورفاقه منزل نُحْيلة، ثم توجهوا إلى حيث يوجد القارب على مقربة من ميناء أدرا، تصحبهم بعض الموريسكيات الراغبات فى الذهاب إلى بلاد المغرب حتى يتسنى لهن ممارسة حياة المسلمات فى حرية. وهناك أنزلوا القارب إلى المياه فى هدوءٍ شديدٍ ثم استقلوه جميعًا. أما الموريسكى الذى منحهم المركب، فقد كان خوفه من معاقبته جراء ما اقترف إذا ما افتضح أمرهم، قد دفعه إلى عقد اتفاق مزدوج - وهو أمر متعارف عليه بين المسلمين - حيث أخبر كلاً من صاحب المركب وقائد أدرا كيف أن بعض الموريسكيين قد قصدوه ليقلهم إلى بلاد المغرب، وقال لهما إنه سوف يتولى إخبارهما عن اليوم المقرر للإبحار بالمركب، لكى يهجما عليهم ويعتقلاهم؛ لكنه على الجانب الآخر لم يكن ينوى تحذيرهم فى التاريخ الصحيح للقيام بالرحلة، بل إنه أمدهم بتاريخ محدد، ثم استقل المركب هو والآخرون قبل ذلك الموعد بثلاثة أيام. وقد اصطحب معه الثوار الجبليين، والأسرى المسيحيين الثلاثة، وعدد كبير من الموريسكيات والصبية.

بيد أن المركب لم يكن آمنًا كما كان يظن الرجل، لأن خينيس دى لا رامبلا كان قد راوده الشك فى صدق الموريسكى وحيطته، لذا فقد قام فى إحدى الليالى بخرق المركب مستخدمًا بعض البريمات الكبيرة، التى غطَّاها فيما بعد بطبقةٍ كبيرةٍ من الشمع. لم تمر برهة وجيزة على إبحار داود فى المركب، حين بدأ الماء فى التسرب إليها من الجوانب وعبر البريمات؛ لذا فقد اضطر داود أن يعود أدراجه إلى الشاطىء خوفًا من الغرق. حملت الضوضاء، التى أحدثتها النساء والأطفال إبان إنزالهم من المركب، الجنود - الذين كانوا على علم مسبق بالأمر - على استشعار وجودهم والخروج لملاقاتهم، حيث ألقوا القبض على رجل تركى وعدة نساء؛ كما أطلقوا سراح المسيحيين الثلاثة ومعهم كل الأشخاص الذين اختطفتهم الكتائب فى الأراضى الجبلية الوعرة.

بينما كان الثوار الجبليون يلوذون بالفرار، سقط من أحدهم كيس من القماش كان يحوى كتابًا ضخمًا مكتوبًا باللغة العربية، عُثِرَ بداخله على رسالةٍ وشكوى، بدا من فحواهما أنهما من إعداد داود نفسه، حيث ضمنهما شكاوى الموريسكيين إلى مسلمى إفريقيا، لكى ينظروا إليهم بعين العطف، ويرسلوا إليهم الغوث والمدد. لاحقًا بعث قائد أدرا ذلك الكتاب إلى ماركيز مونديخار، الذى كان فى تلك الآونة يتفقد أحوال البشرات، وأرسل معه المسيحيين الثلاثة حتى يتلوا على مسامعه ما رأوه، فقصوا على الماركيز أمر داود؛ لأنهم كانوا يعرفونه من غرناطة، حيث كان يعمل فى مجال الحرير، ثم أضافوا أنه كان بصحبة موريسكيين آخرين من أهالى البيّازين لا يعلمون أسماءهم؛ وأن الكتاب ملكٌ لداود، كان يقرأ فيه كل ليلة ويقوم بوعظ الآخرين حول تعاليم عقيدة محمد. عقب انتهاء العظة كانوا ينهضون جميعًا، ويتوجهون إلى الكتاب ثم يقبلونه مرددين عبارة: "هذه هى شريعة ربنا، التى نؤمن بها، وما عداها باطل".

عندئذ راودت الماركيز الرغبة فى معرفة كنه ذلك الكتاب، وما تحويه الأوراق المفردة التى عُثِرَ عليها بداخله، فأرسل فى طلب الأب ألونسو ديل كاستيّو[14] من غرناطة، لكى يوضح له فحواها؛ لأنه استشعر أن فيها معلومات يمكن أن تعاونه على استيعاب ما يدبره الموريسكيون. وهكذا توجه الأب كاستيّو تلقاء بيرخا، التى كان الماركيز قد وصل إليها لتفقد أحوالها. وهناك أخذ منه الكتاب وتصفحه، فعرف أن مؤلفه رجل عربى يدعى لويّورى Lollori، وأن الكتاب يتناول أمورًا خاصة بعقيدة محمد، وأنه يستعرض العديد من الشواهد والأسانيد حول رواياتٍ قديمة. أما الأوراق المفردة فهى مكتوبة بخط يد داود ذاته، الذى استطاع الأب ألونسو التعرف عليه لاحقًا. كان أحدها يحوى رسالةً خطيةً مكتوبةً على النحو التالى:

---

(١٤) برز من بين الموريسكيين أشخاص مثل ألونسو ديل كاستيّو وميغيل دى لونا وغيرهما، كانوا يجيدون العربية تمامًا ويترجمون عنها، وقد لعب هؤلاء دورًا بارزًا فى صياغة الكتب الرصاصية، وهى كتب تتحدث عن إمكانية الجمع بين المسيحية والإسلام. (المراجع)

الرسالة التى تم مصادرتها من داود على ساحل أدرا[(١٥)]

بسم الله الرحمن الرحيم. صلوات الله على أفضل عباده المصطفين. والعاقبة للمتقين الذين شرّفهم الله، فما زالوا عن الطريق المستقيم، أولئك فى الحياة الدنيا هم الفائزون. وأنا أعنى أصدقاءنا الأمراء، ومن تبعهم من السادة، ممن أنعم الله عليهم بالنصر والحرية والممالك الشاسعة، قاطنى بلاد المغرب - أدام الله مجدهم وأطال بقاءهم- نتمنى لهم نحن أهل الأندلس دوام العافية، نحن المنكوبون، من حاصرهم الكفرة، ونزل بساحتهم عذاب الهون. أما بعد، فإننا يا ساداتنا وأصدقاءنا مجبرون على إعلامكم بأحوالنا وشؤوننا، وما آل إليه مصيرنا، لمّا تبدل حالنا، وزال عزنا، وما ذاك إلا نذر يسير من بلائنا العظيم. فأغيثونا، وأحسنوا إلينا، وسوف يجزل الله لكم العطاء جزاء ما تسدون إلينا من معروف. ادعمونا بسلطانكم، وسعة ملككم الذى أفاض الله عليكم به من جوده، رغم أنكم غير مسؤولين عنا، إننا نثق فى عظمتكم وفضلكم، فالشخص الجواد المفضال يرغب دوماً فى فعل الخيرات. ونحن نسألكم بالله العظيم أن تذكرونا فى صلواتكم، حتى يجمع الله بيننا.

اعلموا يا سادتنا أن المسيحيين قد أمرونا بهجر اللغة العربية، ومن يمتنع عن التحدث بالعربية ينسى تعاليم الكتاب الذى نزل بها، كما جعلوا نساءنا يكشفن النقاب عن وجوههن الحيية، وأمرونا ألا نحيي بعضنا البعض، رغم أن إفشاء السلام من أنبل الخصال. لقد زادوا ما ندفع من ضرائب وخراج، كما حاولوا حملنا على تغيير ملبسنا والتخلى عن عاداتنا. إنهم يقيمون فى منازلنا، فيكشفون عوراتنا ويخدشون حياءنا،

---

(١٥) يبدو من مطالعة النص أنه ترجمة مختصرة للقصيدة التى أرسلها الموريسكيون إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى، وأوردها المقرى فى "أزهار الرياض فى أخبار عياض"، القاهرة، ١٩٣٩، المجلد الأول، ص. ١٠٨- ١١٥ وقد أعدنا نشر القصيدة فى كتاب "الموريسكيون الأندلسيون"، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص. ٤١-٤٦

وهو بلاء حرى به أن يمزق نياط القلوب. وقد قاموا بكل تلك الأمور بعد أن بادروا بالاستيلاء على ممتلكاتنا، وأسرنا، وإرغامنا على مغادرة قرانا. لقد أوقعونا فى الكرب والبلاء الشديد عندما أبعدونا عن إخواننا وأصدقائنا، نحن قوم مخذولون ومعوزون، نتكل على رحمة ربنا، لفداحة ما نتعرض له من شرور ومفاسد وقلاقل تحيط بنا من كل صوبٍ وحدب. نتوسل إلى جودكم باسم الله الأعظم أن تتأملوا أحوالنا، وتنظروا إلينا بعين العطف، وتأخذكم بنا مشاعر الشفقة السائدة بين الأخوة، فالمؤمنون جميعًا أخوة فى الله. فأحسنوا إلى إخوانكم، وكونوا فى عوننا يكن الله فى عونكم؛ اقهروا من عندكم من المسيحيين، لكى ينذروا بدورهم أبناء ديانتهم، فيعلمون أنكم قادرون على تعذيبهم بهذه الطريقة، نظيرَ المعاناة التى آلمونا بها نحن المسلمون، رغم كل ذلك فإن الصبر مفتاح الفرج.

ابعثوا كتابى هذا إلى ملك المشرق، الذى قهر الأعداء وأعلى راية الدين، ولا تدعوا مجالاً للفرقة بينكم، فالفتنة أشد من القتل، ونحن لا نمتلك نفوذًا أو قوةً أو فطنةً تتيح لنا إيجاد حلول لرأب الصدع. إننا نحيا فى خوفٍ دائم؛ أدعوا الله أن يغفر لكاتب هذه الرسالة، التى ضمّناها ما نأمل أن تتفضلوا علينا به، كتبناها فى ليالٍ قضيناها فى شجون وانهمرت فيها العبرات، يبقينا الأمل، أمل ولدته المرارة".

الورقة الأخرى مكتوبة بأوزان الشعر العربى، ويبدو أنها مرثية/رثاء يشكو فيها الموريسكيون القهر الذى يمارسه ضدهم المسيحيون، ونصها كالتالى:

بسم الله الرحمن الرحيم. أحمد الله أولاً وآخرًا ودائمًا. سبحان رب الناس، سبحان أحكم الحاكمين، سبحان المتفرد فوق عباده، سبحان منزّل الكتاب الحكيم، سبحان خالق البشر، سبحان منشئ الحَزَن، سبحان من يعفو عن المسىء ويصلح، سبحان رب السموات العلى، سبحان خالق النبات والأرض، من بسطها ووطّأها الإنسان، سبحان الإله الواحد الأحد، سبحان من لم يولَد، سبحان من أمد مخلوقاته بالماء والغذاء، سبحان الرقيب، سبحان ملك الملوك، سبحان الأول الذى لا مبدئ له،

سبحان رب العرش العظيم، سبحان من يفعل ما يريد، سبحان مسبب الأسباب. سبحان خالق السحاب، سبحان منزل الكتاب، سبحان من خلق آدم وتاب عليه، سبحان ذا الجلال والإكرام خالق البشر والصالحين، من اصطفى منهم الأنبياء، وختمهم بخير المرسلين. بعد حمد الله المتفرد فى عليائه والثناء عليه، أصلى وأسلم على المختار وأتباعه الأطهار.

أبدأ فى سرد قصة تتناول أحوال أندلوثيا، التى أذلها العدو على النحو الذى ستقرؤون فى كتابى هذا، أندلوثيا التى كان اسمها علمًا فى الدنيا بأسرها، أضحت اليوم محاصرةً ومحاطةً بالكفرة الذين تربصوا بها من كل الجهات. قد صرنا تابعين لهم كما النعاج الشاردة أو الفارس الذى يمتطى فرسًا جموحًا؛ لقد أمعنوا فى تعذيبنا، وعلمونا الخدع والمكائد، حتى بات المرء يتمنى الموت للفكاك مما يلاقى. لقد أمّروا علينا اليهود، الذين لا يحفظون عهداً ولا ذمة، فهم يخضعوننا كل يوم لصنوف جديدة من المكر والأكاذيب والغش والهوان والذل والثأر. أرغموا أهلنا على اعتناق ديانتهم، وحملوهم على عبادة الأصنام معهم، أجبروهم على القيام بذلك دون أن يجرؤ أحد أن ينبس ببنت شفة. كم من شخص منكوب بين المارقين! إنهم يدعوننا لعبادة الأصنام بقرع الناقوس، يأمرون المرء أن يسعى مهرولاً إلى طقوس عقيدتهم المنفرة، وعندما يجتمعون فى الكنيسة، ينهض واعظ ليصلى على النبيذ والخنزير بصوتٍ عابث، فيتناولون الخمر فى القداس؛ لو سمعتموهم يقولون وهو جاثون على ركبهم: "هذا هو الدين الحق" لعلمتم أن أقدس رؤساء أديرة رهبانهم لا يحسن التمييز بين الحلال والحرام.

عقب انتهاء العظة، ينهضون جميعًا ليقدمون فروض الولاء والطاعة لمن يعبدون، فيتبعون قسيسهم دون خوف أو خجل. عندئذ يعتلى رئيس دير الرهبان المذبح ويرفع رغيفًا من الخبز عاليًا حتى يراه الجميع، عندها ستسمع اللطم على الصدور ودقات الناقوس فى ختام المراسم. لديهم قداس ينشدون فيه الترانيم وآخر يقيمون فيه الصلوات، وكلاهما يشبهان رذاذ السحاب/الأمطار. كل الموجودين هناك تُقيد

أسماؤهم فى أوراق، فلا يبقى صغيرٌ ولا كبيرٌ دون ذكر اسمه[١٦] بعد مرور أربعة أشهر يأتى عدونا القسيس/رئيس دير الرهبان ليطلب سندات البراءة/الإعفاء من منازل المشتبه فى أمرهم، فيتنقل من بابٍ إلى بابٍ حاملاً فى يده المداد والريشة والأوراق، ومن لا يوجد بحوزته سند البراءة يدفع عملة من الفضة. ويأخذ الأعداء بالنصيحة القائلة بأن الكل عليه أن يدفع حيًا أو ميتًا. ليكن الله فى عون من لا يجد ما يدفعه! إنهم ينهالون عليه ضربًا بالنبال والسهام! لقد حلوا عقدة الدين دون أن يكون هناك أساسٌ يستندون إليه، وهم يقدسون التماثيل رغم رجاحة عقلهم. ويصومون على مدار شهر ونصف الشهر، وصيامهم أشبه بصوم الأبقار، حيث يأكلون عندما ينتصف النهار.

لنتحدث عن قسيس الاعتراف، ثم القسيس الخاص بتناول القرابين وبهما تكتمل عقيدة الإلحاد، وهو أمر لا بد لنا من القيام به؛ لأنه كان هناك قضاة قساة يستولون على ممتلكات المسلمين، ويقصون شعورهم كما تُجَز أصواف الأغنام. وكان بينهم قساوسة وقضاة آخرون معتمدون يبطلون عمل القوانين كلها. هناك شخص يدعى أوروثكو، وشخص آخر يدعى ألبوتودو. الكل يجمعه الكد والسعى المحموم للتجسس على الناس فى كل مكان وأينما يحلون! أما من يثنى على الله بلغته الخاصة فهو هالك لا محالة، ومن يرصدون له أى زلة، يبعثون فى إثره واحد من زعمائهم، فيعثر عليه وإن كان على بعد مائة فرسخ، فيعتقله، ويزج به فى السجن الكبير، حيث يرهبونه ليلاً ونهارًا قائلين له:"تذكر" فيبيت المسكين يفكر وهو يزرف العبرات فيما يطلبون منه... وما من سلوى إلا الصبر على البلاء، ثم يُحْمَل إلى بلاطٍ مروعٍ، ويترك فيه لفترات طويلة، بعد ذلك يُفْتَح أمامه ألف حوض/صهريج/معبر/مانع لا يقوى أمهر السباحين على عبورها؛ لأنه بحر خضم لا يمكن تخطيه. ومن هناك يسوقونه إلى غرفة التعذيب،

---

(١٦) كان هذا واحداً ضمن سلسلة من الإجراءات التى تم اتخاذها عقب تنصير المسلمين قسراً فى إسبانيا، وذلك لضمان ذهابهم إلى الكنيسة. (المراجع) .

حيث يشدون وثاقه ليلقى قسطه من العذاب، ولا يزالون به حتى تتكسر عظامه. بعد كل هذا يجتمعون فى ميدان الحطّابين، حيث ينصبون منصة ليكون الأمر أشبه بيوم الحساب، ومن يستطيع الفكاك من براثنهم يلبسونه ثيابًا صفراء، أما البقية الباقية فيقذفون فى النار مع تماثيل وأشكال مروعة.

لقد أمعن هذا العدو فى إذاقتنا عذاب الهون فى كل مكان، وهو يحيط بنا كدائرة من النيران. نحن نلقى اضطهادًا لا يقوى عليه أحد. إننا نؤدى الشعائر فى الأعياد وأيام الآحاد، ونصوم أيام الجمع والسبت. لقد تنامت بذرة تلك الشرور على مرأى ومسمع قضاتهم وحكامهم، وكل منهم يطبق القانون كما يحلو له، كما أنهم قد أضافوا إليه بنودًا أخرى، وهم يشهرون سيفا مصلتا، وقد طلعوا علينا بقرارات مكتوبة فى أول أيام العام الجديد فى ميدان باب البنوت، كان من شأنها إيقاظ النيام، وإفاقتهم من غفوتهم دفعةً واحدة، حيث أمرونا بفتح أبواب البيوت جميعًا على مصارعها. لقد حرَّموا علينا ملبسنا، ومنعونا من ارتياد الحمامات وحظروا وجود العرب فى أراضينا. لقد سمحوا بحدوث كل تلك الأمور، ثم وضعونا بين أيادى اليهود، يفعلون بنا ما يشاءون، ولا يتحملون وزر أفعالهم. أما الرهبان والقساوسة فباتوا يشعرون بالسعادة لأننا أصبحنا جميعًا يحكمنا قانون واحد(*)، ليتمكنوا من سحقنا تحت أقدامهم. وهذا ما يليق بأمتنا، فكأنهم يتباهون بما يلاقون من خيانة ومظالم. هذا الحنق الذى يعتمل فى صدورهم تجاهنا جعلهم كما التنين الهائج، وأمسينا جميعًا فى قبضة أيديهم كاليمامة بين مخالب الباشق(**).

(*) نصت بنود المعاهدة التى وقع عليها الملك أبو عبد الله مع الملكين الكاثوليكيين على أن يحتكم المسلمون فى قضاياهم إلى الشريعة التى اعتادوا عليها، فيفصل بينهم قضاتهم ورجال عدلهم. انظر الكتاب الأول، الفصل التاسع عشر. (المترجمة).

(**) أحد الطيور الجارحة، يبلغ طوله من المنقار حتى الذيل ثلاثة أعشار المتر. لونه أبيض تشوبه خطوط بنية تميل إلى الاحمرار عند الرقبة والصدر والبطن، أما الريش الخارجى فهو رمادى يميل إلى الزرقة. Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo I, pág. 1030. (المترجمة).

بما أنهم سمحوا بوقوع كل تلك الأحداث، وخصونا بسائر الشرور، فقد عدنا لبحث ومطالعة النبوءات والآراء، علنا نجد فى الكلمات المكتوبة السلوى؛ وقد أخبرنا الأشخاص ذوو الفطنة الذين عكفوا على التنقيب فى الأصول أن الصوم هو سبيلنا للخلاص، وأن مصابنا الجلل وتأخير الفرج سيجعل من غلماننا رجالاً، ولكن كل تلك الأهوال لابد أن تجلب فى أعقابها البشارة؛ ولسوف يتغمدنا الله برحمته. هذا ما كنت أود قوله، ومهما دامت دولة الظلم فمآلها إلى زوال. من أجل ذلك أيها السادة أتوسل إلى جودكم ألا تتجاهلوا ابتهالاتى، فهى جل ما أقوى عليه. اطرحوا عنى أى فرية أو نميمة، أما من قام بصياغة رثاءه فى تلك الأبيات، فإنه يرجو الله أن يدخله جنته ومستقر رحمته."

فُهِمَ من تلك الأوراق صحة ما قيل حول عزم الموريسكيين على القيام بالثورة؛ لذا فقد أرسل الماركيز إلى صاحب الجلالة أصل الأوراق مصحوبًا بترجمة إلى الإسبانية؛ وبعد أن ظل الماركيز فى بيرخا لعدة أيام، توجه إلى أدرا لتفقد أحوالها، ومن هناك عرج على مدينة ألمريّة، التى مكث بها طيلة شهر ونصف الشهر دون أن ترد إليه أى أوامر جديدة، ومنها عاد أدراجه إلى مدينة غرناطة، بعد أن قام بزيارة كل المواقع الساحلية وتحصينها على أكمل وجه.

الكتاب الرابع



الفصل الأول

كيف عزم موريسكيو البيّازين ممن دبروا لإشعال الثورة على تنفيذ مخططهم، والسبيل الذى اتبعوه للوصول إلى بغيتهم

كانت الأجواء الآمنة التى تسود مدينة غرناطة مدعاة لتحلى موريسكيى البيّازين بالهدوء الظاهرى، وذلك خلافًا للمشاعر التى كانت تموج فى صدورهم، فظلوا طيلة أشهر يتظاهرون بالخنوع، وذلك فى أعقاب مجىء ماركيز مونديخار إلى المدينة، وتوجُّه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى البلاط الملكى. كانوا يتصنعون الخضوع إلى الحد الذى يوحى بتقبلهم التام لتنفيذ بنود المرسوم الملكى. كان هذا هو الحال الذى نقله الرئيس فى رسالته إلى جلالة الملك وأعضاء مجلسه. بيد أن الموريسكيين لمّا أدركوا أن تطبيق البند الخاص بالملابس أضحى قريبًا، وأن تأجيل تطبيق المرسوم لن يحول دون دخوله حيز التنفيذ، أعمى الكرب بصيرتهم، وقلت بينهم المشورة، واستشعروا عدم المبالاة، فوضعوا ثقتهم فى قوتهم - التى لم تكن كافيةً لوضعها محل اختبار، على الرغم مما أُثير حولها من شكوك فى الخفاء - وعقدوا العزم على القيام بالثورة والتمرد العام، على أن يبدأ الأمر من رأس المملكة، ألا وهى البيّازين.

حينئذ اجتمع بعض الموريسكيين فى منزل واحدٍ منهم يعمل بائعًا للشمع، وكان يدعى أديليت Adelet، واتخذوا قرارهم بإشعال الثورة فى مساء يوم رأس السنة الجديدة؛ لأن النبوءات كانت تؤكد لهم أن المسلمين سيستردون غرناطة فى ذات اليوم

الذى ظفر فيه المسيحيون بالمدينة، كما أنهم أرادوا تكذيب أى أخبار ينقلها الجواسيس، وكذلك طمأنة شعبنا إذا كان هناك من كشف النقاب عن التجمع الذى عقدوه عشية عيد الميلاد. وهكذا نبه بعضهم البعض إلى عدم إعلام أهالى البشرات بقرارهم الأخير قبل اليوم الذى يتم فيه اختيار القادة، حيث كانوا خائفين من عدم قدرتهم على كتمان السر، كعادة القرويين البسطاء؛ كما أنهم كانوا على دراية تامة من أنه إذا ما تنامى إلى علمهم عزم البيّازين على القيام بالثورة، فسوف يثورون جميعًا على أثرها.

كان هذا هو النهج الذى سلكوه لتنفيذ مسعاهم الخبيث: يتم تسجيل ثمانية آلاف رجل فى قرى الغوطة وبقاع وادى ليكرين وأورخيبا، ممن يمكن الإسرار إليهم بما ينتوون، ويمسى هؤلاء على أهبة الاستعداد، وعندما يشاهدون الإشارة التى ستصلهم من البيّازين، يزحفون إلى المدينة من ناحية الغوطة، يعتمرون على رؤوسهم قلنسوات وخُمُر تركية، حتى يبدوا كأنهم أتراك أو مغاربة جاءوا لإغاثة المدينة. ورغبةً فى إعداد السجل بأكبر قدر من السرية، شرع اثنان من رجالهم فى التنقل بين القرى والمواقع، بحجة بيع البرازع ودبغها، وراحوا يتنقلون من قرية إلى أخرى يستعلمون عن الأشخاص الذين يمكن التوصل إليهم، وعقب تدوين أسمائهم يكلفونهم بالحفاظ على سرية الأمر. أما البقاع الجبلية فسيجمعون منها ألفى رجل فى أحد الأماكن التى تكثر فيها زراعة القصب، وذلك على مقربة من ثينيس Cenes على ضفاف نهر شنيل، على أن يهرع هؤلاء صوب حصن الحمراء يصحبهم الثائر الجبلى الشهير بارتال دى ناريلا el Partal de Narila، وناقوس دى نيغويليس Nacoz de Nigüeles، وآخرون تم الاتفاق معهم، لكى يتسلقوا أسوار الحصن ليلاً من الجهة المقابلة لجنة العريف. من أجل ذلك كُلِفَ موريسكى بنّاء، كان قد عمل فى تشييد القصر الملكى، يدعى المعلم فرانثيسكو بن أديم Francisco Abenedem، بإفادتهم حول ارتفاع الأسوار والأبراج، ليتم عمل السلالم بالعلو المناسب؛ وقد صُنِعَ سبعة عشر سلمًا فى سرية شديدة فى

غيخار وكينتار. وقد شاهدناهم[1] لاحقًا في غرناطة، وكان قد تم إعدادها بواسطة حبالٍ غليظةٍ من الحَلْفاء مجدولة حول بعض العصى، ودرجات السلم عريضة للغاية بحيث تتسع لثلاثة رجال دفعةً واحدةً. أما غلمان البيّازين وجنودها فيحضرون فيما بعد في صحبة قادتهم على النحو التالي:

يقود ميغيل عزيز Miguel Acis أهالى دوائر القديس غريغوريو والقديس كريستوبال والقديس نيكولاس، متجهًا إلى باب فحص اللوز الكائن بأعلى نقاط البيّازين من الناحية الشمالية، يرفع لواءً من الحرير القرمزى مرسوما عليه أقمارٌ فضيةٌ وحليات ذهبية اللون، كان قد صنعها في منزله واحتفظ بها لذلك الغرض. أما الشاب دييغو النغيلى Diego el Nigueli فيقصد ميدان باب البنود على رأس أهالى دوائر القديس سلبادور والقديسة إيسابيل دى لوس أباديس والقديس لويس، شاهرًا رايةً صفراء من حرير التفتاه. ويتوجه ميغيل موثاغاث Miguel Mozagaz إلى باب وادى آش رافعًا رايةً حريريةً ذات لون فيروزى، بصحبة أهالى دوائر القديس ميغيل والقديس خوان دى لوس رييس والقديس بدرو والقديس بابلو.

وكان أول ما يتعين عليهم فعله هو قتل مسيحيى البيّازين المقيمين بينهم، ثم المبادرة بالهجوم على المدينة من ثلاث جهات، والإغارة على حصن الحمراء في آنٍ واحد، وذلك بعد أن يُبْقِى كل منهم جزءًا من قوام كتيبته لحراسة الأماكن المذكورة آنفًا. حيث تهبط القوات المتمركزة في فحص اللوز عبر الطريق الذى يسير خارج السور ليصل إلى المشفى الملكى، فيستولون على باب البيرة، ثم يدخلون من الشارع الأمامى فيقتلون كل من يخرج لدق ناقوس الإنذار. عندما يصلون إلى المنازل ومبنى السجن التابع لمحكمة التفتيش، يطلقون سراح المسلمين الأسرى حتى يلحقوا بالمسيحيين أقصى ضرر يستطيعون تحقيقه. أما القوات المتمركزة في ميدان باب البنود، فتنزل

(١) مارمول شاهد عيان في بعض الأحيان. (المراجع).

عبر شوارع القصبة متوجهةً إلى شارع الغلاّيات، ومنها إلى سجن المدينة لتحطيمه وتحرير الموريسكيين، ثم يقصدون منزل رئيس الأساقفة فى محاولةٍ لاعتقاله أو قتله. بينما تسلك القوات الكائنة بباب وادى آش شارع نهر حدرّة لتُغير على مقار المحكمة الملكية الكائنة أسفل الطريق، ويحاولون قتل الرئيس أو إلقاء القبض عليه، وإطلاق سراح الموريسكيين المحتجزين فى سجن المحكمة الملكية. ثم يتوجهون لتجميع القوات كلها فى ميدان باب الرملة، الذى سيفد إليه أيضًا ثمانية آلاف رجل قادمين من الغوطة ووادى ليكرين؛ ومن هناك يذهبون إلى حيث تدعوهم الحاجة، فيضرمون النيران فى المدينة، ويعملون فيها القتل. وعندما يمسون جميعًا على أهبة الاستعداد، يبعثون الإشارة إلى البشرات، لكى ينفذ أتباعهم هناك المخطط التى تم وضعه.

كانت تلك هى الخطة التى رسمها كل من فرج بن فرج والثغرى Tagari ومُفَرِّج Mofarrix والعطّار وسالاس Salas وأعوانهم، كما أظهرت الاعترافات التى أدلى بها نفر ممن أُلقى القبض عليهم – وتم عرضها علينا[٢] لاحقًا فى غرناطة – وآخرون كانوا موجودين آنذاك. كانت العواقب ستصبح وخيمةً على أهالى المدينة من المسيحيين لو دخل مخطط المسلمين حيز التنفيذ، بيد أن العناية الإلهية حالت دون ذلك. فعندما قيّد صانعو السروج أسماء الثمانية ألف رجل ولم يكونوا قد وصلوا إلى لانخارون؛ وكان بقية المقاتلين متنبهين وعلى أهبة الاستعداد للانقضاض على الأماكن التى حُدِدت لهم؛ تعجّل الثوار الجبليون، فقتلوا بعض المسيحيين الذين كانوا يسيرون ما بين أوخيخار دى ألباثيتى وغرناطة، وصرعوا آخرين كانوا مارين بالطريق من غرناطة إلى أدرا وخربوا بضاعتهم. وحتى يتبين لنا كم كانوا محتاطين ومتأهبين لإشعال الثورة، نعرض هنا خطابين مترجمين من اللغة العربية، كانا ضمن ما كتب ابن فرج وداود حول ذلك الشأن إلى موريسكيى القرى الموافقة لهم فى الرأى، وإلى قادة الثوار الجبليين.

(٢) مرة أخرى يبدو مارمول كشاهد عيان. (المراجع).

رسالة فرج بن فرج إلى القرى والمدن فى شأن الثورة

"بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل وسلم على رسولنا محمد، وارض اللهم عن آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان. أما بعد، يا أيها الإخوة، والأصدقاء، والشيوخ، والكهول، والزعماء، والقضاة، وغيرهم من إخواننا، وسائر المسلمين، ها قد علمتم من التكهنات والنبوءات الخاصة بنا ما وعدنا الله، لقد حانت ساعة الفتح، وإعلاء كلمة التوحيد فى أجواء حرة، والقضاء على عبادة آلهة متعددة. أجمعوا كلمتكم ووحدوا صفكم وراء كل ما يخبركم به وينقله لكم من قبلنا نائبنا محمد بن مسعود Mahomad Aben Mozud، الذى خولناه الاضطلاع بتلك المهمة. اعلموا أن ما يقوله لكم منقول عن ألسنتنا، حتى تصبحوا جميعًا – بحول الله وقوته – مستعدين ومتأهبين للقدوم إلى غرناطة لتذيقوا هؤلاء الكفرة مرارة يومهم الموعود. من لم يحتط للأمر بعد، فعليكم تنبيهه، ومن يجهل تلك المسألة، أعلموه بها، حتى يتأهب الجميع من خاوريًا Jauría وغاتوثين Gatucin حتى كانخايار فى شرق الأندلس Canjáyar de la Jarquía. سلام الله عليكم – عبد الله المتعال: فرج بن فرج".

رسالة داود إلى بعض قادة الثوار الجبليين

"بسم الله الرحمن الرحيم. أرجو دوام الصحة وتمام العافية لمن شرفه الله، ومنّ عليه من خيره وفضله، سيدى قاسم بن سودة Cacim Abenzuda ورفاقه، وسيدى الزيد el Zeyd، وأدعو الله أن يكون أصدقاؤنا جميعًا بخير حال. هذا صديقكم الذى يمتدح فضلكم، وجل ما يتمنى هو رؤيتكم، ويبتهل إلى الله أن يحسن عاقبة أموركم، أخوكم فى الله محمد بن محمد بن داود. أطمئنكم يا إخوانى أنى – بحمد الله – بخير وعافية، وأنا أضعكم دائمًا نصب عينى. يعلم الله أنى أُقدّر ما تقومون به، وأنا أحمل لكم البشارة بالفوز والخلاص. فلنرفع إلى الله أكف الضراعة حتى يظللنا بستره فيما بقى لنا. وأنا أخبركم يا إخوانى أن الغرناطيين قد أرسلوا فى طلبى بعد أن

رحلت من عندكم، ولم يكونوا يعرفون مكانى، وقد تنامى هذا الخبر إلى علمى عندما وصلت إلى روبيتى Rubite، بيد أنى لم أطلع على مصدر الرسالة، حتى قدوم الرسول مستعلمًا عن نفر من أهالى لانخارون، فأخبرنى عندها أن أهلنا فى غرناطة يسعون لإحياء ما كانوا عازمين عليه لتنفيذه فى شهر إبريل. فلمّا أدركنى الخبر، تحدثت إلى سيدى حامد، الذى نصحنى بالصعود إلى غرناطة، والتأكد من صحة الخبر، ومعاودة إبلاغه بالأمر. وقد صعدت إلى البيّازين، فألفيتها تموج بالقلاقل، والقوم عاقدون العزم على المضى قدمًا لتنفيذ الأمر.

حينئذ اجتمعت ورءوس الأمر المدبرة، فأمرونى أن أرسل إلى رجالنا فى الجبال وأطلعهم على الخبر، حتى ينشروه فيما بينهم، ويجمعوا أمرهم، حتى نتشاور سويًا حول ما يتعين علينا القيام به. بعد أن اتفقنا على ذلك، بعثنا إلى أتباعنا فى القرى لنعلمهم بذاك النبأ، فأجابونا جميعًا: نحن نود القيام بذلك الأمر اليوم قبل الغد، وما من شىء أعز عندنا منه سوى الشهادة، وهى أهون علينا من البلاء الذى نلاقيه؛ وقد وافقهم فى الرأى أهالى البقاع الغربية Garbía والشرقية حيث قالوا: سوف تجدونا هنا على أهبة الاستعداد للجود بأرواحنا وممتلكاتنا. وعندما قصصت ذلك على الغرناطيين، اتفقوا على أن يبعثوا رسلهم إلى سائر أنحاء المملكة لينبهوا الناس، لكى يتهيأوا للأمر، ويمعنوا فى إعداد العدة.

من أجل ذلك جمعنا كلمتنا على أن نرسل إلى الثوار الجبليين، أينما كانوا، ليجمعوا قواتهم ويخطر بعضهم بعضًا حول اليوم الذى يتم تحديده. الجميع صغارًا وكبارًا فى انتظار ذلك اليوم، ، وهو أمر لابد لنا من القيام به يا أصدقاءنا لتحقيق العدالة الإلهية. عندما تتسلمون كتابى هذا تهيئوا للقيام بدوركم كشيمة الرجال؛ لأن الدفاع عن أبنائكم وإخوانكم، ورفع نير العبودية عن كاهل مملكتنا، والظفر بالعدو، والاستشهاد فى سبيل الله، خيرٌ لكم من الانتقال إلى بلاد المغرب، والتخلى عن حماية إخوانكم المسلمين؛ لأن من يفعل ذلك منكم ثم يدركه الموت، يموت دون مثوبة؛ ومن يحيا منكم ويقتل رجلاً من المسلمين سوف يُسْأَل ويُحَاسب بين يدى الله يوم القيامة؛ أما من

توافيه المنية وهو يحارب الكفرة، فيموت شهيداً، ومن يعش، يعيش كريماً؛ وأسباب ذلك يمكن الإسهاب في الحديث عنها، لذلك فسوف نوجز في عرض هذا السبب. فنحن يا إخوتنا لا نخبركم سوى بالحقيقة، لذا فعليكم أن تعدوا العدة، وترسلوا إلى قائدنا حامد لتخبروه بتأهبكم، وهو سينبهكم إلى ما يتعين عليكم القيام به؛ لأننا بعثنا إليه رجلاً ليعلمه بالأمر، ولا نعرف ما حدث بعدها. أرسلوا إلى أهلكم لتعلموهم بفحوى كتابنا أينما كانوا، ثم راسلونا بما حدث، ليصبح كل منا على دراية بما يحل بالآخر. وأستحلفكم بالله أن تكتموا السر ما استطعتم إلى ذلك سبيلا، حتى ينعم الله القدير علينا بالحرية، وهي قريبة إذا سلكنا النهج الذي وضعه الله لنا للوصول إليها. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. كُتِبَت في الخامس والعشرين من أكتوبر. أما التوقيع فنصه: عبد الله، محمد بن محمد بن داود".

الفصل الثانى

كيف اتخذت احتياطات جديدة فى غرناطة بعد إثارة الشكوك حول القيام بالثورة

شرع الموريسكيون فى القيام بكل تلك الأمور فى أجواءٍ من السرية، نجم عنها خلق مناخ من الشكوك والريبة الشديدة فى غرناطة والمملكة بأسرها. فلاحظ الأهالى كيف تتزايد جرأة الثوار الجبليين يومًا تلو الآخر، ومدى ازدرائهم واستهانتهم برجال الشرطة. أما غلمان الموريسكيين الذين لم يتسع صدرهم لكتمان ما يتم إبرامه، فقد أعلنوا أنه قبل أن تدخل بنود المرسوم حيز التنفيذ سوف يتم خلق عالم جديد. كانت المدينة عامرةً بالموريسكيين الغرباء، الذين قدموا إلى المدينة من شتى أنحاء المملكة للاستعلام عن سير الأمور وموعد القيام بالثورة، بحجة ببيع بضاعتهم من الحرير، وشراء تنوراتٍ ومشالحٍ لنسوتهم. كان ماركيز مونديخار قد وردت إليه تحذيرات حول ما يثيره أولئك من قلاقل، حيث أذاعوا بين العامة أن ستة آلاف رجل من الأتراك سيفدون إلى البيّازين عشية عيد الميلاد لقلب نظام الحكم فيها. على الرغم من أن تلك الأمور تبدو وكأنها لا تستحق أن يوليها أحد قدرًا كبيرًا من الاهتمام، فإن احتمال حدوثها واردٌ. وقد فُهِمَ لاحقًا أن أولئك الغرباء قد نشروا ذلك الخبر لكى يظن الجميع، وقت قدوم الرجال الذين تم إحصائهم فى الوادى والغوطة، وقوامهم ثمانية آلاف، أنهم أتراك؛ وهكذا لا يبقى فى المملكة موريسكى واحد لا يشارك فى الثورة.

بيد أن كل تلك المظاهر لم تُفلح فى إقناع مستشارى جلالة الملك بوجود ثورة شعبية، بل كانوا يظنون أن نفرًا من الخارجين ينشرون الفوضى ويثيرون الاضطرابات والقلاقل فى المدينة، وإنه لا يمكنهم أن يمكثوا لفترةٍ طويلة، فليسوا جميعًا ضمن

المشاركين فى المؤامرة. أما الأثرياء الذين يعيشون فى رخاء، فقد سرتهم أجواء الاضطراب التى أشاعها الأهالى، حيث كانوا يعتقدون أن الشكوك التى ثارت حول قيام الثورة تكفي وحدها لحمل رجال المجلس على إقناع جلالة الملك بإصدار قرار يوقف تنفيذ المرسوم(٣) بيد أنهم لم يشاءوا أن يحسب أحد أنهم مديرو الأمر. من جهة أخرى شرع من طالهم ظلم رجال الشرطة والمقاتلين، جنبًا إلى جنب مع الفقراء ومثيرى الشغب والقلاقل - ممن يرغبون فى الثأر والإثراء من ممتلكات الغير - فى إشعال الأصوات المنادية بالحرية، وإذكاء نار الفتنة. وقد انتابت بعض مدبرى الثورة مشاعر الندم فى الحال، عندما تبصروا وأعادوا النظر فى الدوافع الواهية التى يستندون إليها، فقاموا بتنبيه القساوسة إلى الأمر، بيد أنهم سلكوا طرقًا غير مباشرة، شابتها مشاعر الخبث وسوء النية. كان المعلم فرانثيسكو بن أديم - الذى أسلفنا ذكره - واحدًا من أولئك النادمين، حيث توجه إلى الأب ألبوتودو Albotodo يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من ديسمبر، وأخبره - وكأنه فى إحدى جلسات الاعتراف - أنه فهم من حديث بعض الموريسكيين الذين كانوا يعبرون الطريق أمام باب داره أن هناك من يرغب فى إثارة القلاقل فى المملكة عشية عيد الميلاد على خلفية المرسوم؛ ولكنه لم يفصح له عن أى شىء آخر على وجه التحديد. لمّا تلقى ألبوتودو ذلك التحذير، انطلق بعدها إلى المعلّم بلاثا Plaza، وهو رئيس الدير الذى يتبعه، ليروى له ما قصه الموريسكى على مسامعه، ثم ذهب الاثنان سويًا إلى الأسقف، وحصلوا على موافقة منه لإبلاغ كل من رئيس المحكمة وماركيز مونديخار والمأمور القضائى بالأمر. ولم يشأ

(٣) كان النبلاء الإسبان يرغبون فى بقاء الموريسكيين يزرعون لهم أراضيهم الشاسعة ويتقاضون أجورًا زهيدةً، وكانوا - فى سبيل ذلك - على استعداد للتغاضى عن ممارسة الموريسكيين لشعائرهم الإسلامية، لدرجة أن أحدهم شيّد مسجدًا يصلى فيه أتباعه من الموريسكيين. انظر "الموريسكيون الأندلسيون" تأليف مرثيديس غارثيا أرينال، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. (المراجع)

هؤلاء إذاعة الخبر، لكى لا تنتشر أعمال الشغب فى أرجاء المدينة، واكتفوا بتعزيز القوات، ومضاعفة دوريات الحراسة، حرصًا على سلامة كل من المسيحيين والموريسكيين. أما ماركيز مونديخار فقد أمعن فى تأمين حصن الحمراء، بينما أخذ المأمور القضائى يجوب شوارع وميادين البيّازين والقصبة تلك الليلة والليلة التى تلتها، يرافقه عدد غفير من الرجال المسلحين.

الفصل الثالث

كيف شرع قادة الثوار الجبليين فى إشعال فتيل الثورة فى البشرات بهدف الإجهاز على بعض المسيحيين فى كلٍ من بوكيّرة وكاديار

فى أعقاب استنفار فرج بن فرج لسائر أصدقائه ومعارفه فى قرى الموريسكيين، عن طريق الرسائل والاستعانة بأشخاصٍ قادرين على الحفاظ على سرية الأمر، ومع اقتراب اليوم المحدد لاندلاع الثورة، أرسل فرج إلى بارتال دى ناريلا يطلب منه جمع كتائب الثوار الجبليين، وإحضارها إلى طاعات بوكيّرة وفيريّرا وأورخيبا، حتى تبدأ تلك القرى فى الثورة عندما تدرك أن قوات الوادى والغوطة متجهة إلى غرناطة. فى أعقاب ذلك يجتازون جبل شلير، ويدلفون إلى المدينة لتدعيم أهلها. كان البارتال هذا أسيراً من قبل فى سجن تابع لمحاكم التفتيش، حيث صدر إليه الأمر بعدم مغادرة غرناطة. طلب البارتال - بحجة قضاء بعض الأمور - رخصة من أعضاء محكمة التفتيش، للتوجه إلى البشرات لبيع ممتلكاته هناك. وقد أتاحت له تلك المسألة العبور إلى بلاد المغرب، ثم عاد إلى تلك الأرجاء مرةً أخرى ليذكى نار الثورة، حيث عرض على الموريسكيين أن يجلب إمدادات ومعونات هائلة من إفريقيا، حتى يزيد من قوة أولئك الخونة ويبالغ فيها. وقد اختبأ فى منزله لعدة أيامٍ فى أثناء إبرامه تلك الخطة، بيد أنه لم تتح له مشاهدة بداية مخططه الآثم؛ لأن شرارة الثورة اندلعت قبل أوانها المحدد، كما سنعرض فى السياق التالى.

جرت العادة أن يقوم قضاة وكتبة محكمة أوغيخار دى ألباثيتى فى كل عامٍ بالذهاب لقضاء أعياد الميلاد والعطلات مع نسائهم، حيث كان أغلبهم متزوجين

ومقيمين فى غرناطة. وكانوا دائمًا ما يحملون فى طريقهم دجاجًا وأفراخًا وعسلاً وفاكهةً ونقودًا من القرى التى يعبرون بها، حيث يستغلون الموريسكيين قدر استطاعتهم[٤] وقد انطلق كل من خوان دوارتى Juan Duarte وبدرو دى ميدينا Pedro de Medina وخمسة آخرين من الكتبة والحجاب برفقة دليل موريسكى يوم الثلاثاء الموافق الثانى والعشرين من ديسمبر، وشرعوا يجوبون القرى ويثيرون فيها القلاقل فى حريةٍ تامةٍ كما جرت العادة عندما تكون الأجواء هادئة ومواتية. فهرع نفر من الموريسكيين - ممن تمت مصادرة دوابهم - إلى الثوار الجبليين؛ لأنهم اعتقدوا أن الثورة التى يخططون للقيام بها ستحمل الكتبة على عدم الاستيلاء على أشيائهم بعد الآن؛ وتضرعوا إلى كل من البارتال والسينيث دى بيرتشول el Seniz de Bérchul حتى يخرجا، على رأس مجموعتين من المقاتلين، لملاقاة هؤلاء لاستعادة الدواب منهم، فلم يتوانيا عن الاستجابة لمطالبهم، وعندما وصل المسيحيون فى مساء يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من الشهر المذكور إلى كرمة تقع على حدود بوكيرا، خرج أولئك لقطع طريقهم وحصد أرواحهم فى آنٍ واحد، دون أن يفطنوا إلى مدى الضرر الذى يمكن لذلك الشأن أن يلحقه بخطتهم. فأجهزوا على ستة منهم، وفر كل من بدرو دى ميدينا والموريسكى، حيث توجها لدق ناقوس الإنذار فى ألباثيتى دى أورخيبا Albacete de Órgiba . علاوةً على ذلك، فقد صادفهم فى الطريق خمسة جنود من موتريل، كانوا قد حضروا أيضًا ليحملوا معهم قدرًا من الهدايا بمناسبة أعياد الميلاد، فقتلوهم واستولوا على جيادهم.

فى اليوم ذاته دلف إلى المدينة كل من فيريّرا دييغو دى إيريرا Ferreira Diego de Herrera - قائد قوات حصن أدرا - وخوان أورتادو دوكامبو Juan Hurtado Docam-po - صهره - وهو واحد من أهالى غرناطة وفارس فى رهبانية سانتياغو، على رأس

(٤) هذه إحدى المرات النادرة التى يوجه فيها مارمول نقدًا للسلطات الكنسية، على عكس أورتادو دى مندوثا. (المراجع).

خمسين جنديًا وشحنة من البنادق إلى ذاك المعقل؛ فلمّا شرع أولئك فى إحداث القلاقل والاضطرابات عينها التى تسبب فيها الكتبة وحملة الدروع، أُعْلِم الثوار بالأمر، فعزموا على القضاء عليهم كما فعلوا بالآخرين، حيث تراءى لهم أنه لا ضير من استعجال الأمور، فهم جميعًا يعلمون بالمخطط وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذه.

بعدما أجمع الثوار كلمتهم توجهوا إلى موقعى سوبورتوخار Soportújar وكانيار Cañar الكائنين فى أورخيبا. فحشدوا أكبر قدر استطاعوا تجميعه من الأفراد، واقتفوا خطى القائد إيريرا؛ وقد أبلغوا السيد إيرناندو الصغير بعزمهم؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه لا بد لهم من قضاء الليلة التالية فى كاديار. حينئذ أصدر إليهم السيد إيرناندو الأمر حول كيفية الإجهاز عليهم: يحمل كل واحد من أهالى المكان أحد الجنود ليحل ضيفًا على منزله، وعندما ينتصف الليل يدلف الثوار الجبليون إلى المنازل، التى يكون المضيفون قد فتحوها على مصراعيها، ليعملوا القتل فى الجنود فردًا فردا. لم يلذ بالفرار سوى ثلاثة جنود فقط قصدوا طريق العودة إلى أدرا؛ كما قتلوا ماريبلانكا Mariblanca خادمة الكاهن خوان دى ريبيرا Juan de Ribera، وآخرين غيرها من أهل البلدة.

فلمّا أتموا ذلك، تسلح أهالى كاديار بالأسلحة التى استولوا عليها من الضحايا، وأرسلوا النساء والمنقولات والأنعام برفقة الشيوخ إلى خوبيليس، بينما قفل الغلمان عائدين إلى أوخيخار دى ألباثيتى فى صحبة الثوار الجبليين؛ أما السيد إيرناندو الصغير والبارتال فانطلقا يجوبان المناطق المتاخمة لحشد المقاتلين، ثم قاموا بجمع صفوفهم كلها فى أوخيخار فى يوم أخر، وسوف نكتفى الآن بسرد هذا القدر حتى يحين الوقت لنعاود رواية الوقائع؛ لأنهم سيقترفون من الأحداث ما لا قبل لنا بنسيانه أو إغفاله، حتى إن أردنا ذلك. وإذا افتقد القارىء شيئًا من الأمور التى يعرفها أو يود معرفتها، فعليه التحلى بالصبر؛ لأنه سيجد بغيته لاحقًا فى سياق عرضنا للأحداث. حيث جرت أشياء كثيرة ومتنوعة فى العديد من المواقع، فأضحى من الضرورى التطرق إليها جميعًا.

الفصل الرابع

كيف وصلت أخبار جرائم القتل التى اقترفها الثوار الجبليون إلى غرناطة، ورغبة ابن فرج فى اشعال فتيل الثورة فى البيّازين

تميزت احتفالات أعياد ميلاد مخلصنا المسيح فى غرناطة، والتى أقيمت فى مساء يوم الجمعة، بالمهابة والجلال الذى طالما اتسمت به تلك الاحتفالات فى تلك المدينة الشهيرة، وإن شابها قدر من التحفظ، نظرًا لوجود العديد من الرجال المدججين بالأسلحة يجوبون الشوارع. فى صبيحة يوم السبت وفد إلى المدينة رجلان قادمان من أورخيبا برسالتين، واحدة من المأمور غاسبار دى سارابيا Gaspar de Sarabia، والأخرى من إيرناندو دى تابيا Hernando de Tapia، قائد فرقة المقاتلين التى تقتفى آثار الثوار الجبليين اللاجئين إلى برج ألباثيتى، وسوف يرد ذكر هذا الأمر لاحقًا. كانت الرسالة الأولى موجهة إلى سيادة الرئيس، بينما كانت الثانية موجهة إلى السيد غابريل دى كوردويا Gabriel de Córdoba – عم دوق سيسا – وكانت هذه هى مدينته. كان مضمون الرسالتين هو تنبيه كلا الرجلين إلى عمليات القتل التى ارتكبها الموريسكيون، وكيفية اشعالهم للثورة فى أعقاب ذلك، ومحاصرتهم للمسيحيين فى البرج، حتى يرفعا الأمر إلى ماركيز مونديخار ويطالباه بإنقاذهم.

وقد تسلّم السيد غابريل دى كوردويا كلا الرسالتين، ومن ثم حملهما إلى الرئيس، وبعدها إلى ماركيز مونديخار، الذى ظن أن بعض مسلمى شمال إفريقيا قد رسوا على الساحل، وانضموا إلى صفوف الثوار الجبليين ليحتلوا سويًا إحدى البقاع، وهو أمر كان قد حدث من قبل عدة مرات، فاكتفى الماركيز بتحذير سلاح الفرسان، ليكونوا

مطلعين على الأمر إذا ما لزم تدخلهم للقيام بعمليات إغاثة. وسرعان ما فتر تأثير الإنذار الأول، حيث لم يُتْبَع بآخر، وكذلك فقد أهمل مرصد المدينة القيام بدوره. فلمّا كان الجميع قد أنهكته دوريات الحراسة التى اضطلع بها من قبل، وكانت تلك الليلة قد شهدت هبوب عاصفة قارصة البرودة تساقطت فيها الثلوج بغزارة، فلم يعد هناك من يتوجه إلى منزل المأمور القضائى ليصحبه فى جولات الحراسة؛ وإذا كان بعض الفرسان قد ذهب إلى هناك، فقد تأخر وصولهم للغاية وكان عددهم قليلاً إلى الحد الذى توجب معه التخلى عن نوبة الحراسة، فى الوقت الذى كانت المدينة فى أمس الحاجة إليها.

كان موريسكيو البيّازين قد وردت إليهم أنباءً أكثر تأكيداً حول الوقائع التى دارت فى البشرات، فانتاب الجميع القلق، وقد سُرَّ البعض لأن أهل البشرات قد أشعلوا الثورة ووضعوا رؤوسهم على المحك عوضاً عنهم؛ وكان هناك آخرون، ممن يرغبون فى اندلاع ثورة عامة، قد ساءهم رؤية الثوار الجبليين وقد تسرعوا وانقادوا وراء رغبتهم فى قتل ذلك العدد الضئيل من المسيحيين، ولم يتكبدوا عناء الانتظار حتى تطلق البيّازين شرارة الثورة على النحو المتفق عليه. وعندما أدرك فرج بن فرج، وكان يرقب الأمور عن كثب، أن المدينة وحصن الحمراء آخذان فى التنبه والتهيؤ ساعةً تلو الأخرى، اصطحب معه مساء يوم السبت الموافق أول أيام عيد الميلاد كلاً من ناقوس دى نيغويليس وسينيث دى بيرتشول -قائدا الثوار الجبليين- وتوجه برفقتهما على وجه السرعة إلى غويخار وبينوس وثينيس وكينتار ودودار، حيث حشد ما يقرب من مائة وثمانين رجلاً ضالاً من الثوار الجبليين الأوائل، ممن تمكنوا من عبور الجبل صباح يوم الجمعة؛ لأن المقاتلين الآخرين لم يتسن لهم المجيىء؛ وحتى أهالى تلك الأنحاء لم يلبوا نداءهم، حيث أخبروهم أن أهل البيّازين قد أرسلوا إليهم صبيحة ذاك اليوم من ينبههم ألا يحدثوا أمرًا حتى يبعثوا إليهم بخبر.

أراد فرج أن يستعين بأولئك الأشخاص ليشرع فى قتل المسيحيين. فى كينتار قام موريسكيو البلدة أنفسهم بإخفاء الكاهن القانونى. أما الكاهن القانونى لدودار فقد

تصدى لفرج فى برج الكنيسة؛ على الرغم من أن فرجًا أضرم النيران فى البرج، فلم يحقق أى شىء يذكر. من هناك - من دودار - رجع إلى غرناطة يملأه التصميم على إشعال الثورة فيها؛ فنزل إلى بعض المطاحن الكائنة على ضفاف نهر حدرّة، واستولى على ما كان فيها من معاول ومعدات، وعندما وصل إلى سور المدينة القائم أعلى باب وادى آش، حطم حاجزًا من الطين اليابس كان يسد بابًا صغيرًا، وترك عنده خمسًا وعشرين رجلاً، ثم دلف مع البقية الباقية إلى المدينة من أعلى الحى الذى يطلق عليه الرباض البيضاء Rabad Albaida عند انتصاف الليل بالضبط، ودخل إلى منزله المتاخم لكنيسة القديسة إيسابيل دى لوس أباديس؛ وكان فى أثناء دخوله عبر الباب الصغير قد أمر كل رفقائه بتنحية البرانيط والقبعات التى تغطى رؤوسهم، ليعتمروا بدلاً منها قلنسوات ملونة ذات طابع تركى تكسوها خمر صغيرة بيضاء، حتى يبدوا كأنهم أتراك.

فى أعقاب ذلك أرسل فى طلب نفر من الرءوس المدبرة للثورة، وأخبرهم أن الثورة قد اندلعت بالفعل فى البشرات، وعليه فقد بات مواتيًا أن يحذو أهالى البيّازين حذوهم قبل أن يتسنى للمسيحيين إدخال أعداد أكبر من المقاتلين إلى المدينة؛ كما أن الثمانية آلاف رجل القادمين من الوادى والغوطة وقادة قوات أهالى الدوائر لا ينقصهم الكثير للتهيؤ للأمر، وعندما يشعرون باندلاع الثورة سوف يهرعون للقيام بأدوارهم -وإن كان ذلك قبل الأوان المحدد - وسوف يسلك أهالى المناطق الجبلية النهج نفسهُ، ويضحى بالإمكان الحصول على النتيجة المرجوة فى حصن الحمراء. أما مدبروا الخطة، الذين لم يرق لهم هذا القدر من العزم والتصميم غير المتأنى، فقد أجابوه بأن الرأى الذى أبداه ليس سديدًا، وأن قدومه مع ثمانية آلاف رجل لا يفيد؛ فهم لن يبيدوا أنفسهم أو يهلكوا من أجله، ولن يتسنى لهم إيواءه، لأنه حضر قبل موعده ولم يرافقه سوى نفر قليلين. وهكذا تركوه وغادروا المكان متوجهين إلى منازلهم وأغلقوا أبوابها عليهم؛ وكان سرورهم بما قام به فرج لا يقل عن سعادتهم بما أقدم عليه أهالى البشرات، ظنًّا منهم أن كلا الأمرين سيسفران عن إصدار قرارٍ جديدٍ فى شأن المرسوم سعيًا وراء إحلال السلام، دون أن يغامروا هم بأرواحهم أو يخاطروا بممتلكاتهم.

شعر فرج ببالغ الأسى للطريقة التى أجابه بها أهالى البيّازين، وشرع يبث شكواه منهم قائلاً: " كيف تدفعوننى للتخلى عن دارى وأسرتى وأملاكى والالتجاء إلى الجبال مع جماعة من الهالكين لا لشىء سوى تحريرالأمة، والآن عندما تشهدون شرارة الانطلاق، أنتم يا من كان حريًا بكم أن تدعمونا وتساعدونا أكثر من أى شخص، تنفضون أيديكم من الأمر، وكأن هناك طرقًا أخرى لمعالجة هذا الشأن، أو أن هناك أملاً فى أن تُغْفَر لنا خطايانا وما اقترفناه! كان لزامًا عليكم أن تنبهونا إلى ذلك من قبل. لمّا كان الحال هكذا، فإما أن أشعل نيران الثورة فى البيّازين، أو يهلك كل من فيها".

عقب إطلاق تلك التهديدات، غادر فرج منزله قبيل طلوع الصباح بساعتين، على رأس مرافقيه الذين قسمهم إلى قسمين، وسلك شارع رياض البيضاء إلى أعلاه، ثم توجه ناحية اليمين صوب الميدان المواجه لباب القديس سلبادور، حيث تم تنبيهه إلى وجود ستة أو سبعة جنود يقومون بالحراسة؛ عندما وصل الجمع إلى مدخل الشارع تراءى للثوار الجبليين الذين يشغلون مقدمة الصفوف عدم الكشف عن وجودهم حتى يصل الجميع،حيث أبصروا أحد الجنود يتجول فى الميدان. كان ذاك الجندى يتولى الحراسة، وعندما استشعر الضجيج الذى أحدثه الرجال فى أثناء صعودهم أعلى الطريق، ود التظاهر بالشجاعة ظنًا منه أن المأمور القضائى يقوم بإحدى نوبات الحراسة، فوضع يده على سيفه وتوجه صوب الثوار الجبليين وهو ينادى: "من هناك؟" فأجابه هؤلاء بأقواسهم المهيأة بالسهام، وجرحوه فى الفخذ، فلاذ بالفرار وهو يشهر سلاحه، وعاد أدراجه إلى حيث زملائه، وكانوا نائمين إلى جوار نار كانوا قد أشعلوها بجانب حائط الكنيسة؛ لأن البرد كان قارسًا، لهذا لم يكونوا متأهبين للاستيقاظ والتهيؤ على النحو المفروض، مما أتاح للثوار الجبليين القضاء على أحدهم وجرح اثنين آخرين. فى نهاية الأمر تمكن المصابون والمعافون جميعا من الهرب، وأخذ الأعداء فى ملاحقتهم عبر الأزقة الضيقة، حتى انتهى بهم الطريق إلى ميدان باب البنود، فوصلوا إلى عدد من المنازل الكبيرة التى يقطنها الآباء اليسوعيون، حيث نادى الثوار على الأب

ألبوتودو باسمه المجرد وسبوه ناعتين إياه بالكلب المرتد، فهو ابن لأبوين مسلمين أضحى فقيهاً للمسيحيين. عندما لم يتمكنوا من تحطيم الباب، الذى كان قويًا وموصداً بإحكام من الداخل، قاموا بإنزال صليب من الخشب كان معلقًا على الباب، وكسّروه إلى قطع صغيرة.

أما الكتيبة الأخرى التى كانت تتبعهم تحت قيادة ناقوس، فقد سلكت جهة اليمين عندما حضرت إلى الميدان، حتى وصلت إلى مدخل شارع يطلقون عليه الميدان الطويل، حيث حطموا أبواب صيدلية أحد المتعاونين مع محاكم التفتيش، ويدعى دييغو دى مدريد Diego de Madrid، لأنهم كانوا يحسبون أنه بالداخل، نظراً لاعتياده المبيت هناك كل ليلة. لمّا لم يعثروا عليه، نفثوا عن غضبهم بتهشيم القنينات والزجاجات، حتى أمسى كل شىء مفتتًا إلى قطع صغيرة. من هناك عبروا إلى باب صغير فى جدار القديس نيكولاس الكائن بجوار أقدم أبواب القصبة القديمة، فوق إحدى الربوات المرتفعة، التى يمكن للمرء من أعلاها كشف الجزء الأكبر من حى البيّازين، وشرعوا فى عزف الناى ودق الطبول الصغيرة التى كانت فى حوزتهم، بعد أن رفعوا رايتين وأضاءوا شمعة. ثم أخذ واحد منهم فى الصياح بصوت مرتفع بلغته العربية(٥) مردداً ما يلى: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله، على كل المسلمين الراغبين فى الثأر لما ألحقه المسيحيون من جور وضيم بأشخاصهم وشريعتهم، أن يحضروا للانضمام إلينا تحت هاتين الرايتين؛ لأن كلاً من ملك الجزائر والسلطان الشريف - أدام الله مجده - يدعموننا ويقفون وراءنا، وقد بعثا إلينا هؤلاء الرجال جميعًا، بالإضافة إلى الرجال الذين ينتظروننا بالأعلى. هيا،هيا! هلموا، أقبلوا! ها قد حانت ساعتنا، وسائر أراضى المسلمين تموج بالثورة". سمع ذلك النداء وفهمه الكثير من المسيحيين، بيد أنه لم يغادر أى موريسكى أو مسيحى داره، أو يهم أحد بفتح باب أو نافذة، على الرغم من أن رجلين كانا قد أخبرانا أنهما سمعا صوتًا صادراً من أحد الأسطح يجيب على النحو

(٥) نفهم من كتاب مارمول أن اللغة العربية لم تندثر بعد فترة قصيرة من سقوط غرناطة، بل استمرت حتى لحظة الطرد نفسها (المراجع).

التالي: "انطلقوا أيها الأخوة في رعاية الله، فإن عددكم قليل، وقد أتيتم في غير أوانكم"[٦].

عندئذ فطن فرج بن فرج أنه لا يوجد من ينصره ويؤيده، وأن أجراس كنيسة القديس سلبادور تقرع منذرةً بوجود خطر؛ لأن الكاهن القانوني ألونسو دي أوروثكو، الذي يسكن خلف خزانة الأشياء المقدسة بالكنيسة، استطاع أن ينفذ إلى داخل الكنيسة عبر بوابة مطمورة، وشرع في دق الناقوس؛ فحشد رفاقه جميعًا، وخرج سالكًا الطريق الذي يمر عبر المنازل حتى توقف عند أحد المرتفعات الموجودة على السفح، ويتسنى للمرء عن طريقها الصعود إلى برج الزيتون، وهنالك أمر بتكرار النداء على نفس النحو. عندما لم يلب أحد دعوته، أخذ يكيل السباب لأهالي البيّازين ويقول لهم: "أيها الكلاب، أيها الديوثون، أيها الجبناء، يا من خدعتم الناس ولم تفوا بما عاهدتم". ثم خرج عبر البوابة الصغيرة التي كان قد دلف عبرها إلى الداخل، وعاد أدراجه إلى ثينيس بعد أن بزغ ضوء الصباح، دون أن يعترض مسيرته خلال تلك الساعتين أي عائق على الإطلاق؛ وهو أمر يدفعنا للاعتقاد أن فرجًا لو كان قد أحضر معه المقاتلين أجمعين، ولو كان أهالي البيّازين لبوا نداءه، لكان من الممكن أن نشهد منظرًا رهيبًا يغص بالقتلى في المدينة في تلك الليلة. علاوةً على ذلك، لو كانت كتائب الثوار الجبليين القادمة من البشرات قد وصلت إلى الساحة، فعلينا تدبر ما كان يمكن أن يجري؛ ولكان هؤلاء قد هلكوا ولم يتسن لهم عبور الجبل لأنها كانت ليلة عاصفة هطلت فيها الثلوج؛ وقد مني بالمصير ذاته نفر من الغلمان لا ينتمون إلى الكتائب، لكنهم كانوا على درايةٍ بالأمر ومهيئين للمشاركة فيه، وكانوا قد أبلغوا فرجا أنهم سينضمون إليه عشية أعياد الميلاد.

(٦) يحاول مارمول أن يبدو كشاهد عيان، لكن المطالع للأدب الإسباني يعرف أن الجملة مجرد صياغة نثرية لبيت من قصيدة: جئت متأخرًا يا زايد، ورجالك قليلون" انظر كتاب "مسلمو مملكة غرناطة " تأليف خوليو كارو باروخا، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص. ١٨١، ويورد بيريث دي إيتا في كتاب "الحرب ضد الموريسكيين" النص الكامل للقصيدة.، ص. ٥٦ (المراجع)

الفصل الخامس

ما قام به المسيحيون عندما علموا بدخول الثوار الجبليين إلى البيّازين

ذكرنا آنفًا أن الجنود الذين كانوا قد هربوا من الثوار، توجهوا لإخبار بارتولومى دى سانتا ماريا بما يدور، وهو أحد الحجاب الذين قام سيادة الرئيس بتعيينهم. عندما نزل هؤلاء إلى المدينة، أخذوا يجوبون الشوارع وهم يصيحون ويطلقون الأعيرة النارية؛ بيد أن الأهالى أسرفوا فى التوانى وإغفال الأمر، حتى أن كثيرًا منهم لم يصدقوا أن تلك الأصوات صادرة من أسلحة حقيقية، حيث أطلوا من النوافذ ليطالبوهم بالتزام الصمت، ظنًا منهم أنهم ثملون دون شك. بينما خرج آخرون وهم منزعجون ويحملون فى أيديهم الأسلحة، فما كانوا يعلمون ما الذى يتعين عليهم فعله، أو إلى أين يلجأون.

إبان وصول هؤلاء إلى مقر المحكمة، حيث كان يتواجد الرئيس، قصوا عليه الوقائع التى حدثت، ولكنهم صاغوها بصورة مشوشة ومرتبكة؛ لأن الرجال لم يفعلوا أى شيء سوى الفرار؛ فأرسل الرئيس واحدًا منهم إلى ماركيز مونديخار، وبعث بآخر إلى المأمور القضائى. كما أصدر أوامره إلى الحاجب بأن يرجع إلى البيّازين، ويستعلم أكثر عن أصل ما حدث هناك. أما الجندى الذى توجه إلى ماركيز مونديخار، فقد مكث لبرهة عند بوابة الحمراء؛ لأن الحراس لم يشاءوا أن يفتحوا له الأبواب حتى يصدر إليهم الأمر بذلك من كونت تينديا، الذى كان آنذاك فى إحدى نوبات الحراسة. كان الكونت قد سمع بالفعل النداءات وأصوات الآلات الموسيقية المنبعثة من ناحية السور، وقد رغب فى تحرى الأمر بصورةٍ أفضل، فسأل الجندى ما بال تلك

الضوضاء؟، فقص الرجل على مسامعه ما كان، وأخبره أن الرئيس قد أرسله من أجل تحذير الماركيز. حينئذ اصطحبه الكونت إلى غرفة أبيه حتى ينبأه بما قصه عليه، لكن الماركيز لم يشأ تصديق كون الأمور على النحو الذى يرويه الجندى، وظن أن نفراً من الرجال الفاسدين هم من أحدثوا تلك القلاقل. عندما أكد له الحاجب أنهم كانوا مسلمين يعتمرون القبعات الخاصة بالمسلمين، كما أن ابنه الكونت ذاته قد أخبره أنه قد سمع النداءات والآلات الموسيقية، حينها تريث الماركيز لتدبر الأمر بروية أكثر، والتفكر فيما يتعين القيام به.

كان فى رفقته عندئذ مائة وخمسون جندياً فحسب، وكان هناك خمسون فرساً يمكن إخراجهم وتركهم فى الحصن. وقد تراءى له أن مغادرة الحصن تلك الليلة سيكون خطأً فادحاً، فهو لا يدرى كم عدد المسلمين الذين دلفوا إلى البيّازين، ويمكن أن يكونوا كثيرين؛ لأنه كانت هناك أعدادٌ كبيرةٌ من الموريسكيين فى البلدة. كان الماركيز يعتقد أن المدينة تضم عدداً ضئيلاً للغاية من الأشخاص النافعين والمسلحين جيداً بحيث يتسنى له الإفادة منهم والمبادرة بالهجوم على الشوارع والمنازل الضيقة، التى يسكنها عشرة آلاف رجل يمكنهم حمل السلاح. فى النهاية، حزم أمره وقرر عدم الخروج من الحصن؛ كما أنه لم يوافق على قرع ناقوس الإنذار؛ لأنه كان يبدو أن الضوضاء قد توقفت بالفعل فى البيّازين، والهدوء يعم كل الأجواء، فلم يشأ الماركيز أن تسنح الفرصة للمواطنين بالصعود إلى البيّازين لنهب ديار الموريسكيين. وقد كان متعقلاً للغاية فى ذلك القرار؛ لأن الجشع والحقد اللذين كانا يعتملان فى صدور الناس كانا كافيين لأن يضعوا الأمر قيد التنفيذ قبل أن ينقضى وقت طويل.

من جهةٍ أخرى، فإن المأمور القضائى حال وصول الجندى الآخر لديه وتنبيهه، امتطى صهوة جواده، وقصد مقر المحكمة الملكية يرافقه بعض الفرسان الذين هبوا لنجدته. إبان وصوله إلى الميدان الجديد المقابل للمحكمة، أخذ يجمع الناس التى وفدت

إلى هناك بعد أن فقدت رشدها، محاولاً أن يعيق أى شخص عن الصعود إلى البيّازين. وقد حضر أيضا كل من السيد غابريل دى كوردوبا، وصهره السيد لويس دى كوردوبا - قائد فرسان غرناطة - وفرسان آخرون غيرهم ظلوا طيلة ما تبقى من الليل فى ذلك الميدان وهم مدججون بالأسلحة، فى انتظار أن يجد جديد فى ذلك الشأن. فى أعقاب دخول الحاجب إلى شوارع البيّازين، أدرك أن المسلمين قد انصرفوا، حيث لم يعثر فى أى من الطرقات على شخص واحد مشتبه فيه. فحشد أكبر قدر من الأفراد استطاع جمعه، وعاد أدراجه عبر الباب الصغير الذى كان الثوار قد دخلوا منه، ظنًا منه أنه من الممكن أن يسمع خبرًا عنهم، فوجد هناك جوالاً يحتوى على قلنسوات ملونة يبدو أنهم كانوا قد أحضروها لمنحها لمن ينضم إليهم من الفتيان المسلمين، كما عثر أيضًا على بعض المعدات التى خلّفوها وراءهم، فجمع كل ما وجد؛ ولم يجرؤ على المضى قدمًا فرجع إلى المدينة.

عندما اتضح النهار، ترك ماركيز مونديخار صهره السيد ألونسو دى كارديناس Alonso de Cardenas - الذى تقلد فيما بعد منصب كونت لابوبيلا la Puebla - فى حصن الحمراء، واصطحب معه ابنيه: كونت تينديا والسيد فرانثيسكو دى مندوثا Francisco de Mendoza، ثم هبط إلى الميدان الجديد، حيث كان كل من المأمور القضائى والسيد غابريل دى كوردوبا موجودين، وقد انضم إليهما لاحقًا ماركيز بيينا وماركيز بيّانوييا والسيد بدرو دى ثونييغا Pedro de Zúñiga كونت ميراندا - وكانوا جميعهم قد حضروا لمتابعة قضاياهم أمام المحكمة الملكية - كما جاء أيضًا العديد من الفرسان والسيافون المدججون بالأسلحة. طلب منهم الماركيز أن يهدءوا؛ لأن من دخلوا إلى البيّازين وأحدثوا كل تلك الفوضى والاضطرابات لا بد وأن يكونوا من الثوار الجبليين والرجال الفاسدين الضالين، فهم خرجوا بعدها ليلوذوا بالفرار، وأنه سوف يعلم حقيقة ما جرى عما قريب.

بينما هو يخبرهم بذلك، وصل إليه رجل ليحذره من أن المسلمين قادمون تحت رايتين مرفوعتين من وراء ربوة الشمس، المؤدية إلى بيت الديك - التى تدعى دار

لويت[٧] (دار الوادى؟) – وهى تبعد مسافة نصف فرسخ من المدينة أعلى نهر شنيل. أسفر ذلك النبأ عن اندلاع ثورة بين صفوف أولئك الفرسان جميعًا. كان هناك من أخبر الماركيز بجدوى إرسال ستين فارسًا بصحبة ستين آخرين من الجنود المسلحين بالبنادق إلى المؤخرة، لكى يحاولوا تعطيل أولئك المسلمين حتى تصل الحشود بأكملها؛ وهو رأى لم يقره الماركيز، قائلاً إنه يود أولاً أن يعلم من هؤلاء الأناس، وأى طريق سلكوا، ومدى تأمين البيّازين. أثار هذا الحديث استياء الكثير من الموجودين، الذين كانوا يعتقدون أنه كلما تأخر خروج القوات، كلما اكتسب المسلمون المزيد من الأرض والوقت للتمركز فى الجبال، وعندئذ لن يتسنى للمسيحيين النيل منهم، وهو ما حدث بالفعل. فى أعقاب ذلك، بعث ماركيز مونديخار أحد عبيده، وهو حامل درع يدعى أمبويرو Ampuero، ليستعلم عن كنه الأشخاص الذين يزعم ذاك الشخص أنه قد رآهم؛ وعلى العبد أن يصطحب معه زميلاً آخر، وعندما تتضح له حقيقة الأمر، يترك صاحبه عندهم، ويرجع بسرعة لتنبيه الماركيز.

عندما فطن الماركيز إلى عدم كفاءة الاحتياطات وقلة عدد الرجال الموجودين لديه، إذا ما دعت الحاجة لقمع البيّازين بالقوة، أدرك أنه يتعين عليه اللجوء إلى الحيلة حتى يتسنى له إعاقتهم عن القيام بالثورة. فترك كونت تينديا فى الميدان بصحبة الفرسان الآخرين، وخلّف الوجهاء[٨] على رؤوس الشوارع، ثم صعد إلى البيّازين يرافقه المأمور القضائى وثلاثون فرسًا وأربعون جنديًا مسلحًا بالبنادق، علاوةً على جنود حراسته المسلحين بالرماح ذات الرؤوس الأشبه بالفؤوس، ومر فيه من دون أن يعثر على أى شخص؛ لأن الموريسكيين كانوا قد غلّقوا على أنفسهم الأبواب، وتحصنوا داخل

---

(٧) لم نعثر على مرادف للفظ النهر يقترب من اللفظ الذى يذكره مارمول، والمصادر العربية التى اطلعنا عليها لا تذكر هذا الموضع (المراجع).

(٨) كانت كل مدينة بها أربع وعشرون من الوجهاء يعرف كل منهم بأنه "أربع وعشرون veintecuatro وهؤلاء هم الذين عينهم الماركيز للوقوف على الشوارع. (المراجع).

منازلهم خوفًا من أن تتم سرقتهم، حتى وصل إلى كنيسة القديس سلبادور، وسأل بعض المسيحيين المجتمعين هناك ما بال المسلمين لا يظهر منهم أحد؟، فأجابوه أن الموريسكيين جميعًا قد أغلقوا عليهم أبواب منازلهم.

حينئذ أمر الماركيز خورخى دى بايثا أن يستدعى بعضًا من أهم الموريسكيين البارزين؛ لأنه يرغب فى التحدث إليهم، فمثل أمامه خمسة وعشرون أو ثلاثون رجلًا، فسألهم عما حدث وعن هوية الأشخاص الذين دخلوا إلى البيّازين ليثيروا بينهم القلاقل. وقد أجابوه فى خضوع وتواضع أنه لا علم لهم بأى من تلك الأمور؛ لأنهم كانوا داخل منازلهم، وهم مسيحيون صالحون ورعايا مخلصون لصاحبى الجلالة، وعليه فإنه لا يجدر بهم أن يقترفوا ما يتعارض ومصلحة الملك. فإذا كان بعض الأشخاص قد قدموا إلى المدينة لقلقلتها وإشاعة الاضطرابات فيها، فلا بد أنهم أعداؤهم، وأنهم إناس يرغبون فى إلحاق الضرر بهم. وقد أجابهم ماركيز مونديخار أنهم قد برهنوا على صدق ما يقولون، وإنه حرى بهم المحافظة على ولائهم لصاحب الجلالة؛ لأنهم إذا التزموا بما يتوجب عليهم القيام به، فسيسعى جاهدًا كيلا ينالهم أى ضير، وسوف يكتب إلى صاحب الجلالة تزكيةً فى شأنهم، ويتضرع إلى جلالته لكى يشملهم بعطفه وحظوته.

يبدو أن ذلك الحديث قد أفلح فى إضفاء السرور على الموريسكيين، بعد أن كانوا فى خوفٍ شديد، فوعدوا الماركيز أن يظلوا على حالهم ويحافظوا على إخلاصهم وتقديمهم لفروض الطاعة الواجبة كحال الرعايا الأخيار والأوفياء. بعد أن أتم ماركيز مونديخار مسعاه هبط من طريق القصبة المليء بالعقبات، حتى دخل إلى المدينة عبر باب البيرة، ثم رجع إلى الميدان الجديد، حيث كان الفرسان ما زالوا فى انتظاره، فانفرد جانبًا بكل من المأمور القضائى وكونت تينديا، واستمروا فى الأخذ والرد فيما بينهم حول ما يجب القيام به فى ذاك الشأن لفترة طويلة. فى النهاية خلصوا إلى أنه بمجيء أمبويرو، وإخباره إياهم عن الطريق الذى سلكه المسلمون، سوف يضحى بالإمكان الذهاب فى أثرهم؛ لأنه سيكون لزامًا على هؤلاء الدوران حول وادى ليكرين،

ولن يتسنى لهم اللجوء إلى الجبال بسرعة كبيرة، مما يتيح لسلاح الفرسان أن يلحق بهم أولاً؛ وبناءً على ذلك الاتفاق أخبر الماركيز الفرسان والسادة المجتمعين هناك بأن يعودوا إلى ديارهم، ويكونوا على أهبة الاستعداد إذا ما استشعروا إطلاق أى نيران مدفعية؛ أما هو فقد قفل عائداً مع ولديه إلى الحمراء.

الفصل السادس

كيف خرج ماركيز مونديخار لتقفى أثر الثوار الجبليين الذين اقتحموا البيّازين

فى ذلك اليوم اتفق كل من المأمور القضائى والوجهاء على أن يخرجوا بأنفسهم لاقتفاء آثار الثوار الجبليين فى المدينة، حيث تراءى لهم أن قرار ماركيز مونديخار قد تأخر كثيراً؛ لمّا كانوا قد اتخذوا قرارهم فى مجمع الأديرة، فقد أرسلوا إليه اثنين من الوجهاء لاخباره بالأمر والتضرع إليه من أجل أن يلحق بهم هو، وهكذا يخرج الجميع بصحبته، أو أن يأذن لهم فى الخروج. وقد أجابهم الماركيز بتوجيهه الشكر الجزيل لهم لحرصهم على الأمور التى تصب فى مصلحة جلالة الملك، وإخبارهم أنه لا ينتظر سوى وصول إشارة مؤكدة عن الطريق الذى سلكه الثوار الجبليين حتى يشرع فى ملاحقتهم، وقد بات الأمر وشيكًا.

كان الجميع تنتابهم رغبةٌ عارمةٌ فى اقتفاء أثر المسلمين، وكانت كل دقيقة تؤخرهم عن الخروج تمر وكأنها عام؛ بيد أن ماركيز مونديخار لم يرغب فى اتخاذ القرار بمغادرة الحصن والمدينة حتى يتثبت يقينًا من كنه أولئك الثوار، فمن المحتمل أن تكون أعدادهم كبيرة، وأن يكونوا قد نصبوا للمسيحيين فخًا خلف تلك المرتفعات. من أجل ذلك مكث يترقب عودة الجنديين اللذين كان قد بعثهما آنفًا لتقصى الأمر. بينما كان الماركيز يتحدث إلى نفر من موريسكيي البيّازين، كانوا قد حضروا ليشكروه باسم المملكة لما أظهره تجاههم من عطف ودعمه إياهم بوجوده بينهم، وكذلك فقد رغبوا فى التوسل إليه كيلا يتخلى عنهم من الآن فصاعداً، إذ جاء أمبويرو، فأخبره أن الرجال الذين كانوا يرفعون الرايات لا يربو عددهم على المائتين وأنهم سلكوا الطريق باتجاه

ديلار عبر سفح الجبل. حينئذ أصدر الماركيز الأمر بإطلاق النفير، وضرب دانة مدفعية واحدة، وكذلك دق ناقوس الخطر فى آن واحد. ثم امتطى فرسه وخرج من الحمراء، يصحبه ولداه والسيد ألونسو دى كارديناس وبعض من حملة الدروع، وبينما هو فى طريقه أرسل من يبلغ الرئيس بإصدار أوامره إلى من بالمدينة للحاق به؛ لأنه لا ينتوى التوقف فى أى مكان.

فى تلك الأثناء كان المسلمون قد واصلوا مسيرتهم، فمروا ببلدتى دودار وكينتار دونما توقف، ومن هناك هبطوا إلى ثينيس حيث شرعوا فى تناول غذائهم؛ فلمّا تبين لهم أن أحد المسيحيين قد اكتشف وجودهم بدأوا يسلكون طريق العودة إلى ديلار شيئًا فشيئًا عن طريق سفح جبل شلير -رغم أن واحدًا من المسلمين قد أخبرنا[٩] أنهم كانوا قد سمعوا دوى نيران المدفعية الصادرة من الحمراء قبيل عودتهم. أما الجندى الذى كان قد خرج مع أمبويرو آنفًا لاقتفاء آثارهم، فكان لا يزال متتبعًا خطاهم عن بعد. فى أعقاب انصراف ماركيز مونديخار من الحمراء، توجه سيادة الرئيس صوب نافذة غرفته، فأبصر بالميدان الجديد كلاً من كونت ميراندا والسيد غابرييل دى كوردوبا والسيد لويس دى كوردوبا وفرسانًا آخرين، وكانوا قد خرجوا فزعين[١٠] عند سماعهم قرع ناقوس الخطر، فأرسل إليهم من يطلب منهم اللحاق بماركيز مونديخار برفقة كل القوات التى تصاحبهم من المشاة أو الفرسان. كما أصدر أوامره إلى المأمور القضائى ليشرع فى التجول فى أرجاء المدينة ويقوم بتنصيب بعض الوجهاء على رؤوس الشوارع، على ألا يسمحوا لأحد بالصعود إلى البيّازين حتى ترد إليهم الأوامر بذلك. وعلى المأمور القضائى أن يبعث نفرًا من رجاله إلى هناك للتثبت من شأن الموريسكيين وحالهم، على أن يكونوا أهلاً للثقة حتى لا يتسببوا فى

---

(٩) توحى رواية مارمول بأنه اعتمد على مصادر موريسكية فى بعض الأحيان (المراجع)

(١٠) النص الإسبانى يستعمل كلمة amados، وهو خطأ من الناسخ دون شك، وربما أراد المؤلف alarmados أى خرجوا فزعين، أو armados أى خرجوا يحملون أسلحتهم. (المراجع).

إثارة جو من الاضطراب. في أعقاب ذلك، بدأ الرئيس في إرسال كل من يتوافد على الميدان لملاحقة المسلمين.

أما ماركيز مونديخار فقد سلك طريقًا أعلى غويتور وصولاً إلى ديلار، وإبان وصول رجالنا إلى الميدان الذي يطلق عليه غيني Gueni، استشعرت خيول المقدمة على مشارف المكان المسلمين الذين كانوا يهرولون للاحتماء بالجبل. حينئذ أطلق السيد ألونسو دي كارديناس العنان لفرسه، وقد حذا حذوه نفر من الفرسان كانوا يظنون أنهم قادرون على اللحاق بهم قبل أن يفروا إلى شعاب الجبل، بيد أن إحدى العقبات الشديدة اعترضت طريقهم أثناء عبور وادي نهر ديلار، حيث قضوا وقتًا طويلاً في الهبوط والصعود من جديد. وهو ما منح المسلمين الفرصة للجوء إلى رابية مرتفعة وشديدة الوعورة على الجانب الأيسر، فاستطاعوا التمركز بها ونصبوا راياتهم في منتصفها، وأخذوا يصيحون ويهتفون ويطلقون نيران بنادقهم. وقد تمكن عدد من الجنود من الاقتراب منهم، وبادروا إلى الاشتباك معهم في محاولة لتعطيلهم حتى مجيء المشاة؛ إلا أن أحدهم تجاوز كثيراً في المناوشة حتى أن المسلمين قتلوا فرسه بطلقة من بنادقهم، وكادوا يردوه قتيلاً لولا أن تم إنقاذه. ثم شرعوا في الانتقال من تلك الربوة إلى الأماكن الأكثر وعورة في الجبل، التي لا يتسنى للخيول الصعود إليها وهم مستمرون في إطلاق نيران بنادقهم عن بعد.

عندما أدرك كونت ميراندا وباقي الفرسان عدم جدوى ملاحقة المسلمين على صهوة الخيل، اتفقوا على الترجل والتهيؤ لمطاردتهم على الأقدام؛ حينئذ وصل ماركيز مونديخار وأوقف مسيرتهم لأن الشمس كانت قد غربت بالفعل، كما أن الأعداء كانوا متفوقين عليهم في مسيرتهم، إضافةً إلى كون الجو قارس البرودة ويصحبه هطول الثلوج. بعد ذلك أصدر الماركيز أوامره بتجميع الجنود، وأرسل إلى السيد دييغو دي كيسادا Diego de Quesada الذي يحكم بلدة بيثا Peza المجاورة حتى يشرع في ملاحقة أولئك الثوار الجبليين بقوات المشاة وعدد من الخيول، ثم قفل عائداً إلى المدينة؛ وفي الطريق التقى القائد لورينثو دي أبيلا على رأس قوات مقاتلة من المدن السبع

الكائنة فى نطاق غرناطة، وكانت بصحبته أعدادٌ غفيرةٌ، فأمره أن يتوجه للانضمام إلى رجال السيد دييغو لتحقيق الهدف ذاته. وهكذا شرع السيدان فى ملاحقة الثوار برفقة عدد من الفرسان حتى أرخى الظلام سدوله وتعذرت عليهم رؤية العدو. لمَّا كان الجبل مكسوًا بالثلوج، وقد أمست الأجواء قارسة البرودة، خشى القائدان على الجنود من الهلاك، فأوى الجمع تلك الليلة إلى كنيسة ديلار حيث قدم الموريسكيون لهم طعام العشاء. ظن السيدان أن المسلمين لابد لهم من التوقف فى مكانٍ ما لقضاء ليلتهم، فما أن بزغ الفجر حتى شرعا فى ملاحقتهم وتتبع آثار خطاهم على الثلوج. بيد أن المسلمين كانوا قد تابعوا السير طوال الليل دونما توقف عبر دروبٍ قد خبروها آنفًا، فهبطوا إلى وادى ليكرين وأخذوا يؤلبون الأماكن التى يمرّون بها، بعد أن أفهموا أهلها أن الثورة قد اشتعلت فى البيّازين بالفعل، وأن غرناطة والحمراء كليهما على وشك الوقوع فى أيدى المسلمين. لذلك عندما نزل رجالنا إلى الوادى كان أولئك قد سبقونا بكثير، فتوقف جنودنا عن ملاحقتهم، حيث تراءى لهم أن عددهم قليل وأن عدتهم وعتادهم غير كاف للتوغل داخل المدن. فأوقف الرجال مسيرتهم فى دوركال، وقضوا بها ثالث أيام عيد الميلاد فى انتظار وصول قوات إضافية. وسوف ننهى حديثنا عنهم عند هذا الحد، لكى نتكلم عن السيد إيرناندو دى بالور: من هو؟ وكيف نصّبه الثوار ملكًا عليهم؟، على أن نستأنف الكلام حول رجالنا عندما يضحى الوقت مواتيًا لذلك.

الفصل السابع

يتناول شخصية السيد إيرناندو دى كوردوبا إى دى بالور، وكيف تَوَّجَه الثوار ملكًا عليهم.

السيد إيرناندو دى كوردوبا إى دى بالور Hernando de Córdoba y de Valor رجل موريسكى، ذو مكانة رفيعة بين أفراد تلك الأمة لأن نسبه يرجع إلى الخليفة مروان؛ أما أسلافه فكان يُروَى أنهم من دمشق فى بلاد الشام، وأنهم كانوا ضمن المشاركين فى قتل الخليفة الحسين بن على - ابن عم محمد - وأنهم قد توجهوا هاربين إلى إفريقيا، ومنها لاحقًا إلى إسبانيا. وقد استوطنوا مملكة قرطبة من تلقاء أنفسهم، واحتلوها على مدى أزمنة طويلة كانوا يلقبون فيها بآل عبد الرحمن، نسبةً إلى أول حكامهم وكان يدعى عبد الرحمن، إلا إنه كان يلقب بابن أمية. كان إيرناندو شابًا متقلبًا ومهيئًا للانتقام، علاوةً على ذلك فقد كان سفيهًا. أما أبوه فكان يدعى السيد أنطونيو دى بالور إى دى كوردوبا Antonio de Córdoba y de Valor، وكان يعيش حياته منفيًا يعمل فى التجديف على متن السفن الشراعية لجرمٍ كان قد اتهم بارتكابه[11] ورغم كونهم موسرين فإنهم كانوا مسرفين فى إنفاقهم، فعاشوا فى فاقة شديدة واضطراب، وخاصةً السيد إيرناندو الذى كان دائمًا مثقلاً بالديون، وكان آنذاك حبيسًا فى منزله، على خلفية إحداثه شقاقًا فى مجمع أديرة مدينة غرناطة، حيث كان أحد الوجهاء. فعندما وجد نفسه فى تلك الآونة يشكو العوز اتفق على بيع لقبه الرسمى

---

(١١) كان التجديف فى السفن بمثابة عقوبة لبعض الجرائم فى القرن السادس عشر. (المراجع).

والذهاب إلى إيطاليا أو فلانديس كما يفعل أى رجل بائس – حسب زعمه. فى نهاية الأمر قام ببيعه إلى موريسكى آخر من أهالى غرناطة يدعى ميغيل دى بالاثيوس Miguel de Placios، وهو ابن خيرونيمو دى بالاثيوس Gerónimo de Placios، وكان الضامن للسيد إيرناندو فى القضية التى حُبس بسببها. باع السيد إيرناندو لقبه الرسمى مقابل ألف وستمائة دوقية. وفى الليلة المحددة لدفع المبلغ خشى السيد ميغيل أنه لو هرب السيد إيرناندو من السجن أن تلقى الشرطة القبض عليه هو وتصادر أمواله، وتجبره على الدفع مرة أخرى. لذلك فقد قام بإبلاغ السيد سانتارينّ قاضى المدينة بالأمر حتى يأمر بمصادرة المال ثمن اللقب. وبالفعل عقب الانتهاء من عد النقود وصل أحد الحجاب وصادر المبلغ.

عندما ألفى السيد إيرناندو نفسه دون منصب أو أموال، عزم على الخروج من محبسه، وإيجاد مكان ودور له فى البشرات؛ فغادر غرناطة فى يوم لاحق، وكان الخميس الموافق للثالث والعشرين من شهر ديسمبر، بصحبة امرأة موريسكية واحدة كان يتخذها رفيقةً له وعبد أسود، حيث قضى ليلته تلك فى أحد بساتين الفاكهة. وفى يوم الجمعة توجه إلى وادى ليكرين، والتقى عند مدخل الوادى الكاهن القانونى لبلدة بيثنار Béznar، الذى كان يفر عائداً إلى غرناطة؛ فأخبره ذاك الأخير ألا يتقدم لأن المنطقة مشتعلة بالثورة وتعج بالثوار الجبليين، بيد أن ما قيل لم يثنه عن متابعة ارتحاله حتى وصل إلى بيثنار، وأقام فى منزل أحد أقاربه ويدعى البالورى el Válori، وكان من الرجال البارزين فى تلك الأنحاء، وأخذ يقص عليه ما آل إليه حاله. فى تلك الليلة اجتمع كل آل بالورى، وكانت عائلة كبيرة العدد؛ ولمّا كانت الأرض تموج بالثورة دون أن يكون هناك رأس لها، ارتأوا أنه لا محيص من تنصيب ملك يدين له الجميع بالسمع والطاعة. وقد نقلوا رأيهم لغيرهم من المسلمين الثائرين الذين وفدوا إليهم من أورخيبا، فقال الجميع إن هذا الأمر محل إجماع، وإنه لا يوجد من يمكن أن يكون أفضل أو أحق من السيد إيرناندو دى بالور ذاته، لكونه ينحدر من سلالة الملوك، كما أن ما لقيه من معاناة لا تقل عما قاسوه؛ فطلبوا منه أن يقبل المنصب، وقام هو بشكرهم على

ذلك. وهكذا قاموا باختياره وتتويجه ملكًا عليهم. أما هو فكان فى غفلة شديدة عما قام بفعله – وذلك وفقًا لما قاله لاحقًا – رغمًا عن أنه لم يكن جاهلاً بحقيقة الثورة التى كانت قائمة فى تلك الأرجاء.

هناك من يلقول إن أهالى البيّازين كانوا قد قلّدوه ذاك المنصب قبيل مغادرته غرناطة، حتى إنهم نجحوا فى إقناعنا بذلك فى بداية الأمر، ولكن خلال محاولاتنا اللاحقة للتثبت من حقيقة الأمر، أكد لنا الرجال أنه لم يكن هو من وقع عليه الاختيار، بل وقع الإختيار على فرج؛ وإن مدبرى الثورة كانوا يرغبوا فى كتمان السر وإخفائه عن الفرسان الموريسكيين والأشخاص البارزة الذين يعملون فى خدمة جلالة الملك فحسب، بل أنهم لم يجرؤوا على كشف سرهم أمام ذاك الشخص بعينه لكونه أحد رعايا ماركيز مونديخار، كما أنه أحد وجهاء غرناطة، إضافةً إلى كونه شابًا متقلبًا وليس جديرًا بالثقة.

فى صبيحة يوم الإثنين، وفى وقت القداس، وقف السيد إيرناندو دى بالور قبالة باب كنيسة البلدة يرافقه ذووه، وأطلّ من فوق المنازل الكائنة فى المنطقة الجبلية، فأبصر فرج بن فرج ومعه لواءان وبصحبته الثوار الجبليين الذين كانوا قد دخلوا معه إلى البيّازين، وهم يعزفون على آلاتهم ويصدرون أصواتًا صاخبةً فرحةً كمن أحرز نصرًا مبينًا. عندما تنامى إلى علم فرج أن السيد إيرناندو دى بالور موجود بالبلدة، وأن أهلها قد نصّبوه ملكًا عليهم، ثار ثورةً عارمةً، وتساءل كيف يمكن لأهالى البيّازين أن يختاروه هو ليكون رأسًا للأمر بينما يختار رجال بيثنار شخصًا آخر؟ وكادوا يلجأون إلى السلاح لحسم ذلك الأمر. أما فرج فنادى بكونه من رسم طريق الحرية، ولابد له من أن يصير ملك المسلمين وحاكمهم، كما أنه ينحدر أيضًا من سلالة بنى سراج النبيلة(١٢)؛ فقال آل بالورى أنه أينما حل السيد إيرناندو دى بالور لا يجوز أن

---

(١٢) فى كتاب "الحروب الأهلية فى غرناطة" يركز بيريث دى إيتا على الصراع بين عائلتى بنى الأحمر الملكية وبنى سراج، ويشير إلى أن ذلك الصراع سيكون له أثر لاحقًا، أى فى أثناء ثورة الموريسكيين. وها نحن نرى أن مارمول يسير على هذا النهج. (المراجع) .

يصبح هناك ملكٌ سواه. في النهاية تدخّل بعض الأفراد للتوسط بينهم، و اتفقوا على ما يلي: يصبح السيد إيرناند دى بالور ملكًا، على أن يصير فرج كبير وزرائه، وهو أرفع منصب بين المسلمين المقربين من الذات الملكية. وقد أسفر ذلك عن إنهاء الفرقة، فعاود كل المجتمعين هناك تنصيب السيد إيرناندو دى بالور ملكًا من جديد، ولقبوه بمولاى محمد بن أمية، وذلك أسفل شجرة زيتون كانت بالساحة.

أما الملك الجديد، فقد شرع في اليوم ذاته في توجيه أوامره إلى فرج لكى يخرج هو ورجاله ليجمع كل ما يستطيع الحصول عليه من البشرات، وذلك بغرض إقصائه من أمامه؛ حيث يتولى فرج تجميع كل الفضة والذهب والحلى التى كان المسلمون قد استولوا عليها ولا يزالون يسرقونها من الكنائس والأفراد، من أجل شراء أسلحة من بلاد المغرب. فأذاع ذلك الخائن أن غرناطة وسائر الأراضى قد أضحت في قبضة المسلمين، آخذًا في إشعال الثورة في شتى البلدان. ولم يكتف بتنفيذ ما أُمِرَ به فحسب، بل اصطحب معه ثلاثمائة قاطع طريق من الثوار الجبليين إلى غرناطة ، وكانوا من أشد رجال البيّازين والبلدان المتاخمة لها انحرافًا وضلالًا، حيث أعمل القتل في سائر القساوسة والرهبان الخدام ممن تم أسرهم، حتى أنه لم يترك على قيد الحياة فردًا يحمل اسمًا مسيحيًا ويتجاوز عمره عشر سنوات. وقد استخدم في عمليات القتل صنوفًا عديدة من ألوان التعذيب والقسوة، وهو ما سنعالجه في الفصول التى تتناول ثورة قرى البشرات.

لا يسع المرء إلا أن يدرك جيدًا أن السيد إيرناندو كان على دراية بأهداف تلك الثورة. وهو ما يتضح من تعجله في بيع لقبه الرسمى، علاوةً على ما أخبرنا به عضو محكمة تفتيش غرناطة الأب أندريس دى ألابا Andrés de Alava، وكانت تربطة علاقة صداقة وثيقة بالسيد إيرناندو: حيث كان الأب في طريقه لزيارة البشرات امتثالاً لأمرٍ صادرٍ من جلالة الملك شخصيًا، الذى قرر أن يقوم الأب دى ألابا بزيارة تلك الأراضى، في محاولةٍ لاستنباط إذا ما كان الموريسكيون يبرمون أمرًا ما، وذلك في إطار عمله في محكمة التفتيش. فتوجه إليه السيد إيرناندو قبيل أيام قلائل من اشتعال الثورة في

المملكة، ونصحه بصورة ودية ألا يشرع فى رحلته إلا بعد انقضاء عيد الميلاد المجيد، لأن المواطنين سيمسون أكثر هدوءًا، كما أنه سوف يرافقه بنفسه. وقد ألح فى مطلبه حول تلك المسألة إلى الحد الذى يمكننا من الزعم بأنه كان ملمًا بالأمر، وربما أراد تفادى ذهاب عضو محكمة التفتيش إلى هناك ظنًا منه أنه إذا ما حوصر أثناء اندلاع الثورة فى البشرات، فإننا سنبذل قصارى جهدنا لإنقاذه، ولعل بغيته كانت إقصاء عضو محكمة التفتيش عن الأذى الذى علم أنه سوف يلاقيه، وذلك بدافع الصداقة التى كانت تربطهما. فليكن ما كان، أما هذه فهى أوثق الروايات التى استطعنا معرفتها حول ذلك الشأن.

الفصل الثامن

ويتناول الثورة العامة التى أشعلها الموريسكيون فى البشرات.

المآسى تدفع المرء إلى التدبر، ليتعرف أكثر على ما تجدر كتابته حول الفظائع والشرور التى اقترفها الموريسكيون والثوار الجبليون فى البشرات وسائر أرجاء مملكة غرناطة فى أثناء تلك الثورة. كان أول ما قاموا به هو المناداة باسم محمد وديانته، معلنين كونهم مسلمين خارجين على العقيدة الكاثوليكية المقدسة، التى اعتنقوها هم وأباؤهم وأجدادهم على مدى سنوات طويلة. كان من المذهل رؤية مقدار تمرس الجميع – صغاراً وكباراً – فى أمور تلك الديانة اللعينة: فقد شرعوا فى إقامة الصلوات لمحمد، وبدأت المواكب الدينية وتعالت التضرعات، كما كشفت النساء المتزوجات عن نحورهن[١٣] أما الفتيات فكشفن رؤوسهن، وأسدلن شعورهن على أكتافهن وأخذن فى الرقص علناً فى الطرقات ومعانقة الرجال، وكان الجنود يلوحون بأغطية الرأس محركين الهواء ليبعث نسمة رقيقة باتجاههن، معلنين بأصوات عالية أن ها قد حان الوقت لقيام دولة البراءة، وأن التمتع بالحرية التى تمنحهم إياها شريعتهم يتيح لهم الذهاب إلى الجنة غير خاطئين، ناعتين إياها بشريعة اللين والاعتدال، التى تبيح شتى صنوف المسرات والملذات.

(١٣) يحتار المرء حين يطالع كتابات المسيحيين عن الموريسكيات، فتارة يطالبونهن بكشف الوجه، وتارة يتهمونهن بالتبرج. (المراجع).

فى الوقت نفسه قام المسلمون، بوصفهم أعداء لكل الديانات والمشاعر الخيرة، لا يحترمون كل ما هو مقدس أو إنسانى، تملأهم مشاعر الغضب القاسية والحنق الشيطانى، قاموا بسرقة وحرق وتدمير الكنائس: فأخذوا يهشِّمون التماثيل الموقرة، ويحطمون المذابح، ويُعمِلُون أيديهم العنيفة فى كهنة عيسى المسيح، الذين كانوا يعلّمونهم شؤون العبادة، ويناولوهم القرابين المقدسة، فحملوهم فى الوديان والميادين حفاةً عراةً لإذلالهم وتحقيرهم على رؤوس الأشهاد. فرُمِى بعضهم بالسهام، وحُرِق آخرون أحياءً، ومات الكثيرون بعدما كابدوا شتى صنوف التعذيب. وقد أذاقوا الكهنة الخُدّام المسيحيين المقيمين بتلك المواقع الممارسات الوحشية ذاتها دون أن يحترم الجار جاره أو الرفيق رفيقه أو الصديق صديقه. على الرغم من أنه كان هناك من أراد احترام تلك الأواصر، فإنهم لم يكن بإمكانهم القيام بذلك؛ لأن الحنق الذى كان يعتمل فى صدور الأشرار ساقهم إلى قتل كل من وقعت أيديهم عليه، كما أنهم أراقوا دماء كل من حاول منعهم. لقد نهبوا منازلهم، ومن تحصن منهم بالبروج والأماكن المنيعة تمت محاصرته وأُحِيط بألسنة النيران، ثم قاموا بحرق الكثيرين منهم، أما كل من استسلموا فقد لقوا حتفهم أيضًا؛ لأن الثوار لم يكونوا يرغبوا فى أن يبقى على وجه الأرض أى مسيحى يتجاوز عمره عشر سنوات. لقد بدأ هذا الطاعون من لانخارون، وانتقل إلى مدينة بوكيِّرة فى أورخيبا مساء الخميس، ومنها تسرب دخان الفتنة والشرور بايقاع متسارع، حتى غطى سطح تلك الأرض بأسرها على حين غرة، وهو ما سوف نرويه وفقًا لترتيب حدوثه. ونحن بالتزامن مع سرد تاريخ تلك الثورة لابد لنا من أن نسوق وصفًا مختصرًا لبقاع البشرات وأنحائها، حتى يتحقق للقارىء أقصى قدر من الاستمتاع فى أثناء القراءة، ونحن فى هذا الموضع سنبدأ بتعريف كلمة "طاعة taa " وبيان معنى تلك اللفظة البربرية.

كلمة "طاعة" نعت استخدمه الأفارقة قديمًا فى أسماء سائر المدن النبيلة، كما أسلفنا الذكر فى الفصل الثالث من الكتاب الأول(*). و"طاعة" تعنى رأس تجمع

(*) راجع الكتاب الأول، الفصل الثالث، صفحة ٢٦ (المترجمة).

أو عصبة من الأهالى الأفارقة الأصليين، بيد أن هناك آخرين يترجمونها كمرادف للشعوب الخاضعة والذليلة . ويروى بعض قدامى الموريسكيين أنهم كانوا قد سمعوا عن أسلافهم أنه نظراً لوعورة تضاريس جبال البشرات، وأنها يقطنها أناس بربرية شديدة الإباء ولا يمكن ترويضها، بالكاد تمكن الملوك المسلمون من إرشادهم إلى جادة الصواب؛ لأنهم كانوا آمنين فى أراضيهم الوعرة، كما هو الحال فى المناطق الجبلية فى إفريقيا التى يسكنها البربر. لذا فقد ارتأوا معالجة الأمر بتقسيم تلك الأراضى جميعاً إلى ما يشبه القرى، وتوزيعها بين الأهالى الأصليين أنفسهم، وبعد أن قام هؤلاء الأهالى بتشييد القلاع حول تجمعاتهم، ذهبوا لينصِّبوا عليهم عُمَدًا آخرين من غرناطة وغيرها من الأماكن، وأمدوهم برجال حرب حتى يتسنى لهم إخضاعهم. ومثلما كان كل جماعة منهم لها حاكم يأتمر بأمره ألف أو ألفان من الرعايا، كان هناك فقيه أكبر يتولى الشئون الروحية، وقد أطلقوا على تلك الدائرة اسم "طاعة".

أخيراً فإن الأمر شأنه كشأن كلمة نوبّة nueiba فى إفريقيا ، وتعنى جماعة البربر المولين لخزانة الملك؛ وكانت أراضى أورخيبا واحدةً منها، فهى كائنة على مدخل البشرات رغمًا عن كونها تقع خارج نطاقها، ومنها سنبدأ حديثنا لأن شرور الموريسكيين انطلقت من هناك، وسوف نتابع مسيرتنا على النحو ذاته الذى سلكته الثورة فى البقاع الأخرى. لاحقًا، كما جرى الحال فى لانخارون فى وادى ليكرين، فطن الجميع إلى الهياج الذى يشهده الموريسكيون، فلجأ كل من الأب اسبينوسا، وحامل الإجازة(١٤) خوان باوتيستا – وهو الكاهن القانونى لتلك الكنيسة – وسادن كنيسته ميغيل دى موراليس، ونحو ستة عشر مسيحياً إلى الاحتماء داخل الكنيسة إلى أن حضر ابن فرج وأمر باضرام النيران فيها، حينئذ تدلّى الكاهن القانونى خوان باوتيستا منها مستخدمًا حبلاً من الحلفاء، وأسلم نفسه إلى الطاغية الذى أمر بقتله

(١٤) لقب حامل الليسانس أو الإجازة لا يزال يستخدم فى أمريكا اللاتينية، أما فى إسبانيا فلم يعد يستخدم منذ قرون. (المراجع) .

طعنًا بالسكاكين، ثم واصل إشعال النار في الكنيسة، حتى حرقها وهدمها على من كانوا بداخلها. ثم أمر رجاله بإخراج الرجال من تحت الأنقاض، وحملهم إلى المعسكر، وهناك لم يسأموا من طعن الأجساد الميتة، فيا لشدة الحنق الذي كان يعتمل في صدورهم تجاه كلمة مسيحي! فيما بعد واصلوا تقدمهم صوب أورخيبا، حاملين معهم غلمان تلك البلدة.

الفصل التاسع

يتناول وصف طاعة أورخيبا، وكيف أشعل الموريسكيون الثورة فى أرجائها، وحاصروا المسيحيين فى برج ألبسيط.

طاعة أورخيبا يحدها من الغرب كل من لانخارون الكائنة بوادى ليكرين، وسالوبرينيا وموتريل، ومن الشمال يتاخمها جبل شلير، ومن الشرق يجاورها كل من طاعة بوكيّرة وفيريرّة، وكذلك طاعة الساحل التى تقع ناحية البحر، وهى جميعًا تقع داخل البشرات. أما البحر المتوسط فيحدها من جهة الجنوب، حيث توجد هناك على لسان الماء قلعةٌ موقعها حصين يسميها المسلمون سايينة Sayena، بينما يلقبها المسيحيون بقلعة فيرو Ferro. فى منتصف تلك البلدة يجرى نهرٌ ينحدر من جبل شلير متجهًا صوب البحر بعدما تعرّج مساره وانعطف حتى يلتقى بنهر موتريل Motril. وهى أرض خصبة، تملؤها البقاع النضرة والغابات، ولمّا كان جوها معتدلاً فقد زُرِعَت بها أشجار البرتقال والليمون والأترنج، وكل أصناف الفاكهة التى تتطلب مناخًا معتدلاً، وبها خضروات عالية الجودة. كما أن إنتاج الحرير بها غزير ومتميز، وهى تحوى مراعى للماشية ذات جمال خلاب، وهناك وفرة من أراضى الحرث التى يجنى منها قاطنوها القمح والشعير والذرة ، ومعظم تلك الأراضى ترويها مياه النهر والعيون التى تنبع من تلك الجبال. وتضم تلك الطاعة خمسة عشر موضعًا يطلق عليها الموريسكيون تسمية القرى وتدعى: باغو Pago، بنى ثالتى Benizalte، سورتيس Sortes، كانيار، الفحص el Fex، باياركار Bayárcar، سوبورتوخار، كاراتانوث Caratanuz، بنى زيد Benizeyed، القصور Lexur، بارخار Barxar، غوارّوس Guarros، لوليار Luliar،

فاراخينيت Faragenit، وألباثيتى دى أورخيبا؛ وهى الموضع الرئيس الذى يضم برجًا كانت تجهيزاته وإمداداته آنذاك أفضل من أونة سابقة؛ لأن مسلمى بلاد المغرب حينما تولوا إدارته منذ عدة سنوات(١٥) كانوا قد اتخذوا تدابير أفضل لتأمينه. غالبية تلك المواضع تقع عند سفح الجبال، والجزء المتبقى يوجد فى غوطة مستوية بين الجبال، حيث يقع موضع ألباثيتى دى أورخيبا.

فى ذات اليوم الذى قتل فيه البارتال والسينيث أولئك المسيحيين الذين ذكرناهم آنفًا فى سياق حديثنا عن أوخيخار(*)، فر الرجلان اللذان هربا من بين أيديهم باتجاه ألباثيتى دى أورخيبا، حيث حذرا غاسبار دى سارابيا الذى كان يشغل منصب العمدة والحاكم لتلك الطاعة، فقام بدوره فى صبيحة يوم الجمعة بارسال ثمانية جنود مسيحيين مسلحين بالبنادق إلى الحاكم العام كاماتشو، وبعث معهم نفراً من الموريسكيين العزل فى محاولة للتثبت من حقيقة الأمر. فى أثناء ذهابهم جاء إليه موريسكى يعمل حاكمًا لبنى ثالتى يدعى ألبارو أبو زيد Alvaro Abuzayet، وأخبره أن عليه أن يأمر بجمع كل المسيحيين - صغيرهم وكبيرهم - فى البرج على وجه السرعة. وقد أسفر ذاك التحذير عن إيواء كل من ألونسو دى ألغار Alonso de Algar قسيس ألبسيط، وباقى الكهنة والكهنة القانونيين والأهالى المسيحيين الذين كانوا يقطنون قرى تلك الطاعة دون أن ينالهم أذى، إلا من أهالى سويورتوخار وبعض السفلة. وقد واجه الجنود الثمانية خطر الهلاك، لأنه أثناء وجودهم فى قرية بارخار لدفن المسيحيين الذين كانوا قد لقوا حتفهم الليلة الفائتة، عثر عليهم الثوار الجبليين، وأجبروهم على الفرار، وأخذوا يلاحقونهم حتى أضحوا على مقربة من البرج، ناعتين إياهم بالكلاب، وقائلين إنه قد حان وقتهم وآن أوانهم، واستولوا على بعض أسلحتهم؛ أما الموريسكيون المسالمون المرافقون لهم فكانت ملاحقتهم لهم أشد.

---

(١٥) نفهم أن مارمول كان يقصد "قرونًا" لا سنوات. (المراجع).

(*) راجع الكتاب الرابع، الفصل الثالث، صفحة ١٢-١٣ (المترجمة).

عندما أدرك غاسبار دى سارابيا ما يحدث بادر بجمع الموريسكيات والصبية الموجودين فى ذلك الموقع على عجل، وأودعهم البرج، حيث فطن إلى أنه إذا ما دعت الحاجة سيكون قد ضمن تعاطف الآباء أو الأزواج أو الإخوة، كما إنهم سيمدونهم سراً بالمياه والمؤونة حتى تصلهم النجدة. فى نهاية الأمر اعتصم غاسبار بالبرج بصحبة مائة وثمانين شخصًا، من بينهم نفر من الرجال البواسل، كان أحدهم يدعى بدرو دى بيلتشيس Pedro de Vilches، وكان يلقب أيضًا بذى القدم الخشبية، حيث كانت واحدة من رجليه قد قطعت وتم بترها من منبتها، فكان يستعيض عنها بعصا خشبية. وكان رجلاً شجاعًا وقد اشتهر بلباقته فى تلك الأراضى. كما كان هناك رجل آخر يدعى لياندرو Leandro، وكان صائدًا ماهرًا قد رجع لتوه فى تلك الليلة وفى جعبته حملان من الأرانب وطيور السمان، بالإضافة إلى قربة من الجلد مليئة بالزيت، وكأن الرب قد بعثه حقًا من أجل سلامة أولئك الأشخاص، فهو فضلاً عن كونه راميًا ماهرًا مزودًا ببندقيته وكمية من الذخيرة تمكنه من القتال، فإن الصيد الذى أتى به سد حاجتهم وجوعهم لعدة أيام، وكذلك فقد كان للزيت أهمية قصوى فى حرق النقالات الخشبية التى أسندها الأعداء إلى حائط البرج، ظنًا منهم أنها ستمكنهم من اختراقه من أسفل.

حينما ثارت البلدة لم يكن المسيحيون قد تجمعوا بشكل منتظم، ففى أحد الأحياء القريبة من موضع الثورة قام المسلمون برفع إحدى الرايات وجمعوا الجنود المسلمين تحتها وشرعوا فى إحداث جلبة وصخب شديد؛ أعقب ذلك بوقت قصير رفع ستة أعلام أخرى، معظمها ملون ومزدان بأقمار فضية فى المنتصف، أما بقيتها فكانت جميعًا من الحرير ذى الألوان المختلفة؛ ثم مروا فى هيئتهم تلك على مرأى من البرج حتى وقفوا عند أشجار الزيتون، يرافقهم جمع غفير من الرجال المسلحين بالبنادق والرماح. من هناك أرسلوا من يسطو على المواقع السهلية، فخرج الرجال والنساء يحملون أمتعة مليئة بالثياب والمؤن، وصعدوا إلى جبل بوكيرة يسوقون الأغنام أمامهم، بينما حاصر الرجال المسلحون البرج الذى كان أهلنا المسيحيون بداخله.

فى أعقاب ذلك ثارت كل من سويورتوخار وكانيار وسائر البقاع الجبلية. وكان أول ما قام به أولئك المارقون هو هدم الكنائس، والاستيلاء على ما كان بها وما حوته منازل المسيحيين. فى سويورتوخار تحايلوا لإلقاء القبض على قاضى أوخيدا Ojeda الكنسى، وكان الكاهن القانونى لتلك البلدة؛ بعد أن اعتقلوه هو وشاب آخر خادم له يدعى مارتين Martín، عرض عليه رجل موريسكى من أصدقائه يدعى بارتولومى بن مجيد Bartolomé Aben Moguid، وكان ابن حاكم المكان، أن يحرره من محبسه، فأخرجه منه وخبأه فى بيت موريسكى آخر اسمه ميغيل دى خيريث .Miguel de Jerez وقد مكث هناك طيلة أربعة أيام حتى مجيىء فرج بن فرج، الذى كان يجوب سائر البقاع تنفيذًا لأوامر ابن أمية، كما ذكرنا من قبل؛ وكان يذيع فى شتى المواضع التى يطأها أن أى مسلم يأوى فردًا مسيحيًا مهما كان عمره تكون عقوبته الإعدام، وأن عليه أن يبادر بالإفصاح عن ذلك. وهكذا أسفر خوف ابن مجيد من فرج عن إعلانه عن وجود مسيحيين لديه؛ فبعث ابن فرج رجلين مسلمين لإخراجهما، حيث أسلماهما إلى عدو للكاهن القانونى يدعى زكريا دى أغيلار، الذى حملهما بدوره إلى الساحة. وكان الأهالى يهابونهما فأخذوا يكيلون لهما الصفعات واللكمات، ثم أخذوهما إلى تبة على مسافة نصف فرسخ من البلدة، حتى يقتلوهما ويتركوا جثتيهما فى العراء لأن ابن فرج كان قد أمر بعدم حفر قبر لهما. وقد حملوا معهم امرأة مسيحية اسمها بياتريث دى لابينيا، وكان معها ابناؤها الخمسة الصغار؛ فلما أوشكوا على قتلهم تصادف مرور ابن أمية من ذاك الطريق، وكان قادمًا من بيثنار، فرق قلبه لحال المرأة والأطفال، وأمر بقتل الكاهن القانونى فحسب، وإرجاع الباقين إلى البلدة، والإبقاء عليهم هناك إلى أن يرسل فى طلبهم. لاحقًا نعت الرجال ذاك الكاهن بعدو الرب، وهو الذى ما برح يتضرع إلى الرب باسمه الأقدس، ثم وجه له أحدهم ضربة قوية بقضيب القوس فى رأسه، فغاب عن الوعى وخر على الأرض، فشرع الآخرون بعد ذلك فى طعنه بالرماح والسيوف حتى أجهزوا عليه. كما جرحوا خادمه مارتين فى غمار غضبهم العارم، حيث ضربه واحد منهم بسكين فى رأسه وهو يقول له: "خذ أيها

الكلب، فأنت ابن حاكم أورخيبا". انظروا مدى العداء الذى كانوا يكنونه تجاه القساوسة وكلاء الرب، حتى أنهم لم يرحموا صغارهم. أما المرأة وأطفالها فحملوهم إلى سوبورتوخار، ثم إلى قلعة خوبيليس، التى حُرِروا فيها، هم وعدد كبير من المسيحيات اللاتى كان ابن أمية قد جمعهن فيها، بعدما تمكن ماركيز مونديخار من الظفر بها.

الفصل العاشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى أرجاء بوكيّرة وفيريّرة، ووصف هاتين البلدتين.

تقع بلدتا بوكيّرة وفيريّرة فى مدخل البشرات، وكلاهما تحدها طاعة أورخيبا من الغرب، وخوبيليس من الشرق، والساحل من جهة الجنوب، وجبل شلير من ناحية الشمال. تضم بلدة بوكيّرة أربعة مواضع هى: كابيليّرة Capeleira، والواسطة Alguaz-ta، وبارمبنيرة Parmpaneira، وبوبيون Bubión؛ أما فيريّرة فتحوى أحد عشر موضعًا وهى: بيترس Pitres، وكابيليّرة دى فيريّرة Capeleira de Ferreira، وأيلاكار Aylácar، وفونداليس Fondales، وفيريّرولة Ferreirola، وميثينا دى فونداليس Mecina de Fondales، وبورتوغوس Pórtugos، ولواخار Luaxar، وبوسكيستار Busquistar، وبَياركال Bayárcal، وحارة البيار Harat el Bayar. وجميعها أراض خصبة، عامرة بالعديد من الفِيلات، وبها كمية من أشجار التوت الأسود، كما تكثر فيها أشجار التفاح، والكمثرى، والكامويسا(*) Camuesa، صيفًا وشتاءً، حيث يقوم الأهالى بحمل ثمارها إلى غرناطة وغيرها من الأماكن لبيعها على مدار العام، وبها وفرة من الزبيب وأبى فروة. كما أن كل ما يُحصد هناك من قمح، وحنطة، وشعير، وذرة يُروى بمياه الرى، وهو أفضل وأطيب ما تقدمه مملكة غرناطة.

(*) اسم نوع من التفاح رائحته نفاذة وطعمه لذيذ. (المترجمة).

يوجد جبل بين هاتين الطاعتين، يُزرع عنده كرمات عنب وبساتين ذات جمال أخاذ، وينبع منه عيون ماء بارد وصحى تُروى بها تلك الأراضى، وكل ما يُحصد به من فاكهة وبقول وخضروات ذات جودة عالية. وقد بلغت خصوبة تلك الأراضى مضرب الأمثال. أما أشجار القسطل فهى كبيرة للغاية، حتى أن إحدى النسوة فى بوبيون - من فرط ضخامة الثمرة - أقامت نولاً بين أغصانها لنسج الأقمشة! كما أنها اتخذت من التجويف الموجود بساقها منزلاً لها ولأولادها؛ وحينما حضر رئيس رهبانيات قشتالة العسكرية ومرافقوه إلى البشرات، وحضر عند ذاك الموضع، شاهدنا ستة سيّافين داخل تجويف تلك الشجرة مع خيولهم، وإبان إنصرافهم أضرم بعض الجنود النيران فيها وقاموا بإحراقها.

فى فصل الصيف تحتوى تلك الجبال على مراعى للأغنام فائقة الجمال؛ وفى فصل الشتاء، فإنه نظراً للبرودة الشديدة لتلك الأراضى، تُحمل الأغنام إلى داليأس، أو باتجاه موتريل وشلوبانية؛ لأن أجوائها أكثر دفئًا وإعتدالاً بسبب تأثير نسيم البحر. هاتان الطاعتان تشكلان شبه جزيرة تقع بين نهرين ينسالان من جبل شلير. أولهما وأكثرهما توجهًا نحو الغرب ينبع أعلى بلدة بوكيّرة ذاتها، حيث يسيل بين جبال شديدة الوعورة والارتفاع ليحيطها من تلك الناحية، ثم ينحدر لملاقاة نهر موتريل قبل أن يصل إلى جسر تيخافى Tejafi، حيث يقع ميناء خوبيلين، الذى يعد بداية أورخيبا من جهة البشرات، حيث نهر كاديار الذى يمر فى هذا الطريق أكثر من ستين مرة، عبر ممرات صعبة وموانىء صخرية وعرة للغاية، وهذا كله فى مساحة أربعة فراسخ. أما النهر الآخر فينبع أيضًا من جبل شلير، ويقع شرق النهر الأول وإلى الغرب من بلدة تريبيليث Trevélez، حيث ينهمر على النحو الحاد والوعر ذاته ليحيط بالطاعتين من جهتى الشرق والجنوب. ثم يتفرع إلى مجريين أسفل فيريّرولة، ثم يجتمع كلاهما مع النهر الذى ينحدر من القصر Alcázar، لتصب جميعًا فى نهر موتريل عند حلق التنين، الذى يطلق عليه الموريسكيون القصويين Alcazaubin. تتجمع فى ذاك المكان مياه غزيرة فى فصل الصيف، وذلك من جراء الثلوج التى تذوب أعلى الجبال، حتى يبدو هدير المياه

فى النهر كبحر خضم. ويروى الموريسكيون عن أسلافهم أنهم كانوا يقولون إن تلك الأراضى لم تُحتل قط بقوة السلاح؛ لذا فقد أضحى عندهم ثقة كبيرة فى موقعها ومناعتها، فحسبوا أنه ما من جيش يقدم على دخولها، مع وجود من يقومون على حماية الممرات شديدة الوعورة، التى يكفى فيها أشخاص قليلون لكى تكون قوية حصينة. من أجل ذلك اختاروا ذاك الموضع لإيواء الفوج الأول من نسائهم وأطفالهم وأغنامهم.

انطلقت شرارة الثورة فى أرجاء طاعة بوكيّرة فى صباح يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من شهر ديسمبر. هرع المسيحيون الموجودون فى تلك الأنحاء للاحتماء ببرج كنيسة بوربورون Burburon - وكانت على ما يبدو منيعة - على الرغم من أنها لم تكن قد اكتملت بعد؛ فلمّا رأى المارقون الخونة - وهم يستحقون أن ينعتوا على هذا النحو من الآن فصاعداً - أنهم يودون حماية أنفسهم، بادروا إلى سلب منازل المسيحيين، ثم أحاطوا بالكنيسة، وفتحوا باباً كان مطموراً فى البرج، فاقتحموه عنوةً، وأخذوا يحطمون ويسرقون كل الأشياء المقدسة؛ وبعدها جمعوا العديد من القضبان المضفورة مع الأغصان والكتان، وغمروها فى الزيت لإضرام النيران فى باب البرج. عندما شاهد المسيحيون ما يدور، وألفوا أنفسهم دونما دفاعات أو ماء أو مؤونة، ارتأوا الاستسلام قبل أن يلقوا مصرعهم حرقًا بين ألسنة النيران الملتهبة، وهو أقل الأضرار، بيد أن الأعداء أخضعوهم لاحقًا لممارسات أبشع: فجردوهم من ثيابهم وشدوا وثاقهم، وانهالوا عليهم صفعًا وضرباً بالعصى. وبعد أن ظلوا أسارى طيلة تسعة عشر يومًا، أخرجوهم إلى إحدى أراضى الرى القريبة من المكان لينفذوا فيهم حكم الإعدام بمقتضى أوامر ابن أمية، وذلك قبل يومٍ واحدٍ من وصول ماركيز مونديخار إلى أورخيبا. وهناك قطّعوا الأب كيروس Quirós قسيس كونشا Concha إرباً إرباً بالسيوف، ولاقى المصير ذاته كل من الكاهن القانونى بيرنابى دى مونتانوس Bernabé de Montanos، وقيّم كنيسته غودوى Godoy، وعشرين من الرهبان الخدّام؛ ثم تركوا الجثث لتأكلها الطيور الجارحة والكلاب، ولم يستبقوا فى الأسر سوى النساء

والأطفـال الذين تقل أعـمـارهم عن عـشـر سنوات. أمـا حـامل الإجـازة بالتـاسـار برابو Baltasar Bravo، القاضـي الكنسي والكاهن القانوني لذاك الموضـع، فلم يجـهزوا عليه؛ لأنهم كانوا يعلمون أنه يمتلك أموالاً كثيرة؛ فشرعوا في تعذيبه حتى حصلوا منه على ثلاثة آلاف دوقية من الذهب، وكمية كبيرة من الفضة المشغولة، ثم أبقوا على حياته آملين في الحصول على المزيد.

بدأ أهالي طاعة فيريِّرة ثورتهم في اليوم والساعة ذاتها الذي قام فيه أهالي بوكيِّرة بثـورتهم، خـاصـةً قـاطني بورتـوغـوس والمواضـع الأخـرى المجاورة لهـا. عندمـا استشـعر المسيحيـون اندلاع الثورة، بادروا بالاحتمـاء ببرج كنيسـة ذاك الموضـع مع نسائهم وبنيـهم. نهب المسلمون المنازل، ودلفوا إلى الكنيسة عبر باب صـغير، فسـرقوها وحطموها، وأضـرموا النيران في البرج، وقـاموا بتهديد الموجودين بالداخل بميتة بشـعة إذا لم يستـسلموا. كان هـناك نفر من الجسـورين أظهروا تفـضيلهم للمـوت على رؤية أنفسهم في قبضـة أولئك الخونة؛ بينما اعتبر آخرون أنه لا يمكن أن يواجـهوا مصيراً أبشع من النيران، بعد أن شاهدوا أنفسـهم يُحرَقون أحياءً، وسمعوا توسـلات زوجاتهم وأبنـائهم تسـتـجـدي الرأفـة، حـيـث راودتهم الآمـال أن المسلمين لن يقـتلوهـم. وقـد استطاعوا في النهـاية إقناع الآخـرين لكي يحـذوا حذوهـم بعد التـأكيد على أنهم لن يصيبهم ضير سوى الوقوع في الأسر.

لمَّا كانوا قد تأخروا في حزم أمرهـم، كانت النيران تتأجج أكثر بمرور الساعات حتى اشـتعل سلـم البرج، فـأضـحـوا مـجبرين على التدلي بواسطة الحبال من الجزء الخـارجي الذي لم تصل إليـه ألسـنة اللهب بعد؛ فكان الاسـتـقـبـال الذي أعده لهم أعداء الرب أولئك هو تجريدهم من ملابسهم فور وضـعهم أرجلهم على الأرض، وانهالوا عليـهم باللطـم والضـرب بالعـصـي، ثم عـقـدوا أيديهم خلف ظهـورهم، وحـملوهـم حتى وضـعوا أقدامـهم في حلقة. أمـا الكاهن القانوني خوان دييث غاييغو Juan Diez Gallego، المقيـم في بيتـريس والذي تصـادف وجوده هنـاك في ذلك اليـوم، فقـد قـتلوه بالنُّشّـاب وهو يطل من إحدى نوافذ البرج. ثم أشـعلوا النيران في الكاهنين القـانونين

جوان بيلا Juan Vela، وبالتاسار دى تورّيس Baltasar de Torres، ووالد ذاك الأخير، وكثيرين غيرهم من الرهبان، وكذلك النساء والأطفال الذين تمكنوا من النزول بالحبال. عندما خبت جذوة النيران وهدأت ألسنتها، دلف المسلمون إلى الداخل، وقتلوا كل الرجال المسيحيين الذين ألفوهم على قيد الحياة. وإمعانًا فى تعذيب المسيحيين الأسرى وإشعارهم بالأسى والمهانة، جعلوهم يخرجون جثامين الموتى من البرج، ويسحبوها إلى خارج المكان بواسطة حبال تم لفها حول أعناق الجثث، حتى ألقوها فى هوة. ثم شرعوا فى قتلهم أربعةً أربعة ليطيلوا من مدة الحفل الدامى، فحملوهم عراةً وحفاةً، وانهالوا عليهم صفعًا على القفا ولكمًا. ثم أجلسوهم على الأرض على الترتيب فى أحد الحقول، وعندئذ بدءوا يأخذون بثأرهم: فكان من يمسك بين يديه الحبل الذى أوثقوا به المسيحيين هو أول من يؤذيهم، ثم يجىء الآخرون ليطعنوهم بالرماح والسكاكين المرة تلو الأخرى حتى يجهزوا عليهم، كما أن بعضهم كان يسلم المسيحيين إلى الموريسكيات قبل أن يلفظوا أنفاسهم حتى يشاركن فى مشاعر الابتهاج. كان خوان دى ثيبيدا Juan de Cepeda – ناظر الحرير – واحدًا من أولئك الذين نالوا الشهادة، دون أن يتسنى له الاستمتاع بالموت فى سبيل الرب، وذلك على أيدى الموريسكيات المتسلحات بالأحجار والخناجر.

كذلك فقد قتلوا أرملةً موريسكيةً كانت متزوجة من رجل مسيحى، وتدعى إينيس دى ثيبيدا Inés de Cepeda؛ لأنها رفضت أن تضحى مسلمةً مثلهم، وقالت لهم إنها كمسيحية يجب ألا يكون لديها رغبةً تفوق الموت من أجل عيسى المسيح. بسبب ثباتها على المبدأ قاموا بذبحها، وفاضت روحها إلى بارئها، بعد أن أوكلت أمرها إلى مريم العذراء المجيدة مراتٍ عديدة. لم يقو المارقون على رؤية توكل المسيحيين على الرب وأمه المباركة حينما ألفوا أنفسهم فى ذاك الحال. ولمّا كانوا ملحدين ومفسدين، فقد قالوا لهم: "أيها الكلاب، الرب ليس له أم" ، ثم أخضعوهم إلى أشنع الممارسات. وقد توسل ملحدان يدعيان بدرو المالكى Pedro Almalqui وخوان باستور Juan Pastor كثيرًا إلى الكاهن القانونى بالتاسار دى تورّيس حتى يعتنق الإسلام، ووعدوه أن يردوا عليه

ممتلكاته وأن يزوجوه. عندما أجابهم أنه أحد قساوسة عيسى المسيح، ولابد أن يموت من أجله، كالوا له اللكمات والصفعات، وقالوا له فى ازدراء: "أيها الكلب، فلتناد الآن على رئيس الأساقفة والرئيس وألبوتوبو(*) حتى يخلصوك مما أنت فيه". وعقب استيلائهم من أمه بواسطة الخديعة على مائتى دوقية كانت قد خبأتهم، بعدما وعدوها أنهم لن يقتلوه، جردوه من ثيابه، وأوثقوا يديه بحبل إلى عنقه، وحملوه إلى الميدان، ثم أبعدوه إلى إحدى بقاع الساحل التى يسمونها لاوخار (القصور) Lauxar، حيث قطعوا قدميه ويديه، وبعد ذلك قاموا بشنقه هو وغلامين مسيحيين آخرين، كان أولهما دون الرابعة عشرة، أما الطفل الثانى فكان ابن أخ الكاهن القانونى، الذى بكى عندما شاهدهم يقتلون عمه، فقتلوه هو أيضًا. وقد مات فى تلك البقعة ثمانية وعشرون مسيحيًا، ما بين كاهن وراهب، وكذلك طفلان لم يبلغا الثالثة من عمرهم، أو أكبر من ذلك بقليل. وقام بتنفيذ تلك الجرائم البشعة، التى أمر بها فرج بن فرج، كلٌ من لويس الأردون Luis el Ardon وميغيل دى غرانادا شابا Miguel de Granada Xaba، جنبًا إلى جنب مع فرق الثوار الجبليين.

ثارت ميثينا دى فونداليس فى مساء يوم الجمعة ذاته، وقد باغت الموريسكيون المسيحيين الغافلين المقيمين بها، فأسروهم جميعًا فى ديارهم وسرقوهم. ثم توجهوا صوب الكنيسة، وأخذوا يهشمون كل ما هو مقدس بداخلها، كما لو كانت كل مشاعر السعادة والسرور منوطة بذاك الأمر وحسب، كذلك فقد استولوا على ملابس القساوسة الرسمية وكل ما هو ثمين داخل المكان. كانت المعاملات السيئة والعقوبات المخزية التى أخضعوا لها المسيحيين الأسرى هناك متعددة، وبعد أن أمعنوا فى إذلالهم، قتلوا ستة عشر شخصًا، من بينهم كاهنان قانونيان يدعيان لويس دى خوركيرا Luis de Jorquera و بدرو رودريغيث دى أرثيو Pedro Rodríguez de Arceo، وشماس

(*) يقصد رئيس محاكم التفتيش فى مملكة غرناطة بدرو دى ديثا، والأب ألبوتوبو الذى ولد لأبوين مسلمين ثم تحول إلى "فقيه" المسيحيين. راجع الكتاب الرابع، الفصل الرابع...، صفحة ٢٩٥ (المترجمة).

الكنيسة دييغو بيريث Diego Pérez، ورجل ثرى اسمه بدرو مونتانيّيس Pedro Monta?és، وكذلك زوجته، وطفلة رضيعة كانت تحملها بين ذراعيها. حيث أخرجوهم جميعًا عرايا، موثوقى الأيدى إلى خارج البلدة، وهم يضربونهم بالعصى ويصفعونهم، ثم جرحوهم فى وحشيةٍ بالرماح والسيوف والحجارة.

اندلعت شرارة الثورة فى بيتريس دى فيريّرة عشية عيد الميلاد المجيد، فى يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من ديسمبر، كما حدث فى باقى أرجاء تلك الطاعة. عندما استشعر المسيحيون المقيمون بها، وغيرهم ممن تصادف وجودهم هناك القلاقل التى تدور بين الأهالى، التجأوا إلى برج الكنيسة، أما المسلمون فقد قاموا بنهب دورهم ومحاصرتهم. عندما فطن الثوار إلى أنهم قد أحاطوا بهم، وأن المسيحيين يدافعون عن أنفسهم، قام أحد الموريسكيين البارزين فى تلك البلدة واسمه ميغيل دى إيريّرا Miguel de Herrera بإقناعهم بالاستسلام مستخدمًا كلماتٍ عذبة، حيث أخبرهم أنهم لن يُقتلوا؛ فاستسلموا بالفعل، حيث أدركوا أنهم لا يقدرون على مواصلة دفاعهم غير المجدى. حينئذ شرع الموريسكيون فى نهب الكنيسة وسرقة محتوياتها وتحطيم المذابح. حمل ميغيل دى إيريّرا الأسرى إلى بيته، وإلى بيوت رجال مهمين آخرين، وبث فيهم الأمل بأنهم لن يموتوا. بعد أن مكث المسيحيون هناك طيلة ثلاثة أيام، حضر الخائن فرج، وأمره بالاجهاز عليهم. حينئذ حُمِل الجميع إلى منزل دييغو دى لا أوث Diego de la Hoz، وكان مسيحيًا موسرًا يسكن فى تلك البلدة؛ ثم أُذِيعَ أن كل الموريسكيين والموريسكيات الذين يودون الابتهاج بموت أعدائهم عليهم التوجه إلى الميدان لمشاهدة الميتة التى سيلقونها، أنذاك شعر الجميع بالخيلاء.

كان الكاهن القانونى خيرونيمو دى ميسا Jerónimo de Mesa لأول من أُخرِجَ من المنزل، حيث قام الثوار بوضع بكرة ملفوف عليها حبل غليظ أعلى برج الكنيسة، ثم ربطوا به ذراعيه إلى الخلف، ثم رفعوه إلى الأعلى، وتركوه يهوى إلى الأرض فجأة ثلاث مرات وذراعاه مخلوعتان، فكان من جراء ارتطامه ببلاطة على الأرض أن تهشمت عظام قصبة رجليه وفخذيه فى حضور والدته؛ وهى امرأة مسيحية صالحة من أصل

موريسكى، فما كان منها إلا أن توجهت نحوه فى شجاعة الرجال، وقبّلت وجهه مراتٍ عديدةٍ، وقالت له: "يا بنى، تقوى بالرب وأمه القديسة، ففى أيديهما خلاص أرواحنا، أما التعذيب فسوف ينقضى سريعًا". حينئذ رفع الكاهن عينيه إلى السماء، وتوجه بجزيل الشكر الأبدى إلى المسيح عيسى، وهو يذرف دموع التفكر فى جسارة من لا يستشعر تلك الآلام. عندما رآه الملحدون على ذلك الثبات، وهو يمجد الرب من كل قلبه، اقتربوا منه وقالوا له بغية امتهانه: أيها الكلب، اتل الآن صلاة "السلام عليك يا مريم"، ولنرى إن كانت قادرة على إخراجك من هنا!". بعدها عادوا إلى رفعه مرة أخرى أعلى البرج، وتركوه يسقط للمرة الرابعة، ثم تركوه ولفوا حبلاً حول رقبته، ثم أسلموه إلى الموريسكيات ليأخذوا هن أيضًا ثأرهن منه، فقامت تلك النسوة بسحبه إلى خارج البلدة، وجرحوه بالخناجر والرماح الصغيرة والحجارة حتى أجهزن عليه. ثم عادوا أدراجهم لمواجهة أمه: فبصقوا فى وجهها، ونعتوها بالكلبة المسيحية، ونتفوا شعر رأسها، وقاموا بصفعها، وأحدثوا بها الكثير من الإصابات، وألقوا عليها الحجارة حتى أردوها صريعة فوق جثة ابنها.

عقب انتهاء ذلك المشهد أخرجوا كلاً من دييغو دى لا أوث، وحاكم توربيسكونّ Torviscón، وفرانثيسكو دى كامبوسانو Francisco de Campuzano، ومسيحيين كثيرين غيرهم، وحملوهم إلى المكان الذى سيقتلونهم فيه. عندما قام نفر من المسيحيين برسم رمز الصليب بإبهامى يديهم وتقبيله؛ لأن أيديهم كانت موثقة، توجه الموريسكيون إليهم وقطعوا أصابعهم. كان ضمن أولئك المسيحيين غلامان، يبلغ عمر أكبرهما ثلاثة عشر عامًا، وهو ابن أنطون مارتين Antón Martín أحد المتعاونين مع محكمة التفتيش المقدسة، وقد عاونهما الرب وأخذ بيدهما فى ذاك اليوم، حيث لم تجد معهما توسلات أو وعود أو تهديدات لحملهم على الارتداد عن دينهم. عندما رغب الثوار فى إخراجهما وقتلهما مع الآخرين، قام فتى يدعى بدرو، وكان ابن دييغو دى لا أوث، وتوجه إلى أمه، وقال لها بمحيا طلق: "فلتصلى للرب من أجلى يا والدتى"، فأجابته الأم وهى تبكى: "أى بنى، أنت من يجب أن تبتهل من أجلنا جميعاً"، فأجابها الصبى: "سأفعل بكل

تاكيد يا سيدتى، ولا تحزنى لموتى، فأنا سأرحل فى سعادةٍ بالغة، مسروراً لموتى من أجل المسيح عيسى". ثم وصلوا فى صعوبةٍ بالغةٍ إلى المكان الذى كان به المسيحيون القتلى الآخرون، حيث جثوا على الركب دون أن يرهبوا ذلك الموت الوشيك، فهم ذهبوا لينعموا بالسعادة فى الحياة الأبدية عندما ضرّج أعداء عيسى المسيح سيوفهم بدمائهم.

الأمر الذى يستحق الإشادة قطعًا، وهو جدير بأن نتوجه بالشكر إلى الرب القوى من أجله، هو أنه على مدار كل ذلك لم يقدم رجلٌ أو امرأة، كبيرٌ أو صغير، قسيسٌ أو كاهن على الارتداد عن الدين. بل إن بعض الموريسكيين والموريسكيات فرحوا لأنهم سيموتون فى سبيل العقيدة المسيحية، وقدموا أنفسهم لتلك التضحية عن طيب خاطر، مظهرين حميةً كانت تشتد كلما شاهدوا الفظائع التى تُقتَرَف فى حقهم. عانى فى ذاك الموضع ثلاثة وعشرون مسيحيًا وتعذبوا تطبيقًا لحكم ميغيل دى إيرّيرا، وكان هو القاضى الذى أدانهم. أما المنفذون الرئيسون لتلك الجريمة فهم: لورينثو دى مورثيا Lorenzo de Murcia، ولورينثو كامباناري Loerenzo Campanari وميغيل دى مونتورو Miguel de Montoro، وميغيل ثينين Miguel Zenin، والمحمى el Mehme. أُرتكب فى تلك المواضع الكثير من الفظائع الأخرى، التى أمتنع عن ذكرها؛ فنحن إذا رغبنا فى سرد كل ما حدث، سيضحى لزامًا على القارىء بذل مجهودٍ شاقٍ ومطالعة عدد كبير من الصفحات.

الفصل الحادى عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى أرجاء طاعة خوبيليس، ووصفا لها

طاعة خوبيليس يجاورها من الغرب كل من طاعتى بوكيّرة وفيريّرة، ويحدها من الشمال جبل شلير، وهى متاخمة للساحل من جهة الجنوب، ولبلدة أوخيخار دى ألباثيتى من ناحية الشرق. وهى أرض تغص بالجبال والصخور، خاصةً الجهة الواقعة بالقرب من جبل شلير. تضم خوبيليس عشرين قرية أسمائها كالتالى: بالور، بينياس إى إخين Viñas y Exen، ميثينا دى بومبارون، ياتور Yátor، ناريلا Narila، كاديار، تيمين Timen، بورتيل Portel، غوركو Gorco، كوخوريو Cuxurio، بيرتشول Bérchul، ألكوتار Alcútar، لوبراس Lobras، نيليس Nieles، كاستاراس Cástaras، نوتايس Notaes، تريبيليث، وخوبيليس وهى رأسها جميعًا. يوجد ناحية بيرتشول كهوفٌ ضخمةٌ نحتتها الطبيعة، وحصّنتها بين الصخور فى أماكن شديدة السرية. كان الموريسكيون يحتفظون فيها بمؤونة وفيرة تعينهم وقت الحاجة. يحيط بتلك الطاعة من جهة الشرق والجنوب نهر ينبع من أعلى قمة فى جبل شلير، بجوار ميناء لُه، الذى يعنى اسمه ميناء اللَوح؛ لأن هناك قطعة من الأرض السهلية كائنة فى أعلى نقاطه، وهى التى يعبر من خلالها جبل شلير، حيث يسير من وادى آش إلى البشرات. هذا هو النهر الذى يطلقون عليه كاديار؛ وتقع طاعة خوبيليس بين ذلك النهر والنهر الذى ذكرنا آنفًا أنه يسيل بجوار تريبيليث ليحيط بطاعتى بوكيّرة وفيريّرة. وهى عامرة بالقمح، والحبوب، والشعير، والذرة؛ وبها أعداد وفيرة من الأغنام، بيد أنها لا تحتوى على العديد من الغيلات، كما أن الحرير الذى تنتجه لا يضاهى فى جودته ما تنتجه الطاعات الأخرى، خاصة تلك الكائنة داخل نطاق خوبيليس ذاتها.

خوبيليس هى الموضع الرئيس بتلك الطاعة، وفيها يمكن رؤية أطلال قلعةٍ قديمةٍ موجودةٍ بمنطقة كبيرة للغاية ومنيعة، ويروى الموريسكيون القدامى أنها على عهد المسلمين كان بها قائد ورجال حرب، بغرض فرض السيطرة على تلك الأرجاء، وكانت أشد مناطق البشرات اضطرابًا، وأهلها متوحشون للغاية. بادر موريسكيو هذا الموضع، وسائر أنحاء تلك الطاعة باشعال الثورة فى يوم الجمعة الموافق لعشية عيد الميلاد المجيد، عندما أجهز الثوار على المسيحيين الذين توجهوا إلى كاديار برفقة القائد إيرّيرا. كان أول ما فعلوه هو سرقة الكنيسة وتهشيم ما ألفوه بداخلها، ثم هرعوا إلى منازل المسيحيين القاطنين فى ذلك المكان، بعد أن تغلبت مشاعر الحقد على الجشع، فشرعوا فى نهبها، ثم اعتقلوا الأهالى وأودعوهم الكنيسة برفقة رجال للحراسة؛ وقد تحفظوا عليهم هناك لعدة أيام، قاموا خلالها بوعظهم حول شؤون عقيدتهم، وحثوهم على الارتداد والعودة إلى اعتناق الإسلام، ومكثوا على حالتهم تلك حتى عودة فرج، الذى أصدر أوامره بقتلهم جميعًا. فقاموا بقتلهم جميعًا تنفيذًا لأمره فى يوم الخميس الموافق الثلاثين من ديسمبر. كان أول من بدأوا بهم الكاهن القانونى سلبادور رودريغيث Salvador Rodríguez، والقسيس مارتين روميرو Martín Romero، وشماس الكنيسة أندرِس مونخى .Andrés Monje فحملوهم عراةً، بعد أن أوثقوا أيديهم خلف ظهورهم، إلى أحد الحقول على مقربة من الكنيسة، حيث انهالوا عليهم طعنًا بالخناجر حتى لفظوا أرواحهم ومعهم اثنان من الرهبان الخدام. تواجد فى نفس المكان مسيحيون آخرون من الأسرى يوشكون أن يلاقوا المصير ذاته، لكن تصادف مرور السيد إيرناندو الصغير فى ذلك المكان، أثناء تفقّده لتلك البقاع، فحررهم وأسلمهم إلى موريسكى من أهالى المكان لكى يضطلع بحمايتهم إلى أن يطالبه بتسليمهم. تلك الفظائع التى اقترفها ابن فرج لم ترق للصغير على الإطلاق، بل إنها روعته هو ومن صاحبه فى رحلته، بيد أنه لم يجرؤ على معارضته خوفًا من أن يصيبه المسلمون الثائرون بسوء، ويقولوا إنه يحابى المسيحيين أو إنه يرأف لحالهم؛ من أجل ذلك انحاز إلى جانب ابن فرج، فنصبّه الثوار وزيرًا له، انطلاقًا من كونه رجلاً معاديًا ومضطهداً لكلمة مسيحى.

ثار أهالى ألكوتار فى نفس اليوم الذى ثار فيه أهالى خوبيليس، فسرقوا الكنيسة، وهشموا الأيقونات والصور، وحطموا كل الأشياء المقدسة، ولم يدعوا إثمًا إلا اقترفوه أوحرمةً إلا انتهكوها، يرافقهم فى ذلك الثوار الجبليون وقائدهم إستيبان بارتال Esteban Partal. فتوجهوا إلى منزل القاضى الكنسى دييغو دى مونتويا Diego de Montoya، وهو الكاهن القانونى لذاك الموضع، واقتحموه عنوةً، وقتلوه بنصل أحد السهام. ثم اعتقلوا ابن أخيه الأب مونتويا، وقطعوا إحدى يديه، ونهبوا كل ما بالدار. ثم أسروا كلاً من خوان دى مونتويا Juan de Montoya، الكاهن القانونى لكوشوريو دى بيرتشول Cuxurio de Bérchul، الذى تصادف وجوده هناك، ومسيحيين ومسيحيات آخرين كانوا يعيشون فى المكان؛ ثم حملوهم إلى كوشوريو برفقة أسرى آخرين وقتلوا الجميع هناك، كما سنذكر لاحقًا. وقد أظهروا ما يشعرون به من أسى عميق لعدم اعتقالهم للقاضى الكنسى دييغو دى مونتويا، لأنهم كانوا يودون الأخذ بثأرهم منه فى تؤدة شديدة.

كذلك فقد ثار أهالى ناريلا فى مساء الجمعة، فحطموا الكنيسة ومنازل المسيحيين وقاموا بسرقتها، واعتقلوا الجميع، وكان بينهم أحد القساوسة المختصين بإقامة القداس يدعى ثيبريان سانشيث Cébrian Sánchez، وحملوهم مربوطى الأيدى إلى ألكوتار. كان الثوار قد أبقوا على الأسرى، ووعظوهم حول شئون عقيدتهم، وحاولوا اقناعهم باعتناق الديانة الإسلامية، وهددوهم بأنهم سيلقون ميتات بشعة إذا لم يطيعوهم؛ وعندما أدرك الموريسكيون أن محاولات الاقناع والتهديد لم تجد نفعًا، جردوا كل الرجال من ثيابهم، وبعد أن أوثقوا أيديهم خلف ظهورهم، اصطحبوهم إلى كوشوريو حيث قتلوهم. وقد نفذّ تلك الفعلة الشنعاء لوبى سينيث Lope Seniz وغونثالو سينيث Gonzalo Seniz، وهما من أهالى كوشوريو دى بيرتشول، وكانا من قادة الثوار الجبيين ومن أشد مضطهدى المسيحيين قسوةً.

اندلعت الثورة فى كوشوريو دى بيرتشول فى أوان قيامها فى باقى مواضع البلدة. فى بداية الأمر دلف الثوار المذكورون إلى الكنيسة ومشاعر الحنق الشديد

تعتمل فى صدورهم، فهشموا الأيقونات والصور وجرن المعمودية المقدس، وحطموا خزانة القربان المقدس؛ فلمّا لم يعثروا على قربان المناولة المقدس، وكان الكاهن القانونى بدرو كريسبو Pedro Crespo قد تناوله، قاموا بإلقاء كل الأشياء المقدسة على الأرض فى ازدراءٍ وتحقير. فى أعقاب ذلك توجهوا صوب منازل المسيحيين بغرض سرقتها، واعتقلوا الكاهن القانونى، الذى كان قد اختبأ فى منزل موريسكى صديق له، وقتلوه فى قسوةٍ بالغة. حمل الثوار الموريسكيون المسيحيين الذين أسروهم فى ألكوتار وناريلا إلى ذاك الموضع، وقتلوهم جميعًا أمام الكنيسة. أما الكاهن القانونى خوان دى مونتويا، الذى كان الثوار قد اعتقلوه فى ألكوتار، فقد اقتلع أحد أولئك المارقين عينه اليمنى بالخنجر، ثم أردوهم جميعًا قتلى فى أرض الميدان بعد أن قذفوهم بالبنادق والسهام، وقد شهد مقتلهم كل من إستيبان بارتال ولوبى السينيث وآخرون من قادة الثوار الجبليين.

كما ثار أهالى ميثينا دى بومبارون فى مساء يوم الجمعة، حيث نهبوا الكنيسة، وكسروا الأيقونات، وحطموا التماثيل الموقرة، وهدموا المذابح، وفى نهاية الأمر خربوا وسرقوا كل ما هو مقدس؛ ولّما ألفوا المسيحيين غافلين، ألقوا القبض عليهم جميعًا وسلبوا منازلهم. وقد رفع الثوار فى ذلك الموضع رايةً من حرير قرمزى، مشغولة بخيوط الذهب، تزينها فى المنتصف قلعةٌ لها ثلاثة أبراج فضية اللون، كانوا يحتفظون بها منذ عهد المسلمين، وكان صاحبها رجلا من أهالى المكان يسمى أندريس حامى Andrés Hami. وقد قبضوا على الكاهن القانونى فرانثيسكو دى ثيربيّا فى بيته، وعقدوا يديه خلف ظهره، وانهالوا عليه صفعًا وضربًا بالعصى، وتنقّلوا به من حجرةٍ إلى أخرى حتى أسلمهم النقود والثياب التى كانت بحوزته؛ ثم دفعوا به إلى خارج الدار، حيث تقدم باتجاهه رجل موريسكى كان من أعز أصدقائه، وكان قد طلب أن يلقاه على عتبة الباب وكأن الأمر مصادفةً، فأمضى سيفه فى جسده وهو يقول له: " خذ أيها الصديق، من الأفضل أن أقتلك أنا عن أن يجهز عليك غيرى"، وأخذ هؤلاء المدنسون يرمونه بالحجارة ويطعنوه بالخناجر حتى قضوا عليه تمامًا. وهم لم يكتفوا

بذلك، حيث تناول واحد من الموجودين هناك عصا وانهال على جسده ضربًا إلى أن حطّمه من قدميه حتى رأسه. فى صبيحة يوم أخر سحبوا جثمانه إلى خارج المكان وألقوا به فى هاوية. لم يمض وقت طويل بعدها حتى كانوا قد أراقوا دماء كل المسيحيين الأسرى، وكان بينهم الكاهن القانونى خوان غوميث Juan Gomez، والقسيس خوان بالومو Juan Palomo، بعد أن أخضعوهم لشتى صنوف الإذلال والوحشية. كان من لاحق المسيحيين فى قسوة فى تلك الناحية حاكمها ميغيل دالوى Miguel Daloy.

تضم بالور حيين، أحدهما علوى والآخر سفلى، وقد ثار كلاهما بحلول مساء الجمعة. عندما استشعر القساوسة والرهبان الخدام المقيمون هناك وجود قلاقل، تحصنوا فى برج كنيسة الحى السفلى، وقضوا به ليلتهم فى حذر شديد. قام المسلمون بسلب كنيسة الحى العلوى وديار المسيحيين، وفى صباح اليوم التالى حاصروا من بالبرج، وأكد لهم بيرناندينو بن ثابا Bernandino Abenzaba أنه لن يصيبهم بأذى، وأسرهم جميعًا. عندما فرغ المسلمون من تحطيم وسرقة تلك الكنيسة أيضًا، ساقوا المسيحيين موثوقى الأيدى إلى بعض المنازل، ومكثوا عدة أيامٍ يرشدونهم حول تعاليم طائفة محمد. عندما فطنوا إلى أن عظاتهم لم تجد نفعًا؛ لأن الجميع قالوا إنهم مسيحيون ويتوجب عليهم الموت من أجل المسيح[١٦]، ساق المارقون الرجال عراةً ومقيدين إلى خارج المكان، حتى جعلوهم يفترشون ساحة الميدان، ثم أطلقوا عليهم الرصاص ورموهم بالسهام. كان أول من قتلوهم ثلاثة كهنة قانونيون هم: حامل الإجازة ديلغادو Delgado، وألونسو غارثيّا Alonso García، وتيخيرينا Tejerina؛ وشماسين للكنيسة أحدهما يدعى فرانثيسكو دى ألمانسا Francisco de Almansa.

---

(١٦) اللافت للنظر هنا أن جميع المسيحيين يثبتون على عقيدتهم رغم التعذيب، هذا إن صحت الرواية. الرسالة التى يريد المؤلف توجيهها واضحة: إذا كان مسلمو غرناطة لم يثبتوا على عقيدتهم الإسلامية فى أثناء التعذيب فليس هذا ذنب المسيحيين، بل معناه قلة اقتناع الغرناطيين بالإسلام. (المراجع).

كان هذا المكان هو مسقط رأس السيد إيرناندو دى بالور Hernando de Valor، بيد أنه لم يكن موجودًا آنذاك؛ وحتى إن وجد، ما كان الثوار سينتهون عن اقتراف تلك الفظائع، وهو لم يشأ معارضتهم؛ لأن قريتهم أضحت الأكثر ضراوةً، والأشد التزامًا بالتعذيب، والأقل توقعًا للصفح والمغفرة. من أجل ذلك نراه إن كان سمح بالتجاوزات عدة مرات، فهو من قام بها فى الكثير من الأحايين، وذلك من أجل أن يُعده الناس عدوًا للمسيحيين.

فى اليوم نفسه والساعة التى اندلعت فيها شرارة الثورة فى بالور، ثارت ييخن Yegen وياتور، ولم تقل الفظائع التى ارتكبت بهما عن مثيلاتهما: فقام المسلمون بتخريب وسرقة الكنيسة وبيوت المسيحيين، وأسروهم جميعًا، ونكلوا بهم، ثم أجهزوا عليهم بمنتهى القسوة. كان من ضمن من قتلوهم صاحب الإجازة برابو Bravo، وشماس كنيسته، وأحد المواطنين يدعى خوان دى مونتويا Juan de Montoya، كان قد تمكن من الفرار بعد أن جرحه نصل سهم فى رأسه، وتوجه إلى أوخيخار حيث مات هناك مثلما حدث مع كثير من المسيحيين الذين كانوا هناك.

الفصل الثانى عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى بقاع الساحلين، ووصفا لها

الساحلان هما طاعتان متجاورتان على شواطىء البحر. أما تلك الطاعة الواقعة إلى ناحية الغرب فيسمونها سويحل Zueyhel، وهى صيغة تصغير، تعنى أنها أقل مساحةً من الأخرى. ويتاخم تلك الطاعة من جهة الغرب جبال خوبيلين الكائنة بمدخل البشرات، حيث توجد كل من روبيتى، وبأرخيش Bárgix، والقصر، وكذلك طاعة أورخيبا. أما الساحل الأكبر فيحده من الشرق أراضى أدرا؛ وكلا الساحلان يطلان على البحر الأبيض المتوسط من جهة الجنوب، ويجاوران طاعة فيريّرة وخوبيليس وجزءًا من أوخيخار. ويضم كلاهما أحد عشر موضعًا هى: ألبونيول Albuñol، وتوربيس‡كون ، وتورونّ Turón، وميثينا دى توديل Mecina de Todel، بورديماريلا Bordemarela، ودِتيار Détiar، وكوخايار Cojáyar، وفورونون Foronon، ومورتاس Murtas، وخوُرايّراتا Jorayrata، وألميخيخار Almejíjar. تحتوى تلك الأراضى على غاباتٍ ضخمةٍ من أشجار البلوط، وبها وفرة من الكلأ لرعى الأغنام، كما يُحصَد بها كمية من الدقيق. أما البقاع المطلة على ساحل البحر فهى غير آهلة بالسكان، ومن ثم تُعَد خطيرةً للغاية، إذ يؤمها القراصنة الأتراك و مسلمو شمال إفريقيا. يحيط بهذه الطاعة نهران: النهر الذى يجرى ناحية الشرق يسمى نهر أدرا، أما ذاك الكائن بالناحية الغربية فهو ينبع من السويحل ذاته على مقربةٍ من البحر، ليتجه إلى الداخل نحو الشمال، ويكمل انحداره بصورةٍ شديدة التعرج إلى أن ينضم إلى نهر القصر، الذى يسيل من جبال خوبيلين أسفل إسكاريانتيس Escariantes الواقعة فى طاعة أوخيخار.

ثار أهالى كل تلك البقاع التى ذكرناها آنفًا مساء يوم الجمعة، فحطموا الكنائس وسرقوها، وأسروا وقتلوا كل المسيحيين الذين كانوا يقيمون بين ظهرانَيْهم، ثم غادروا منازلهم ليتوجهوا فى اليوم التالى إلى الشعاب الجبلية الوعرة برفقة نسائهم وبنيهم وأغنامهم، حيث لجأ غالبيتهم إلى كهوفٍ شديدة الضخامة وجيدة التحصين، تقع على مسافة نصف فرسخ إلى الأعلى من خُورايّراتا.

فى أعقاب قيام أولئك المارقين المدنسين للمقدسات بنهب الكنيسة فى خُورايّراتا، واقتراف أيديهم العنيفة لآلاف الشرور وانتهاكهم للحرمات، جمعوا كل السجناء بداخلها، وكان من بينهم الكاهن القانونى فرانثيسكو دى نابارّيتى Francisco de Navarrete وسادن الكنيسة، واستبقوهم هناك طيلة ثلاثة أيام حتى صدور قرار من فرج بن فرج يقضى بقتلهم. حينئذ أخبر رجل مسلم يدعى لوبى دى قزمان Lope de Guzmán، كان يعمل حاجبًا بتلك البلدة، الكاهن القانونى أن عليه أن يدرك أنه هو وكل الموجودين بالمكان ميتون لا محالة، وأنه فى وسعه إبقاؤهم أحياءً عدة ساعات أخرى، فتوسل إليه الكاهن أن يمنحهم مهلةً لتهيئة أنفسهم فى مساء ذاك اليوم والليلة التى تليه. وقد لبى المسلم مطلبه؛ لأنه كان صديقه، بعد أن سخر من سماعه يقول إنه يود تهيئة نفسه. عندما فطن القسيس إلى إن منية أولئك المسيحيين قد أمست وشيكة للغاية، صارحهم بالأمر وأخذ يعظهم حول أسرار محبة المسيح، مخلصنا. فقضى كل ما تبقى له من وقت فى تلك الليلة جاثيًا على ركبتيه منخرطًا فى الصلاة، وهو يطلب من الرب أن يغفر له خطاياه.

عندما أصبح النهار، عاد إليه الحاجب وقال له إن ساعته قد حانت، وإن بمقدوره إختيار الميتة التى يرغبها، وسوف يحققها له. فتضرع إليه الكاهن أن تُقطَع رقبته لكى لا يتألم طويلاً، وما إن يلفظ أنفاسه حتى يدفنه فى الكنيسة. فأجاب المسلم قوله فى ازدراء: " أما قطع رقبتك فسأقوم به، بيد أننى لا يمكننى ترك جثمانك بالكنيسة، لأننى سأجعل منها حظيرةً لماشيتى". حينئذ جثا القسيس خادم عيسى المسيح على ركبتيه

أمام المذبح المحطم والمتهدم، وشرع يصلي للرب، فجذبه المارق من يده حتى أوقفه، ثم ساقه إلى باب الكنيسة، وكان مجتمعًا عندها أناس كثيرون، فأسلمه إلى السيافين المارقين، هو وسادن الكنيسة، وقال لهم: "أما هذا الفقيه(١٧) الكلب الدنيء فأسلمكم إياه لكي تقطعوا رأسه؛ لأنه إبان اعتلائه للمذبح، كان يجعلنا نصوم حتى ينتصف النهار، بعد أن يكون هو قد تناول رغيفًا من الخبز، وشرب الخمر حتى الثمالة؛ وعقب قطعها اطعنوه بالرمح في قلبه، فقد كان يمعن في إظهار خطايانا، نحن من لم نحضر القداس أيام الآحاد وأثناء الأعياد، وكان يعاقب الغلمان الذين لا يرغبون في معرفة تعاليم الديانة المسيحية وهو سكران. لهذا اقطعوا رأسه وألقوها في برميلٍ من الخمر، ثم سلّموا جسده إلى الغلمان لاحقًا، لكي يرجموها بالحجارة قدر ما انهال عليهم بالسياط". بعد تلك المقولة أنفذ أعداء الرب الحكم الجائر، وعندما حل المساء توجهت بعض السيدات المسيحيات إلى الحاجب، من أجل أن يتوسلن إليه لكي يسمح لهن بدفن تلك الجثث حتى لا تأكلها الكلاب، فرد عليهن بأن يتركنها في الساحة؛ لأنهم كلاب كبيرة تأبى الكلاب على أنفسها أن تأكلها.

قام أهالي مورتاس بالثورة في نفس توقيت ثورة أهل خُورايّراتا، لكنهم سلكوا نهجًا لم يعرضوا فيه المسيحيين للأذى في تلك الليلة، بل أعطوهم الفرصة للاحتماء بالكنيسة يصحبهم الكاهن القانوني خوان غوميث دي بِيريسبادا Juan Gómez de Perespada. فيما بعد حضر برتولومي الفتين Bartolomé el Feten برفقة كتيبة من الثوار الجبليين يرفعون رايةً بيضاء يحملها لورينثو ميهغوا Lorenzo Mehgua، وانضم إليهم الجنود المسلمون من الغلمان، وقاموا سويًا بمحاصرة الكنيسة ومهاجمتها، فهدّموا الأبواب، ودلفوا إلى الداخل حيث حطّموا الصور التي تزيّن المذبح، وكسّروا الصلبان وجرن المعمودية، ونهبوا غرفة المقدسات وملابس القساوسة. لكنهم

(١٧) واضح من هذه الفقرة وفقرات أخرى أن وظيفة "فقيه" لم تكن حكرًا على المسلمين، فعالم الدين المسيحي هو فقيه مسيحي. (المراجع)

لم يسلبوا منازل المسيحيين الذين يستبسلون فى الدفاع عن أنفسهم داخل البرج، لكى يبثوا فى نفوسهم الطمأنينة، فأقنعوهم بكلمات طيبة أن يستسلموا، وأخبروهم أن باستطاعتهم الوثوق فيهم جيداً، فهم جيرانهم وأصدقاؤهم، وإذا ما أسلموهم أسلحتهم، فهم يؤكدون لهم أنه لن ينالهم سوء أو أذى.

عندما أدرك المساكين المحاصرون إنه ما من وسيلة تتيح لهم الإفلات من الموت إذا واصلوا دفاعهم المتشتت، أجمعوا أمرهم على الاستسلام، وهبطوا من البرج، فقام المسلمون بتقييدهم جميعًا إلى مبنى الكنيسة. فيما بعد صعد واحدٌ من الثوار الجبليين إلى أعلى البرج، ورفع رايةً موريسكيةً، وأخذ يعلن عن إرساء عقيدة محمد، كما هو الحال حينما يؤذن المسلمون لإعلان دخول وقت الصلاة. أما الباقون فقد توجهوا إلى منازل المسيحيين وقاموا بسرقتها وقتل بعض المرضى الذين كانوا يرقدون على الأسرّة فى وهنٍ شديد، حتى أنهم لم يقووا على النهوض. ولم يطل بقاء الآخرين على قيد الحياة بعدهم؛ لأن الثوار المارقين جمعوا صفوفهم كمن يتهيأ لاحتفالٍ مهيب، وساقوا الجميع إلى مقتلهم فى سرورٍ بالغ، وأخذوا يدقون طبولهم الصغيرة ويعزفون على المزامير، فأوقفوا المسيحيين حفاةً عراةً فى صفٍ واحدٍ فى مقبرة الكنيسة، بعد أن شدّوا وثاق أيديهم خلف ظهورهم، ثم أردوهم صرعى بعد أن قذفوهم بالبنادق والسهام، فقتلوهم جميعًا فى قسوةٍ بالغة، بعد أن بدأوا بالكاهن القانونى، وثنّوا بالسادن إستيبان دى ثامورا Esteban de Zamora. كما قتلوا سيدة موريسكية تدعى كاتالينا دى أرّويو Catalina de Arroyo، وهى والدة الكاهن القانونى أوكانيا Oca?a، لأنها قالت إنها تدين بالمسيحية، فحملوها إلى السيدات حتى يجهزن عليها، فبادرت بترتيل صلاة أنيما كريستى Anima Christi، ولفظت روحها وهى تبتهل إلى اسم المسيح العذب . أما أهالى تورونّ فكانوا على النقيض من أولئك القوم تمامًا، حيث جمعوا المسيحيين الثمانية عشر المقيمين بالموقع، ورافقوهم حتى أدرا، ليكونوا بذلك قد أوصلوها إلى بر الأمان ومعهم كل منقولاتهم.

الفصل الثالث عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى طاعة أوخيخار، ووصفا لها

تقع طاعة أوخيخار فى وسط البشرات، وهى أراض منحدرة، بيد أنها ليست بنفس درجة وعورة الطاعات الأخرى التى ذكرناها آنفًا. وتجاورها طاعة خوبيليس من ناحية الغرب، وجبل شلير من الشمال، بينما يحدها كل من الساحل الكبير وأراضى أدرا من جهة الجنوب، وطاعة أندرش من الشرق. تُحصد فى تلك الأراضى كميات من القمح، والدقيق، والشعير، والذرة؛ كما يوجد بها أيضًا مراعى جيدة للغاية للمواشى والأغنام، أما الحرير فليس بالكثرة ذاتها فى أوخيخار كما فى غيرها من الطاعات، وليس على نفس القدر من الجودة؛ وكذلك فإن قاطنيها لا يتمتعون بنفس المساحات الشاسعة من الغيلات. يحيط بتلك الطاعة من ناحيتى الشرق والجنوب نهر ينبع من العيون التى تخرج من البحيرة الكبيرة التى تقع أعلى جبل شلير على مقربةٍ من ميناء رباح، الذى تعنى تسميته باللغة العربية تجمع المياه. وينقسم ذلك النهر فى بداية مساره إلى فرعين: أكبرهما ينحدر باتجاه الغرب، ويكوِّن خلال مسيرته الكثير من التعرجات والخلجان دون أن يمر بأى من البقاع الآهلة بالسكان حتى يصل إلى إسكاريانتيس، حيث ينضم إليه نهران آخران ينبعان من الجبل ذاته. أما الفرع الآخر فيسيل باتجاه الشرق، ليعبر خلال الطاعة، ويمر إلى الغرب من أوخيخار دى ألباثيتى، وهو الاسم الذى يطلقه المسلمون على المكان، الذى كان يصنف كمدينة إبان تسيّد الملك أبى عبد الله الزغيبى للبشرات. وينبع من العين ذاتها التى يخرج منها النهر الذى أشرنا إليه نهر آخر يتوجه تياره أكثر إلى ناحية الشرق، ليمر إلى جوار لاروليس

Lároles، ومنها يعود أدباره إلى أوخيخار، حيث ينضم إلى ذراع أخر ينبع من عين ثانية تسيل من عدة جبال أقل ارتفاعًا تقع شرق البحيرة المذكورة. فيما بعد أطلق الأهالى على النهر اسم باتيرنا Paterna، نسبةً إلى أحد المواضع التى يجرى خلالها. كل تلك المياه تعبر خلال أوخيخار، فى منتصف الطريق التى تقطعه لتصب فى البحر المتوسط، وهى تتجه بعد ذلك لتجرى بمحاذاة داريّكال، إلى أن تصب فى البحر فى مكان قريب من بلدة أدرا. من أجل ذلك يطلقون على هذا النهر، بعد أن تكون مياهه قد تجمعت فى مسار واحد، نهر أدرا.

تضم طاعة أوخيخار تسعة عشر موضعًا هى: داريّكال، وإسكاريانتيس، ولوكاينينا Lucainena، وتشيرين Chirin، وسوبرول Soprol، وأم قيرة Umqueira، وبتّينا Pezcina، ولاروليس، وأوندورون Unduron، وخوغار Júgar، ومايرينا Mairena، وكارخيلينا Cargelina، وألموثيتا Almóceta، والفحص، ونيتشيت Nechit، وميثينا دى الفحر Mecina de Alfahar، وتورياّس Torrillas، وأنكيّرة Anqueira، وأوخيخار دى ألباثيتى. هذه الأخيرة، كما سبق وأشرنا، هى البلدة الرئيسة، ولها صفة المدينة، وعادةً ما تحتوى على مقر دائرة القضاء المدنى والجنائى، ويقيم بها الحجاب والكتبة والحاكم العام للبلدة الذى ينصّبه المأمور القضائى لغرناطة بغرض الاضطلاع بشؤون القضاء فى سائر أرجاء البشرات.

كان الحاكم العام للبشرات آنذاك رجلا مثقفا من أهالى كوريل Curiel يدعى الأب ليون León، وكان على علم بالثورة التى ينتوى المسلمون القيام بها قبيل اندلاعها بثلاثة أيام، لأن الأب توريّخوس Torrijos الكاهن القانونى لداريّكال كان قد أخبره فى سرية، هو ورئيس دير رهبان أوخيخار، وهو من أهالى إيبيسكاس Illescas اسمه المعلم دييغو بيريث Diego Pérez، حيث قال لهما إن نفرًا من أصدقائه الموريسكيين أكدوا له أن الغرناطيين سيحيون ثورتهم الماضية، وأن الأمر بات وشيكًا. فما كان من الأب ليون إلا أن أذاع أن كل مسيحيى البلدة الذين يرغبون فى المحافظة على أرواحهم يتعين عليهم الاحتماء بالكنيسة، ليبيتوا فى موقع شديد التحصين عندما

يحين وقت القتال بالأيدى؛ ورغبةً منه فى نشر الخبر على وجه السرعة ودون إحداث جلبة، أذاع أن لديه معلومات مؤكدة تفيد بأن ما يربو على ألف تركى ومسلم من بلاد المغرب فى طريقهم إلى البلدة للاستيلاء عليها. بيد أن المسيحيين لم يقتنعوا بصدق ما قيل، وسخروا من ذاك النداء، وقالوا كيف يتسنى للأتراك الوصول إلى أوخيخار، وهو ما لم يسبق لهم القيام به قط، خاصةً فى فصل الشتاء، الذى تهب فيه عواصف عاتية؟.

أعقب ذلك بفترة وجيزة قرع الثوار الجبليين ناقوس الخطر فى يوم الجمعة، بعدما أجهزوا على القائد دييغو دى إيرّيرا فى كاديار، حينئذ ألفى المسيحيون أنفسهم غافلين: بعضهم لم يكن يحمل سلاحًا، وكثير منهم كانوا بملابسهم العادية دون أى دروع؛ هرولوا للاحتماء بالكنيسة وببرجين كائنين فى منزلى اثنين من الأهالى: كان أكبرهما مملوكًا لرجل موريسكى يدعى ميغيل دى روخاس Miguel de Rojas، والآخر يوجد فى منزل شخص متوفى اسمه بدرو لوبيث Pedro López، كان يعمل كبير كتبة محكمة أوخيخار. أما الكنيسة، وكانت فسيحة ومنيعة للغاية، فقد أوى إليها كل من الحاكم العام للبلدة، ورئيس دير الرهبان، والكهنة القانونيين، والكثير من الرجال المسلحين بالبنادق والأقواس؛ أما برج ميغيل دى روخاس فقد لجأ إليه كبير حجاب البلدة ويدعى دييغو دى باياثان Diego de Vallaizán يرافقه بعض الموريسكيين والمسيحيين؛ بينما احتمى أهالى بارزون آخرون فى برج منزل بدرو لوبيث. كانت الأبراج الثلاثة تشكل وضعية المثلث، بحيث تمنع من بالشارع أن يطل عليها، فأمطرهم المسيحيون بالسهام؛ كما كانت لديهم وفرة من الذخيرة لاطلاقها، حيث تم تزويدهم قبيل يومين بأربعة عشر حمل من البارود من مالقة، وقام الحاكم العام بتوزيعها على الرماة، لذلك لم يتسن للثوار الجبليين إحداث أى أذى سوى تحطيم السجن، وإطلاق سراح الموريسكيين المعتقلين، وكسر أبواب خزائن الكتبة، وإحراق كل الدعاوى. فى اليوم الذى يليه، وكان السبت الموافق لأول أيام عيد الميلاد،

تجمّع سائر موريسكيي وموريسكيات البلدة، ثم توجه المقاتلون إلى طريق بوربورون، التى تبعد ضعف مدى إطلاق ذخيرة البنادق، بحيث لا يكتشف من بالأبراج وجودهم، ومكثوا فى انتظار مجىء السيد إيرناندو الصغير وبارتال دى ناريلا، وكانا قد ذهبا لجمع أهالى البقاع المتاخمة لقتال أولئك المسيحيين، حيث لم يجرؤ من كانوا بالبلدة على التصدى لهم.

الفصل الرابع عشر

يتناول صدور تحذير القائد دييغو غاسكا حول وجود مسلمين فى الجوار، وخروجه من داليّاس لاقتفاء أثرهم، ووصوله إلى أوخيخار بينما المكان يموج بالثورة

فى تلك الآونة كان القائد دييغو غاسكا Diego Gasca، وهو من مالقة، موجوداً فى داليّاس برفقة أربعين فارساً من قوام كتيبته. وعندما وصله تحذير يوم الجمعة من أحد الجنود، الذين ذكرنا من قبل أنهم فروا من كاديار، حول وجود أعداء من المسلمين فى أرضنا، وما ألحقوه من ضرر برجال القائد إيرّيرا، صمم أن يخرج للبحث عنهم؛ وعندما تراءى له أنه لا مفر من الحاجة لأعداد من الرجال تربو على ما بحوزته، بعث رسالةً إلى السيد غارثيا دى بيّاروّيل García de Villaroel قائد القوات المقاتلة فى مدينة ألمرية، لينبهه إلى ذهابه لاقتفاء آثار أولئك المسلمين باتجاه أوخيخار، لكى يتهيأ ذاك الأخير للأمر ويخرج لترجيح كفته. ولم يتسن للسيد غارثيا القيام بذلك؛ لأنه توافرت لديه معلومات أوثق من القائد دييغو حول الثورة، ولمّا كانت أعداد الرجال المتوافرة لديه بالمدينة قليلة للغاية، وهناك العديد من الموريسكيين بين الأهالى، لم يجرؤ الرجل على ترك المدينة دون حماية فى ظل تلك الظروف.

ذهب دييغو غاسكا إلى بلدة أدرا، وحينما لم يجد بها أنباء حول رسو مراكب محملة بمسلمين من بلاد المغرب، عبر إلى بيرخا، ومنها أكمل مسيرته باتجاه داريّكال، وكان على علم بوجود الأب توريّخوس بها، لكى يستعلم منه عن سير الأمور. عندما

وصل إليـها، بعد أن انتـصف الليل، رأى أن أهلها قد غادروها جـميعًا، ووجـد منزل تورّيخوس خاويًا؛ فأدرك أنه لابد وأن يكون الأب ببرج الكنيسة، فذهب إلى هناك، حيث ألفى الجسر المتحرك مرفوعًا، وبعض الثياب موضوعةً حول النوافذ، فنادى عليه دون أن يتلقى ردًا؛ لأن الرجل لم يكن هناك: فبعد أن تحصن داخل البرج هو وأسرته، جاء إليه في أول الليل أحد موريسكيي لوكاينينا، وكان صديقًا له ويسكن إلى جواره، وحمله على مغادرة المكان بصحبته قبل أن يتمكن الثوار من محاصرته، وحمله إلى كهف موجود بسفح جبل غادور Gádor، حيث بدا له أنه من الحيطة أن يمكث به، إلى أن يتضح ما سيؤول إليه الأمر؛ وكان الأب قد ترك الجسر المتحرك مرفوعًا، والثياب موجودة فى النوافذ من قبيل الخديعة، ليوهم من يحضر إلى المكان أنه موجود بالداخل. عندما اعتقد دييغو غاسكا أنه لا يريد أن يستجيب إلى ندائه، شرع فى إهانته، ثم استكمل مسيرته حتى وصل إلى مشارف أوخيخار فى صبيحة يوم الأحد. تمركز القائد فى موضع يتيح للمسيحيين المحاصرين داخل البرج رؤيته جيداً، فشرع أولئك المسيحيون فى إظهار الفرح الشديد والسرور العارم، وأخذوا يشهرون الأعلام ويلوّحون بها، وبادروا بإطلاق نيران بنادقهم على الأعداء؛ لأنهم ما إن شاهدوا أناسًا يمتطون الخيول، حتى أدركوا أن النجدة قد جاءت. فطن المسلمون إلى الأمر ذاته، فلاذوا بالفرار بين شعاب تلك الجبال. ما لبثت الفرحة أن صعدت إلى رؤوس رجالنا، لأن دييغو غوسكا عندما ألفى الأرض تموج بالثورة، وأبصر المسلمين يهرعون للاحتماء بالجبال، ظن أنهم متوجهون لقطع طريق العودة عليه، فقفل عائدًا إلى أدرا دون أن يكون هناك ما يدعو لذلك بعد أن فقد واحدًا من السيافين كان قد قُتِلَ فى الطريق. جاءت تلك النجدة فى وقتها، وكان بالإمكان إنقاذ سائر المسيحيين الموجودين فى أوخيخار، لو كانت خيولنا قد توغلت إلى داخل البلدة؛ لأن قوات المشاة انضمت إلى الركب، وكانت أعدادها غفيرة، مما أمّن تراجعهم إلى أدرا. من حسن الطالع أن ذلك الأمر أسفر عن محصلة جيدة، حيث لم يمض الثوار قدمًا فى تنفيذ مخططهم الآثم، فقد فهمنا من بعض الرجال الذين نثق فى روايتهم، أن السيد فيرناندو الصغير ندم

على ما اقترفه، وأدرك أنه مشرف على الهلاك، فقال لمن معه فى ذاك اليوم: "يا إخوتى، نحن هالكون لا محالة، لقد غرر بنا الثوار الجبليون، وكان الغرناطيون يرغبون فى تنفيذ مخططهم والتضحية بأرواحنا نحن؛ فلنبحث عن سبيل آخر لنا". وهكذا أوشك نفر من رؤوس الأمر البارزين على تغيير موقفهم والعودة إلى ديارهم.

الفصل الخامس عشر

يتناول عودة الثوار إلى أوخيخار، وضربهم للبرجين اللذين يأويان المسيحيين، واستسلام المسيحيين لهم.

بعد عودة دييغو غاسكا إلى أدرا، رجع الثوار على أعقابهم وتمركزوا في طريق بوربورون، وتسللوا منها ليلاً إلى موضع المنازل، فتخللوها متنقلين من بيت إلى آخر؛ لأنهم لم يجرؤوا على الكشف عن وجودهم في الشوارع، خشية أن تصيبهم طلقات الرماة الموجودين في البرجين؛ إلى أن وصلوا إلى منزل بدرو لوبيث، فاقتحموه، وحاصروا البرج، وكان مشيداً بالكامل من الخشب، فأضرموا فيه النيران، وحرقوا الجسر المتحرك. وقد تزايدت جذوة النيران حتى أعلن الموجودون بالداخل عن رغبتهم في الاستسلام، وقد سُمِحَ لهم بذلك، وبينما تدلّت النساء بالحبال، حيث لم يتسن لهن عبور الأبواب التي كانت مشتعلة بالنيران، احترق كل الرجال الموجودين بالداخل تقريباً، ولم يتمكن أحد من الحيلولة دون ذلك.

عندما شاهد من بداخل برج منزل ميغيل دي روخاس تلك الوحشية، رأوا أنه من الأفضل أن يسلموا أنفسهم، وكان بالبرج بعض أقرباء ميغيل من الموريسكيين، ورجل ثري من وجهاء البشرات البارزين يدعى أندريس الوزير Andrés Alguacil، وعشرين غيرهم من المسيحيين؛ وقد أسلم البرج إلى المسلمين كبير الحجاب ذاته، الذي قرر من تلقاء نفسه أن يقنع الحاكم العام بتسليم برج الكنيسة، وأخبره أن المسلمين سيقدمون له كل الضمانات العادلة التي يطلبها، ومن أجل أن تجري عملية التسليم في أمانٍ تام، أعطى كل من الطرفين رهائن إلى الطرف الآخر: فسلّم المسلمون اثنين من أبناء ميغيل

دى روخـاس، وواحد من أبناء إخوته؛ بينما سلّم المسيحيون بارتولومى كيخادا Bartol-omé Quijada، وأحـد أبنائه، وغونثـالو بيـريث Gonzalo Pérez، وهو الكاهن القـانونى بتلك الكنيسـة وشقـيق رئيس دير الرهبان، وكذلك خـوان سانشـيث دى بينيـار Juan S?nchez de Pi?ar، وأحد أبنائه، ونائب المحكمة خيرونيـمو دى أبونتى Jerónimo de Aponte، وأيضًـا بارتولومى كيـخـادا(١٨) Bartolomé Quijada الكاتب العمـومى بتلك الدائرة القضـائية. وقد تم الاتفاق على ما يلى: "يدفع المسيحيون مائة دوقية وعشرة مقابل كل شخص، ويتخلوا عن أسلحتهم؛ ويتعهد المسلمون باصطحابهم سالمين معافين إلى أراضـى وادى آش أو بسطة؛ كـمـا تنطبق بنود تلك الاتفـاقـيـة على كل من الأب توريّخوس، والعالم اللاهوتى المحامى برابو Bravo، الذى كان موجوداً فى بثّينا، ولم يرغب فى الاخـتـباء داخل البرج". بعد تسليم الرهائن، دلف الكثير من المسلمين إلى الكنيسة، وبدءوا فى التعامل بصورة ودية مع المسيحيين، فعانق بعضهم بعضًا، وبدا فـعـلاً أن ذاك الشـأن قـد انـتـهى وطـوت صـفـحـتـه، لو لم يقـم الحـاكم العـام نفسـه بإفشال الأمر.

ألح ذلك الرجل على الرهائن أنه لا ينبغى أن يقبضوا منه أى نقود مقابل رأسه، أو رأس امرأته وابنته، وأنه يتعين عليهم إطلاق سراحه فى وادى آش؛ بيد أن المسلمين لم يقبلوا بذلك، وقالوا إن الجـميع سواسيـة، وأن الحـاكم العام لابد أن يكون أول من يدفع. حينئذ شرع الرجل فى الصراخ بصوت عال قائلاً: "اخرجوا! اخرجوا! اطرحوا أولئك الكلاب المارقين، من لا يحفظون دينًا أو عـهداً؛ وسـوف يضمن لى هؤلاء الرهائن البقاء على قيد الحياة حتى تأتينى النجدة"، ثم دخل إلى البرج، ورفع الجسر المتـحرك، وتأهب للدفـا ع عن نفسـه. لو كـان قـد تنبـه من بداية الأمـر إلى الدفـا ع عن الكنيسـة بأكملها، ربما كان سينجو من الهلاك؛ لأنه إضـافـةً إلى كون المبنى قويًا، فإن به مكان

---

(١٨) لا ندرى هل سلّم المسيحيون رهينتين يحملان الاسم نفسه، أم هذا تكرار غير مقصود من المؤلف. (المراجع).

لتخزين الماء والمؤونة لمدة تربو على الشهر، ولم يكن المسلمون سيقدرون على حرق البرج، كما حدث لاحقًا. لكن كونه رجلاً غير محنك فى أمور الحرب، حمله على الاعتقاد بأن تلك الحالة لن تدوم أيامًا طويلة، وأنه قادر على مجابهة الثوار من هناك بصورة أفضل، حتى يصله الغوث. ورغبةً منه فى منع المسيحيين من الهرب بعد عقد الاتفاقية، لأنهم كانوا بدأوا فى ذلك بالفعل، فقد ترك مبنى الكنيسة بعد وضع متراس أمام الباب، واستقر فى البرج مع الناس أجمعين.

وصل المسلمون فجأةً، وقاموا من خلف مبنى الكنيسة بتحطيم غرفة المقدسات وملابس القساوسة بالمعاول والقضبان الحديدية، ثم دلفوا إلى الداخل دون أن يجدوا أى مقاومة، سوى من مسيحى واحد أردوه قتيلاً؛ فكسَّروا الصلبان إلى قطعٍ صغيرة، وحطَّموا الأيقونات التى تزيِّن المذبح، وهشموا خزانة القرابين المقدسة، كما استولوا على ملابس الرهبان الرسمية المقدسة، وقاموا بالاستيلاء على حُلة القداس وقمصان الكهنة، استهانةً منهم بعقيدتنا المقدسة، فارتدوا القمصان وحلل القداس مقلوبة، ثم صنعوا منها جميعًا قلانس، وسراويل، وقمصانًا.

بعد الاستيلاء على الكنيسة، شرع الثوار يحسنون من أدائهم فى تلك الناحية، بعد أن أضحوا يضاهون رجالنا الموجودين داخل البرج فى القوة. فحفروا العديد من الحفر أسفل الجسر المتحرك، ثم أغرقوها بالزيت، وألقوا فوقها الكثير من أعواد الحطب و الخشب الخاص بأيقونات الكنيسة ومقاعدها ودككها، وكذلك كميات كبيرة من الأغصان المضفورة مع عيدان الخيزران والكتان بعد غمرها فى الزيت، ثم أضرموا فيها النيران. قام المسيحيون بسد فتحة باب البرج بالطين والحجارة، على النحو الذى منع ألسنة اللهب من االعبور إلى الداخل، على الرغم من احتراق الجسر المتحرك؛ فإن الحرارة الناجمة عن النيران كانت شديدة للغاية، فاخترقت الحوائط، وأحدثت حالة من الجفاف الكبير والعطش بين من كان ينقصهم الماء والطعام، وقد صاحب ذلك عويل النساء وصراخ الأطفال. كان هناك بعض الرجال الجسورين ممن أرادوا الخروج لقتال الأعداء، ظنًا منهم فى استطاعتهم النفاذ من خلالهم والحصول على حريتهم؛ فعقدوا

العزم على ذلك، وتناول رئيس دير الرهبان القربان المقدس، وبدأ الجميع فى الاعتراف بخطاياهم، وتمجيد الرب، وكانوا سيمضون قدمًا فى ما انتووه لو لم تثنيهم عبرات النساء المثيرة للشفقة حتى لا يخلفوهن وراءهم دون حماية، وهو ما حمل الرجال على سلك طريق أخر - فيما يبدو أكثر أمنًا، وإن كان أقل تشريفًا - لأنهم استسلموا فى نهاية الأمر بمقتضى الاتفاق الذى عقده معهم المسلمون؛ وهو ما كان ليعد تدبيرًا حسنًا للحفاظ على الأرواح، لو احترم الثوار عديمو الوفاء والرأفة العهد الذى قطعوه على أنفسهم.

بعد أن حارب المحاصرون ألسنة النيران على مدار أربع وعشرين ساعة، كانت جذوتها ولهيبها يزيد فى كل ساعة، وكذا أعداد الرجال الذين أتوا من سائر أرجاء المقاطعة ليشهدوا ذاك القربان، بدأ المسيحيون التعساء فى التدلى من البرج بواسطة الحبال؛ لأنهم لم يقدروا على الخروج من الباب المشتعل؛ وقد استلزمت كثرة عدد المحاصرين أن يستغرق الأمر ما يربو على عشرين ساعة، نظرًا لوجود سيدات حوامل وأطفال. عندما لامست أقدامهم الأرض، كانت الهدية التى أعدّها لهم أعداء الرب أولئك أن انهالوا عليهم ضربًا بالعصى وكيلاً للكمات، ثم جردوا كل الرجال من ملابسهم، وعقدوا أيديهم وراء ظهورهم، وحبسوهم داخل الكنيسة. بعد ذلك دخلوا إلى البرج وأطفأوا النيران، ونهبوا ما عثروا عليه بالداخل؛ ولمّا كانوا مارقين وآثمين، لم يرغبوا أن يتركوا ذنبًا إلا اقترفوه، فدفعوا بعضهم بعضًا فى إجرام وتجاوز شديدين إلى انتهاك سافر للمحرمات واقتراف مشين للآثام، دونما احترام لكل ما هو إلهى أو إنسانى، لكى ييأسوا جميعًا من التماس أى صفح.

الفصل السادس عشر

يتناول قتل الثوار للمسيحيين الذين استسلموا فى برجى أوخيخار، وكيف ندم الصغير على ما اقترفه وأراد إيقاف مسيرة الثورة

طبق الثوار الملحدون الأوامر القاسية التى أصدرها فرج بن فرج، كما لو كانت سعادتهم تكمن فى ذلك، فما أن انبلج صباح اليوم التالى، حتى اجتمع الثوار الجبليون والجنود المسلمون فى مقبرة الكنيسة، وأخبروا المسيحيين أنهم سيسوقونهم للحاق بمن كانوا داخل برج ميغيل روخاس، فأخرجوهم من الكنيسة اثنين اثنين، وهم حفاةٌ، وعراةٌ، وأيديهم معقودة خلف ظهورهم، وقتلوهم فى قسوة طعنًا بالرماح والسكاكين. كان منهم من ظل على قيد الحياة؛ لأنه كانت لديهم صداقات مع رجال انحازوا إلى جانبهم فى تلك المرحلة، خاصةً الصناع المهرة من الحدادين، وصانعى النعال، والنجارين، والخياطين، وكان بينهم شقيق رئيس دير الرهبان، وفرانثيسكو خيرونيمو دى أبونتى، وخوان سانشيث دى بينيار، ورهائن آخرين غيرهم؛ وقد أمر الخائن ابن فرج بقتلهم فيما بعد. لم يستبق الصغير سوى خيرونيمو دى أبونتى وخوان سانشيث دى بينيار فى مكان آمن ليحول دون قتلهم، ظنًا منه أنهما قد ينفعانه فى يومٍ ما، نظرًا لأواصر الصداقة القوية التى كانت تربطه بهما.

عندما شاهد رئيس دير الرهبان إخراج أولئك المسيحيين، وعلم أنه سيلقى المصير ذاته، أخذ يسير بين المسيحيات لحضهن على الاستبسال، والموت من أجل عيسى المسيح، فقال لهن إن عليهن أن يثبتن على عقيدتهن الكاثوليكية المقدسة، وأن يقاومن إغراءات الشيطان، وأن يثقن فى كرم الرب، الذى سيمنحهن الحياة الأبدية. وقد أدّت

كلماته تلك وغيرها مما كان يليق بحياته ومسلكه الطاهر إلى ذرف الكثير من العبرات، حتى جاءه أحد الجنود المسلمين وكال له لكمةً فى وجهه كانت من القوة بحيث أخرجت إحدى عينيه، ثم حضر إليه جندى أخر يحمل سيفًا، فقتله، وشق صدره بخنجر، وانتزع قلبه، ورفعه عاليًا فى يده، وأخذ يصيح قائلاً: "الحمد لمحمد[١٩] الذى جعلنى أرى بين يدى قلب ذلك الكلب المسيحى".

أما الأب ليون وكبير الحجاب، فقد حبسهما فى مصلى جرن المعمودية كل من الصغير وديبغو لوبيث ابن عبو، حتى ينتقما منهما، فأبقياهما هناك حتى الساعة العاشرة، ثم قاما بقتلهما. وحتى لا نغفل أى شىء يود القارئ معرفته، سنسوق فى هذا الموضع السبب الذى دعا هذان الموريسكيان، وهما من أبرز رجالات البشرات، إلى الشعور بالحنق الشديد على رجال الشرطة فى أوخيخار[٢٠] . كان هناك أخان أتى هذا الكتاب على ذكرهما يدعيان لوبى السينيث وغونثالو السينيث، وهما من أهالى بيرتشول، وكانا من كبار الثوار الجبليين الذين ينهبون ويقطعون الطريق على الناس، وقد قتلا قبل عدة أشهر تاجراً اسمه إينثيسو Enciso ومسيحيين آخرين كانوا عائدين من أحد الأسواق الموسمية، بقصد الاستيلاء على ما كان بحوزتهم من نقود. كانت بلدية المواضع التى تحدث تلك الجرائم ضمن نطاقها، ملزمةً بمقتضى قراراتٍ ملكيةٍ بتسليم المدانين أو دفع قيمة الأضرار، وكان من المنتظر إعدامهما فى مكان يقع بمنطقة حدودية، تجمع بين حدود خمس بلديات هى: كاديار، وناريلا، وبيرتشول، وميثينا دى بومبارون، وشريش Jériz التى تقع فى سند وادى آش. عندما علِم الحاكم العام للبشرات – وكان حينئذ الأب ليون سالف الذكر – بتلك الواقعة، بادر بمطالبة تلك

---

(١٩) من الأخطاء الشائعة عند المؤلفين الإسبان الظن أن المسلمين يعبدون محمدا صلى الله عليه وسلم (المراجع).

(٢٠) هذه من المواضع النادرة التى يورد فيها مارمول نقداً لتصرفات السلطات المسيحية تجاه الموريسكيين. (المراجع).

البلديات الخمس بتسليم الجناة، ودفع مقابل الأضرار التى أحدثوها؛ فشرعت كل بلدية فى تفنيد الدعوى من جانبها، قائلةً إنها لم تقع داخل حدودها، وعلى الرغم من ذلك مكث المسجونان أيامًا طويلة لدى الحُجّاب ونواب مجالس البلدية، الذين أدانوهما. ارتأى الأب ليون أن تغريم كل بلدية خمسين ألف دوقية عن كل مسيحى يقتل فى نطاقها ليس عقابًا كافيًا، وأنه يتعين زيادتها لردعهم فيما بعد، فأمر أن تدفع كل بلدية ألف دوقية أخرى، وأن يتم إلقاء القبض على الحجّاب ونواب مجالس البلدية، وأن يودَعوا السجون إلى أن يتم تسليم المجرمين. وقد استأنفت البلديات ذلك الحكم فى غرناطة، وحُبِسَ الحجّاب ونواب مجالس البلدية هناك أيضًا حتى تمت دراسة القضية، حيث بدا لمأمورى الجرائم أنه من الغلظة أن يرغب الحاكم العام فى خرق القوانين، وتعديلها وفقًا لرغبته الخاصة. فقضوا بإخراجهم جميعًا بكفالة.

عندما شهد أبناء إينثيسو ما حدث، لجأوا إلى المجلس الملكى ، وطالبوا بمجىء قاض محقق للنظر فى ذلك الحكم. إذ ذاك كان الأب مولينا دى موسكيرا مأمور الجرائم بمحكمة غرناطة، موجوداً فى قلهرة Calahorra بتكليفٍ من المحكمة الملكية لتولى قضية ضد ثوار جبليين آخرين قاموا بقتل أحد أبناء بدرو دياث دى مونتورو Pedro Dîaz de Montoro، وواحد من رهبان رهبانية القديس فرانثيسكو San Francisco يدعى دييغو دى بيّامايور Diego de Villamayor، وذلك فى يوم الاحتفال بعيد القديسة كاتالينا S anta Catalina من العام ذاته ١٥٦٨، فأمر المجلس الملكى بتكليفه بتلك الدعوى. من هذا المنطلق تعجل الثوار الجبليين فى القيام بالثورة، خوفًا من الوقوع بين يدى ذلك الرجل؛ الذى كان قد اعتقل ستين من رجالهم، وشنق بعضهم، عندما حاولوا إثارة البلاد آنفًا.

لنعد الآن إلى ما كنا بصدده، أدرك ابن عبو والصغير أن كل الضير والأذى الذى وقع فى حقهما كان بمقتضى العقوبة الصارمة التى قضى بها الحاكم العام لأوخيخار؛ وتذكرا أنهما إبان حبسهما كانا قد قدما إليه الكثير من الالتماسات، يطلبان فيها إطلاق سراحهما بكفالة، حتى يتسنى لهما الخروج والبحث عن الآثمين، بيد أنه لم

يرغب فى الاستجابة لمطلبهما؛ فلمّا وقع الحاكم وكبير حجّابه بين أيديهم أرادا الانتقام منه. توجه ابن عبو إلى قضبان المصلى الذى كانا حبيسين به وقال لهما: " أيها الكلبان، أتذكران عندما أمرتمانا بإحضار الثوار الجبليين الذين قتلوا المسيحيين؟ هل ترونهم؟ إنهم هؤلاء الماثلون أمامكما، أنتما يا من جلبتما الدمار لأنفسكما. وأنت أيها القاضى السيء، خذ هذه حتى لا تحكم بالظلم مرةً أخرى! يا من حبستنا دون جرم اقترفناه، وجردتنا من ممتلكاتنا". ثم وصل إلى الحاكم العام وحطم رأسه بالبلطة، حتى خر صريعًا على الأرض؛ ثم انقض الأخرون على كبير الحجّاب، وطعنوه حتى الموت؛ ثم سحبوهما إلى خارج الكنيسة، وحملوهما إلى قاعدة البرج. فألفوا هناك شحم خنزير مُسمَّن، كان المسلمون قد ألقوه من علٍ؛ لأنه شىء كريه لا يأكلونه، فوضعوا جثتى الرجلين بين الشحوم، وأحاطوهما بكميات كبيرة من الحطب، ثم أحرقوهما.

قُتِلَ خلال ذاك اليوم فى أوخيخار مائتان وأربعون مسيحى من القساوسة والرهبان الخدام، وكان بينهم ستة كهنة قانونيين من تلك الكنيسة، وهى أحد الكنائس التابعة لامتيازات الكاتدرائية. عندما شاهدت السيدات المسيحيات أزواجهن وأبناءهن وآباءهن يقتلون أمام أعينهن، بَدَوْن كالمسحورات من فرط الخوف والألم، فأخذت كل واحدةٍ منهن تنظر إلى الأخرى، دون أن تستطيع إحداهن البكاء أو استشعار أى أحاسيس أخرى، كلهن ينتظرن الموت، ويتمتمن بتضرعات وأدعية خفية على السيافين القساة. بعد أن أهرقت الكثير من الدماء المسيحية، بسبب الآثام التى اقترفها الثوار، قام الخونة -العبيد الذين أمسوا أسيادًا - بتوزيع المسيحيات على البقاع الحدودية لإبقائهن بها، حتى يبت ابن أمية فى مصيرهن. ثم استكملوا سرقة وتدمير الكنيسة، بوصفهم أناسا همجيين، يسخطون على مشاعر الحب والايمان والشفقة، وهم مجردون من خشية الرب، ويتصفون بالقسوة.

أعقب حدوث ذلك أن قام السيد إيرناندو الصغير، الذى كان يدرك مع كل ساعة أن نهايته قد باتت وشيكة، بجمع كبار رجال المسلمين البارزين مرةً ثانيةً، وعاود

التضرع إليهم لكى يضعوا نهايةً لتلك الثورة، وقال لهم إن عليهم التبصر وإدراك أنهم جميعًا هالكون لا محالة؛ وإن ما قاموا به هو نتاج عمى شديد وعدم دراية بالعواقب التى ستلحق بهم من جراء فعلتهم؛ وإن السبيل الأوحد للخروج من المأزق هو الزعم بأن الثوار الجبليين هم من اقترفوا كل تلك الشرور، على كثرتها وهذه هى الحقيقة؛ وإنه من الأجدى لأهالى البشرات أن يأمر جلالة الملك فيليبى بشنق ثلاثين أو أربعين موريسكيًا - وإن كان هو أحدهم- بدلاً من تدمير الأرض، وفقد الأبناء والنساء وسائر الممتلكات. لكن كل تلك الحجج لم تلقى صدى لدى الهمجيين الحانقين، وكانت ضمائرهم محملة بالعديد من الآثام، مما دفعهم للاعتقاد بعدم وجود مجال لإدراك الرحمة؛ وهكذا أجابوه أنه إذا كان يخشى المسيحيين، فليفعل ما بدا له، فالبشرات لا ينقصها رجال يذودون عنها.

لا يبدو لى من العدل ألا أتناول فى هذا المقام طفلاً قتله المسلمون فى ذلك اليوم، وسنسرد قصته وفقًا للمعلومات التى أمر رئيس أساقفة غرناطة بجمعها حول الأمر، وكانت تحت تصرفنا، وكذلك ما رواه لنا بعض المسيحيين الذين كانوا موجودين آنذاك. كان هناك طفل بداخل كنيسة أوخيخار يبلغ من العمر عشر سنوات، يدعى غونثالو Gonzalo، وهو ابن غونثالو دى بالكاثير Gonzalo de Valcácer، أحد أهالى مايرينا. حينما أبصر الفتى أباه يساق إلى مقتله، جثا على ركبتيه أمام المذبح الأكبر، وبدأ يصلى، وهو يذرف الدمع فى رقة وحنو، ويتضرع للرب لكى يمنح كل أولئك المسيحيين القوة، حتى يموتوا فى سبيل عقيدتهم الكاثوليكية المقدسة؛ ثم نهض من صلاته فى همةٍ عاليةٍ جديرةٍ بالإشادة، وتوجه إلى حيث كانت أمه مع بقية النساء، وخاطبها: "يا والدتى وسيدتى، ليكن عطاؤك متواصلاً فى الإيمان بالمسيح عيسى، ولتموتى من أجله، كما هو الحال مع السيد أبى". بينما هو يعلى همتها وهمم باقى المسيحيات، حضر إليه اثنان من الثوار الجبليين، وأخبراه أنه إذا رغب فى اعتناق الإسلام، فسيحسنان إليه، وأنه ما عليه سوى الابتهال إلى محمد كما يفعلان هم؛ فأجابهما الصبى بأنه مسيحى، وابن لمسيحيين، ويجب أن يموت من أجل المسيح عيسى. على

الرغم من تصويبهما لقوس وسهمٍ إلى صدره، وتهديدهما إياه بقتله ما لم يتضرع إلى محمد، فقد أبى القيام بذلك. حينئذ قال أحد الثوار الجبليين: "لنأخذه إلى الخارج، وليمت مع أبيه، فهو كلبٌ مثله".

عندما رأى الطفل أن النساء تبكي بسبب ما رأته من رغبة الثوار فى إخراجه وقتله، أدار وجهه ناحيتهن، وهو يقول: "أيتها السيدات، لم تذرفن دموع الشفقة؟ اعلمن أن كل المسيحيين الذين يموتون اليوم هم شهداء، يتألمون من أجل المسيح عيسى، وسوف ينعمون بميتتهم هذه". ثم التفت إلى أمه بمحيا شفيق، وقال لها: "سيدتى وأمى، سوف أموت عن طيب خاطر مع أولئك المسيحيين، ولا يحزننى سوى تركى إياكِ وحيدة، وأنا تملؤنى الثقة أن مشاهدة تلك الميتات العذبة، لن تذر من يتمنى البقاء فى هذه الدنيا". عقب تلفظه بتلك الكلمات، وغيرها من عبارات التعزية والبر، أدركه مارقون آخرون، فعقدوا يديه وراء ظهره، وأخرجوه من الكنيسة وهو يُضرَب بالسياط، ويقول: "أيها السادة، احملونى إلى حيث ألقى حتفى من أجل عيسى المسيح، لكى أنعم فى ملكوته؛ لا تحزنى يا أمى". بعد أن حمله المسلمون إلى خارج الكنيسة، عادوا لمحاولة إقناعه باعتناق الإسلام، على ألا يقتلوه؛ فلمّا أدركوا عدم جدوى مسعاهم، ساقوه إلى بلدة لوكاينينا، التى تبعد نصف فرسخ من أوخيخار؛ وطعنوه هناك حتى الموت، ثم مثّلوا بجثته وقد أكد لنا أحد المسلمين الذين كانوا حاضرين ذاك المشهد، أن الصبى لم يفتر عن مناداة المسيح عيسى حتى صعدت روحه إلى بارئها. يا له من مثال عظيم على حسن تدبيره، وانتصاره المجيد على أعدائه، الذين ظنوا أنهم سيهزمونه!

الفصل السابع عشر

يتناول ثورة لاروليس وباقى أرجاء طاعة أوخيخار.

اندلعت الثورة فى لاروليس فى يوم الجمعة ذاته، الذى يوافق عشية عيد الميلاد المجيد. استشعر المسيحيون أمرًا ما، فحشدوا نساءهم وبنيهم، ودخلوا إلى الكنيسة، وتحصنوا فى برج الناقوس. بعد ذلك حضر موريسكيو بايار كال Bayárcal وباقى البقاع الحدودية إلى البلدة، وشرعوا فى سرقة منازل المسيحيين؛ ثم توجهوا إلى الكنيسة، ودلفوا إليها، ولم يواجهوا سوى مقاومةً ضعيفة؛ لأن أهلنا كانوا قد تجمعوا داخل البرج. فبادروا بتحطيم المذابح فى غضب عارم، وهشّموا المجامر والأيقونات، ونهبوا كل ما عثروا عليه بالداخل، ثم ألقوا كل المقتنيات المقدسة على الأرض وجروها جرًا. بينما انشغل بعضهم بتدنيس تلك المقدسات، أحاط آخرون بالبرج، وطالبوا المحاصرين داخله بالاستسلام، وتسليم الأسلحة، فهم كما يدركون، لن تتسنى لهم المقاومة؛ كما تعهدوا لهم ألا ينالهم أذى، مع علمهم بأنهم سوف يحرقونهم أحياءً. وقد صدق المسيحيون وعود الموريسكيين الزائفة، وأوقفوا نيران أسلحتهم. بيد أن المارقين الملحدين لم يحفظوا عهدهم، فما أن هبط أهلنا من البرج، وسلموا أسلحتهم، حتى جرّدوهم جميعًا من ثيابهم، وانهالوا عليهم ضربًا بالعصى وكيلاً للكمات، ثم ربطوا أيديهم، وأودعوهم الكنيسة، حيث أمعنوا فى إساءة معاملتهم، وحقروا من شأنهم بالسب والتقريع.

حينئذ حضر إلى هناك رفقاء فرج بن فرج من الثوار الجبليين، فدخلوا إلى الكنيسة؛ وارتدى أحدهم حلة القداس، على مرأى من القساوسة المعتقلين الموثوقى

الأيدى، ووضع قطعةً من ستارة المذبح فى يده، كأنها بَطرَشِيل(*)، وقطعةً أخرى على رأسه؛ وحمل مسلم آخر الصليب مقلوباً، بحيث تكون أذرعه إلى الأسفل؛ ثم توجها إلى المسيحيين، وأخذا يحقران من شأنهم قائلين: "أيها الكلاب، أترون هذا الذى تعبدون؟ وكيف أنه لا يهب لنجدتكم فى وقت شدتكم؟" ثم بصقوا على الصليب وعلى وجوه المسيحيين. وإمعاناً فى امتهانهم وإذلالهم، أخذوا يحطمون الصلبان والتماثيل بنصال السهام وأسنة السكاكين، ثم وضعوا حطام كل هذا، وبقايا الأيقونات المهشمة فى منتصف الكنيسة، ثم أضرموا فيها النيران وأحرقوها. فى أعقاب ذلك، أخرجوا القساوسة من الكنيسة فى يوم الأتقياء(**)، وكانوا ثلاثة من الكهنة القانونيين يدعون: بارتولومى دى إيرِّيرا Bartolomé de Herrera، وبيلتران دى لاس أبِيس Beltrán de las Aves، ورودريغو دى مولينا Rodrigo de Molina، والسادن ألونسو غارثيّا Alonso García، واثنين من أبنائه، وكثيرين غيرهم من الرهبان الخدام، المحتجزين فى هذا الموضع وغيره من المواضع المجاورة؛ وقبيل الإجهاز عليهم، دهنوا أقدام القساوسة بالزيت والقار، ووضعوهم فوق مجمرةٍ مشتعلة، وأخضعوهم لأقسى ألوان التعذيب. ثم ربطوهم جميعاً إلى إحدى الجرّافات حفاةً وعراة، وساقوهم إلى أحد الحقول الموجودة على الطريق المؤدية إلى بِثّينا، ثم صرعوهم على الأرض بالبنادق والأقواس، وبعدها قطّعوهم إرباً إرباً بالسيوف، وتركوا جثثهم للوحوش الضارية.

ثارت بلدة نيتشيت قبيل بزوغ نهار صبيحة أول أيام عيد القيامة، وكان المسيحيون قد تمكنوا من الاحتماء بدار الكاهن القانونى خوان دياث Juan Díaz، ظانين أنهم قادرون على الدفاع عن أنفسهم؛ لكن المسلمين أحاطوا بالبيت، واقتحموه، وقبضوا على كل من كان موجوداً بداخله قبل الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم. ثم

(*) أحد الزخارف المقدسة، التى تحاك بنفس عرض اللِفاع، ولكن أقصر بعض الشىء، ويثبت برباط على الذراع الأيسر فوق كم قميص الكاهن. (المترجمة).

(**) يوم تحتفل فيه الكنيسة فى يوم الثامن والعشرين من ديسمبر من كل عام. (المترجمة).

سرقوا الكنيسة والمنازل فى غضب يضاهى ما استشعره باقى المارقين، فهم جميعًا لهم الرغبة نفسها ويعتمل فى صدورهم الحنق ذاته تجاه كل ما هو إلهى أو إنسانى . لاحقًا توجه نفر من أهالى البلدة نفسها يسمون آل متدوثا إلى المنزل الذى يضم المسيحيين المحتجزين، فأخرجوهم من هناك، وقفلوا عائدين معهم إلى أوخيخار. كان يرافقهم خلال الطريق واحد من أولئك المارقين، فأخذ يخبرهم أنهم سيطلقون سراحهم إذا ما تحولوا إلى الإسلام، وكان هناك أحد الكهنة القانونيين كان يدعوهم لتوجيه الشكر إلى عيسى المسيح، والثبات على دينهم؛ فأوغر صدر الموريسكى تجاهه، فجرح الخائن رأس الكاهن ببلطة تقطيع الحطب، فانفلقت إلى شقين؛ ثم قتل صهره بدرو باليرا Pedro Valera؛ وبعدها استل الجميع سيوفهم، وأجهزوا على كل المسيحيين الذين كانوا فى حوزتهم على مرأى من نسائهم؛ ثم جردوهم من ثيابهم، وألقوا جثثهم فى هاوية؛ لأنهم لم يوافقوا على دفنهم.

ثار أهالى طاعة خوغار فى اليوم ذاته الذى اندلعت فيه ثورة أهالى نيتشيت؛ فاحتشد المسيحيون داخل الكنيسة، لكنهم لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم، فاعتقلهم الثوار لاحقًا. وقد فرّ صاحب الإجازة دييغو دى ألماثان Diego de Almazán – الكاهن القانونى للارو ليس – من المكان، حيث اعتقد أن بإمكانه الاعتصام ببرج الكنيسة، فى أثناء انغماس الثوار فى السرقة؛ عندما وصل إلى أُندورون، خرج لملاقاته رجل مسلم من أصدقائه يسمى غاسبار Gaspar، واصطحبه إلى داره، وقال له ألا يكمل مسيرته لأن سائر الأراضى تموج بالثورة؛ وإنه سيخبأه لديه، ثم يوصله لاحقًا إلى بر الأمان. بعد أن أودعه فى منزله، توجه الخائن الخطير لاستدعاء أمثاله من المارقين؛ ثم جره لإخراجه من مكمنه، واستاقه موثوق اليدين إلى منزله هو فى خوغار، لكى يمنحهم النقود التى يخبئها هناك؛ وبعد أن منحهم إياها، حملوه حافيًا وعاريًا إلى رابية موجودة على مقربة من المكان، وهم يكيلون له اللكمات والصفعات، وتركوه هناك مع رجال الحراسة؛ ثم توجهوا لإحضار امرأته، وبنت أحد إخوته، اللتين كانتا لديه؛ فلمّا وصلتا إلى موضعه، أشعل الثوار نارًا ضخمة، وألقوه فيها عاريًا كيوم ولدته أمه،

وقالوا له لتمت من أجل محمد(٢١)؛ بيد أنه أجابهم فى استبسال إنه يأبى أن يموت فى غير سبيل المسيح عيسى وأمه المباركة. حينئذ أخرجوه من النيران بعد أن احترق نصفه، وأحدثوا به إصابات عديدة؛ ثم أسلموه إلى الموريسكيات، اللاتى أجهزن عليه بالسكاكين والخناجر، فى حضرة هاتين المسيحيتين، اللتين أُحضِرَتا لتنالا قسطًا أكبر من الإيلام؛ ثم قتلوا بقية المسيحيين الأسرى فى وحشية.

ثارت بلدة مايرينا فى نفس أوان ثورة خوغار. حيث سرق المسلمون الكنائس ومنازل المسيحيين، وهشموها، وقبضوا على الجميع، ثم عادوا لإطلاق سراحهم فى ذات اليوم، ما عدا الكاهن القانونى خيوريغى Geurigui، الذى حبسوه فى إحدى الغرف. حينما فطن أولئك المسيحيين إلى عدم مقدرتهم على حماية أنفسهم فى تلك البلدة، خرجوا منها يلوذون بالفرار؛ فنبّه نفر من المسلمين الذين أطلقوا سراحهم الثوار فى أُندورون، لكى يقطعوا عليهم الطريق ويعتقلوهم، وهو ما قاموا به بالفعل؛ فحملوهم أسارى إلى أوخيخار دى ألباثيتى حيث قتلوهم مع بقية من ذكرناهم. وقد كان الطفل الصغير غونثالو، الذى سردنا حكايته فى الفصل الذى يتناول ثورة أوخيخار، من تلك البلدة. لنعد الآن إلى الكاهن القانونى خيوريغى. فقد احتجزوه فى غرفة دون أن يسمحوا له بالتحدث مع أحد، ألقوا له ببعض فتات خبز الذرة، حتى يأكل كالكلاب؛ بعد أن ملّوا من إبقائه سالمًا، أخرجوه عاريًا وأوثقوا يديه خلف ظهره، وقاموا بصفعه والبصق فى وجهه؛ ثم حملوه إلى جرن البلدة لقتله، وقال له المارقون بغرض الاستهزاء: "أيها الكلب، لم لا تدعو الآن لإقامة القداس؟ وتنهى المسلمات عن تغطية وجوههن؟". ثم قيدوه إلى إحدى أشجار التين، وطعنوه بالرمح فى ضلعه الأيمن، بينما هو يتضرع إلى اسم يسوع العذب؛ ثم أطلقوا عليه سهامهم، وكان لا يزال على قيد

(٢١) يجب أن يتوقف المرء عند هذه الجملة التى تخالف المنطق. إذا كان الخاطب سيعتنق الإسلام، فلماذا القتل؟ هذا إذا كان الموريسكى لا يفهم أنه لا إكراه فى الدين. إن معلومات المؤلفين الإسبان الخاطئة تؤدى إلى هذا الخلط (المراجع).

الحياة؛ حتى أدركه موريسكى اسمه غابيا ميلغا ، فأجهز عليه بسيف قصير محدب، وأفرغ قنينةً من البارود فى فمه، وعلى رأسه، وفوق وجهه؛ وأشعل فيه النيران، ثم أردوه صريعًا على الأرض ببنادقهم وأقواسهم؛ ولم يوافقوا على دفن جثته، بل تركوها فى الساحة.

لم تقل الوحشية التى أظهرها أهالى بثّينا عن مثيلاتها فى باقى الأرجاء، وكانوا قد أعلنوا الثورة عندما تنامى إلى علمهم أن أهل ميرينا قد قاموا بثورتهم. فلمّا تجمّع المسيحيون فى الكنيسة، ظنًا منهم فى إمكانية الدفاع عن أنفسهم خلال عدة أيام، بادر أعداء المسيح عيسى بنهب دورهم، ثم حاصروهم. وكانوا يرغبون فى إشعال النيران فى المعبد، وإحراقهم بداخله، فقال لهم رجلان مسلمان يدعيان فرانثيسكو دى إيرّيرا Francisco de Herrera، ودييغو دى إيرّيرا ألاندير Diego de Herrera Alhander إنه يتعين عليهم تسليم أسلحتهم والقبول بالحبس، إذا كانوا يرغبون فى تجنب الموت حرقًا. عندما أدرك القوم مدى وهن دفاعاتهم، استحسنوا الرأى الذى ينصحهم بالاستسلام. فدخل المارقون إلى الكنيسة، وحطموا الأيقونات التى تزين المذبح، والتماثيل، والصلبان، وجرن المعمودية؛ وكذلك كسروا خزانة القرابين المقدسة، وأفرغوا محتوياتها على الأرض؛ واقترفوا الكثير من الشنائع والآثام. ثم قيدوا أيدى المسيحيين، وأخرجوهم من محبسهم إلى سفح أحد المرتفعات خارج البلدة، حيث قتلوهم شر قتلة. أما عالم اللاهوت القسيس برابو، فقد علّقوه من ذراعيه فى شجرة توت أسود شديدة الانخفاض، حتى أن ركبتيه كانتا تلامسان الأرض؛ وأخذوا يصفعونه لكى يقنعوه تحت التهديد أن يتحول إلى الإسلام؛ لكنه قال لهم إنه مسيحى، ويجب أن يموت من أجل المسيح عيسى؛ فانهالت عليه الطعنات وقذفوه بالحجارة حتى قتلوه. ثم تحولوا إلى شيخ كبير يربو عمره على السبعين عامًا، فحملوه عاريًا، وربطوه فى جذع شجرة، وانهالوا عليه ضربًا بالسياط، وبصقوا على وجهه، ثم اتخذوه هدفًا للرماية. بعد ذلك أخرجوا الكاهن القانونى بدرو دى أوكانيا Pedro de Ocaña وسادن كنيسته، وأمطروا الكاهن برصاص بنادقهم؛ وذلك فى حضور النساء المسيحيات، حيث

أحضروهن لرؤية ذلك المشهد، ليشعروهن بمزيد من الآلام؛ فلمّا فاضت روحه، عهدوا بأمه - وكانت امرأة طاعنة فى السن - إلى النساء المسلمات ليقتلنها، وهن يقلن لها: "هيا أيتها الكلبة! امضى إلى صديقاتك لكى يمنحنك وثيقة الحرية!" فاستقبلتها النساء الموريسكيات فى سرورٍ عارم، وسقنها إلى هاوية؛ وبعد أن نتفن شعر رأسها، ولطموا وجهها، وكالوا لها العديد من اللكمات؛ طعنَّها بالخناجر والسكاكين؛ وقبل أن تلفظ أنفاسها، ألقينها إلى قاع الهاوية؛ وهى مستمرة فى تمجيد الرب وأمه المباركة. كما أسقطوا شماس الكنيسة على وجهه ، وقذفوه فى هوةٍ أخرى عميقة للغاية، حتى أنه حين وصل إلى القاع كان قد تمزّق إربًا إربًا.

الفصل الثامن عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى أراضى أدرا، ووصفا لها.

تقع أراضى أدرا على ساحل البحر المتوسط: حيث يحدها من الغرب طاعة الساحل، ومن الشرق بيرخا، ومن الشمال أوخيخار، ومن الجنوب البحر المتوسط. ويقطع تلك الأراضى النهر الذى ذكرنا آنفًا أنه يمر إلى جوار بلدة داريّكال، ثم يعود ليصب فى البحر بالقرب من أدرا الجديدة Adra la nueva؛ وهى قلعة يكون بها عادةً معقل المشاة والفرسان بغرض تأمين ذاك الساحل. تضم هذه المنطقة أربع دوائر: أدرا القديمة وكانت تحوى قديمًا الحصن الذى اعتاد المسلمون على تسميته القصبة وسالالوبرا Salalobra، ومربلة ، وأدرا الجديدة. وتطل جميعًا على ضفة النهر، حيث توجد أراضى الرى، والغيلات، والمراعى الجيدة لتربية الماشية، وبعض الأراضى التى تنتج القمح؛ كل ما دون ذلك أراضى بور ورملية، خاصةً إذا ما اتجهنا ناحية البحر. ويكسب المواطنون قوتهم من أراضى الرى تلك، وما ينتجونه من الحرير، وصيد البحر -وهو وفير. اندلعت الثورة بين مواطنى أدرا القديمة وسالالوبرا ومربلة، حينما صعد أهالى طاعة أوخيخار والموريسكيون إلى الجبال يرافقهم نساءهم وبنيهم، لكنهم لم يلحقوا بالمسيحيين الأذى لأنهم حشدوا صفوفهم فى بلدة أدرا الجديدة. بعد عودة القائد دييغو غاسكا من أوخيخار، أراد أن يكسب أرضًا فى هذا الميدان، فتوغل إلى الداخل مع الخيول التى كانت تصاحبه؛ وعندما شهد نقص الرجال وقلة المؤن الضرورية للدفاع عن المكان إذا ما حاصره الأعداء، وقلة جدوى إمدادات الإغاثة عن طريق البر؛ لأن البشرات كانت تموج بالثورة؛ أرسل قاربًا على وجه السرعة إلى مدينة

مـالقـة، يطلب النجدة عن طـريق البـحـر من المأمـور القـضـائي، ومـتـعـهـد توريد أسـاطيل جـلالة الملك. فـبـعث إليـه المأمـور القـضـائي بالقـائد إيرنان باثكيث دي لوايسا Hernán Vázquez de Loaisa، على رأس مـائة رجل في السـفن الشـراعـية ذات الساريتين؛ وبعث إليه الممول بالمؤونة والذخيرة التي تمكن مـن جمـعها على عـجل لسد الحاجة الراهنة. ومع وصول فرقاطة تقل على متنها أناس من ألمريّة، تم تأمين الموقع، وتسنى لهم إنقاذ كثير من المسيـحيين هربوا إلى هناك من بيرخـا وداليّاس ومـواقع أخرى. وقد جاب دييغو غاسكا في أرجاء تلك المقاطعة مع الرجال الذين وصلوا من مدينة مالقة، وأبلى بلاءً حسنًا في مجابهة الثوار.

الفصل التاسع عشر

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى بيرخا، ووصفا لها.

تجاور طاعة بيرخا من جهة الغرب أراضى أدرا، كما يحدها من الشرق طاعة دالياس، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ويحدها من الشمال كل من جبل غادور وطاعة أندرش. وهى جميعًا أراض خصبة، يزرع فيها الكثير من القمح والحبوب والشعير، وبها وفرة من العشب لتربية الأغنام. كما أن إنتاج الحرير هناك جيد للغاية، ويتمتع المواطنون بمساحات كبيرة من أراضى الرى المزروعة بأشجار الفاكهة، والتى تسقى بمياه الجداول النابعة من العيون التى تنسال من جبل غادور. وتحتوى بيرخا على أربعة عشر قرية هى: ريّو تشيكو (أو النهر الصغير) Rio Chico، وبينينار Beninar، وريغوالتى Rigualte، وبيرخا، وإنابيد Inavid، وبنى هاشم Bena Haxin، وباغو، وبرِغوالتا Virgualta، وألمينتولو Almentolo، والكبرى Alcobra، وكاستالا Castala، وكابيليّرة، وإيلَر Iler، وخيريا Jerea. وقد أكد لنا موريسكيون ومسيحيون كثر أن الخنازير لم تكن تُربى فى كاستالا، وأن تلك التى كانت تُحمَل إلى هناك، كانت تنفق فيما بعد؛ وفى بعض الأحايين كان الناس يشاهدونها تسير على أسطح المنازل، ثم تطير وتهوى على الأرض ميتة. وفى بنى هاشم لم تكن الثعالب تستطيع الإمساك بالدواجن بفمها؛ لذا كانت تُرى وهى تسير خلفها وتضربها بكفوفها؛ لأنها لا تقوى على فتح فمها لعقرها؛ وهى رواية كانت لتبدو ساذجة، لولا أن أشخاصًا جديرين بالتصديق وقساوسة ورهبان خدام قد أكدوها. لكن أحدًا لا يعرف سبب تلك الأمور، وهم يعتقدون فقط أن وراءها تعويذة كان قد ألقاها أحد الموريسكيين على المكان منذ القدم.

بيرخا هى الموضع الرئيس فى تلك الطاعة، وتقع على مسافة نصف فرسخ من شاطىء البحر؛ وبدأت فيها الثورة فى أول أيام عيد الميلاد المجيد. لجأ بعض المسيحيين هناك إلى قرية أدرا؛ بينما تحصن آخرون مع نسائهم وأطفالهم فى أبراجٍ منيعةٍ، كانوا قد شيدوها خوفًا من القراصنة الأتراك؛ ومن لم يتسن لهم القيام بهذا أو ذاك، احتشدوا داخل برج الكنيسة. أما من توجهوا إلى أدرا فقد نجوا، بينما هلك الباقون أجمعين؛ لأن الأعداء أكدوا لهم فى صدقٍ مزعوم، وكلماتٍ معسولةٍ، أنهم لن يمسوهم بأذى؛ فلمّا أمسوا فى قبضتهم، جردوهم من ملابسهم، وعاملوهم بوحشية؛ ولم يفلت سوى ثيليدرون دى إنثيسو **Celedron de Enciso**، وخوان مونيوث **Juan Muñoz**، بعد أن تدليا من برجيهما واحتميا بأدرا. بعد الظفر بالأبراج، قام أعداء المسيح، وخاصةً الثوار الجبليون والجنود المسلمون، بتكسير الكنيسة وسرقتها: فحطموا المذابح، وضربوا المجامر بأقدامهم، ووطئوا أغطية كؤوس القربان وأقمشة البفتة، وكسروا خزانة القرابين المقدسة؛ كما أخذوا تمثالاً للمسيح المصلوب، وبدأوا يجولون الكنيسة وهم يجلدونه ويصيحون كما يفعل المنادى، ثم كسّروه بأسنة السكاكين، وقذفوه فى النيران التى أُشعِلت لحرق الأيقونات والصور آنفًا. بعد ذلك أسقطوا تمثالاً بالحجم الطبيعى لسيدتنا العذراء، كان موضوعًا أعلى المذبح الأكبر، فألقوه على الدرج بالأسفل، فقال المارقون فى استهزاء: "احفظى نفسك، فلا يصيبنك مكروه"، أما المسيحيات اللاتى كن هناك فقد سألهن الموريسكيون لم لا يقفن إلى جوار أم ربهن؟ وكالوا لهن المزيد من السباب، ونعتوهن بالكلبات، وهددوهن بالقتل. فى اليوم التالى، غرزوا الكثير من العيدان فى ساحة البلدة، وأخرجوا المسيحيين لإعدامهم وسط احتفال صاخب بالطبول والمزامير؛ فاصطحبوهم أربعة أربعة، وأوثقوهم إلى تلك الأعمدة، ثم صرعوهم على الأرض بالبنادق والأقواس، وهم يحقرون من شأنهم ويسخرون منهم لأنهم كانوا يمجدون المسيح عيسى وأمه المباركة، وظلوا على تلك الوتيرة حتى أجهزوا عليهم جميعًا، ولم يتركوا أى فرد يتجاوز عمره الثانية عشر.

استمر إعدام الكهنة حتى وقت الصلاة، وأعقبه إخراج القساوسة إلى الساحة، وكانوا أربعة كهنة يدعون: بدرو بينيغاس **Pedro Venegas**، ومارتين كابابيّرو **Martín**

Caballero، وفرانثيسكوخويث Francisco Juez، ولويس دى كارباخال Luis de Carvaj al.
وقد حملوا أولئك الرجال عراةً، وأيديهم معقودة خلف ظهورهم إلى موضع النساء المسيحيات، وأخذوا يصيحون ويضربوهم بالسياط حتى وصلوا إلى الأعمدة التى سيقيدون إليها؛ فلمّا ألفوهم يصلون ويمجّدون الرب، صفعوهم ولكموهم على أفواههم، وقالوا لهم ادعوا محمداً، وسوف ينجيكم خيراً من مسيحكم هذا(٢٢)، ووجهوا لهم إهانات كثيرة. عندما وصلوا إلى الأعمدة، ربطوهم إليها، وأطلقوا عليهم نيران بنادقهم، ثم أتوا بالسيوف، وقطّعوهم إربًا إربًا. كان المارقون قد استبقوا خمسة مسيحيين لدفن الموتى، وبعد أن دفنوهم أخرجوهم ليقتلوهم بدورهم؛ فلفّوا الحبال حول أعناقهم، وأسلموهم إلى الغلمان، الذين ساقوهم إلى بعض الوهاد الموجودة خارج البلدة. لا يمكننى المبالغة فى سرد وحشية أعداء المسيح أولئك، الذين لا يتورعون عن إهانة المسيحيين الموتى، وكانوا يشمئزون منهم. كان أحد أهالى تلك البلدة مسلمًا اسمه الرِيندِيدى el Rendedi، وكان قاسيًا فى ملاحقته لأهلنا فى تلك القرية، وغيرها من قرى تلك الطاعة ونحن لن نأتى على ذكر ما اقترفوه فى بقاعٍ أخرى؛ لأنهم كانوا جميعًا يسيرون على النهج ذاته. ما رويناه كان هو الأساس، وقد انقادت الغالبية للسير على نفس الخطى. دعونا نشير فقط إلى أن الجميع هجروا القرى، وصعدوا مع نسائهم وبنيهم ومنقولاتهم إلى جبل غادور، مصطحبين معهم المسيحيات الأسيرات، بعد أن أعدموا الرجال.

(٢٢) من الطبيعى أن ينتقد الموريسكى التماثيل أو عبادة الأصنام. لهذا السبب نفسه لا نصدق أنه يأمر المسيحى بأن يدعو محمداً أو المسيح عليهما الصلاة والسلام، فكلاهما من البشر. (المراجع).

الفصل العشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى بقاع أندرش، ووصفا لها.

تقع طاعة أندرش بين جبلين كبيرين: وهى تتاخم طاعة أوخيخار من الغرب، بينما يحدها جبل شلير من ناحية الشمال، وكذلك الجزء الكائن أعلى سند وادى آش عند ميناء غيبيخار Guevíjar؛ وعبور ذاك الجزء لا يقل صعوبة عن اختراق رَواحة Raguaha، وهو ما يرجع إلى وعورة تلك الجبال وارتفاعها، وأيضًا كثافة الثلوج التى تغطى قممها باستمرار. أما من ناحية الجنوب فيحدها طاعة بيرخا وداليّاس، ومن الشرق طاعة لوتشار Lúchar وجزءٌ من جبل غادور. يعبر تلك الطاعة فى المنتصف نهرٌ ينحدر من جبل شلير، ويطلق علي ذاك الجزء الذى يقطع تلك الطاعة نهر أندرش. ثم يكمل النهر مسيرته باتجاه لوتشار، ويندمج مع نهرٍ آخرٍ يسيل من الجبل الذى يعلو أوهانييث Ohañez، بالقرب من راغى Rague؛ ثم يخترق أراضى مارتشينا ليصب فى البحر، بعد أن يكون قد انعطف عدة مرات، سمى خلالها نهر ألمريّة، لعبوره إلى جوار تلك المدينة، محملاً بمياه أنهار وعيون أخرى.

طاعة أندرش هى أفضل أراضى البشرات قاطبةً، وهذا ما تعنيه التسمية العربية، التى تعنى "عصر الحياة"[٢٣]؛ لأنها شديدة الخصوبة وصالحة لزراعة الحبوب بكل أنواعها؛ ويكثر بها الكلأ اللازم لتربية الأغنام؛ كما أن أرضها وهواءها صحيان،

---

(٢٣) معرفة مارمول باللغة العربية موضوع جدير بالدراسة. ها نحن نرى الآن مرة أخرى أن شرحه للألفاظ العربية لا يستند إلى أى أساس. (المراجع).

وأجواءها معتدلة. وبها وفرة من العيون ذات الماء المنعش واليسر، التى يروى بها غيلات جميلة فيها أشجار فاكهة جمالها يفوق الوصف ومذاقها لذيذ؛ كما أن إنتاجها من الحرير غزير وعالى الجودة. وتضم خمسة عشر قرية تدعى: داياركال، والكوديا Alcudia، وباتيرنا Paterna، وحارات Harat، والوزير Alguacil، وإنيبيثا I?iza، وحارة البلوط Harat Albolot، وحارة ابن موسى Harat Aben Muza، وغواروس، والكولابا Alcolava، ولاوخار الحكان Lauxar al Hican، وكودبا Codbaa، وحورينيكة Horinica، وبنى أيل Beni Ail، والفوندون el Fondon. وكودبا هى الوحيدة من بينها التى يطلق عليها مدينة؛ أما لاوخار الحكان فكانت تحوى قديمًا حصنًا كبيرًا فى موقعٍ حصينٍ، بجوار الطريق المؤدية صعودًا إلى ميناء غيبيخار، وهو الآن مهدم.

كانت بلدتا إنيثا وغوارّوس أول من بادر بالثورة فى تلك الطاعة، وذلك فى مساء يوم الجمعة، الذى يوافق عشية أعياد الميلاد. وكان أول ما قام به الثوار هو التوجه إلى منزل الكاهن القانونى، واسمه بييدما Biedma؛ عندما لم يعثروا عليه؛ لأنه ما أن سمع بالجلبة الدائرة حتى اختبأ فى بيت أحد أصدقائه من الجيران - نهبوا داره. ثم أمّوا الكنيسة، فحطموها وسرقوها دونما توقير لأى شيء مقدس. ونظرًا لرغبتهم فى الانتقام من كاهن عيسى المسيح، قصدوا البيت الذى كان به، فكسّروا الأبواب، وأخرجوا الكاهن إلى الشارع حافيًا وعاريًا، وأوثقوا يديه خلف ظهره، وأساءوا معاملته بشتى الصور؛ ثم أحضروه أمام الثوار الجبليين ونواب مجلس البلدية فى هاتين البلدتين، فقال له اثنان منهم يدعيان بينيتو دى أبلا Benito de Abla ودييغو دى أبلا Diego de Abla إنه لو شاء أن يتحول إلى الإسلام فسوف يتركانه على قيد الحياة. حينما أجابهما أن إسداء ذاك النصح السيء لن يجدى معه، فهو كاهن مسيحى يتبع عيسى المسيح، ويجب عليه أن يموت فى سبيل عقيدته الكاثوليكية المقدسة؛ حينئذ أجلساه على الأرض فى مواجهتهما، وأمرا الغلمان المسلمين أن يتخذوه هدفًا للرماية؛ وبعد أن رموه بالسهام، أوسعوه طعنًا بالسكاكين والرماح، ثم لفّوا حبلاً حول عنقه، وأسلموه إلى الصبية الذين جروه وصولاً إلى هاوية خارج المكان.

ثار موريسكيو الكوديا وباتيرنا فى أول أيام عيد الميلاد؛ فلمّا فطن المسيحيون المقيمون هناك إلى الصخب الذى يحدثونه ورغبتهم فى الثورة، اصطحبوا معهم نساءهم وبنيهم، وتوجهوا إلى برج الكنيسة، وكان منيعاً. حين أدرك المسلمون أنهم لن يتسنى لهم النيل منهم، أكدوا لهم بأقوالهم أن عليهم العودة إلى ديارهم؛ لأن أهالى البلدة لا يريدون الثورة؛ وأنهم هم سيدافعون عنهم إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وقد وثق القوم فى كلامهم الزائف، وغادروا البرج؛ عندها لم يشأ الموريسكيون أن يظهروا كمن لا يفى بالوعود، أرسلوا فى طلب الثوار الجبليين من خارج البلدة، بعد أن شهدوا عودة المسيحيين إلى منازلهم؛ فقبضوا عليهم وسرقوا ما كان بحوزتهم؛ ثم دلف أولئك وهؤلاء إلى الكنيسة فى غضبٍ عارم، حيث نهبوا وسرقوا وهشموا كل ما هو مقدس.

اختبأ الكاهن أركوس Arcos فى بيت صديق له من المسلمين يسمى أغوستين العجوز Agustín el viejo؛ فقابل تلك الصداقة بتسليمه إلى أعدائه، الذين حملوه عارياً وحافياً إلى الكنيسة، حيث بقية الأسرى الذين احتجزوهم، ثم أخرجوهم بعد ذلك لقتلهم. كان أول من أخرجوه الكاهن القانونى، ورجلاً واسع الثراء يدعى دييغو لوبيث دى لوغو Diego López de Lugo، وكان سيداً على معظم بقاع البلدة. فجردوهما من ثيابهما، وأخذوا يكيلون لهما اللكمات والصفعات لأنهما كانا يمجدان الرب وأمه المباركة؛ وحملوهما إلى مكان الصليب الموضوع على الطريق المؤدية إلى إنيّيثا، حيث قيدوهما من أسفل، وأطلقوا عليهما سهامهم، وبعدها أخذوا يطعنونهما بالسيوف والسكاكين، حتى أجهزوا عليهما؛ ثم قضوا على كل المسيحيين الآخرين الأسارى لديهم؛ تمكن بعضهم من الهرب عبر الجبال قبل أن يقبضوا عليهم، وقد نجا هؤلاء. كان من لاحق المسيحيين فى هذا الموضع أربعة موريسكيين يسمون: غاسبار روخو Gaspar Rojo، وإيرناندو دى مالقة Hernando de Málaga، وبدرو دى إسكوبار Pedro de Escobar، وبيرناندينو دى إسكوبار Bernandino de Escobar.

كودبا، كما ذكرنا من قبل، كان يطلق عليها مدينـة؛ لأنه كان يقيم بها الملك أبو عبد الله الزغيبى، الذى سلَّم غرناطة. هناك ثلاثة مواضع متجاورة، حتى إنها تبدو وكأنها أحياء: كودبا، ولاوخار الحِكان، والفوندون؛ وقد احتشد سائر المسيحيين القاطنين بها وبغيرها من الأماكن القريبة فى كنيسة كودبا، حينما استشعروا ثورة المواضع الأخرى. وكانوا يرغبون فى الذهاب للاحتماء بمدينة ألمريّة، حيث بدا لهم أنهم غير آمنين هناك؛ فأشار عليهم أحد نواب البلدية الموريسكيين اسمه بدرو لوبيث بن حَدَمى Pedro L?pez Aben Hadami، وكان من أكثر رجال الطاعة ثراءً وسطوةً، بعدم المغادرة حتى يتضح ما سيؤول إليه الأمر. واصطحب الكاهن القانونى خوان لورينثو Juan Lorenzo إلى منزله، هو وأحد أبنائه وأسرة ذلك الابن بأسرها، وباتوا لديه يوم الاثنين مترفين منعمين. فى اليوم التالى، وكان الثلاثاء الموافق الثامن والعشرين من ديسمبر، دخل البلدة الكثير من مسلمى الكوليا Alcolea وغيرها من البقاع، ومعهم الثوار الجبليون الذين كانوا يشيعون الثورة فى البلاد. آنذاك تراءى لابن حَدَمى إن المسيحيين المقيمين لديه لم يعودوا آمنين؛ ولابد أنه إلى ذاك الوقت كانت لديه رغبة فى إنقاذ أرواحهم؛ لأنه أودعهم غرفةً صغيرةً إلى جوار الحظيرة، وألقى بعض حزمات من عيدان حطب الذرة على بابها، ثم انطلق باتجاه الميدان ليستطلع الأحوال. فألفى أعداداً كبيرة من المسلمين من أهالى البلدة والغرباء يسيرون رافعين الرايات، ويقومون بسرقة بيوت المسيحيين؛ وقد قصوا عليه كيف أن المملكة بأسرها تموج بالثورة، وأن غرناطة وحصونها باتت فى قبضة المسلمين. هنالك أدرك أن الأمر لابد صحيح، فاقتحم معهم الكنيسة، وأمر بإلقاء القبض على كل من فيها من المسيحيين القساوسة والرهبان الخدام؛ ثم حطموا الأيقونات التى تزين المذبح، والصلبان، وكسّروا خزانة القرابين المقدسة، وأشعلوا النار فى كل شىء حتى أحرقوها.

أعقب ذلك بفترة وجيزة مجىء إيرناندو الغورّى Hernando el Gorri، وكان القائد الرئيسى لتلك الزمرة وأحد أهالى لاوخار؛ فأمر هو، وألونسو بن الصيغى Alonso Aben Cigue، وبدرو لوبيث ابن حَدَمى عينه بإعدام كل المسيحيين الأسرى، كما حدث

فى المواضع الأخرى. فاحتشدت جموع غفيرة من الناس فى الميدان، وأخذوا يدقون الطبول الصغيرة، ويعزفون المزامير، وينشدون الأغانى احتفاء بيومهم المنشود الذى يشهدون؛ فكان أول من أخرجوا دييغو أورتيث Diego Ortiz، وأخاه خوان أورتيث Juan Ortiz، فحملوهما أمام الغورّى عاريين، فأمر برميهما بالسهام، وفعل الشىء ذاته مع كل الباقين. فأخذوهم من هناك إلى طريق على مشارف الفوندون، ورموهم بالبنادق والأقواس، ثم أجهزوا عليهم بالسيوف والسيوف القصيرة المحدبة. وهكذوا قضوا على مسيحيى المواضع الثلاثة برمتهم، وعلى مسيحيى غيثيخا Guécija، البلدة الموجودة فى سند وادى آش، وكانوا قد حملوهم آنفًا إلى كودبا.

لم يسلم آنذاك من القتل سوى ضيوف ابن حَدَمى؛ بيد أنه بعد مرور خمسة عشر يومًا، إما أنه ضاق ذرعًا بإخفائهم طيلة تلك الفترة، أو أنه خاف من ابن فرج - كبير وزراء ابن أمية - الذى كان قد وصل إلى أراضى أندرش. حيث أمر ذاك الأخير بإعدام كل من يُبقِى على حياة رجل مسيحى؛ فأبلغ عنهم أمامه، فما كان منه إلا أن أرسل الحسينى el Hoceni ورجالاً آخرين من رفاقه فى طلبهم؛ فحملوا إليه خوان لورينثو، وأجبروه على التجرد من ثيابه، ثم قيدوا يديه وقدميه، وأمر الغورّى بوقوفه على ركبتيه فوق مجمرة نيران مصطلية فى منزل لانخى Lanxi، وهكذا أحرقوه من ركبتيه إلى أسفل قدميه. عندما أخذ ينادى على المسيح عيسى وأمه المباركة ويمجدهما، دس الملحد الخائن نعل حذاء فلاحى متسخ من الخيش والحلفاء فى فم المسيحى، وشرع يكيل له اللطمات والضربات على رأسه، ويستهزىء به قائلاً: "فلتتل صلاتك الآن أيها الكلب! سوف يلقى رئيس الأساقفة والرئيس ذات المصير، وسنبعث برأسيهما إلى بلاد المغرب!" . ورغبةً فى إخضاعه للمزيد من التعذيب، أحضروا أمامه فتاتين من بناته لتشهدا مقتله، فأهانوهما فى حضرته، وأساءوا معاملتهما، وسألوهما ليحقروا من شأنهما إن كانتا تعرفان ذلك الرجل الذى يتدفأ بحرارة النيران؟ بعد أن استبقوه على تلك الهيئة لفترة لا بأس بها، جروّه بحبل إلى خارج المكان، وأسلموه للنساء المسلمات عند إحدى الروابى، لكى يتسنى لهن أيضًا الانتقام منه، فاستخرجن عينيه بالسكاكين،

وقضين عليه رجمًا بالحجارة. ثم توجهوا لإحضار أخيه، وقطعوه إربًا إربًا إلى جوار شقيقه، وأجبره أحد المارقين على فتح فمه قبل أن يلفظ أنفاسه، وصبَّ فيه كمية كبيرة من البارود، وأضرم فيه النيران. كما أعدموا سادن الكنيسة فرانثيسكو دى ميدينا Francisco de Medina، حيث أسلموه إلى الغلمان الذين رجموه بالحجارة؛ لأنه كان يعلّمهم مبادىء العقيدة المسيحية. وكذلك فقد مثّلوا بلويس مونتيسينو دى سوليس Luis Montesino de Sol?s فى وحشيةٍ بالغةٍ، كما سيرد لاحقًا فى الفصل الذى يتناول غيثيخا. أما دييغو بيلتران Diego Beltrán، الغلام البالغ من العمر أربع عشرة سنةً، فقد عذّبه مارقان اسمهما الحسينى والقيصرانى el Caicerani، وحينما كانا يقيدانه لنقله إلى مكان موته، سأل أمه إلى أين يأخذانه؟ فأجابته فى استبسال: " أى بنى! إنهما يأخذانك للشهادة! لتمت فى سبيل عيسى المسيح. يا لك من محظوظ! سوف تلقاه وتستمتع بملكوته عما قريب؛ فلتمجده، ولا تخش الموت من أجل ذلك الرب الكريم!" وكان هذا ما فعل الفتى، الذى قتله السيافون طعنًا بالسكاكين.

الفصل الحادى والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى طاعة داليّاس، ووصفا لها.

تقع طاعة داليّاس على ساحل البحر المتوسط: وتجاورها طاعة بيرخا من جهة الغرب، وأراضى ألمريّة من الشرق، ومن الجنوب البحر المتوسط، كما يحدها من الشمال جزء من جبل غادور موجود بينها وبين طاعة أندرش؛ ويعد كذلك جزءًا من ألمريّة. تلك الطاعة موجودة بالكامل على أراض سهلية، وهى تحتوى على مراعى ذات جمال أخاذ ترتع فيها الأغنام خلال فصل الشتاء. كما تُحصَد فيها كميات ضخمة من الحبوب والدقيق والشعير، وبها مساحات كبيرة من الغيلات، وكذلك فإن تربية الحرير فيها جيدة. تضم ستة قرى هى: أسوبروس Asubros، وأودبا Odba، وثيليتا Celita، والشيطان Elchitan، والميثيت Almecet، وداليّاس؛ وهى أبرزها، وتوجد بها ما يُسمى حقول دالياس، التى تشتهر بوفرة الأغنام التى تربى فيها.

روى لنا بعض الموريسكيين[٢٤]، وبعض المسيحيين، أن المسلم الذى أسلفنا ذكره، ويدعى الرِيندِيدى، توجه فى اليوم عينه الذى ثار فيه أهالى بيرخا إلى داليّاس؛ وعندما ألفى الأهالى برمتهم لدى باب الكنيسة، يستعدون للدخول لحضور القداس، جاء بصحبة العديد من الرجال المسلحين، حاملين أربع رايات، وتمركز على مرأى من المكان، عند جبل صغير يقع أسفل جبل غادور من ناحية الشرق؛ فى التوقيت نفسه

(٢٤) يبدو مارمول فى الكتاب إما شاهد عيان وإما كمن يستقى أخباره من مصادر مباشرة. (المراجع).

ظهرت أربعة ألوية أخرى على إحدى قمم الجبيل ذاته باتجاه الغرب؛ فدار اللغط والمرج بين الأهالى بسبب ذلك؛ واجتمع نواب مجلس البلدية، وكانوا جميعًا من الموريسكيين، وخرجوا فى نفر من الناس ليعلموا شأن تلك الرايات. فهبط الريندبدى لملاقاتهم على رأس خمسين من الرماة، وطلب منهم القيام بالثورة؛ لأن سائر بقاع البشرات بدأت فى ثورتها؛ فأجابوه بأنهم لا يرغبون فى إثارة القلاقل فى تلك الآونة. عندها اشتعل المسلم غيظًا، ورد عليهم بأنه لم يأت إلا لذلك، ولا بد من اندلاع الثورة رغمًا عنهم؛ ثم اقتحم الموقع برفقة رجاله جميعًا، وأمر أن يُذاع فى شتى الأنحاء أنه يتعين على كل المواطنين الخروج إلى الساحة وبحوزتهم ما يملكون من أسلحة.

عندما لم يخرج نفر من الرجال الموسرين فى عجالة، أصدر أوامره بقتلهم وسلب منازلهم، قائلاً إنهم مسيحيون أعداء لمحمد. فى أعقاب ذلك تدافع الثوار فى زخم شديد صوب الكنيسة، فاقتحموها، ونهبوها وسرقوها، وحطموا الأيقونات والتماثيل التى كانت تزين المذابح، وهدموا جرن المعمودية، وخرّبوا كل ما هو مقدس، ثم أشعلوا فيه النار. عندما نهرتهم واحدة من السيدات الموريسكيات البارزات فى تلك الطاعة عما يقترفون من آثامٍ و انتهاكٍ للمحرمات، ونزعت من الغلمان صفحات كتاب القداس التى كانوا يمزقونها، قطع أحد أولئك المارقين رأسها. أُسِر بعض المسيحيين وقُتِلوا فى ديارهم ذاتها، سواءً كانوا من القساوسة أو من الرهبان الخدام؛ وكان الكثيرون غيرهم قد أسعفهم الوقت للتوجه إلى أدرا. فيما بعد قتلوا كلاً من الكاهن الكاهن القانونى أنطونيو دى كويباس Antonio de Cuevas، والمعلِّم غارابيتو Garavito فى منزليهما. احتمى أحد أشقاء المعلِّم غارابيتو بالحصن القديم الكائن فى داليّاس العليا، وكان بصحبته بعض المسيحيين من تلك القرية وغيرها من قرى الطاعة ودافعوا عن أنفسهم هناك طيلة ثلاثة أيام؛ بيد أن أعداء الرب جمعوا كميات كبيرة من الحطب، وأغصان قصب السكر والكتان، وأشعلوا النار فى الحصن. عندما ألفى القوم أنفسهم دون دفاعاتٍ أو أمل فى أن يجيرهم أحد، وأنهم يحترقون أحياءً، طلبوا الاستسلام وعقد هدنة؛ لكن الخونة سخروا منهم، وكانوا يريدون القضاء عليهم بأيديهم المجردة.

فأخبروهم أن يلقوا بأنفسهم من البرج إلى الأسفل، وهم سيتلقفونهم بين أيديهم؛ لأنهم لا يستطيعون استخدام السلم، فما كان من المسيحيين إلا أن ألقوا بأنفسهم من علٍ - رجالاً ونساءً - ليفروا من النيران التى كانت تحاصرهم من جميع الاتجاهات. منهم من كسرت ساقه، ومنهم من شجت رأسه وأغشى عليه من جراء الارتطام بالأرض؛ لأن البرج كان شاهق الارتفاع؛ فكانت السلوى التى وجدوها هى سكاكين السيافين غلاظ القلوب، الذين أجهزوا عليهم. وهكذا قتلوهم جميعًا، ولم يستبقوا سوى أعداد ضئيلة للغاية من النسوة والأطفال أخذوهم أسارى، وقد قاموا بنفس المعاملة القاسية والوحشية مع أهالى بقية الأرجاء التى ثارت فى الآونة نفسها. سوف نروى الآن كيفية دخول ابن أمية إلى البشرات، وما أصدره فيها من قرارات؛ على أن نعود لاحقًا لسرد كيفية اندلاع الثورة فى سائر أرجاء الطاعات الأخرى.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول دخول محمد بن أمية إلى البشرات عقب تنصيبه ملكًا فى بيثنار، وما أمر به هناك.

عقب مغادرة ابن فرج لبيثنار، تبعه ابن أمية، الذى كان يرافقه مسلمون كثيرون خوفًا من أن ينصب ذاك الأول نفسه ملكًا على البشرات. عندما وصل ابن أمية إلى لانخارون، وجد أنه قد تم إحرق الكنيسة، وقتل بعض المسيحيين كانوا بداخلها. فانتقل منها إلى أورخيبا، فألفى المحاصرون بها داخل البرج يدافعون عن أنفسهم، فعرض عليهم الاستسلام والهدنة، لكنهم لم يلقوا له بالاً؛ فقسّم رجاله إلى قسمين: ترك أحدهما لمحاصرتهم، وكان يصحبهم النجار الكورثينى دى أوخيخار el Corceni de Ugíjar ودالاى Dalay، أما القسم الآخر فقد اصطحبهم معه إلى بوكيّرة وفيريّرة. وقد وصل إلى بيته فى بالور فى يوم عيد الأتقياء، وفى اليوم التاسع والعشرين من ديسمبر دخل إلى أوخيخار دى ألباثيتى، رغبة منه – وفقًا لأقواله لاحقًا – فى إنقاذ حياة رئيس دير الرهبان، وكان من أعز أصدقائه، وأصدقاء آخرين؛ فلمّا وصل هناك كانوا قد ماتوا. قام بتوزيع الأسلحة التى تم الاستيلاء عليها من المسيحيين بين المسلمين؛ ثم توجه فى نفس اليوم إلى أندرش، حيث حمل أهل البشرات على تأكيد اختيارهم له. عقب تجديد البيعة له، منح الامتيازات والصلاحيات لأبرز رجال المسلمين فى المناطق المختلفة، وأعز أصدقائه، لكى يتيح لهم أن يتابعوا بمقتضى سلطته سير الأمور، على النحو الذى يتماشى مع الدولة الجديدة والذات الملكية، على الرغم من بطلانها وانعدام أساسها. فأمرهم أن يولوا عنايتهم للمحافظة على الأراضى على وجه الخصوص، بأن

يضعوا قوات على مداخل البشرات؛ وأن يعمموا الثورة في شتى بقاع المملكة؛ ومن لا يرغبون في الثورة عليهم بقتلهم، ومصادرة ممتلكاتهم لصالح خزانته.

بعد تقسيمه المهام، عاد إلى أوخيخار، بعد أن نصّب ابن الصيغي -أحد رجال ذوي النفوذ في تلك الطاعة- قائدًا على أندرش. وهناك أوكل صلاحياته ونفوذه إلى حميه ميغيل دي روخاس Miguel de Rojas، وعيّنه وزيرًا للخزانة؛ فهو رجلٌ بارزٌ من سلالة موهايواخي Mohayguajes أو آل كريم Carimes – الوزراء السالفين لتلك الطاعة إبان حكم المسلمين- كما أنه كان مدينًا له بنقود. وكان مسلمو البشرات يوقرونه لثرائه ونسبه؛ أما هو فلم يكن أقل حنقًا على رجال القضاء والشرطة من ابن أمية: فقد ألقوا القبض عليه لمدة طويلة على خلفية جرائم الثوار الجبليين؛ إضافةً إلى ذلك فقد منعوه من جلب أسلحة، على الرغم من امتلاكه لرخصة تبيح له ذلك؛ كما أنهم لم يدعوه يستكمل إنشاء برج قوي كان يبنيه في داره، بل إنهم أرادوا هدمه. وأخيرًا فقد أنهى ابن أمية كل تلك الإجراءات سالفة الذكر في يومٍ واحد، وتوجه في الليلة ذاتها ليبيت في كاديار، حيث منح امتيازات القائد العام إلى عمه السيد إيرناندو الصغير؛ ثم ترك رجالاً لتزيين مدخل فيريّرة وبوكيّرة، حيث كان ينوي الإقامة. بقدوم يوم الثلاثين من ديسمبر كان قد عاد أدراجه إلى وادي ليكرين، تحسبًا لإمكانية التصدي لماركيز مونديخار، والدفاع عن مدخل البشرات من تلك الناحية، إذا دعت الحاجة لذلك؛ ورسّم ميغيل دي غرانادا شابا – أحد مواطني فيريّرة – قائدًا عامًا على تلك الجبهة.

الفصل الثالث والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى طاعة لوتشار، ووصفا لها.

يجاور طاعة لوتشار من جهة الغرب طاعة أندرش، ومن الشمال جبل شلير، ومن الجنوب جبل غادور، ومن الشرق طاعة مارتشينا. وتحوى سبع عشرة قرية هى: بيّريس Béyres، وألمواثاثا Almozata، وموتورا Mutura، وبوغايرارا Bogairara، ومولَيّرة Muleira، ونيِلّيس دى لوتشار Nieles de Lúchar، والكولا Alcola، وبادوليس Padules، وبولينيبار Bolinebar، وكانخايار Canjáyar، وأوهانييث ، وكومانوتولو Cumanotolo، وكابيليّرا دى لوتشار Capeleira de Lúchar، وباغو Pago، وخولينا Ju-lina، وغيبيديكى Guibidique، وبنى حبير Benihíber، ورووتشيس Rooches. تلك الطاعة أرضها خصبة نظراً لمرور نهر أندرش بها، وأيضاً النهر الذى يهبط من جبل أوهانييث، ليجتمع مساره مع النهر الآخر بالقرب من راغى، الكائنة بطاعة مارتشينا. وتتوافر فى جميع أنحائها مراعى للأغنام جيدة جداً، وفيها الكثير من الغيلات، وأشجار الفاكهة، وشجر التوت الأسود اللازم لإنتاج الحرير. كما يوجد فى بوغايرارا مصنع للحديد، يُشكّل فيه الحديد المستخرج من أحد المناجم الموجودة بالقرب من البلدة.

ثارت تلك المواضع ثالث أيام عيد الميلاد. لمّا كان المسيحيون القاطنون بها غافلين عما يدور حولهم، اعتقلهم الثوار جميعًا، وسرقوا منازلهم؛ كما نهبوا الكنائس، وحطموا المذابح، وكسّروا الأيقونات والصلبان والنواقيس، ولم يدعوا حرمةً إلا انتهكوها.

أما كانخايار، وهى البلدة الرئيسة فى تلك الطاعة، فقد أذاع فيها الملحدون قرار ابن فرج فى سرورٍ بالغٍ على أنغام الآلات الموسيقية، وقد جاء فيه أن كل من يبقى على حياة أى مسيحى يتجاوز عمره عشر سنوات يعرض حياته للخطر. من أجل إحياء ذاك الحفل، ذبحوا طفلاً مسيحيًا يبلغ من العمر تسعة أعوام، يدعى إيرنانديكو Hernandico؛ فقطعوا رأسه وجعلوه فى محل الجزارة، فى سلة صغيرة كان الجزار يحتفظ داخلها بنقود اللحم الذى يبيعه إلى المسيحيين؛ ووضعوا الجسد المذبوح على الجذع المستخدم لتقطيع اللحم؛ ثم غلّفوا جلده بالكتان، وأحرقوه. بعد أن انتهوا من ذاك الفعل غير الإنسانى مع طفل برىء، جردوا كلاً من فرانثيسكو دى لا تورّى Francisco de la Torre وخيرونيمو دى سان بدرو J - Jerónimo de San Pedro وهما من أهالى غرناطة – من ثيابهما، وحلقوا لحيتيهما، وكذلك هشّموا أسنانهما وأنيابهما بقبضاتهم، كما قطعوا أذنيهما وأنفهما من أجل متعتهم الخاصة، ونزعا عيونهما ولسانيهما؛ ثم انهالوا عليهما طعنًا بالسكاكين والسيوف؛ لأنهم لم يطيقوا مشاهدة الرجلين يمجدان المسيح عيسى وأمه المباركة. هذا ولم يكتفوا بذلك، فبعد أن قتلوهما، شقوهما بالسيوف، وأخرجوا قلبيهما، وقام أحد المسلمين بأكل قلب فرانثيسكو دى لا تورّى نيئًا(٢٥).

فى أعقاب ذلك جرّدوا كلاً من الكاهن القانونى ماركوس دى سوتو Marcos de Soto، وسادن كنيسته فرانثيسكو نونيث Francisco Núñez من ملابسهما، وحملوهما إلى الكنيسة؛ ثم أجلسوا الكاهن على أحد الكراسى فى الموضع الذى اعتاد أن يشغله

(٢٥) الحديث عن ذبح طفل ليس جديدًا فى كتابات مسيحيى إسبانيا خلال القرن السادس عشر؛ لدرجة أنهم يزعمون أن المسلمين يحتفلون بعيد الأضحى بذبح طفل مسيحى (انظر كتاب "حياة الموريسكيين الدينية" لبدرو لونغاس ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة). ويخطر ببالنا أن ذكر هذه الفظائع الموصوفة فى الفقرة والتأكيد على أن المسيحى لم يتخل عن دينه له هدف محدد: كان بوسع الموريسكى أن يتمسك بالإسلام رغم التعذيب، وإذا كان لم يفعل فلأنه غير مقتنع بالإسلام، ودخل المسيحية بإرادته وهنا يخضع لسلطة محاكم التفتيش. (المراجع).

أثناء الوعظ، ووضعوا إلى جواره شماس الكنيسة، حاملاً بين يديه سجل أسماء مواطنى البلدة؛ ثم قرعوا ناقوسًا حتى يحضر كل الأهالى إلى الكنيسة. عندما امتلأت الكنيسة بالحضور، أمروا السادن أن يقرأ من السجل، كما اعتاد أن يفعل للتثبت من عدم تخلف أحد؛ فبدأ الرجل فى مناداة الأسماء؛ وباتوا يخرجون على الترتيب - رجالاً ونساءً- حتى يصلوا إلى موضع الكاهن، فيصفعوه ويلكموه على رأسه، كما قام بعضهم بنتف حاجبيه و بعد أن مر عليه الجميع - صغاراً وكباراً - اقترب منه سيافان بسكينيهما، وشرعا يقطعانه إلى أشلاءٍ مفصلاً بمفصل، بدءًا من أصابع قدميه ويديه. حينما بادر قسيس المسيح عيسى بالتضرع إلى اسمه الأقدس وتمجيده، استخلصا عينيه وأعطياهما للحاضرين لأكلهما[٢٦]، ثم قطعا لسانه. فلمّا فاضت روحه إلى بارئها، شقا جسده، وأخرجا قلبه وأمعائه، وألقياها إلى الكلاب لتأكلها. وأيضًا لم يكتفيا بذلك، فسحبا الجسد، بعد أن ربطا حبلاً إلى رقبته، ووضعاه أسفل شجرة زيتون؛ ثم أوثقا إليه السادن، وأسقطاهما أرضًا بأقواسهما، وبعد ذلك أشعلا نارًا ضخمةً وأحرقاهم فيها. وقد أعدموا بنفس الوحشية أربعة وعشرين شخصًا من الرجال والنساء؛ لأنهم لم يرحموا حتى النسوة، وكان من بينهم بعض من أُسِروا فى بولودوى.

(٢٦) يصعب على المرء أن يصدق كل هذا القدر من البشاعة، ونرى أن المؤلف أراد بذلك تبرير ما فعله الكاثوليك بالمسلمين فى سجون محاكم التفتيش، وما سيفعلونه خلال إخماد الثورة. (المراجع).

الفصل الرابع والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى قرى طاعة مارتشينا، ووصفا لها.

يجاور طاعة مارتشينا من جهة الغرب طاعة لوتشار، ويحدها من الشمال جبل شلير، ومن الشرق أراضى ألمريّة ، ومن الجنوب جبل غادور. وبها اثنا عشر موضعًا هى: راغى، وإنستنثِيون Instinción، وراغول Ragol، والحابية Alhabia، وغيثيخا، وأليكوم Alicum، وسورخينا Surgena، والحامة لا سيكا Alhama la Seca، وغادور حرّ Gádor Hor، وتيِركى Terque، وابن طارق Abentarique، وإيلار Îlar، والسدس el Soduz، وسانتا كروث Santa Cruz، والحصان el Hizan . تلك الأراضى ليست خصبة أو عامرة بالغيلات كسابقتها، وخاصةً أشجار التوت الأسود. ويربى فيها الكثير من رؤوس الأغنام، ويقطعها فى المنتصف النهر الذى كنا قد ذكرنا أنه يعبر طاعة لوتشار، ويُطلَق عليه – منذ دخوله مارتشينا إلى أن يصب فى البحر – نهر ألمرّية. ثارت تلك المواضع بالتزامن مع ثورة بقاع لوتشار، فقام الثوار بسلب المعابد ودور المسيحيين وتخريبها، واستباحوا الحرمات ودنسوا المقدسات؛ وكان ذلك فى غيثيخا على وجه الخصوص، وهى القرية الرئيسية فى تلك الطاعة؛ ولن نتناول سواها فى هذا الفصل، لتجنّب الإطناب.

وصلت إلى غيثيخا فى ثانى أيام أعياد الميلاد رسالةٌ من السيد غارثيا دى بيّارّويل، وهو – كما أسلفنا الذكر – قائد القوات المحاربة فى مدينة ألمريّة(*)، موجهةً

(*) انظر الفصل الرابع عشر، صفحة ٧٣. (المترجمة).

إلى الأب خيباخا Gibaja، الحاكم العام لتلك الطاعة، التى تتبع دوق ماكيدا Maqueda. وقد أرسل يطالبه فى إلحاحٍ شديدٍ أن يجمع كل المسيحيين الموجودين فى تلك البقاع، ويتوجه للاحتماء بالمرية قبل أن يقتلهم المسلمين؛ حيث وصلت إليه أنباءٌ مؤكدةٌ – عن طريق خطاباتٍ جاءته من الساحل – أن المملكة بصدد القيام بالثورة؛ أما هو فلا يتوفر لديه رجال يكفون لإغاثته. فما كان من الأب، الذى اعتقد أن الأمر بسيط، إلا أن يجيبه بأنه لن يهجر أولئك الرعايا؛ وأنه يفضل الحياة أو الموت معهم، على أن يفقد فى يومٍ واحدٍ ما أنجزه على مدار ستين عامًا. ثم أمر أن يأوى المسيحيون جميعًا، برفقة نسائهم وبنيهم، إلى برجٍ حصينٍ فى المكان، يوجد إلى الخلف قليلاً من الزاوية الكاهن بها دير قساوسة القديس أغوستين؛ وأن يأخذوا بحوزتهم كل ما يتسنى لهم حمله من المياه والمؤونة، تحسبًا إذا ما دعت الحاجة أن يدافعوا عن أنفسهم فى الداخل لعدة أيام. على ضوء تلك القلاقل، تحصّن داخل البرج ما يربو على مائتى شخص من شتى قرى الطاعة. ما إن انتهوا من حشد صفوفهم، حتى جاء ماتيو الرامى Mateo el Rami، ويدعوه البعض الحُبينى el Hubini، وهو أحد الحجّاب فى بلدة إنستينثيون Instinción، على رأس مجموعات الثوار الجبليين، وأناس غيرهم كثيرين؛ وهم يدقون الطبول الصغيرة ويعزفون على المزامير، رافعين الألوية ومروجين لقيام الثورة فى المملكة.

كان أول ما قاموا به لدى دخولهم إلى القرية، هو سرقة وتدمير بيوت المسيحيين والكنيسة. ثم توجهوا فيما بعد للتصدى للبرج؛ فاقتحموا الدير، ووجدوه خاليًا؛ لأن القساوسة كانوا قد احتشدوا مع الحاكم العام. فسرقوا الزخارف، والكؤوس، وستائر المذبح؛ وحطموا المذابح والأيقونات التى تزيّنها، ولم يدعوا إثمًا إلا اقترفوه، كما لو كان ذاك الفعل هو مكمن سعادتهم. فى صبيحة اليوم التالى بعثوا إلى المحاصرين، يطالبونهم بالاستسلام وتسليم أسلحتهم، على أن يدعوهم ليذهبوا حيث يشاءون فى حرية. وقد بدا الأمر وكأنه عرض جيد لكثير من الموجودين داخل البرج، بيد أن المسيحيين فطنوا لاحقًا إلى أن المسلمين كانوا يخدعونهم؛ لأنه فى أثناء مغادرة فتاتين

نبيلتين هما الآنستان فرانثيسكا خيباخا Francisca Gibaja وليونور بانيغاس Leonor Vanegas للبرج، أطلقوا عليهما نيران بنادقهم، فصرعوا بدرو دى أوروثكو Pedro de Horozco، وهو الشيخ الكبير الذى كان يرافقهما. عندما رأى المسيحيون ما حدث، أغلقوا باب البرج فى سرعةٍ كبيرة؛ وتركوا الآنسة فرانثيسكا خيباخا بالخارج[٢٧]؛ لأنه لم يتسن لهم إدخالها؛ ثم تأهبوا للدفاع عن أنفسهم. لم يمض وقتٍ طويلٍ حتى اتفق المسلمون على إضرام النيران فى البرج، وحتى يتمكنوا من القيام بذلك وهم فى مأمن، أرسلوا بعض الرماة المتخفين إلى المنطقة المحيطة بالبرج؛ وبينما انشغل المسيحيون برميهم من الكوات والشرفات، وصل المسلمون إلى إحدى زوايا البرج، وشرعوا فى ثقبها بالمعاول؛ ثم دلفوا إلى القبو السفلى دون أن يشعر بهم أهلنا، فوضعوا به أخشاب الأيقونات والصور التى كانوا قد كسّروها، وكميات كبيرة من الحطب والكتان المغمورة فى الزيت العكر، وأشعلوا النار. عندما أحس المسيحيون غير المتمرسين والغافلون بالدخان وألسنة اللهب، كان السلم مشتعلاً بالفعل.

هـهنا ألفى القوم أنفسهم يحترقون أحياءً، فبدأ عويل النساء والأطفال: منهم من ينادى على أبويه، ومنهم من ينادون أزواجهم أو إخوتهم؛ والرجال - الذين لو كانوا بفردهم لتحلوا بالشجاعة والإقدام - ثبّط عزمهم، وغالبتهم مشاعر الشفقة تجاه نسائهم وبنيهم؛ فبادروا بالتدلى من البرج على عجل، بالحبال أو بأفضل الوسائل المتاحة، إلى الجزء الذى لم تصله النيران بعد؛ ثم أسلموهن، وكذا أنفسهم، إلى قبضة الأعداء القساة؛ الذين بدأوا فى تجريدهم من ملابسهم أثناء هبوطهم، وانهالوا عليهم ضرباً بالعصى ولكماً، وأوثقوا أيديهم.

حينما شاهد الحاكم العام، والقساوسة، والكثيرون غيرهم ممن لم يشاءوا الاستسلام، لهيب النيران يتزايد بمرور الساعات، أدلوا باعترافاتهم، ومجدوا الرب؛

---

(٢٧) تبدو رواية مارمول ناقصة إذ يعود إلى ذكر مصير الآنسة فرانثيسكا التى تركوها بالخارج فيما بعد ولا ندرى ما حدث بين المناسبتين. (المراجع).

وأخذ الحاكم العام تمثالاً للمسيح المصلوب بين ذراعيه؛ وشرعوا جميعًا يجابهون النيران لفترة طويلة، محاولين إخماد ألسنة اللهب بإلقاء التراب والثياب فوقها. لكن ذلك لم يجد نفعًا، لأن أعداء الرب كانوا يغذوها بمزيد من الحطب والزيت. وقد تصاعد الدخان واللهب إلى الحد الذى أسفر عن عدد من الوفيات المختلفة: فمات البعض خنقًا من جراء الدخان، وتفحّم آخرون فى النيران؛ لم يبق على قيد الحياة سوى قسٌ واحدٌ واثنان من غلمان الدير، بعد أن تورّموا وامتلأوا بالفقاقيع. مات داخل البرج كلٌ من الحاكم العام، وكهنة البلدة، والكهنة التابعين للحامة لا سيكا، وقسيس الملك فى إنستنثيون، والكثير من الرهبان، ونفر من السيدات والأطفال، الذين لم يكن هناك سبيل لإنزالهم.

لم يكن مصير من استسلموا أفضل ممن احترقوا فى البرج؛ لأن المسلمين قاموا بنحرهم فى حوض معصر الزيت التابع للدير، وكان قريبا من ذلك الموضع. أما لويس مونتيسينو دى سوليس، الذى أشرنا إليه فى الفصل الذى يتناول ثورة أندرش(*)، فقد اصطحبوه مع المسيحيات الأسيرات إلى جبل غادور، ومنها إلى كودبا؛ وهناك أرسلوا فى طلب ابنته الآنسة ماريا دى سوليس María de Solís، والآنسة فرانثيسكا غيباخا، ابنة الحاكم العام، واحتجزوهما فى منزل رجل مسلم ثرى يدعى زكريا ، بعيداً عن باقى الرهائن، يرافقهما أربعون فرد حراسة من المسلمين، لكى يحملوهما فيما بعد كهدايا لملك المغرب. وقد قتلوا لويس مونتيسينو دى سوليس فى وحشيةٍ بالغةٍ، وذلك فى حضرة كلتا الفتاتين: فجردوه من ثيابه كلها، وعلقوه من إصبعى قدميه الكبيرين فى إحدى النوافذ الأمامية للمنزل الذى حُبِسَت به ابنته، وشرعوا فى تقطيع أعضائه بالسكين عضواً عضواً، وصولاً إلى كتفيه. ولمّا كان يمجّد المسيح عيسى، أخرجوا لسانه وعينيه، وقطّعوا أنفه وأذنيه، ثم عرضوه للدخان، وأخيراً أحرقوه فى النيران.

(*) انظر الباب الرابع، الفصل العشرين، صفحة ١٠٤. (المترجمة).

لنعد الآن إلى مسلمي غيثيخا؛ لأنهم في أعقاب إحراق البرج حشدوا صفوفهم، وصعدوا جميعًا مع نسائهم وبنيهم ومنقولاتهم إلى جبل غادور، يسبقهم في مقدمة الركب الأمتعة والأغنام. وقد خلّفوا وراءهم خمسمائة مسلم، ينتظرون حتى تنطفئ النيران، عسى أن يكون في البرج ما يمكن سرقته؛ فعثروا على أولئك المسيحيين الثلاثة - الذين أتينا على ذكرهم آنفًا - شبه محترقين، فلم يرغبوا في الإجهاز عليهم، وحملوهم معهم في طريق عودتهم إلى الجبل. أثناء خوض نهر كانخايار، جعلوهم يحملون الجميع على عاتقهم أثناء الخوض فيه؛ حينئذ حل المساء وأظلمت الدنيا، ولم يتمكن الثوار من إرجاء رغبتهم في الانتقام أكثر من ذلك: فقتلوا القسيس طعنًا بالسكاكين، وسلخوا أحد الغلامين حيًا، ولا ندري ما الذي حل بالثالث، ولا يسعنا سوى أن نظن أنهم قتلوه أيضًا، بحيث لم يبق من كل المسيحيين الذين كانوا موجودين في بقاع تلك الطاعة سوى ثلاثة أفراد، وقد تمكنوا من النجاة بأرواحهم بعد أن خبأهم نفر من أصدقائهم الموريسكيين، ليضعوهم بعد ذلك في مكان آمن.

جمع المسيحيون في تيركي نساءهم وبنيهم، واحتشدوا في برج الكنيسة، ظنًا منهم أن بإمكانهم الدفاع عن أنفسهم. بيد أن المسلمين أضرموا فيهم النيران، وأحرقوهم جميعًا جنبًا إلى جنب مع الكنيسة والبرج. فيما بعد قامت النساء الموريسكيات بإظهار مشاعر الأسى لاحتراق ناظر الحرير بتلك الطاعة في ذاك الموضع، ولم يكن الداعي لذلك الحزن هو أسفهن لحاله، ولكنهن كن يرغبن بشدة في تعذيبه كما يحلو لهن؛ لأنهن كن يكرهنه للغاية.

الفصل الخامس والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة فى بقاع نهر بولودوى، ووصفا للنهر.

ينبع نهر بولودوى من أعلى نقاط جبل شلير الواقعة فى أقصى الشرق. وتجاور قراه طاعة مارتشينا من جهة الغرب، ومن الجنوب أراضى ألمريّة، كما يحدها من الشرق جبال بسطة، ومن الشمال جبال وادى آش وبقاع أبلا Abla ولاوريثينا Lauricena. يوجد بذاك النهر خمس قرى هى: الحصان Alhizán، وسانتا كروث Santa Cruz، وكوتشويلوس Cochuelos، وبيلومبين Bilumbin، والحابية. ويهبط النهر إلى المنطقة الواقعة بين أبلا ولاوريثينا، ثم يستكمل مساره حتى سانتا كروث – وهى البلدة الرئيسية فى المنطقة – وبعدها يتوجه حيث يلتقى بنهر ألمريّة فى البقعة الموجودة ما بين الحابية وغيثيخا. وهى أراض تمتاز بوفرة الغيلات، وينتج قاطنوها نوعية جيدة للغاية من الحرير. كما تُزرع بها كميات من الحبوب، والقمح؛ وتحتوى على أعداد كبيرة من رؤوس الأغنام. ويزرع أهلها الحناء، وهى نبتة ورقية تشبه الريحان، لكنها أرفع بعض الشىء، ولها مكانة كبيرة عند المسلمين. كان القائد العام لتلك االقرى التابعة للسيد دييغو دى كاستيّا Diego de Castilla، سيد غور Gor، هو السيد بلاس دى بيدما Blas de Biedma. كان منزله يقع فى سانتا كروث، وكان بإمكانه تجميع كل المسيحيين الموجودين فى تلك المنطقة، لولا ثقته فى عدم قيام موريسكيى تلك الأرجاء بالثورة. وكان السيد غارثيا دى بيّا رّويل قد كتب إليه هو أيضًا، كما كتب إلى السيد خيباخا، ليتوسل إليه، وكذلك يطالبه، أن يعجّل بالاحتماء بمدينة ألمريّة؛ بيد أنه لم يشأ أن يقوم بذلك.

ثارت تلك المواضع فى ثانى أيام عيد الميلاد. هرول أهالى سانتا كروث إلى ديار المسيحيين، فقبضوا عليهم، وسرقوا كل ما كان بحوزتهم، ودمّروا الكنيسة. وقد أجهزوا على الحاكم العام بطريقة وحشية، فحذوا حذو سكان كانخايار، وجردوه من ملابسه أمام أربع فتيات مسيحيات – ثلاثة من بناته وابنة المحلِّف بوستُس Bustos، أحد مواطنى المريّة، وكانت الفتاة ابنة أخته –. ثم عقدوا يديه خلف ظهره، وأتاه أحد المارقين، فجدع أنفه، ودقّ مسماراً فى جبهته؛ وبعدها قطع أذنيه، وأعطاهما إياه ليأكلهما. لمّا كان الرجل يمتدح الرب بينما هم آخذون فى تعذيبه، قطعوا لسانه، ويديه، وقدميه؛ وبقروا بطنه، ووضعوا تلك الأعضاء بداخلها؛ ثم شقّ أحد السيّافين صدره، وأخرج قلبه، وبادر بقضمه قائلاً: " مبارك اليوم الذى يمكننى أن أرى فيه قلب ذاك الكلب الكافر فى يدىّ! ". وبعدها أحرقوا الجثة؛ ثم حملوا باقى المسيحيين – رجالاً ونساءً – إلى كانخايار، حيث قتلوهم لاحقاً.

ثار أهالى الحصان فى نفس أوان ثورة مواطنى سانتا كروث. فجمع الكاهن القانونى خوان رودريغيث Juan Rodríguez كل المسيحيين فى برج منزله. نهب المسلمون البيوت والكنيسة، وهشّموا كل الأشياء المقدسة؛ ثم اتجهوا إلى البرج، وأشعلوا فيه النيران من كل الإتجاهات، وحرقوا كل من احتموا بداخله أحياءً، ما عدا الكاهن القانونى وثلاث فتيات من بنات إخوته. لكن حينما أرادت القرية أن تسعد بمقتل كاهن عيسى المسيح فيما بعد، خلعوا عنه ثيابه، وأسلموه إلى السيدات الموريسكيات ليقمن هن بقتله؛ فأخرجن عينيه بالخناجر، وجرحنه بالسكاكين والحجارة، إلى أن فاضت روحه إلى بارئها، ولسانه ما برح يلهج بحمد عيسى المسيح، ويمجد اسمه الأقدس. حُمِلَت الأسيرات المسيحيات إلى كانخايار، حيث قُتلن فيما بعد ومعهن نساء أخريات كثيرات، عندما تغلّب ماركيز بلش على مسلمى فيليكس Filix، كما سنذكر فى موضعٍ آخر. دعنا الآن من معالجة بقية القرى التى ثارت، على أن نعود إلى شأنها فيما بعد، لنذكر ما كان يدور فى مدينة غرناطة فى تلك الآونة.

الفصل السادس والعشرون

يتناول ما كان يدور فى تلك الآونة فى مدينة غرناطة لحمايتها ضد الموريسكيين، والأعذار التى قدمها هؤلاء.

عم الأسى الشديد مدينة غرناطة عندما سرت الأنباء حول عدم قدرة الرجال المصاحبين لماركيز مونديخار من اللحاق بالثوار الجبليين، وتنامت تلك المشاعر ساعةً تلو الأخرى، مع ورود أخبار الحرمات التى انتهكها الثوار، والأفعال الوحشية التى قاموا بها فى المواضع التى أشعلوا فيها الثورة فى البشرات. وحرك الغضب العارم لدى العامة الرغبة فى الانتقام، فأمسوا يتحدثون بحرية، يلقون باللوم على من يشاءون وينفونه عمن يشاءون، وهم فى نهاية الأمر يبحثون جميعًا عن حلٍ لما يجرى. رأى بعضهم أنه يكمن فى تطبيق مبدأ المساواة، ورآه البعض الآخر فى اللجوء إلى تطبيق القوانين بحزم، وقد اجتمع الكل على حتمية استخدام القوة المسلحة.

لمّا اجتمع المجلس الملكى مع سيادة الرئيس بدرو دى ديثا فى ذاك اليوم بقاعة المحكمة الملكية لمناقشة الوضع، كما اعتادوا أن يفعلوا فى مناسبات أخرى، قال الأب ألونسو نونييث بوهوركيس Alonso Núñez Bohorques المستشار القانونى بكل من المجلس الملكى فى قشتالة ومحكمة التفتيش – وكان آنذاك المستشار القانونى لتلك المحكمة الملكية – إن أقصر طريقٍ للقضاء على شرور الموريسكيين الثائرين، ومنع الباقين من الثورة، يتمثل فى إخراج كل من يقطنون فى البيّازين وبقاع غوطة غرناطة، وتسكينهم على مسافة تبعد عشرين فرسخًا إلى الداخل؛ مما يحول دون إمدادهم بالرجال، أو المقاتلين، أو التحذيرات، أو النصح؛ وهو أمر لا يمكن التحكم فيه إذا تم

الإبقاء عليهم فى المدينة، حيث يجولون ويدركون ما يجرى وما يُدَبَّر. لاقى ذاك الرأى استحسان سائر المجتمعين بالقاعة، بيد أنهم لاقوا صعوبة إزاء تنفيذه؛ لأن إخراج تلك الأعداد الغفيرة من منازلها بدا شأنًا تحفه المخاطر. فى النهاية، رُفِعَ الأمر إلى جلالة الملك. إذا كان الاقتراح لم يوضع محل التنفيذ آنذاك، فإن تطبيقه لاحقًا أمسى أقل استنكاراً وخطراً عن ذى قبل، وهو ما سنتطرق إليه فيما بعد فى موضعه.

على جانب آخر، قام ماركيز مونديخار، الذى كان يرغب فى اللجوء إلى القوة المسلحة، بتنبيه كل من المدن، وكذا سادة أندلوثيا، ومملكة غرناطة، أن يعجّلوا بتهيئة رجال الحرب؛ إذ ربما دعت الحاجة للتدخل من أجل قمع الثورة؛ فأرسل المجلس الملكى التعزيزات وفقًا لما طالب به الماركيز. حينما وردت أنباء عن امتداد الثورة باتجاه مملكة مرسية، قرر المجتمعون تحذير السيد لويس فاخاردو **Luis Fajardo**، ماركيز بلش، وأحد القادة فى تلك المملكة، لكى يحشد جموعًا من رجال الحرب فى تلك الأرجاء، ويبيت متأهبًا لما قد يأمر به جلالة الملك، على أن يُعلِم صاحب الجلالة بما فعله فى هذا الشأن. كان الموريسكيون يهابون ماركيز بلش كثيراً، فاعتقد المجتمعون أن سماع اسمه فحسب سيصير كافيًا لإعادتهم إلى جادة الصواب؛ وبمقتضى ذاك الاتفاق أرسل سيادة الرئيس بدرو دى ديثا فى طلب السيد كارمونا **Carmona**، محامى المحكمة الملكية لكى يناقش الأمر مع ماركيز بلش، وقال له أن يبعث كتابًا إلى الماركيز ليحذره من قدوم المسلمين لإثارة البيّازين، ونشر عقيدة محمد بها، ترافقهم آليات الحرب والألوية المنشورة؛ وإنه من الضرورى للغاية أن يقترب من مملكة غرناطة بصحبة أكبر قدر من المشاة والفرسان يتسنى له تجميعهم، وأنه سيتلقى عما قريب أمراً من صاحب الجلالة حول ما يتعين علي القوات القيام به؛ لأنه هو سيكتب إلى جلالة الملك حول ذاك الشأن.

حينما ذاع ذاك الأمر فى المدينة، اضطرب الموريسكيون؛ فلمّا شاهدوا كل تلك الاحتياطات التى تُتَخَذ، حاولوا بكافة السبل التضرع وإبعاد الشكوك التى كانت تحوم حولهم، وإلقاء اللوم على الثوار الجبليين. ههنا اجتمع رجال البيّازين البارزون فى ثالث

أيام عيد الميلاد، وتوجهوا برفقة نائبهم العمومي للتحدث مع كافة مستشاري الملك؛ وأخذوا يقنعون كلاً على حدة بحججهم، ليظهروا براءتهم من التهم التي تُنسب إليهم؛ مبالغين في وصف وقاحة أولئك الهالكين، الذين قدموا إلى البيّازين ليتسببوا لهم في كل تلك الشرور. وقالوا لهم إنهم إذا ما قبضوا عليهم لاحقًا، فإنه سيتبين لهم من كانوا المذنبين؟ وعند معاقبة هؤلاء، ستنطفيء نيران الفتنة قبل أن تستشرى. وأضافوا كذلك أن المرسوم لم يهيجهم هم، وإذا كانوا قد عارضوه، فقد كان الداعي إلى ذلك هو الغيرة المحمودة؛ وأنهم الآن سعداء بإقراره، بعد أن علموا أن تلك هي مشيئة صاحب الجلالة؛ وأن كل المضايقات التي كان قد سببها لهم قد تلاشت، بعد أن رأوه ينفذ بذلك القدر من الانصاف. كما أنهم مستعدون لخدمة جلالة الملك بأموالهم، حتى يُعاقب المذنبين ويُكرّم الأخيار؛ كما كان الحال في تلك المملكة في آونةٍ أكثر اضطرابًا، في أعقاب الاستيلاء على[28] المملكة وبعد ذلك بفترة وجيزة.

أجاب المسئولون على كل تلك الأقاويل، وغيرها من الأمور التي تطرق إليها الموريسكيون في حلمٍ وود، خاصةً رئيس المحكمة[29]، حيث ألقى باللوم على من يلوكون شرفهم بألسنتهم، وقال إنهم يُعِدّون الموريسكيين على الدوام رعايا أوفياء لجلالة الملك؛ وهذا هو فحوى مكاتباتهم إلى صاحب الجلالة، وإنهم سيرسلون إليه في هذا الشأن من جديد. وأضاف أنه من جانبه سينظر في أمرهم، وأكد أنه لن يسمح أن يمسهم سوء أثناء تنفيذ المرسوم، حاثًا إياهم على التمسك بإيمانهم وولائهم الذي يزعمون؛ وإذا قاموا بخلاف ذلك فلن يعاقبوا بأقل من الدمار الشامل، نظرًا لمعاداتهم الرب وذلك الأمير واسع النفوذ؛ فهو إن لزم الأمر يستطيع أن يشن الحرب بحرًا وبرًا على جميع

---

(٢٨) لاحظ أن مارمول لم يستخدم هنا مصطلح "استرداد". (المراجع).

(٢٩) قال مارمول إن ماركيز مونديخار كان يريد استخدام السلاح ويقول هنا إن رئيس المحكمة كان حليمًا مع الموريسكيين، وهو هنا يختلف مع مؤرخين آخرين يرون أن ماركيز مونديخار كان يريد حلاً سياسيًا للمشكلة. (المراجع).

أمراء الكون فى آنٍ واحد. هكذا حاول المسئولون تهدئتهم قدر المستطاع، مستخدمين تلك الحجج والكثير غيرها على شاكلتها، بينما هم يُقرّون من ناحيةٍ أخرى ما من شأنه تأمين سلامة تلك المدينة والمملكة بأسرها. على ضوء كل تلك الشكوك والمخاوف، لم يتوقف انعقاد الاجتماعات بالقاعات سوى يوم واحد، بينما واصل المستشارون الحقوقيون والعمد عقد جلساتهم فى أثناء اندلاع الثورة كل يومٍ فى المواعيد المعتادة. كان ذلك من الأهمية بمكان، حتى أن الموريسكيين لم يجرؤوا على إحداث أى أمر فى المدينة أو فى القرى المجاورة، فقد كانوا يخشون المشنقة إلى حد كبير، بما يفوق خوفهم من السيف. لاحقًا صدر الأمر بأن تُكَوّن سرايا الدوائر كتيبة للحراسة فى المحكمة، على أن يخرج بها المأمور القضائى ثلاث أو أربع مرات فى كل ليلةٍ، لتفقد البيّازين والقصبة. لمّا كانت أعداد الجنود قليلة، والمخاوف كبيرة، لجأت السلطات إلى حيلة - اعتادت استخدامها فى بعض الأحايين - للحيلولة دون إدراك الموريسكيين لحقيقة الأمر؛ فكان الجنود بعد أن يدخلوا براياتهم المشهرة من البوابة الرئيسية، يعاودون الخروج واحدًا تلو الآخر من بوابةٍ مستترة، لكى يدخلوا من جديد ضمن الكتائب الأخرى. كانت الأمور تجرى بقدرٍ كبيرٍ من الحذق، حتى إن المواطنين ذاتهم لم يدركوا ما يحدث. وقد زود الرئيس القادة والرجال العاديين بطاولاتٍ للعب، حتى يمسى لديهم وسيلة للترفيه، كما أمر بتقديم العشاء والوجبات الخفيفة لهم؛ بيد أنه رغمًا عن كل تلك الاحتياطات، لم ينته التعساء عن المضى قدمًا فى شرورهم، بعد أن تملكت منهم الوقاحة، كما سنفهم لاحقًا فى سياق هذا التأريخ.

الفصل السابع والعشرون

يتناول كيفية نشوب الثورة في بقاع أراضي شلوبانية، ووصفا لها.

شلوبانية بلدة منيعة للغاية نظراً لطبيعة موقعها ومهارة مؤسسيها، حيث تقع على ضفة البحر الأبيض المتوسط، فوق صخرة شديدة الارتفاع، ويوجد أمامها غابة معزولة من الأشجار تتوسط الأراضي السهلية المنبسطة، وإلى الغرب منها يقع شاطىء صغير بمعزل عن الساحل الشرقي، حيث ترسو السفن. والبلدة محاطة بأسوار لا يمكن إضعافها؛ لأنها مشيدة من الصخور الرخامية، وبالطبع لا يمكن هدمها أيضاً؛ لأنها عالية جداً ومدببة من جميع الاتجاهات، فيما عدا الجهة الشرقية التي بها البوابة الرئيسة للبلدة . وهناك قلعة حصينة في أعلى بقاعها الشمالية، لا يمكن قتالها سوى من منازل البلدة، وقد تم تأمينها من تلك الناحية بسورين عريضين بينهما تراب، وهي محصنة بالمتاريس. بالإضافة إلى ذلك فهو محاط بالأحجار المدببة ، يوجد بالداخل بئر مياه دافقة، ما من سبيل لمنعها.

تقع تلك القلعة في حيازة السيد دييغو راميريث دي أرو Diego Ramírez de Haro، أحد أهالي مدريد، وكانت مملوكة لأسلافه، حيث منحهم إياها الملكان الكاثوليكيان إبان غزو مملكة غرناطة. يحد شلوبانية من ناحية الشرق بلدة موتريل، ومن الغرب مدينة المنكب، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشمال وادي ليكرين. يوجد داخل حدودها ست قرى هي: لوبرِيس، وإترابو ítrabo، ومولبيثار Mulvízar، وغواخار العالية Guájar la alta، وغواخار دي الفغيت/الفقيد Guájar de Al-faguit، وغواخار ديل فوندون Guájar del Fondón. كل تلك المواضع مأهولة

بالموريسكيين، أما البلدة فقاطنوها من المسيحيين؛ وعندما تعمر بكاملها تضحى سعتها ستمائة منزل، أما فى تلك الآونة فلم يكن يشغلها سوى ثمانين شخصاً.

وهى أراضى وعرة، تصبح أشد انحداراً ووعورة ناحيتى الغرب والشمال، حيث تُزرَع بها كميات ضئيلة من القمح. المواضع المرتفعة توجد فى شق منحوت فى الجبل، حيث ينحدر منه نهر ينبع من عدة عيون تخرج من الجبل، ثم يكمل مساره فيما بعد لينضم إلى نهر موتريل. تلك الأودية عامرة بأراضى الرى التى تكثر فيها الغيلات، وأشجار الزيتون، وأشجار التوت الأسود، التى تتيح للأهالى حريراً عالى الجودة؛ بالرغم من أن المحصول الرئيس حاليًا هو السكر، ويرجع ذلك إلى وجود غوطة فى الناحية الشرقية باتجاه موتريل تتمتع بوفرة من عيدان قصب السكر اللذيذة، وكميات غزيرة من المياه لريها. هناك مصنع شديد الضخامة لتكرير السكر بجوار أسوار البلدة، ويوجد غيره فى القرى المجاورة، حيث يُحمَل إليها أعواد قصب السكر.

ثار موريسكيو قرى غواخار فى أول وثانى أيام عيد الميلاد، بالتزامن مع أهالى الوادى؛ بيد أنهم لم يحدثوا أضراراً بالكنائس أو يؤذوا المسيحيين، بل أخبروا الكاهن القانونى أن يكف عن إقامة شعائر القداس. وقد وعده حاكم البلدة المدعو غونثالو التارتيل Gonzalo el Tartel، وكان أحد أصدقائه، أن أحداً لن يغضبه أو يتعرض له؛ وأنه سيودعه مكاناً آمنًا، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وهو ما قام به بالفعل. فيما بعد صعد أهالى لوبراس، وإترابو، ومولبيثار إلى جبال غواخار، وهجروا ديارهم فراراً من الأذى الذى ألحقه بهم جيرانهم فى شلوبانية وموتريل: حيث يمكن القول إنهم كانوا من أثاروهم، أو عجّلوا بثورتهم على أقل تقدير؛ لأنه فى أعقاب معرفة ما قام به الثوار فى أورخيبا، خرج الأهالى على شكل كتائب لسرقة الدور والمواشى، وأساءوا معاملتهم بوسائل أخرى، ولكنهم امتنعوا آنذاك عن إلحاق أضرار بالكنائس.

حينما بدأت تلك القلاقل، كان السيد دييغو راميريث فى بلدة موتريل ترافقه عائلته وأهل بيته؛ عندما وصلته الرسالة التحذيرية التى بعثها ماركيز مونديخار، ذهب ليحتمى بحصنه. عندما أدرك أنه لا يوجد بالبلدة عدد كاف من الأفراد، كما أنه

لا يرافقه سوى خدمه، قرر أن يرسل شخصًا يدعى كلاوديو دى روبلس Claudio de Robles إلى أريبالو دى ثواثو Arévalo de Zuazo– المأمور القضائى لمدينة مالقة – يطلب منه تزويده ببعض المقاتلين لوضعهم بالبلدة؛ حيث كان يظن أن الثوار سيحاولون احتلالها، نظرًا لوجود الحصن بها، وملائمة موقع ذاك الميناء. فبعث إليه دييغو بارثانا Diego Barzana، على رأس خمسين من الرماة، مما عمل على تهدئة المواطنين بعض الشيء. فى نهاية الأمر، وضع السيد دييغو راميريث الحصن موضع الدفاع، واعتمد على قوات المدفعية، التى كانت منتشرة فى سائر الأرجاء دونما هياكل لحمل المدافع أو عجلات، واتخذ كافة التدابير التى تتماشى وكونه صاحب قلعةٍ قدير. وهو لم يدافع عن المكان فحسب، بل إنه خرج مرات كثيرة لاقتفاء آثار الأعداء، وقام بالعديد من المآثر العظيمة، التى سنسوقها فى موضعها.

الفصل الثامن والعشرون

يتناول كيفية مهاجمة المسلمين لبرج أورخيبا.

فى يوم الأحد، السادس والعشرين من شهر ديسمبر ، الموافق لثانى أيام عيد الميلاد، اتفق المسلمون على مهاجمة برج أورخيبا؛ وجمعوا من أجل ذلك الكثير من حزم الحطب، وأعواد القصب المضفورة مع الأغصان والمغمورة بالزيت؛ لأنهم كانوا يفكرون فى إحراق المسيحيين الموجودين بالداخل. وقد أرسل صاحب البرج غاسبار دى سارابيا عشرين رجلاً إلى الخارج، فقتلوا بعض الموريسكيين، وأحرقوا كل تلك الحزم فى المكان الذى تم تجميعها فيه. فهرول الأعداء إلى الكنيسة، وألفوها دونما حماية، فدلفوا إلى الداخل؛ وشرعوا يهشمون الأيقونات ويحطمون المذبح فى غضبٍ عارم، وكسّروا جرن المعمودية، وأراقوا الزيت المقدس والميرون، وأطلقوا رصاص البنادق على صندوق القرابين المقدسة؛ وقد استشاطوا حنقًا لمّا لم يعثروا بداخله على قربان المناولة المقدس، حيث كان الكهنة القانونيون قد أنهوا ما لديهم فى كل تلك الأماكن. فأخذوا يلقون كل الأشياء المقدسة على الأرض، ولم يدعوا حرمة إلا انتهكوها أو إثمًا إلا اقترفوه.

وقد صعدوا إلى برج الناقوس، ووضعوا على أعلى نقطة به ساترًا واقيًا من الألحفة والملاءات، لكى يتمكنوا من إطلاق نيران بنادقهم على المسيحيين من خلفه. وقد أرسلوا لهم فى تلك الليلة مسلمًا من بنى ثالتى اسمه الفيرثا el Ferza، ابن ألونسو فيرثا Alonso Ferza، ليطالبهم بالاستسلام، وتسليم أسلحتهم وأموالهم، على أن يتركهم الثوار على قيد الحياة. وصل المسلم إلى البرج رافعًا رايةً بيضاء، وأبلغ

الرسالة التي يحملها، قائلاً إن غرناطة قد أُبيدت، وإن المسلمين قد استولوا على حصن الحمراء وجعلوه تابعًا لهم؛ كما أن جلالة الملك فيليبي لا يستطيع أن يرسل إليهم نجدة، لأنه محاصر باللوثريين(*)، وأن أمور المسلمين تسير على أكمل وجه، حتى أنهم يتوقعون أن يصلوا منتصرين عما قريب إلى قشتالة القديمة. حينما سأله أحد القساوسة إذا ما كان يتحدث كمسيحي أم مسلم؟ رد المارق بأنه يتكلم كرجل مسلم، وأن تلك الأرض لم يعد بها سوى الله ومحمد، وأنه يجدر بمن هنا أن يحسنوا التدبر، ويعتنقوا الإسلام إذا كانوا يرغبون في الحصول على حريتهم. أسف أهلنا كثيراً لتلك الكلمات، ولم يطيقوا سماع عبارات كفر على شاكلتها، فأجابوه بأن ينصرف من هنا، إلا إذا كان يرغب في أن يردوه قتيلاً ببنادقهم؛ وحذروه ألا يرجع هو أو غيره بتلك الرسالة؛ لأنه لن يصيبهم خير؛ لكن ذلك لم يثنهم عن عرض السلام عليهم مرات أخرى، ليروا إذا ما كانوا سيتمكنوا من خداعهم.

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى اتفق المسلمون على صنع غطائين من الخشب، لثقب الحائط من الأسفل، وإسقاط البرج على الأرض؛ بيد أن المحاصرين أظهروا حذقًا شديداً، فأحرقوا واحداً بينما كان لا يزال في طور الإنشاء، أما الثاني فقد أنهاه المسلمون؛ وعندما وُضِعَ في المكان المناسب، أعطوا إشارةً للناس جميعًا، وتهيؤا للقتال. صُنِعَ ذاك الغطاء من جذوع الأشجار السميكة، وغُطِيَ بألواحٍ من الخشب المكسو من الخارج بجلود الأبقار، ثم وُضِعَ أعلى الخشب والجلد ألحفةٌ من الصوف المبلل، لمقاومة الأحجار والنيران. عقب وضعه على أربع عجلات منخفضة، قام من هم تحت الغطاء أنفسهم بإدارة العجل؛ وأخذوا يجرّون من كلا الطرفين حزمًا ضخمةً من أعواد قصب السكر والحطب الجاف والكتان، وقد كانت كلها مغرقة في الزيت، حتى يتسنى لهم إحراق البرج بواسطتها بعد ثقبه وتدعيمه بجذوع الأشجار. كان تصميم الأعداء كبيراً، وأمسى الغضب والحنق معتملين داخل الصدور؛ رغمًا عن أن المسيحيين

(*) انظر الكتاب الثالث صفحة ٢٦،٢٧ (المترجمة).

قتلوا الكثير منهم بطلقات بنادقهم، فإنهم واصلوا الدنو بغطائهم. حاول رجالنا تحطيمه عن طريق رميه بالأحجار الثقيلة من علٍ؛ حينما فطنوا إلى قلة جدوى ذلك؛ لأن الخشب كان صلبًا، كما أن الكسوة الخارجية كانت تصد الحجارة، أخذوا بعضًا من بلاط الأرضيات تصادف وجوده بالبرج، وقذفوه على الزاوية فى الموضع الذى تنكشف فيه الأغطية، فمزقوا النسيج، ثم ألقوا فوقهم قدرين من الزيت المغلى - من القربة التى كان لياندرو قد أحضرها - وكمياتٍ من مشاقة القُنَّب والكتان المحترق، فاشتعلت النيران على نحو أحرق الألحفة والملاءة فى برهة وجيزة. أما من كانوا قد شرعوا بالفعل فى نقر الجدار، فقد لاذوا بالفرار لما أحاط بحياتهم من خطر محدق. لم يشهد ابن أمية ذلك الاعتداء؛ لأنه كان قد ابتعد عن المكان، كما ذُكِرَ آنفًا، متوجهًا إلى بيتريس دى فيريِّرة لإقرار أمور أخرى؛ حينما علم بما صار من أحداث خسيسة، أمر بوقف الهجمات، والاكتفاء بتطويق البرج لمنع دخول الإمدادات إليه؛ وقد ظلوا على حالتهم تلك طيلة سبعة عشر يومًا حتى أغاثهم ماركيز مونديخار، كما سنسوق لاحقًا.

(*) راجع الكتاب الرابع، الفصل التاسع ، صفحة ٤٤. (المترجمة).

الفصل التاسع والعشرون

يتناول ما كان يدور فى تلك الآونة فى ألمرية، ووصفًا لتلك الأراضى ولبعض مواضعها التى اندلعت فيها الثورة.

كانت مدينة ألمرية تدعى قديمًا بيخى Vljl. وهى تقع على ساحل البحر، وحدودها مترامية الأطراف: حيث يحدها من جهة الغرب طاعة داليّاس، وأندرش؛ ومن الشمال طاعات لوتشار، ومارتشينا، وبولودوى؛ كما يحدها من الشرق نهر المنصورة، ومدينتى موخاكار وبيرا؛ أما حدودها الجنوبية فهى ممتدة بطول الساحل الأبيض المتوسط من برج رابطة Rábita، فى فيليكس Fllix بالناحية الغربية، وحتى هضبة رولدان Roldán شرقًا. هناك سبعة وثلاثون موضعًا وبلدة فى نطاق حدود ألمرية، وأسماؤها كالتالى: إينيكسÍnix ، وفيليكس، وبيكارVícar، وتوريّاس Turrillas، وأُوبريبو Obrevo، وإنوكس Inox، وكاربال Carbal، والقِطان Alquitán، وبيدريغال Pedregal، والحضارة Alhadara، وبايتور Valtor، وغويركال Güércal، وألغوايان Alguayán، وبنى حبوس Benahaduz، وبيتشينا Bechina، والحامة دى بيرتشينا Alhama de Barchina، وريوخا Rioja، وغادور، وغوَيثيليانا Guycillana، وسانتا فى، ونْيخار Níjar، وموندوخار، وغيثِين Guézhen، وألوكاينونا Alocainona، وسورباس Sorbas، وأولِيلة ديل كامبو Uleia del Campo، وأولِيلة دى كاسترو Uleia de Castro، وبيليفيكى، وبابرين Babrin، والحَمّية Alhamilla، وتابِرناس Tavernas، وخيرغال Gérgal، وكاسترو Castro، وباكاريس Bacares، والبيرى Elbeire، وباياركا Bayarca، وماكايل Macael.

يمر نهر أندرش بتلك الأراضي، وبعد أن يعبر طاعة مارتشينا، يتوجه لينضم إلى نهر آخر ينبع من بقعة أسفل قلعة خيرغال. عندما يصل إلى السهول الجنوبية، يعرج على الموضع الذي تقع على ضفته كل من تابيرناس، والحامية Alhamilla، وجادة تابيرناس؛ وحينما يصبح بمحاذاة غادور، وبني حبوس يصب ماءه في البحر الأبيض المتوسط، على مقربةٍ من مدينة ألمرية. تتميز ألمرية بموقع فاتن وخلاب، وكان بها آنذاك ما يربو على ألفين وخمسمائة نسمة. على الرغم من أن المساحة داخل الأسوار يمكنها أن تسع عددًا أكبر من المنازل؛ لأن محيط المدينة يبلغ ستة آلاف وخمسين خطوة، وفي أطرافها توجد قلعة حصينة، مقامة أعلى صخرة شديدة الارتفاع، لا يمكن اختراقها أو هدمها أو مهاجمتها من ثلاث جهات؛ أما الجهة الرابعة فبها عائق واحد باتجاه الجبل، إلا أن بينه وبين الحصن واد عميق جدًا. والموضع بأكمله محاط بصخرة مدببة عالية جدًا، والأسوار عليها متاريس من التراب.

إلى الشرق من تلك المدينة يوجد شاطىء فسيح وكبير، وآمن للغاية من الناحية الشرقية، التي يمكن أن يرسو بها ألفا مركب ويزيد. ومن جهة الغرب هناك شاطىء آخر، ليس على تلك الدرجة من التأمين، على الرغم من أنه يمتلك غطاءً من الجبال التي تبدأ من البحر باتجاه تلك الناحية. كل تلك الحدود عامرة بكلأ للماشية، وقاطنو المدينة ينتجون كمية وافرة من الحرير عالي الجودة، وهناك غيلات ضخمة على ضفاف الأنهار. يُحصَد في تلك الأراضي قدر من القمح، مع أنه ليس بالكم الوفير الذي يكفيها لعام كامل، إلا أنها تتزود ببقية احتياجاتها من المنطقة المجاورة. صارت ألمرية مدينة عامرة بالسكان إبان حكم المسلمين لها، وباتت تتمتع بمكانة عالية، أرادت من خلالها أن تتنافس مع غرناطة؛ ومن هنا لقبوها بالمراية Almereya، وتعني المرآة. وقد كان تتميز في العادة بأرباض فسيحة، وكان يُصنع بها أعداد كبيرة من مراكب التجديف؛ بيد أن أعداد السكان أخذت في التناقص، كما قلّت معاملاتهم وباقي مناحي الحياة لديهم.

عندما بدأت الحرب على أثر ذاك الانقلاب، كان يقطن بها الكثير من الفرسان والرجال البارزين، كما كان فيها ما يربو على ستمائة من منازل الموريسكيين بدءًا من الأسوار ووصولاً إلى داخل المدينة؛ وكذلك فقد كان هناك فصيلتان من رجال الحرب المعتادين: واحدة للفرسان، وأخرى للمشاة؛ وكان الغرض منهما تولى مهمة حراسة الساحل، والاضطلاع بحمايته. حينما شاهد أهل قرى طاعة مارتشينا، والبقاع المتاخمة لألمرية، أن أحوالها مزدهرة، وأن الأتراك لا يوفون بما زعموا، صمموا أن يقوموا هم بذلك. ومن ذلك المنطلق انتقوا مائة وخمسين رجلاً، وكانوا قد أمروهم من قبل باصطحاب أحمالٍ من القمح وما سواه من المؤن، والتوجه بها إلى سوق الغلال بالمدينة – وكان موجوداً إلى جانب الحصن – وإفراغ شحنتهم هناك، كما اعتادوا أن يفعلوا فى طبيعة الأمر. على أن يعبر عشرة رجال أو أحد عشر رجلاً منهم بأحمال من الحطب والقش، بحجة تقديمها إلى الحاكم العام؛ وما أن يجتازوا أبواب الحصن، حتى يخربوها بما يمنع المسيحيين من إغلاقها. حينئذ يأتى الرجال الموجودون بالسوق، فيدلفون إلى الداخل، ويجهزون على القائد ومن معه؛ ثم يتحصنون فى القلعة ويرسلوا إشارةً بالدخان، لكى توافيهم باقى قرى المنطقة فيما بعد. من أجل أن يفهموا أولئك القادمين من أين يمكنهم الدخول دون أن يعترضهم من بالمدينة، كان ماتيو الرامى(*) –حاجب إنستنثيون– وكان صديقًا حميمًا لألبارو دى سوسا Alvaro de Sosa، قد أفلح فى إقناع ذلك الأخير فى تلك الآونة باصطحابه فى أحد الأيام إلى الحصن لتناول الغذاء؛ بحجة أنه ينتوى قضاء عطلة مع زوجته فى ألمرية. من هنا تعرف على دروب وأبراج القلعة، أثناء سيره برفقة الحاكم فى سائر أرجائها؛ على الرغم من أنه لم يسمح له بالدخول إلى برج التكريم، بحجة إن الملك وهو فقط يمكن لهما مشاهدته.

(*) انظر الفصل الرابع والعشرين، صفحة ١١٤–١١٥. (المترجمة).

لمّا رأى الموريسكى الخبيث أن الحاكم كان أشد تحفظًا فى تلك المناسبة عنه فى مرات سابقة، وكذلك رأى كتيبة الجنود الموجودة عند البوابة الأولى، شك فى إدراك المسيحيين لبعض ما يخطط، فرأى التخلى عن المهمة، وأن يسلك نهجًا آخر ربما يمسى أشد إضرارًا بالمدينة. فأظهر رغبته فى رد كرم صديقه وجوده، ورجاه أن يذهب معه فى يوم آخر ليستجم بقريته، وأن يأخذ معه أصحابه وأقرباءه جميعًا؛ لأنه يريد الاحتفاء بهم وتقديم الطعام لهم على طريقته المعتادة. بعد أن قبل الحاكم دعوته، وقام المسلم من جانبه بدعوة كل الرجال ذوى المكانة، ممن ظن أنهم قد يتولون الدفاع عن المدينة، إلى المأدبة. كان سيقتلهم فى ذاك اليوم، لو لم يحدث شجار بين نفر من المدعوين فى المكان، فأمر القائد بحبسهم، وهكذا لم تأت المأدبة بثمارها المرجوة. بعد أن وصلت الأمور إلى تلك المرحلة، وصل إلى الحاكم فى ثانى أيام عيد الميلاد أحد حراس الأبراج القائمة على الساحل الغربى، وسلمه الرسالة التحذيرية التى ذكرنا آنفًا أن دييغو غاسكا كان قد بعثها إليه، وكان نصها على النحو التالى: " فى الوقت الذى أكتب إليك فيه رسالتى هذه، الساعة الآن الحادية عشرة صباحًا، واليوم هو أول أيام عيد الميلاد، تم تنبيهى إلى وجود ثلاثمائة مسلم فى طريقهم إلى أوخيخار بالبشرات. أنا فى طريقى لملاحقتهم، وأنا أستنجد برحمتك أن تغيثنى. مُؤرخ فى داليّاس، فى اليوم المذكور أعلاه.

وضعت تلك الرسالة السيد غارثيا دى بياروّيل فى حيرةٍ بالغة؛ لأنه كان يدرك أن من يقصدهم دييغو غاسكا ليسوا بمسلمين، ولا يمكن أن يكونوا مسلمين(٣٠)؛ لأن البحر ظل هائجًا للغاية فى وقت الظهيرة على مدار خمسة عشر يومًا، والقادمون ليس لديهم غطاء على ساحلنا. لذلك تيقن السيد غارثيا أن المعنيين هم موريسكيون من الأهالى قاموا بالثورة، وقد تريث للتدبر فى مضار الخروج من المدينة، وقلة جدوى ذهابه؛ لأنه إذا كان من يقصدهم دييغو غاسكا مسلمين من بلاد المغرب، فهم سيكونون

(٣٠) يقصد من شمال إفريقيا. (المراجع).

قد رسوا بالفعل على سواحلنا حينما يصل إليهم؛ من هنا اكتفى بالتظاهر بالخروج من الأسوار، مع أنه لم يكن ينتوى الابتعاد كثيراً بجنوده. حينئذ أمر السيد غارثيا بنفخ الأبواق لحشد القوات، والتعجيل بخروج الجنود؛ وبعد أن أضحى خارج الأسوار، أمر المشاة بالتوقف عند المحجر المشرف على المدينة، وبقى هو والفرسان لإلهاء الرجال على مقربة من الأسوار. بعدها عاد للدخول إلى المدينة، حيث تراءى له أنه من الأجدر الاعتناء بتأمينها، عن الذهاب لإغاثة دييغو غاسكا فى أمر ملتبس. مع رجوع السيد غارثيا دى بيارّويل إلى المدينة، اتخذ رجال الشرطة ومجلس البلدية الإجراءات اللازمة، كما قام بها هو من جانبه، وبعثوا جندياً إلى ماركيز مونديخار يطلبون إغاثتهم بالرجال والمؤن والإمدادات، لأن ألمرية كانت تفتقر إلى كل تلك الأشياء.

عندما فطنوا إلى أن النجدة لن تصل إليهم بالسرعة التى يتطلبها الوضع الراهن، أرسلوا أيضًا إلى ماركيز بلش، وإلى مدن مملكة مرسية، وإلى خِيل دى أندرادا Gil de Andrada – القائم بشئون السفن فى إسبانيا – فأكدوا لهم أن ثورة الموريسكيين فى المملكة بسائرها باتت أمراً محققًا، حتى يعجلوا بإغاثة ذاك الموضع. وكذلك فقد قاموا بما يلزم مع القساوسة المسيحيين والرهبان الخدام فى كل بقاع أراضى ألمرية، حتى يحتشدوا فى المدينة فى الوقت المناسب، وهو ما أنقذ الكثيرين. كما أنهم كتبوا إلى الحكام العموم لمنطقتى مارتشينا وبولودوى من أجل أن يقوموا بالأمر ذاته.

فى الساعة الرابعة من مساء ذلك اليوم وصل إلى ألمرية سيافان من كتيبة دييغو غاسكا، فأخبروا القوم أن الموريسكيين كانوا يريدون الإجهاز عليهما، أثناء وجودهما فى إحدى قرى طاعة لوتشار. وإنه من حسن الطالع تمكنهم من الفرار بعد أن انطلق جواداهما بأقصى سرعة، ففى كل موضع كانوا يمرون به، خرج أناس مسلحون لقطع الطريق عليهم. فى أعقاب ذلك بعث القوم رسالتين جديدتين إلى كلا الماركيزين، يخبرونهما فيهما بتأكيد اندلاع الثورة، كما قاموا أيضًا بزيادة أعداد المقاتلين على بوابة الحصن؛ وقد أعلنوا فى أرجاء المناطق الحدودية أن كل الموريسكيين الراغبين

فى الاحتماء بالمدينة مع نسائهم وبنيهم بإمكانهم فعل ذلك. وكذلك أمروا بدرو مارتين دى ألدانا Pedro Martín de Aldana، مسئول كتيبة الفرسان التابعة للسيد غارثيا دى بياروّيل، أن يذهب إلى ريف نيخار ليحمل الرعاة المسيحيين على جمع أغنامهم فى الوقت المناسب؛ وأن يُحضِر إلى المدينة من يجدونه منهم من الموريسكيين لتأمين الطعام لهم.

بينما هم عاكفون على ذلك وصلت إليهم أنباءُ جديدة فى ثالث أيام عيد الميلاد، تفيد باندلاع الثورة فى أوخيخار دى الباثيتى، وكيف أن المسيحيين محاصرون فى برج الكنيسة. وبحلول يوم الثلاثاء الموافق الثامن والعشرين من ديسمبر علموا أنهم قد أُهلِكوا، وإن الثورة قد عمت سائر الأرجاء، بدءًا من أوخيخار ووصولاً إلى المرية. عندئذ اجتمع القائمون على شئون القضاء ونواب البلدية فى المجمع الديرانى، وقاموا بما يلى طبقًا لما رواه لنا[٣١] السيد غارثيا دى بياروّيل: عينوا أشخاصًا يتولون مهمة الذهاب إلى جلالة الملك، على أن يعرجوا فى طريقهم على ماركيز بلش ليسلموه رسالة، يطالبونه فيها بإغاثتهم على وجه السرعة؛ لأن المكان يجابه خطرًا شديدًا. وقد شرعوا فى ذات اليوم فى جمع الموريسكيين الموجودين فى المدينة والحقول والضواحى مع نسائهم وأطفالهم، ولمّا كان بينهم عددٌ كبيرٌ قادرٌ على حمل السلاح، فقد حشدوا جموع المسيحيين فى بلدة المدينة Almedina.

وقد وصل فى مساء اليوم عينه جاسوس من غويثيخا، فأخبرهم كيف أن الموريسكيين يحاصرون الدير والبرج، وأنه التقى رجالاً من كل من إينيكس وفيليكس وبيكار خرجوا للانضمام إليهم؛ وقد أخبروه أن غرناطة والمملكة بأسرها باتت فى قبضة المسلمين، وأنه لم يتبق لهم سوى الظفر بالمرية، لكنهم سيفوزون بها قريبًا؛ لأنه عقب انتصارهم على برج غويثيخا وقلعة خيرغال أمسى لديهم أعدادٌ غفيرةٌ

(٣١) أى أن مارمول يعتمد على شاهد عيان. (المراجع).

من الرجال تمكنهم من هزيمتها. وقد أحضر معه بضع وريقات مقطعة من كتاب القدّاس الذى مزقه الثوار فى كنيسة الحامة لاسيكا، دلالةً على صدق ما روى حول لقائه مع أولئك القوم.

وقد أكد ذلك الخبر جاسوس آخر حضر فى ذات اليوم، وقد أسهم فى زيادة الحرص في المدينة، حيث ألفاها دونما زاد، ولا تمتلك سوى القليل من المؤونة؛ بيد أن الأمر تغير خلال برهة وجيزة؛ لأن الجنود الذين ذهبوا مع بدرو مارتين دى ألدانا إلى ريف نِيخار أحضروا ألف بقرة[٣٢]، والكثير من رؤوس الماشية متوسطة الحجم مما كان فى حوزة الموريسكيين، وهو ما أمد الناس بما يحتاجون، وزودهم بالطعام لأيام عديدة. كما كان لخروجهم أهميةٌ بالغةٌ؛ لأنهم جمعوا كل مواشي المسيحيين، والرعاة الذين كانوا يسوقونها فى الأراضى، وهكذا استطاعوا الخروج آمنين عبر جبال نِيخار وفيلابريس و تابِرناس؛ لأن ماركيز بلش حينما شرع فى حشد الجموع فى تلك الأرجاء، لم يجرؤ الموريسكيون على الثورة فى تلك الجبال. وقد حذا حذوهم قاطنو هوة بسطة، ونهر المنصورة، وبيرا، وموخاكار، وكل البقاع الشرقية، ولو كانوا قاموا بثورتهم لتسببوا فى أضرارٍ فادحةٍ؛ لأن عددهم كان كبيراً. وقد ثارت بعض بقاع أراضى ألمرية الكائنة ناحية البشرات: إينيكس، وفيليكس، وبيكار، وخيرغال، وغيرها من القرى التى مارس فيها المارقون وحشيتهم، فى غضب لا يقل عن الحنق الذى أظهروه فى المواضع المذكورة آنفا؛ وهو ما سنتناوله فى الأسطر التالية.

تقع بقاع إينيكس وفيليكس وبيكار إلى الغرب من مدينة ألمرية، فى أحد الأركان التى يكونها جبل غادور حينما يرتفع أعلى سطح البحر الأبيض المتوسط. وقد ثار أهالى تلك البقاع بالتزامن مع ثورة أهالى غيثيخا، فبعد أن سرقوا الكنائس ودمّروها،

---

(٣٢) رقم مبالغ فيه دون شك. (المراجع).

وقتلوا بعض المسيحيين وأسروا آخرين، توجه الكثير منهم لتدعيم من يحاصرون برج غيثيخا. فى أعقاب الظفر به، كما ذُكِرَ من قبل، رجعوا إلى مواضعهم، وأمروا بقتل الكاهن القانونى سالنياس، وإثنين من السدنة كانوا محتجزين لديهم. فأجبروه على ارتداء الثياب التى كان يلبسها أثناء إقامة شعائر القداس، وأجلسوه على كرسى أسفل قاعدة المذبح الأكبر، ثم أوقفوا السادنين على جانبيه، وهما يحملان السجلات المدون بها أسماء الأهالى، ثم أمروهما أن يتلوا الأسماء بالترتيب، كما اعتادا أن يفعلا لمعرفة إذا ما كان هناك من تغيب عن الحضور ومعاقبته. فأخذا يناديان على الأهالى، فحضروا إلى الكاهن القانونى - رجال ونساء، صغار وكبار - وشرعوا يكيلون له اللكمات والصفعات، كما بصقوا فى وجهه ونعتوه بالكلب. بعد أن نادوا على الجميع، جاء أحد المارقين إلى الكاهن ومعه سكين، فأشار عليه بالسكين إشارة الصليب، ثم شق وجهه من أعلى إلى أسفل، ومن جنب إلى الجنب الآخر؛ ثم قطعه إربًا إربًا ومفصلاً مفصلاً، بالطريقة ذاتها التى انتهجها أهل كانخايار مع كاهنهم القانونى[٣٣]؛ ولمّا كان قسيس عيسى المسيح يمجد اسمه الأقدس، قطعوا له لسانه. فيما بعد سحبوا الثلاثة إلى خارج المكان، ورموهم بالسهام مجتمعين. فى أعقاب ذلك حشدوا صفوفهم، واصطحبوا نساءهم وبنيهم وماشيتهم إلى رابية مرتفعة بجانب فيليكس، ظانين أنه سيتسنى لهم الدفاع عن أنفسهم هناك، نظرًا للموقع المنيع لتلك الربوة.

بعد اندلاع الثورة فى قرى طاعة مارتشينا وبولودوى، أرسل كل من الغورّى والرامى ستة ألوية من الثوار الجبليين والرجال البواسل جيدى التسلح لإثارة أهالى بقاع نهر ألمرية، وتجميع كل تلك الحشود. وقد وصل أولئك إلى خيرغال - التابعة لكونت لا بوبيلا - فى ثالث أيام عيد الميلاد. أما صاحب القلعة، وكان فى الوقت ذاته الحاكم العام للموضع، فقد كان متنبهًا أثناء تنفيذ خيانته، فأخبر المسيحيين أن عليهم

(٣٣) لا نجد ذكرًا للفظائع التى يصفها مارمول عند مندوثا ولا يتوقف عندها بيريث دى إيتا، وبالتالى قد تكون مبالغات أو تعميما لحالات فردية (المراجع).

الاحتماء بالحصن برفقة نسائهم وبنيهم، وهناك يمكنهم التجهز والتهيؤ؛ وما أن تحصَّل عليهم بالداخل حتى أمر بقتلهم جميعًا. حيث ذبح القاضي الكنسي دييغو دى أثيبو Diego de Acebo ووالدته – وكانت سيدة طاعنة في السن – والكاهن القانوني باث Paz وشقيقته، وبيرنال غارثيا Bernal García – الكاتب العمومي لتلك الدائرة القضائية – وكل المسيحيين والمسيحيات الذين كانوا يعيشون هناك، صغارًا وكبارًا؛ ثم أمر بإلقاء الجثث في الحقول. بقت سيدتان لم يتم الثوار ذبحهما، فظلتا عاريتين في الحقول، دون طعام أو شراب لمدة سبعة أيام، يرتشفون البرد فحسب. وقد تم إنقاذهما بحمد الله، حيث وصل إلى هناك بالصدفة بعض جنود بسطة، الذين كانوا يتفقدون الأراضي؛ وعندما ألفوهما على تلك الحالة، التقطوهما ودثروهما، وبعثوهما إلى المدينة، حيث تم علاجهما وشفيتا من جراحهما. كان ذاك المارق يدعى ظاهريًا فرانثيسكو بويرتو كاريّرو Francisco Puerto Carrero، وفي السر ابن مكنون[٣٤] Aben Meque-nun، وهو اسم مسلم. عندما استشعر مجيء ماركيز بلش إلى تلك الناحية، لم يتجاسر على الانتظار؛ فهجر القلعة، وتوجه مع جميع الأفراد إلى البشرات، كما سنرى لاحقًا.

(٣٤) كثير من الموريسكيين كان له اسم مسيحي رسمي واسم مسلم يُعرف به بين الأقارب والأصدقاء. (المراجع).

الفصل الثلاثون

يتناول اندلاع الثورة فى قريتى أبلا ولاوريثينا بوادى آش، ووصفهما.

تقع مدينة غواديكس، التى يطلق عليها المسلمون غيد آيش، وتعنى نهر العش[٣٥]، على مسافة تسعة فراسخ إلى الغرب من غرناطة. وهى كائنة برابيةٍ صغيرة، موجودة أسفل تبة. وفى السفح المقابل لها نجد غوطةً فسيحةً ومنبسطة، يعبر خلالها نهر، اكتسبت المدينة اسمها منه. ينبع ذاك النهر من أعلى جبل شلير، على مقربة من ميناء لُه، ثم ينحدر مساره ليمر ما بين شريش والقصر، إلى أن يصل إلى الكيف el Quif و قلهرة - وكلاهما من مواضع سند وادى آش - ومنهما يواصل طريقه إلى الكوديا وثالابين Zalabin وإشفيليانا Ixfiliana وأسوار مدينة وادى آش، حاملاً معه المياه التى تجرى على الدوام فى اتجاه الشمال. وتمتلىء ضفتاه بالغيلات على كلا الجانبين، حيث تروى مياهه البساتين وحقول الغوطة. مهنا يخرج النهر من تلك المنطقة ليرجع إلى الجهة الغربية، مكوناً بعض الخلجان، ثم ينضم إلى نهر البيثا Peza، أثناء مروره بين تلك الجبال ليجمع قدراً أكبر من المياه من فروع أخرى. يستكمل النهر جريانه إلى أن يلتقى ماؤه مع نهر شنيل، على مسافة فرسخ إلى الشرق من مدينة غرناطة، عند جسر نهر المياه البيضاء الكائن أسفل جبل غويخار.

---

(٣٥) هكذا يتبين تدنى مستوى اللغة العربية عند مارمول، وبالتالى لا يكون هو مترجم شواهد قبور سلاطين بنى نصر. (المراجع).

يحد وادى آش من الغرب والشمال حدود مدينة غرناطة، ومن الجنوب المركزية التى يطلق عليها زناتى - وهى من الأراضى المملوكة للسادة النبلاء - وكذلك جبل شلير، ومن جهة الشرق مدينة بسطة. وتضم المدينة داخل حدودها أربعة وعشرين موضعًا، دون حساب البقاع التابعة لسند وادى آش، وتلك المواضع هى: لا بيثا la Peza، ولوس بانيوس (الحمامات) los Ba?os، وبياس، وألاريس Alares، وبوريّينا Purrillena، وألماتشّار Almáchar، وكورتيس، وغِرييّنا Greyena، ولوبروس Lubros، وفونيلاس Fonelas، ولوبيرا Lopera، وحدرّة، وديثما Diezma، وموريدة Moreda، والكوديا، والسيخينيّ el Sigení، وسالابين Salabin، وكوغويّوس دى وادى آش Cogollos de Guadix، وباولانثا Paulanza، وإشفيليانا، وفينيانا Fiñana، وغور، وأبلا، ولاوريثينا. تلك الأراضى بأسرها شديدة الخصوبة، وبها وفرة من القمح والماشية؛ كما تنتج كميات كبيرة من الحرير المأخوذ من أشجار التوت الأسود. تلك البقاع تعمرها غالبية من الموريسكيين، حتى أن المدينة ذاتها كانت تضم ما يربو على أربعمائة من منازلهم؛ وهناك قلعة قديمة ومهملة فى المنتصف، موجودة فى أعلى أجزاء المدينة ارتفاعًا. فى أثناء ذلك الانقلاب لم تثر سوى قريتين من الأراضى المملوكة للنبلاء، يدعيان أبلا ولاوريثينا، اللتان تقعان فى منطقة جبال شلير؛ وهما ما سنتناولهما فى هذا الفصل، بينما سنتطرق إلى بقاع سند وادى آش لاحقاً.

ثارت كل من أبلا ولاوريثينا فى ثالث أيام عيد الميلاد، حيث حضر إليهما بغرض إشاعة الثورة فيهما مجموعتان من الثوار الجبليين والمسلمين الثائرين، كان الغوريّ - قائد جند أوهانييث - قد أرسلها لذلك الغرض؛ فدمّروا الكنائس، وقتلوا المسيحيين الذين استطاعوا وضع أيديهم عليهم. أما ثوار أبلا، فبعد أن حطّموا المذبح، وخربوا أيقونات الكنيسة، أخذوا خنزيراً كان يحتفظ به أحد المسيحيين فى منزله، وذبحوه فوق المذبح الأكبر؛ كما اقترفوا العديد من الآثام، ودنسوا مقدسات أخرى. بعد ارتكابهم لما أسلفنا، جمعوا نساءهم وبنيهم وأعادوهم إلى البشرات؛ بينما توجهوا هم لإثارة بلدة فينيانا، حيث كانوا يفكرون فى احتلال الحصن؛ لأنهم كانوا يدركون أنه لا يوجد

مقاتلون بداخله. بيد أنهم لم يفلحوا تلك المرة، لأن الموريسكيين القاطنين بالبلدة لم يرغبوا فى مرافقتهم، وقد تكرر الأمر ذاته مع أهالى سند وادى آش – الذين رفضوا القيام بالثورة، إلى أن عادت إليهم فيما بعد أعداد أكبر من الرجال، وحملوهم معهم، كما سنروى فى موضع آخر.

الفصل الحادى والثلاثون

يتناول توجه السيد دييغو دى كيسادا لاحتلال تابلاتى - الكائنة بوادى ليكرين - وما ألحقه المسلمين بها من دمار، ووصفًا لذلك الوادى.

يطلق اسم وادى ليكرين على الفج الواقع فى الجبل الأكبر، على مسافة ثلاثة فراسخ إلى الغرب من غرناطة، فى النقطة التى يبدأ فيها جبل شلير فى البزوغ. حيث يحده من الغرب جبل مانخارا -المتاخم لنهر الحامة، ومن الشمال كلٌ من غوطة غرناطة وسهول كيمبى Quempe - بينما يجاوره من جهة الجنوب قرى غواخار الكائنة بشلوبانية(*)، وأراضى موتريل؛ ومن الجهة الشرقية يجاورها جبل شلير، وطاعة أورخيبا. يحوى ذاك الوادى عشرين موضعًا تدعى: بادول، ودوركال، ونيغويلاس Nigüelas، والتكينة (أو الساقية الصغيرة) Acequina، وموندوخار، وحارات Harat، والرباط Alarabat، والتشيتى Chite، وبيثنار، وتابلاتى، ولانخارون، وإشبور Ixbor، وكونتشا، وغوثبيخار Guzbíjar، وميليخيش Melegix، ومولشاس Mulchas، وريستابال Rest?bal، ولاس ألبونيويلاس las Albu?uelas، وسالاريس Salares، ولوخارLújar، وبينوس ديل ريتش Pinos del Rich أو بينوس ديل بايى Pinos del Valle.

تلك الأراضى تتميز جميعًا بغزارة مياه الأنهار والينابيع؛ وبها غيلات ضخمة من أشجار الزيتون، وأشجار التوت الأسود، وغيرها من أشجار الفواكه، التى تمد

(*) الكاتب يعنى غواخار العالية، وغواخار دى الفقيت/الفقيد، وغواخار ديل فوندون. وكلها مواضع مأهولة بالموريسكيين. (المترجمة).

القاطنين بشتى صنوف فاكهة المناخ المعتدل ذات الجودة العالية. كما يتوفر بها البرتقال، والليمون، والليمون الحامض، وسائر أنواع الحوامض، التى تحمل إلى مدينة غرناطة وأنحاء أخرى لبيعها. أما مراعى الماشية فهى جيدة جداً، ويُحصَد بها كذلك كميات من القمح المزروع بالرى وبدونه فى الأماكن المنخفضة؛ وانتاج الحرير وفير ومتميز.

يمر عبر ذاك الوادى ستة أنهار، تنبع جميعًا من الجبل الأكبر. أولها يجرى فى الناحية الغربية، ويطلقون عليه نهر لاس ألبونيويلاس، ويعبر على مقربة من موضعى سالاريس وبينوس ديل بايى، ليتوجه بعدها للانضمام إلى نهر موتريل. أما الثانى فينبع من البقعة المحاذية لميليخيش، ويسير حتى ينضم إلى نهر لاس ألبونيويلاس أسفل ريستابال. أما الثالث فيسيل من جبل شلير، ليصب فى بحيرة ضخمة تقع بين موضعى بادول ودوركال، ومنها يكمل مساره حتى يلتقى بنهر لاس ألبونيويلاس. هذا وينبع الرابع كذلك من جبل شلير، عند قرية الساقية Acequia، حيث يتفرع إلى فرعين قبل أن يصل إلى ذاك الموقع، لتضحى البلدة فى المنتصف؛ ثم يتوجه أحدهما ليزود قرية التشيتى بالماء، بينما يذهب الفرع الآخر إلى تابلاتى. بعد ذلك يستكمل كلاهما مجراه ليصبا فى نهرى لاس ألبانيويلاس وموتريل. والخامس ينبع من جبل شلير أيضًا، ثم يتخذ مساره نحو بلدة لانخارون، ومنها إلى نهر موتريل. سادس الأنهار - الذى ينبع من الجبل ذاته، ولكن إلى الشرق قليلاً من نظرائه - هو الذى يرسم حدود كل من الوادى وطاعة أورخيبا، حيث ينحدر باتجاه نهر موتريل ليصب به، وذلك فى المنطقة التى يقع بها سورتيس وبنى ثالتى وباغو، التى توجد جميعًا فى طاعة أورخيبا.

ثارت الأماكن المنخفضة فى وادى ليكرين فى ثانى أيام عيد الميلاد، إبان وصول ابن فرج ومن معه من الثوار الجبليين القادمين من غرناطة إلى بيثنار؛ لأنهم أوهموا الموريسكيين أن المدينة وحصن الحمراء أضحيا تحت سيطرتهم، وأن الثورة قد اندلعت

بالفعل فى البيّازين؛ وأنهم قد توجهوا لنشرها فى مواضع أخرى بالبشرات، بعد أن سرقوا الكنائس وقتلوا الكثير من المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى تلك الأرجاء. بيد أن قاطنى كل من بادول، ودوركال، ونيغويليس، ولاس ألبونيويلاس، وسولاريس لم يثوروا آنذاك، على الرغم من أن الكثيرين منهم توجهوا إلى الجبال؛ وقد أعقب ذلك اقترافهم لأمور أضرت بهم بشدة وأسفرت عن خسارتهم. كانت تابلابتى أحد المواضع التى قامت بالثورة؛ وهى تقع بالقرب من معبر مهم، لا محيص من المرور به للوصول إلى البشرات. لمّا كان ماركيز مونديخار يرغب فى بسط نفوذه عليه لاستغلاله إذا ما دعت الحاجة، فقد أمر السيد دييغو دى كيسادا أن يذهب بصحبة رجاله الموجودين فى دوركال، ترافقهم القوات التى سيمدهم بها الماركيز لذاك الغرض، للتمركز فى تابلاتى؛ على أن يرجع القائد لورينثو دى أبيلا إلى غرناطة، ومنها يتوجه لحشد الرجال من البلدان السبعة؛ لأنه كان ينتوى الخروج لمعاقبة الثوار فى أقرب وقت.

ما أن وصل ذاك الأمر إلى دوركال، حتى توجه السيد دييغو دى كيسادا إلى بيثنار، بمرافقة كل من بالبلدة من المشاة والفرسان، فألفى المنازل خاوية، والكنيسة مهدمة ومحترقة؛ فأكمل الطريق إلى تابلاتى، وهناك أيضًا وجد المنازل مهجورة، حيث صعد قاطنوها إلى الجبل. كان الرجال قد وصلوا إلى ذاك الموضع وهم يشعرون بإعياء شديد، هم والخيول، وأعقب ذلك أن ضلوا طريقهم بين الشوارع والبيوت على غير هدى، أدى ذلك إلى أنهم كانوا فى وضع يقل بشدة عن الحذر الذى ينبغى أن يتحلى به رجال مقاتلون، فرأى المسلمون – الذين كانوا يرقبون الجنود من أعلى الربوات – أن تلك فرصة جيدة لمباغتتهم. وهكذا جمعوا حشودًا غفيرةً منهم، وهبطوا من مكانهم خلسة، وانقضوا عليهم فى حمية داخل البيوت والشوارع، فقتلوا وجرحوا أعدادًا كبيرة من المسيحيين. كان هناك بعض السيافين ممن لم يتسن لهم تلجيم أفراسهم، التى كانت تتناول طعامها، فتركوها وغادروا المكان فرارًا على الأقدام. كان بوسع المسلمين أن يحدثوا أضرارًا أشد، لو لم يتجاوز بعض الجنود حدودهم،

ويتجولوا دون أوامر ليبحثوا عما يسرقونه بين تلك الروابى[٣٦]؛ فعندما أبصروا أولئك الثوار ينزلون من الجبل عن بعد، توقعوا ما يمكن أن يقوموا به، وأخذوا يصرخون منادين على جنودنا. وقد أمنوا لهم التغطية حتى يستعدوا ويشهروا أسلحتهم، وظلوا على ذاك الحال إلى أن سمع السيد دييغو دى كيسادا -الذى كان يسير فى حذر يفوق الأخرين - صرخاتهم. ففطن إلى ما يمكن أن يحدث، وأصدر أوامره بحمل السلاح فى عجالة، وخرج إلى الميدان يصاحبه الرجال الذين استطاع جمعهم على وجه السرعة من الرجال، وأمر بتنظيم كتيبة يلجأ إليها من يلوذون بالفرار من الجنود. حينما تراءى له أن الوقت بات سانحًا، تراجع وهجر المعبر الذى كان قد تلقى الأوامر بحمايته، لأن ثقته كانت قليلة فى أولئك الرجال الجبناء، وغير المحنكين، وقليلى الخبرة الذين بحوزته. فعبر إلى بادول مرورًا ببيثنار ودوركال، وكان يدخل فى مناوشات مع المسلمين طيلة الطريق، حيث تبعوهم حتى هوة دوركال؛ لكنهم رجعوا على أعقابهم، ولم يجرؤوا على مواصلة التقدم؛ لأن تلك الأرض تعلو كلمة الفارس فيها على الراجل.

---

(٣٦) لعل مارمول يبرر هنا بشكل غير مباشر تجاوز الجنود المسيحيين واستيلائهم على متاع الموريسكيين دون إذن من قادتهم، وهو أمر كان موضع تقريع من بيريث دى إيتا ومندوثا. (المراجع).

الفصل الثانى والثلاثون

يتناول الاستعدادات التى قام بها كل من ماركيز مونديخار، ومدينة غرناطة فى تلك الأيام.

أدت عملية تابلاتى[٣٧] إلى رفع معنويات الثوار. عندما تنامى إلى علم ماركيز مونديخار أن السيد دييغو دى كيسادا قد تراجع إلى بادول دون أمر منه، استدعاه وأمره بالعودة إلى غرناطة، وبعث بدلاً منه القائد غونثالو دى ألكانتارا Gonzalo de Alcántara – وهو رجل محنك، تربى فى وهران[٣٨]– ومعه خمسين فارسًا. وأمره بالدخول إلى دوركال، ومحاولة الاحتفاظ بولاء ذاك الموضع، وغيره من المواضع المتاخمة التابعة لوادى ليكرين، التى لم تكن ثارت حتى الآن، حتى مجىء القوات التى ينتظر قدومها من أندلوثيا ومملكة غرناطة. بعد أن أدرك الماركيز أن الثوار يستعرضون ليس – فقط مقدرتهم على الدفاع عن بيوتهم، ولكن قدرتهم على إذلال المسيحيين فى ديارهم –، وأنهم يسيرون فى البشرات وعلى مقربة من غرناطة شاهرين الرايات، يشعلون الثورة فى القرى التى يمرون بها، ولا يتركون على قيد الحياة رجلاً مسيحيًا، كان يرغب فى تكوين جيش ليقهرهم به. لمّا ألفى لديه عجزًا فى الأفراد، والمدفعية، والذخيرة، وسائر الأمور المتبقية من أجل ذاك الغرض؛ لأن غرناطة لم يكن

(٣٧) يتردد مارمول فى اسم المدينة، فتارة يذكرها تابلاتى، وتارة يذكرها تابليتى. (المراجع)

(٣٨) مدينة وهران فى ذلك الحين كانت محل صراع بين تركيا وإسبانيا، وكان الطرفان يتناوبان احتلالها لأهميتها الإستراتيجية. (المراجع).

بها ما يعينه؛ وكذلك فهو لا يقدر على الاعتماد على المقاتلين الموجودين فى المعاقل الساحلية؛ لأنهم موجودون حيثما يتعين عليهم أن يبيتوا، كما أن أعدادهم قليلة؛ لذا فقد بعث رسائل على وجه السرعة إلى المراكز الكبرى، ومدن، وبلدان أندلوثيا لينبههم إلى اندلاع الثورة، ويخطرهم برغبته فى الخروج شخصيًا لإخماد الثورة، ويخبرهم أيضًا بما يلاقيه من نقص فى كل من المشاة والفرسان يعوقه عن تحقيق ما يريد؛ وأمرهم باسم جلالة الملك أن يبعثوا إليه بأكبر عدد يتمكنوا من جمعه.

حينما تأخر المأمورون القضائيون في تنفيذ ما طلب منهم – لأنهم حسبوا أن الأمر لا بد أن يكون كالمرات الفائتة، التى تم تنبيههم فيها لاتخاذ الحيطة، ثم عاد الرجال أدراجهم لأنه لم يكن هناك حاجة لمجهوداتهم – بادر المجلس الملكى بإرسال تعزيزات بشق الأنفس، وأمرَ الرجال أن يمتثلوا لقرارات ماركيز مونديخار بكل همة. أما الماركيز، فقد أصدر أوامره بالمبادرة بتهيئة المؤونة والذخيرة داخل مدينة غرناطة وخارجها، أثناء انتظاره مجيء تلك القوات. وحمل رجاله على إعداد كل الأمور اللازمة لتكوين جيش. وقد بدأ التحضير للأمر ووضع الأمور فى نصابها منذ يوم السادس والعشرين من شهر ديسمبر، وحتى اليوم الثانى من يناير. لم تكن هناك أموال من جلالة الملك تكفى لتعينهم على تنفيذ ذلك، لكنهم استعانوا بجهاتٍ أخرى واستغلوا أقصى الامكانيات المتاحة. لمّا كانت بقاع الساحل تعانى عجزًا فى الرجال والمؤونة، ولا يمكنها التزود بما يلزم عن طريق البر، فقد كتب الماركيز إلى مدينة مالقة ومتعهد التوريدات بدرو بيربوغو، وأوكل إليهما مهمة إمدادهم بالمطلوب عن طريق السفن الشراعية ذات الساريتين والمراكب، أو بأفضل الطرق المتاحة لهم.

كان فرانثيسكو أريبالو دى ثواثو هو المأمور القضائى لتلك المدينة ولمدينة بلش، وهو فارس يتبع رهبانية سانتياغو، ورجل محنك بحكم عمره، ويولى عنايةً فائقةً للمسئولية الملقاة على عاتقه. لذا فقد أرسل بدوره إلى كاستِل دى فيرّيرو – التى لم يعد بها سوى الحاكم وغلامان – القائد سانشيثنار Sanchīznar، ومعه عشرون رجلاً

وبعض البنادق. كما أرسل دييغو بارثانا إلى شلوبانية مع خمسين من الرماة، وأرسل كذلك دييغو دى مندوثا Diego de Mendoza إلى موتريل على رأس ستين رام آخرين. أما متعهد التوريدات، فقد أمدّ تلك المواضع، بالإضافة إلى المنكب وسائر البقاع الكائنة على الطريق وصولاً إلى ألمرية، بالمؤونة والذخيرة على قدر استطاعته؛ لأنه كان متحفظاً فيما يتعلق بمقدار الاحتياجات الحالية.

كذلك فقد قرر المجمع الديرانى لغرناطة، على ضوء قلة أعداد المقاتلين النظاميين، وعظم الخطر المحدق بالجميع وشموله، أنه من الأفضل تسليح كل الأهالى، وتكوين فرق مقاتلين منهم دون استثناء أى فرد. كما أقر تنصيب قائد فى كل دائرة، على أن يرفع لواءً ينضم إليه كل المقيمين بتلك الدائرة؛ ويأمرهم القادة بأن يطوفوا بالمدينة كل ليلة فى نوبة حراسة لدوائرهم وثكناتهم، على أن تتواجد وحدة الحراسة فى مقار المحكمة الملكية، لقربها من الميدان الجديد -الذى سيضحى ساحة التدريب والعرض. وقد دخل الأمر حيز التنفيذ، فلمّا كان المواطنون لا يمتلكون أسلحةً جرى البحث عن السلاح، وتم تسليمهم إياه. وعند نقطةٍ ما تحول أهل الحرف جميعًا إلى مقاتلين غير نظاميين، إلى الحد الذى أمسى فيه الكتبة الإداريون والمحامون ونواب المحاكم يدخلون جميعًا بالسيوف فى غمدها، وكان المظهر رائعا حينذاك، كما شكل تجار جنوة – الذين كانوا يقطنون فى تلك المدينة – جماعة خاصة بهم، كانت تمثل بأسلحتها وهيئة طاقمها قيمةً مضافةً للوحدات الأخرى. وهكذا بدأت دوريات الحراسة، وتمركزت الكتائب والثكنات فى المواضع والأماكن التى بدت أكثر موائمة. أما سيادة الرئيس والمستشارون الحقوقيون، فقد أذاعوا أن كل الأهالى والقاطنين بغرناطة عليهم الامتثال لما يمليه عليهم المأمور القضائى، بيد أن ذلك الوضع لم يدم طويلاً؛ لأن جلالة الملك بعث رسالةً إلى كلٍ من رئيس المحكمة الملكية والمأمور القضائى يشكر لهما حرصهما على حماية المدينة، ويأمرهما بإطاعة ماركيز مونديخار – حاكمهم العام، الذى يقع على عاتقه كل مهام القتال والحرب – كما كتب ما يفيد نفس المعنى إلى المجمع الديرانى، حيث تراءى لجلالته أن فى ذلك نفعًا أكبر.

الفصل الثالث والثلاثون

يتناول ذهاب السيد خوان ثاباتا بصحبة مائة وخمسين رجلاً لتعزيز غواخار ديل فوندون، ومقتله على أيدى المسلمين.

كان موضع غواخاراس ديل فوندون يتبع السيد خوان ثاباتا Juan Zapata، الرجل الغرناطى الذى كان موجوداً فى تلك الآونة ببلدة موتريل. ورغبةً منه فى تجنيب أهالى بلدته أذى الثوار الجبليين الذين يجوبون الأراضى وينشرون فيها الثورة، جمع مائة وخمسين رام من جنود الساحل، وتوجه معهم إلى بلدته فى يوم الخميس الموافق الثلاثين من شهر ديسمبر ، ما بين الرابعة والخامسة مساءً. اضطرب المورسكيون عقب رؤيتهم إياه قادمًا مع أولئك الرجال المسلحين، وتضرعوا إلى الكاهن القانونى لكى يخبره كيف أن سائر البقاع تموج بالقلاقل، وتعمر بالموريسكيين الغرباء – الذين قدموا فرارًا من مواضع أخرى – وما يتصفون به من سلوك سيئ ؛ وإنه سيكون من الأجدى له أن يعود أدراجه إلى موتريل قبل أن يلحقه أى ضير. فذهب إليه الكاهن القانونى ليتحدث معه، يرافقه الحاجب غونثالو تيرتيل ونفر من نواب مجلس البلدية. وقد طالبوه بإلحاح أن يرجع إلى موتريل؛ لأن وجوده هناك لن يسفر سوى عن اندلاع الثورة فى ذاك الموضع؛ بيد أنه رد عليهم قائلاً إنه قد أتى بأولئك الجنود على نفقته لحمايتهم من الثوار الجبليين، إذا ما جاءوا إلى هناك للنيل منهم؛ وإنه يتعين عليهم دفع رواتبهم وإطعامهم. وطلب منهم أن يجلبوا له لاحقًا مائتى دوقية، وخبزًا ، ونبيذًا ، ولحمًا إلى الكنيسة، وهو المكان الذى سيلجأون إليه، لأنهم لا يرغبون فى أن يمسى الجنود عبئاً على المنازل. أجابه القوم بأنهم لن يتسنى لهم تنفيذ أى من مطالبه، نظرًا لما رآه

من الأوضـاع الراهنة التى تشـهدها البلدة؛ فـهددهم أنهم إذا لم يذعنوا لطلبه، فإنه سينهب المنازل التى يقيم بها الموريسكيون الغرباء، ويمكن أن يحل الدور فيما بعد على ممتلكات الأهالى.

بذلك الرد قفل الموريسكيون عائدين إلى البلدة، بينما ظل الكاهن القانونى مع السيد خوان ثاباتا يلح عليه فى الرجوع قبل أن يحل الظلام؛ لأنه كان هناك عشرة موريسكيين فى مقابل كل مسيحى، ومن الجائز أن يلحقوا به الأذى. عندما رأى الكاهن أن التوسلات والمخاوف التى طرحها عليه لا تجدى نفعًا، تركه وقصد موضع غواخار العالية حيث يوجد منزله؛ لأن السيد خوان ثاباتا لم يقبل أن يبيت الرجل معه تلك الليلة، على الرغم من شدة تضرعه إليه. أما الموريسكيون، الذين أثارت حفيظتهم الإجابة التى منحهم إياها السيد خوان ثاباتا، فقد عقدوا العزم على قتله، هو والجنود الذين أحضرهم برفقته؛ وقاموا من أجل ذلك بحشد كل الرجال المسلحين، وساروا فى الطريق إلى الكنيسة. وقد اصطحب الحاجب الكاهن القانونى ورجاله، لأنه كان يخشى عليهم من القتل، وحبسهم فى غرفةٍ بمنزله ليس بها مفتاح، ومعهم مسيحيون آخرون من البلدة.

كان أول ما قام به الموريسكيون هو احتلال أبواب الكنيسة، للحيلولة دون خروج الجنود -الذين تمركزوا داخلها غير مبالين للقتال. وكان الموريسكيون قد جلبوا العديد من حزم الحطب، وأعواد القصب، ونسالة حبل القنّب المطلية بالزيت، فأضرموا فيها النيران مع حلول المساء. حينما أبصر الجنود أنفسهم محاطين بألسنة اللهب، أرادوا الخروج إلى الساحة؛ لكن الرماة وحاملو البنادق الواقفون أمام الأبواب، والنيران الضخمة التى كانت تشتعل حولها، حالت دون ذلك. إذا كان بعض الجريئين قد أقدموا على ذلك، فقد لقوا حتفهم. لمّا تزايدت ألسنة اللهب فى كل مكان، احترقت أسقف الكنيسة، وظلت مشتعلة حتى تهاوت؛ وأخذت القراميد، والآجر، والأخشاب المحترقة تسقط فوق رؤوسهم على الأرض. وقد ماتوا جميعًا ميتات مختلفة: فمنهم من اختنق

بالدخان والغبار، وآخرون انهال عليهم المبنى، وهناك من تفحموا بين اللهب، حتى أنهم أُبيدوا جميعًا فى غضون ساعة، ما عدا ثلاثة استطاعوا الافلات بأنفسهم.

قُتِلَ السيد خوان ثاباتا وهو يحاول فتح طريق لباقى الرجال لكى يتمكنوا من الخروج لقتال الموريسكيين، وكان معه بعض الجنود البواسل الذين حذوا حذوه. وقد شاهد ذلك الحدث الحزين الكاهن القانونى ومن كانوا برفقته من المسيحيين، من إحدى النوافذ الموجودة بمنزل غونثالو تيرتيل؛ وكانوا يخشون أن يتوجه المسلمون فيما بعد ليقوموا معهم بالأمر عينه. إلا أن الموريسكى قدم إليهم، وطمأنهم إلى أنه سيرسلهم إلى موتريل خلال ثلاثة أيام فى صحبة خمسين من أصدقائه؛ وقد أوصلوهم إلى موضع على مقربة من البلدة، ودخلوا إليها سالمين آمنين مع المنقولات التى استطاعوا أن يحملوها معهم. ولم يكن ذلك هو الشىء الوحيد الجيد الذى قاموا به؛ لأنهم حينما رأوا تصميم المسلمين والخطر المحدق بالسيد خوان ثاباتا قبلًا، بعثوا أحد الموريسكيين إلى ماركيز مونديخار على وجه السرعة، لتنبيهه إلى ما يدور، لكى ينقذهم بطريقة ما فى الوقت الملائم، قبل أن يفنوا. وقد أمر الماركيز من جانبه القائد لورينثو دى أبيلا – الذى كان موجوداً فى دوركال – أن يذهب لنجدتهم على رأس خمسين من الجنود المسلحين بالبنادق. تحرك القائد فى اليوم التالى لإنقاذهم، وحينما نزل بخان على منحدر يدعى ثيبادا Cebada، يفصل موتريل عن الطريق المؤدية إلى غرناطة، تنامى إلى علمه الدمار الذى لحق بالمسيحيين جميعًا، فعاد أدراجه دون أن يبيت هناك.

الفصل الرابع والثلاثون

يتناول رغبة المسلمين فى نشر الثورة فى بقاع نهر المنصورة، والسبب الذى منعهم من ذلك.

عقب اندلاع الثورة فى موضع خيرغال، أرسل الغورّى إلى أهالى قرى نهر المنصورة ينبههم إلى انتشار الثورة فى الأراضى بأسرها، لكى يقوموا بالأمر ذاته؛ وحذرهم من أنهم إذا لم يستمعوا لما يقول، فسوف يغير عليهم ويدمرهم. بينما أخذ الجواسيس الذين أرسلهم فى إقناع الموريسكيين بالقيام بالثورة، وذلك فى يوم الجمعة الموافق لآخر أيام شهر ديسمبر. تصادف فى الليلة ذاتها أن وصل إلى هناك دييغو راميريث دى روخاس Diego Ramírez de Rojas، حاكم ألمونيا Almuñia الذى حضر لاصطحاب زوجته وعائلته إلى بلدة أوريا، على خلفية القلاقل الموجودة فى البشرات. عند وصوله على مقربة من المكان، التقى بعض المسيحيين الذين كانوا فى طريقهم للالتجاء بذات الحصن، بمقتضى تحذير نفر من أصدقائهم الموريسكيين لهم. وقد علم منهم بكيفية وصول مسلمين من خيرغال وغيرها من المواضع لإثارة الأراضى، امتثالاً لأوامر الغورّى؛ وعلى الرغم من أنهم رجوه ألا يتقدم إلى الأمام؛ لأنه سيجابه مخاطر كبيرة، فإنه لم يشأ أن يستمع إليهم.

تابع السيد دييغو مسيرته حتى وصل إلى ألمونيا قبيل بزوغ الفجر، وتوجه مباشرةً إلى الساحة دون أن ينزل من على صهوة جواده؛ وأخذ ينادى صاحب الدكان الذى يبيع عجينة الخبز، وذاك على سبيل التحايل حتى يسمع الأهالى صوته، فسأله عن كمية الطحين الموجودة لديه بالمنزل، وعندما أجابه بأنه لا يمتلك سوى قدر قليل

جداً، قال له أن يأتى لاحقًا إلى الدار، ويجلب معه عشرين مكيالاً من الدقيق، ثم يعجنه، وهو أمر ضرورى لتموين معسكر ماركيز بلش الذى سيصل فى ذاك اليوم إلى النهر بصحبة خمسة عشر ألف رجلًا. ثم ترجل عند مسكنه، وتناول مداداً وورقةً، وشرع يكتب - أمام الموريسكيين الموجودين بالمكان - أربع رسائل إلى مجالس كل من باكاريس، وسِيرون Serón، وتِيخولا Tíjola، ويورتشينا، لينبههم إلى ضرورة التزود بكميات كبيرة من المؤونة لذاك الغرض، وأرسلها مع أربعة من الموريسكيين. فى أعقاب ذلك انتشر الخبر فى سائر قرى حوض النهر وجبال بسطة، حول قدوم ماركيز بلش بنفوذه وسطوته إلى تلك المنطقة. عندها اعتقد المسلمون الذين كان الغورّى قد أرسلهم فى صحة ما يقال، ورجعوا إلى البشرات، بعد أن بعثوا إشارات بالدخان فى أرجاء الجبال، وقد وصل بعضهم إلى خيرغال، وأخبروا بويرتو كارّيرو بالأمر. فبات الرجل يفتقر إلى الشعور بالأمان فى القلعة، فهجرها، وتمركز هو ومن معه من الرجال فى طاعة مارتشينا.

كانت تلك الحيلة، التى لجأ إليها دييغو راميريث دى روخاس فى تصميم شديد، الداعى وراء عدم ثورة تلك المواضع آنذاك. وهو لم يخدعهم فيما قال؛ لأنه فى يوم الأربعاء الموافق عشية عيد الظهور(*) قدم ماركيز بلش إلى موضع أولولا Olula فى ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس، ثم انتقل منها ليدعم ألمرية حيث أقام فى تابيرناس. وهكذا ربما يكون الحاكم قد بالغ فى عدد الرجال، بيد أنه لم يقل سوى الحقيقة فيما رواه عن مجىء الماركيز.

(*) يتم الاحتفال به فى كل عام فى السادس من شهر يناير، وقد اعتاد الناس تبادل الهدايا أو العيديات فى ذاك اليوم إحياء لذكرى هدايا المجوس إلى المسيح، وفقًا للزعم السائد. (المترجمة).

الفصل الخامس والثلاثون

يتناول وصف مربلة وأراضيها، والكيفية التى قام بها موريسكيو إستان بالثورة.

تقع مدينة مربلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى شبه الجزيرة الأيبيرية، وهى محاطة بالأسوار والأبراج، وتحوى قلعةً قديمة. وهى كائنة بأرض سهلية، وبها ثمانمائة منزل. كانت قديمًا تدعى ماربيلى Marbilli، ولم يغير المسلمون اسمها. حدودها جميعًا تقع فى مناطق جبلية شديدة الوعورة والانحدار، وليس بها سوى أرض زراعية منبسطة واحدة، تمتد على مدى أربعة فراسخ باتجاه الغرب؛ جعل منها مواطنوها، وسكان باقى مواضع تلك المنطقة مزارع لهم. أما الجبال، فهى على الرغم من وعورتها، عامرة بالكروم، والغيلات المملوءة بأشجار التوت الأسود، وشجر القسطل، والجوز، وأشجار أخرى على تلك الشاكلة؛ كما أن بها وفرة من الكلأ لرعى الماشية. يكسب الناس قوتهم بصورة أساسية فى تلك الأراضى من تجارة الحرير، ومن الزبيب والنبيذ، اللذين يعبأن فى ذاك الميناء على متن السفن القادمة من كل من فلانديس، وبريطانيا، وإنجلترا.

إبان حكم المسلمين، كان العديد من البقاع التى تدخل فى نطاق مربلة تقع بين تلك الأودية، إلا أن ناربابيث Narbáez – حاكم جبل طارق – قد أخلى غالبيتها من قاطنيها، حينما أخذهم أسرى أثناء نشوب الحرب؛ أما بقية المواضع فقد هجرها أهلها للذهاب إلى بلاد المغرب، بعد أن ظفر الملكان الكاثوليكيان بمملكة غرناطة. فلم يبق منها

جميعًا سوى خمسة مواضع قائمة، هى: أوخين Hojen، وإستان Istín، ودايدين Daidin، وبنى حبوس Benahaduz، وإستيبونا Estepona.

يحد مربلة من الغرب جبل طارق، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق مدينة مالقة، ومن الشمال مدينة روندة. توجد بدايات الجبل الأحمر (بيرميخا) Sierra Bermeja داخل الإطار الحدودى لمربلة، بينما يستكمل الجبل مسيرته لمسافة تربو على ستة فراسخ إلى الغرب فى نطاق أراضى روندة، وصولاً إلى البقاع الخلفية الغربية أو الأبارال، التى يطلق عليها كاساريس Casaresأو غاوسين؛ ويقطع الجبل تلك المسافة على بعد من البحر، يقل أو يزيد بعض الشىء عن الفرسخ. وأراضى مربلة لا يقطعها إلا نهر واحد – النهر الأخضر el río Verde - وله شهرة واسعة ترجع إلى الهزيمة النكراء التى منى بها رجالنا هناك. ينبع ذاك النهر من جبل آخر مرتفع موجود باتجاه الشمال، وهو يبعد أربعة فراسخ عن البحر، ويطلق عليه جبل بِلانكيًا Sierra Blanquilla؛ وسوف نشير إليها وإلى غيرها من الجبال التى تتفرع منها عندما نتطرق إلى وصف مدينة روندة. يسيل ذاك النهر فى أودية شديدة الانحدار، ثم يخرج إلى بساتين إستان، التى يغادرها ليصب فى البحر على مسافة فرسخ إلى الغرب من مربلة؛ فتضحى إستان إلى اليسار منه، وجبل أربوتو Arboto- وهو بداية جبل بيرميخا – على يمينه.

كانت إستان على الدوام موضعًا ثريًا، وقد أمست فى تلك الآونة أغنى من مثيلاتها فى تلك المقاطعة. اندلعت الثورة هناك فى أول أيام العام الجديد، وكان الداعى لقيامها هو أحد الأهالى الموريسكيين، ويدعى فرانثيسكو باتشيكو مانخوث Francisco Pacheco Manxuz. وكان قد مضى عليه ستة أشهر وهو يترافع فى دعوى أقامها أمام هيئة محكمة غرناطة، بشأن إطلاق سراح أحد أبناء إخوته. فلمّا علم بما ينتويه أهالى البيّازين، من خلال رسائل فرج بن فرج وآخرين، عرض عليهم أن يحمل موريسكيى بقاع جبل بيرميخاس على الثورة؛ فبعث إليه الخائن الأكبر(*) كتابةً بالأوامر حول ما

(*) هذا هو اللقب الذى منحه المؤلف لفرج بن فرج. (المترجمة).

يتعين عليه القيام به، ورسَمه قائداً على تلك المنطقة. أدت تلك الضمانات إلى قدوم مانخوث إلى إستان يملأه الزهو، فأفهم أهالى البلدة - وكانوا جميعًا من الموريسكيين - أن غرناطة والمملكة بأسرها تموجان بالثورة، وأن أوضاع المسلمين فى تقدم وازدهار؛ وحرضهم على الثورة ونفوسهم مطمئنة فى جبل أربوتو، وهو الموقع المنيع - نظرًا لوعورة تضاريسه - الذى كانوا ينتوون اللجوء إليه. من أجل أن يتسنى للماشية والمتاع الصعود أعلى الجبل عندما تدعو الحاجة لذلك، قاموا بفتح طرق الرعاة القديمة، التى كانت قد أُغلِقت وباتت مهملة، لمَّا توقف الناس عن ارتيادها.

أسفرت محاولات إقناع ذاك الرجل الآثم للأهالى عن استثارتهم، وفى يوم الحادى والثلاثين من شهر ديسمبر وصل ستون ثائرًا جبليًا، كان فرج بن فرج قد أرسلهم لحثهم على الخيانة[٣٩]. فقام أولئك بتأكيد كل ما قاله مانخوث، وأفلحوا فى دفعهم للقيام بالثورة بعد ذلك، حيث قضوا تلك الليلة يطالبون المواطنين واحداً واحداً بذلك الأمر؛ حتى إنهم مع طلوع الصباح كانوا قد باتوا جميعًا خارج البلدة، ولم يتبق بها سوى موريسكيين اثنين لم يرغبا فى مرافقتهم يدعيان: بدرو دى روخاس عثمان Pedro de Rojas Hozm?n، ولورينثو الأزرق Lorenzo Alazarac.

كان الكاهن القانونى لتلك البقعة هو السيد بدرو دى إسكالانتى، ولم يكن قد مضى عليه وقتٌ طويلٌ بالمكان. ولَمّا لم يكن يمتلك منزلاً خاصًا به، فقد كان يقيم فى برج قديم يرجع إلى عهد المسلمين، كان مبنيًا على هيئة الحصن. كان الموريسكيون يرغبون فى اعتقاله والقضاء عليه، بعد أن بدأت ثورتهم؛ فخرج واحد منهم يطلبه على عجل، قائلاً إن عليه أن يخرج لسماع اعتراف إحدى الموريسكيات التى تحتضر. فامتنع الكاهن عن الذهاب، ليس شكًا منه فى مسألة الثورة - كما أنبأنا لاحقًا - بل لأن الوقت كان ليلاً، ولم يكن هناك مسيحى عداه فى البلدة. فأجاب من يناديه بأن

(٣٩) يقصد الثورة. (المراجع).

ينتظر إلى أن يبزغ الفجر، وإن المرأة لن تموت بتلك السرعة التى تمنعها من الاعتراف فى الصباح. فرجعوا إليه بعد برهة برسالة أخرى، حيث استحلفوه بمحبته للرب أن يفتح أبواب البرج؛ لأن أهل مربلة قادمون للإجهاز عليهم، ويريدون قتل من بالبلدة من النساء، لكنهم لم يتمكنوا من خداعه.

لم يمض وقت طويل حتى كان الموريسكيان، اللذان ذكرنا سلفًا أنهما بقيا فى البلدة، قد وصلا إلى نافذة الغرفة التى ينام بها الكاهن؛ ورجياه أن يسمح لهما بالدخول؛ لأن كل الأهالى يلوذون بالفرار إلى الحقول، وهما لا يريدان الذهاب معهم، بيد أن ذلك لم يحمله على الوثوق بهما إلى أن طلع النهار. عندئذ جاء حائك مسيحى كان قد تصادف مبيته هناك فى تلك الليلة، وكان قد أحس بالصخب الذى أحدثه الناس أثناء مغادرتهم؛ فانضم إليه، وتوجها صوب الكنيسة ليعلما حقيقة الأمر، فألفيا عثمان وامرأته فى الطريق، وكانا لا يزالان على رغبتهما فى الاحتماء بالبرج؛ وبينما هم يتحدثون، أبصروا جمعًا من الغلمان مسلحين بالأقواس والبنادق، كانوا قادمين لقطع الطريق عليهم. أطلق أحدهم النار من بندقيته نحو الكاهن القانونى، لكنه لم يفلح فى إصابته، حيث تمكن من الدخول هو ورفيقه إلى بيت عثمان؛ وما كادوا يوصدون الباب ويغلقون المزلاج، حتى أخذ الغلمان يطرقون الباب لكسره، وهم يصيحون بصوت عال: "تعال إلى الخارج أيها الكلب الفقيه".

هنا طلب عثمان من الكاهن أن يحترس وينتبه لنفسه؛ لأن القوم يريدون قتله. عندها خلع الرجل ثيابه، وترك غمد السيف الذى كان يحمله ؛ وعاون الموريسكى كلاً من الكاهن والحائك لكى يتسلقا جدارًا فى الأعلى؛ لأنهما أرادا الوصول إلى بوابة تؤدى إلى الحى الموجود به البرج، عن طريق المرور عبر أسطح المنازل الأخرى؛ فلمّا رأيا أن المسلمين قد استولوا على البوابة بالفعل، دفعهما الخوف من القتل للاختباء فى مربض للخيل. لم يقصر عثمان فى مساعدتهما قدر استطاعته للنجاة بأرواحهما، وعندما رأى أن من كانوا بالباب يريدون هدمه قد ابتعدوا عن المكان، راح يبحث عن الرجلين المسيحيين، ثم ذهب إليهما، وأنزلهما من ذات الجدار الذى ساعدهما من قبل

على اعتلائه، ثم فتح لهما الباب، وأخبرهما أن المكوث فى ذلك الموضع لن يجديهما؛ لأن الثوار يريدون قتلهما. هكذا لم يتوان الرجلان عن اللجوء إلى الحقول، بعد أن قفزا من فوق أسياج وصخور، كما لو كانا فى أراض مستوية إلى أن سلكا شعاب الجبل الذى يتوسط الطريق بين ذاك المكان ومربلة. وهناك أبصرهما أولئك الجنود الغلمان، وخرجت فى أثرهما كتيبة، راحت تتبعهما لمسافة تزيد عن الفرسخ؛ بيد أنهما لم يتمكنوا من اللحاق بهما، لأن الرجلين كانا يهربان، بينما كان الغلمان يجرون وراءهما(٤٠).

وهكذا وصل الرجلان إلى المدينة قبيل انتصاف النهار بساعتين، أنفاسهما لاهثة وهما يتصببان عرقًا وتملأهما الخدوش - التى لم يكونوا قد أحسوا بوجودها إلى ذلك الوقت- من جراء تعثرهم فى نباتات العوسج والأشواك. كان الكاهن أول القادمين، فقرع ناقوس الإنذار، وأخبر الأهالى أن موريسكيى إستان قد ثاروا وهم راغبون فى قتله. بالكاد عثر الرجل على من يصدّقه، فقد كان تصديق المواطنين لأهالى تلك البلدة وثقتهم فيهم دون حدود؛ لأن موريسكيى إستان أناس أثرياء، فلم يصدق المسيحيون أنهم يودون إهلاك أنفسهم؛ وهكذا أخذ العديد من الأهالى يواسون الكاهن ويهدئون من روعه، قائلين إن القوم لابد أن يكونوا قد ضبطوه مختبئًا فى إحدى الزوايا برفقة إحدى النساء.

كان الكاهن قد خلّف وراءه فى البرج فتاةً كانت بصحبته من بنات إخوته تدعى خوانا دى إسكالانتى Juana de Escalante، وإحدى فتيات الخدمة؛ بينما كان الرجل يلوذ بالفرار، ألفى المسلمون الباب مفتوحًا - كالهيئة التى تركها عليه الكاهن - فدلفوا إلى الداخل، وسطوا على القمح والزيت وأشياء أخرى كانت بالطابق الأول، كما قبضوا على الفتاة التى تصادف وجودها بالأسفل. أخذت الفتاة تبكى، ورجتهم أن يدعوها

(٤٠) أى أن من يجرى لينجو بنفسه يكون أكثر سرعة ممن يطارده. (المراجع).

تصعد إلى أعلى لتكون مع سيدتها. كان بالبرج درج ضيق، وعال، وشديد الاستقامة؛ حينما أبصرت ابنة أخ الكاهن الخطر المحدق بها، وضعت على درجة السلم الأخيرة حجراً ضخماً، وجعلت إلى جوارها أحجاراً أخرى كثيرة كانت موجودة في موضع التخزين بالأعلى، من أجل أحد الأعمال التي كان مقرراً القيام بها. لمّا كانت الخادمة قد باتت بصحبة الفتاة ، صممت تلك الأخيرة ألا تدع أحداً يصعد إلى الطابق الأعلى؛ فجمع الرجال الغنائم، وغادروا البهو. كان هناك بعض الغلمان ممن أرادوا أن يذهبوا إلى حيث توجد الفتاتان، فاتخذت الشابة وضع الدفاع، وبدأت تلقي الأحجار من أعلى الدرج، فقتلت أحد الغلمان، ولاذ الباقون بالفرار. وعندما ألفت البرج خاوياً، لم تضع الوقت وسارعت بالنزول، فأغلقت الباب وأوصدته بدعامة خشبية، ثم عاودت الصعود إلى أعلى.

لم يتأخر المسلمون في الرجوع لاصطحابها هي ورفيقتها، وعندما وجدوا الباب مقفلاً أرادوا كسره؛ بيد أن الفتاة دافعت عن نفسها في بسالة، كما كان سيفعل أي شاب متحمس، وشرعت تقذفهم بالأحجار الثقيلة من إحدى الفتحات ومن أعلى الجدار. وهكذا أجبرتهم على التراجع، وشجت رأس بعضهم؛ على الرغم من أنهم أطلقوا عليها سهماً، اخترق ذراعها على مقربة من كتفها، لم تكف عن القتال، ولم تتوقف لخلع السهم طيلة القتال الذي تعدى ثلاث ساعات؛ وكانت تحطّم الحوائط للحصول على المزيد من الحجار لإلقائها على الرجال، بعد أن نفد ما كان لديها. عندئذ وصل السيد بارتولومي سيرّانو Bartolomé Serrano، وهو فارس من لواء الفرسان التابع للسيد غوميث أورتادو دي مندوثا Gómez Hurtado de Mendoza – قائد قوات مقاتلي مربلة – الذي خرج استجابةً لدق ناقوس الإنذار، يصحبه ثلاثون سيافاً وثلاثمائة من المشاة. ولما كان النهار قد انتصف منذ ساعتين، فقد ألفى المسلمين يقاتلون البرج، فأخذ يناوشهم، وأجبرهم على التراجع؛ بيد إنه لم يقو على هزيمتهم؛ لأنهم صعدوا إلى بعض الصخور الموجودة بين ذاك الموضع والنهر، حيث لا تقدر الخيول على السير. وهكذا رجع في تلك الليلة إلى مربلة، واصطحب معه الفتاة والخادمة، وترك الأرض وراءه تموج بالثورة.

الفصل السادس والثلاثون

يتناول مجابهة مدن روندة، ومربلة، ومالقة للثوار؛ والاحتياطات التى اتخذتها قرى مالقة.

فى يوم الأحد الموافق الثانى من يناير، اجتمع فى مربلة حوالى ثلاثة آلاف رجل، وبعد أن قام أولئك بتنبيه كل من مدينتى روندة ومالقة حول قيام الموريسكيين بالثورة، عادوا لملاحقة الثوار. عندما افتقر أولئك الرجال إلى الأمان فى الجبال التى كانوا قد لجأوا إليها فى ذاك الصباح، صعدوا إلى الجبل عبر الممرات التى قاموا بفتحها، يسوقون أمتعتهم التى حزموها ومواشيهم أمامهم؛ وتوجهوا للتمركز فى منطقة أربوتو المنيعة، الموجودة إلى الشمال من النهر الأخضر، وتبعد قدر فرسخ عن إستان. ولم يفلح رجالنا فى التصدى لهم فى ذاك اليوم أيضًا، نظرًا لوعورة الجبال التى قصدوها، وصعوبة تضاريسها؛ فساروا بمحاذاة النهر هبوطًا فى الطريق المؤدى إلى روندة، وتوجهوا إلى بلدة أربوتو ذاتها – وكانت مهجورة – ليقيموا بها معسكرهم عند سفح جبل بيرميخا. وقد أتى إلى ذاك الموضع فى اليوم التالى الأب أنطونيو غارثيا دى مونتالبو Antonio García de Montalvo - المأمور القضائى لكل من روندة ومربلة – فى صحبة ما يربو على أربعة آلاف رجل. ولم يبادر رجالنا بالهجوم على الثوار فى ذاك اليوم، على خلفية الخلاف الذى دار بين الأب أنطونيو والسيد غوميث أورتادو دى مندوثا – الذى يترأس القوات القادمة من مربلة – وأخروا المعركة إلى اليوم التالى الثلاثاء. لم يجرؤ المسلمون على الانتظار، وهجروا مكانهم المنيع فى الصباح الباكر، وفروا جميعًا – رجالاً ونساءً – بعد أن أضرموا النيران فى الأكواخ والمؤونة الموجودة

بداخلها. لم يهنأ المطاردون بالفريسة؛ لأنهم وقعوا فى قبضة أناس آخرين كانوا فى طريقهم للانضمام إليهم من: موندا، وغوارو، وتيليكس Telex، وكاثارابونيلا، وتيبا Teba، وأرداليس Hardales، وكامبيّو Campillo، وألورا، وكوين، وكارتاما Cartama، والحورين Alhaurín. عندما عثر أولئك القادمون على النساء والأطفال والشيوخ مشتتين ويلوذون بالفرار فى تلك الجبال، أسروهم جميعًا، ولم يتفاداهم سوى الرجال الفرادى، ومن لا تعوقهم الأحمال.

عقب اندلاع الثورة فى إستان، لم تعد مدينة مالقة تثق كثيراً فى الموريسكيين القاطنين فى المنخفض الموجود بها؛ فأمرت مسيحيى كوين باللجوء إلى موندا، ومسيحيى ألورا بالذهاب إلى تولوكس؛ لأن كليهما موضعان شائكان، وهكذا لن يتسنى لهما القيام بالثورة؛ على أن يشغل المسيحيون منزلين منيعين كان ماركيز بيينا - الذى تتبعه كلتا البلدتان - قد أقامهما بهما. كما كلّف السيد كريستوبال دى كوردوبا Cristóbal de Córdoba – حاكم كاثارابونيلا – بالتوجه إلى الحصن، فهى خطوة مهمة، وكان الحصن مهملاً ؛ فقامت المدينة بإصلاحه لاحقًا، وزوّده بمائة وخمسين جنديًا لحماية البلدة. عندما تبين أن وجودهم هناك ليس ضروريًا؛ لأن موريسكيى البلدة كانوا من المسالمين، أرسلوهم فيما بعد إلى يونكيرا Yunquera؛ وقد أحدثوا بها قلاقل واضطرابات شديدة للغاية، حيث نهبوا البلدة، واعتقلوا سائر النساء الموريسكيات، وجلبوهن معهم فى طريق عودتهم إلى ألوثاينا. وقد لاقاهم غابرييل ألكالدى دى غوثون Gabriel Alcalde de Gozón – أحد أهالى كاثارابونيلا – عند الموضع الذى يطلقون عليه خورول Jorol، وكان يجوب الأراضى لتهدئتها على رأس خمسين رام، تنفيذًا لأوامر أرّيبالو دى ثواثو؛ فأخذ النساء من بين أيديهم، واعتقل بعضًا منهم، تمت معاقبتهم لاحقًا .

توجه غاسبار بيرنال Gaspar Bernal بصحبة مائة رجل إلى برج غوارو، الموجود بجوار موندا؛ وقام بإصلاح حصن ألموخيّا Almoxía، وأمر أهالى الموضع المسيحيين أن يحتشدوا بداخله. كما نبه قادة حصون ألورا، وألوثاينا، وكارتاما، لكى يحتاطوا

للأمر، وحتى يسهر المسيحيون فى تلك القرى على حمايتها، ويقوموا بنوبات حراسة.
أما ماركيز قمارش، فقد بعث كتيبة من المشاة، وخمسة وعشرين فارسًا إلى حصن قمارش؛ فعمل بذلك على تأمينه، لأن تلك البلدة كانت مأهولة كلها بالموريسكيين؛ وكان الثوار قد وضعوها نصب أعينهم، وعقدوا اتفاقًا مع أهلها لاحتلالها، كما عُرِفَ لاحقًا.
أسفرت تلك الاحتياطات عن تأمين تلك الأراضى؛ أما موريسكيو إستان فقد تركوا نساءهم وبنيهم أسارى، وانضموا إلى أناس آخرين قدموا هاربين من روندة وهوة مالقة، وعاشوا حياةً فظةً فى تلك الجبال. لنعد الآن إلى تناول ما كان يجرى فى تلك الآونة فى المنطقة الشرقية.

الفصل السابع والعشرون

يتناول الكيفية التى ثار بها موريسكيو قرى سند وادى آش ووصفا لتلك الأراضى.

تقع سند وادى آش فى سفح جبل شلير المواجه لجهة الشمال، وتحدها من الجنوب البشرات، بينما تحيط بها من باقى الاتجاهات مدينة وادى آش. وهى أرض بها وفرةٌ من مياه العيون الغزيرة التى تسيل من الجبال. يقطع تلك الأراضى النهر الذى يسير فيما بعد بمحاذاة مدينة وادى آش، من أجل ذلك أُطلِق عليه نهر وادى آش؛ بيد أن الأمر الأكثر احتمالا هو كون النهر ما أكسب المدينة اسمها، فوادى عايش – كما يسميه العرب – يعنى نهر الحياة[41]، توجد بالولاية تسعة مواضع، هى: دولار Dólar، وفيريّرة، وغيبيخار، والدير el Deire، ولانتيّرا Lanteira، وشريش، والقصر، والكيف، وقلهرة. كان قاطنو تلك الولاية جميعًا من الموريسكيين، وهم أناس موسرون، ينعمون بحظوة خاصة لدى كل من تولى منصب ماركيز زناتى – اللين تتبعهم تلك المنطقة. وكانوا يعيشون فى رغد من قوت أعمالهم، ومن تربية المواشى، والحرير؛ حيث كانت لديهم أراض، وغيلات، ومراع شاسعة وعالية الخصوبة، تتيح لهم زراعتها، وتربية الماشية ودود القز بها.

وصلت أنباء ثورة موريسكيى البشرات، والضير الذى ألحقوه بالمسيحيين والكنائس، إلى قلهرة فى أول أيام عيد الميلاد. حينئذ صعد القاضى مولينا دى

(٤١) مرة أخرى يثبت مارمول عدم درايته باللغة العربية. (المراجع).

موسكيرا – الذى كان موجوداً فى ذاك الموضع ليباشر الدعاوى المقامة ضد الموريسكيين، كما أسلفنا(*)– إلى الحصن مع امرأته، التى كانت برفقته، وخدمه، وعشرين راميًا كان يصطحبهم لحمايته الشخصية وأيضًا لإقرار العدالة. فأودع داخل الحصن ستين ثائرًا جبليًا موريسكيًا –كانوا محتجزين لديه – وحمل حراسه على حبسهم فى بعض أقبية القلعة، لأنه لم يكن يشعر بالأمان معهم حيثما كانوا. بعثت كل تلك الأحداث الراحة فى نفس حاكم المنطقة المدعو خوان دى لا تورّى Juan de la Torre– الغرناطى الأصل – لأنه أدرك ان الحصن سيضحى فى مأمن أكثر من ذى قبل لوجود السيد مولينا به، وستتم إغاثته بصورة أفضل إذا ما تعرض لمأزق ما. فيما بعد شرع كل واحد منهم على حدة فى مكاتبة مدينتى وادى آش وبسطة، لتنبيههما إلى ما كان من شأن الثورة، والخطر المحدق بذلك الحصن، وكذا حصن فينيانا؛ من أجل أن يمدوهم بقوات تتمركز بالداخل وتؤمن الوضع. وقد أمرا المجالس المحلية بالمنطقة أن تزودهم بالحطب والمؤونة، وأن يحتشد المسيحيون القاطنون فى أرجائها فى الحصن برفقة نسائهم وبنيهم.

خشى أهالى الدير من أنه حيال مجيىء أعداد أكبر من موريسكيى البشرات إلى تلك البقاع، سيحملونها على الثورة قسراً؛ فهرعوا إلى الحاكم، وطالبوه بإمداداهم بمائتى جندى ليقوموا بحمايتهم، على أن يتكفلوا هم بدفع رواتبهم؛ لأنهم أناس عزل. فما كان من الرجل، الذى لا يمتلك ذاك العدد، وما من سبيل أمامه لتوفيره، إلا أن طمأنهم بعبارات حسنة؛ وعاتبهم على ذاك المطلب، وطلب منهم أن يكونوا رعايا أوفياء؛ ووعدهم أن يرسل إليهم قوات من وادى آش إذا مادعت الحاجة لذلك. ورغبةً منه فى طمأنتهم بصورة أكبر، أمرهم أن يجمعوا نساءهم وأطفالهم ويودعوهم الحصن، وهو ما أراحهم كثيراً. وقد حذا أهالى قلهرة حذوهم، وكانت سائر البقاع المتبقية ستقوم بالأمر ذاته فيما بعد – لو كان الحصن يسعهم جميعًا بداخله –؛ نظراً لضخامة

(*) راجع الباب الرابع، الفصل السادس عشر، صفحة ٨٢. (المترجمة).

السرقات ومدى سوء المعاملة الذى كانوا يلاقوه من أهالى وادى آش، بحجة أنهم لهم حظوة لدى الحكام؛ ومن مسلمى البشرات لحملهم على الثورة.

فى نهاية الأمر، أسفرت قلة دفاعاتهم عن إرسال الغورّى فى أول أيام العام الجديد أناس من البشرات، وأمرهم بدفع الأهالى إلى الثورة؛ وإذا ما امتنعوا فعليهم بسرقتهم وقتلهم. وقد وصلوا إلى كلٍ من غيبيخار ودولار أثناء انهماك غالبية السكان فى أشغالهم فى الحقول، فأشعلوا الثورة فى هذين الموضعين؛ ثم أتبعوهما بكلٍ من شريش، ولانتييرّا، والكيف، وفيريّرة. أما أهالى الديرة فلم يلجأوا معهم إلى القوة؛ لأن نساءهم كنَّ بالحصن، بيد أنهم أظهروا حذقًا شديداً مكنهم من إخراجهن من هناك؛ لأنهم حينما أدركوا أن الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، لجأوا إلى الحاكم مولينا دى موسكيرا، بغية أن يشفع لهم لدى الحاكم - الذى كان يرفض تسليمهم النساء والأطفال - قائلاً إنه طيلة تواجدهم بالحصن لن يقدم أزواجهن وآباؤهم على القيام بالثورة؛ فألح كثيراً على ذاك الأخير لكى يسلمهم النساء. إلى جانب ذاك الخطأ -الذى كان فادحًا للغاية - تم ارتكاب خطأ آخر يفوقه أهمية، فيما يتعلق بإثارة تلك المواضع: حيث خشى الحاكم أن يقوم الثوار الجبليون الستون المحتجزون فى أقبية الحصن بإثارته فى تلك الليلة، بسبب عدم توفر الحراسة الكافية؛ فطالب الحاكم مولينا دى موسكيرا بإخراجهم من هناك، وإرسالهم إلى سجن وادى آش أو إلى أى مكان آخر. فأمر ذاك الأخير بإنزالهم إلى البلدة، وإيداعهم أحد البيوت التى تبدو منيعة؛ وقد أخرجهم الثوار منها إبان محاصرتهم لذاك الحصن. فلمّا ألفوا أنفسهم أحراراً، ارتكبوا فظائع شنيعة بحق المسيحيين الذين وقعوا بين أيديهم؛ انتقامًا لما وقع عليهم من ظلم، نجم عنه إيداعهم فى ذاك السجن، ومعاملتهم على ذاك النحو.

الفصل الثامن والثلاثون

يتناول كيف تمكن الثوار المسلمون من إثارة مواضع نهر ألمرية، واجتماعهم في بني حبوس للتوجه لمحاصرة المدينة.

فى أعقاب اندلاع الثورة فى طاعة مارتشينا، بدأ المسلمون الثائرون فى تلك المقاطعة - بعدما أطلقوا شرارة الثورة فى البقاع العليا لنهر ألمرية - فى جمع حشودهم، من أجل التوجه لمحاصرة المدينة. حيث لم يبد لهم الظفر بها أمرًا عسيراً، على ضوء معرفتهم بما تعانى من نقص فى الرجال، والمؤن، والذخيرة. وصل الإنذار إلى ألمرية فى غضون لحظات حول ما يقوم به الثوار، والقلاقل التى يتسبب فى إثارتها من لم يفصحوا بعد عن وجهتهم؛ نظراً لانعدام السرية - لأن المدينة كان بها ما يربو على ستمائة منزل للموريسكيين- حيث أخذ أولئك يروحون ويجيئون من القرى والجبال فى كل الآونة آمنين، بحجة الاطمئنان على شئون بيوتهم، وكانوا يجلبون معهم تحذيرات مؤكدة. كما أن الثوار أنفسهم، لكونهم أناساً همجيين ذوى مدارك محدودة، لم يقووا على كتمان السر فى صدورهم التى تشتعل حنقًا؛ فقاموا بإرسال التنبيهات فى خيلاء، بهدف بث الخوف داخل نفوس المسيحيين؛ وباتوا يضخمون الأمور، دون أن تكون هناك حاجة لذلك، انطلاقًا من عجرفتهم.

وقد أخبر أحد الموريسكيين القادمين من غيثيخا فى أحد الأيام السيد غارثيا دى بيّارّويل علنًا، كيف أن إبراهيم الغازى Brahem el Cacis - قائد تلك الكتائب - أخبره وعهد إليه أنه سيلقاه فى أول أيام العام الجديد فى ساحة ألمرية، حيث يفكر فى نشر ألويته هناك؛ وأضاف أن عليه أن يأخذ بنصيحته، ويسلم المدينة إلى المسلمين، الذين لم

يتبق أمامهم سواها فى مملكة غرناطة؛ ليعفى المدينة من حوادث القتل والدمار الذى سيحل بها إذا ما اقتحمها الثوار بقوة السلاح. بينما جلب إليه رجل آخر رسالةً من حاجب تابيرناس - المدعو فرانثيسكو لوبيث - يعلمه فيها فى حذر كيف أنه سيلجأ إلى تلك المدينة بصحبة أهالى بلدته، وغيرهم ممن يرغبون - انطلاقًا من كونهم مسيحيين صالحين حريصين على خدمة مليكهم- فى الاحتماء فى كنفه، وأن يشملهم بعنايته؛ وإنه سيتأخر فى حمامات الحامية لمدة ثلاثة أو أربعة أيام؛ لأن امرأته على وشك الوضع.

لكن فيما بعد كشف التحذير الذى أرسله أحد الجواسيس حيلة ذاك الرجل الآثم، حيث أكد أن الموريسكى يصطحب معه أعداداً غفيرة؛ وأنه ما أتى إلا للمماطلة، بينما يحشد موريسكيو خيرغال، وغيثيخا، وبولودوى، وجبل نِيخار صفوفهم لمحاصرة المدينة. أسفرت تلك التنبيهات وغيرها عن اتخاذ المواطنين للحيطة والحذر. كانت قلة الخبز قد أعيتهم، وعلى الرغم من وفرة اللحم، فإنهم عانوا بصورةٍ أكبر من نقص الذخيرة والعتاد. رغماً عن كل ما سبق، فقد قاموا بنوبات الحراسة - العادية والاستثنائية - بمساعدة المحاربين ؛ وكانوا يخرجون كل يوم لاستطلاع البقاع الحدودية. وهكذا باتوا يتزودون بما يلزمهم ، إلى جانب المحافظة على ولاء تلك الأماكن؛ أو تعطيلهم على أقل تقدير ليحولوا دون قيامهم بالثورة دفعةً واحدة.

فى أول أيام العام الجديد، حدث أن خرج السيد غارثيا دى بيّارّويل مع بعض الفرسان والمشاة لاستطلاع أحوال قرى منطقة النهر؛ فلمّا أضحوا على مسافة ليست بالقريبة من غادور، شاهدوا الموريسكيين يغادرونها منصرفين باتجاه الروابى؛ لأنهم لم يشاءوا الاقتراب من المسيحيين كما حدث فى مراتٍ سالفة. عندئذ أدرك السيد غارثيا أنهم قاموا بالثورة، وكان يريد معاقبتهم على ذلك، لولا أنهم تمكنوا من إثارة مسلمى غيثيخا، الذين برزوا من وراء بعض الروابى شاهرين أحد عشر لواءً، ثم توجهوا لاقتحام ذاك الموضع. حينها رجع ذاك الأخير للتحصن بالمدينة، بعد أن تشكك فى قدرته على تنفيذ العقوبة التى كان يود إيقاعها بهم؛ وكذلك فقد كان يخشى أن يضربوا

عليه حصاراً يضعه فى مـأزق؛ لأنه كان على علم بوجود ألف موريسكى قادر على حمل السلاح داخل أسوار المدينة، ولم يكن بوسعه وضع ثقته بهم؛ إضافةً إلى أن المسيحيين القادرين على القتال لا يصل عددهم إلى ستمائة فرد، كما أن تسليحهم كان سيئًا. كان قيام المسلمين بحشد أعداد غفيرة أمرًا لا شك فيه، وهو ما كان سيعرض المدينة للخطر لا محالة؛ لأنه كانت هناك مساحات كبيرة من الأسوار المهدمة والمليئة بالثغرات فى شتى الأرجاء، ومن الواجب حمايتها جميعًا.

على ضوء عودة السيد غارثيا دى بيّاروِيل إلى ألمرية، قضى الثوار ليلتهم تلك فى غادور. وفى صبيحة اليوم التالى استكملوا مسيرتهم نزولاً بمحاذاة النهر، إلى ان عسكروا على بعد فرسخ من المدينة، عند الربوة التى يُطلَق عليها بنى حبوس؛ وكانوا قد اتفقوا على جمع حشودهم هناك. على أثر قيام جواسيسنا، الذين يجوبون منطقة النهر على صهوة الخيل بشكل معتاد بتحذير القادة من وجودهم، ظهر العديد من الآراء بالمدينة حول ما يتعين القيام به. كان هناك من يرى أن على السيد غارثيا الاعتناء بحماية الأسوار فحسب، إلى أن تحضر قوات الإغاثة؛ لأن القوات الموجودة بالمدينة لا تكفى لتقسيمها. بينما رغب آخرون – من ذوى الحماسة والشكيمة – أن يتقدم الرجل للإغارة على الأعداء المتمركزين فى بنى حبوس، من أجل الإجهاز عليهم قبل أن تنضم إليهم بقية الجموع؛ مؤكدين أن ذاك هو السبيل الأوحد لتحقيق نفعهم والمحافظة على حريتهم. فى نهاية الأمر تقرر أن يذهب السيد غارثيا برفقة نفر من الفرسان والراجلين لتفقد أحوالهم، ومعاينة الموقع الذى يعسكرون به، وما يمكن القيام به لمباغتتهم؛ وتفرقت الجموع على ذلك ليتوجهوا لقضاء ليلتهم. ونحن سنتوقف عند هذا الحد، على أن نعود لسرد باقى الأحداث فى وقت آخر.

الفصل التاسع والثلاثون

يتناول كيفية اندلاع الثورة في قريتي لاس ألبونيويلاس وسالاريس .

لاس ألبونيويلاس وسالاريس موضعان قريبان للغاية من بعضهما في وادى ليكرين. كان كلاهما قد امتنع عن الثورة -إبان تتويج ابن أمية ملكًا فى بيثنار - اتباعًا لنصيحة أحد المورسكيين ذوى الإدراك الحسن، كان يُدعَى بارتولومى دى سانتا ماريا Bartolomé de Santa María، وكانوا يكنون له احترامًا كبيرًا. وقد أفلح الرجل، انطلاقًا من كونه حاجبًا للاس ألبانيويلاس، فى إقناعهم بالتمهل، مستخدمًا الحجج الجيدة: فقال لهم إن عليهم الإفادة من المحن التى وقع فيها أناس غيرهم؛ وأن يمعنوا التدبر فيما آل إليه مصير الثورات السالفة؛ ومدى ضعف ركنهم فى مواجهة أمير ذى نفوذٍ كبير؛ وعظم ما يغامرون بفقده؛ وقلة ثقتهم فى إمكانية بلاد المغرب من إغاثتهم؛ وإنهم يعرّضون حياتهم وممتلكاتهم لخطر شديد. فلمّا أدرك فيما بعد أن القوم يعانون من اضطرابٍ شديد، وأن البلاد تغص بالمسلمين الغرباء من محركى الثورة فى شلوبانية وموتريل؛ وإن القلاقل آخذة فى التزايد كل يوم؛ وأنه لن يقوى بمفرده على إثنائهم عن المضى قدمًا فى عزمهم المهلك، لأن الأمور تمضى من سيئ إلى أسوأ؛ ذهب للتحدث مع السيد أوخيدا Ojeda - الكاهن القانونى للمحل - الذى لم يكن قد غادر ذاك الموضع بعد. وقال له أن يجمع العدد الذى يستطيع التوصل إليه من المسيحيين، ويتوجه برفقتهم إلى مكان يحتمون به، إذا لم يكن يرغب فى أن يقضى عليه الثوار الجبليون؛ وأكد له أن عدم إقدامهم على قتله، كان نابعًا من احترامهم له؛ لأنهم يعلمون أن الكاهن صديق له. وقد أمده بخمسين رجلاً، من أجل أن يتمكن من المغادرة

بصحبتهم فى أمان دون أن يعترض الثوار الجبليون طريقه؛ وقد رافقوه حتى تركوه سالمًا على مسافة فرسخين من بادول، وذلك فى أول أيام العام الجديد.

كان حظ الكاهن وافرًا لأن له صديقًا وفيًا، ففى غضون يومين أضحت الغلبة للجانب الآثم، واندلعت الثورة فى تلك المواضع. فى إشارة إلى الاستقلال – وإن كانت تافهة – أخرج مواطنو لاس ألبونيويلاس رايةً قديمةً، كانوا يحتفظون بها على سبيل التذكرة من عهد حكم المسلمين؛ ورفعوها مع سبعة أعلام أخرى، كانوا قد أعدوها سرًا من أجل ذاك الغرض، من حرير التفتاه والقطن المشغول، واجتمع تحتها سائر الغلمان الصاخبين. كان أول ما فعلوه هو تكسير الكنيسة وسرقتها، وسلب كل الأغراض المقدسة. فيما بعد نهبوا منازل الكاهن القانونى وباقى المسيحيين؛ ثم تركوا ديارهم مقفرة ومهجورة، حيث لم تواتيهم الشجاعة على البقاء بها آمنين، وصعدوا إلى الجبال فى صحبة نسائهم وبنيهم ومواشيهم. حتى ذاك الحين، لم يتوان الحاجب سانتا ماريا عن إسداء النصح لهم؛ عندما رأى أن غالبية الثوار الجبليين قد غادروا المكان، أقنع الأهالى بالرجوع إلى دورهم؛ ومحاولة الاعتذار إلى ممثلى أصحاب الجلالة، متعللين بأن الأشرار قد حملوهم على الثورة قسرًا ورغمًا عن إرادتهم. وأن ذاك النهج سيتيح لهم فرصة الانتظار إلى أن يتضح ما سيؤول إليه مصيرهم، والانضمام لاحقًا إلى الجانب الذى يتماشى أكثر ونفعهم؛ وهو ما قاموا به فيما بعد. لنذهب الآن لتناول ما كان ماركيز مونديخار بصدده فى تلك الآونة.

الكتاب الخامس

الفصل الأول

كيف أعدّ ماركيز مونديخار جيشه للتصدى للثوار.

كان مواطنو غرناطة فى تلك الآونة مرتبكين ومنزعجين للغاية، تكاد تساورهم مشاعر تشبه الندم على رغبتهم السالفة فى اندلاع ثورة الموريسكيين؛ حيث أخذت الأنباء ترد كل ساعة حول عمليات القتل والسرقة والحرائق التى ارتكبها الموريسكيون فى سائر الأرجاء. فأعياهم التفكير فى الأمر، وتخلوا عن رغبتهم السابقة، وأمسوا لا يفكرون سوى فى الانتقام. قام ماركيز مونديخار باستعجال المدن من أجل أن يسرعوا فى إرسال الرجال ليخرجوا معه فى الحملة؛ لأن الأعداد الموجودة بالمدينة لم تكن تكفى لخروج بعضها وبقاء البعض الآخر، وأكد لهم أن تأخرهم قد ينجم عنه أذى وأضرار كبيرة، إذا ما تمكن الثوار - الذين باتوا أسياداً على البشرات والوادى - من فرض سيطرتهم على بقاع الغوطة كذلك، نظراً لعدم توفر أعداد المقاتلين اللازمين لقمعهم، بينما قواتهم آخذة فى التزايد وكذا شرورهم.

حينما وصلت كتائب الفرسان والمشاة من مدن لوشة، والحامة، وقلعة يحصب، وجيّان، وأنتقيرة؛ تراءى للماركيز أن العدد قد بات كافيًا مما يمكنه من مغادرة غرناطة؛ فخرج من تلك المدينة فى يوم الإثنين الموافق الثالث من يناير لعام ١٥٦٩، تاركًا لولده - كونت تينديّا - تولى شؤون الحرب والإمداد فى المعسكر. فقطع فى ذلك المساء مسافة قصيرة تبلغ فرسخين، وذهب إلى الهندين، حيث قضى ليلته تلك. بعد أن جمع القوات التى كانت تعسكر فى أوتورا Otura، وفى مواضع أخرى من الغوطة، توجه بهم فى صباح اليوم التالى ليسلك الطريق إلى بادول - أول بقاع وادى ليكرين -

حيث كان يفكر فى إعادة تشكيل جيشه هناك. كان يرافقه ألفا راجل وأربعمائة فارس، وكانوا رجالاً نافذى البصيرة وجيدى التسليح، على الرغم من كونهم غير متمرسين وقليلى الالتزام.

صحب الماركيز آنذاك صهره -السيد ألونسو دى كارديناس- الذى صار حاليًا كونت لا بويبلا، وولده السيد فرانثيسكو دى مندوثا، والسيد لويس دى كوردوبا Luis de C?rdoba، والسيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، وفرسانٌ آخرون، وبعض الوجهاء. كما تواجد السيدان أنطونيو مورينو Antonio Moreno وإيرناندو دى أورونيا Hernan-do de Oruña – اللذان أمرهما جلالة الملك أن يقدما المشورة إلى الماركيز، لخبرتهما وتمرسهما فى شئون الحرب. وكان هناك العديد من القادة والفرسان، وجنود قدامى سرهم تقاضى الراتب المعتاد فى مقابل خدماتهم. وقد قدم السيد بدرو بونثى Pedro Ponce من جيّان على رأس كتيبة الفرسان، والسيد بالينتين دى كيروس Valentón de Quirós مع جموع المشاة. وكذلك فقد حضر من أنتقيرة ألبارو دى إسلا Antequera Alvaro de Isla- المأمور القضائى لتلك المدينة، وكبير الحجّاب غابرييل دى تريبينيون Gabriel de treveñón برفقة مجموعتين آخريين. كان قائد قوات لوشة هو نائب مجلس البلدية خوان دى ريبيرا، أما إيرنان كاريّو دى كوينكا Hernán Carrillo de Cuenca فكان قائد رجال الحامة، ودييغو دى أراندا Diego de Aranda قائدًا على من قدموا من قلعة يحصب.

إضافةً إلى ذلك فقد أتى جموع من النبلاء البارزين من غرناطة وأراضيها، وكتائب الرمّاحين النظاميين تحت إمرة غونثالو تشاكون Gonzalo Chacón ودييغو دى ليّبا Diego de Leiva، وأمهر فرق الرماة بالمدينة وأكثرها عددًا بقيادة لويس مالدونادو Luis Maldonado وأخيه غاسبار مالدونادو دى سالاثار Gaspar Maldonado.de Salazar وصل ماركيز مونديخار فى تلك الليلة إلى بادول برفقة كل أولئك الرجال؛ وقبيل دخوله إلى البلدة، خرج إليه رجالات الموريسكيين البارزون، ورجوه ألا يبيت الجنود فى منازلهم؛ وعرضوا عليه أن يمدوه بالزاد والحطب اللازمين لإعاشتهم فى المعسكر؛ لأنهم

كانوا يخافون بشدة من الاضطرابات والقلاقل التى سيثيرونها. على الرغم من أن الماركيز كان يروق له إرضاؤهم، فلم يكن بمقدوره تلبية مطالبهم؛ لأن الطقس كان قارس البرودة، والجنود لم يتقاضوا رواتبهم بعد، وهم ليسوا معتادين على العمل الشاق، وكان قضاؤهم الليلة فى المعسكر يبدو لهم أمرًا بغيضًا للغاية. فقال للموريسكيين إن عليهم أن يتحلوا بالصبر؛ لأن الحملة لن تمكث سوى ليلةً واحدة؛ وإنه سيحتاط للأمر حتى لا يصيبهم أى مكروه. وهكذا تمكن من طمأنتهم إلى حد ما، فرضوا بإيواء الجنود واستضافتهم فى منازلهم خلال تلك الليلة؛ بيد أنهم لم يقضوها بأسرها فى هدوء، للأسباب التى سنسوقها لاحقًا.

الفصل الثانى

كيف أغار الموريسكيون على رجالنا الموجودين فى دوركال، أثناء وجود ماركيز مونديخار فى بادول، وألحقوا بهم الهزيمة.

فى الليلة ذاتها التى وصل فيها ماركيز مونديخار إلى بادول، أغار المسلمون على موضع دوركال - الذى يبعد عن ذاك الأخير بفرسخ - وكان القائد لورينثو دى أبيلا يعسكر فيه مع القوات التى أرسلتها القرى السبع الكائنة فى نطاق غرناطة، إضافةً إلى القائد غونثالو دى ألكانتارا، الذى كان يترأس خمسين من الفرسان. لم تبق أنباء ذاك الهجوم طى الكتمان، على النحو الذى يحول دون تنبه القائدين إليها؛ حيث أمسك جنود ذلك المعسكر باثنين من الجواسيس، فى ذات اليوم الذى غادر فيه ماركيز مونديخار غرناطة. كان أحدهما يقوم بتخريب معدات المطحن، الذى يُطحَن به القمح اللازم لإطعام الجنود. أما الآخر فكان ابنًا لأبوين مسيحيين؛ وكان قد تربى منذ صغره بين الموريسكيين، ونشأ معتاداً على حيلهم؛ فبعث به ميغيل دى غرانادا شابا - قائد المسلمين بالوادى - ليتجسس على حجم القوات الموجودة فى ذاك الموضع، وليتعرف على ما قاموا به من احترازات.

لم يشأ الجاسوس الذى قبض عليه فى المطحن أن يعترف بشىء، على الرغم من أن جنودنا قطعوه إربًا أثناء تعذيبه. أما الغلام، فقد تمكن عالم اللاهوت أوخيدا - قسيس نيغوبليث - وكان قد أمر بالقبض عليه، بإقناعه لكى يدلى باعترافاته - ما بين الخوف والرجاء - ؛ فأقر بالحقيقة كاملة، وبالهدف الذى أرسلوه من أجله. فقال إن أهالى لاس ألبونيويلاس، حينما أرادوا أن يقوموا بالثورة، استعرضوا قواتهم؛ فألفوا

بين صفوفهم مائتى رام وقواس، وثلاثمائة رجل من حملة السيوف والأسلحة التقليدية. وأضاف أن الموريسكيين الغرباء والثوار الجبليين قد أحرقوا الكنيسة؛ الأمر الذى ندم عليه الأهالى، بعد أن رأوا أن موريسكيى البيّازين والغوطة هادئين ولم يثوروا. عندما رغب القوم فى العودة إلى ديارهم -اقتداءً بالنصح الذى أسداه إليهم حاجب البلدة - أعاقهم الثوار الآخرون عن القيام بذلك. حيث أخبروهم أن الوقت الآن لم يعد مواتيًا لإبداء الأسباب أو طلب العفو؛ لأن المسيحيين لن يصدقوهم، أو يضعوا فيهم ثقتهم ثانية، بعد أن شاهدوهم يعلنون عن قيام الثورة. وقالوا إن القائد شابا قد جمع أعدادًا غفيرة من المسلمين، من مواضع أورخيبا، والوادى، وموتريل، وشلوبانية - من بينهم ستمائة رام - وتوجه بهم للإغارة على دوركال، ولا بد أنه سيبادر بالهجوم على ذلك الموضع فى الليلة التالية.

توجه القائد لورينثو دى أبيلا فى ذاك المساء إلى ماركيز مونديخار، ليخبره بالتحذيرات التى وصلت إلى علمه، حاملاً الغلام برفقته. لمّا أمسى الظلام حالكًا، رجع إلى مقر إقامته تحسبًا لوقوع أى أحداث؛ وما إن وصل إلى هناك حتى أمر بإذاعة قرار يقضى بألا ينفصل أى من الجنود عن الركب باتجاه المنازل، وأن يحتشدوا جميعًا فى الكنيسة - التى تمكث بها مجموعة الحراسة. وكذلك فقد قام بتدعيم أطقم الجياد وتعزيز نوبات الحراسة، وزاد نوبات حراسة أخرى فى المواضع التى تراءى له أنها بحاجة إليها. أما القائد غونثالو دى ألكانتارا، فقد وضع سلاح الفرسان - الذى كان مقيمًا بمارخينا Margena، وهو أحد الأحياء القريبة من دوركال - فى حالة تأهب؛ وأمر الفرسان بمجرد استشعارهم حمل الثوار للسلاح، بالتوجه من مقر إقامتهم نحو أحد الحقول المنبسطة الكائنة أمام ساحة الكنيسة، وهم ينفخون الأبواق. لأن ذاك الرجل المحنك أدرك التأثير الذى سيسفر عنه مواصلة تحفيز الجنود، وكذا التثبيط من عزيمة الأعداء، لدى مشاهدتهم إياهم ينفخون الأبواق أثناء مسيرتهم باتجاه موضع معسكر ماركيز مونديخار؛ لأن ذلك يعنى بالضرورة أن النجدة قادمة فى الطريق.

وهكذا أخذ القائدان الجسوران فى الاستعداد واتخاذ الاحتياطات؛ أما شابا - الذى لم يغمض له جفن - فقد جاء يحث الخطى مستتراً بظلمة الليل. عندما بات على مقربةٍ من المعسكر، أعاد توزيع الستة آلاف رجل الذين كانوا بصحبته إلى قسمين: فقام هو بذاته برفقة ثلاثة آلاف رجل باحتلال هوة عميقة للغاية - ما بين بادول وحى مارخينا- يتعين على قوات الإغاثة المرور بها؛ أما الثلاثة آلاف رجل الباقون، فقد أرسلهم مع قادة آخرين، حتى يغير بعضهم على المعسكر من ناحية الطريق الموصلة بين مارخينا ودوركال؛ بينما يهاجم الباقون من مكان آخر يقع باتجاه الجبل. وقد أمرهم بمحاولة تجنب السير فى الأراضى المنبسطة قدر استطاعتهم، حتى لا ينال منهم الفرسان. وهكذا وصلوا قبيل بزوغ الفجر بساعتين، وكان الجو آنذاك قارس البرودة، وكان الظلام حالكًا. استشعرت دورياتنا مجيؤهم - وإن تأخروا فى ذلك - وشهر الرجال أسلحتهم. لَمَّا كانوا متأهبين جميعاً، فقد اقتحم الكل المكان من الخلف؛ ولم يكن خوف المُهَاجِمين أقل من خوف المُدافعين.

فيما يتعلق بالقائدين - اللذين كانا حينئذ يتفحصان الاستعدادات - فقد قدما فيما بعد للتصدى لذلك الهجوم، إلا أنهما سرعان ما ألفيا نفسيهما وحيدين. فقام لورينثو دى أبيلا بمجابهة من أتوا لاقتحام الموضع من أحد الحقول الكائنة أمامه بسيف واحد وترس مدور؛ وحملهم على التراجع، محدثًا بهم العديد من القتلى والجرحى؛ وعندما جُرِحَ بنصل أحد السهام - الذى اخترق فخذيه - تم إنقاذه وحمله إلى الكنيسة. أما غونثالو دى ألكانتارا، فقد تمركز ناحية الطريق المؤدى إلى مارخينا، ليتصدى لجمع غفير من الأعداء جاء من تلك الجهة. كان الاضطراب السائد بين صفوف رجالنا فى تلك الآونة عظيمًا، حتى أن الرجاء والتهديد كليهما لم يفلحا فى حملهم على مغادرة الكنيسة؛ كما لو كانت قسوة تلك الليلة وإظلامها تناصر الأعداء. ولإدانة ذلك التخاذل، فأنا لن أتوانى عن ذكر قيام العدد منهم - بمجرد سماعهم دوى الأسلحة المهاجمة - بإلقاء السلاح والاحتماء داخل الكنيسة، بعد أن اتخذوا من غيرهم دروعًا لهم، لكى يتفادوا الموت قبلهم على أيدى المسلمين. وكذلك فلن يصمت قلمى عن

تناول شجاعة القائدين المغوارين والجنود الذين واجهوا العدو للذود عن الجميع، وبادروا بالهجوم – وإن لم يقدموا على ذلك دفعةً واحدةً – فلم يحدثوا أثرًا كبيرًا، لأن الأعداء كانوا يفدون من نواح عديدة؛ فقاتل كل منهم على حدة، ودفعوا ببسالتهم الكبيرة خطرًا محدقًا. لأن المسلمين، عندما جابهوا كل تلك المقاومة، وأحسوا بالقصف المدوى للأسلحة، لم يعتقدوا أنها صادرةٌ من الأناس الفارين، وإنما من الاحتياطات التى اتُخِذَت للتصدى لهم؛ فخفت وطأة هجومهم، حتى إنهم بدأوا فى التراجع.

فى تلك الآونة شاهد القائد ألكانتارا السيد لورينثو دى أبِلا –رغمًا عما به من جراح – يسعى لإخراج الرجال من الكنيسة، وتحميسهم على القتال؛ فرجع إلى موضعه بصحبة اثنى عشر أو ثلاثة عشر جنديًا –حيث لم يتبعه أكثر من ذلك – لأن الأعداء عاودوا الهجوم عليه. كما هرع إليه ثمانية من رجال الدين: أربعة رهبان من مذهب القديس فرانثيسكو، وأربعة من اليسوعيين؛ وأخبروه أنهم يودون الموت من أجل المسيح، وهو ما لم يجرؤ الجنود على فعله. بيد أنه لم يجبهم إلى مطلبهم، ورجاهم أن يقوموا بعملهم، ويسارعوا لدعم الأناس الموجودين على رؤوس الشوارع المؤدية إلى الساحة، لكى لا يخذلوهم.

عندما أدرك الموريسكيون أنه لا يوجد من يتعقبهم، عادوا للإغارة على الموضع؛ وكان يتقدمهم رجلٌ يحمل لواءً فى يده، ظل يسير حتى وصل إلى ميدان يجاور نزلاً موجودًا بالمنطقة الشمالية. لمّا لم يجد الرجل أحدًا هناك، أخذ يطلق صيحاتٍ عاليةً باللغة العربية، قائلاً لزملائه أن يدنو؛ لأن المسيحيين قد لاذوا بالفرار. فلحقه غونثالو دى ألكانتارا، والتحم مع المسلم حامل الراية، فطعنه بالسيف فى كتفه الأيسر، وأرداه قتيلاً على الأرض؛ لكن تكالب عليه آخرون قدموا من الخلف، وكادوا يفتكون به، لولا الأسلحة التى كانت بحوزته، والدرع الذى كان يلبسه. مع ذلك كله كالوا له طعنةً بالسيف فى وجهه، وألقوه على الأرض على ظهره، وانهالوا على ذراعيه ضربًا. عندئذ لم يتخاذل عن إنقاذه جندى مخلص – من أهالى أنتقيرة – يدعى خوان رويث كورنيخو Juan Ruiz Cornejo؛ فهب لنجدته، ولم يتح للمسلمين الإجهاز عليه؛ وبات يدافع عنه،

بسيفٍ في يده، ودثارٍ ملفوفٍ على ذراعه؛ فقتل رجلين من المسلمين، كانا أكثر من تولى إيذاءه.

أعقب ذلك وقوف غونثالو دى ألكانتارا على قدميه، وعودته للقتال بحمية أشد. فلحق به أحد الرهبان الفرانثيسكيين يحمل مسيحًا مصلوبًا في يده، وقال له: "أي أخي، انظر هنا إلى المسيح عيسى، فهو مخلصك". بينما هو يريه إياه ويخبره بتلك الكلمات وغيرها، ألقى عليه أحد أولئك المارقين حجرًا في ضربةٍ شديدةٍ ألقته على الأرض؛ ههنا اشتعل غونثالو دى ألكانتارا حنقًا، لدى رؤيته ذاك الفعل الكريه؛ فانقض على أولئك الملحدين كالليث، وتمكن – بصحبة صديقه المخلص كورنيخو – من قتل المسلم الذى قذف الحجر، وغيره ممن أرادوا الذود عنه. ورفع المسيح المصلوب من على الأرض، ووضعه بين يدى الراهب؛ وأقسم على ذاك الرمز المقدس أن يُمضى سيفه في كل من يعترض طريقه من أولئك الملحدين خلال تلك الليلة. لم يمض القائد ألونسو دى كونتريراس Alonso de Contreras تلك الأوقات لاهيًا، حيث كان معسكرًا في ذاك الموقع مع كتيبة من أهالي غرناطة؛ بيد أن الأحداث لم تتخذ مجرى سعيدًا معه – كما كان الحال مع باقى القادة – حيث أصابه نصل سهم أثناء دفاعه عن مدخل أحد الشوارع، وتوفى على أثره. وبالمثل فقد توفى كريستوبال ماركيث Cristóbal - Márquez أحد فرسان غونثالو دى ألكانتارا – وهو يقاتل في بسالة.

كان رجالنا في تلك الآونة في مأزق، وأمسوا بحاجةٍ إلى دعم معنوى، يمكّنهم من تحمل استمرار حملة الأعداء عليهم. عندئذ بدأ الفرسان – الذين تأخروا في الخروج من مقر إقامتهم – في الدخول إلى الشوارع؛ لكنهم لم يستطيعوا اختراقها؛ لأن المسلمين كانوا فيها؛ فحاولوا بأقصى ما لديهم، إلى أن خرجوا إلى ساحة القتال وهم ينفخون الأبواق. كان ذلك الإنذار مهمًا، وأتى بنفع عظيم على رجالنا؛ لأن شابا –الذى كان في الهوة الكائنة ما بين دوركال وبادول – حَسِبَ أن فرسان ماركيز مونديخار قد عبرت من الجهة الأخرى، أو أنهم كانوا يعسكرون في دوركال؛ فشرع يصيح في رجاله بصوت عال قائلاً: " إلى الجبل، إلى الجبل، فإن الخيول تغير علينا!" وهكذا عادوا

جميعًا على أعقابهم. بحلول ذاك الوقت كانت نوبات الحراسة بالمعسكر قد أحست بدوى طلقات البنادق فى دوركال، وقد تم تنبيه أنطونيو مورينو - الذى كان يتفقد الأمور - إلى ذلك؛ فقام بنقل تلك الأنباء إلى ماركيز مونديخار. حينها توقع الماركيز مسار الأمور، على ضوء الروايات التى كانت قد نُقلَت إليه، فأمر بحشد القوات على وجه السرعة؛ وبادر بإرسال غونثالو تشاكون فى المقدمة على رأس الرمّاحين التابعين لكتيبة كونت تينديًا - وكانوا تحت إمرته. ثم تبعه ذاك الأخير مع فرقة الفرسان الأخرى، عقب إصدار أوامره إلى كل من أنطونيو مورينو وإيرناندو دى أوورنيا - اللذان يترأسان قوات المشاة - لكى يسيرا دون إحداث أى صوت مع باقى الكتائب ليتوجها إلى دوركال.

إبان قدوم ماركيز مونديخار كان المسلمون قد غادروا المحل بالفعل، وكان رجالنا يشعرون بشىء من الخوف فى باحة الكنيسة؛ بينما بات البعض يتباهى بالنصر -ممن لا يستحقون المجد أو الثواب. قُتِل عشرون جنديًا فى تلك الليلة، وكان هناك العديد من الاصابات -وإن لم تحدث جميعها بأيدى العداء. حيث قام الجنود بجرح وقتل بعضهم بعضًا، أثناء خروجهم فى ظلمة الليل، وتقابلهم فى الطرقات؛ وكان أولئك ممن ظلوا دون هدى خارج المعسكر، حيث لم يرغبوا فى الانضمام إلى أى من الألوية. عندما حضر ماركيز مونديخار إلى دوركال، أثنى بشدة على صنيع القادة، وأمر بنقل المصابين إلى غرناطة لمعالجتهم. وقد مكث فى ذلك الموضع طيلة أربعة أيام، لانتظار القوات التى تفد إليه، والمؤن والذخيرة التى أرسلها كونت تينديًا من غرناطة؛ حيث تراءى له ألا يدخل إلى البشرات إلا وهو على أتم استعداد.

عاد القائد شابا إلى بوكيِّرة شبه محطم؛ لأنه خسر مائتى مسلم. أما ابن أمية، الذى كان فى انتظاره لكى يُتبِع تلك الهجمة بحملات أكبر، فقد رغب فى قطع رأسه لمّا رآه على هذا النحو؛ بيد أن شابا اعتذر إليه، قائلاً إنه قد سحب القوات لأنه اعتقد أن فرسان ماركيز مونديخار قد عبروا الهوة من ناحيةٍ أخرى، وأنهم قد تمركزوا فى البقاع السهلية؛ وإن ما قام به، كان سيقدم على فعله أى رجل عاقل، إزاء سماعه لكل

تلك الأبواق من الجهة التى يوجد بها العدو. ولم يجانب المسلم الصواب كليًا' لأنه إضافةً إلى الأبواق المصاحبة لكتيبة غونثالو دى ألكانتارا - التى جاءت من مارخينا - كان ماركيز مونديخار قد أمر رجلين أن يتقدما ببوقين، وأن يقوما بنفخهما بمفردهما وهما فى الطريق إلى دوركال، حتى يدرك رجالنا أن النجدة فى الطريق إليهم. بما أن شابا لم يشاهد عبور أى خيول فى ذاك المساء، فقد اعتقد أنها جميعًا موجودة فى دوركال؛ وأراد أن يتراجع فى الوقت الملائم قبل أن تهاجمه. لأن الثلاثة آلاف رجل الذين كانوا برفقته، كانوا غير أكفاء وغير مسلحين؛ فما كانوا يحملون سوى مقاذف لإلقاء الأحجار وبعض الرماح الصغيرة؛ ولو كان الفرسان قد باغتوهم فى أراض سهلية، لم يكونوا ليتركوا أيًا منهم على قيد الحياة.

الفصل الثالث

كيف خرج أهالى ألمرية لاستطلاع قوات المسلمين الذين تمركزوا فى بنى حبوس، وكيف انقلبوا عليهم فيما بعد وألحقوا بهم الهزيمة.

حشد مسلمو المنطقة، التى تضم بين جنباتها مدينة ألمرية، صفوفهم فى عجالة لكى يتوجهوا لمحاصرتها. إلى جانب من ذكرنا من قبل أنهم تمركزوا فى بنى حبوس، فقد تجمع رجال آخرون فى معبر لا بالما la Palma – على مقربة من هناك – للانضمام إليهم. عندما أراد السيد غارثيا دى بيّارّويل أن يقوم باستطلاع تلك الحشود، ومشاهدة موضع تجمعهم، والأماكن التى يمكن أن يقتحموا منها المدينة؛ خرج من ألمرية فى أربعين من الجنود الرماة، وثلاثين من الفرسان، بينما أبقى على المشاة فى الخلف. حتى يتسنى له القيام بتلك المهمة فى الأجواء المتأرجحة بين السلم والحرب، دون أن يشك المحيطون به فيما ينتويه؛ بعث فى البداية نائبًا فى مجلس بلدية تلك المدينة يدعى خوان دى بونتى Juan de Ponte، ليستفسر عن الداعى وراء اضطرابهم، ويستكشف هويتهم، والنسق الذى أقاموا عليه معسكرهم.

وصل النائب حتى مسافة قريبة للغاية من المسلمين، مما أتاح له سؤالهم عما أراد وهو مطمئن؛ لأنه ذهب بمفرده. عقب سماعهم لقوله، أجابوه فى خيلاء أن عليه العودة إلى قائده، وإبلاغه أنهم سينبؤنه بالأسباب التى يود معرفتها فى صباح اليوم التالى، بعد أن يقوموا برفع راياتهم فى ساحة ألمرية. فرد عليهم ونصحهم بأن يضعوا أسلحتهم، وأن يكتفوا بخدمتهم لجلالة الملك، وسيكون ذلك الأمر أكثر فائدة لهم؛ فبدأ

بعضهم فى سبه، ونعته بالكلب اليهودى، قائلين إن مملكة غرناطة قد باتت بأسرها فى قبضة المسلمين، ولم يعد بها سوى الرب ومحمد.

رجع خوان دى بونتى إلى القائد بذلك الرد، فعاد ذلك الأخير ليبعث رسالةً أخرى مع السيد ألونسو مارين Alonso Marín – المعلم بالمدرسة – الذى يكن له الموريسكيون فى تلك البقاع وافر الاحترام؛ فقام باستدعاء بعض رجالات الموريسكيين البارزين، ورجاهم أن يتخلوا عن طريق الهلاك الذى يسلكونه. عندما أدرك أن إسدائه النصح لهم يعد مضيعةً للوقت، تراجع عن ذلك؛ أما السيد غارثيا دى بيّارّويل، فقد أخذ فى الاقتراب منهم بقدر المستطاع على النحو المتبع فى الحروب، ليستطلع قدرات رماتهم. لمّا كانوا لا يمتلكون سوى أسلحة نارية قديمة، وبندقتين أو ثلاث بنادق؛ فطن إلى أن بوسعه الإغارة عليهم قبل أن يفد إليهم المزيد من الرجال، خاصةً بعد أن استطلع موقع معسكرهم؛ وهو على الرغم من مناعته، فإن هيئة الحصن ذاته كانت تبدو فى صالح رجالنا أكثر من الأعداء. فإذا كانت وعورة الدرب – الذى يتعين صعوده – تحول دون إمكانية الوصول إلى الأعداء دفعةً واحدةً، فهى نفسها تُعَد دفاعًا يعوق الأعداء عن الهبوط مجتمعين للهجوم على المسيحيين. كان هناك مدخلٌ آخر على الجهة اليمنى يمكن النفاذ إليهم عبره، وكان موجوداً عند رابية مجاورة لبنى حبوس؛ وهو مكان تمتاز تضاريسه بالوعورة، ويصعب على الخيل أن تطأه، كما أنه ليس أمراً سهلاً بالنسبة للراجلين.

وهكذا أسرّ القائد تلك الفكرة، وقال للمسلمين إنه ينتظرهم فى المدينة؛ على الرغم من أنه كان يرى أنهم أناس وضيعة، ولن يفوا بعهدهم. وقد عاد فى ذلك اليوم إلى المدينة، فألفاهم يترقبون وصوله وهم حريصون على معرفة ما فعل؛ لأن الجميع كان يخشى قدره بالفعل، على الرغم من قلة عدد الجنود الذين كانوا برفقته. إزاء معرفة السيد غارثيا بيّارّويل لتلك الحقيقة، صمم على مباغتة المسلمين بهجوم ليلى مفاجىء فى الساعة الرابعة من فجر ذات الليلة. إلا أنه لم يجرؤ على إعلان ذلك – كما أكد لنا لاحقًا – لأنه كان يخشى معارضة القائمين على شئون القضاء وأعضاء مجلس البلدية؛

لما ينطوى عليه ذلك الأمر من تعريض المدينة للخطر فى حال حدوث أى مكروه. لكى يتمكن القائد من الخروج دون أن يفطنوا إلى وجهته، ترك جاسوساً بين الحقول خارج أسوار المدينة، بعد أن أمره أن يُشعِل نيراناً ضخمةً لدى انتصاف الليل؛ وهكذا عندما تشاهد نوبات الحراسة بالمدينة النيران، ستقوم بحمل السلاح.

وقد أُتيحت له الفرصة، وتحقق له ما أراد؛ لأن المدينة بأسرها حملت السلاح لدى رؤيتها لتلك النيران؛ فهب هو أيضاً لتلبية الإنذار، وقام بتدعيم فرقة الحراسة. عقب انتصاف الليل قال السيد غارثيا إنه يرغب فى الخروج لمعرفة طبيعة ذاك الإنذار، وإذا ما كان هناك مسلمون يجوبون الحقول. فأمر الجنود بارتداء القمصان فوق ثيابهم، لكى يتمكنوا من تمييز بعضهم فى ظلام الليل؛ ثم غادر ألمرية قبيل بزوغ الصباح برفقة مائة وخمسة وأربعين رامياً مترجلين، وخمسة وثلاثين فارساً –يضمون عدداً من النبلاء والفرسان. وقد ظل لفترة يعبر أثناء مسيرته من جهة إلى أخرى، لكى يتسنى له تجنب الحقول والأماكن التى اعتقد أن الأعداء قد يكون لهم جواسيس أو نوبات حراسة بها. ثم دنا من النهر، وعندما تراءى له أن الوقت قد حان، أوقف فرسه، وأشار لمن معه بالتوقف. لمّا تجمعوا سوياً، صارحهم بما ينتويه؛ وبالسبب الذى دعاه لكتمان السر؛ وبمدى أهمية إلحاق الهزيمة بالمسلمين الموجودين ببنى حبوس، قبل أن يلحق بهم أولئك المتمركزون فى مارشال دى لاباليا وغيرهم – ولابد أن تكون أعدادهم غفيرة. وقال إنه يعرف أولئك الأعداء، وهم أناس غير مسلحين، وعددهم أقل مما يُخيَّل إليهم؛ أما الموضع الذى يشغلونه، فهو يضرهم أكثر مما ينفعهم؛ وإن جنوده لو قاموا بما يتعين عليهم فعله، فليتأكدوا أن النصر سيضحى حليفهم بمساعدة الرب، وأن ذلك هو الحل ومصدر الأمان لأهالى ألمرية؛ وأن المشاركين فى تلك الغارة سيظفرون بغنائم المسلمين مكافأة لهم على براعتهم.

كانت سعادة رجالنا غامرةً لدى معرفتهم بالهدف الذى جاءوا من أجله، وتحركوا جميعاً فرحين فى طريقهم إلى بنى حبوس؛ بعد أن بالغوا فى امتداح ذلك الرأى. وقد قبضوا فى الطريق على ثلاثة موريسكيين، عرفوا منهم كيف أن المسلمين ما زالوا

بالموضع الذى تركوهم به؛ وقد حملهم ذاك الأمر على حث الخطى، وعندما أمسوا على مقربة منهم تفرق الجمع إلى قسمين. فسلك خوليان دى بيريدا - Juli?n de Pereda حامل راية المشاة - طريقًا خفيًا على الجهة اليمنى، وذلك برفقة مائة من الرماة؛ وتمركز فى الربوة المتاخمة لبنى حبوس -حيث يعسكر الأعداء. وكان قد تلقى أمرًا بأن يلتحم معهم من الأمام، ثم يخرج مندفعًا بقوة، ليسلمهم إلى سانتياغو Santiago. على أن يقوم القائد الآخر، الذى يترأس باقى الجنود، بوضع الرماة فى الطليعة، والفرسان فى مؤخرة الركب؛ وقد أخذ يتقدم نحو الأعداء من الطريق المباشر، حتى تمكن من اكتشاف مقر إقامتهم بعد أن انبلج ضوء الفجر.

بحلول ذاك الوقت كانت دوريات المسلمين قد اكتشفت أشباح الجنود الذين يصحبون بيريدا؛ ولمّا كان الجنود يسيرون منحنين، ويلبسون القمصان؛ ومن جانب آخر لم يكن القوم يرتابون فى إغارة مسيحيين عليهم من تلك الناحية؛ فقد حسبوا أنهم أغنام يجلبها نفر من المسلمين لإطعام المعسكر؛ فدفعهم ذلك إلى الاطمئنان، إلى أن شاهدوا مقدم الخيول من الجهة الأخرى. عندئذ شرعوا فى الصياح، وقرع الطبول الصغيرة فى عجالة، وشهروا أسلحتهم جميعًا. إلا أنهم كانوا متحيرين - لكونهم أناس من غير خبرة- فلم يكونوا على دراية بما هو أفضل بالنسبة لهم: الخروج إلى القتال، أم اللجوء إلى الدفاع. آنذاك ترك السيد غارثيا دى بيّاروِيل الفرسان فى المؤخرة، ليكونوا بمثابة قذيفة منطلقة من بين الأشجار التى تصل إلى الربوة ذاتها، ولذا فقد كانت أغصان أشجارها تعيق أثر السهام والحجارة التى تُلقَى من عل. كما جعل المشاة أسفل الأشجار، ثم أخذ يعدل من وضعهم، حتى أودعهم أسفل بعض الحوائط الترابية، التى توجد بالقرب من السياج الذى يحيط بإحدى السواقى والصخور المدببة الكائنة فى تلك البقعة - حيث يمسى الطريق ضيقًا، فيحول أيضًا دون إمكانية نزول المسلمين دفعةً واحدةً لمباغتة القوات. فى بادىء الأمر، أظهر المسلمون حميةً وقاوموا بعض الشىء؛ ولكن عندما أبصروا فرقة الرماة الأخرى وراء ظهورهم، باتوا يظنون أن سائر الأعشاب، والأشجار، والأحجار تعج بالمسيحيين؛ فأغشى عليهم، كما يحدث مع الأشخاص الجبناء.

لم تنقص إبراهيم الغازى شجاعة عند تلك المرحلة، وكان وقتها يشغل منصب القائد والجندى فى آن واحد؛ فأخذ يقاتل بذاته، ويستحث الجنود بالترغيب والوعيد. حينما أدرك أن ذاك كله دونما جدوى، ترجل عن فرسه، واقتحم صفوف المسيحيين حاملاً رمحًا بيده؛ وقد قام بمآثر مجيدة، حتى إن البعض أداروا له ظهورهم. بيد أنه أثناء ملاحقته أحد الجنود الذين فروا من أمامه، اعترض طريقه جندى آخر أكثر حماسًا، فأطلق عليه نيران سلاحه وأرداه قتيلًا. بموت قائدهم، انتهى الأمر بالمسلمين القلائل الذين كانوا يقاتلون إلى الانهزام، فباتت ثقتهم فى أقدامهم تفوق وثوقهم بأيديهم؛ وقام رجالنا بمطاردتهم، ومات كل من استطاعوا اللحاق به -حيث لم يبق رجالنا على حياة أى منهم. لم يُؤسَر سوى سبعة مسلمين، كانوا قد مكثوا فى أحد الكهوف، وعثر عليهم بعض الجنود مختبئين.

اقتصرت الخسائر فى جانبنا على جرح جندى واحد، وقتل حصانين؛ أما المسلمون، فقد خسروا كل ألويتهم. وقد رجع السيد غارثيا دى بيّارّويل فى ذاك اليوم إلى مدينة ألمرية بتلك المحصلة، وبرأس إبراهيم الغازى - الذى خلفه فى موقعه دييغو بيريث الغورّى. وقد استقبله فى فرحة غامرة كل من: الأسقف، وكافة القساوسة، والمواطنين -صغارًا وكبارًا. وحمدوا جميعًا الرب القادر على ذاك الحدث السعيد، الذى أطاح بآمال المسلمين، وفتح الطريق أمام العديد من الأحداث الجيدة. وإذا ما وضعنا فى اعتبارنا ما جرى، فقد أوفى إبراهيم الغازى بما وعد: لأن رأسه وألويته قد شوهدت فى ساحة ألمرية فى الساعة التى أخبر بها.

حينما بدا للسيد غارثيا أن بيريدا قد اتخذ موقعه، لم ينتظر أكثر من ذلك؛ وأمر الرماة أن يطلقوا نيران أسلحتهم - بناءً على أوامره - دفعةً تلو الأخرى. لم يكن الرماة قد أطلقوا سوى دفعتين من الذخيرة، وكانوا قد شرعوا فى توجيه الدفعة الثالثة، حينما بادر مائة جندى بالقيام بغارة شجاعة من جانبهم. ما إن سمع السيد غارثيا دى بيّارّويل دوى الأسلحة النارية، حتى حمل المشاة على الصعود أعلى الرابية، يتبعهم الفرسان؛ فعبروا جسرًا صغيرًا ضيقًا للغاية كان يعلو الساقية.

برز فى ذاك اليوم كل من السيد لويس دى روخاس ناربابيس Luis de Rojas Narváez- رئيس شمامسة تلك الكنيسة المقدسة-، وعالم اللاهوت دييغو مارين – المعلم بالكنيسة-، والقس باريديس Paredes، والسيد ألونسو حابس بينيغاس Alonso Habiz Venegas، وبدرو مارتين دى ألدانا Pedro Martín de Aldana، وخوان دى أبونتى Juan de Aponte، وفرانثيسكو دى بيلبيس Francisco de Belvis، وكثيرين غيرهم من حملة السيوف والجنود المتطوعين. كان ذاك السيد المدعو ألونسو حابس بينيغاس نائبا فى مجلس بلدية ألمرية، وأحد مواطنى المملكة؛ بيد أنه كان مميزًا عن الأهالى فى المعاملة والخلق، وكان الموريسكيون يكنون له بالغ الاحترام، لما كان معلومًا من نسبته إلى سلالة الملوك المسلمين لغرناطة. ورغبةً فى تنصيبه ملكًا أثناء تلك الثورة، كان ماتيو الرامى قد كاتبه حول ذلك الأمر، ورجاه من جانبه أن يقبل؛ فما كان منه إلا أن حمل الخطاب وتوجه إلى مبنى البلدية، فقرأه على نواب المجلس والقائمين على شئون العدالة، وأخبرهم أن إغراء الملك أمرٌ ليس بالهين. ومنذ ذاك الحين عاش مريضًا على الدوام، لكنه ظل خادمًا وفيًا لجلالة الملك؛ وبات يسعى لتعزيز شهرته ببذل الجهد وطيب الخصال، بدلاً من الجشع والاعتماد على أسماء الطغاة. عُلِم فيما بعد من الرجال السبعة الذين حملوا أسارى كافة تفاصيل محاولة احتلال غرناطة، وأمورٌ أخرى عديدة أثناء تعذيبهم؛ فى نهاية الأمر، منحهم نوينا الحبل الذى كانوا يبحثون عنه، وصدر الأمر بشنقهم على حافة أسوار المدينة. لنعد الآن إلى ماركيز مونديخار، التى تركناه فى مقر إقامته فى دوركال.

الفصل الرابع

كيف أخذ جيش ماركيز مونديخار فى التزايد، وكيف استسلم المسلمون فى لاس ألبونيولاس

فى تلك الآونة بدأ أهالى مدن أندلوثيا فى غرناطة بحشد جموعهم، ووصل السيد رودريغو دى بيبيرو Rodrigo de Vivero – المأمور القضائى لكل من أبدة وبياسة – مع الأناس القادمين من تلك المدينتين، عندما كان ماركيز مونديخار بمقر إقامته فى دوركال. وقد قدمت من أبدة ثلاث مجموعات تضم ثلاثمائة من المشاة، ولواءان يضمان خمسة وسبعين فارسًا ؛ أما قوام القوات الآتية من بياسة، فكان تسعمائة وثمانين راجلاً – مقسمين على أربع فرق –، وأربعة ألوية بكل منها ثلاثون فارسًا . وكانوا جميعًا أناسًا بارعين ومتمرسين جيداً على أمور القتال؛ وقد مثلوا بحق الصفوة وطبقة النبلاء فى كلا المدينتين، وعبروا عن قدرهم وبراعتهم الشخصية، التى أظهروها فى الحروب الخارجية والأهلية.

كان القادة كلهم من الفرسان وعمد القرى ونواب مجالس البلدية. كانت فرق مشاة أبدة تحت إمرة كل من: السيد أنطونيو بورثيل Antonio Porcel، والسيد غارثى فيرنانديث مانريكى Garcí Fernández Manrique، وفرانثيسكو دى مولينا Francisco de Molina؛ أما الفرسان فكان يقودهم السيد خيل دى بالنثيا Gil de Valencia، والسيد فرانثيسكو بيلا دى لوس كوبوس Francisco Vela de los Cobos . هذا وقد ترأس كتائب مشاة بياسة كل من: بدرو ميخيًا دى بينابيديس Pedro Mejía de Bena-vides، وخوان أوتشوا دى نابارّيتى Juan Ochoa de Navarrete، وأنطونيو فلوريس

دى بينابيـديس Antonio Flores de Benavides، وبالتـاسـار دى أراندا Baltasar de Aranda- الذى كان قائدًا على فرقة الرماة التى يسمونها سانتياغو. أما الفرسان فكان على رأسهم خوان دى كارباخال Juan de Carvajal، ورودريغو دى مندوثا Rodrigo de Mendoza، وخوان غاليوتى Juan Galeote، ومارتين نوغيرا Martín Noguera، وأخيراً القائد دييغو باثكيث دى أكونيا Diego Vázquez de Acuña - الذى كان يحمل راية المدينة. لم يرجع إلى غرناطة -من بين كل أولئك الأشخاص الذين ذكرناهم- سوى كتائب فرسان بياسة الأربع، وفرقة أبدة التى كان يترأسها فرانثيسكو دى مولينا؛ لأن كونت تينديًا - الذى كان يقوم بمهام القائد العام بدلاً من والده الماركيز- أمرهم بالعودة لتولى حماية المدينة، إلى حين وصول قوات أخرى. أما القوات المتبقية، فقد توجهت جميعًا إلى المعسكر؛ وقد رافقها ما يربو على ستين فارسًا متطوعًا من الرجالات البارزين فى تلك المدن، كانوا قد قطعوا تلك الرحلة على نفقتهم الخاصة، حتى أمرهم ماركيز مونديخار بالعودة إلى ديارهم.

عندما رأى موريسكيو لاس ألبانيوبلاس أن جيشنا آخذ فى الزيادة، وقد كانوا - من حسن الطالع - يخشون أن يمسوا أول من تصب تلك الجموع جام غضبها عليهم؛ ارتأوا أن يهدأوا من حفيظة ماركيز مونديخار ويتذللوا إليه. حمل تلك الرسالة الحاجب بارتولومى دى سانتا ماريا - الذى قلنا من قبل إنه كان ينصحهم بعدم القيام بالثورة - وقد كان مقبولاً لدى الماركيز، ومتفان فى خدمته؛ فأتى تنفيذاً لأوامره ليعالج معه ذاك الشأن. فتضرع إليه لكى يشمل أولئك الأهالى بالرعاية الملكية، ويدخلهم تحت كنفها، ويصفح عنهم؛ وأكد له أنهم إذا كانوا قد ثاروا، فهم لم يقوموا بذلك طواعيةً، بل أرغمهم على ذلك الثوار الجبليون والمسلمون الغرباء، وإنهم جميعاً نادمون، وصدورهم مثقلة بتلك الفعلة. ولمّا كان الماركيز يرغب فى تأمين ظهره، قبل التقدم إلى الأمام، فقد سره إجابتهم إلى مطلبهم؛ وأمره أن يخبرهم من جانبه أن يهدأوا، ويحاولوا الإبقاء على ولائهم - لدى عودتهم إلى منازلهم - وألا يقبلوا بوجود الأشرار بينهم، وعليهم أن ينبهوه إلى كل ما يدور هناك؛ لأنهم إذا ما قاموا بما يتعين عليهم بوصفهم رعايا

أوفيـاء لجلالة الملك، فـإنه بدوره سيقف بجوارهم ولن يسـمح أن يصيبهم أى مكروه. رجع المسلمون إلى ديارهم فى أعقاب ما دار، وأرسل الحاجب فى طلب كاهن الموضع -وكان ما زال فى بادول - لكى يعود إلى كنيسته، ويقيم شعائر القداس. بيد أن الرجل لم يمض وقتًا طويلاً بين تلك الأناس الدنيئة، التى كانت قد بدأت فى تأنيب أنفسها، خاصةً بعد أن وبخهم على ما اقترفته أيديهم فى الأشياء المقدسة.

فى نهاية الأمر أراد الكاهن أن يعود إلى بادول، حيث لم يكن يشعر بالطمأنينة، فمنحه الحاجب حاشيةً من الأصدقاء لترافقه إلى هناك. لطالما أحسن ذاك الموريسكى التصرف تجاه المسيحيين؛ وعندما قدم المقاتلون فيما بعد إلى بادول، قام هو والموريسكيون المقيمون فى تلك القرية بنقل عشرين حملاً من الدقيق المعجون فى كل أسبوع، على سبيل المساهمة فى إطعام الجنود. كما قدم الرجل تنبيهاتٍ مهمة وحقيقية حول ما يعمله المسلمون؛ بيد أنه لم يتمكن قط من المحافظة على ولاء ذاك الشعب. وهو لم يكن يستحق الميتة التى منى بها لاحقًا، أو وقوع أسرته فى الأسر(١). وقد تسبب جنودنا الحانقون فى ذاك الأمر؛ لأنهم لم يحسنوا تقدير تلك الجهود، وذلك على النحو الذى سيرد ذكره فيما بعد أثناء تناولنا للدمار الذى أحدثه السيد أنطونيو دى لونا Antonio de Luna فى ذاك المكان. أما الآن فسوف نتطرق إلى ما كان يقوم به ماركيز بلش فى تلك الآونة.

(١) مع تبنى مارمول وجهة نظر السلطات الرسمية، فإنه لا يستطيع تجاهل أخطاء وقع فيها المسيحيون (المراجع).

الفصل الخامس

كيف قام ماركيز بلش - بناءً على التحذيرات التى وصلت إليه - بحشد جموع من الناس، واقتحام مملكة غرناطة لقهر الثوار

كان الإنذار الذى أرسله سيادة رئيس المحكمة بدرو دى ديثا، إلى جانب الخطر الشديد والحاجة الملحة اللذين تمثلا فى مدن ألمرية وبسطة ووادى آش - وكانت جميعها تطالب بإغاثتها - الداعى وراء تعجيل ماركيز بلش بالخروج؛ من دون انتظار وصول أمر بذلك من جلالة الملك يتيح له الدخول إلى مملكة غرناطة بجيش مكتمل الصفوف. فلم يلق بالاً إلى ما ينص عليه البند التاسع عشر من القاعدة الثالثة من القانون الثانى Segunda Partida، والذى ينص على أنه يتعين على الرعايا الانصياع إلى ملوكهم إبان قيام الثورات؛ كما أراد أن يثبت مدى حكمة من قام باختياره، ووضع ثقته فيه لتولى مهمة على ذاك القدر من الخطورة والثقل. عندما أدرك الماركيز أن المواطنين العاديين الذين معه قليلى العدد، وأنه لن يتسنى له إحداث تأثير كبير من خلالهم - على ضوء المنحنى الذى تسلكه الأحداث - وأن جمع الرجال من مملكة مرسية أمر يستلزم وقتًا؛ بعث نداءً عاجلاً إلى أصدقائه ورعاياه، وأنذر بعض القرى المتاخمة التى تقع بمحاذاته ليمدوه بالنجدة. فأرسل أخاه السيد خوان فاخاردو Juan Fajardo إلى لورقة Lorca، وريثما جاء ذاك الأخير بأهالى تلك المدينة - مغامراً بممتلكاته الخاصة، لأنه لم يكن لديه أوامر بالانفاق من أموال جلالة الملك - قام الماركيز بالتزود بالمؤونة والذخيرة و وسائر الأمور الضرورية.

وقد بادر الأشخاص بالوفود إليه على وجه السرعة، حتى إنه بحلول يوم الثانى من شهر يناير كان لدى الماركيز فى بلدته -بلش البلانكو- ألفان وخمسمائة راجل وثلاثمائة فارس. وقد قدم من لورقة ألف وخمسمائة من رجال المشاة، ومائة فارس، وكانت صفوفهم منتظمة للغاية -كما هو الحال دائمًا مع أهالى تلك البلدة. كان قادة تلك الحشود هم: خوان ماتيو دى غيبارا Juan Mateo de Guevara، وبدرو إليثيس Pedro Helices، وألونسو ديل كاستيّو Alonso del Castillo، ومارتين دى لوريتا Martín de Lorita، ولويس بونثى Luis Ponce. وقد أتى من كاراباكا Caravaca القادة أندريس دى مورا Andrés de Mora، وإيرناندو دى مورا Hernando de Mora، وبدرو مارتينيث Pedro Martínez على رأس ثلاثمائة راجل وعشرين فارسا؛ كما جاء خوان لوبيث Juan López من موراتايّا Moratalla بصحبة مائتين من رجال المشاة وثلاثين فرسًا؛ وكذلك فقد حضر من هللين Hellín بابلو بينيرو Pablo Pinero ومعه مائة وخمسين من المشاة وخمسة عشر فرسًا. إضافةً إلى ذلك فقد قدم فرانثيسكو فاخاردو Francisco Fajardo من ثيخين Zehegín برفقة مائتين وخمسون راجلاً وعشرين فرسًا، أما مولا Mula فقد جاء منها دييغو ميلغاريخو Diego Melgarejo يصحبه مائتان من المشاة.

خرج الماركيز على رأس كل أولئك الأناس المنتقين والمتطوعين، إلى جانب القوات التى خرجت من كل من: بلش البلانكو، وبلش الروبيو، وليبريّا Librilla، والحامة تحت إمرة القائد إيرناندو دى ليون Hernando de León؛ وكان ذلك فى اليوم الرابع من شهر يناير لعام ١٥٦٩، فى أعقاب تنبيهه لباقى مواضع تلك المملكة من أجل اللحاق به. وقد توجه إلى دياره فى مارخين Margen ليقضى معسكره هناك تلك الليلة، وذلك فى مكان يسمى بوكا أوريا Boca Oria. وقد لحقه فى ذلك اليوم فى الطريق خايمى برادو Jaime Prado، وفرسان آخرون من أوريولا - المدينة الكائنة بمملكة بلنسية - وكانوا قد قدموا للمشاركة معه فى تلك الحملة. وقد وصل إلى هناك بريد من سيادة الرئيس بدرو دى ديثا، يحوى رسائل يخبر فيها الرئيس الماركيز أن ما قام به كان

احترازًا جيدًا للغاية؛ وأنه سيحاول حشد أكبر عدد ممكن من الرجال؛ وسيبذل جهده لكى يكون ذاك الأمر على نفقة الأهالى، كما جرى الأمر فى بقاع أندلوثيا، ريثما يصل القرار الذى يُنتَظَر صدوره من جلالة الملك. بيد أن ماركيث بلش -بعد أن فطن إلى إنه لن يمكن إعالة الجموع على ذاك النهج، وأنه سينتهى به الأمر إلى الإنفاق من أمواله الخاصة- تعلل بالإنذارات التى ترد إليه كل ساعة؛ وظن أنه لن يقدّم لجلالة الملك فى ظل الظروف الحالية، خدمةً أفضل من سد الحاجة الملحة. فلم ينتظر وصول أى أوامر أخرى، وخرج فى اليوم التالى عازمًا على إنقاذ مدينة ألمرية وتدعيمها؛ لأنه لا يعرف الطريق المؤدية إلى بنى حبوس؛ بيد أن هناك من زعم أنه بادر بالخروج فى عجالة، ليكون قد أضحى داخل مملكة غرناطة وقت صدور القرار.

عندما وردت إليه لاحقًا أنباء حول الدمار الذى يحدثه أولئك المسلمون، وعقب أن ألفى المدينة بمنأى عن المخاطر، أراد أن يُغير على قلعة خيرغال. فسلك أعالى ذاك الوادى، وتوجه ليبيت تلك الليلة فى أولولا، وهى إحدى قرى نهر المنصورة. وقد وصل إلى المعسكر السيد خوان إنريكيث Juan Enríquez قادمًا من بسطة على رأس مائة رجل - ما بين فارس وراجل. فى صبيحة اليوم التالى غادر القائد مقر إقامته ذاك، وعبر أعلى جبل فيلابريس، فى أجواء قارسة البرودة؛ انهمرت خلالها الأمطار وهبت رياح الشمال الباردة، التى يخترق صقيعها عظام الرجال والخيول؛ وسار مسافة سبعة فراسخ فى طرق الرعاة التى تتخلل جبالاً شديدة الوعورة والانحدار، حتى أمّ مدينة تابيرناس. وقد مكث بها حتى يوم الثالث عشر من شهر يناير لكى ينال الجنود قسطًا من الراحة؛ كما أنه كان ينتظر أوامر جلالة الملك، والقوات التى كان يتعين قدومها من مملكة مرسية - طبقًا لما أخبرنا[٢] به. كان بقاؤه فى ذاك الموضع من الأهمية بمكان، لأن مسلمى المقاطعة لم يجرؤوا على القيام بالثورة أثناء وجوده، كما حدث لاحقًا.

---

(٢) مرة أخرى يقول مارمول إنه يعتمد على شهود عيان. (المراجع)

لم يلق دخول ماركيز بلش إلى مملكة غرناطة الاستحسان، خاصةً لدى من لا يكنون له مودة كبيرة؛ على الرغم من أن العامة، ومن كان يسوؤهم وجود المسلمين، سروا بها. حيث ظنوا أنه سيبيدهم جميعًا بحد سيفه، ولن يقتصر على إخضاع الأماكن الثائرة مثل ماركيز مونديخار. من هنا ظهرت آراء مختلفة بين النبلاء، فصنفه البعض على أنه امرؤ سيئ [٣]، بينما عدّه آخرون يضطلع بخدمة جليلة. وقد دامت تلك المنافسة طيلة فترة الحرب: فكان كلما يفرح أحد الفريقين، يحزن الآخر؛ والعكس صحيح، وذلك وفقًا لما يقدم عليه هذان التياران، اللذان يغاليان أو ينتقصان من قدر أفعاله كما هو الحال دائمًا عندما يسيطر الحقد أو البغضاء على الأجواء. وأسوأ ما في الأمر كان وصول تلك الروايات شديدة التباين إلى جلالة الملك وأعضاء مجلسه الملكي، وهو ما أسفر عن تضارب في القرارات التي كان يتوجب اتخاذها.

(٣) كان موقف النبلاء ضد إلحاق الضرر بالموريسكيين، فقد كانوا يمثلون بالنسبة لهم أيدي عاملة رخيصة. (المراجع).

الفصل السادس

كيف حاصر مسلمو سند وادى آش حصن قلهرة، وإنقاذه على يد بدرو أرياس دى أبِلا.

عقب تسليم خوان دى لا تورّى من كان بحصن قلهرة من الموريسكيات إلى أزواجهن، وآبائهن، وإخوانهن – كما أسلفنا –؛ تجمّع فى يوم الملوك[٤] العديد من الثوار الجبليين ومسلمو البشرات مع نظرائهم فى سند وادى آش، وهبطوا من الجبل، فى ستة وعشرين لواءً مشهراً وعدد كبير من الرجال المسلحين بالبنادق، وهم يطلقون صيحات الحرب. وقد اقتحموا قلهرة، وأطلقوا سراح الثوار الجبليين الذين كانوا أسارى لدى القائد مولينا دى موسكيرا، دون أن يلقوا أى مقاومة؛ ثم قاموا بمحاصرة الحصن مع ما يربو على ثلاثة آلاف رجل. وقد بادروا بالهجوم على الحصن، دون أن يضيعوا وقتًا، فأحرزوا تقدمًا كبيرًا؛ حتى أنهم ثقبوا بعض حوائط السور، ونفذوا عبرها فى حماسة شديدة؛ فاستولوا على المواشى والأمتعة التى كانت به، دون أن يتمكن المسيحيون من التصدى لهم. دام ذاك الحصار ثلاثة أيام استمر فيها القتال بالأسلحة والبنادق على الدوام، وإن كان عن بعد.

فى تلك الآونة أمر القائد خوان دى تورّى بإرسال إشارات دخانية خلال النهار، وإشعال نيران ضخمة أثناء الليل. كما أطلق نيران المدفعية، حتى يتسنى لمدينة وادى

(٤) هو احتفال أصله وثنى ويتعلق بالملوك السحرة، ويوافق ٦ يناير من كل عام. (المراجع).

آش – الكائنة على ضفاف النهر، والتى تبعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب – إغاثته. فهمت المدينة ما يجرى، وحشدت صفوفها لتدبر أمر النجدة. على الرغم من تباين الآراء بين أعضاء المجلس البلدى، فقد استند المأمور القضائى بدرو أرياس دى أبلا إلى موقف ذوى الحمية الشديدة. حيث غادر وادى آش فى ثامن أيام شهرينابر ، ليصل إلى قلهرة فى ذات اليوم، وذلك على رأس من استطاع تجميعهم، وكانوا ثلاثمائة راجل وستين فارسًا؛ بالإضافة إلى الفرسان والمواطنين من النبلاء، الذين طالما ازدانت بهم تلك المدينة، والذين تسلحوا بالهمة أكثر من القوة، نظرًا لضآلة عددهم مقارنةً بأعداد الأعداء.

من ناحية أخرى، لمّا أبصر المسلمون مقدم قوات النجدة، تركوا منازلهم وشكلوا جميعًا حشدًا كبيرًا، وخرجوا لملاقاتهم عند حافة الربوة الذى يقع عنده الحصن، لكى يقطعوا على رجالنا مدخل الطريق. وقد تراءى لهم أنه موضع آمن لكونه شديد الوعورة ويصعب على الخيول ارتياده، بيد أن الأمر لم يكن كذلك، حيث ألفوا وراء ظهورهم أحد أبراج الحصن الكبيرة، الذى اكتُشِفَ وجودهم منه وأُطلِقت عليهم نيران البنادق، كما قُذفوا بعدد من المدافع الصغيرة. وقد مكثوا هناك فى انتظار مجىء القوات من المدينة، وأثناء سجال الرماة مع طليعة المقاتلين، قام من كُشفت ظهورهم جراء نيران البرج بهجر مواقعهم. وهكذا اختل نظام هؤلاء وأولئك، نظرًا لعدم خبرتهم وقلة تمرسهم، ولاذوا جميعًا بالفرار فى فوضى كبيرة صوب الجبل، حيث لن يتسنى للخيول اللحاق بهم. وقد بادر فوج منهم باقتحام القرية، فأضرموا النيران فى الدور، وأحرقوا الكنيسة؛ بينما التجأ فوج آخر إلى أحد الجبال المقابلة للحصن من ناحية البشرات، حيث أضحوا بمأمن. لكنهم تكبدوا خسائر كبيرة، لأن الفرسان وعددًا من الجنود الذين تمكنوا من ملاحقتهم، استطاعوا القضاء على مائة وخمسين مسلمًا، وجرح أعداد تفوق ذلك الرقم بكثير. أسفر ذاك الانتصار عن فك الحصار عن الحصن، وعودة بدرو أرياس دى أبيلا فرحًا وظافرًا إلى وادى آش، حيث استُقبِل بحفاوة كبيرة. وكان قد أبقى القائد ميّادو Mellado برفقة مجموعة من الرماة وقدر من الذخيرة داخل الحصن، تحسبًا لمعاودة المسلمين محاصرته.

الفصل السابع

يتناول الإجراءات التى اتخذها كونت تينديًا لتوفير المؤونة اللازمة لجيش والده الماركيز.

عقب مغادرة ماركيز مونديخار لغرناطة، أرسل كونت تينديًا - المكلف بالتزود بشتى الأمور اللازمة للقتال - إلى القرى التى تدخل فى إطار تلك المدينة، مطالبًا إياها إمداده بخمسمائة مقاتل؛ وقد قام بوضعهم فى حصن الحمراء، نظرًا لنقص أعداد الرجال الموجودين بداخله. كما أنه قام بأمرين مهمين وضروريين للغاية للتأكد من تزويد المعسكر بما يكفيه من مؤونة، فضلاً عما كان بحوزة الحراس النظاميين. حيث قسّم مواضع الغوطة إلى سبع مناطق، وأمر كل واحدة أن تقوم بإعداد عشرة آلاف رغيف مخبوز من النوع الذى يزن رطلين من أجل المعسكر، وذلك فى اليوم المخصص لها؛ على أن تبيع كل منها ذاك القدر بالمقابل الذى يتراءى لها، دون أن يحدد الكونت سعرًا محددًا. وهكذا سيضحى فى المعسكر عشرة آلاف رغيف بشكل يومى، وهو ما سيفى باحتياجاته على نحو كاف. أما الإجراء الثانى فكان استدعاؤه كافة بائعى التجزئة بالمدينة، ممن يتاجرون فى المواد الغذائية، فجمع ما يربو على مائة، وأمرهم أن يحمل كل منهم إلى المعسكر - تبعًا للسلعة التى يتاجر فيها - شحم الخنزير، والجبن، والسمك، و النبيذ، والخضروات، وغيرها من المواد الغذائية. ومن أجل أن تطيب نفوسهم إلى القيام بذلك، فقد أمر بإقراضهم ستة آلاف دوقية لمدة أربعة شهور، وسمح لهم أن يشتروا بها ما يحلو لهم من بضائع، دون أن يتعرضوا لمغبة التهريب؛ حيث كان قد صدر قرارٌ بأن كل من يُحضِر مسروقات من المعسكر تُؤخَذ منه، ويُعَاقَب . وقد أسهمت تلك الإجراءات ، جنبًا إلى جنب مع المؤونة التى عثر عليها الجنود فى الأماكن التى يرتادونها، فى تأمين المؤن التى تسد حاجة المعسكر.

الفصل الثامن

يتناول كيفية صدور الأوامر بإيواء المحاربين الوافدين إلى غرناطة فى بيوت الموريسكيين، والمشاعر التى انتابتهم حيال ذلك الأمر.

كانت أعداد الرجال الذين يفدون تباعًا من مدن وقرى أندلوثيا - التى كان ماركيز مونديخار قد قام بتحذيرها - آخذة فى التزايد، وغصت مدينة غرناطة بجموع الجنود والفرسان غير النظاميين، الذين قدموا للمشاركة فى الحملة على نفقتهم الخاصة. فلم يكن أمام كونت تينديًا، الحريص على القيام بما أوكل إليه، خيار أفضل من أجل إلهائهم وإسعادهم، سوى أن يأمر بإيوائهم فى منازل المسلمين ليبيتوا ويطعموا بها طيلة فترة بقائهم، أما الموريسكيون الذين لا يريدون أن يظل الجنود فى بيوتهم فعليهم تقديم مساهماتهم نقدًا؛ وقد أمر مأمورى الصرف المصاحبين للحملة أن يحفظوا ما يرد إليهم من أموال لاستخدامها فى وقت آخر، حيث لم يستبق بالمدينة سوى ما يلزم لتأمينها، وقام لاحقًا بإرسال ما تبقى من أموال إلى معسكر ماركيز مونديخار.

كانت تلك الترتيبات الخاصة بالإعاشة، التى بدأت فى تاسع أيام شهر يناير، هى جل ما يخشاه الموريسكيون. وكانت تعد أشد الإجراءات التى مورست تجاههم تعسفًا وجورًا(٥). وقد أسفوا لذلك الأمر أيما أسف، ولم ينبع ضيقهم من التكلفة التى

(٥) هذه من المرات القليلة التى يتحدث فيها مارمول عن ظلم وقع على الموريسكيين. (المراجع).

سيتحملوها، بقدر ما استثار ذلك غيرتهم الشديدة على نسائهم وبناتهم، وحرصهم على متعتهم الخاصة. لمّا استشعر القوم تلك المأساة فى ديارهم، توجه كبار رجالات البيّازين برفقة نائبهم العمومى إلى كونت تينديّا عينه، فلما رأوا قلة حيلته إزاء الأمر، قصدوا سيادة الرئيس بدرو دى ديثا، وأخذوا يصيغون أسبابًا كثيرة ويوضحون له مساوىء استمرار تلك الإعاشة، قائلين إنهم سيواصلون القيام بنوبات الحراسة التى تكلفوا بها فى البيّازين، وإذا لزم الأمر فإنهم يزيدون نوبات أخرى على نفقتهم، على أن يقيم المحاربون الآخرون القادمون من خارج المدينة فى الكنائس والمنازل المهجورة – كما فعل ماركيز مونديخار من قبل – أما الموريسكيون فسيمدونهم من دوائرهم بالأسرة والأطعمة. لما تراءى لسيادة الرئيس إمكانية القيام بما يقولون، أرسل خورخى دى بايثا إلى كونت تينديّا ليخبره بما ألقاه الموريسكيون على مسامعه، وما اقترحوه فى شأن إعاشة المقاتلين مستقبلاً لأن الحرب قد طال أمدها[٦].

حمل خورخى دى بايثا تلك الرسالة إلى كونت تينديّا، وكان يرافقه أولئك الموريسكيون، الذين أوضحوا له بعبارات كسيرة مدى الضرر الذى لحق بهم، وأضافوا إلى ذلك ما قد يطرأ لاحقًا من مضار جديدة، كتناقص شعور نسائهم وبناتهم بالأمان، وخشيتهم على أنفسهم وأملاكهم، إذا ما قام أحد الجنود بإشهار الأسلحة ليلاً بسوء نية، ليسرق منازلهم؛ وأن كل تلك الأمور ستتوقف عندما تصدر الأوامر بإعاشتهم على النحو الذى كان متبعًا من قبل. بيد أن كونت يتنديّا أجابهم بأنه لا بد من إقامة المحاربين فى منازل آهلة بالسكان وليست مهجورة، وأنه يتعين عليهم إرضاءهم وإحسان معاملتهم، لكى لا يرحلوا. وأنه من اللازم تزويدهم بالمأوى

(٦) من المهم أن نذكر هنا أن عمد القرى –فى ذلك العصر– كانوا ملزمين بإعاشة القوات التى تمر بمناطقهم، وقد تناول الأدب الإسبانى هذا الموضوع خاصةً فى مسرحية "عمدة ثالاميا" لكل من لوبى دى بيغا وكالديرون دى لاباركا. (المراجع).

والاحتياجات؛ لأنه ما من سبيل لاعاشتهم سوى بتلك الطريقة. وأن تحقيق مصلحة جلالة الملك تستدعي ألا تكون للموريسكيين حرية استضافة مسلمين غرباء لديهم، أو عقد اجتماعات سرية فى منازلهم؛ بل إنها تقتضى وجود الجنود معهم على الدوام، لكى يتسنى لهم رؤية وإدراك ما يقوله ويفعله عشرة آلاف موريسكى موجودون بالبيّازين، وقادرون على حمل السلاح. وأضاف إنه إذا ما أحدث الجنود أية قلاقل، فإنه فى تلك الحالة سيعالج ذاك الوضع بمعاقبة المذنبين(٧). ثم صرَفَهم من عنده حزانى ومستائين للغاية بعد أن أعطاهم هذا الجواب. ومنذ ذلك الوقت أقام المحاربون جميعًا فى بيوت الموريسكيين، ولم يتعرضوا لعقوبات شديدة، فأدى ذلك الوضع إلى جشع الجنود وانتهاكهم للشرف.

استمرت ترتيبات الإعاشة فى المضى قدمًا، حتى أن الكثير من الموريسكيين الحانقين والمستنفَذين ندموا على عدم حملهم للسلاح حينما دعاهم ابن فرج لذلك. كما أرسل آخرون إلى ابن أمية يخبرونه أنه إذا ما اقترب من المنطقة الجبلية برفقة بعض الرجال، أثناء عدم وجود ماركيز مونديخار فى غرناطة، فإنهم سينضمون إليه. فى تلك الآونة، استخدم كونت تينديًا امتيازات منصبه كقائد عام، حينما أدرك الحاجة لوجود من يحفظ النظام، فنصّب سبعة قادة لتلك المهمة، ومنحهم الصلاحيات التى تخول لهم القيام بها. فرسّم لورينثو أبيلا مفوضًا وقائدا للجند، بعد أن شفى من الاصابات التى منى بها فى دوركال، وأمره أن يقيم فى البيّازين، ليسيطر على القلاقل التى يثيرها الجنود هناك. أعقب ذلك بفترة قصيرة صدور أوامر من جلالة الملك لتوجه كل من السيد أنطونيو دى لونا – سيد فوينتيدوينيا Fuentidueña -، والسيد خوان دو مندوثا سارمينتو Juan de Mendoza Sarmiento إلى غرناطة لتولى شئون الحرب بها. وقد

(٧) كان من الشائع عدم احترام الجنود لعادات البيوت التى تئويهم وكان أهل القرى – مسيحيون ومسلمون – يتضررون من تلك التصرفات، بل إن بعضهم كان ينتقم لشرفه بنفسه. مسرحية "عمدة ثالابيا" تتناول هذا الموضوع. (المراجع).

قام كونت تينديًا بتولية السيد أنطونيو دى لونا شؤون المحاربين الراجلين والفرسان المقيمين فى بقاع الغوطة؛ أما السيد خوان دى مندوثا، فقد أبقى عليه فى غرناطة، إلى أن صدرت إليه الأوامر لاحقًا لكى ينضم إلى المعسكر، عقب عودته إلى أورخيبا، وهو ما سيرد ذكره فى موضع لاحق.

الفصل التاسع

يتناول كيفية احتلال جيشنا لمعبر تابلاتى

بعد أن توفَّر لماركيز مونديخار عدد كاف من الرجال يمكّنه من التقدم إلى البشرات، انطلق من دوركال فى صبيحة يوم الأحد الموافق التاسع من شهر يناير، يرافقه الجيش بأكمله فى طريقه إلى موضع تابلاتى، عقب انتظام صفوفه وأركانه – وكان الثوار قد جمعوا صفوفهم فى ذاك الموضع – ظنًا من الماركيز فى إمكانية حماية المعبر الموجود به. وكان قد احتشد هناك ثلاثة آلاف وخمسمائة موريسكى تحت إمرة قادتهم: خيرونثيّو Gironcillo، والناقوس Anacoz، والرانداتى el Randati، وغيرهم من الأشرار ومثيرى الفتنة، الذين اكتسبوا احترام أولئك الرجال، لا لتمرسهم فى فنون القتال أو لشخصياتهم ذات النفوذ الطاغى، ولكن لما اقترفوه من فظائع وانتهاك لحرمة المقدسات على مدار تلك الثورة.

أقام ماركيز مونديخار ليلته تلك فى موضع التشيتى، الذى يقع على مسافة فرسخين من دوركال، وكان مهجوراً آنذاك؛ إلا أن المعسكر بات على أهبة الاستعداد، لكون المحل معرضًا لوقوع أية أحداث. استكمل الماركيز مسيرته صوب تابلاتى فى الصباح الباكر ليوم الاثنين، وهو يعلم أن الأعداء فى انتظاره. كانت تلك القرية صغيرة، وليس بها سوى مائة بيت، لكنها اشتهرت فى تلك الآونة نظراً للهزيمة التى منى بها السيد دييغو دى كيسادا هناك، وكذلك لوجود المعبر المؤدى إلى الجسر، الذى يمر أعلى هوة سحيقة ووعرة. وليس للقرية مدخل آخر من جهة أخرى إلا على مسافة أربعة فراسخ، عبر قنطرة تقع عند قرية الساقية على نهر ميليخيش Melejix.

كان المسلمون قد خربوا بنية الجسر، بما لا يدع مجالاً لعبور خيولٍ أو مشاةٍ إلا بصعوبة بالغة ومخاطرة شديدة. حيث لم يبقوا إلا على عدد من الألواح الخشبية القديمة على أحد الجوانب، ويبدو أنها كانت سقالة البناء فيما قبل، وكان فوقها ممر ضيق للغاية، كان يتسع بالكاد لعبور رجل بمفرده. وحتى ذاك الممر الضيق الذى تركوه لينفعهم ويمكنهم من قضاء حاجتهم والعبور إلى الناحية الأخرى، قاموا بتخريب دعائمه وإخفائها على النحو الذى يهوى به إلى الأسفل إذا ما حُمّل عليه أكثر من شخص واحد. وكانت الهوة سحيقة جداً فى تلك المنطقة، حتى أن النظر إليها من أعلى كان يُفقِد المرء توازنه ويُذهِب بصره.

كان ماركيز مونديخار قد احتاط جيداً لتلك المهمة، على الرغم من عدم معرفته بتخريب الجسر. فحمل رجاله على هيئة صفوف: يتواجد الرجال المسلحون بالبنادق على أطرافها، والجنود الكشّافون فى المقدمة لاستطلاع الميدان. وصلت طلائع الجيش بذاك التشكيل إلى المشارف المطلة على ذاك المحل والجسر الكائن به دون أن تبلغه، حيث اكتشفوا وجود المسلمين على الجهة الأخرى، وكثرة الرايات البيضاء والملونة التى تبرز ما بين السهول، على ما يبدو رغبةً فى الدفاع عن المعبر. فأمر الماركيز بتحرك جموع المسلحين الموجودين على أطراف السرية إلى الطليعة، وتقدم بها إلى الأمام، مخلفًا الفرسان وراءه فى الميدان، لكى يستنفر وجود القائد العام الحمية أكثر فى نفوس الجنود المتحمسين.

مع وصول القائد إلى موضع الجسر والهوة، شرع الرماة من كلا الجانبين فى التراشق. لم يقو المسلمون على تحمل سيول قذائفنا العارمة، ففزعوا؛ لأنهم حسبوا أنه ما من رجل جسور سوف يجرؤ على التقدم لعبور الجسر المهدم، الذى كانوا يُعِدّونه دفاعًا كافيًا لصد قواتنا. مع ذلك فقد قام راهب مبارك من أتباع مذهب الأب فرانثيسكو الساروفيمى، يدعى القس كريستوبال دى مولينا Crist?bal de Molina، بالمضى قدمًا صوب المعبر الخطير، حاملاً صليبًا فى يده اليسرى، وشاهرًا سيفه فى اليد اليمنى، وملتفًا برداء الرهبان حول خاصرته؛ وقد حمل ترسًا دائريًا على ظهره،

وهو يلهج مبتهلاً باسم المسيح المجيد. اعتلى المعبر فى تصميم، وأخذ يسلكه - فى جهد بالغ محفوف بالمخاطر - مرتكزًا فى بعض الأحيان على أطراف الألواح الخشبية أو دعامات الهيكل الخشبى، وفى أحايين أخرى على الأحجار والكتل الترابية التى تتهاوى تحت أقدامه، حتى عبر إلى جهة الأعداء، الذين كانوا يراقبون عن كثب ليشاهدون لحظة سقوطه. وقد تبعه فيما بعد جنديان جسوران. إلا أن أحدهما صادف حادثًا أليمًا، حيث انهار جزء من الأرض وأحد الألواح الخشببية تحت قدميه، فهوى إلى الأسفل وأخذ يدور فى الهواء أثناء سقوطه، حتى وصل إلى القاع بعد أن كان قد تقطع إربًا. أما الآخر فقد عبر، ولحقه رجال كثيرون، كل هذا دون أن يتوقف أيٌ من رماتنا أو المسلمون - الذين أسندوا أسلحتهم إلى ربوة قريبة أعلى الجسر - عن التراشق بالنيران. وفى النهاية حمل جنودنا على المسلمين، على نحو أجبرهم على التراجع أمام السيل العارم الذى صبه عليهم من يدركون أن النصر حليفهم.

فى أعقاب الظفر بالجسر والموقع بعد تكبد جيشنا لخسائر طفيفة، وكثرة الخسائر فى جانب المسلمين، جلب الجنود ألواحًا خشبية وأبوابًا، وشرعوا يصلّحون الجسر بالرماح الطويلة والأغصان والتربة، حتى تمكنت فى ذاك اليوم المركبات والخيول والمدفعية من عبوره؛ وقضى الجيش ليلته تلك فى الموقع. كان الرماة قد صبوا جام غضبهم فى ذاك اليوم على الأعداء، الذين بادروا بالهرب، حتى خلّفوا ما يربو على مائة وخمسين قتيلًا، وظلوا فى أثرهم إلى أن وصلوا إلى النهر الكائن فى الجهة الأخرى من لانخارون. وهنالك أدركوا أن من يلاحقونهم قليلو العدد، فانقلبوا عليهم وهم يطلقون صيحات حرب مدوية، وضيقوا الخناق عليهم، على النحو الذى دفعهم للجوء إلى المنازل الموجودة فى القرية. وإزاء شعورهم بانعدام الأمان هناك، أخذوا بعض الأوانى المملوءة بالمياه وبعض الأطعمة التى عثروا عليها، واحتموا بالمبانى القديمة لإحدى القلاع المهجورة، المقامة على صخرة عالية - حيث كان يوجد فى عهد آخر حصن البلدة - تحسبًا لاضطرارهم إلى الدفاع عن أنفسهم بين جدرانه المهدمة، لحين وصول قواتنا.

فى تلك الآونة كان ماركيز مونديخار مسروراً بذلك النصر، ولم تكن فرحته بوقوع قتلى بين صفوف أعدائه بقدر سعادته باحتلاله لذاك الممر، وهو عمل كفيل أن يمنحه المجد بوفاته فى ذلك اليوم، لولا أنه كان يرتدى درعًا قويًا، حماه من رصاصة بندقية كانت موجهة إلى صدره؛ حتى لا يلحق الخزى برماة الطليعة، ويحدث ما يعكر صفو انتصارهم. فأرسل الماركيز جنديًا نشيطًا بخاتمه إلى القائد الغرناطى كايثيدو مالدونادو Caicedo Maldonado – الذى كان يرافق القوات، يأمره بالانسحاب؛ وأصدر أوامره إلى القائد لويس مالدونادو حتى يؤمن له الطريق مع أربعمائة من الرماة. ومع اقتراب حلول الليل، تراجع المسلمون – الذين لا يحبون القتال فى الليل – إلى الجبال، وانصرف معسكرنا بأسره إلى محل المبيت.

الفصل العاشر

يتناول كيفية عبور قواتنا إلى لانخارون، ومنها إلى أورخيبا، وإنقاذها للبرج

قضى معسكرنا ليلته بأسرها فى تابلاتى، وقام بالعديد من نوبات الحراسة فى أرجاء الروابى المحيطة، لكون ذلك الموقع عرضةً لوقوع أحداث من قبل العدو. وفى يوم الثلاثاء الموافق الحادى عشر من يناير ، قفل ماركيز مونديخار عائداً إلى لانخارون، التى تقع على مسافة فرسخ ونصف على طريق أورخيبا، بعد أن ترك فى ذلك المعقل سرية من المشاة تحت إمرة بدرو دى أرويّو Pedro de Arroyo فى بلدة بوركونا Porcuna، حتى يتسنى للرجال والدوريات الذهاب والإياب فى أمان. فى ذاك اليوم قام رجالنا ببعض المناوشات الخفيفة مع الأعداء - الذين هبطوا من الجبل عندما شاهدوا تحرك الجيش- وحاولوا القيام ببعض العمليات مع جند المقدمة، إلا إنهم عاودوا التراجع صوب جبل يقع فى الجزء الشرقى من الطريق المباشر، كان حشد كبير منهم قد تجمع عنده، بغية الدفاع عن معبر يتميز بحدة تضاريسه ووعورتها، وكان لزاماً على رجالنا المرور به فى اليوم التالى.

كان المسلمون قد حصّنوا المعبر بوضع أحجار وصخور متناثرة على قمم وسفح الجبل المشرفة على الطريق، بغرض إلقائها فوق رؤوس المسيحيين أثناء صعودهم التبة. وكانت لدى ماركيز مونديخار رغبةٌ عارمةٌ فى إنقاذ برج أورخيبا، ولم يكن يرغب فى الانتظار ذاك اليوم؛ بيد أنه اضطُر إلى ذلك، لأن مؤخرة الجيش وصلت متأخرة، وكذلك فقد هطلت الأمطار وأضحى الطقس صعباً. إضافةً إلى ذلك، لم يكن الماركيز قد حزم أمره بشأن التقدم بما فى حوزته من رجال أو الانتظار إلى أن يأتى الجنود القادمون

من المدن. فبات ليلته تلك على مرأى من الأعداء، الذين احتلوا المعبر وأضرموا نيرانًا ضخمة فى الروابى المحيطة به، واكتفوا بدق طبولهم والعزف وإطلاق الصافرات، وإصدار صيحات عالية لإرهاب جنودنا المسيحيين - الذين باتوا فى حرص شديد حاملين أسلحتهم فى أيديهم.

فى الساعة الرابعة فجرًا وصل إلى خيمة السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس جندى قادمًا من برج أورخيبا، يحمل أنباءً عن دفاع المحاصرين بالبرج عن أنفسهم. وقبيل بزوغ صباح يوم الأربعاء، أرسل ماركيز مونديخار إلى ولده السيد فرانثيسكو دى مندوثا، يأمره أن يصطحب معه مائة فارس ومائتى رام من المشاة، ليسلك الطريق الأوحد الذى يمتاز بالوعورة وشدة الانحدار، حتى يتمكن من مباغتة الأعداء من خلف ظهورهم. على أن يرافقه بعض الجنود الممهدين للطريق، حاملين المعاول والأدوات ليوطئوه لهم؛ حيث رأى أنه أثناء وجودهم فى ذاك المكان المرتفع، سيلفون الأرض معدة للتوطئة.

كان الجو صافيًا فى ذاك اليوم، فانطلق الجيش بكتائبه فى أفضل إعداد وتنظيم، وفقًا لما تسمح به التضاريس؛ يتقدمه لواءان من الرماة، كانا يشغلان القمم العالية على الدوام: حيث يسير أحدها فى السلاسل الجبلية من اتجاه الروابى، بينما يحتل الآخر الناحية المواجهة للطريق الذى تسلكه القوات. وهكذا شرع رجالنا فى الالتفاف حول العدو، الذى ظل معلقًا لبرهة من الزمن ما بين الخوف والخزى، دون أن يحزم أمره إما بالانخراط فى القتال، أو ترك جيشنا ليعبر، وهو ما سيخول لهم قطع الطريق على دورياته وتعريضه للجوع. بيد أن أولئك الهمجيين الجهلة لم يحسنوا حتى تدبير ذلك، لأنهم حينما شاهدوا الخيول وقد صعدت - مستترةً بظلمة الليل - إلى موضع كانوا يظنون أن المشاة سيعجزون عن بلوغه، فطنوا إلى أنه ما من جبل - مهما بلغت وعورته- لن يتسنى لرجالنا توطئته. فقنطوا من تنفيذ أى من الخطتين، وعزموا على التماس درب آخر، فتراجعوا إلى أحشاء الجبال الوعرة، حيث سيعجز فرساننا عن إلحاق الأذى بهم؛ لكنهم لم يتمكنوا من القيام بذلك بالسرعة اللازمة، التى تحول دون

أن ينال الرماة ممن كان منهم فى مرمى أسلحتهم. فتركوا كلاً من المعبر والطريق خاليًا، ليمر جيشنا إلى أورخيبا، ويقضى ليلته تلك فى ألبسيط وسط فرحة عارمة من الجميع، خاصةً المحاصرين، الذين قضوا سبعة عشر يومًا يحاربون ليلاً ونهارًا فى ظروف مرهقة للغاية وشديدة الخطورة.

كان المحاصرون يعانون من نقص المؤونة، وكان الكثير منهم سيهلك من شدة الجوع، لولا بعض المسلمين من آباء وأزواج النساء اللواتى احتجزهن صاحب القلعة فى البرج، الذين أمدوهم بالماء والمواد الغذائية الأخرى خفيةً، فكانوا يضعون تلك المؤن ليلاً فى مواضع تمكّن المسيحيين من الحصول عليها. وكذلك فقد جُلِبَت لهم الذخيرةُ من موتريل؛ لأن ذخائرهم كانت ستنفد، لو لم يجازف جندى مقدام من أهالى أورخيبا يدعى خوان لوبيث Juan López بالذهاب لإحضارها. حيث استغل معرفته الوثيقة باللغة العربية[٨]، وارتدى ثياب المسلمين، ليخرج فى منتصف الليل خفيةً من البرج، ويعبر وسط معسكرهم، حتى بلغ بلدة موتريل، وأحضر على عاتقه كيسًا كبيرًا مملوءًا بالبارود، و كميةً من الرصاص، وحبلاً؛ مما مكّن مائة وستين روحًا مسيحيًا، إلى جانب خمسة من القساوسة، من الدفاع عن أنفسهم أمام أولئك الذئاب المسعورة.

حمد ماركيز منديخار الرب كثيرًا على ذاك الحدث السعيد وبعث برسالة تحوى الخبر. لم تكن السعادة التى سادت النفوس من وقعها تقل عن الفرحة بانتصار تابلاتى. وعندما تراءى للماركيز أن بحوزته ما يكفى من الرجال لتمهيد الطريق، كتب إلى السيد فرانثيسكو أورتادو دى مندوثا - كونت مونت أغودو Montagudo، وصاحب مدينة إشبيلية - لكى لا يبعث إليه برجال من تلك المدينة أو متطوعين من إشبيلية، أو جبل طارق، أو قرمونة Carmona، أو أوتريرا Utrera، أو شريش Jerez، الذين كانوا

---

(٨) هذا معناه أنه فى السنوات الأخيرة للوجود الموريسكى فى إسبانيا كان المسلمون لا يزالون يتحدثون بالعربية. (المراجع).

قد احتشدوا للمشاركة فى الحملة. وصلت تلك الرسالة إلى الكونت أثناء وجوده فى قلعة جابر Alcalá de Guadayra برفقة حامل راية إشبيلية خوان غوتيّريث تيّو Juan Gutiérrez Tello، يرافقهما ألفان من الرماة الراجلين جاءوا على نفقتهم لخدمة المدينة؛ كما حضر غونثالو أرغوتى دى مولينا Gonzalo Argote de Molina حامل راية أندلوثيا، بصحبة قادتها ورجال من أهلها. حينئذ قام الكونت بصرف الألفى رام القادمين من إشبيلية، وأمر غونثالو أرغوتى أن يتوجه مع رجال سريته ليركب على متن السفن التابعة للسيد سانشو دى ليّبا Sancho de Leiva لتجهيزها. ولم يكن أهل إشبيلية قد انضموا للحملة أثناء وجود ماركيز مونديخار، إلى أن صدر أمر جديد يرسل فى طلبهم، وهو ما سنتطرق إليه لاحقًا حينما يرد ذكره.

الفصل الحادى عشر

يتناول كيفية توجه ماركيز مونديخار إلى طاعة بوكيّرة، والاستيلاء عليها

عندما تنامى إلى علم ماركيز مونديخار، عن طريق بعض الجواسيس، أنباء عن قيام ابن أمية وابن جوهر بحشد كل من مسلمى البشرات، والرجال الذين انسحبوا من معبر لانخارون على وجه السرعة، للدفاع عن مدخل بلدة بوكيّرة، غادر ألباثيتى دى أورخيبا فى صباح اليوم التالى - الموافق الخميس الثالث عشر من شهر يناير - على الرغم من أن الجنود كانوا متعبين من الطريق؛ مخلفًا وراءه القائد لويس مالدونادو لتأمين ذاك المعقل، على رأس أربعمائة جندى، لكى يتسلم المؤونة والذخيرة التى سوف ترد إليهم من غرناطة، ويقوم بإرسالها إلى المعسكر.

كان الجيش الذى يترأسه ماركيز مونديخار يضم الكثير من الرجال الحاذقين جيدى التسلح. حيث انضم إليه العديد من الفرسان، الذين هجروا ديارهم، وقدموا لخدمة المعسكر على نفقتهم الخاصة، رغبةً منهم فى إنزال عقوبة رادعة بأولئك المتمردين، نظرًا لما اقترفوه من انتهاك لحرمة المقدسات؛ وأخذت رغبتهم تلك فى التنامى ساعةً تلو الأخرى، لدى رؤيتهم للحرائق والفظائع التى ارتكبها الأعداء فى المواضع التى يمرون بها. خرجت جموع المشاة فى ثلاث كتائب، وتمركز الفرسان على كلا الجانبين، على نحو يخول لهم الخروج للالتحام دون الإخلال بترتيب الجيش. وقد احتل ذراعا الرماة القمم الجبلية من كلا الجهتين، بينما جاءت سرايا جنود المعسكر الفرادى فى الطليعة لاستكشاف الطريق. على تلك الوتيرة كان جيشنا يسير بخطى هادئة وبطيئة، حينما لقيه أربعة فرسان من قادة قرطبة على رأس أربع فرق من أهالى

تلك المدينة: وهما فرقتان من الفرسان، وفرقتان من المشاة، كان كونت تينديّا قد أرسلهما من غرناطة. كانتا الفرقتان الأول تحت إمرة كل من سيادة القائد بدرو رويث دى أغوايو Pedro Ruiz de Aguayo والقائد أندريس بونثى Andrés Ponce، أما الفرقتان الأخريان فقد ترأسهما السيدان كوسمى دى أرمينتا Cosme de Armenta وفرانثيسكو دى سيمانكاس Francisco de Simancas.

سرّ ماركيز مونديخار كثيرًا لمجيء أولئك الرجال، وواصل مسيرته. على الرغم من أن الجميع كانوا يحسبون أن هدف الماركيز هو الذهاب لطرد المسلمين من المواضع الحصينة التى التجأوا إليها، فإنه لم يكن يرغب آنذاك سوى فى احتلال موقع منيع ومريح ليعسكر به على مقربة من تلك الطاعة حيث بدا له أن ذلك سيتيح له البقاء مطمئنًا، وسيمكّنه من التزود بالمؤن، وكأنه ما يزال فى ألباثيتى دى أورخيبا. كما أنه يستطيع أن يشن غارات لمضايقة الأعداء من هناك؛ لأنه كان يرى أن اقتحام تلك الأراضى يستدعى توافر أعداد أكبر من الجنود. ما إن قطعت الكتائب مسافة ثلاثة أرباع فرسخ، لتصل إلى سهل يدعى فخار على Faxar Ali، حتى ألفوا المسلمين - الذين تخلّوا عن المعابر والبقاع الحصينة التى كانوا يحتلونها - وقد أعدوا ثلاثة كمائن لاستقبال جيشنا فى الشعاب الجبلية الضيقة. فلمّا تراءى للأعداء أنهم قد أحكموا نصب شباكهم، خرجوا لملاقاة ذراعى الرماة الموجودين فى المقدمة؛ وقد تصدوا للفرقة التى تحتل أعلى نقطة فى تصميم بالغ، مما استلزم تدعيمها بعدد أكبر من الرجال.

عندما تقدم ماركيز مونديخار إلى الأمام لقيادة بعض فرسان الطليعة، بدا له أنه من الأفضل التوقف وتشكيل كتيبة من الرماة المسلحين بالبنادق للتصدى للأعداء. وقد تمكن بواسطتها من نجدة كل الجبهات، لأن العدو كان قد أغار عليهم على نحو تعين معه إغاثة الجميع. كان الذراع الأمامى للجيش - الذى يترأسه ألبارو فلوريس Alvaro Flores كبير حجّاب محكمة التفتيش بغرناطة - قد بادر بالتراجع على وجه السرعة، مخلفًا وراءه قائده برفقة اثنى عشر أو ثلاثة عشر جنديًا فحسب لمجابهة العدو، حينما

هبّ السيد فرانثيسكو دى مندوثا – قائد سلاح الفرسان – لنجدته على رأس فرقة من الفرسان. بيد أن التضاريس كانت شديدة الوعورة، وعندما وصل إليهم لم يكن قد تبقى برفقته سوى أربعة فرسان، حيث لم يتسن للباقين اللحاق به. فتصدى للأعداء هو ومن ظلوا معه، حيث استدار وواجه الجنود، وأخذ يستحثهم ويستنفر قواهم التى كانت شبه خائرة بعد الطريق الذى قطعوه، حتى انضم الجنود إلى القائد، وكذلك فقد صادفهم رجال آخرون جاءوا لتقديم المساعدة. لم يكتف الجمع بالتصدى لزخم الأعداء فحسب، بل أجهزوا عليهم وحملوهم على الفرار، وصعدوا فى أثرهم إلى أماكن يصعب على المرء الاحتماء بها. وقد قام بالأمر ذاته جنود مؤخرة الجيش، بعد أن أغاثهم السيد ألونسو دى كارديناس.

اتسم ذاك اللقاء بالخطورة الشديدة فى بادىء الأمر، إلا أنه أسفر عن أحداثٍ سعيدةٍ فيما بعد، نظراً للشجاعة الفائقة التى تحلى بها الفرسان والقادة الذين تصدوا للمخاطر. وقد أُصيب السيد فرانثيسكو دى مندوثا فى ركبته جراء حجر ألقاه عليه أحد المسلمين، قبل أن يقضى هو عليه فى الحال؛ أما السيد ألونسو بورتوكارّيرو Alonso Portocarrero فقد نال طعنتين بنصل سهم فى فخذيه. هذا ولم يُقتل فى المعركة سوى سياف مسيحى واحد، بينما تجاوز العدد بين صفوف المسلمين أربعمائة وخمسين قتيلا[٩]. وقد شرع رجالنا فى ملاحقتهم بالكيفية التى أملتها عليهم وعورة التضاريس وصعوبتها، حيث سار ألبارو فلوريس، برفقة من تمكن من جمعه من الجنود، ونفر من الفرسان، بين السلاسل الجبلية العالية حتى وصل إلى بوبيون؛ وكان دائمًا متفوقًا على الأعداء. فلمّا ألفى المحل خاوياً؛ لأن ابن أمية لم يجسر على الانتظار هناك، وبدأ فى المراوغة من أحد الاستحكامات الكائنة قبالة باب الكنيسة، وهو يدعو رجالنا أن هلموا إلى النصر. وكان ماركيز مونديخار قد جمع قواده للتشاور، بعد أن ارتاب فى مدى صعوبة الطريق، حيث أوقف مسيرة القوات لينظر فى ترتيبات المبيت

(٩) الرقم مبالغ فيه دون شك، وهو يذكرنا بمبالغات مؤلف "ملحمة السيد". (المراجع)

لتلك الليلة. وعندما رأى المكان يموج بالمسيحيين، أمر المعسكر بأسره أن يتحرك إلى تلك النقطة، فتمكنوا من الظفر بقرى تلك البلدة الأربع دون أن يوجد من يتولى الدفاع عنها. كان الفوز بتلك القرى سيستلزم المزيد من الوقت والرجال؛ لأن طبيعة الأرض والتضاريس كانت فى صالح المسلمين.

إبان وصول القوات إلى بوبيون، صعد الجنود فى سرايا إلى أعلى الجبل، حيث أسروا العديد من النساء والأطفال، وقاموا بقتل من طالته أيديهم من الرجال. كما سطوا على قدر كبير مما كان بحوزتهم من الأمتعة المحملة بالثياب والحرير، التى كانوا قد أخفوها فى تلك الأراضى الوعرة. وقد نال القاضى الكنسى برابو Bravo حريته فى بوبيون، هو ومائة وعشرة سيدات مسيحيات كن أسيرات لدى أولئك المارقين. فى اليوم التالى، الجمعة الموافق الرابع عشر من يناير، كانت الحملة تعسكر فى تلك البقعة، ومنها أرسل ماركيز مونديخار دورية حراسة لمرافقة الجرحى والمرضى إلى غرناطة، آمرًا إياهم بعد ذلك بحراسة المؤن والذخائر الموجودة فى أورخيبا. كما بعث رسالةً إلى السيد لويس مالدونادو يخطره بالطريق الذى ينتوى السير فيه، لكى يكون - من الآن فصاعدًا - على دراية بالموضع الذى يتعين على الرجال والمؤونة التوجه إليه للحاق بالركب. أُقيم فى ذاك اليوم قداس فى أجواء احتفالية مهيبة، واستمع إليها كل المسيحيين فى خشوع كبير كلٌ فى موضعه تحت الألوية المرفوعة. حقًا كان من المفرح رؤيتهم يمجّدون الرب لما حققوه من نصر، وللحرية التى حظيت بها الأرواح المسيحية التى أعتقوها.

الفصل الثانى عشر

يتناول كيفية قيام المسلمين بنحر الرجال الذين مكثوا لتأمين تابلاتى

كنا قد ذكرنا آنفًا كيف قام ماركيز مونديخار بتأمين تابلاتى، من خلال الإبقاء على القائد بدرو دى أرويو على رأس كتيبة من المشاة فى بلدة بوركونا، لتأمين ذاك المعبر أمام فرق الحراسة القادمة من غرناطة؛ آمراً إياه ألا يسمح بعبور الجنود المغادرين للمعسكر دون إذن منه. عندها تمكن القائد من وضع متاريس تأوى إليها الكتيبة ليلًا، وتوجد بها نقطة الحراسة والدوريات، كما هى عادة المحاربين. بيد أنه كان متهاونًا إلى الحد الذى أتاح لمسلمى المنطقة إزعاجه بينما هم فى مأمن. حيث لم يكن يهدف سوى للخروج لقطع الطريق على الجنود الذين تركوا المعسكر دونما تصريح فقط، ليصادر ما كان بحوزتهم من أغنام وجوارى ومتاع قاموا بتهريبها. بينما الأمور تسير على تلك الشاكلة، كان الناقوس والخيرونثيّو يجوبان تلك الروابى ويتحسسان الأخبار، ليريا إذا ما كان بمقدورهما قطع الطريق على إحدى الدوريات. فلمّا فطنا إلى غفلة رجالنا، حشدا ألفًا وخمسمائة مسلم، وأغارا بهما على المسيحيين فى منتصف الليل من ثلاث جهات. فاقتحموا القرية والكنيسة، ونحروا كل الجنود الذين كانوا بهما من ؛ كما جردوهم من أسلحتهم، وثيابهم، والأشياء التى سطوا عليها وقاموا بتهريبها من المعسكر. إلا أن القائدين لم يشعرا بالأمان وسط الحوائط الترابية الضعيفة لتلك المنازل، فعاودا الصعود إلى الجبل.

وصلت تلك الأنباء إلى كل من غرناطة وإلى معسكر ماركيز مونديخار فى آن واحد؛ وطار الخبر إلى بلاط جلالة الملك، مما عكر صفو الانتصار الذى تحقق فى تلك

الأيام، حيث ظن المتأملون فى الأمر أن الأضرار والمخاطر تفوق تلك الحادثة بكثير، واعتبروا أن سماح الأعداء لقواتنا بالمرور إلى البشرات كان مجرد خدعة حربية، حتى يتسنى لهم قطع الطريق عليهم من وراء ظهورهم ومنع وصول المؤن إليهم، لإجبارهم على التراجع أو الموت جوعًا. بيد أن ذاك الوهم تبدد لاحقًا، وعلم الجميع أن تابلاتى من نصيب المسيحيين؛ لأن ماركيز مونديخار لدى معرفته أن المسلمين لم يجسروا على البقاء هناك، أصدر أوامره بأن تبقى أول فرقة تصل إلى موقع الحدث فى نقطة الحراسة. فلمّا أتى خوان ألونسو دى رينّوسو Juan Alonso de Reinoso قائدًا للجموع التى أرسلتها مدينة أندوخار Andujar، امتثل لقرار الماركيز ولزم المعبر فى حذر شديد؛ وقد عثر على بدرو دى أرّويو ملقى على الأرض بين القتلى، وبه العديد من الجروح المميتة، فأمر بمداواته. بيد أنه كان قد ضَعُفَ للغاية؛ لأنه ظل دون شراب طيلة ثلاثة أيام، فمات فى الطريق بينما كان الجنود يحملونه إلى غرناطة.

لم يتوان كونت تينديّا عن نجدة رجالنا؛ لأنه عقب معرفته بالطريق المؤدية إلى تابلاتى، أرسل فى تلك الليلة ذاتها يستدعى السيد ألبارو مانريكى Alvaro Manrique، ابن كونت أوسورنو Osorno، وأحد فرسان رهبانية قلعة رباح العسكرية، الذى كان موجودًا فى إحدى قرى الغوطة على رأس ثمانين فارسًا وثلاثمائة راجل من أهالى قرية أغيلار Aguilar، ومونتيّا Montilla، وبلييغو Pliego . وقد وصل السيد ألبارو إلى جسر شنيل قبيل طلوع الصباح، وهناك كان الكونت فى انتظاره برفقة ثمانمائة راجل ومائة وعشرين فارسًا، فسلّمه الجنود، وأرسله ليقوم بما يلزم فى ذاك المعبر، كما أمره الكونت أن يترك تأمينًا كافيًا، ثم يستكمل مسيرته لينضم إلى معسكر والده الماركيز. انطلق السيد ألبارو حتى وصل إلى الموضع المحدد وألفاه خاويًا، فنفّذ تعليمات الكونت، ثم غادر المكان لينضم إلى معسكرنا فى خوبيليس. أما الآن، فقد حان الوقت لنعود بالأحداث إلى ماركيز بلش، الذى كنا قد توقفنا عند دخوله إلى تابيرناس.

الفصل الثالث عشر

يتناول تلقى ماركيز بلش أمرًا من جلالة الملك لإغاثة ألمرية، وكيفية إغارته على المسلمين المحتشدين فى غيثيخا، وإلحاقه الهزيمة بهم.

كان ماركيز بلش لا يزال برفقة معسكره فى تابيرناس. فى اليوم الذى غادر فيه ماركيز مونديخار تابلاتى، وكان موافقًا للحادى عشر من شهر يناير، تسلم ماركيز بلش أمرًا من جلالة الملك - مماثلاً للاقتراح الذى كان قد تقدم به - مفاده التوجه إلى المنطقة الواقعة ناحية ألمرية لتأمين تلك البقعة. تلقى القائد هذا القرار وهو يشعر بالرضا؛ لأنه كان موجوداً بالفعل داخل مملكة غرناطة، على رأس جيش احتشد أفراده على نفقتهم الخاصة، وانتظمت صفوفه؛ بيد أن وجود قائدى عموم فى نفس المقاطعة، كلاهما لا يرغب فى من ينازعه، بدا وكأنه إهانة لماركيز مونديخار، ومخالفة لمنطق الحرب. أرجع العديد من الأشخاص ذاك الأمر للمشيئة الإلهية، التى رغبت أن يجتمع فى تلك الحرب فى آن واحد شخصيتان لهما إرادتان على طرفى النقيض. فكان من الإنصاف أن يتشفع أحدهما للثوار، ويسعى لإيجاد طرق لإعادتهم إلى ما كانوا عليه؛ بينما يلاحقهم الآخر فى صرامة وشدة، لينالوا العقاب الذى يستحقونه، وينفون من مملكة غرناطة - التى تسنى لهم المعيشة فيها كمسلمين فى الخفاء، والإبقاء على عقيدة محمد بقليل من الصعوبات.

فى اليوم التالى غادر ماركيز بلش موقعه بحثًا عن بعض الأعداء. فقد تنامى إلى علمه أن مسلمى غيثيخا يتحصنون فى ذاك المكان، وأنهم قد أطلقوا السواقى الكائنة على ضفاف النهر لإغراق الحقول، إضافةً إلى قطعهم الأشجار ذات الجذوع السميكة

التى يمرون بها فى الطرق وسبل الرعاة، ووضعهم الكثير من العوائق الأخرى حتى يمسى من المستحيل عبور الخيول إليهم؛ شَقَّ طريقه إليهم. وكان يرافق الماركيز خمسة آلاف راجل - كان السواد الأعظم منهم رماة وقوّاسين - وهم رجال متمرسون فى شن الهجمات المباغتة على ساحل مملكة مرسية، ومعتادون على شؤون الحرب؛ بالإضافة إلى ثلاثمائة فارس مدججين بالسلاح. عقب قيام الماركيز باستطلاع الطريق، والعقبات التى وضعها الأعداء أمامه، سلك سفح الجبل، عند نقطة مرتفعة بعض الشىء، حيث تراءى له أنه سيتمكن من توطئتها بشكل أفضل. بعد أن اصطفت أركان الجيش، التف الماركيز حول البلدة من الخلف، حيث كان لا يزال بالإمكان مشاهدة الحريق عن بعد، وكذا الدمار الذى لحق بالبرج وبالدير الذى أحرق المسلمون بداخله الكثير من رجال الدين المسيحيين.

لم يُظهر المسلمون تخاذلًا، بل خرجوا للقاء الماركيز فى كتيبتين مؤلفتين من أناس رجال منظمين للغاية، كما هو الحال مع الجنود القدامى من ذوى الخبرة. وقد توقف الجنود على مرأى من رجالنا، وأقدموا على نحر كل من كان بحوزتهم من الأسارى المسيحيين فى قسوة شديدة. كان الغورّى Gorri قائدًا على أولئك المارقين، وكان هو الرأس المدبرة لتلك الفظائع، فأخذ يستعرض الجموع للمعركة؛ لكن الماركيز لم يلق لهم بالاً، لأنه تعرف على المكان الذى يتحصنون به، وكان يدرى من أين سيتمكن من اقتحامه، فانتابته غيرة محمودة جعلته يرغب فى القيام بمآثر جديرة باسمه. فبعث بالسيد أندريس دى مورا فى المقدمة، ليسلك سفح الجبل على رأس خمسمائة من الرماة؛ ثم أتبعهم بولده، السيد دييغو فاخاردو Diego Fajardo، برفقة ستين فارسًا؛ وأمرهم أن يشغلوا الأعداء ببعض المناوشات، حتى يصل هو إليهم مع سائر الحشود. جابه الغورّى ذاك الهجوم بحماس شديد، وتصدى للقتال طيلة فترة لا بأس بها. بيد أنه فى نهاية المطاف، لم يقو على الصمود فى وجه الرماة، فبدأ فى التراجع قبل أن يصل إليه الفرسان. وقد جعل رجاله الأقل فائدة فى المقدمة، يلاحقهم جنودنا من الخلف، بينما قام هو بتسلق صخور جبل إيلار ilar القريب؛ حيث كان قد

خبأ الماشية والمؤونة فى إحدى التحصينات التى تحوطها الحجارة على قمة ربوة عالية. فاسترد قواه هناك حتى يعاود القتال من جديد، لكنه لم يحرز أى تقدم، ولجأ فى النهاية إلى جبال فيليكس.

فى ذاك اليوم نالت الكثير من المسيحيات حريتهن بعد أن كن مختبئات فى منازل القرية، إلى جانب أخريات كان المسلمون قد تركوهن فى الجبال عندما لاذوا بالفرار. قضى ماركيز بلش ليلته تلك فى المعسكر، حتى لا يتيح للجنود الدخول إلى البلدة لجمع الغنائم، ومن ثم التخلى عن الحملة، وهو ما كان أمراً شائع الحدوث فى تلك الحرب. إلا أن حرصه لم يجد نفعاً، حيث بادرت فرق من الجنود لاحقاً بالانفصال عن الركب فى بقاع البولوبوى ومملكة مارتشينا ، وقفلوا عائدين إلى ديارهم محملين بالثياب والموريسكيات والأمتعة[١٠]. وهكذا اضطُرت الحملة للبقاء فى ذلك المعسكر لفترة تزيد عما كان يرغب به القائد.

(١٠) يتفق المؤرخون الإسبان على أن هدف بعض الجنود الإسبان من الحرب ضد الموريسكيين كان النهب والسرقة. (المراجع).

الفصل الرابع عشر

يتناول اقتحام جنود من وادى آش لسند وادى آش

كان من الأفضل لموريسكيات الدير وقلهرة لو أن أزواجهن أبقين عليهن فى الحصن، حيث كن محتجزات لدى صاحب القلعة، بدلاً من الحيلة التى لجؤوا إليها لإخراجهن. لأنه عقب التنقل بهن جياعا طيلة عدة أيام من جبل إلى جبل، اضطُروا لإيداعهن فى منازل الديرة؛ وذلك بعد أن اطمأنوا إلى حماية خيرونيمو المالح Jerónimo el Maleh ومن بصحبته من أهالى الماركزية لهن، أو - كما أخبرتنا لاحقًا بعض تلك النسوة[11]- لثقتهن فى العهد الذى منحهم إياه خوان دى تورّى، حيث قال لهم إن النساء آمنات على أنفسهن فى ديارهن، ولن يصيبهن مكروه. على أية حال، قام البعض بتنبيه بدرو أرياس دى أبِلا، المأمور القضائى لوادى آش، إلى أن المكان يغص بالنساء، وأن هناك محاربون برفقتهن، فقرر الرجل - بالاتفاق مع المجمع الديرانى - الإغارة على البلدة. لكن لم يتسن له الإبقاء على الأمر طى الكتمان بالقدر الذى يحول دون تحذير الموريسكيين المعاهدين القاطنين فى المحل للمسلمين حول ما يدور.

قام السيد بدرو بحشد كل المحاربين الراجلين والفرسان، وانطلق من وادى آش فى يوم السبت الموافق الخامس عشر من شهر يناير، ليلتف حول الجبل فى عجالة،

(١١) يحاول مارمول أن يبدو كمن يستقى الأخبار من مصادرها الأولى، حتى لو كانت من الجانب الموريسكى. (المراجع).

وذلك بعد أن ارتاب فى تنبه الأعداء لذاك الأمر. عندما أضحى على مشارف الديرة - فى أعقاب كل تلك الوقائع- ألفى المسلمين والمسلمات يلوذون بالفرار لاعتلاء الجبل. تقدم صوب الهاربين كل من السيد إيرناندو دى بارّاداس Herrando de Barradas، والسيد خوان دى سابيدرا Juan de Saavedra، والسيد كريستوبال دى بينابيديس Cristóbal de Benavides، والسيد بدرو دى لا كويبا Pedro de la Cueva، وإيرنان بايى دى بالاثيوس Hernán Valle de Palacios، ولاثارو دى فونسيكا Lázaro de Fon-seca، وغيرهم من الفرسان والأهالى، الذين بلغ عددهم إجمالاً أربعة عشر فارسًا؛ وذلك للإمساك بالمسلمين قبيل صعودهم إلى ميناء رباحة Ravaha. فخلّف أولئك القوم وراءهم النساء والمتاع الذى لحق به رجالنا، واعتلوا الجبل إلى أن وصلوا إلى السهل الكائن بإحدى القمم العالية فى الميناء. هناك بادر المالح بتجديد قواه مستعينًا بثلاثة ألوية وجمع من الرجال المسلحين لمجابهة الهجوم، أثناء انشغال الرجال بتجميع النساء والأمتعة. وقد تصدوا لفرساننا، وأغاروا عليهم ببسالة، وكانوا سيضعونهم فى مأزق، لو لم يهب عالم اللاهوت فونسيكا Fonseca لنجدتهم على رأس أربعين من الرماة عندما كانوا فى أشد الاحتياج للمؤازرة.

لمّا شهد أولئك المسلمون، وغيرهم ممن أخذوا يفدون إلى الميدان، قدوم النجدة، شرعوا فى التراجع. ولكنهم لم يهربوا تمامًا، بل إنهم التفوا حول رجالنا، واشتبك الفريقان فى قتال دام ما يربو على نصف الساعة عند أحد التلال، حتى هُزِم الموريسكيون هزيمةً نكراء، ولاذوا بالفرار، بعد أن تركوا من ذويهم أكثر من أربعمائة رجل قتيل، وألفى شخص أسير بين النساء والأطفال، وألف من الأمتعة المحملة بالثياب. كان ذاك الفىء واحدًا من أفضل ما غنمه الجيش فى تلك الحرب، وأقله خطورة. وقد رجع بدرو أرياس دى أبِلا مسرورًا على إثره إلى وادى آش، بينما منى المسلمون بخسارة كبيرة.

الفصل السابع

يتناول كيفية مرور ماركيز مونديخار إلى بيتريس فى فيريّرة، والخطبة التى ألقاها السيد[١٢] إيرنانديو الصغير إلى الثوار.

فى ذات اليوم الذى أغار فيه بدرو أرياس دى أبلا على سند وادى آش، غادر ماركيز مونديخار بوكيّرة، ليلاحق كلا من ابن أمية والصغير، بعد أن تنامى إلى علمه أنهما يتراجعان ليعودا أدراجهما إلى بيتريس فى فيريّرة. فترك الطريق المستو، وسلك سلسلة جبلية عالية تتوسط هذين الموضعين. وقد رافقته المدفعية والأمتعة بمشقة بالغة؛ لأن الطقس كان قارس البرودة، وباتت الجبال تكسوها الثلوج. لكن عند دخوله إلى فيريّرة، لم يجد عدواً يحاربه؛ وكان ما لاحظه أثناء قطعه لذاك الطريق، ومروره بجوار بلدة بورتوغوس، هو مشاهدة دخان كثيف يخرج من الكنيسة. حيث إنَّ نفراً من المسيحيين الأسارى كانوا قد اجتمعوا وتحصنوا ببرج الناقوس، بعد أن أراد سادتهم الفتك بهم، فقام أولئك المارقون بإضرام النيران فى البرج، ليحرقوهم بداخله. تشكك الماركيز فيما يتعين عليه فعله، وبعث إلى السيدين لويس دى كوردوبا وألونسو دى غرانادا بينيغاس حتى يتوجها لاستطلاع ماهية الأمر على رأس مائتى راجل وخمسين فارساً. وقد تمكنوا من الوصول إلى الكنيسة دون معوقات، لأن المسلمين لاذوا بالفرار حينما شاهدوا إطلالتهم.

(١٢) كان لقب "السيد" يتمتع به أشخاص ذوو مكانة، والسيد إيرنانديو لم يفقد لقبه حتى بعد انضمامه إلى الثوار. (المراجع).

وقد روى لنا[١٣] هذان الفارسان كيف وصلا إلى الكنيسة، ودلفا إلى الداخل، فأبصرا خمسا من النسوة المسيحيات مسجيات على الأرض، وقد تُوفين جراء ما أُصبن به من جراح. كما شاهدا عند قاعدة المذبح الأكبر طفلاً يناهز الثالثة من عمره، ويداه الصغيرتان مقيدتان بحبل رفيع، وقد أُغمد خنجر فى جانبه الأيسر؛ وكانت دماؤه لا تزال حديثة، حتى أنها لم تتجمد؛ وعيناه مفتوحتين، وشاخصتين نحو السماء فى وداعة شديدة، فبدا كأنه يشكو إلى خالقه ما اقترفه أولئك المارقون فى حقه، وتضحيتهم الوحشية بأعضائه الرقيقة. وقد بلغ جمال محياه الأبيض المشرب بالألوان، أن اتضح لنا جليًا على الأرض مدى الهناء الذى تنعم به روحه، وهى تمجّد الرب وسط الملائكة، بعد تحررها من مخاوف تلك الحرب. فلمّا رأى السيدان ذاك المشهد القاسى، أثار داخلهما مشاعر الشفقة، ولكنه حرك فى ذات الوقت غضبًا عارمًا، جعلهما يتحينان الوقت الذى يأخذان فيه بالثأر بأيديهما، ويقولان لأولئك الغلاظ: "أيها المارقون الملحدون، لم تجسروا على الانتظار ومنازلة الرجال، الذين تزعمون أنهم أساءوا إليكم، فانتقمتم أيها الأشرار الجبناء من النساء والأطفال، وضرجتم سيوفكم الخرقاء الآثمة بدمائهم البريئة!".

كانت النيران قد أتت على جزء من مبنى البرج. ولو تأخرت عملية الإنقاذ القدر اليسير لاحترق عن آخره. بيد أن المسيحيين كانوا قد دخلوا إلى موضع لم تكن الحرارة قد طالتهم بداخله بعد، وكان تصميم بعضهم – النابع من الرغبة فى نيل الحرية– عارمًا، حتى أنهم حينما أبصروا مجيء رجالنا، لم يبحثوا عن باب يخرجون منه، وألقوا بأنفسهم من البرج. عندما لم تقو سيقانهم الهزيلة على حمل أوزان أجسامهم الثقيلة، هوت أجسادهم إلى الأرض، فالتقطهم الجنود، وحملوهم على صهوة الجياد، ومنحوهم حريتهم مع الباقين.

---

(١٣) لاحظ تعدد المصادر المباشرة عند مارمول. (المراجع).

فى تلك الأثناء كان رجالنا فى طريقهم إلى بيتريس، وهى البلدة الرئيسة بتلك الطاعة، وكان المسلمون قد هجروها. وقد تواجد داخل الكنيسة مائة وخمسون من المسيحيات الأسيرات تم إطلاق سراحهن، بعد أن رفض حاجب البلدة ميغيل دى إيريّرا السماح للثوار والجنود المسلمين بالقضاء عليهن. كان من بين أولئك الثوار رجال نبلاء حسنو الإدراك، وقد ساءهم ما اقترفه الرجال من أفعال وحشية، وكذلك ما شهدوه من مثابرة أهالى البشرات وإصرارهم على الثورة، على الرغم من رؤيتهم لرجال البيّازين يلتزمون الهدوء، لتحميلهم هم مغبة ما حدث، بل إنهم طالبوا أن يُطبّق عليهم عقابٌ صارمٌ. وهكذا رغبةً منهم فى درء ويلات الحرب عن أنفسهم، أرجعوا تلك الآثام إلى مثيرى الشغب، وإلى حالة الجهل الذى تشهده تلك القرى؛ أما هم فيرغبون فى العيش فى سلام وهدوء فى ديارهم، لذا فقد قاموا ببعض الأعمال التى ظنوا أنها قد تعود عليهم بالنفع فى يوم ما.

كان أكثر من طالب بعودة الهدوء إلى تلك الأراضى هو السيد إيرناندو الصغير، الذى نصّبه ابن أمية قائدًا عامًا لقواته. فعندما رأى أن المسلمين قد تراجعوا من معبر لانخارون، وبعدها من بوكيّرة، دون أن يخوضوا معركةً مع جيشنا، فطن إلى أنه هالك. فقام بجمع حجّاب البلدان ورجالاتها البارزين - وكانوا من أصدقائه - وأراد إقناعهم أنه على ضوء عدم قدرتهم على مجابهة جلالة الملك، فإن عليهم أن يبحثوا عن وسيلة تحمل صاحب الجلالة على الصفح عنهم. فألقى على مسامعهم الخطبة التالية: " لا أدرى كيف أقول لكم يا إخوتى كيف أننا لم نهتم بمصالحنا! بما أننا لا نقوى على القيام بكل ما يلزم لصالح ديارنا، ونسائنا، وأولادنا، لنصبح كما نرغب: مدافعين عن حريتنا، لم لا نتبع نصح الحكماء، بدلاً من الانسياق وراء حظ عثر، قد أظهر مدى عدائه لنا؟ إن من يفوقوننا نفوذًا، ومن وضعوا فينا ثقةً كبيرةً، لم يجرؤا بعد على تجربة الثورة. إن للغرناطيين أجسادًا كأجسادنا، وأرواحًا تُبذل وتُصاب، وهم يستشعرون ذات الحنق الذى ينتابنا؛ بيد أنهم لا يودون الإلقاء بأنفسهم بتهور فى هاوية الغضب. لنرى الآن، ما الذى سنجنيه نحن من تضحيتنا بدمائنا إذا ما انتصرنا

المرة تلو الأخرى، طالما أن الملك فيليبى لن تنقصه الأسلحة أبدًا لمحاربتنا فى عزم يتزايد كلما أمعنا فى إغضابه؟

أرى أنه من الأفضل أن نستعطفه، ونسلمه أسلحتنا وألويتنا – وهى ملك له بحق – ونطلب الصفح عن ذنوبنا، ونحن واثقون أنه سيقبلنا. من الأفضل أن نفعل ذلك الآن بينما مصير الحرب يبدو مشكوكًا فيه، بدلاً من المثابرة على فحش كبير كالذى أقدمنا عليه، وما أثقلها من آثام عديدة وتجاوزات كالتى تم اقترافها، من وجهة نظرنا لأسباب عادلة. على الرغم من أننا إذا ما أمعنا النظر فى الأمر، سنجد أن ما حدث لا يعدو كونه حماقة أناس قليلى الفهم، ونحن أخضعنا أنفسنا لمشيئتهم ورغبتهم فى الانتقام.

لنكن على وفاق مع المسيحيين، رغمًا عن أنهم يضيقون علينا معيشتنا. هل ننكر أننا لا نتناول مياه التعميد كما يفعلون؟ هل ننكر أننا لسنا رعايا خاضعين للملك فيليبى؟ على النحو ذاته لا يسعنا إلا الاعتراف بأن المرسوم – الذى أحدث داخلنا كل تلك الثورة – كان يُراد من ورائه خير، على الرغم من أنه بدا لنا مهلكًا! ألا ترون أننا لسنا بالمسلمين الصالحين أو المسيحيين الصالحين؟ إذا ما كان الأمر كذلك، أليس صحيحًا أننا أغضبنا الرب أولاً، ومن بعده مليكنا ، بإشعالنا لتلك الثورة؟ لا بد من احترام المقدسات فى كل مكان. لقد انتهكنا حرمة المعابد بإشعال الحرائق والتخريب، فسرقنا القساوسة وقتلناهم. نحن نريد إطاعة ملك آخر، كما لو كنا ندرى أنه أفضل، ونود إنقاذ أنفسنا على أيد أناس همجيين، لنضحى مثلهم مسلمين.

فلتعلموا أننا لن نتمكن من إعالة أنفسنا فى كنف حكومة أخرى، حتى لو وقفت إفريقيا بأسرها إلى جوارنا، ولن تنحاز إلينا بلاد البربر لأنهم يريدون الصالح لنا، بل طمعًا فى سرقتنا، لأنهم جبابرة متمرسون على النهب والسرقات. وحينما يعجزون عن الاستيلاء على المزيد، سيعودون أدراجهم محملين بما غنموه من ديارنا، بعد أن يسلبوا شرف نسائنا وبناتنا، كما فعلوا فى بقاع أخرى. لن أبتهل إلى الله أن يحفظ لى حياتى، إذا ما كانت خيانة وطنى وقول الزور السبيل للإبقاء عليها. إن ما تسمونها

بالحرية يستحسن مقايضتها بالسلام. لا أدرى ما الذى ظننا أننا سنجنيه من جراء الحرب؟ نحن لا نجيد مواجهتها أو إدارة ظهورنا لها، حيث تنقصنا الخبرة، والأسلحة، والسفن، والجدر التى يمكننا الاحتماء بها، على النحو الذى فرض علينا التنقل من مغارةٍ إلى مغارة، ومن جبل إلى جبل، مصطحبين النساء والبنين، هرباً من وحشية الإسبان[١٤] الذين يلاحقوننا. فى نهاية الأمر، كان الجوع هو ما حملنا على الاستسلام، كما أعيا غرناطة والعديد من مدن تلك المملكة من قبل، حينما كانت فرص أسلافنا فى الدفاع عنها أفضل. أنا أعلم أن ماركيز مونديخار سيشملنا بعطف الملك فيليبى إذا ما لجأنا إليه بتذلل وخضوع. ولن تكون الشروط التى يفرضها علينا مخزية – وهو الذى تلقى من جانبنا إساءات بالغة – حتى إذا طبّق على بعضنا جزاءات رادعة – وكنت أنا أول المعاقبين – فإن ميتتى تلك ستكون مباركةً، إذا ما كفرت بها عن ذنب أمتى بأسرها."

إلى هنا أنهى الصغير حديثه. وقد أقر الشيوخ الموجودون هناك رأيه الناضج. فأرسل إلى كل من خيرونيمو دى أبونتى وخوان سانشيث دى بينيا – اللذين ذكرنا آنفاً كيفية إنقاذه حياتهما فى أوخيخار(*) – وأطلعهما على ما اتفق عليه المجتمعون، ورجاهما أن يقصدا ماركيز مونديخار ويضطلعا بعرض مسألة الاستسلام عليه، ويُعلماه بمدى الندم الذى يشعر به موريسكيو البشرات. وأن يتضرعا إليه حتى ينوب عن الصغير فى التوسط لدى جلالة الملك، لكى يصفح عن ذاك الخطأ، ويبسط جناح رحمته على الناس الذين يرغبون فى وضع مصيرهم بين يديه فى تذلل. وسوف يقوم الثوار، أثناء مناقشة ذاك الشأن، بتسليم الأسلحة والألوية، على أن يُمنح الصغير براءةً ممهورة بتوقيع الماركيز يُؤمَن فيها على حياته هو وأسرته.

---

(١٤) يضع مارمول على لسان الثائر المسلم ما يفيد أنه غير إسبانى، والمؤلف هنا يؤصل للربط بين العقيدة الكاثوليكية والهوية الإسبانية. (المراجع)

(*) راجع الكتاب الرابع، الفصل السادس عشر، الفقرة الأولى. (المترجمة).

انطلق خيرونيمو دى أبونتى وخوان سانشيث دى بينيا من خوبيليس، آخذين على عاتقهما تلك المهمة، ومحملين بخطاب موجه من الصغير إلى الماركيز، يعتذر فيه عما حدث، ويلقى باللوم على الثوار الجبليين. وصل الرجلان إلى بيتريس فى ذات اليوم الذى دخلها فيه جيشنا، وسلّما الرسالة إلى ماركيز مونديخار. وقد أصدر الماركيز بدوره أوامر بإرسال المسيحيات إلى غرناطة مع إحدى دوريات الحراسة، نظراً للعبء الذى يمثله، وأيضًا حتى يتمكن من استطلاع آراء قادة المعسكر حول السبيل لفتح الطريق المليء بالصعاب الذى ينتظره لاستكمال مسيرته إلى خوبيليس؛ وهو ما حمله على البقاء فى اليوم التالى فى ذاك المحل. أما الرد الذى منحه الماركيز لخيرونيمو دى أبونتى، فكان أن يعود إلى الصغير، ويخبره بأنه إذا ما سلم الأسلحة والألوية – على النحو الذى ذكره – ووضع نفسه تحت رحمة جلالة الملك تمامًا، فإنه يسره أن يتشفع لهم عند صاحب الجلالة، لكى يتغمدهم بعطفه. بيد أنه يتعين عليهم حزم أمرهم؛ لأنه لن يؤجل تنفيذ العقوبة التى ينوى إنزالها بهم ولو لحظة واحدة. ثم أرسله فى طريقه، بعد أن تجاهل سند الأمان الذى طالب به الصغير.

الفصل السادس عشر

كيف جرؤ المسلمون على اقتحام بيتريس أثناء وجود قواتنا داخل البلدة

تقع بلدة بيتريس في المنطقة الجنوبية من سفح جبل شلير. وهي مقسمة إلى ثلاثة أحياء لا تبعد كثيراً عن بعضها البعض. توجد الكنيسة في الحي الرئيس، وتواجهها ساحة متوسطة؛ أما بقية البلدة فتشكلها تلال ومنخفضات تحوطها جبال وعرة، ولكنها عامرة بالغيلات، نظراً لوفرة عيون المياه المنحدرة من الأودية. كان المسلمون، الذين اعتادوا القيام بتحركات على مرأى من معسكرنا، رغبةً في إرهابنا أكثر من الدخول في معركة، ينتوون القيام بأمر ما ينتهزون به فرصة ظهور سحابة كثيفة لاحت في الأفق صباح يوم الأحد؛ إما ذاك أو إنهم اعتقدوا أن المعسكر كله يغادر موضعه، عندما شاهدوا تحرك عدة سرايا كان الماركيز قد أرسلها لاستطلاع الطريق -كما أخبرنا نفر منهم فيما بعد - وكانوا يرغبون في الاحتماء بالمنازل المخصصة لإيواء الأفراد من العواصف الباردة، ظناً منهم أنها خاوية. فنزلوا من الروابي في سرعة فائقة، وتوجهوا لاقتحام المكان من جانبين، فوصلوا إلى القرية دون أن تراهم دوريات الحراسة أو تستشعر وجودهم، وذلك من جراء الظلام الحالك الذي فرضته السحابة.

أما من دخلوا من الجهة السفلية بمحاذاة النهر، فقد أغاروا على عدد من المنازل المنعزلة بعض الشيء، وكانت يعسكر بها إحدى كتائب الجنود. فلمّا ألفوهم غافلين، قاموا بنحرهم، ولم يفلت منهم سوى غلام واحد شرع في الصراخ والمناداة إلى حمل السلاح من أعلى أحد التلال، حتى تمكن من بلوغ نقطة الحراسة ومأوى الماركيز، الذي

امتطى بدوره صهوة جواده وخرج إلى ساحة القتال. ظن الماركيز أن قدوم الأعداء من المنطقة السفلية لابد وأن يكون خدعةً حربية، حتى يباغتونه بالهجوم دفعةً واحدة من الأعلى، وبهذه الطريقة يفرقون بين رجالنا؛ فأصدر أوامره بحشد جميع السرايا فى ثكناتها، وأن يتوجه الفرسان إلى الميدان. ثم أمر خوان أوتشوا دى ناباريّتى وأنطونيو فلوريس دى بينابيديس - قائدى المشاة اللذين يترأسان مقاتلى مدينة بياسة - أن يتمركزا مع من برفقتهما من الكتائب فى الحى الكائن بالمنطقة الشرقية، والذى يبعد شيئًا ما عن الكنيسة، وذلك لوجود هوة ضخمة تفصل بينهما فى المنتصف، تحسبًا لمجيىء العدو من تلك البقعة. هذا ولم يخب ظنه؛ لأنه ما إن وصل القائدان إلى الموقع حتى قابلهم المسلمون، الذين صعد بعضهم من تلك الهاوية وأسلحتهم تقطر دمًا، بينما هبط آخرون من الجبل.

فى بداية الأمر نشب قتال حامى الوطيس بين الجانبين، لكن فيما بعد انضم المزيد من المقاتلين إلى جبهة المسلمين - على الرغم من أنهم كانوا أقل من العدد الذى صورته ظلمة السحاب الكثيف لرجالنا - ومع استشعار جنودنا - حديثى العهد بالقتال - للخطر وهنوا، وبمرور الوقت أداروا ظهورهم للعدو وتركوا قائديهم وحيدين. لم يقصّرالأعداء فى مطاردتهم على أحد جوانب الهوة، إلى أن حملوهم على دخول الحى الرئيس. وقد هب الماركيز لنجدتهم بصحبة الكثير من الفرسان والقادة، فتدارك الخطر، وأجبر المسلمين على أن يلوذوا بالفرار من حيث أتوا، بعد أن قتل بعضهم. برز فى ذاك اليوم اثنا عشر جنديًا، كانوا على رأس أحد الشوارع التى قدمت منها حشود الأعداء، فدافعوا عن المدخل، كما قتلوا وجرحوا الكثير منهم، واستولوا على ثلاثة من ألويتهم، ثم اضطروهم إلى الهرب بعد أن تصادف قدوم النجدة إليهم. كان أحد تلك الألوية عبارة عن راية قرمزية من الحرير الدمشقى الموشى بالذهب، وكان عادة ما يُشرع كبيرق فى صدر الاحتفالات بالقربان المقدس فى أوخيخار، وقد رفعه الملحدون فى إشارة إلى خيانتهم وآثامهم.

تقهقر أعداء الرب إلى الجبل، عقب إدراكهم لسوء حالهم فى ذاك الموضع. وأثناء مرورهم بين المنازل، فتكوا بطبّال مسكين عثروا عليه وحيداً، وكان يدق على طبوله فى عجالة يدعو لحمل السلاح. فى أعقاب ذلك اجتمع الفارون مع حشود المقاتلين الآخرين التى لم تكن قد اكتُشف وجودها بعد، وعادوا أدراجهم مرةً ثانيةً ليروا إذا ما كان فى وسعهم القيام بأى أحداث؛ بيد أن أشعة الشمس بددت ذاك الضباب، وسطع ضوء النهار على نحو أتاح لقواتنا رؤيتهم. على الرغم من كل ما حدث، لم يتوان الأعداء عن تنفيذ هجومهم، وقد تقدموا لمسافة كبيرة، حتى أن الأحجار التى كانوا يقذفونها بأيديهم كانت تبلغ ساحة القتال. إلا أن التأثير الذى أحدثه رماتنا على ذلك الجانب كان بالغًا إلى الحد الذى أجبر الموريسكيين على التراجع، بعد أن فطنوا إلى أن أمورهم ستسوء أكثر كلما بزغ ضوء الشمس؛ فرجعوا إلى معسكرهم. قُتل آنذاك جنديان جسوران: كان أحدهما خوان دى إسلا Juan de Isla، ابن شقيق ألبارو دى إسلا المأمور القضائى لأنتقيرة، والآخر أحد أهالى غرناطة ويدعى خيرونيمو دى أبيلا Jerónimo de Avila، بالإضافة إلى آخرين نجهل أسماءهم. ولم يكمل رجالنا المطاردة نظرًا لتأخر الوقت، وهطول أمطار كثيفة مصحوبة بالثلوج أعاقت مهمة الرماة.

الفصل السابع عشر

كيف انطلق جيش ماركيز مونديخار من بيتريس لملاحقة الأعداء.

انطلق ماركيز مونديخار من مقر مبيته في بيتريس في اليوم التالي، الموافق الاثنين السابع عشر من يناير، في أجواء عاصفة شديدة مصحوبة بهطول الأمطار والثلوج؛ حيث عدل عن السير في الطريق المستقيم الذي يقوده إلى خوبيليس، وسلك الطريق إلى تريبيليث. لم يكد الماركيز يقطع مسافة فرسخ ونصف الفرسخ، حتى اكتشف الجنود المسلمين، الذين يتوجهون صوب خوبيليس عن طريق السلسلة الجبلية الكائنة على الجهة الأخرى من النهر، حيث قضوا ليلتهم. وكان الأعداء يحسبون أن جنودنا يقطعون الطريق ذاته، وأنهم قد سبقوهم في المسير، فبعثوا بستمائة رجل في ثلاثة ألوية ليقوموا ببعض المناوشات لتعطيلهم إلى أن يتقدم باقي الجيش. حينما أبصر الماركيز تقدمهم، أرسل إلى كل من دييغو دي أراندا وإيرنان كارّيو دي كوينكا حتى يهاجما المسلمين على رأس جنودهما. تصدى المسلمون لذاك الهجوم بعد أن فطنوا إلى قلة عدد الرجال؛ أما جنودنا، فعلى الرغم من أنهم بدوا وكأنهم يتجهون نحو العدو، فإنهم لم يتقدموا بالقدر اللازم لبلوغ وجهتهم.

حينئذ بعث الماركيز بالأخوين إيرناندو دي أغريدا Hernando de Agreda وغوميث دي أغريدا Gómez de Agreda - وهما من أهالي غرناطة - وغيرهما من الرجال الذين كانوا يرافقونه، لتعضيد الكتيبتين المقاتلتين بخمسمائة من الرماة. بيد أن الماركيز تنبه فيما بعض إلى أن الأعداء يهدفون إلى تعطيلنا حتى يتسنى لهم الخروج إلى بر الأمان، فأمر القوات الداعمة بالتراجع، وبادر بالتحرك بخطى حثيثة مع

سرايا الفرسان، بعد أن أرسل في المقدمة القائدين غونثالو تشاكون ولورينثو دي لِيّبا Lorenzo de Leiva، بالإضافة إلى غونثالو دي ألكانتارا ومن برفقته من الفرسان، ونفر من المشاة، وذلك لقطع الطريق على جيش المسلمين الذين كانوا آخذين في التقدم عبر تلك الرابية. عبر سلاح الفرسان النهر، وشرعوا في صعود الربوة. لكن عند وصولهم إلى الأعلى، كان المسلمون قد مروا بالفعل من تلك المنطقة، على الرغم من السرعة الكبيرة التي سار بها القادة، فلم يستطيعوا سوى طعن بعض الجنود الذين تخلفوا بالرماح؛ وقد تخلى رجالنا عن ملاحقة المسلمين حينما أرخى الليل سدوله. حط معسكرنا رحاله عند بعض أشجار السنديان الموجودة أسفل بلدة تريبيليث ، في موضع قريب من إحدى غيضات أشجار سنديان الفلّين ومن النهر، نظراً لوفرة المياه والحطب اللازم لحماية الرجال من برودة الجو. سلك المسلمون أعلى الجبل، ولم يوقفوا مسيرتهم حتى دخلوا ما بين الثلوج، حيث توفي منهم عدد من النساء والأطفال نظراً للطقس البارد. حتى المسيحيين أصبحوا وقد تجمد منهم ثلاثة أو أربعة أشخاص، كما نفقت بعض الجياد عقب تناولها لعشبة ضارة كانوا قد وجدوها في تلك الأودية.

الفصل الثامن عشر

يتناول عبور الماركيز إلى قلعة خوبيليس، وفرار قادة المسلمين دون الاشتباك معه.

توجه المسلمون – الذين فروا من أمام جيشنا – صوب خوبيليس ليقضوا بها تلك الليلة. وكانوا قد حشدوا فيها النساء والثروات التي جمعوها من تلك البقاع. وقد ارتأوا التحصن في موضع القلعة القديمة، التي أتينا على ذكرها آنفاً، وهي منيعة للغاية في شتى أحوال القتال بالأيدي. وكان مراد العدو التوقف هناك لعدة أيام أثناء محاولة إبرام معاهدة سلام، لأن خيرونيمو دي أبونتي كان قد منحهم الأمل في إمكانية عقدها، على ضوء ما فهمه من رغبة الماركيز أثناء وجوده في بيتريس. على الرغم من أن الصغير وبقية القادة توجسوا خيفة من عدم رغبته منحهم سند أمان ممهوراً باسمه، وافترضوا ما كان ربما يدور في خلدهم، من أنه سوف تُطبق عقوبات يُضرب بها المثل على الرؤوس المدبرة للثورة.

من هنا بات هناك أخذ وعطاء حول مسألة الاستسلام، وظهرت آراء متباينة بين صفوف المسلمين في تلك الليلة. أما الأشرار، الذين ساقهم ما اقترفوه من ذنوب إلى فقد الأمل في العفو عنهم، فقد قالوا بنحر كل السيدات المسيحيات الموجودات بالأسر، ثم التحصن والقتال قدر الاستطاعة. وحينما يعجزون عن مواصلة القتال، سيهجرون موضعهم ويلجأون إلى الجبال؛ وهو أمر يمكنهم القيام به بسهولة، نظراً لطبيعة التضاريس، التي تتميز بالوعورة الشديدة، التي تحول دون أن تطأها الخيول. وأما من لم تكن آثامهم بتلك الفداحة، فقد دفعهم حبهم لزوجاتهم وبنيهم – الذين يشهدون معاناتهم من الجوع، والبرد، والإرهاق، وغيرها من المتاعب – أن يأملوا في تحقيق

الهدوء والأمن فى ديارهم؛ فمالوا إلى رأى الصغير، ولم يكونوا يرغبون فى قتل المسيحيات. بل إنهم ظنوا فى إمكانية التهدئة من غضب المسيحيين عن طريق إطلاق سراحهن، فأخرجوهن فى نفس تلك الليلة من الكهوف التى كن بها داخل القلعة، وأخبروهن أن عليهن التوجه إلى منازل البلدة وانتظار قدوم آبائهن، الذين لن يتأخروا فى المجيء. قامت العديد من الموريسكيات باستضافتهن فى بيوتهن وتدليلهن، من أجل أن يقفن إلى جوارهن حين دخول الجنود إلى القرية.

عقب إطلاع ماركيز مونديخار على الطريق الذى سلكه العدو فى تلك الليلة، أمر بتحرك الجيش فى الصباح الباكر ليوم الثلاثاء، الموافق الثامن عشر من يناير، وسلك طريق العودة إلى خوبيليس. كان بالكاد قد دلف إلى تلك البلدة، حينما جاءه خيرونيمو دى أبونتى يرافقه خوان سانشيث دى بينيا، وأسلماه رسالةً أخرى من الصغير، يكرر فيها ما ورد فى الخطاب الأول، ولم يزل يطالب بتأمين لشخصه ولابن أمية كتابةً. نقل هذان المسيحيان إلى الماركيز الرغبة التى أظهرها المسلمون، وما دار بينهم فى اجتماعاتهم، وحمايتهم للمسيحيات من القتل على أيدى الثوار الجبليين؛ كما أكدا له أن أولئك الثوار كانا المسبب الرئيس للشرور التى تم اقترافها فى المعابد والقساوسة والأهالى المسيحيين، وحاولا نزع المسؤولية عن كاهل كل من الصغير وابن أمية. وقد أجابهما الماركيز بأن عليهما الرجوع إلى الرجلين، وإخبارهما أن يحضرا إليه لتسليم نفسيهما، وهو سيقبلهما، كما سيقبل كل من يأتى فى صحبتهما، تصديقًا لما قال من قبل فى بيتريس؛ بيد أن عليهما أن يعيا أنه لن يمنحهما أى وقت لترتيب للأمر؛ وكذلك فقد تجاهل مسألة التأمين الكتابى. ارتاب الماركيز فى كون الأمر برمته يهدف لمنحهم وقت لإخراج الثياب[١٥] والنساء من البلدة، فأمر الرجال بحث الخطى.

(١٥) الدارس للتاريخ الإسبانى فى ذلك العصر يدرك الأهمية الاستثنائية التى تمثلها الثياب، فهى ترد فى اتفاقية تسليم غرناطة، وترد فى المراسيم الملكية، كما ترد فى مذكرة نونييث مولاى محامى الموريسكيين. هنا أيضاً يخشى الماركيز أن يستغل المسلمون الفرصة لإخراج ثيابهم من البلدة. (المراجع).

مع عودة الرجلين المسيحيين بالجواب، الذى لم يلق أى استحسان من قبل القائدين المسلمين، قام القائدان بتجميع المقاتلين، وأخذا بعض الأغراض الثمينة التى تسنى لهما حملها، ثم تركا القلعة وتوجها صوب بيرتشول عبر الجبال، بعد أن تركا أوامر للجميع بأن يحذوا حذوهما. عند اقتراب ماركيز مونديخار من ذاك الموضع، أوقف مسيرته هو وسرايا المشاة، وبعث بغونثالو دى ألكانتارا فى صحبة نفر من الفرسان لاستطلاع المكان، آمراً إياه ألا يسمح للجنود بالدخول إلى المنازل، لكى لا ينفصلوا عن الركب بغرض السرقة، ويحدثوا أية كوارث. لم يمض وقت طويل حتى عاد المسيحيان، وقصا على مسامع الماركيز كيف رجع القائدان يرافقهما سائر المقاتلين أدراجهم إلى بيرتشول وكاديار. وأنهما اصطحبا السواد الأعظم من النساء، بحيث لم يتبق بالقلعة سوى خمسمائة رجل من الشيوخ المقعدين، والكثير من النسوة اللاتى لم يستطعن الذهاب.

فى أعقاب ذلك أصدر الماركيز تعليماته بالتحرك نحو البلدة، فخرجت المسيحيات الأسيرات لملاقاته، إلى جوار بعض الصخور الكائنة بالقرب من المنازل الموجودة بالمنطقة المرتفعة المطلة ناحية الغرب، وهن يذرفن الدموع التى استثارت فى الحقيقة مشاعر الشفقة. وكان السواد الأعظم منهن يحملن أبناءهن الصغار بين أيديهن، بينما تبعهن الأطفال الأكبر بعض الشىء سيراً على الأقدام؛ وجميعهن كاشفات الرأس، تنسدل شعورهن على أكتافهن، وقد ابتلت وجوههن وصدورهن بالعبرات، التى تقطر من أعينهن فى سرور وأسى. هذا ولم يفلح أى عزاء فى التهوين عليهن إزاء رؤيتهن لرجالنا المسيحيين، وتذكرهن للميتات بالغة الوحشية التى منى بها أزواجهن، وإخوانهن، وآباؤهن، وأبناؤهن أمام أعينهن. فأخذن يصرخن قائلات: " لا تبقوا أيها السادة على حياة رجل أو امرأة من أولئك المارقين، فقد كانوا أشراراً للغاية، وأساءوا إلينا أبلغ إساءة، وعلاوةً على ذلك كله حاولوا أن نرتد عن ديانتنا ما بين الرجاء والتهديد". لان قلب الماركيز لدى رؤيته لتلك السيدات المسكينات الملتاعات إلى ذاك الحد، وبادر بالتخفيف عنهن قدر استطاعته. ثم أبعدهن إلى أحد جوانب الطريق،

وأرسل رجالاً ليتتبعوا خطى المسلمين فى الاتجاهات التى اعتقد أنهم قد سلكوها، فذهب المشاة إلى بعض الأرجاء، بينما قصد الفرسان أنحاءً أخرى، وذلك وفقًا للمكان وطبيعة التضاريس. أما هو فقد سار مع جموع الجنود ليدور حول القلعة.

الفصل التاسع عشر

يتناول حضور الكاهن القانونى توريخوس إلى معسكرنا يرافقه العديد من حجّاب البشرات لمحاولة تهدئة الأوضاع فى الأراضى.

لم يكن رجالنا قد احتلوا قلعة خويبليس بعد، حينما حضر الكاهن القانونى توريخوس برفقة ميغيل بن ثابا Miguel Abenzaba - حاجب بالور - وستة عشر من حجاب القرى الرئيسة فى البشرات، ليبحثوا مع ماركيز مونديخار سبل إقرار السلام. وكان توريخوس هذا - كما ذكرنا فى مواضع سابقة- الكاهن القانونى لداريكال، كما كان مقربًا للغاية إلى قلب أحد الموريسكيين المنحدرين من سلالة حجّاب أوخيخار السالفين يدعى أندريس الوزير، وكان الكثيرون يعتقدون أنه ولده؛ وكذلك فقد كانت أمه موريسكية. من أجل ذلك قام أندريس، وسائر أقربائه، لتوقيرهم إياه، بالوقوف إلى جانبه أثناء الثورة، للحيلولة دون قتل الثوار الجبليين له. وحتى نفهم قصته بصورة أفضل، وهى ليست بأقل من أن نذكرها، فسوف نتناولها فى هذا السياق فى إيجاز. كنا قد أوردنا من قبل، فى الفصل الخاص بثورة أوخيخار(*)، كيف أن أحد أصدقاء توريخوس الموريسكيين كان قد أخرجه من البرج الذى كان حبيسًا بداخله، وخبأه فى أحد الكهوف الموجودة بجبل غادور. عقب إيداعه بالكهف، تم إبلاغ أندريس الوزير بما حدث، فحمله إلى منزله فى أوخيخار، وأبقاه هناك لعدة أيام؛ وكان هذا هو المكان الذى

(*) راجع الكتاب الرابع، الفصلين الثالث عشر والرابع عشر. (المترجمة).

قصده الصغير والبارتال وآخرون للتحاور معه، وتأمينه على حياته. أثناء وجود أولئك الرجال، بالإضافة إلى ميغيل دى روخاس - صهر ابن أمية - بالبلدة، لم يكن لدى توريّخوس ما يخشاه. لكن إبان رحيلهم، ومجيء آخرين لا تربطهم معه تلك الصداقة الوثيقة، قام أندريس الوزير بنقل الرجل إلى نيتشيتى Nechite تمهيداً لإرساله فى إحدى الليالى إلى وادى آش.

حدث أن هبت عاصفة شديدة جداً، وتساقطت كميات كبيرة من الثلوج، فى الوقت الذى كان يتعين فيه نقل الرجل، فلم يتسن لأحد عبور الجبل. فى أعقاب ذلك نزل ابن فرج بالبلدة، وكان يقترف الفظائع التى أسلفنا ذكرها فى حله وترحاله. فلمّا علم بوجود توريّخوس هناك، نادى بأنه يُحظَر على أى مسلم يود البقاء حيًا إخفاء توريّخوس أو أى مسيحى آخر؛ وإنه يتوجب على الجميع جلب النقود، والفضة، والذهب، والحلى التى حصلوا عليها من المسيحيين؛ وكان قد اعتاد القيام بذلك فى سائر المواضع التى يصل إليها. فأنبأه من بالبلدة أن الرجل مريض فى الفراش، وإن كلا من ابن أمية والصغير قد منحاه الأمان؛ بيد أن كل تلك الأمور لم تكن لتجد نفعًا، لكن الأربع آلاف دوقية - التى مثلت ما بحوزته من نقود- والمشغولات الفضية التى وضعها الرجل بين يدى ابن فرج قد نجحت فى كبح جماح غضب الطاغية. علاوةً على ذلك، فقد قتل ثلاثة من خدم توريّخوس المسيحيين، وغلامين آخرين كانا قد أفلتا من الموت فى أوخيخار، وكانت أماهما قد أودعتاهما فى تلك البلدة.

عقب انصراف ابن فرج من البلدة، قام أصدقاء توريّخوس بحمله إلى بالور، وأودعوه منزل ميغيل بن ثابا، وكان شخصًا عاقلاً، يُعَد من أكثر الرجال بالبلدة ثراءً. وهناك شرع الموريسكيون فى الإعداد لمسألة الاستسلام معه ومع نفر آخرين من أقاربه. فيما بعد اصطحبه أندريس الوزير إلى نيتشيتى للغرض ذاته، وهناك توجه لرؤيته كل الحجّاب - الذين يرافقونه الآن رغبةً فى تشفعه لقضيتهم لدى ماركيز مونديخار وكثيرين غيره ممن تربطهم معهم معاملات تجارية - وذكّروه بما جلبوه له من نفع؛ كما رجوه أن يرأف بتلك الأراضى، وأن يحاول إصلاح أوضاعها بكل السبل

المتاحة، فهم يعرفون أتم المعرفة أن مصيرهم إلى الفناء، أما هو فقد قام من جانبه بتشجيعهم، وتطوع لإنجاز مهام عظيمة.

وصل الجمع إلى معسكرنا يحمل أفراده فى أيديهم أعلامًا بيضاء ترمز إلى السلام. وقد سمح لهم الماركيز بالتقدم صوبه، بعد أن عرف الهدف الذى قدموا من أجله. ألقى الحجّاب بأنفسهم تحت قدمى الماركيز، وطلبوا منه أن يرحمهم ويصفح عن خطاياهم. عرّف الكاهن القانونى سيادة الماركيز بالحجّاب، وكيف أنهم قدموا - بعد أن فطنوا إلى الخطأ الذى اقترفوه - لوضع أنفسهم تحت رحمة جلالة الملك، ليشملهم فى كنف رعايته وحماه؛ وهو ما سيُقدم عليه باقى الأهالى إذا ما اطمأنوا إلى إمكانية القيام بذلك. وهم يرجونه فى ضراعة أن يتشفع لهم لدى جلالة الملك حتى يعفو عنهم. ناب توريّخوس عن الحجّاب فى توصيل تلك العبارات وغيرها من كلمات إراحة الضمير إلى الماركيز، الذى استقبلها فى سرور، وطمأن الموجودين. كما أصدر أوامره للجميع حتى يضعوا فى الاعتبار عدم تعريضهم لأى ضير؛ لأن الجنود كاد صبرهم ينفذ حينما شهدوا محاولة التوصل لحل وسط مع الثوار؛ وباتوا يلعنون توريّخوس وكل من يسعى لتحقيق الوساطة، كما لو كانوا ينتزعون من بين أيديهم جائزة فوز محقق. عندما أدرك الجنود فى اليوم التالى أن الماركيز قد قبلهم، سرى بين جنبات المعسكر أسى عميق كما لو كانوا قد خسروا الحملة.

الفصل العشرون

يتناول احتلال المسيحيين لقلعة خوبيليس، وقتلهم للمستسلمين فى تلك الليلة

تقع قلعة خوبيليس على قمة ربوة شديدة الارتفاع، تحوطها المنازل الكائنة فى الجهة الشرقية. على الرغم من أن أسوارها قد سُوت بالأرض، فإن موقعها كان يتيح للأعداء الدفاع عن أنفسهم، لو لم تُعقهم خلافاتهم عن القيام بذلك. أثناء مسيرة رجالنا صوب القلعة، نزل ثلاثة شيوخ مسلمين عند منتصف سفح الربوة يرفعون راية السلام؛ عندما مُنحوا الأمان وسُمح لهم بالتقدم، أخبروا الماركيز عن فرار القادة والمقاتلين، ورجوه بالأصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن الموجودين داخل القلعة أن يُدخلهم فى رحمته. حينئذ أمر الماركيز كلاً من السيد ألونسو دى كارديناس، والسيد لويس دى كوردوبا، والسيد رودريغو دى بيبيرو، وفرسان آخرين بالتقدم والاستحواذ على القلعة ومن فيها. وهو ما قاموا به لاحقًا، وسط همهمات الجنود الذين حسبوا أنه سيستأثر بالفيء، بيد أن الماركيز غنّمهم المتاع، الذى كان يحوى على مقتنيات ثمينة من الحرير والذهب والفضة واللؤلؤ، بعد أن منح الجزء الأكبر والأفضل منه لمن تقدموا المسيرة.

كان عدد المستسلمين ثلاثمائة رجل وألفى ومائة سيدة. نظرًا لتمتع ذلك الموضع بعدد من سبل الرعاة، التى تُمكّن من يرغبون فى التدلى بالحبال من أسوار القاعة ليلا القيام بذلك دون أن يراهم أحد، أمر الماركيز بإنزال الأسرى إلى البلدة، على أن يتم إيداع النساء فى الكنيسة وإيواء الرجال داخل المنازل. دخل ذاك القرار لاحقًا قيد التنفيذ، ولّما كانت سعة الكنيسة صغيرة وعدد الأفراد كبيراً، كان لابد أن يظل خارج

المبنى ما يربو على ألف روح، تواجدوا فى كل من الساحة الصغيرة المقابلة لباب الكنيسة وأحواض الزرع الكائنة ببعض الحقول القريبة، وأحاط بهم المقاتلون.

كان الليل قد قارب على الانتصاف حينما رغب أحد الجنود - وكان يُعد من السفلة - فى إخراج إحدى الفتيات من بين النساء. قاومت الفتاة الجندى، الذى جذبها بعنف من ذراعها ليحملها على مرافقته غصبًا، عندما عجزت الكلمات أن تحقق له مأربه. عندئذ نهض أحد الغلمان المسلمين واقفًا على قدميه، وكان دائمًا ما يتبع تلك الفتاة مرتديًا زى امرأة، ولعله كان أخيها أو زوجها أو حبيبها. فتوجه صوب الجندى، وهاجمه فى حماس وتصميم بالغ بخنجر كان قد خبأه، حتى أنه لم ينتزع الفتاة من بين يديه فحسب، بل سلبه سيفه، وطعنه به مرتين. كما قدم روحه فداءً بعد أن قاتل جنودا آخرين هاجموه لاحقًا. سرت النداءات فى المعسكر قائلةً إن هناك مسلمين مسلحين بين النساء، فكثر الرجال الذين هرعوا من كل الثكنات فى فوضى عارمة، حيث لم يعرف أحدهم من أين تأتيه النداءات، ولم يفهم الجنود بعضهم بعضًا، أو يروا المكان الذى يتعين عليهم التوجه إليه نظرًا للظلام الحالك. هب المزيد من الجنود إلى مكان الغلام الحانق، ومن هنا بدأت الأفعال الوحشية، ولقى الناس على أيديهم ميتات جائرة، حيث أعملوا سيوفهم فى النساء الهزيلات الضعيفات، وقتلوا فى لحظات قلائل كل من كن خارج الكنيسة من النسوة. ولم تكن السيدات الموجودات بالداخل لتبق على قيد الحياة لو لم يسارع بعض خدم الماركيز بإغلاق الأبواب، وكان من حسن الطالع أن بات أولئك ليلتهم فى البرج للاعتناء بهن.

أُصيب هنالك العديد من الجنود، وكان أكثرهم قد جرح بعضهم بعضًا، حيث ظن من حضروا من خارج الساحة أن من يغمدون السيوف فى الموجودين هم من المسلمين، لأنه لم يكسر ظلمة الليل الحالك سوى بريق نصل السيوف ولمعان بارود البنادق؛ كان أولئك الجنود هم من تسببوا فى القدر الأكبر من الدمار، حيث أرادوا الثأر لدمائهم المراقة من تلك النساء اللواتى كان سلاحهن الوحيد الدموع وأنين الآلام. فى خضم كل ذاك الاضطراب بادر القائد العام على وجه السرعة بإرسال القائدين

أنطونيو مورينو وإيرناندو دى أُرونيا بالإضافة إلى قادة مجموعات الجنود لمعالجة ذلك الوضع، لكن لم يُفلح أى منهم فى تحقيق ذاك المأرب، حيث كان المعسكر بأسره قد هاج فيما يشبه التمرد، بعد أن أغضب الجنود المنشور الذى صدر فى ذاك اليوم، وحظر فيه الماركيز على الجنود أخذ أى من النساء فى الأسر لكونهن جميعًا من الحرائر.

استمر حصد القتلى والجرحى إلى أن بزغ ضوء الصباح وهدأ الجنود من تلقاء أنفسهم: أما من عجزوا منهم عن كبح تعطشهم الدائم لإراقة الدماء، فلم يبق أمامهم المزيد من الدماء لكى تُهدر؛ بينما فطن آخرون إلى فداحة الخطأ الذى تم اقترافه. شرع الأب أوستوس دى ثاياس Ostos de Zayas – كبير المستشارين القانونيين – لاحقًا فى محاكمة المذنبين، حيث شُنق ثلاثة جنود أظهرت المعلومات تورطهم فى الأمر. فى اليوم ذاته أرسل الصغير – الذى كان قد تراجع إلى بيرتشول – إلى الماركيز يخبره برغبته فى الاستسلام. فقام الماركيز بدوره بإرسال كل من السيد فرانثيسكو دى مندوثا، والسيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، مع لواء من الفرسان، وكتيبة من المشاة لاصطحاب من يودون تسليم أنفسهم. بيد أن الصغير ندم لاحقًا على فعلته؛ لأنه خشى أن تُفرض عليه عقوبة رادعة، فتوغل فى الجبال. فما كان من السيد فرانثيسكو دى مندوثا إلا أن اصطحب زوجته، وبناته، وعائلته، وأربعين من المسيحيات الأسيرات كن برفقتهن ليعود بهن إلى خوبيليس، بعد أن أدرك إن ابن أمية قد توجه صوب أوخيخار.

الفصل الواحد والعشرون

كيف شرع ماركيز مونديخار في منح الأمان للمسلمين الخاضعين، وإرساله المسيحيات الأسيرات إلى غرناطة.

أصدر ماركيز مونديخار أوامره بمنح الأمان للمسلمين الخاضعين الذين قدموا برفقة الكاهن القانوني توريّخوس. كما أمرهم أن يذهبوا إلى القرى ويحاولوا بطريقة ما حمل الأهالي على الرجوع إلى منازلهم. ولم يقبل الماركيز أن يسيء أحد معاملتهم، حتى يتحمس الأهالي حينما يشهدون الترحاب الذى لقيه أولئك، والمعاملة الحازمة التى طُبّقت على من ظلوا على عنادهم. لم ترق تصرفات القائد العام للقادة والجنود المعادين للسلام، أو لمن نظروا إلى طغيان أولئك الثوار على أنه إساءة لهم، حيث تراءى لهم أن الماركيز قد بالغ فى ترأفه بهم. أما المسيحيون الذي كانوا أسرى فكانوا أكثر من تأسى لذلك الأمر، فباتوا يروون بين الدموع والتشنجات الحزينة الأفعال الوحشية التى قام بها الموريسكيون، والابتهاج الذى هتفوا به لاسم محمد وعقيدته، والتحقير والازدراء الذى تعاملوا به مع دور عبادة عقيدتنا المقدسة أمامهم؛ بيد أن ماركيز مونديخار تجاهل ذلك كله، ظنًا منه أن أسلوبه أكثر مواءمة للأوضاع.

لمّا كان لابد للجيش من التقدم إلى الأمام، ونظرًا لوجود الكثير من الأشخاص عديمى النفع(١٦)، أرسل الماركيز تِيّو دى أغيلار Tello de Aguilar لاصطحاب

---

(١٦) أى أنهم من غير المقاتلين ويعوقون سير الجيش كالنساء والأطفال وكبار السن. (المراجع).

المسيحيات اللاتى كن أسيرات والجرحى والمرضى إلى غرناطة، على أن ترافقه كتيبة فرسان إثيخا Ecija وكتيبتان للمشاة. وقد قطعوا الطريق فى ستة أيام؛ لأن النساء كن يسرن على الأقدام، وكان عددهن قد بلغ ثمانمائة نفس. إبان دخول المدينة، قام القائد بوضع المشاة فى الطليعة، والفرسان فى المؤخرة، بينما سارت النساء فى المنتصف على هيئة الموكب. وقد حمل عنهن كل سيّاف طفلين: أحدهما عند صهوة الفرس والثانى عند المؤخرة، كما حمل بعضهم ثلاثة أطفال: اثنين على صهوة الفرس، والأكبر سنًا عند المؤخرة.

خرج حشد غفير من الناس لمشاهدة دخولهم من بوابة باب الرملة. وقاموا جميعًا، ما بين مشاعر السرور والتعاطف، بتقديم الشكر المطلق للرب الذى حررهم من سطوة أعدائهم. حينما وصلوا إليهم لتحيتهم، لم تسعف الكلمات أو الأنفس الكثير منهن عندما أردن التحدث، حيث بلغ الارهاق والكرب منهن مبلغًا شديداً. كان من بين النساء العديد من السيدات النبيلات، والفتيات الأنيقات الجميلات، اللواتى تربين فى ترف شديد، ممن سرن عاريات حافيات، وقد أساء إليهن كل من الأسر والطريق؛ فلم تتفطر لمرآهن قلوب من يعرفهن فحسب، بل من لم تسبق لهن رؤيتهن. سار الركب على تلك الشاكلة فى المدينة بأسرها حتى وصل إلى دير سيدتنا عذراء النصر -الكائن أعلى بوابة وادى آش- الذى قصدوه للصلاة، ومن هناك توجه الجمع إلى حصن الحمراء لرؤية ماركيزة مونديخار. عند رجوع النساء إلى مقر رئاسة الأساقفة، اصطحب الأقارب قريباتهم إلى أماكن إقامتهم، بينما استضاف الأهالى الصالحون النساء الأخريات إحسانًا منهم، وتم شراء ثياب وأحذية لهن من أموال الصدقات.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول الهجوم الذى شنه ماركيز بلش فى تلك الآونة على مسلمى فيليكس.

مكث ماركيز بلش فى غيثيخا طوال خمسة أيام فى أعقاب الهزيمة التى ألحقها بالغورى دون أن يقرر وجهته التالية. وقد طالبه الأب مولينا دى موسكيرا من موقعه فى قلهرة بالتعجيل فى المضى صوب سند وادى آش، لأن ذهابه إلى هناك سيكون له أهمية بالغة فى تأمين تلك الأراضى بأسرها. وكان الجواسيس قد أعلموه بأن المسلمين لديهم كتيبتين من الرجال: أحدهما فى أندرش، والأخرى فى فيليكس، فأراد الماركيز التوجه لتفكيكهما. فى يوم الثلاثاء، الموافق الثامن عشر من يناير، وهو ذات اليوم الذى توجه فيه ماركيز مونديخار إلى خوبيليس، انطلق ماركيز بلش مع جيشه من مقر إقامتهم، وذهبوا لقضاء تلك الليلة أعلى جبل غادور - الكائن فى منتصف الطريق المؤدى إلى فيليكس تقريبًا - لكى يُغير على ذاك الموضع فى يوم الأربعاء الذى يوافق عشية يوم القديس سيباستيان Sebastián.

فى أعقاب ذلك وصلت أنباء تلك الحملة إلى ألمرية، وإلى السيد غارثيّا دى بيّاروِيل. وهو رجل مجرم، يريد أن يحوز المجد دائمًا، وأراد أن يسبق الماركيز إلى ذلك الأمر؛ فغادر المدينة برفقة سبعين من الرماة الراجلين وخمسة وعشرين من الفرسان. وفى الصباح الباكر من يوم الأربعاء ذاته تمركز فى ميناء يقع على مسافة ربع فرسخ من فيليكس، فى الموضع الذى يتعين على قوات ماركيز بلش المرور به. كان هدفه من القيام بذلك هو أن يحسب المسلمون لدى رؤيتهم إياه إنه يمثل طليعة الجيش، ويبادروا بالفرار، مما يمكنه من سرقتهم قبل وصول الماركيز. بيد أن الأمور لم تسر على النحو

الذى توقعه، حيث أشهر المسلمون أسلحتهم حينما اكتشفوا وجوده، ثم تقدموا وهم يدقون الطبول وينفخون فى الأبواق، وخرجوا لانتظاره فى كتيبة من المشاة وذراعين من الرماة فى المقدمة. وقد أرسلوا فى بادىء الأمر خمسين رجلاً فرادى لاستطلاع الأجواء، ثم أتبعوهم بخمسمائة رجل لبسط نفوذهم على إحدى الروابى المرتفعة، التى تعلو الميناء. ورغبةً منهم فى إفهام المسيحيين أن لديهم أعدادا غفيرة من الرجال، شكّلوا سرية أخرى من الغلمان والنسوة اللواتى اعتمرن المعاطف والقبعات والقلنسوات الخاصة بالرجال، ووضعوها أسفل الموقع القديم لقلعة كانت قائمة هناك من قبل.

حينما أبصر السيد غارثيًا دى بيّارّويل تلك الحشود الغفيرة، التى بدت أكبر من حجمها لبعد المسافة؛ والهيئة التى خرجوا عليها، وهى جديدة على أهالى تلك الأراضى، فطن إلى ضرورة وجود أتراك أو مسلمين من شمال إفريقيا بين صفوفهم. حينما أدرك الرجل أن مسعاه قد فشل، عاد إلى الطريق الذى كان يسلكه جيشنا، لكونه أفضل السبل التى تؤمن له التراجع. ولم يمض وقت طويل حتى لقى الماركيز، وقص عليه ما دار. عندما سأله الماركيز إذا ما كان يعتقد أن الأعداء سيجرؤون على المكث فى موضعهم، أجابه أنه يرى أنهم باقون، حيث تم تنبيهه إلى وجود كل من التازى Tezi والفوتىّ Futey، وكذلك بويرتوكارّيرا Puerto Carrera – القادم من خيرغال – على رأس ثلاثة آلاف مقاتل، وإلى أنهم قد أحكموا تحصين المكان، واتخذوا وضع الدفاع. طلب منه الماركيز منحه خمسين جنديًا ممن يرافقونه، وكانوا رجالاً جسورين ومتمرسين على تلك الأراضى، فأعطاهم له، وقفل عائدًا إلى مدينة ألمرية فى تلك الليلة. واصل ماركيز بلش طريقه بعدما اصطفت سراياه فى نظام محكم: حيث تقدمهم ألف رام فى الطليعة، وكان أغلبهم من الجنود المسلحين بالبنادق، بينما سار سلاح الفرسان بأسره فى صحبته هو على أحد الجوانب.

أما المسلمون، الذين كانوا قد عاودوا التمركز عند أطلال القلعة، فقد ظنوا أن تلك القوات هى ذات القوات التى كانوا قد شهدوا تقهقرها آنفًا؛ فخرجوا لملاقاتها،

وانتظروها فى منتصف الطريق، بعد أن اصطفوا على نفس الهيئة التى اتخذوها فى المرة السابقة. مع وصول طليعة كتائبنا إلى مرمى طلقات رماة كتائبهم نشبت معركة حامية الوطيس، تفوق فى شدة احتدامها ولججها كل ما يمكن تخيله؛ لأن المسلمين تحمسوا وفعلوا كل ما فى وسعهم. على الرغم من ذلك، حينما أدركوا أنهم يقاتلون فى مواجهة جيش ماركيز بلش –الذى اعتاد مسلمو تلك الأراضى تسميته بإبليس الرأس الحديد[١٧] Ibliz Arraez el Hadid، ويعنى الشيطان صاحب الرأس الحديدية – فقدوا الأمل فى تحقيق النصر. فى خضم الاشتباكات المحتدمة، شن فرساننا هجومًا من أحد الجوانب، حمل فيه رجالنا الأعداء على التخلى عن موقعهم الذى كان منيعًا للغاية، وأجبروهم على التراجع إلى أن وصلوا إلى منازل البلدة. هنالك عاودوا تنظيم صفوفهم، وقاتلوا لبعض الوقت. فى أعقاب إبعادهم عن موقعهم للمرة الثانية، لاحقتهم كتائب المشاة، وصعدت الجبل فى أعقابهم، وكانوا فى بقعة مرتفعة، حتى دفعتهم نحو القمة، التى تتمتع بقدر لا بأس به من النتوءات الصخرية، التى نحتتها الطبيعة فيما يشبه المتاريس. وعندها أقام المسلمون جبهة وشرعوا فى القتال من جديد، وأظهروا استهانتهم بزخم المشاة، بعد أن تحرروا من ملاحقة الخيول لهم. بيد أن الرماة – الذين كان لهم بالغ الأثر فى ذاك اليوم– تغلغلوا بينهم فى شجاعة، فقتلوا منهم الكثير، وهزموهم وأجبروهم على الفرار. وقد مات كل من سقطوا باتجاه أماكن وجود الخيول، أما من سلكوا أعلى الجبل فقد نجوا.

لقى ما يربو على سبعمائة مسلم حتفهم على مدار الاشتباكات الثلاثة وملاحقة الجنود لهم، وكان من بينهم بعض النسوة اللاتى قاتلن كالرجال البواسل، حتى أنهن وصلن لإعمال خناجرهن فى بطون الخيل. بينما قامت أخريات، لم يجدن أحجارًا

---

(١٧) مستوى اللغة العربية عند مارمول موضوع يغرى بالدراسة. يهمنا هنا أن نثبت دون شك أن اللغة العربية كانت حية فى أوساط الموريسكيين حتى قبيل رحيلهم عن إسبانيا. (المرجع).

لرميها على الجنود، بملء قبضاتهن بتراب الأرض وإلقائه على أعين المسيحيين، لإعماء أبصارهم، والتسبب فى فقدهم لحياتهم وأبصارهم فى آن واحد. قتل كل من التازى والفوتيِّ أثناء القتال، كما أُسِرَ أحد أبناء بويرتو كارّيرو، وفتاتان من شقيقاته، وعدد غفير من النساء. بينما قُتِلَ نفر من المسيحيين وجُرِح ما يزيد على خمسين رجلًا. ظفر الجيش بفىء ثمين من المتاع المُحَمل بالثياب، والحرير، والكثير من الذهب، واللؤلؤ؛ وهو ما جعل الجنود قانعين بهذا الانتصار. غير أن تلك المغانم الوفيرة باتت مضرة؛ لأن الكثير من الجنود هجروا ألويتهم، ورجعوا إلى ديارهم رغبةً منهم فى تأمينها. وقد شكى ماركيز بلش من ذاك الأمر فيما بعد، قائلاً إنهم قد خذلوه حينما كان فى أمس الاحتياج إليهم، وكان الداعى وراء مكوثه فى فيليكس هو الحيلولة دون مغادرة من تبقى برفقته للمعسكر. أثناء بقائه فى ذاك الموضع، وصلت إلى الماركيز قوات مرسية، التى لم يكن الأب أرتياغا Artiaga – القاضى المقيم بتلك المدينة – يرغب فى إرسالها إليه دون أن يأمره جلالة الملك بذلك. جاء ثلاثة من نواب مجلس البلدية كقادة لتلك القوات: حيث أتى السيد خوان باتشيكو برفقة لواء مكون من خمسين فارسًا، كما حضر كل من ألونسو غوالتيرو Alonso Gualtero ونوفرى دى كيروس Nofre de Quirós مع كتيبتين تضم كل منهما مائتين وخمسين راميًا وقواسًا. وكذلك فقد وصل كل من السيد بدرو فاخاردو Pedro Fajardo – ابن السيد ألونسو فاجاردو، سيد بولوبى Polope -والسيد دييغو دى كيسادا، الذى كان ماركيز مونديخار غاضبًا عليه منذ الهزيمة التى مُنى بها فى تابلاتى، على رأس ثمانين جنديًا من الرماة وعشرين فارسًا مغوارًا أحضروهم من غرناطة. واجتازوا بهم نهر المياه البيضاء، وعبروا سند وادى آش والبولوبوى للوصول إلى فيليكس، وهو الموضع الذى سنتركهم فيه الآن، لنرجع إلى شأن المعسكر الآخر الموجود فى خوبيليس.

الفصل الثالث والعشرون

كيف وصل جيش ماركيز مونديخار إلى كاديار وأوخيخار، وهاجم بعض الكهوف التى تمركزت بها جماعات من الموريسكيين.

انطلق جيشنا من خوبيليس فى يوم الأحد الموافق الثالث والعشرين من يناير، ووصل فى ذات اليوم إلى كاديار. ولم يحدث أثناء المسيرة أمر يذكر، لأن المسلمين كانوا قد تراجعوا إلى أوخيخار. وإذا كان نفر منهم قد هبط من الجبال للقيام ببعض المناوشات، فقد عاودوا الصعود فيما بعد، حيث لم يجرؤوا على الهجوم إلا بالخناجر. راودت السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس[١٨] الرغبة فى التميز بالقيام بأمر يلقى استحسان ماركيز مونديخار خلال تلك الليلة، وكان يشهد المفاوضات التى تجرى فى شأن استسلام المسلمين، فطلب الإذن لمكاتبة ابن أمية فى ذاك الأمر. لمّا سُمِحَ له بذلك، بعث إليه أحد المسلمين الخاضعين، بيد أن الرسالة لم تصل إلى يديه فى تلك المرة؛ لأن الجنود أجهزوا على الرسول الذى كان يحملها؛ لذا فإنه لا يوجد ما يدعونا لذكر فحواها فى هذا الموضع، وسوف نرجئه إلى الوقت الذى نتناول فيه الرسالة الثانية التى كتبها إليه.

غادر الجيش كاديار فى الصباح الباكر من يوم الإثنين. وقد حضر إليه نفر من المسلمين فى الطريق لتسليم أنفسهم، وجاء ضمن هؤلاء دييغو لوبيث ابن عبو – وهو

(١٨) نذكر القارئ غير المتخصص بأن القائد المذكور حفيد الملك أبى الحسن من زوجته المسيحية وأنه كان متعاطفا مع الموريسكيين ويبذل ما يستطيع للتخفيف عن كاهلهم (المراجع).

من أبناء عمومة ابن أمية، وابن أخ الصغير– وقد اصطحب معه شماس كنيسة ميثينا دى بومبارون، الذى كان أحد رعاياها، ليشهد أمام ماركيز مونديخار كيف أنه دافع عنها ضد الثوار الجبليين الذين كانوا يريدون إحراقها، وكيف قام بإخفائه هو وزوجه وأبنائه فى إحدى المغارات حتى ذلك اليوم للحيلولة دون قتله. سُر الماركيز كثيرًا بما قصه خادم الكنيسة على مسامعه، وأطرى على المسلم أمام الآخرين، وقال إن أهالى البشرات لم يثوروا جميعًا بمحض إرادتهم. وقد أعقب ذلك بإصدار تعليمات لمنحه صك أمان مرض للغاية حتى لا يتعرض له أحد بسوء، وحتى يتسنى له حث جميع أهالى تلك البلدة، والموجودين خارج نطاقها ممن يرغبون فى الدخول تحت إمرة جلالة الملك، على الاستسلام.

فى ذلك اليوم سار مقاتلونا فى طريقهم إلى أوخيخار بعد تنظيم صفوفهم؛ لأنهم حسبوا أنهم سيلاقون هناك حشود الأعداء التى يتعين عليهم محاربتها. كان ابن أمية قد لجأ إلى ذاك الموضع فى أعقاب فراره من خوبيليس. فجمع قادة الثوار لينظر معهم ما يتعين عليهم أن يفعلوه، فشرعوا فى اختيار مكان منيع، نظرًا لطبيعة التضاريس ويتمركزون فيه لانتظار قدوم معسكرنا، واستعمال الأسلحة فى الدفاع والهجوم، أثناء اضطلاع رجال الفرق الأخرى بالإغارة على دوريات الحراسة الخاصة بمعسكرى الماركيزين؛ لأنه من الضرورى الإبقاء عليهما متفرقين. كانت هناك آراء متضاربة حول ذاك الاختيار: حيث رغب ميغيل دى روخاس وأهالى أوخيخار أن يقع الإختيار على بلدتهم؛ لأنهم كانوا قد بدأوا بالفعل فى مفاوضات السلام، وقالوا إن أوخيخار تتمتع بموقع منيع، ويمكن زيادة تحصينه بسهولة بالغة، كما أن وجودها فى وسط البشرات، يخول لها إغاثة سائر بقاع البشرات الأخرى على وجه السرعة. أما الغورّى برفقة رجال آخرين – ممن يكرهون السلام الذى سيدفعون رؤوسهم ثمنًا لتحقيقه – فكانوا على يقين من أنه ستطبق عليهم أحكام العدالة الرادعة، بوصفهم القادة والرؤوس المدبرة لتلك الشرور، فكانوا لا يريدون وضع أنفسهم فى موقع يُمَكّن أحدًا من محاصرتهم. وهكذا باتوا يضعون ثقتهم فى وعورة الجبال أكثر من وثوقهم فى الأسوار

والترميمات التى سيزجون بأنفسهم بداخلها، فأرادوا الذهاب إلى باتيرنا – وهى بلدة على سفح الجبل ما بين أوخيخار وأندرش – حيث لا يتسنى لأحد أن يحدق بهم، كما أن تراجعهم سيمسى آمنًا متى رغبوا فى مغادرة المكان.

لمَّا كان ميغيل دى روخاس صاحب السطوة بين الموجودين، وبما أنه كان له نفوذ كبير فى تلك الأراضى، فقد تجاهل تلك الآراء، وحمل ابن أمية على أن يقع اختياره على التحصن فى أوخيخار، وهو ما تم إقراره فى تلك الجلسة. بيد أن الغورّى والبارتال والسينيث انفردوا به فيما بعد، وقادوه للاعتقاد – ما بين الرهبة والمكر– أن صهره يخدعه؛ وأنه قد عقد اتفاقًا مع ماركيز مونديخار، يسعى بموجبه لإيداعهم جميعًا فى موضع يتيح للماركيز الإيقاع بهم فى شباكه، على أن يحتفظ هو بما فى حوزته من النقود والفضة. ومن الجائز أنهم كانوا يقولون الحقيقة. فى نهاية الأمر أجبر الخوف ابن أمية على تغيير ما انتواه، وتوجه الجمع إلى باتيرنا. لكن أولئك القادة لم يقنعوا بذلك، فبالغوا فى إغضاب ابن أمية إلى الحد الذى حمله –دون تريث أو تقصى الأمر– وانتهاكًا لأواصر القرابة، أن يقرر قتل صهره. فبعث إليه يستدعيه إلى منزله، وانتظره متسلحًا بالقوس والسهام لدى الباب يرافقه الأشرار الآخرون. لكنه أخطأ فى الرمية، لأن ميغيل دى روخاس حينما شاهده يصوب سلاحه نحوه، انحنى مذعوراً أسفل مرمى السهم الذى طاش ناحية الأعلى. وقد عاجله السينيث برمية أخرى عبرت ما بين فخذيه، وفى أعقاب ذلك انهال الجميع عليه بالسيوف حتى أردوه قتيلًا. من هنا دبت مشاعر عدائية شديدة بين أقارب القتيل وابن أمية، الذى طلّق زوجه، وأقسم ألا يُبقى رجلاً منهم على قيد الحياة: ففى ذات اليوم الذى ارتكب فيه جريمته، شرع أيضًا فى ملاحقة صهره دييغو دى روخاس **Diego de Rojas** أسفل الوهاد بغية القضاء عليه؛ مما دعى سائر من بقى من أقربائه – بالإضافة إلى حجّاب أوخيخار– إلى توخى الحذر معه. وكذلك فقد قتل رافائيل دى أركوس **Rafael de Arcos** – وهو شاب من ذاك النسل– وغيره؛ ومن هنا تنامى تعطشه إلى القتل حتى طاله هو نفسه وأجهز عليه، وهو ما سنتطرق إليه فى حينه.

فلنرجع الآن إلى جيشنا، الذى كان يسير بصفوف منتظمة فى طريقه إلى أوخيخار. حينما اقترب الجيش من الموضع ألفى المسلمين قد غادروه؛ بينما التجأ البعض - ممن لم يرغبوا فى التوجه صوب باتيرنا - للتحصن فى مغارات كانوا قد زودوها بالمؤونة لذاك الغرض، حيث لم يشعروا هم أيضًا بالأمان فى المعسكر. وكانت مداخل البلدة ومنافذها تقع بين صخور وأحجار قائمة الانحدار وشديدة الارتفاع، بحيث لا يمكن الصعود إليها دون سلالم طويلة. أقام جيشنا فى أوخيخار، بعد أن عزم على ملاحقة الأعداء فيما بعد، حتى لا يتيح لهم فرصة لإعادة تنظيم صفوفهم أو التقوّى فى أى مكان. بيد أن الماركيز أُجبِر على التوقف، حيث تم تنبيهه إلى أن المسلمين المختبئين داخل تلك الكهوف يتلفظون بكلمات معادية لدياتنا الكاثوليكية المقدسة، ويفخرون بكونهم مسلمين، ويتباهون برغبتهم فى الموت فى سبيل محمد؛ فقد قادهم خوفهم من المصير السئ الذى سيلحق بهم إلى المجازفة بتعريض أنفسهم للخطر. أسفر ذلك الأمر عن استشاطة ماركيز مونديخار غضبًا، كما أضحى غضبه عارمًا حينما تنامى إلى علمه قيام الموريسكيين بإلقاء تمثال مهشم للمسيح المصلوب على المسيحيين من أحد الكهوف ازدراءً لهم، وهو يقولون: "أيها الكلاب، ها هو ذا إلهكم!". كما تفوهوا بأشياء أخرى لا تستحق فى مقابلها أقل من عقوبة رادعة، وهو ما تم بالفعل؛ حيث قاتلهم رجالنا، وهزموهم بقوة السلاح، وقتلوا كل الرجال الذين ألفوهم فى الكهوف.

كان فى داخل أحد تلك الكهوف رجلان مسلمان برفقة زوجيهما وأبنائهما وتسع مسيحيات أسيرات، كانوا يرغبون فى الفرار من عقاب جنودنا والدخول فى حظوتهم فيما بعد، فبادروا بالاستسلام إبان مجيء قواتنا. لم يكتف الماركيز بقبولهم فحسب، بل أفاد منهم لاحقًا كجواسيس، وعادوا علينا بالكثير من النفع بما قدموه لنا من خدمات. قدم العديد من المسلمين البارزين إلى معسكر الحملة لتسليم أنفسهم، وقد تم قبولهم جميعًا وإكرامهم، ومنحوا الأمان لكى يرجعوا إلى قراهم سالمين. بيد أن تلك النزعة الإنسانية زادت من غضب قادة الثوار الجبليين؛ لأنهم فطنوا إلى أنه تم إلقاء

الذنب كاملاً على عاتقهم، بما لا يدع مجالاً للصفح عنهم. حتى المسيحيون أنفسهم، الذين لم يعلموا سوى القليل حول الشقاق الذى نشب بين المسلمين، فقد رأوا أن من يستسلمون قد دعتهم الحاجة والخوف إلى ذلك؛ حيث ألفوا أنفسهم وسط جيشين معاديين، فى الوقت الذى لم يعد بمقدورهم الصمود بين الجبال، نظراً للبرد القارس وهطول الثلوج الكثيفة.

كتب السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس رسالةً ثانيةً إلى ابن أمية تتفق ورسالته الأولى. فقال له فيها إنه يأسى كثيراً لإقدام فارس فى مكانته وحسن إدراكه على سلوك نهج يجلب الهلاك على نفسه وعلى الأمة الموريسكية بأسرها. وهو انطلاقًا من إشفاقه على شخصه وأصله النبيل، ينصحه بوصفه صديقًا له أن يصلح ما بدر منه بالخضوع التام إلى رحمة جلالة الملك؛ لأن الوقت ما زال سانحًا للقيام بذلك. وهو يؤكد له أن هناك مجال من جانب الملك للتعاطف معه، فهم ملك رحيم للغاية، حيث لن ينظر إلى خطئه، بل إلى الندم الذى يبديه. وعليه أن يترك ذاك الوهم الزائف الذى لا سبيل إلى تحقيقه، بما له من وقع كريه على مسامع مولاه ومليكه الشرعى، ليتخذ حلاً عاجلاً لتلك المسألة؛ وهو ما سيعود عليه بنفع عظيم، لأنه عرف من ماركيز مونديخار أنه سيلح فى التشفع له. إلى هنا تنتهى فحوى الرسالة التى وصلت إلى يدى ابن أمية فيما بعد، والتى أدهشته إلى حد كبير وجعلته شبه عازم على الاستسلام، لو كان قد حزم أمره ما بين الخوف والرجاء، ولم يُعمِ عينيه حادث آخر سنسوقه لاحقًا.

الفصل الرابع والعشرون

يتناول ذهاب معسكر ماركيز مونديخار إلى إنييّثا وباتيرنا لملاحقة الأعداء، والجهود التي بُذلت لحمل ابن أمية على الاستسلام.

حينما تم تنبيه ماركيز بلش إلى وجود المسلمين في باتيرنا، وإلى قيامهم بحشد ما يربو على ستة آلاف رجل، ينتمي غالبيتهم إلى سند وادي آش، وإلى تمركزهم على تبة إنييّثا – التي تقع على مسافة نصف فرسخ من باتيرنا – مظهرين رغبتهم في الدفاع عن ذاك الممر. على الرغم من أن طريق الصعود كان يتسم بالوعورة والصعوبة الشديدة، على نحو بدا وكأنه لن يُمكّن سوى القلة من الدفاع بعض الشيء عن ذاك الموضع، فإن الماركيز كان يرغب في استكمال مسعاه قبل أن يُزيد المسلمون من تحصيناتهم. قام رجالنا باستطلاع موقع العدو، الذي كان يتميز بتوفر مخرجين يتيحان له فرصة التراجع: أحدهما يفضي إلى جبل شلير – ولم يكن بمقدورنا حرمانهم منه لوجوده خلف ظهورهم، كما أن طبيعته لا تسمح للخيول أن تطأه– ، أما الآخر فكان عبر جبل غادور باتجاه البحر، وكان يتعين على المسلمين اجتياز سهل شاسع يقع ما بين باتيرنا وأندرش لبلوغ ذاك المنفذ.

أمر ماركيز مونديخار كلاً من غونثالو تشاكون ولورينثو دي لِبّا أن يتجها صوب كودبا – وهي إحدى البقاع التي خضعت بالفعل – مع سرايا الخيالة التي ترافقهما، بالإضافة إلى ثلاثمائة من الرماة تحت إمرة القائد ألبارو فلوريس، وذلك لاصطحاب المسيحيات الأسيرات الموجودات هناك، قبل أن يُقدِم المسلمون المحاربون على قتلهن أو حملهن إلى وجهة أخرى. كما أصدر تعليماته بالتزود بالمؤن والذخيرة الكافية

لتسيير كافة الجنود. وانطلق من أوخيخار، فى يوم الأربعاء الموافق السادس والعشرين من شهر يناير، يصحبه الجيش بأكمله عقب انتظام صفوفه، على الرغم من أنه كان ينقصه العديد من الجنود الذين كانوا قد رجعوا إلى ديارهم أثناء الفوضى التى دارت فى خوبيليس.

حينما دنا من بلدة تشيرين Chirin، التى تقع على مسافة قريبة من أوخيخار، قدم إليه ثلاثة مسلمون يحملون راية السلام البيضاء، وسلّموه رسالة من ابن أمية قال فيها إنه سيسعى لحمل الثوار على الاستسلام، وإن ذلك الأمر ينطبق عليه هو أيضًا. وهو يطالب ببعض الوقت للقيام بذلك. وأثناء اضطلاعه بتلك المهمة يجب على الماركيز ألا يسمح للجيش بالمضى قدمًا فى مسيرته، حتى لا تعرقل الاضطرابات التى ستسود الأراضى مسألة إرساء السلام. وقد رد الماركيز على ما تقدم بقوله إن ما ينبغى عليه القيام به، وأكثر أمر سيعود عليه بالنفع، هو أن يعجل بالمجىء والخضوع التام لمشيئة الملك، هو وكل من فى حوزته من رجال وأسلحة وألوية، وليدع البقية تهتم بشئونها، وأنه فى حال تنفيذه لما يتعين عليه القيام به من جانبه، فإن الماركيز سيكون خير شفيع له، وهو ما سيشهده ابن أمية من أفعاله. لكنّه إذا ما تأخر فى اتخاذ قراره، فليدرك أنه لن يمسى هناك مجالٌ للرأفة بحاله.

حمل المسلمون الثلاثة على سبيل الإجابة تلك الكلمات المصحوبة بخطابين، قام بكتابتهما كل من السيد لويس دى كوردوبا والسيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، وهما يرجوان فيهما ابن أميه أن يأخذ بالنصيحة الجيدة التى أُسديت إليه. بيد أن ذاك الأمر لم يثنِ الجيش عن المضى قدمًا، ليستكمل مسيرته رويدًا رويدًا كما عهد دائمًا. لم يمض وقت طويل حتى أتى مسلم آخر برسالة أخرى من ابن أمية ذاته، استجابةً لما كتبه إليه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس من أوخيخار(*). وقد أعلمه فيها أنه

(*) انظر الفصل السابق. (المترجمة).

سيعمل بنصيحته ويسلّم نفسه، ورجاه أن يخبره بالترتيبات التى سيتبعها لملاقاته (ثلاثة أشخاص فى مقابل ثلاثة) لإتمام الأمر، والاتفاق على التأمينات التى يجب مراعاتها. فى أعقاب ذلك عرض السيد ألونسو بينيغاس تلك الرسالة على ماركيز مونديخار، وتضرع إليه لكى لا يغادر الجيش بلدة إنييثا فى تلك الليلة، وحتى يأذن له فى لقاء ابن أمية على النحو الذى يريده. وقد راق حديثه للماركيز، وسمح له بالقيام بذلك. فعاد الرسول المسلم إلى باتيرنا حاملاً ذاك الرد.

كان الماركيز عازمًا على عدم التوقف حتى يبلغ الأعداء، فوافق على ضوء تلك الحادثة على البقاء فى إنييثا. حتى يتسنى للجيش المبيت، كان من الضرورى أن يقوم ذراعا الرماة بالتمركز أمام المخيم للاضطلاع بدوريات الحراسة، كما جرت العادة فى أوقات الحروب. ظن المسلمون – الذين كانوا يرقبون الموقف من أعلى التبة وأعلى الطريق، فى تشكيل مكون من كتيبتين قوام كل منهما ثلاثة آلاف رجل– أن الجيش بأسره يلتف حولهم، خاصةً حينما شاهدوا الرماة المسيحيين يعتلون الجبل فى اتجاه المنفذ الذى يؤمن تراجعهم. لم يكن الجيش قد استقر فى المخيم بعد، حيث أراد الماركيز العودة للمبيت فى بلدة إنييثا – التى كان قد غادرها بالفعل – حينما بالغت الذراع اليسرى للجيش، التى يترأسها كل من القائد خوان دى لوخان Juan de Luján وقائد الجند بيدراثا Pedraza، فى تسلق الجبل، حتى أنها قامت ببعض المناوشات مع سرية الخيالة التابعة للمسلمين المتمركزين فى تلك البقعة. فيما بعد توجهت فرقة من الرماة لإغاثتهم، وتمكن رجالنا من حملهم على هجر موقعهم والهروب.

فى الوقت الذى بدأت فيه المناوشات، كان ابن أمية قد فرغ لتوه من قراءة رد الماركيز، وكان قد باشر فتح الرسائل الأخرى التى يحملها بين يديه تمهيدًا لقراءتها. حينما رأى المسيحيين يصعدون أعلى الجبل، بينما يلوذ رجاله بالفرار على نحو مخز، أدرك أن كل ما كان السيد ألونسو بينيغاس بصدده هو خداعه؛ فألقى الرسائل على الأرض، وامتطى صهوة الفرس على وجه السرعة، ليهرب هو أيضًا عائدًا إلى الجبال، ويخلّف وراءه أسرته. وقد تبعه فيما بعد بقية الأناس الأشرار، وكان كل واحد منهم

يسعى للحفاظ على نفسه. كانت ذراعا جيشنا قد انتشت إلى حد كبير بالنصر الذى تحقق، وكان لابد لهم من حث الخطى للحاق بابن أمية. وقد أجبروه على التخلى عن فرسه، فتوغل سيرًا على الأقدام فى البقاع الأشد وعورة، ولم يرافقه سوى خمسة من المسلمين ممن رغبوا فى اتباعه؛ كما قام أحدهم بعقر جواده حتى لا ينتفع به المسيحيون. سار باقى الرجال على نهجه، بعد أن دب فى نفوسهم الخوف من غضب رجالنا. فاستمر الجنود فى مطاردتهم، وقتلوا منهم الكثير، كما سبوا عددًا كبيرًا من النساء وغنموا الكثير من الثياب[١٩]. وقد واصل نفر منهم تقدمه، حتى اقتحموا باتيرنا؛ وأسروا والدة ابن أمية، وأخواته، وزوجته غير الشرعية[٢٠]، والكثير غيرهن من المسلمات؛ وأطلقوا سراح ما يزيد على مائة وخمسين امرأة مسيحية كن أسيرات لديهن.

أما ماركيز مونديخار، الذى كان لا يزال يتريث إلى أن يتحقق لرجاله ما أرادوا، فإنه إبان رؤيته الوقع الذى أحدثوه، سار ومعه رايته متصدرًا الموكب حتى بلغ غابة من أشجار البلوط تشرف على البلدة من عل. ثم أوقف المسيرة، وأمر الرجال بالعودة إلى إنييثا ليعسكروا بها. وقد توجه فى اليوم التالى إلى باتيرنا دون أن يتعرض لأية معوقات فى الطريق. دار العديد من الأحاديث بصدد إيقاف الماركيز للركب عند ربوة الأشجار، كما هو الحال دومًا مع من يحكمون على الأشياء وفقًا لأهوائهم، دون أن يفطنوا إلى حكمة قادتهم. فقال بعضهم إن ذاك التوقف قد أعاق إنهاء الحرب فى ذاك اليوم، وانتزع من بين أيديهم فوزًا محققًا؛ وإن إيقاف الجنود كان الغرض منه هو عدم إجهازهم على المسلمين تمامًا، لما كان لهم من نفع كبير فى المملكة فى أعقاب إخضاعهم. بينما أدرك آخرون الهدف مما حدث، ومشيئة صاحب الجلالة، التى تمثلت فى إخضاع المملكة بأقل قدر ممكن من الخسائر بين رعايا جلالته، فأقروا ببصيرتهم النافذة الإجراءات التى تم اتباعها.

---

(١٩) مرة أخرى نلاحظ أهمية الثياب. (المراجع).

(٢٠) هى زوجة غير شرعية من وجهة نظر الكاثوليك، أما من وجهة نظر المسلمين فهى زوجة ثانية. (المراجع).

الفصل الخامس والعشرون

كيف انطلق الجيش من باتيرنا إلى أندرش، وعودته إلى أوخيخار لشن حملة على غواخاراس.

بات معسكرنا في باتيرنا في تلك الليلة، حيث تزود الجنود بكميات وافرة من الدقيق، والزيت، والجبن، واللحم، والشعير، كان المسلمون قد تركوها في ديارهم، وكان ما تناولوه يقل كثيرًا عما أهدروه. وفي اليوم التالي، الموافق الجمعة الثامن والعشرين من يناير، توجه الجيش للإقامة في قصور أندرش، التي تواجد بها بالفعل ألبارو فلوريس، والقادة الآخرون -الذين كانوا أقل موالاة من القدر الواجب عليهم التحلي به في حالات مماثلة. كان الحسد هو الباعث لتباين الآراء، حيث أراد قادة ألوية الفرسان أسر كافة المسلمين والمسلمات الذين قدموا للالتجاء بمنازل الأهالي المستسلمين، وقالوا بأن الأمان الذي أُسبِغ على هؤلاء لا يشمل أولئك. أما ألبارو فلوريس، فقد خالفهم الرأي بمقتضى الأوامر التي أصدرها ماركيز مونديخار، والتي تقضي بالحفاظ على من استسلموا بالفعل، وعلى من قدموا بغية تسليم أنفسهم. وهكذا أمر ألبارو بألا يُمَس هؤلاء ولا أولئك، بل يدعهم المسيحيون لينعموا بالحرية في بيوتهم دون مضايقات. ظفر ما يربو على ثلاثمائة امرأة مسيحية بحريتهن في تلك المواضع الثلاثة: كودبا، والقصور، والفوندون. كما أسلم الخاضعون إلى ماركيز مونديخار طفلاً – هو ابن للسيد دييغو دي كاستيًا، سيد غور – كانوا قد أسروه في البولودوي. وأخبروه أن الرجال الذين لاذوا بالفرار من باتيرنا مبعثرون في أرجاء تلك الجبال، وأن غالبيتهم سيستسلمون لا محالة؛ وأعلموه بوجود حشد آخر اجتمع عند أوهانييث، معظمه من

الشيوخ والنساء والأطفال، الذين سيسلّمون أنفسهم كذلك، إذا ما أُرسل إليهم من يطالبهم بذلك.

هنا أصدر ماركيز مونديخار أوامره إلى السيدين فرانثيسكو دى مندوثا وخوان دى بيّاروّيل Juan de Villarroel لكى يتوجها إلى أوهانييث، فى يوم السبت الموافق التاسع والعشرين من يناير، وذلك على رأس ألف جندى ما بين راجل وفارس. بيد أنه أوقف تلك الحملة لاحقًا بعد أن فطن إلى مغادرة المقاتلين لذاك المكان، وإن تلك المسيرة لن تؤدى إلا إلى تمكين الجنود من سرقة الغنائم، وأسر أناس عديمى النفع، لم يحسنوا تقرير ما ينبغى عليهم القيام به نظرًا لسذاجتهم القروية. فيما بعد جمع الماركيز أهل المشورة ليبحث السبل الأكثر موائمةً لأوامر جلالة الملك، واتفق على أن أسلم الطرق لإخضاع الأرض فى سكينة يتمثل فى إقامة معاقل فى الأماكن الخاضعة، وخاصةً فى كل من: أندرش، وأوخيخار، وبيرخا، وبيتريس دى فيريّرة؛ وأن تُحمَل إليها كافة المؤن التى يمكن تجميعها من البقاع الأخرى، ويتم تجميع من يقدمون طواعيةً لتسليم أنفسهم؛ على أن تجوب الأراضى دوريات من الجنود من رجال المعسكر لملاحقة العنيدين. وقد صدرت الأوامر أن يتوجه ألبارو فلوريس لاحقًا، على رأس ستمائة من الجنود إلى جبل غادور، الذى قال الجواسيس إن العديد من المسلمين الذين فروا هربًا من الهزيمة على يد ماركيز بلش قد قصدوه، وذلك من أجل منع باقى الأهالى من تسليم أنفسهم، حتى لا يسود الهدوء فى تلك الأراضى.

كتب ماركيز مونديخار رسالةً من أندرش إلى ماركيز بلش، ليحيطه علمًا بما دار فى تلك الحرب. فأخبره كيف أن ابن أمية قد هُزِمَ أربع مرات، حتى أنه لم يجرؤ على البقاء فى البشرات؛ وإنه يسير مختبئًا من صخرة إلى أخرى يتبعه خمسون أو ستون رجلاً فقط. كما أنه يرى أن إقامة المعاقل، وإرسال ألف رجل من البواسل فى كتائب لتفريق بعض حشود العصاة الشاردين من العصاة، يفوق من حيث الأهمية تشكيل جيوش منتظمة الصفوف، وإنه ارتأى أن يسلك ذاك النهج، وهو ينبهه إلى ذاك الأمر حتى يبعث له برأيه، بما يتوافق مع الأوامر الصادرة إليه من جلالة الملك. كان ما يرمى

إليه الماركيز من وراء ذلك كله، أن يفطن ماركيز بلش إلى أن مسألة الحرب قد انتهت بإخضاع الثوار، فيعزف عن مواصلة خوض المعارك. وقد أجابه الرجل فيما بعد من أوهانييث بما يتعارض ومسعى ماركيز مونديخار، مع أنه يتفق معه فى نفس الهدف، الذى يتمثل بالنسبة له هو فى إنهاء الحرب عن طريق إعمال القوة.

فى تلك الآونة كان قد تجمع فى أرجاء غواخاراس - التى تقع فى نطاق أراضى سالويرينيا - العديد من مسلمى البقاع المتاخمة، وذلك فى كنف جبل منيع يوجد عند قمة غواخار العليا. من هناك باتوا يخرجون ليجوبوا الأراضى، ويداهموا الحقول والطرق الكائنة فى بقاع الحامة، ووادى آش، وغرناطة؛ حيث قتلوا المشاة، وأحرقوا البيوت الريفية الموجودة فى المزارع، واستولوا على الماشية. تلك الغارات وغيرها مما قام به المسلمون فى شتى الأرجاء أثارت غضبًا عارمًا لدى مستشارى جلالة الملك المقيمين فى غرناطة، وكذلك الأهالى، حيث بدا لهم أن كل ما قاله المسلمون حول الاستسلام كان على سبيل الخدعة، بغية إلهاء المسيحيين وطمأنتهم؛ فهم من أحد الجوانب يُظهِرون رغبتهم فى الخضوع، وعلى الجانب الآخر يخرجون للسرقة وقطع الطريق.

حينئذ ارتاب ماركيز مونديخار فى أنه إذا ما تأخر كثيرًا فسوف يُوكل ذاك الشأن إلى قائد آخر. على الرغم من تنبهه إلى أن ولده - كونت تينديًا ذاته - يرغب فى الخروج للقيام بتلك الحملة، فإنه عقب انتهائه من مهمته فى تلك المنطقة، قفل عائدًا أدراجه إلى أوخيخار، وأرجأ إقامة المعاقل إلى حين إخضاع أراضى غواخاراس. مكث الماركيز فى تلك الأرجاء طوال خمسة أيام، أعد فيها العدة للحملة التى سيشنها، وخلّص المعسكر من الأناس عديمى النفع[٢١]، الذين كان دورهم الوحيد هو إعاقة المسير والتهام المؤونة. كان بين الأمور الأخرى التى أقرها إصداره الأمر بتسليم ألف

(٢١) يقصد كبار السن والأطفال وغير المقاتلين. (المراجع).

موريسكية، كن قد بقين على قيد الحياة فى خوبيليس وأُسرن لاحقًا في باتيرنا، إلى ثلاثة من الحجّاب المستسلمين الذين كانوا فى المعسكر، وهم: ميغيل دى إيرّيرا حاجب بيتريس دى فيريّرة، وغارثيّا البابا García el Baba حاجب أوخيخار، وأندريس الأدروتى Andrés el Adrote حاجب نيتشيتى. وقد تم تسليمهم على يد الكاهن القانونى توريّخوس، الذى أمر بإرجاعهن إلى أزواجهن، وآبائهن، وأخواتهن، وإخطارهم بالتحفظ عليهن حتى إعادتهن متى وكيفما تتم المطالبة بذلك. حضر ألبارو فلوريس إلى ذلك المعسكر، بعد أن جاب أرجاء جبلى غادور ونيخار، دون فائدة تذكر. كما قدم القائد خوان ريكو Juan Rico برفقة ثلاثمائة من المشاة كان ماركيز قمارش قد أرسلهم على نفقته الخاصة للمشاركة فى تلك الحرب.

الفصل السادس والعشرون

يتناول انطلاق ماركيز بلش من معسكره باتجاه أندرش، وانتصاره على المسلمين الذين كانوا قد احتشدوا فى جبل أوهانييث.

منذ يوم التاسع عشر من يناير، وهو التاريخ الذى وصل فيه ماركيز بلش إلى فيليكس، لم يبرح القائد المعسكر أو يفعل شيئًا يُذكر؛ بل كان ينتظر – حسب أقواله – إلى أن يرتاح الجنود والخيول من عناء الطريق. بحلول يوم الثلاثين من ذات الشهر، تحرك الماركيز ليُحدث بعض الأثر، على ضوء الرسالة التى وصلته من جلالة الملك، والتى ينبهه فيها إلى أن الثوار قد أرسلوا فى طلب الغوث من بلاد المغرب؛ كما أن جلالته لديه معلومات أكيدة مفادها أن الثوار ستصلهم سفن من الجزائر وتطوان محملة بالرجال والذخائر، وقد ارتأى جلالة الملك أنه من المناسب أن يتم تنبيه الماركيز إلى ذلك الأمر. كان الماركيز يود الذهاب إلى جبل إينوكس، بعد أن وردته أنباءٌ عن وجود عدد لا بأس به من الأعداء، ممن حشدوا صفوفهم لتكوين جبهة مع مقاتلى نِيخار وسائر أرجاء المقاطعة. لكنه أُحيط علمًا بدخول السيد فرانثيسكو دى كوردوبا Francisco de Córdoba، نجل السيد مارتين دى كوردوبا Martín de Córdoba – كونت ألكاوديتى Alcaudete - إلى ألمرية منذ ثلاثة أيام، تنفيذًا لأوامر جلالة الملك، حيث ذهب إلى هناك برفقة قوات المشاة والسفن التى كانت تحت إمرة خيل دى أندرادا. فلمّا بدا له أنه لا يوجد ما يقوم به فى تلك الناحية، قرر – لكى لا يبق دونما يفعله – أن يعود أدراجه إلى أندرش، أو من الأفضل أن نقول أوهانييث، وهو المحل الذى اجتمع فيه

أولئك المسلمون الذين أتينا على ذكرهم فى الفصل السابق؛ حيث لم ترده تحذيرات من ماركيز مونديخار فى ذاك الصدد، أو عقب تجاهله لتنبيهات الماركيز.

وصل الماركيز إلى كانخايار، وهى إحدى بقاع لوتشار، فى يوم الحادى والثلاثين من شهر يناير، مدفوعًا بذاك الباعث. حينما رجع إليه جنود الاستطلاع، الذين يتقدمون الركب، لإخباره برؤيتهم لأعداد غفيرة من المسلمين عند إحدى ربوات جبل شلير، على مقربة من بلدة أوهانييث، أمر بالإتجاه صوبهم فى اليوم التالى، وكان موافقًا لعشية عيد دخول السيد المسيح إلى الهيكل(*). كانت صفوف الجيش غايةً فى الانتظام، بما يتناسب وتضاريس الأرض التى تتسم بالوعورة. وقد ابتعدوا مسافة فرسخ عن النهر، ليسلكوا السفوح والتلال التى يصعب أن تطأها الخيول، حتى لحقت طليعة جيشنا بمؤخرة الأعداء فى موضع يفوق المحل الأول وعورةً وانحدارًا؛ لأن المسلمين إبان رؤيتهم لمعسكرنا، صعدوا إلى أعالى الجبل. حيث أودعوا النساء والمتاع فى المقدمة، ليبقى المحاربون فى المؤخرة، امتثالاً لأوامر قائدهم تاهالى ?Tahal، الذى تصدى لرجالنا فى استبسال، واتخذ وضع المعركة، حيث ارتفعت الرايات، ودوت أصوات الطبول والأبواق وصيحات الحرب لتصم الآذان فى أرجاء تلك الأودية. وشرع القائد فى حث رجاله على القتال بتلك الحجج: "هلموا يا إخوتى، أيها المحاربون الشجعان! لا يكونن حرصكم على الانتصار أقل من رغبتكم فى تحرير أنفسكم، ونسائكم، وأولادكم من القتل والسبى. يا من تزعمون أنكم قمتم بالثورة من أجلى، قاتلوا فى هذه الموقعة! فلتزيلوا هذا العناء عن كواهلكم، ولن يتسنى لكم ذلك إذا منيتم بالهزيمة، فما من مهزوم يلقى مصيرًا عادلاً، لأن القاضى الذى يقرر هو العدو الظافر".

(*) عيد تحتفل به الكنيسة فى الثانى من فبراير/شباط من كل عام، إحياءاً لذكرى دخول السيدة العذراء حاملةً ابنها إلى الهيكل لتقديمه، عقب مرور أربعين يوم على ميلاده. انظر Diccionario de la lengua española, Real Academia Española, vigésima primera edición, Madrid 1992, tomo II, Pág. 1699 (المترجمة).

لم ينتظر الهمجيون المتحمسون – سالذين كانت التضاريس تصب فى صالحهم – إلى حين قدوم رجالنا، حيث استنفرت الكلمات التى وجهها لهم المسلم هممهم. على الرغم من أنهم كانوا أقل عدداً بكثير وأسوأ تسليحًا من رجالنا، فإنهم عمدوا إلى سرايا الخيالة التابعة لنا، وأغاروا عليهم من الجهة اليسرى، كما بادروا بالهجوم من جهات متفرقة فى آن واحد.

كان ذلك هو الموضع والمحل الذى حشد فيه المسلمون قواهم فى عزم شديد، بشكل أتيح لهم الدفاع عن أنفسهم، ولكنّه كان فالاً سيئًا بالنسبة لهم؛ لأنهم كانوا قد اجتمعوا هناك إبان الثورة السابقة، التى قاموا بها أثناء حكم الملكين الكاثوليكيين، وكانوا قد حوصروا وطوردوا على يد كونت ليرين، إلى أن قضى عليهم الجوع؛ ولذا كان يُدعى الكوسار دى كانخايار el Cosar de CanjEáyar، وهو ما يعنى بلغتنا محل الجوع[٢٢]. بلغ تعداد المسلمين حوالى ألفى رجل مقاتل، بالإضافة إلى الأشخاص غير المقاتلين، وكانت أعدادهم كبيرة، أما جنودنا فكان قوامهم خمسة آلاف راجل، وألف ومائتى رام، وما يربو على ثمانمائة قوّاس. كان الأخرون مسلحين بالرماح، والسيوف، والرماح ذات الرأس التى تشبه البلطة، والتروس الدائرية، وأربعمائة جواد مصطفة على أكمل هيئة. قاوم ماركيز بلش ومن معه من الجنود زخم الأعداء، الذى كان عارمًا؛ وأثناء صعوده من أسفل إلى أعلى، خاض معركةً حامية الوطيس ودامية، بدأت طليعتنا تضعف خلالها، حيث كان المسلمون يحاربون فى عزم راسخ مستخدمين طلقات البنادق، ونصال السهام، والأحجار، وكانوا فرحين لا يرهبون بذل أرواحهم فى مقابل الإجهاز على من يواجهونهم. كان يتعين على ماركيز بلش أن يتصدى بنفسه للخطر العام، وقد رافقه العديد من الفرسان، وكانوا أشخاصًا بواسل، تمكن الماركيز بواسطتهم من إنقاذ وإصلاح زلل جنوده، وذلك من خلال الإغارة على الأعداء من

(٢٢) فى اللغة الدارجة "كِسرة" تعنى لقمة صغيرة وجمعها "كُسَر"، وهو دليل على قلة الخبز. لاحظ عدم دقة اللغة العربية عند مارمول. (المراجع).

الجانب الأيمن. حارب الماركيز ضد الأعداء، وضد وعورة الأراضى، حيث لم تقل مقاومة الأرض له عن مقاومة المسلمين؛ لكن الماركيز هزمهم وحملهم على الهرب، كما إنه ضيق عليهم على نحو لم يسمح لهم بإعادة تنظيم صفوفهم، حيث بات يلاحقهم لمسافة تربو على فرسخ، صعوداً إلى أعلى الجبل، فى منطقة كان يبدو من المستحيل على الخيول أن تطأها.

مات فى ذاك اليوم ألف من المسلمين، وفُقِدت الكثير من الرايات، كما أُسِر ألف وستمائة روح ما بين نساء وأطفال. وكان الفيء، المكون من الثياب والحلى الثمينة، والماشية، وفيراً للغاية. نالت ثلاثون مسيحية كن أسيرات حريتهن، حيث كان الأعداء قد نحروا فى قسوة وحشية فى اليوم السابق عشرين أخريات، كان بينهن فتيات حسناوات نبيلات، كانت المسلمات أنفسهن قد قضين عليهن، وكن لهن ألف صنف من القدح والذم. بيد أن فعلتهن لم تمر دونما عقاب، حيث قتل الجنود بعضهن أثناء المعركة، والبعض الآخر خلال المطاردة. وهو الأمر الذى تأسى له الجنود، فهن نساء، على الرغم من أنهن مسلمات؛ وهو الشعور الذى انقلب فيما بعد إلى غضب حينما أدركوا الشرور التى كن قد اقترفنها. لاذ المسلمون بالفرار على إثر تلك الهزيمة: فتوغل بعضهم فى الجبال، بينما لجأ آخرون إلى كهوف منيعة للغاية موجودة على ضفاف ذاك النهر؛ وهناك شرعوا فى المقاومة، وكل من أُسر منهم، ولم يجسر على التقدم للموت فى خضم المعركة، تم شنقه. أما المسيحيون، فقد منوا ببعض الوفيات، وجرح منهم كثيرون: إما بطلقات البنادق، أونصال الرماح المسممة؛ كما أُصيب آخرون بضربات الحجارة، وطعنات الخناجر، وكانوا عرضةً للخطر الشديد من جراء ذلك.

فى أعقاب إحراز ذاك الانتصار، خيم معسكرنا فى أوهانييث، التى جرت فيها احتفالات السيدة العذراء المجيدة فى اليوم التالى، فى مهابة كبيرة. حيث ذهب ماركيز بلش، وكافة الفرسان، والقادة إلى الموكب مسلحين بكامل أسلحتهم؛ يحملون فى أيديهم شموعًا بيضاء، أُرسِلت إليهم من ديارهم من أجل ذاك اليوم. وسارت المسيحيات جميعهن فى المنتصف، وهن يرتدين الملابس الزرقاء والبيضاء؛ وكان

الماركيز قد أمر بكسوتهن على تلك الشاكلة على نفقته الخاصة؛ لأن تلك هي الألوان التي أُضفيت على تمثال السيدة العذراء. سار الموكب بين الفصائل المسلحة، التي أطلقت أعيرة بنادقها لتحيته في صورة بديعة للغاية، ودلف إلى الكنيسة أثناء غناء الكهنة والقساوسة لأنشودة "الشكر للرب"، وتمجيدهم للرب في ذاك المحل الذي كفر به فيه المارقون. أتبع ذلك النصر أن تصور ماركيز بلش لاحقًا، أنه إذا ما غادر ماركيز مونديخار - الذي لم يكن يرغب في إضاعة المزيد من الوقت في البشرات - تلك الأراضي، على ضوء الإرهاق الشديد الذي يعاني منه الرجال والجنود، نظرًا للطريق الطويل والوعر الذي قطعوه؛ وكذلك لما كان يظنه الماركيز من أن كل الأمور قد انتهت، فإنه سيستطيع هو وجيشه -الذي كان قد استرد عافيته ونشاطه عقب الراحة التي قضاها في أوهانييث- الدخول إليها في أية مناسبة، وتولي زمام تلك الحرب حتى يُنهيها على يديه. وهو ما تحقق له في نهاية الأمر، وإن لم يكن في تلك المرة؛ لأن غالبية الجنود تركوا الحملة بالأمتعة؛ فاضطر الماركيز إلى سحب معسكره من أوهانييث، والعودة إلى تيركي عبر مارتشينا. وقد توقف هناك لعدة أيام، حتى عبر بعد ذلك إلى بيرخا. انطلاقًا من ذاك المقصد، كتب إلى ماركيز مونديخار ردًا على الرسالة التي بعثها إليه من أندرش، أخبره فيها أن المسلمين الذين هربوا على إثر الهزيمة التي مُنيوا بها في أوهانييث كثر. وهو يعتقد أن الأمر يستلزم أكثر من فصائل للقضاء عليهم، وعليه أن يقوم من جانبه بما يقدر عليه؛ لأنه من ناحيته سيقوم بدوره أيضًا.

الفصل السابع والعشرون

يتناول كيفية إغارة السيد فرانثيسكو دى كوردوبا على معقل جبل إينوكس.

دخل السيد فرانثيسكو دى كوردوبا إلى ألمرية، أثناء وجود قوات ماركيز بلش فى فيليكس. وقد تم تنبيهه إلى قيام حاجب تابيرناس فرانثيسكو لوبيث، ونفر آخرون، بتأمين جبلٍ حصينٍ يقع فى أعلى بلدة إينوكس، والزج بأنفسهم بداخلها بصحبة نسائهم والكثير من الذخائر؛ وإنه يرافقهم مسلمون من بلاد المغرب والأتراك، كانوا قد قدموا فى تلك الأيام فى بعض قوارب الاستكشاف، حيث لم يرسلهم ملوكهم، بل إنهم مغامرون. وكان هؤلاء قد قبضوا منذ فترة وجيزة على أحد الجواسيس الذين أرسلهم السيد غارثيا دى بيّارّويل، فلقى على أيديهم ميتةً قاسيةً، بعد أن سفّدوه فى سيخ حديدى.

عندئذ رغب السيد فرانثيسكو فى القيام بتلك الحملة. وعندما تراءى له أن قلة أعداد الرجال بالمدينة لا تتيح له أخذ البعض وترك البعض، كتب إلى ماركيز بلش فى فيليكس حتى يمده ببعض الرجال، وفقًا للتعليمات التى وردته من جلالة الملك فى ذاك الشأن؛ لأنه حينما صدرت الأوامر إلى السيد فرانثيسكو دى كوردوبا بالتوجه إلى ألمرية ودخولها، وأُوكِل إليه حماية تلك المدينة، تم تنبيهه إلى أن ماركيز بلش لديه أوامر بتزويده بالرجال وبكل ما يلزمه. بيد أن الماركيز لم يجبه سواء بالإيجاب أو الرفض. لمّا أدرك السيد فرانثيسكو دى كوردوبا أن الماركيز لا يمكن الاعتماد عليه، بعث برسالة إلى بدرو أرياس دى أبلا، المأمور القضائى لوادى آش؛ كما قام بتحذير جلالة الملك إلى أن الأعداء ينتظرون قدوم اثنتى عشرة سفينة خلال ساعات تقل سبعمائة من الأتراك؛

ويعث إليه برسالة كتبها أحد المسلمين إلى موريسكى من ألمرية باللغة العربية[٢٣]، يقول فيها إن ابن أمية قد أرسل رجلين مسلمين إلى الجزائر لطلب النجدة.

انطلق الرسل من ألمرية فى مساء يوم الثامن والعشرين من يناير. وفى اليوم التالى وصل خيل دى أندرادا إلى الشاطىء، فى صحبة تسع سفن، وكميات كبيرة من الذخيرة لتأمين المدينة. فأخبره السيد فرانثيسكو دى كوردوبا بما جرى فى إينوكس، وطلب منه ثلاثمائة جندى، لكى يرافقوه هم ورجال تلك المدينة لشن تلك الحملة، فمنحه إياهم، وكان على رأسهم السيد خوان ثانوغيرا Juan Zanoguera. لكنهم اختلفوا فى بادىء الأمر حول الطريقة التى ستُقَسّم بها الغنائم، ويُستَخرج منها الخمس والمعشار. حيث كان الجشع هو الخطيئة الأبرز ضمن الآثام التى اقترفناها على مدار تلك الحرب[٢٤]، وهو ما شاب جلال الانتصارات التى حققناها. بيد أنهم اتفقوا فى نهاية الأمر على تقسيم الفىء إلى جزئين: أحدهما يحصل عليه أهل المدينة، والآخر يأخذه القادمون بحراً، وذلك فى أعقاب استقطاع الخمس والمعشار للقائد العام.

تزود الرجلان لاحقًا بكل ما يلزمهما خلال الطريق، وغادرا ألمرية فى ذاك المساء؛ حيث كانا يظنان فى إمكانية شن الغارة على إينوكس مع بزوغ فجر اليوم التالى، والعودة إلى المدينة بحلول الليل. بيد أن ذلك لم يمس ممكنًا؛ لأن الدليل أخذ يدور بهم، وحينما صاروا على مشارف منطقة تمركز الأعداء، كانت الساعة قد أضحت التاسعة من صباح يوم الأحد، الموافق الثلاثين من شهر يناير. كان مدخل ذلك الجبل غايةً فى الوعورة وصعوبة التضاريس، حتى إنه كان يبدو من المستحيل إمكانية اقتحامها عنوةً، فى ظل وجود من يدافع عنها. كما أن هناك جبل أخر يعلوها، وهى تعد بروزاً ناتئًا منه، مما عمل على تأمينها من تلك الجهة، التى كان بها منحدر مكّون من أحجار

(٢٣) نفهم من هذه الفقرة أن الموريسكيين كانوا يكتبون بالعربية حتى أواخر فترة وجودهم فى إسبانيا (المراجع).

(٢٤) مرة أخرى يمارس مارمول النقد الذاتى. (المراجع).

وصخور شديدة الوعورة، حيث لم يكن هناك سوى ممر ضيق للصعود أو النزول من إحدى الناحيتين إلى الناحية الأخرى. اجتمع قائدانا للتشاور، والتوصل إلى النهج الذى يتعين عليهما أن يسلكاه، بعد أن شاهدا المسلمين متمركزين فى تلك المواضع شديدة التحصين؛ لكن كان هناك خلاف فى وجهات النظر بين الفريقين. أما من كانوا يرغبون فى المماطلة، فقد رأوا أنهم تركوا المدينة والسفن عرضةً للخطر، وأضافوا إلى ذلك العديد من الأسباب الأخرى، التى كانت تبدو لهم كافيةً للتخلى عن الحملة، والرجوع للاضطلاع بالشؤون التى تركوها. إلا أنهم فى النهاية حزموا أمرهم، واتفقوا على إرجاء مهاجمة ذلك الموقع المنيع إلى اليوم التالى؛ لأن الوقت أمسى متأخراً، وكان الرجال يرون أنه من الأفضل الشروع فى الأمر فى الصباح.

حتى لا يكون السيد فرانثيسكو دى كوردوبا قد آلى جهداً فى هذا الصدد، وانطلاقًا من رغبته فى إدراك نية المسلمين، وإذا ما كانوا سيخضعون له دون قتال، أرسل إليهم أحد الموريسكيين المعاهدين لينبههم إلى ذاك الأمر. فأخبرهم أنهم إذا ما هدأوا ورجعوا إلى ديارهم، وتخلوا عن أسلحتهم وخضعوا إلى رحمة جلالة الملك، فإنه سوف يتشفع لهم حتى لا تُساء معاملتهم. بيد أن الهمجيين المتشككين والنزّاعين إلى الريبة، نصحوا بعضهم بعضًا بعدم الوثوق فى عدوهم؛ وحسبوا أن الموريسكى قد قدم إليهم بتلك الذريعة للتجسس عليهم ورؤية ما لديهم من تحصينات؛ فاعتقلوه وقتلوه بوضعه على الخازوق، وعلقوه على صخرة مرتفعة على مرأى من رجالنا. كان نهار ذاك اليوم قد طلع صافيًا وهادئًا، ولكن بحلول المساء باتت الغيوم تتكاثر مما كان ينذر بعاصفة مصحوبة بالأمطار والرياح. فما كان من الجنود، الذين لم يرتدوا معاطف ولم يكن بحوزتهم ما يتدثرون به، نظراً لرغبتهم فى أن يكونوا سريعى الحركة، إلا أن توجهوا للاحتماء بديار بلدة إينوكس، وذلك بعد أن قاوموا لفترة طويلة، فى انتظار انتهاء وابل الأمطار الذى انهمر واحداً تلو الآخر. لم يكد الجنود يفرغون من الدخول إلى البيوت، حتى انطلقت صيحات حمل السلاح فى عجالة؛ حيث شُوهِد قدوم أفواج من المسلمين مباشرةً صوب المنازل ذاتها. وقد بدوا، فى تلك الأجواء القاتمة، أكثر

عدداً مما كانوا عليه. حيث لم يتعدوا ثلاثين رجلًا، وكانوا قد أتوا دون أن يعلموا بوجود مسيحيين فى تلك البلدة، بعد أن فروا من معسكر ماركيز مونديخار. حينما اقتربوا من الموضع الذى يسير فيه ثلاثة رجال انفصلوا عن الركب، قتلوا واحداً منهم، قبل أن يتعرفوا على هويتهم. فلمّا أدركوا الخطر المحدق بهم، عادوا أدراجهم إلى الجبل. وقد طاردهم السيد غارثيّا دى بيّارّويل، ولكنه تأخر فى الخروج وسار ببطء. وكان الأثر الذى أحدثه هو استعادة فتاتين مسيحيتين، وهما ابنتا أحد أهالى ألمرية، وأحد أبناء حاكم بولودوى؛ وكانوا أسارى لدى المسلمين.

فى ذلك اليوم، رغمًا عن تلك الأجواء العاصفة الشديد، أمر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا بتحرك الأمتعة إلى المدينة للتزود بالمؤونة. وقد رافق الركب السيد غارثيّا دى بيّارّويل على رأس مائتين من رماة كتيبته، حتى أضحوا على مسافة ربع فرسخ منها؛ وكان يوجد فى ذاك الموضع ممر يتعين على الأعداء عبوره، إذا ما رغبوا فى الانتقال من ملجأهم إلى الطريق الموصل إلى ألمرية. عندما أبصر السيد غارثيّا قطيعًا من الأغنام يسير فى أحد المنخفضات القريبة من معقل الأعداء مع بعض الرعاة، بعث بالسيد خوليان دى بيريدا ومعه ثمانية جنود للاستيلاء على جزء منه؛ مما خول للرجال إشباع حاجتهم البشرية للطعام فى تلك الليلة. فى صبيحة اليوم التالى، ارتاب القائد فى رغبة المسلمين فى تعويض تلك الخسارة، عن طريق الإغارة على المتاع حين عودته محملاً بالزاد؛ تمركز السيد غارثيّا دى بيّارّويل فى ذات الممر بصحبة ستين راميًا وعشرين فارسًا. فى أعقاب عبور الأمتعة إلى المعسكر، أراد هو أن يستطلع قوى العدو، ويدرك إذا ما كان للعدو حشودٌ غفيرةٌ من الرجال المسلحين بالبنادق، وكنه الأتراك الموجودين معهم. فعبر الممر، وأصدر تعليمات إلى اثنين من قادة الفصائل لكى يصطحب كل منهما اثنى عشر جنديًا، ويسيطروا على طريقين للرعاة يتسمان بالوعورة، يقدر المسلمون على النزول من جبلهم عن طريقهما للوصول إلى الناحية الجنوبية، وهى الجهة التى يتواجد هو بها؛ لأنه لا يوجد مهبط أخر يتيح لهم الإغارة عليه دون اللجوء إلى الكثير من المراوغة. كما أوقف خوليان دى بيريدا Julián de Pereda

مع جنود المشاة الآخرين على مسافة مائتى خطوة إلى الوراء، على مقربة من الموضع الذى توقف فيه مع الفرسان، وذلك لتحميسهم وأصدر إليهم تعليمات حول ما ينبغى عليهم القيام به.

فى أعقاب ذلك هبط المسلمون من معقلهم، وهم يطلقون صيحات حرب مدوية. ولما كان تعدادهم يفوق خمسمائة رجل، فقد تسببوا فى تدحرج الأحجار الضخمة على رجالنا، الذين كانوا بمنأى عن ذاك الخطر؛ حيث كانت تحميهم صخرتان عظيمتا الارتفاع، فأضحت الأحجار والصخور تطير أعلى رؤوسهم دون أن تصيبهم. كما أن الموريسكيين لم يقدروا على النيل من رجالنا بالبنادق والسهام؛ لأن الأعيرة النارية باتت تمر من فوقهم، أما السهام فلم تكن تبلغهم. بل إنهم هم من تضرروا من رماتنا، الذين كانوا يطلقون عليهم النيران من الأسفل إلى الأعلى، مما جعلهم أفضل تأمينًا وأدق تصويبًا. عندما أُحبِطت تلك المناوشة، بدأ المسلمون - الذين أدركوا الوضع السيء الذى يواجهونه- ينتابهم القنوط، وعاد الكثير منهم فارين صوب الصخرة. حينئذ هب لنجدتهم قائد تركى مع بعض الجنود المسلحين بالبنادق، فأجبر من بادروا بالهرب من الاشتباكات على العودة بعدما تعقبهم بالعصى ، وحاصرهم بجنوده فى عزم ماض، وأخذ يصيح بهم قائلاً: " لم يكن هناك مغزى لمجيئى من إفريقيا لو كنت أعلم أن قلة من المسيحيين ستتصدى لى من خلف إحدى الصخور وسط ميدان القتال، بينما يوجد من حولى كل هذا العدد الهائل من الفتيان البواسل! هلموا يا أصدقائى، فلتتبعونى! فلنحقق النصر بالإطاحة برؤوس تلك القلة".

أثارت تلك الكلمات حمية الرجال، فوصلوا إلى الجنود المصاحبين لقادة الفصائل فى تصميم شديد. على الرغم من قلة عدد الجنود، فإنهم دافعوا عن موضعهم، وحملوا المسلمين على التخلى عن حالة الهياج التى انتابتهم. لم تفلح الكلمات، أو الأفعال، أو التهديدات التى وجهها لهم التركى؛ أو حتى ضربات العصى وطعنات الخناجر، التى كالها لمن يلوذون بالفرار من مواجهة رماتنا - الذين شكلوا جبهة موحدة - فى تحفيز الغوغاء الأشرار إلى النزول للقتال؛ إلى أن أبصروا مقدم أربعة فرسان وستة رماة،

كان السيد غارثيًا دى بيّارّويل قد أرسلهم إلى هوة أخرى تقع فى المنطقة الشرقية، مع ما يربو على ألفين من رؤوس الماشية والأغنام. عندئذ شنوا هجومًا فى عزيمة راسخة - تدفعهم المصلحة أكثر من خشيتهم من صلف القائد التركى - لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتباك بالأيدى مع رجالنا. فى نهاية الأمر، نظرًا لضيق سبل الرعاة، واحتلال الرماة لها؛ وهو ما جعلهم يصطفون فى مرمى رجالنا بطريقة طولية، ولا يتوقفون عن إطلاق النيران، اضطر الموريسكيون إلى التراجع بعد أن منيوا بخسائر.

عاد السيد غارثيًا دى بيّارّويل إلى إينوكس، وأشار إلى إن جيش الأعداء - من وجهة نظره - يضم عددًا قليلاً من الرماة؛ وإن مباغتتهم، قبل أن يهب لنجدتهم رماة من مكان آخر، سيكون أمرًا جيدًا. لم يكن هناك سوى عائق واحد، وهو عدم توقف العاصفة عن الهبوب، بل إنها كانت آخذةً فى الازدياد. بيد أننا إذا ما تدبرنا الأمر جيدًا، لأدركنا أنها كانت متعبة لهؤلاء وأولئك على النحو ذاته. وهكذا عقد القادة العزم على الصعود إليهم عند الجبل فى يوم الأربعاء، الذى يوافق ذكرى دخول السيد المسيح إلى الهيكل؛ وكان هو ذات اليوم الذى أقام فيه ماركيز بلش الاحتفال بتلك المناسبة فى أوهانيث. فى تلك الليلة، اجتمع القادة للتشاور حول النهج الذى سيسلكونه أثناء المعركة، واتفقوا على التالى: يغادر كل من السيد فرانثيسكو دى كوردوبا وخوان ثانوغيرا، برفقة الفرسان وجزء من طلائع المشاة، قبيل بزوغ الفجر؛ ثم يتبعهم السيدان غارثيًا دى بيًا رّويل وخوان بونثى دى ليون، وهم يسيرون بخطى متمهلة مع كافة جنود المؤخرة؛ لأن الفريق الأول، إبان اعتلائه للربوة، سيتعين عليه المراوغة والدوران إلى الجهة الشرقية، التى تُعَد أكثر ملائمةً للنزول من الجبل؛ وهكذا يكونون قد أقفلوا على العدو خط العودة. وذلك على النحو الذى يتيح لهم - إذا ما قسنا المسافة - أن يصلوا جميعًا فى ذات الوقت. عقب إقرار تلك الخطة، أمر القادة بتوزيع المؤن والذخيرة على الرجال، وأن يتهيؤوا لخوض المعركة.

الفصل الثامن والعشرون

يتناول كيفية الإغارة على حصنى جبل إينوكس، والاستيلاء عليهما

توقفت الرياح العاصفة فى تلك الليلة، وخرج رجالنا من إينوكس فى الرابعة فجراً، بعد أن تركوا بها مائة جندى مسلحين بمدفعين صغيرين، كانا قد حُملا من ألمرية ظنًا فى إمكانية الاستفادة منهما. كما بقى هناك المتاع والماشية. أما كل الرجال الآخرين: وهم ستمائة رام، ومائتى سيّاف، وأربعون فارسًا، فقد شكّلوا كتيبتين، وتوجهوا للالتفاف خلف ظهر العدو. بدأت طليعة الجيش - التى كانت تحت إمرة السيد فرانثيسكو دى كوردوبا- فى الصعود عبر طريق للرعاة يتسم بالوعورة والضيق الشديد، حتى إن الرجال لم يتمكنوا من عبوره بصعوبة سوى واحداً تلو الآخر، وكان أمراً مجهداً؛ نظراً للظلام الحالك الذى عمّ الأرجاء. وكان الطريق مؤدياً إلى غويبرو Güebro، وهى إحدى بقاع ألمرية الموجودة فى الناحية الشرقية لذاك الجبل، وهى - كما ذكرنا أنفًا - تعلو الجبل الذى يتخذه الأعداء مقراً لإقامتهم. وكان أولئك قد صفّوا أطقم الحراسة التابعة لهم والدوريات على القمة العليا، بعد أن تشككوا فى وصول المسيحيين إليهم من تلك الجهة؛ فلمّا استشعروا صعود الرجال إليهم، بسبب الجلبة التى أحدثوها، شرعوا فى تحيتهم بنيران بنادقهم. بذل السيد فرانثيسكو دى كوردوبا قصارى جهده لتجميع جنوده؛ ومضى بهم إلى الأمام على الرغم من الظلام السائد، مسترشداً بقادة المعسكر الذين كانوا يقودونهم؛ فتقدم لاحتلال الجبل العالى سالكًا أفضل الطرق المناسبة، حتى يتسنى له النزول عبرها ومباغتة الأعداء، وفقًا للخطة المتفق عليها.

على الرغم من سماع السيد غارثيًا دى بيّارويل - الذى كان يقود المؤخرة - لنيران البنادق، فإن الظلام لم يمكنه من رؤية ما يفعله جنود المقدمة. فبات يسرع الخطى؛ وعندما وصل بالقرب من بعض الأحجار المرتفعة، ألفى جماعة مكونة من ثلاثين مسيحيًا يطلقون صيحات الحرب ويهجمون على بعض الرجال الأتراك المسلحين بالبنادق كانوا خلفهم. فتقدم إلى الأمام، بعد أن ظن أنهم ينتمون إلى الجنود الذين فى حوزته، وصار يحمّسهم إلى أن وصل إلى أحجار أخرى شديدة الارتفاع والوعورة، حتى إنها اضطرته إلى التخلى عن فرسه للصعود إليها. وقد عطّله ذاك الأمر لفترة طويلة، وفقًا لما أخبرني[٢٥] به لاحقًا ؛ حتى إنه عندما رجع للانضمام إلى المسيحيين الثلاثين، كانوا قد بادروا بالاشتباك مع الأتراك. ولّما كانت تلك الليلة حالكة الظلام، لم يدر هؤلاء أو أولئك عدد الرجال المواجهين لهم؛ وقد أظهر الجميع حمية جيدة، حتى انبلج ضوء الفجر. عندئذ تعرف رجالنا على بعضهم البعض، وتيقنوا من هلاكهم، بعد أن ألفوا أنفسهم قليلين للغاية فى مقابل وفرة كبيرة فى عدد الأعداء الذين يقاتلونهم، حيث تجاوزوا خمسمائة رجل ما بين أتراك ومسلمين. بينما كان غالبية مقاتلينا من رجال دين وسدنة كنيسة ألمرية الكبرى، بالإضافة إلى نواب وكتبة؛ ولم يكن بينهم أى جندى، سوى أحد الشيوخ الذى تخطى الستين عامًا، وهو من أهالى ألماثارّون Almazarrón، وكانت يداه كلتاهما مبتورتين.

قام ذلك الشيخ، صاحب الهمة والمتمرس فى استخدام الأسلحة، بوضع نفسه أمامهم جميعًا، وهو يحمل رمحًا ضخمًا فى يده؛ وبدأ يستحثهم على النحو الذى كان ليتبعه أى قائد مغوار وقوى. وقد كانت هناك حاجةٌ ملحةٌ لذلك؛ لأن الفتائل الخاصة بأسلحة معظم الرماة انطفأت، حيث لم يتم إعدادها بصورة جيدة، نظرًا للجشع الشيطانى المؤذ الذى اتسم به القائمون على تحضيرها، فلم يدعوها تنضج بالقدر

---

(٢٥) لاحظ تنوع المصادر عند مارمول، بين جنود وقادة، بين مسيحيين وموريسكيين (المراجع).

الكاف حتى تصير أثقل وزنًا؛ وأيضًا طمع الموردين، الذين يشترونها بثمن أرخص[٢٦]. لم يعد رجالنا يدافعون عن أنفسهم سوى بالحجارة، وقد كانوا كذلك يُقذَفون بالحجارة. بات من اللازم فرد الأذرع، ودرء الضربات عن الرؤوس؛ لأن الأحجار التى كان الأعداء يرمونها نحوهم كانت تنهمر عليهم كالثلوج. وقد أغاروا عليهم فى استبسال شديد، حتى إنهم كادوا يجهزون عليهم مرتين، لولا أن ذاد عنهم الحوارى سانتياغو[٢٧]، بعد أن أصبحوا يستغيثون باسمه المنتصر والمقدس. حينما توقف القتال، عقب طلوع ضوء النهار، لاذ الأعداء بالفرار. وقد عُرِف السبب وراء قيامهم بذلك، وهو أن السيد فرانثيسكو دى كوردوبا ألحق الهزيمة بمن كان يحاربهم عند المعبر الآخر، فلجأ أولئك إلى توحيد صفوفهم مع باقى المقاتلين الموجودين عند الصخرة؛ حيث ارتأوا الدفاع عن أنفسهم فى ذاك الموضع، لكونه أشد تحصينًا.

مع تراجع المسلمين وبسط السيطرة على الجبل، واصل قادتنا ملاحقتهم وصولاً إلى الصخرة، التى ألفوا عندها مقاومة تفوق كل تصوراتهم. أصبح الأعداء يحاربون هناك كأنهم رجال عازمون على التضحية بأرواحهم فى مقابل تحرير نسائهم وأولادهم، الذين يتعرضون مثلهم لذلك الخطر المحدق، فتصدوا لزخم رجالنا فى استبسال شديد، فقتلوا بعضهم، وجرحوا ما يربو على مائتى رجل بالبنادق، والسهام، والحجارة. أُصيب حامل الراية خوان دى لاس إيراس Juan de las Eras جراء طعنة خنجر، أما السيد دييغو دى لا ثيردا Diego de la Cerda فقد تلقى ضربة حجر شديدة فى وجهه، كما مزقوا الراية إربًا بين يدى خوليان دى بيريدا، وسحقوا جسده بالحجارة. وقد بلغ

---

(٢٦) هذا الجانب السلبى فى المعسكر المسيحى لم يشر إليه أحد على حد علمنا (المراجع).

(٢٧) يعتقد الكاثوليك أن سانتياغو له كرامات ويستطيع نصرهم فى المعارك، وقد تأثر الموريسكيون بهم، فزعموا أن عليًا بن أبى طالب يهب لنجدة المسلمين حتى بعد مماته. انظر دراستنا "ثقافة موريسكى : قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة إسبانيا الوطنية" ، أعمال المؤتمر العالمى الحادى عشر للدراسات الموريسكية، تونس ، ٢٠٠٣ (المراجع).

ذلك الأمر قدرًا حمل الجنود – الذين نسوا أنهم هم المبادرون إلى الهجوم – إلى إدارة ظهورهم إلى الأعداء، دون احترام لقادتهم؛ فخلّفوا وراءهم الرايات، وأسلموا لواء الفرسان إلى الأعداء دون شروط. وكاد الأمر أن يفشل برمته، لولا تدخل مشيئة الرب، الذى قوّى من كانوا قادرين على التصدى للأمر على إيقاف الرجال المتقهقرين، وعلى مجابهة حنق الأعداء. وكان هؤلاء هم: السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، والسيد خوان ثانوغيرا، و السيد غارثيّا دى بيّارّويل، والسيد خوان بونثى دى ليون، وبدرو مارتين دى ألدانا، وخوان دى بونثى Juan de Ponte – الذى كان سيّافًا استثنائيًا . حيث قاموا بقطع الطريق على جزء من الرجال، وأغاثوا الألوية فى الوقت الذى كان فيه ضرورةٌ ملحةٌ لتدخلهم.

بينما القادة منهمكون فى تجميع الجنود وحملهم على أن يعودوا إلى القتال، اقتربوا من بعض الأحجار الموجودة على يسار الجبل، حيث تراءى لهم أن هناك قلة فى الرجال عند ذاك الموضع. ولم يقدم القادة على ذلك ظنًا منهم فى إمكانية تسلق تلك الأحجار؛ لأنها كانت تبدو شديدة الوعورة، وإنما كانت محاولة ليروا إذا ما كان فى مقدورهم إلهاء الأعداء، وصرف نظرهم إلى تلك الناحية. بيد أن تلك الحادثة أضحت برمتها فى صالحهم؛ لأن المسلمين – الذين لم يستطيعوا أن يتخيلوا إمكانية تسلق أى كائن حى لتلك البقعة، نظرًا لثقتهم فى وعورة الصخور الشديدة – أغفلوا تزويد المكان بالحراسة الملائمة. حينما بدا للقواد أن الوقت قد صار مواتيًا، تسلقوا الصخور فى عجالة شديدة، فلم يمنحوا الأعداء إمكانية التصدى لهم. فبدأ اليأس ينتابهم، و بادروا بالهرب، فتمكّن رجالنا من التوغل فى حرية؛ وخلّفوا وراءهم ما يزيد على أربعمائة قتيل، دون أن تخلو صفوف المسيحيين من الخسائر: حيث قُتِل سبعة جنود، وجُرِحَ أكثر من ثلاثمائة. وقد مات قائد الأتراك – المدعو كوسالى Cosali – وهو يحارب ببسالة، وأُسِرَ فرانثيسكو لوبيث حاجب تابيرناس. كما وقع بعض المسلمين فى الأسر، فجعلهم السيد فرانثيسكو دى كوردوبا من نصيب الجنود البحريين، بالإضافة إلى ألفى وسبعمائة امرأة وطفل. كانت الثياب، والنقود، والحلى، والذهب، والفضة، واللؤلؤ،

والمؤن من ماشية ومتاع وفيرة، حتى أن قيمة الفيء قد قُدِرَت لدى الكثيرين بأكثر من خمسمائة ألف دوقية. لم يسلب من المسلمين سوى رايةً واحدةً؛ لأن القائد التركى لم يقبل إلا برفع رايته هو فقط؛ وكان قد أبقى عليها خفاقة على الدوام، فى موضع يمكّن المسيحيين من رؤيتها.

فى أعقاب ذاك الانتصار، رجع السيد فرانثيسكو دى كوردوبا إلى إينوكس، ومنها إلى ألمرية، حيث استُقبِل فى سرور؛ واضطلع بتقسيم الغنائم على النحو المتفق عليه. وأقول إنه لم يوزِّع سوى النساء والغلمان فقط، لأنه كان من المستحيل تجزئة باقى الغنيمة؛ حتى ذلك القدر سُلِبَ منه كميات وفيرة. حمل خيل دى أندرادا الجزء الخاص به وبجنوده على متن السفن، وأبحر بها لاستطلاع الساحل. بيد أن قادة القوات البرية ساد بينهم اختلافات عارمة حول تقسيم نصيبهم، وحول مقدار الخمس والمعشار، مما أسفر عن شعورهم بالسخط وعدم الرضا. وصل السيد كريستوبال دى بينابيديس - شقيق السيد غارثيّا دى بيًا رّويل - برفقة ثلاثمائة جندى من بياسة وأراضيها إلى ألمرية، للمشاركة فى تلك الحملة على نفقته الخاصة، وذلك فى الخامس من شهر فبراير. كما حضر القائد بيرناردينو دى كيسادا Bernardino de Quesada فى صحبة مائة وثلاثين جنديًا، كان بدرو أرياس دى أبِلا قد بعث بهم إلى السيد فرانثيسكو دى كوردوبا للغاية ذاتها. وجاء أيضًا كل من القائد أندريس بونثى، والسيد دييغو بونثى دى ليون Diego Ponce de León، والسيد فرانثيسكو دى أغوايو Francis-co de Aguayo؛ لكنهم وجدوا أن الحملة قد انتهت. فلم يشعروا بالابتهاج إلا قليلاً، على الرغم من أنهم حققوا فيما بعد الكثير من النتائج الجيدة.

الفصل التاسع والعشرون

يتناول انطلاق ماركيز مونديخار من أوخيخار للتوجه صوب لاس غواخاراس، ووصفا لتلك الأراضى.

غادر جيشنا مقر إقامته فى أوخيخار وتوجه إلى كاديار، وذلك فى يوم السبت الموافق الخامس من فبراير. وقد ارتحل فى اليوم التالى إلى أورخيبا، ليعبر منها إلى لاس غواخاراس، ويصل لاحقًا إلى جبل منتميس. ولم تكن الشكوك التى راودت ماركيز مونديخار حول نشوب الثورة فى تلك الأراضى، وفى البقعة الشرقية، ومنخفض مالقة، على أيدى المسيحيين أنفسهم[٢٨]، قد أتت من فراغ؛ وهو الأمر الذى جعله لا يجرؤ على إرسال أى شخص إلى تلك الأرجاء، خوفًا من حدوث أية اضطرابات. حيث أمسى الناس يملأهم الجشع، وبات رجال الحرب حاقدين على المغانم التى ظفر بها آخرون، فصار الطمع هو آفة ذاك الزمان. وأراد أولئك إخفاء مصالحهم الخاصة خلف مشاعر الحمية لإرساء الفضيلة، وحب المسيحية[٢٩]، ونيل الشرف، لا بالسبل التى يتحقق بها للمرء الشرف الحقيقى، وإنما عن طريق أفعال تدر مالا. عندما بدا لقائدنا العام أنه معه عدد قليل من الرجال لا يخول له تنفيذ المهام التى يلزم القيام بها – لأن

(٢٨) هذا التفكير يتوافق مع منطق ماركيز مونديخار الموضوعى والمتعاطف – من ناحية أخرى – مع الموريسكيين، لكن المؤرخين الآخرين لا يذكرون هذا الجانب (المراجع).

(٢٩) هذا يمثل جانبا آخر من مشكلة الموريسكيين: تذرع أعداؤهم بنصر المسيحية وارتكبوا أفعالا لا يقرها الدين المسيحى (المراجع).

جزءًا كبيرًا من الجنود كانوا قد هجروه، حاملين معهم الأمتعة التى غنموها – أو إعادة تشكيل جيشه؛ أو قطع الطريق على الشكوك التى انتابته، حول الأمور التى تدور فى غرناطة من أجل إرسال شخص لكى يضطلع بالحملة، والتعلل بانشغاله هو فى البشرات؛ بعث برسالة إلى كونت تينديًا من مقر إقامته فى أورخيبا، فأمره أن يرسل إليه ألفا وخمسمائة راجل، ومائة فارس، ممن يقطنون بالمدينة وقرى الغوطة؛ وقد تعطل يومًا فى ذاك المخيم فى انتظار قدومهم. كما أرسل فى ذات اليوم السيد ألونسو غرانادا بينيغاس إلى العاصمة، حتى يحيط جلالة الملك علمًا بالأطوار التى بلغتها شؤون الحرب، وبخضوع الثوار؛ وأن يتضرع إلى صاحب الجلالة نيابةً عنه لكى يقبلهم فى كنفه، وينظر بعين الرحمة إلى صغار المذنبين؛ من أجل أن يتمكن هو من الوفاء بالكلمة التى منحها بالفعل إلى المستسلمين؛ لأنه يرى أن ذلك هو أقصر السبل لإنهاء تلك المسألة بصورة عادلة[٣٠].

إذا تدبرنا مليًا ما قاله ماركيز مونديخار، لوجدناه أكثر الحلول مواءمةً لكى يعم السلام الشامل المملكة بأسرها؛ كما أنه يدع الباب مفتوحًا أمام إنفاذ سكين العدالة فى حناجر الأشرار، عندما يحين الوقت الذى يمكننا من القيام بذلك دون إثارة قلاقل، على الرغم من تعارض قوله مع آراء رجال بارزين آخرين، كانوا يعتقدون أن إظهار الحزم أكثر لزومًا وتأمينًا. وأمسى هؤلاء يرون أنه لن يتأتى توقيت أفضل من الوقت الحالى لقهر المتمردين؛ نظرًا لكونهم مجردين من قواهم، ووجلين، ومختلفين فى الرأى، ومعوزين إلى حد كبير فى سائر الأمور الضرورية للحياة البشرية؛ حتى أنهم صاروا يجولون بحثًا عن الفاكهة البرية الملائمة للحيوانات، وجذور الأعشاب التى يمكن تناولها؛ إلى جانب الأسى والإعياء اللذين عادةً ما يخلّفهما ضمير الآثمين. فى يوم

(٣٠) نود أن نلفت الأنظار هنا إلى أمرين: رغبة سليل عائلة مندوثا فى إيجاد حل "سياسى" للمسألة الموريسكية، والدور الذى ظل يقوم به أحفاد أبى الحسن من زوجته ثريا دفاعا عن الموريسكيين (المراجع).

الثلاثاء التالى انطلق الجيش من أورخيبا، وذهب إلى بلش بنى عبد الله Vélez de Benaudalla. وفى يوم الأربعاء اتجه إلى غواخاراس. لمّا كان الماركيز يعتقد فى وجود أعداء سوف يحاربهم خلال ذاك اليوم، فقد أمر السيّافين أن يعبروا بالجنود نهر موتريل على صهوة الخيول، لكيلا يصيبهم البلل؛ وهو ما كان سيشكّل عائقًا، نظراً لبرودة الجو. فى أعقاب عبور النهر، سار الرجال جميعًا فى صفوف منتظمة حتى بلغوا غواخار ديل فوندون، حيث شاهدوا آثار الحريق الذى أضرمه المارقون فى الكنيسة إبان قتلهم للسيد خوان ثاباتا. وقد ألفوا المكان مهجوراً، على الرغم من كونه يحتوى على موضع حصين يمكّن القاطنين من الدفاع عن أنفسهم. من هناك توجه الجيش صوب غواخار دى الفغيت، وقد وجدها الرجال خاوية أيضًا، وقضى بها الجيش ليلته تلك.

حينما تنامى إلى علم الماركيز أن الأعداء قد مُنوا بهزيمتين: حيث غُلِب بعضهم عند غواخار العليا – التى يدعونها أيضًا غواخار ديل رى Guájar del Rey – كما هُزِم آخرون عند طريق مرتفع ثيبادا Cebada المفضى إلى البشرات، بادر بإرسال قائدين، يصحب كل منهما ثلاثمائة رام، من أجل أن يلاحقاهم ويحاولا قطع الطريق عليهم. وصل القائد لوخان إلى ممر يتعين على كل من يقصدون البشرات العبور منه، فقطع الطريق عليهم، وقتل منهم الكثير من الرجال، ثم عاد إلى المخيم دون أن تلحق به أية خسائر. تبع القائد ألبارو فلوريس من توجهوا إلى غواخار العليا، ولحق بمؤخرة جيشهم؛ إلا أن أعداداً وفيرة من الأعداء هبت لنجدتهم، حتى إنه اضطر لإرسال جندى فى مهمة إلى الماركيز، ليطلب منه المزيد من الرجال، لأن من فى حوزته لا يكفون لتمكينه من الإغارة عليهم. أمر الماركيز بتحضير عدة مجموعات، لكن الجنود تأخروا فى الانضمام إلى الألوية، لانشغالهم بسرقة المنازل؛ فبات من اللازم الذهاب على صهوات الخيل، حتى لا تضيع تلك الفرصة. سار الماركيز إلى حيث كان ألبارو فلوريس مشتبكًا فى بعض المناوشات مع العدو، بعد أن ترك أوامر إلى إيرناندو دى أوروبيا لكى يحشد صفوف المعسكر، ويخرج وراءه. تقدم الركب كل من السيد ألونسو دى

كارديناس، والسيد فرانثيسكو دى مندوثا، مع حشد من الجنود كانوا قد استطاعوا تجميعه على عجالة. فاستثار أولئك الحمية فى نفوس رجالنا، ووثبوا على الأعداء، فهزموهم، وحملوهم على الفرار. كما قتلوا بعضهم، واستولوا منهم على رايتين؛ بينما التجأ الباقون إلى جبل منيع يعلو غواخار العليا بنصف فرسخ، كانوا قد أودعوا به النساء والثياب(٣١).

كان ذاك الموضع حصينًا، وكان يقع على قمة جبل مستدير، وغير متصل بأى تضاريس أخرى، وشديد الارتفاع. وكان محاطًا من جميع الاتجاهات بصخرة قائمة؛ ولا يحتوى إلا على سبيل واحد للرعاة، يتسم بالضيق والوعورة الشديدة. وهو يسير صعوداً أعلى المرتفع لمسافة تربو على ربع فرسخ، ليفضى إلى جبل صغير غير مرتفع، ليعاود منها الصعود إلى طريق وعر، حتى يصل إلى بعض الأحجار المرتفعة، التى تشكل بوعورتها مدخل سهل مستو، يتسع لأربعة آلاف رجل، وليس له طريق آخر من جهة الشرق. إلى الناحية الغربية منه توجد سلسلة جبلية، تنبع من سلسلة أخرى أكبر منها، وتكوّن طريقًا صاعداً؛ يمكن من خلاله الصعود – بنفس القدر من الصعوبة – والتوغل إلى داخل السهل ما بين عدة صخور أخرى. بدت تلك الصخور وكأنها وُضِعَت باليد لتأمين ذاك المدخل، كما لو كانت هناك أذرع بشرية تملك من القوة ما يخول لها وضعها على ذاك النحو.

كان ماركوس الزمّار Marcos el Zamar، حاجب خَاتَار Játar وزعيم المسلمين فى تلك الناحية، قد وضع ثقته كلها فى ذلك الجبل. فأودع فيه سائر النساء، إضافةً إلى ثروات تلك الأراضى، وما يربو على ألف مقاتل، حينما شاهدوا جيشنا يتقدم للإغارة عليهم. كما كان المسلمون قد أعدوا دروعًا واقية من الحجارة، والمراتب، والبراذع، وأشياء أخرى، واعتبروها تحصينًا كافيًا للدفاع عنهم. تخلى رجالنا عن ملاحقة

(٣١) لاحظ عدد المرات التى تذكر فيها الثياب؛ وذلك لأهميتها. (المراجع).

الأعداء، ورجعوا إلى غواخار العليا، فألفوا بها ماركيز مونديخار وجانبًا من سلاح الفرسان. فما كان من ذاك الأخير، نظرًا لتأخر الوقت، وفرط وعورة الطريق، والصعوبة الشديدة لاجتيازه أثناء الليل، إلا أن أرسل إلى إيرناندو دى أورونيا يأمره بعدم التحرك حتى يطلع الصباح؛ وبات ليلته تلك في ذاك الموضع مع من في حوزته من الرجال. إبان وجود معسكرنا في غواخار دى الفغيت، وصل إلى غرناطة كونت سانتيستيبان el conde de Santisteban، يرافقه الكثير من الفرسان من أقربائه وأصدقائه، ممن قدموا للمشاركة في تلك الحملة؛ كما حضر ألونسو بورتوكاريّرو - الذى كان قد شُفِى من الإصابة التى تعرض لها فى بوكيّرة - فى صحبة المشاة والفرسان الذين كان ماركيز مونديخار قد أرسل فى طلبهم من كونت تينديّا.

الفصل الثلاثون

كيف أراد بعض الفرسان من جيشنا احتلال جبل غواخاراس، متعللين بالذهاب لاستطلاعه، والهزيمة التى منوا بها على أيدى المسلمين، وقتل عدد منهم.

فى تلك الليلة طلب السيد خوان دى بيّارّويل من ماركيز مونديخار أن يمنحه الإذن لكى يتوجه فى اليوم التالى، مع نفر من الرجال البواسل، لاستكشاف الجبل؛ فسمح له بذلك بعد أن بالغ فى الإلحاح عليه. وقد أمره الماركيز أن يصطحب معه خمسين من الرماة، وأن يستطلع المكان على نحو لا يتسبب فى إثارة اضطرابات. كان السيد خوان دى بيّا رّويل يطمح لتحقيق الشهرة. وبات يعتقد أن المسلمين لن يجرؤوا على الانتظار فى معقلهم؛ أو أنهم لمّا يشهدون مقدمه، سيظنون أن الجيش بأكمله سيغير عليهم، ويلوذون بالفرار؛ أو أنهم سيستسلمون له قبيل وصول الجيش. فأبلغ مسعاه وشكوكه إلى نفر من الفرسان والجنود غير النظاميين، الذين يتفقون معه فى تلك الرغبة. فغادر المعسكر مع خمسين جنديًا كان لزامًا عليه اصطحابهم. لكن فيما بعد تبعه رجال آخرون كثيرون، خرج بعضهم بداعى الجشع، بينما ودّ البعض الآخر إظهار الشجاعة، حيث اعتقدوا أنه سيتحقق له ما أراد.

كان الرجال قد ابتعدوا بالكاد عن المخيم حينما اشتبكت الطليعة فى بعض المناوشات مع عدد من المسلمين، الذين كانوا موجودين عند بعض الروابى على الجبل. فنودى فى الجنود لحمل السلاح، وذاع الخبر فى المكان، للمطالبة بقوات إغاثة من الفرسان. عندما تنامى إلى علم ماركيز مونديخار أنباء تلك الفوضى استشاط غضبًا،

حتى إنه أرسل إلى القائد من يخبره أن نجدة مثيرى الشغب ليست بالأمر الجيد، وأن عليه أن يعود أدراجه. فلمّا أدرك الماركيز أنه لن يتمكن من إثناء السيد خوان عن عزمه، وأنه ماض قدمًا فى مسيرته، خرج هو بشخصه على عجل برفقة من تسنى له تجميعهم من الفرسان؛ كما لو كان قد تكهن بما سيجرى. تقهقر المسلمون الذين يجولون خارج الجبل، إلى جانب من بادروا بالاشتباك فى تلك المناوشات إلى معقلهم. عندما وصل ماركيز مونديخار إلى الربوة الكائنة أمام الجبل، كان الجنود قد شرعوا بالفعل فى تسلق سفح الجبل، لاحتلال الهضبة التى كنا قد أشرنا إلى وجودها؛ وكان المسلمون قد أودعوا بها رجالاً آخرين للذود عنها. رافق السيد خوان دى بيًا رّويل كل من: القائد الإشبيلى السيد لويس بونثى دى ليون، والسيد خيرونيمو دى باديًا Jerónimo de Padilla، وأغوستين بينيغاس Agustín Venegas، وغونثالو دى أورونيا Gonzalo de Oruña- ابن إيرناندو دى أورونيا - وسيادة المفتش خوان بيلاثكيث رونكيّو Juan Velázquez Ronquillo، ورجال آخرون من ذوى النفوذ، وما يفوق أربعمائة جندى.

أما الرجال الذين اصطحبوا خيولهم، فقد تخلوا عنها لعدم استطاعتهم الإفادة منها، وصعد الجميع إلى أعلى المرتفع على الأقدام. وقد أمعنوا فى التقدم، حتى أن بعض الجنود المتحمسين الذين نالوا من الأعداء برماحهم عند الصخرة، استطاعوا الدنو من الدروع ذاتها التى تقى المعقل. ولو أن الجميع قد تقدموا إلى ذاك الحد، لربما تمكنوا من فتح ذاك المعقل؛ بيد أن أحدًا لم يتبع خطاهم، وكانت الأمور تستدعى من أصدقائهم القيام بذلك. لكن الكثير منهم ظلوا فى منتصف المرتفع، بينما مكث آخرون بالأسفل على مقربة من الجدول؛ وباتوا يتدافعون ويسعون لدرء الضربات أينما وجدوا صخورًا أو شيئًا يتيح لهم الاختباء من الأحجار التى يقذفها عليهم الأعداء من عل. دام ذاك الهجوم المتهور ما يربو على الساعة، واستنفد خلاله رماتنا الذخائر دون تحقيق مبتغاهم؛ لأن الأعداء كانوا مختبئين خلف دروعهم. وقد شرع أحد الجنود -الذى غلبته الحماسة أكثر من الحس العملى - فى المطالبة بتسليم الذخيرة من يد إلى

يد، وهو أمـر بالغ الخـطورة في الظروف المـاثلة لما يمرون به، حـيث لا ينجم عنه سوى تحذير العدو، وإفهام الصديق أن قائل تلك العبارة على وشك أن يلوذ بالفرار. وهو ما حدث في ذاك اليـوم، لأن الجنود الذين كـانوا بالأسـفل بالقرب من الجدول، إزاء استشعارهم لتلك الزلة، كانوا أول من بادروا بالهرب. ثم تبعهم الأخرون الذين كـانوا إلى الأعلى منهم بعض الشيء. وفي النهـاية فـر من كـانوا في المقدمـة، بعد أن أذهلهم رؤية ذاك الخطب؛ فظـنوا أن ذلك الأمـر مـرده شن الأعـداء لغـارة كبـرى من ناحيـة أخـرى؛ لأنهم كـانوا يدركـون جـيداً أنه مـا من داع للفـرار من مـواجـهـة أولئك الموجودين أمامهم.

على الرغم من كل تلك الفوضى، مـا كان القابعون بداخل المعقل ليجسروا على الخروج، لولا إقدام ماركوس الزمّار – الذي قتل رجلين مسلمين كانا يبادران بالهرب في ذاك اليوم – على الإطلال على الخارج؛ وتحفيزه الرجال على الخروج للقتال، لدى مشـاهدته لما يدور. قـفز إلى خارج الدروع أربعون غلامًـا من أكثرهم شجاعةً، وقد تسلّحوا بالحجارة والرماح الصغيرة، وتسببوا في مشهدٍ بائسٍ يغص بالقتلى. أجهز المسلمون في ذاك اليـوم على كل من: السـيد لويس بونثي ، وأغـوسـتين بينيـغـاس، وغـونثـالو دي أورونيـا، و سيـادة المفتش رونكيِّـو، والسـيد خـوان دي بيًا روّيل؛ كمـا جرحوا السيد خيرونيمو دي باديًا، وكان أحد المسلمين يلاحقه، وكاد يرديه قتيلاً، لو لم يهب لنجدته أحد العبيد المسيحيين. حيث قام الرجل بضمـه بشدةٍ بين ذراعيه، وأخذ يتدحرج وإياه نزولاً من أعلى الجبل، ولم يتـوقف حـتى هبطا إلى الجدول، حـيث تم إنقاذه. حينما شهد ماركيز مونديخار الهزيمة التي منى بها أولئك الأناس التافهون، وكيفية لجوء المسلمين إلى إعمال الخناجر في كل من تطاله أيديهم، وإن سلاح الفرسان لن يتسنى له ترجيح كفته – لأنه ليس هناك طريق يعبر من خلاله الهاوية التي يقع بها الجدول، كما أن الأرض لا يمكن أن تطأها الخيول – ترجل عن جـواده، حـاملاً ترسًا دائريًا وشـاهـراً سيـفـه في يده. وقـد حـذا حـذوه الفرسـان والسـيّافـون الذين كـانوا يرافقونه، فنزل الجميع عن صـهوات الجياد. ثم توجه الجمع، بالإضافة إلى أفراد طاقم

حماية الماركيز المسلحين بالرماح ذات الرأس الذى يشبه البلطة، وفرقة من أربعين جنديًا من الرماة، لاحتلال موقع حصين يتيح لهم التقاط الجنود الفارين، لكى لا يقضى عليهم المسلمون، الذين خرجوا من معقلهم على وجه السرعة، وباتوا يلاحقونهم فى شتى الأرجاء. ولم يكن سينجو سوى عدد قليل من المسيحيين، نظرًا لانتشار المسلمين ومعرفتهم الوثيقة بتلك الأراضى.

واصل الهمجيون تقدمهم حتى وصلوا إلى مدى بعيد فى ذاك اليوم، حيث أصابوا جنديين مسلحين بالرماح ذات رأس البلطة، كانا على مقربة من الماركيز، بعيارين ناريين من بنادقهم. وكانوا سيلحقون بنا أذى بالغًا لولا خشيتهم من سلاح الفرسان. فى النهاية تراجع المسلمون سالمين غانمين، ورجع الماركيز إلى موضعه، مخلّفًا وراءه السهل والهوة وقد تناثرت فى سائر أنحائهما جثث القتلى. فى تلك الآونة حضر إيرناند دى أورونيا مع القوات بأسرها. لكنه لم يأت فى الوقت الذى يتيح له الإغارة على المعقل فى ذاك اليوم؛ لأنه من فرط وعورة وضيق الطريق، أمسى من الضرورى أن يسير الرجال والمتاع فى صف، واحدًا تلو الآخر. حينما وصلوا كان الوقت قد صار متأخرًا للغاية، فكان ذلك هو العلة وراء الاتفاق على الانتظار إلى اليوم التالى، الذى كان يوافق يوم جمعة.

الفصل الحادى والثلاثون

يتناول كيفية الهجوم على حصن لاس غواخاراس، والظفر به.

عندما اجتمع الجيش عقب اكتمال صفوفه، أمر ماركيز مونديخار بتسليم كافة القادة أوامر النظام الذى يتعين اتباعه أثناء المعركة مكتوبةً. كانت الخطة تسير على النحو التالى: يخرج كل من ألبارو فلوريس وغاسبار مالدونادو، على رأس ستمائة جندى، لسلك الطريق المفضى إلى البحر، على أن يصعدا فيه حتى يبسطا سيطرتهما على أعلى الجبل ما بين الجنوب والغرب. وأن يسلك كل من بيرنابى بيثانيو Bernabé Pizaño وخوان دى لوخان، يرافقهما أربعمائة من الرماة، سفح الجبل حتى يصلا لاحتلال الربوة الكائنة أسفل الحصن. كما يتمركز فى البقعة الشمالية كل من أندريس بونثى دى ليون، والسيد بدرو رويث دى أغوايو، مع مائة وعشرين رماح القادمين من مدينة قرطبة؛ بالإضافة إلى ميغيل خيرونيمو دى مندوثا Miguel Jerónimo de Mendoza، والسيد دييغو دى ناربائث Diego de Narváez، وتصحبهما فرقتا المشاة اللتان يترأسهما ذاك الأخير، إلى جانب القائد ألونسو دى روبلِس Alonso de Robles. فيحاولون تسلق الجبل، وبلوغ أقصى ارتفاع يمكنهم الوصول إليه، إلى أن يتخذوا موضعًا يشرفون فيه على العدو من عل. على أن يتركوا الفرسان فى الأسفل، ويودعونهم فى محل يتيح لهم مباغتة الأعداء إذا ما رغبوا فى أن يعودوا أدراجهم خلسةً إلى البشرات. أما الماركيز، فسوف يسير فى الطريق المستقيم برفقة كل من يتبقى من الجيش.

لكى لا يتم اكتشاف المواضع التى سيتمركز فيها أولئك الرجال من البقعة التى يعسكر بها الأعداء، وحتى يتزامن بدء الهجوم مع الوقت التى تتم فيه محاصرة المرتفع، أمر الماركيز أن يتم إصدار إشارة التحذير عن طريق ضرب طلقة واحدة من مدفعية الميدان. كان لزامًا على ألبارو فلوريس الدوران لمسافة فرسخين كاملين من أجل الذهاب لاتخاذ موقعه، فلم يستطع الوصول إلى هناك إلا عقب انتصاف النهار، وذلك من فرط وعورة التضاريس. حينئذ اكتشف المسلمون الرجال الذين يتسلقون الجبل لاحتلال قمته، فبادروا بالخروج على عجل للدفاع عن الممر الذى يفضى إلى الموضع الذى كان سيتمركز به القائدان بيثانيو ولوخان. بيد أنهم لم يقدروا على إعاقتهما عن بلوغه، بل اضطروا إلى التراجع بعد أن منيوا بخسائر. حينما بدا كأن الجبل أضحى محاطًا من كل الجهات بصورة جيدة للغاية، أمر الماركيز بإطلاق إشارة الهجوم. صعدت كتائب المشاة إلى أعلى الهضبة، حيث كان لا يزال بالإمكان رؤية خيوط الدماء المسيحية، التى تقطر على أثر الجروح الموجودة بالأجساد العارية. فألفوا المنطقة الأولى مهجورة؛ لأن المسلمين الذين كانوا بها قد غادروها، وأخذوا يتراجعون القهقهرى نحو الحصن، بعد أن رأوا ألبارو فلوريس وقد اعتلى قمة الجبل من فوقهم؛ حيث ألحق بهم خسائر عديدة بنيران البنادق.

بدأ كلا الفريقين فى تبادل التراشق بالأعيرة النارية عن بعد، فنجحت صعوبة التضاريس ووعورتها فى التغلب على الحماسة التى كان يشعر بها جنودنا. دام القتال حتى غروب الشمس، حيث دافع المسلمون من خلف دروعهم، وتمرست أذرع الرجال والنساء على قذف الصخور الضخمة والأحجار على من يتسلقون الجبل. فتمكنوا بذلك من التصدى لثلاث هجمات، بعد أن ألحقوا بنا خسائر ليست بالضئيلة؛ حتى أمر ماركيز مونديخار بتراجع الرجال، وإرجاء القتال إلى اليوم التالى، بعد أن تراءى له أن الوقت قد أمسى متأخرًا. ظل الهمجيون على زهوهم، لإدراكهم أن الليل الوشيك سوف يطيل من أعمارهم، وإن كان الخوف قد دب فى صدورهم. حينما فطنوا إلى أن ما حدث يشير إلى احتمال وجود زلل بين رجالنا، أو كون الجنود يستريحون من المجهود

الذى بذلوه، قام الزمّار باستدعاء الخيرونثيّو وغيره من المسلمين البارزين الموجودين فى ذاك الموضع، وخاطبهم على النحو التالى: " قام أسلافنا الذين فتحوا هذه الأراضى - التى تضيع من بين أيدينا الآن- بالتوغل ما بين هذه الجبال، والاحتماء بتلك الصخرة وذاك الموضع الذى مثّل بالنسبة إليهم نوعًا من الحماية ضد أى هجوم من قبل المسيحيين؛ وكذلك فقد كان ساحل البحر تحت تصرفهم، حينما كانت هذه المنطقة مأهولة بالمسلمين. لكنى لا أدرى إذا ما كان الساحل لا يزال متاحًا بالنسبة إليهم، حيث إنهم فقدوا الثقة فى قدوم من يغيثهم، كما هو الحال بالنسبة إلينا. فنحن الآن مجبرون على الهلاك من جراء العطش والجوع والجراح التى يصيبنا بها هؤلاء الأعداء، الذين طردناهم أربع مرات من أمام دروعنا. إن ما نعده نصرًا هو الخزى بعينه؛ لأنهم سيعمدون إلى إغماد سيوفهم فى حناجرنا بمزيد من الوحشية، مع مثابرتهم على شن الهجمات، وهو ما سيقومون به بكل تأكيد. وأشد ما يؤسفنى هو تعرض هؤلاء النسوة وهذه الكائنات البريئة لنفس المصير القاسى. فإذا ما حاولنا تسليم أنفسنا فى هذه الظروف، سيكون ذلك أيضًا بمثابة الفصل الأخير فى حياتنا؛ فمن منا يراوده الشك فى أن الماركيز الحانق سيرغب فى التضحية بنا جميعًا، انتقامًا لموت قواده؟ من أجل ذلك يا إخوتى يتعين علينا الحفاظ على أنفسنا لتحقيق مساع أخرى. حينما يرخى علينا الليل سدوله، ويغفل عنا المسيحيون ظنًّا منهم أنهم قد أوقعونا فى شباكهم، علينا استغلال طرق الرعاة الخفية التى لنا دراية بها، لنقود عائلاتنا للرجوع إلى شعاب الجبل".

أقر الجميع ذلك الرأى، وكان قائدهم هو أول من وافق عليه. فخرجوا وهم يتحرون الصمت قدر المستطاع، حاملين خلفهم اعداداً غفيرة من النساء اللواتى كن يمتلكن الهمة لاتباعهم. فهبطوا عبر وهاد وعرة حتى إنها كانت لتبدو للماعز طرقًا صعبة؛ وذهبوا فى اتجاه لاس ألبونيويلاس، دون أن تشعر بهم الدوريات التابعة لمعسكرنا التى كانت تجوب الجبل. وقد تبقى فى المعقل الشيوخ، وجانب كبير من النساء اللواتى كن يأملن فى إنقاذ حياتهن، عن طريق وضع أنفسهن تحت رحمة

المنتصر. قبيل بزوغ ضوء النهار، قال من بالداخل لكاهن مسيحى كان أسيراً لديهم يُدعى إسكالونا Escalona، أن ينادى على المسيحيين ويخبرهم كيف أن المحاربين قد رحلوا جميعًا، وإن من مكثوا فى المكان يريدون من يُسبِغ عليهم رحمته. فأطل الرجل من فوق أحد الدروع، وصاح بالمسيحيين فى صوت عال أن يصعدوا إلى الأعلى؛ لأنه لم يعد هناك من يدافع عن الحصن. على الرغم من أن الدوريات قد سمعته، وقامت بتنبيه الماركيز إلى الأمر، فإنه لم يوافق على صعود أحد إلى أن ظهر ضوء الصباح. حينئذ أمر كلاً من القائدين: السيد دييغو دى أرغوتى Diego de Argote، وكوسمى دى أرمِنتا أن يصطحبا الرماة الأربعمائة القادمين من قرطبة، ويتوجها ليريا إذا كان ما يقوله ذاك الرجل صحيحًا. حينما وجداه كذلك احتلا الحصن، وأحاطا الماركيز علمًا بما جرى. فى ذاك اليوم، طعن الفرسان بالرماح عدداً من المسلمين والمسلمات الذين كانوا يلوذون بالفرار. أما الزمّار، الذى كان يقطع تلك الجبال حاملاً على كتفيه ابنةً له تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، فقد توقف بسبب الإرهاق ووضع نفسه تحت إمرة بعض الجنود الذين ألقوا القبض عليه. وقد فرض عليه كونت تيندِيّا عقابًا رادعًا لاحقًا فى غرناطة.

كان غضب ماركيز مونديخار عارمًا، فلم تأخذه الرحمة بأى عمر أو جنس، وأمر بنحر كافة الرجال والنساء الذين وجدوا داخل الحصن. حيث جعل أفراد طاقم حراسته المسلحين بالرماح ذات رأس البلطة يجهزون عليهم فى وجوده، فلم تكن تضرعات الفرسان والقادة، أو الدموع الشفيقة التى ذرفنها من تطالبن بالإبقاء على حياتهن البائسة، بكافية لتهدئة حفيظته. وقد أمر لاحقًا بتسوية الحصن بالأرض، ووزع الغنيمة على الجنود. كان ذلك هو الداعى وراء مكوثه فى موضعه حتى يوم الإثنين الموافق الرابع عشر من شهر فبراير؛ بالإضافة إلى اضطلاعه بإرسال دورية إلى موتريل لمرافقة المرضى والجرحى، وكانت أعدادهم كبيرة. فبعث كونت سانتيستيبان مع المعسكر إلى بلش بنى عبد الله للانتظار حتى يوافيهم هناك، بينما توجه هو فى صحبة

الفرسان لزيارة معاقل كل من المنكب، وموتريل، وشلوبانية، ثم عاد أدراجه ليلتقى الكونت، ليرجع الجميع إلى أورخيبا ، من أجل مواصلة إخضاع باقى قرى البشرات. سادت أجواء من السرور فى غرناطة ابتهاجًا بفتح ذاك الحصن، لكنها كانت مشوبة بالحزن على من ماتوا من المسيحيين. وكان هذا هو الحال فى أجزاء أخرى عديدة من المملكة.

الفصل الثانى والثلاثون

يتناول كيفية الإعلان عن اتخاذ أسرى تلك الحرب عبيدًا، مع شىء من الرأفة

كانت هناك شكوك منذ بداية الحرب حول مصير الثوار الذين تم أسرهم فى غضونها، من الرجال والنساء والأطفال، وإذا ما كانوا سيصيرون عبيداً. فى تلك الآونة لم يكن المجلس قد حزم أمره فى هذا الصدد بعد، حيث كانت هناك آراء المحامين وعلماء اللاهوت الذين يرون أنه لا ينبغى القيام بذلك؛ لأنه على الرغم من أن القانون العام يسمح باتخاذ أسرى الحرب من الأعداء عبيدًا، فإن الأمور لا يمكن فهمها على ذاك النحو بالنسبة للمسيحيين. ولمّا كان الموريسكيون مسيحيين، أو أنهم -كما كانوا آنذاك- يحملون تلك التسمية، فإنه ليس من الانصاف أن يؤخذوا فى الأسر. كان جلالة الملك قد علّق إصدار قراره، وأمر المجلس الملكى أن يشير عليه بما يتراءى له فى ذاك الصدد. كما كتب إلى رئيس محكمة غرناطة الملكية ومستشاريها الحقوقيين، من أجل أن يبحثوا الأمر فى اجتماعاتهم – وهى عبارة عن جلسة عامة، تنعقد فى العادة يومين من كل أسبوع – ويرسلوا برأيهم إلى صاحب الجلالة. فى أعقاب تداول ذلك الأمر الذى ينطوى على قدر كبير من الأهمية، خلص أعضاء المحكمة إلى أنه من الممكن ومن الضرورى أن يصيروا عبيدًا، وذلك طبقًا لمجمع أساقفة مدينة طليطلة، الذى اتخذ ذلك القرار فى حق اليهود الثوار الذين كانوا موجودين فى عصر آخر؛ إلى جانب أن الموريسكيين مجّدوا اسم محمد، وأفصحوا عن كونهم مسلمين.

أقر ذاك الرأى عدد من علماء اللاهوت، وأمر جلالة الملك بتنفيذه. على أن يطبّقه مجمع الأساقفة على الموريسكيين، بنفس الطريقة التى اتبعوها مع اليهود، مع تعديل

رحيم؛ أراد إضافته انطلاقًا من كونه أميرًا مراعيًا للحقوق وعادلاً، وهو: "الذكور الذين تقل أعمارهم عن عشر سنوات، والإناث اللاتى لم يبلغن أحد عشر عامًا، لا يمكن أن يضحوا عبيدًا؛ بل يوضعون تحت الوصاية المؤقتة، لكى تتم تربيتهم وتعليمهم فى شؤون العقيدة". صدر قرار فى هذا الصدد على هيئة مرسوم، وقد تمت إذاعته وتوزيعه فى سائر أرجاء المملكة. وإلى يومنا هذا يراعى تطبيق ذلك المرسوم مع من طالبوا من قبل ومن يطالبون بتحقيق العدل؛ لأن تلك المسألة شهدت منذ بدايتها فوضى عارمة، حيث تم تشريد الأطفال الأبرياء وبيعهم كالعبيد.

كان هناك أيضًا شك آخر حول وجوب إعادة الممتلكات، التى كان الثوار قد سلبوها من المسيحيين؛ لأن المالكين، حينما تعرفوا على حليهم الخاصة فى حوزة الجنود الذين غنموها أثناء الحرب، لجؤوا إلى العدالة من أجل المطالبة بها؛ وأمسى هناك عديد من الدعاوى والخلافات فى ذاك الصدد. وقد قررت المحكمة ذاتها أنه لا ينبغى رد الأمتعة لأنها مكاسب حرب؛ ولأن ماركيز مونديخار، رغبةً منه فى تحميس الجنود الذين لا يتقاضون راتبًا، إبان دخوله مع جيشه إلى البشرات، كان قد أمر بإصدار مرسوم –أثناء مروره بجسر أورخيبا – أعلن فيه أن تلك الحرب ضد أعداء للدين ومتمردين على حكم جلالة الملك، وأننا سنقمعهم بالحديد والنار.

الفصل الثالث والثلاثون

يتناول الاستمرار فى إخضاع أراضى البشرات، والاعتراضات التى ظهرت ضد تلك المسألة.

إزاء عودة جيشنا إلى أورخيبا بادر مسلمو البشرات - الذين أعيتهم الفاقة الشديدة والنكبات - إلى الأخذ بالنصح الذى أُسدِى لهم؛ لأن الحرب التى شُنَّت ضدهم خلال فصل الشتاء القارس، وطردهم من قراهم، لم يدع لهم ملجًا أخر سوى الجبال. كما أنهم باتوا يهلكون من جراء الجوع والبرد، أثناء ترحالهم محملين بالنساء والأطفال، وصاروا يشاهدون خطر الموت والوقوع فى الأسر ماثلاً أمام أعينهم. فبدأوا يحضرون للاستسلام، ووضع أنفسهم تحت رحمة جلالة الملك دون قيد أو شرط، ليفعل بهم وبممتلكاتهم ما يتفضل به؛ كما حدث من قبل مع حجّاب خوبيليس، وأوخيخار، وأندرش، والبلدان الأخرى التى أسلفنا ذكرها. وقد وعدهم ماركيز مونديخار أن يتشفع لهم عند جلالة الملك لكى يصفح عنهم. فكانوا كلما جاءوه يستقبلهم تحت الكنف والأمن الملكيين، ويمنحهم صكوك تأمين منه لكى لا يتعرض لهم رجال الحرب بسوء. كما أمرهم أن يحضروا إلى المعسكر الأسلحة والرايات الموجودة بالقرب من البلدة، بينما عيّن كنائس خاصة وبعض الأشخاص لجمع ما كان بعيداً منها.

فى أعقاب ذلك بدأ المسلمون يفدون من كل صوب وحدب. على الرغم من أن الأسلحة التى جلبوها معهم كانت فى حالة سيئة للغاية، مما جعلنا ندرك أنها ليست ذاتها التى تُستَخدَم للقتال، حيث سلّموا أقواساً فولاذية، وبنادق، وحراباً، وسيوفًا، كلها صدئة ومهشمة؛ كما أحضروا كميات كبيرة من مقاليع الحلفاء. حينما كانوا

يُسألون عن أماكن الأسلحة الجيدة، كانوا يجيبون بأن الثوار الجبليين والجنود الذين لم يريدوا الاستسلام قد حملوها معهم. أخيراً بدأت تظهر على الأشقياء بعض أمارات السكينة، والموافقة، لا على المراسيم فحسب، بل على كل ضريبة تُفرَض على ضياعهم. خلال فترة وجيزة جداً كانت سائر بقاع البشرات قد توافدت على أورخيبا، ممثلةً فى الحجّاب، أو نواب مجالس البلدية، أو نواب المحاكم؛ وذلك بعد أن أقنعهم وأغراهم للقيام بذلك الموريسكيين اللذين أتينا على ذكرهما سلفًا، وكانا يدعيان: ميغيل بن ثابا - وهو أحد أهالى بالور - وأندريس الوزير - وهو من مواطنى أوخيخار. بعد أن قام هذان الرجلان بكل ما فى وسعهما فى ذاك الصدد، طلبا من ماركيز مونديخار فى إلحاح شديد أن يودعهما داخل المملكة مع زوجيهما وأبنائهما؛ لأنهما كانا يدركان بوضوح أنهما إذا ما ظلا فى البشرات، فإنهما هالكان لا محالة. كان الماركيز يرغب بشدة فى القيام بذاك المعروف من أجلهما، بيد أنه لم يجسر على إرسالهما فى ظل الأجواء المشحونة التى كانت تسود غرناطة، لأنه كان يخشى أن يعتقلهما قضاة، ويأمروا بقتلهما. وقد توفى كلاهما فى البشرات فى نهاية الأمر، حيث قُتِلَ ميغيل بن ثابا على يد بعض الجنود الذين ذهبوا إليه لتولى حراسته، بينما مات أندريس الوزير - الذى كان طاعنًا فى السن - من جراء المرض.

بعث ماركيز مونديخار بالكاهن القانونى توريّخوس من أورخيبا، فى صحبة ثلاثمائة جندى، لإقناع قرى جبل فيلابريس بالاستسلام. فقام ذاك الأخير بإخضاعها جميعًا، بالإضافة إلى طاعات أخرى عديدة مما حولها؛ ثم جمع الأسلحة والرايات التى سلموها إليه، وأرسلها إلى المعسكر، دون أن يلقى من يقاومه فى الطريق. وكذلك فقد استسلم الكثير من القرى على يد كل من القائدين: خيرونيمو دى تابيا Jerónimo de Tapia، وأندريس كاماتشو Andrés de Camacho. بيد أن هذين القائدين تسببا فى إحداث فوضى عارمة، حيث استلبا الغلمان والمتاع من المستسلمين. وقام بالأمر ذاته الكثير من فرق الجنود العصاة، التى خرجت تجوب الأراضى - دون إذن- من المعاقل الساحلية، ومن معسكر ماركيز بلش، ومن أورخيبا، ومن بقاع

أخرى. من أجل تفادى تلك الأضرار، قامت بعض المجالس بمطالبة ماركيز مونديخار بإرسال بعض الجنود للمكوث معهم، والدفاع عنهم؛ على أن يُقدِّموا لهم الطعام، ويدفعوا لهم عملتين كراتب يومى. بالإضافة إلى ذلك، فقد بعث ماركيز مونديخار بالقائد ألبارو فلوريس وكتيبته ليجوب الأراضى بصورة دورية، لتنحية الرجال الذين مارسوا العصيان وأشاعوا الاضطرابات. وهكذا أضحت البشرات تغص بالناس، حتى أن عشرة أو اثنى عشر جنديًا أخذوا يذهبون من عدة مواضع إلى مواضع أخرى دون أن يجدوا فيها من يضايقهم، ولم يكن عدد الرجال الذين رفضوا العودة إلى منازلهم يتجاوز الخمسمائة.

أمر ماركيز مونديخار فى تلك الآونة بإبلاغ الموريسكيين الحائزين إماءً من خوبيليس أن عليهم اقتيادهن لاحقًا إلى أورخيبا؛ وقد قام ميغيل دى إيرّيرا بانتزاع أربعمائة منهن من قبضة أزواجهن، وآبائهن، وإخوانهن، لتسليمهن إلى الماركيز. إزاء ضغط وكلاء الماركيز عليه من أجل تسليمهن جميعًا -فى الوقت الذى ارتأى فيه القائد استحالة قيامه بذلك، نظرًا لوفاة بعضهن، ووقوع البعض الأخر فى الأسر من جديد، على يد الجنود العصاة الذين يجوبون الأرجاء دون التقيد بأى نظام؛ ورغبةً منه فى درء غضب الماركيز عليه- سعى لمصالحته عن طريق الاستعاضة عنهن بضم كل إماء طاعة فيرّيرة. كان من الممكن أن يتحقق له ما أراد، لو أنه اتفق مع الأهالى على ثمن معقول. حيث عرض المسلم[٣٢] عشرين دوقية للرأس الواحدة، بينما لم يقبل حائزو الإماء بأقل من ستين دوقية للأمة الواحدة. فى النهاية اضطر السيد ميغيل إلى إحضار من تمكن من جمعهن، وبيعت الكثيرات منهن بالمزاد العلنى لصالح جلالة الملك فى غرناطة، بينما ماتت أخريات فى الأسر.

---

(٣٢) أى ميغيل دى إيرّيرا. (المراجع).

كانت كل تلك الأمور حجة على رغبة أولئك الأشقياء فى العيش فى سلام وطمأنينة. كان ذلك فحوى رسالة ماركيز مونديخار التى كتبها إلى جلالة الملك وأعضاء مجلسه الملكى، حيث اعتبر أن الأمر قد بات منتهيًا. بيد أنه كان هناك العديد من الأشخاص ذوى المكانة يخالفونه الرأى؛ فقد تراءى لهم أن ذلك السلام لا يمكنه الاستمرار، وقالوا إن أولئك الأشرار كثيرو العدد، وإذا ما أتتهم النجدة من بلاد المغرب فإنهم سيعودون إلى إثارة الآخرين، فحينما يدرك الموريسكيون - بوصفهم أناسًا حذقون ارتكبوا آثامًا عديدة - أنه سيُنظَر إليهم بعين الرحمة، سينظرون هكذا إلى طبيعة القائد العام، وعندما يشهدون توقف اللجوء إلى السلاح لقمعهم، ستزداد جرأتهم على اقتراف خطايا أخرى أكبر من سابقتها. كما أنه بلغ إلى علمهم خبر مؤكد، مفاده أن ابن أمية كان قد أرسل أحد أشقائه برسائل إلى حاكم الجزائر أولوج على Aluch Ali، يطلب منه أن ينجده ويمده بسفن ورجال وأسلحة وذخائر؛ وهو يهب نفسه كواحد من رعايا الباب العالى. فى حال عدم تحقق ذاك الأمر، وفى أعقاب خضوع الثوار، لابد من إقحام العدالة كوسيلة لمعاقبة الرؤوس المدبرة لتلك الثورة، كما يقتضى الانصاف. نظرًا لكونهم كثيرين ولديهم العديد من علاقات المصاهرة فى كافة الأرجاء، فإنه لا محيص من نشوب اضطرابات جديدة فى المنطقة. أما إذا منحوا عفوًا عامًا، فإنه لن يمسى أمرًا يتناسب وسمعة ملك ومملكة ذات نفوذ واسع كقشتالة، ترك من أقدموا على ارتكاب كل تلك الجرائم فى حق الذات الإلهية والبشرية دون عقاب رادع.

كانت تتم مناقشة تلك الأمور فى غرناطة، وفى العاصمة، وفى سائر أنحاء المملكة. الكل يتذمر من ماركيز مونديخار بوصفه راعى ذاك السلام، قائلين إنه يفعل ذلك لتحقيق منفعته الخاصة؛ لأنه إذا ما أُخليَت الأرض من سكانها الموريسكيين، فسيفقد الماركيز جزءًا كبيرًا من ممتلكاته فى تلك المملكة، والمكاسب التى تُدِرّها عليه الخدمات التى يقدمها له الموريسكيون، وكانت مكاسب طائلة. أما أشد من ساهم ذاك السلام، فقد كانوا من عانوا الكثير من المعاملات الوحشية على يد الثوار، بالإضافة إلى آخرين كانوا يحلمون بتحصيل قدر كبير من فيء تلك الحرب؛ فالجشع لا يهمه إلا تحقيق الربح.

الفصل الرابع والثلاثون

يتناول إبلاغ ماركيز مونديخار عن المكان الذى لجأ إليه ابن أمية والصغير، وإرساله من يتولى اعتقالهما خلسة.

كان هذا ما آل إليه حال الثوار حينما قام ميغيل بن ثابا - حاجب بالور - وآخرون من أقربائه، وكانوا أعداءً لابن أمية، ويتحسسون أخباره من أجل القضاء عليه أوإلقاء القبض عليه، بتنبيه ماركيز مونديخار إلى الكيفية التى يجوب بها ابن أمية والصغير جبال بيرتشوليس. وإنهما يختبئان نهاراً فى الكهوف، ويلتجؤون ليلاً إلى قرى بالور وميثينا دى بومبارون. وأنهما اعتادا فى الغالب الاجتماع فى دار دييغو لوبيث بن عبو فى ميثينا، لامتلاك ذاك الأخير صك أمان يؤمنه على حياته. فما كان من الماركيز - الذى يرغب فى وضع يديه عليهما، حفاظًا على السلام الذى تم ارسائه فى تلك الأراضى؛ ولأنه تنامى إلى علمه أن جلالة الملك يعتزم إرسال السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة؛ وكان الماركيز يرغب فى إنهاء تلك المسألة قبل وصوله- إلا أن أمر باستدعاء القائدين ألبارو فلوريس وغاسبار مالدونادو، وأمرهما أن يتوجها برفقة ستمائة جندى منتقين إلى كلا الموضعين ويحاصرانهما، على أن يصطحبا معهما الجواسيس، من أجل أن يبينا لهما المنازل المشتبه فيها. وعليهما أن يحاولا اعتقال هذين الزعيمين، أو الإجهاز عليهما إذا ما حاولا مقاومتهما، وإحضار رأسيهما إليه. وقد بيّن لهما مدى أهمية تلك المهمة، كما نبههما إلى أن أول ما ينبغى عليهما فعله هو محاصرة منزل ابن عبو؛ لأن الشكوك التى تدور حول وجود الرجلين به هى أقرب إلى اليقين.

تقع هاتان القريتان على سفح جبل شلير المطل على كل من البشرات والبحر الأبيض المتوسط، ويفصل كليهما عن الآخر مسافة فرسخ واحد. حينما وصل القائدان إلى كادیار، تملأهما الرغبة فى تحقيق غرضهما، اتفقا على تقسيم الرجال إلى فريقين، والإغارة بكليهما فى آن واحد. حيث تراءى لهما أنه فى حال قدوم الرجال مجتمعين إلى ميثينا، فقد لا يكونان هناك؛ وقبل أن يتسنى لهما العبور إلى بالور، سيتعرضان لخطر سريان الخبر وإبلاغهما به. فى أعقاب عقد ذاك الاتفاق - الذى لا يعد خرقًا لأمر القائد العام - قاما بتقسيم الرجال إلى قسمين: فتوجه البارو فلوريس للإغارة على بالور مع أربعمائة جندى، بينما سلك غاسبار مالدونادو الطريق إلى ميثينا دى بومبارون برفقة مائتى جندى الآخرين الذين كانوا كافين لمحاصرة دار ابن عبو. تصادف أنه فى تلك الليلة -التى لم تكن أخر ليلة فى حياته، أو نهاية أحداث تلك الحرب- تواجد فى منزل ابن عبو كل من ابن أمية، والصغير، وكذلك زعيم آخر، وهو حاجب تلك البلدة المدعو الدالاى el Dalay، الذى لم يكن أقل منهما خيانةً وشراً. كان الرجال قد قضوا النهار مختبئين فى إحدى المغارات، فالتجأوا بعد حلول الظلام إلى البلدة؛ كما فعلوا من قبل على نحو غير ثابت ومفاجىء فى مرات أخرى، متيقنين من أن أحداً لن يبحث عنهم هناك؛ لأن ابن عبو رجل مسالم وويمتلك صك أمان يؤمنه على حياته.

وصل غاسبار مالدونادو إلى هناك متخفيًا قدر الإمكان؛ فجعل الجنود يغطّون فتائل البنادق، لكى لا يتم الانتباه إلى وجودهم من بعيد. بيد أن حرصه، وحرارة التحفظ التى تعتمل فى صدره، لم تكن كافية لمنع جندى متهور من إطلاق نيران بندقيته فى الهواء، ليقطع عليه تلك السعادة التى كانت قريبة المنال. كان المسلمون غافلين تمامًا عما يجرى، وكانت الدار عامرة بالنساء والخدم، الذين كان غالبيتهم نائمين. كان أول من أحس بدوى الطلقة المريعة هو الدالاى، وكان هو أشدهم حرصًا نظرًا لكونه أكثر دهاءً وتحفظًا. فشعر بالخوف - دون أن يدرك مصدر الطلقة - وبادر بإيقاظ الصغير فى عجالة؛ ثم ركض كلاهما صوب نافذة ليست شديدة الانخفاض مطلة على ناحية

الجبل، فألقيا بنفسيهما منها وهما يغالبان النوم والخوف؛ ثم صعدا الجبل قبل مجيء الجنود، بعد أن أصيبا من جراء السقطة. أما ابن أمية – الذى لم يكن نائمًا بمفرده فى غرفة مجاورة – فلم يتم تنبيهه بالسرعة ذاتها. وعندما لجأ إلى الوكر، كان الجنود النشطاء يمرون من أسفل النافذة؛ فإذا ألقى بنفسه منها، لم يكن هناك مفر من أن يقع بين أيديهم. فأمسى مضطربًا، ولا يدرى كيف يحزم أمره، وأخذ يجول مرات عديدة بين غرف المنزل، ثم يذهب أحيانًا كثيرة إلى النافذة؛ فألجأته الحاجة –التى أعيت فكره بحثًا عن سبيل للنجاة – إلى وسيلة زوّد بها الثقة التى كان قد افتقدها، وحفظت له حياته، لتبقى عليه من أجل أن يتعرض إلى نكبات أشد.

كان غاسبار مالدونالد قد وصل إلى باب الدار، فلمّا وجد من بالداخل يتلكؤن فى فتح الباب حاول هدمه، وأخذ ينهال عليه بخشبة ضخمة. عندئذ قام ابن أمية، الذى لم يجد ملاذًا يؤويه، بالتوجه فى هدوء شديد صوب الباب، ليقف منتصبًا فى الخفاء، فاستوى ما بين الباب والعقب، ثم أزاح القضيب الذى يحكم إغلاقه، حتى يمكن فتحه بسهولة. عندما فُتِحَ الباب، دخل الجنود دفعةً واحدة، فظل مهملاً دون أن يفطن أحد إلى ما يوجد فى ذاك المكان؛ فقد هرعوا فى عجالة للبحث فى الغرف، حيث عثروا على ابن عبو وسبعة عشر مسلم آخرين، كان بعضهم من خدم الصغير والبعض الآخر من أهالى البلدة. أمر القائد باعتقال الجميع، وسألهم إذا ما كانوا يعلمون شيئًا عن ابن أمية أو الصغير؛ فأجابوا بأنهم لم يروهما، وبأن كل الموجودين فى الدار قد استسلموا، وهم يدخلون فى معية صك الأمان الذى يحمله ابن عبو. عندما لم يتسن للقائد الحصول على معلومات أخرى منهم، ولّما كان يدرى أنهم لا يخبرونه بالحقيقة، أمر بتعذيب ابن عبو، وتعليقه من خصيتيه على غصن إحدى أشجار التوت الأسود الكائنة خلف المنزل. حينما علقوه بحيث لم يكن يلمس الأرض سوى بأعقاب قدميه، ورأوا أنه ما يزال ينكر، دنا منه أحد الجنود الغاضبين، وركله على سبيل الازدراء، فجعله يتأرجح من دون ثبات ليسقط فجأةً على الأرض، بعد أن ظلت خصيتيه وأمعائه معلقة على فرع الشجرة. ما كان ينبغى للألم أن يكون بسيطًا إلى تلك الدرجة؛ لأنه

قادر على حمل أى رجل مولود فى أى مكان آخر على فقد الوعى؛ بيد أن ذاك الهمجى نتاج الفظاظة والعجز لم يكن قابلاً للترويض، فهو يستهين بالموت؛ حيث ظهرت على محياه اللا مبالاة، فاكتفى فقط بفتح فمه ليقول: "والله ليحيا الصغير وأموت أنا" ، دون أن يرغب على الإطلاق فى التلفظ بأى كلمة أخرى. أثناء حدوث ذاك الأمر، وانشغال الجنود بسرقة البيت، سنحت الفرصة لابن أمية للخروج من خلف الباب؛ فارتمى على بعض الصخورالمفضية إلى منطقة منخفضة، واستطاع الهرب دون أن يشعر به أحد. ترك غاسبار مالدونادو ابن عبو فى منزله مشرفًا على الموت، ليعود أدراجه حاملاً معه سبعة عشر مسلم أسرى. فاصطحبوا أولئك، وغيرهم ممن تم اعتقالهم لاحقًا فى الطريق، وما يربو على ثلاثة آلاف وخمسمائة رأس ماشية، كانوا قد جمعوها من القرى الخاضعة. لمّا لم يقدر الجنود الذين توجهّوا إلى بالور على القيام بما أوكل إليهم، رجع هؤلاء وأولئك إلى أورخيبا، حيث عنّفهم القائد العام، وسلب منهم المغانم بتهمة التهريب، وأمرهم بإطلاق سراح المسلمين الحائزين على صكوك الأمان منه.

الفصل الخامس والثلاثون

يتناول الكيفية التي قام بها رجالنا بنهب قرية لاروليس على الرغم من إقررها للسلام.

من بين الترتيبات التي قام بها كونت تينديًا أثناء حلوله محل والده في مدينة غرناطة، هي إرسال القائد بيرناردينو دي بيّالتا Bernardino de Villatla، وهو أحد مواطني وادي آش، إلى حصن لا بيثا، على رأس فرقة من المشاة، لكون تلك البلدة تابعة له. حينما شهد ذاك الأخيرما أسلفناه حول الحالة التي آلت إليها مسألة إخضاع الثوار، أراد أن يشن غارةً في المنطقة التي كان موجوداً بها من أجل تحقيق الربح. فتعلل بذهابه للقبض على ابن أمية، وطالب الكونت بالسماح له بذلك، وإمداده بالرجال، وأخبره أن بعض الجواسيس قد وعدوه بتسليمه إياه بين يديه. فزوده الكونت من أجل ذاك الغرض بثلاث مجموعات للمشاة كان قاداتها هم: لوبيث دي خيشاس López de Jexas، وأنطونيو بيلاثكيث Antonio de Velázquez، وإيرنان بيريث دي سوتومايورHernán Pérez de Sotomayor؛ إلى جانب عشرين من الفرسان تحت إمرة القائد بايو دي ريبيرا .Payo de Ribera. اجتمع كل أولئك الأشخاص مع بيرناردينو دي بيّالتا في ألكدية، على مقربة من وادي آش، في آخر أيام شهر فبراير من عام ١٥٦٩؛ وانطلق الجمع من ذاك الموضع في أول أيام شهر مارس، فعبروا سند وادي آش، وتوجهوا صوب قرية الدير لتناول العشاء وتزويد الخيول بالشعير. ثم دخلوا من ميناء رباحة قبيل بزوغ الفجر، ليغيروا على لاروليس، وهي إحدى القرى الخاضعة، وكان قد احتشد بها عدد غفير من المسلمين والمسلمات من القرى الأخرى، ظنًا منهم أنهم

سيصيرون آمنين بمقتضى صك الأمان الذى منحه إياهم ماركيز مونديخار. اقتحم الجند الشوارع والبيوت فى اندفاع شديد، فقتلوا ما يربو على مائة مسلم، وأسروا الكثير من النساء، وسلبوا منهم قدراً وفيراً من الثياب[٣٣] والماشية؛ لأن الأهالى كانوا غافلين عما يجرى. فى صبيحة اليوم التالى، الموافق الجمعة الثانى من شهر مارس، وفى أعقاب نهب المنازل، وحرق الجزء الأكبر منها، استاق رجالنا الغنائم أمامهم، وبادروا بالعودة على عجل للسيطرة على ميناء رباحة قبل أن يحتله المسلمون؛ لأن من استطاعوا الإفلات من قبضة الجنود، أرسلوا إشارات دخانية كبيرة فى الروابى، وأخذوا ينادون فى الأرض، حيث كُشِف الستار عن الكثير من الأفراد الذين هبوا لنجدتهم وانحازوا لصفهم.

كانت تلك الإجراءات على قدر كبير من الأهمية. فما كاد الجنود يشرعون فى ارتقاء الجبل، حتى باغت المسلمون مؤخرة الجيش فى تصميم واستبسال بالغين، حتى أنهم أحدثوا خللاً فى صفوفه مرتين؛ كما أن الجنود المسيحيين تعرضوا لخطر الهلاك جميعًا، لو لم يغثهم القائد بيرناردينو دى بيّالتا - الذى كان فى طليعة الجيش - مع نفر من أصدقائه. حيث دافعوا عن الجيش فى حماسة شديدة، وعرضوا أنفسهم للخطر الشديد. ففى إحدى الهجمات التى شنها على واحد من المسلمين -كان قد فرغ لتوه من الإجهاز على أحد الجنود، ويجرى للحاق بجندى آخر - وقع من على صهوة فرسه؛ وكان المسلم سيقتله هو أيضًا لو لم يهب الرجال لنجدته على وجه السرعة. وهكذا واصل جنودنا صعودهم إلى أعلى الميناء. أما المسلمون، فقد توقفوا عن مطاردتهم، بعد أن قتلوا منهم ثمانية عشر جندياً، وجرحوا الكثيرين؛ ولم تقل الخسائر بين صفوفهم عن ذاك القدر. وقد عادوا أدراجهم إلى البشرات، عازمين على الذهاب إلى ابن أمية، والانضمام إليه، لشن الحرب من جديد.

---

(٣٣) مرة أخرى ندرك أهمية الثياب. (المراجع).

كان فى قلهرة فى ذاك الوقت رجل موريسكى يدعى تينور .Teno. وكان كل من خوان بيريث دى ميسكوا Juan Perez de Mescua، وإيرنان بايى دى بالاثيوس - وكلاهما من مواطنى وادى آش- قد اتفقا معه على أن يسلمهما ابن أمية حيًا أو ميتًا، أو أن يستدرجه إلى موضع يمكن فيه إلقاء القبض عليه؛ وذلك فى مقابل إنقاذ زوجته وابنتيه، اللواتى كن أسيرات. فأخبرهما بأنه تعاهد مع واحد من أهالى وادى آش اسمه دييغو بارثانا Diego Barzana، وهو متزوج بعمة لابن أمية، وشخص يضع فيه ذاك الأخير ثقةً كبيرة، لكى يحضره إلى غابة من أشجار البلوط على جبل شلير؛ حتى ينصب له المسيحيون فخين أو ثلاثة كمائن على المعابر التى لابد له من المرور بها، ويعتقلوه. بينما تينور يتكلم معهما، إذا به يشهد قدوم رجالنا مصطحبين أعداداً وفيرةً من النساء الأسيرات، والماشية، والمتاع. فبدأ يبكى ويقول لهما: " أيها السيدان، إن الله لا يرغب أن أرى زوجتى وابنتى أحراراً لابد لتلك الغارة من إفساد تدبيرى. من الآن فصاعداً لن يبقى هناك من يجرؤ على الثقة فى أحد، وسوف تظهر فى كل يوم شرور جديدة، وسيعود الخاضعون إلى القيام بالثورة ". وحقًا قال؛ لأن تلك الحادثة أسفرت عن حمل السلاح فى تلك الأراضى. فقام ابن أمية بحشد الرجال من جديد، مما أوقف عملية الإخضاع. أسف ماركيز مونديخار والكونت بشدة لتلك الفوضى. وأمر الماركيز باعتقال بيرناردينو دى بِيَّالتا، وكان سيطبق عليه عقابًا صارمًا، لو لم يبرئ نفسه متعللاً بعثوره على مقاتلين فى تلك البلدة، وببعض الحجج الأخرى، التى بدت حقيقية. وهكذا فقد النساء العزل حريتهن، وتم بيعهن كالإماء.

الفصل السادس والثلاثون

يتناول الخلافات التى نشبت بين القادة فى مدينة ألمرية حول انطلاق حملة الإغارة على إينوكس.

كان السيد غارثيا دى بيّا رّويل مكلفًا من قبل ماركيز مونديخار بكل الشؤون المتعلقة بالحرب فى مدينة ألمرية. وقد سعى لكى ينسب إلى نفسه اختصاصات السلطتين المدنية والجنائية، حتى لا يتم إبطال صلاحياته، بمقتضى مرسوم جلالة الملك الموجود فى حيازة السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، وبالتالى استثنائه عند تقسيم متاع إينوكس. من ناحية أخرى، فإن السيد فرانثيسكو دى كوردوبا عمد إلى بيان أفضليته كقائد عام، وأراد أن تتم جميع الأمور وفقًا لأوامره؛ كما طالب بأن يمسى خمس ومعشار الفىء من نصيبه. على ضوء تلك المنافسات، لم يرد السيد فرانثيسكو دى كوردوبا أن يُقال فى حقه أمر تفوح منه رائحة الجشع، فترك السيد غارثيًا دى بيّا رّويل يتولى مسألة توزيع الفىء، بل إنه طالبه بذاك كتابةً. عندما قام ذاك الأخير باستخراج الخمس والمعشار على جنب، بمقتضى قرار - يبدو أنه منصف - أعلن فيه أن جنود ساحل مملكة غرناطة منذ قديم الأزل لديهم الحق فى خمس الغنائم، أما القادة العموم فلم يعتادوا الحصول على معشارها؛ لذا فقد أودع هذا وذاك لدى المستودع العمومى لتلك المدينة، حتى يصدر قرار جلالة الملك حول كيفية التصرف فيها فى تلك الحالة. أحنق ذاك الأمر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، فلم يلق بالًا لذاك القرار؛ وأمر السيد بيرناردينو دى كيسادا أن يتوجه برفقة كتيبته إلى المنزل الذى حُشِدَت به الإماء، ليحملهن إلى مخزن الأسلحة. فأخرجهن - عقب إحداث جلبة كبيرة - وقسمهن هو بذاته، بعد أن جنّب أولاً الخمس والمعشار.

كان يمكن أن تسفر تلك الواقعة عن شرور عظيمة؛ لأن الرجال جميعًا صاروا مقسمين ما بين إرادتين. وبات هناك من يرغب فى قيام السيد غارثيا دى بيّا رّويل بالدفاع عن إرادته، بيد أنه فى نهاية الأمر خاف من أن تتم الإطاحة برأسه، لأنه كان يخشى إغضاب جلالة الملك.

فى تلك الآونة رأى أعضاء مجلس الحرب إنه ليس من اللائق أن يضطلع شخصان بالمهمة ذاتها فى مدينة ألمرية. فأصدروا مرسومًا يأمرون فيه السيد غارثيا دى بيّا رّويل بالامتثال للسيد فرانثيسكو دى كوردوبا فى سائر الشؤون المتعلقة بالحرب، كما تفضّل عليه الملك بخمس الجوارى: من وجدت منهن فى المستودع، ومن يتم أسرهن فيما بعد. لكن أعقب إرساء ذاك المبدأ ظهور الشكوك؛ لأن السيد كريستوبال دى بينابيديس – شقيق السيد غارثيا دى بيّا رّويل[٣٤]– الذى جلب على نفقته الخاصة ثلاثمائة جندى إلى ألمرية، زعم أن ذاك المرسوم لا ينطبق عليه أو على جنوده؛ فلم يطع أوامر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا. وعند قيامه بإحدى الغارات، فإنه لم يكن يضع المغانم بين يديه، أو يمنحه جانبًا منها؛ وقد أفرزت تلك الأمور مشاعر الاستياء وعدم الرضا. من ناحية أخرى، لم يكن ماركيز بلش مسرورًا برؤية السيد فرانثيسكو دى كوردوبا يتقلد المنصب الذى عهد إليه به، فلم يكف عن تزكية غضب الأخوين. وقد قام ماركيز مونديخار – الذى تقع على عاتقه مسألة الحرب بأكملها– بالأمر ذاته، على وجه الخصوص حينما تنامى إلى علمه، من خلال بعض المعلومات التى أرسلها إليه السيد غارثيا دى بيّا رّويل، أن السيد فرانثيسكو دى كوردوبا منح نفسه لقب القائد العام فى المنشورات التى تصدر فى ألمرية.

إزاء تزايد الشكاوى التى ترد من كل الأرجاء بدعوى الظلم، أضحى السيد فرانثيسكو دى كوردوبا حزينًا للغاية، من جراء تلك الأحداث وأيضًا لوعكة صحية ألمت

(٣٤) هكذا ورد فى النص الأصلى، وقد يكون أخاه من أمه. (المراجع)

به. فتضرع إلى جلالة الملك لكى يأذن له فى العودة إلى دياره. وقد سُمِحَ له أن يقوم بما أراد، وذلك من خلال الرسالة التى كتبها إليه فى الثامن والعشرين من شهر فبراير، وكان نصها كالتالى: "عقب الاطلاع على الالتماس الذى تطلبون منا فيه الإذن للذهاب إلى دياركم، فإننا قد ارتأينا منحكم إياه. وهكذا فإنه بمقدوركم التوجه إلى هناك متى عنَّ لكم القيام بذلك. وقد كتبنا إلى ماركيز بلش من أجل إرسال ما يلزم من رجال حسب وجهة نظره إلى تلك المدينة". كما كتب جلالة الملك فى ذات التاريخ إلى كلٍ من: المجمع الديرانى للمدينة، وصاحب الحصن، والسيد غارثيا دى بيًا رَّويل يأمرهم بالانصياع لقرارات ماركيز بلش. فى أعقاب تسلم تلك الرسائل فى اليوم السادس من شهر مارس، غادر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا ألمرية. كما عهد ماركيز بلش إلى السيد غارثيا دى بيًا رَّويل بكافة الشؤون المدنية والجنائية الخاصة بالحرب. ظل الماركيز بمفرده فى ألمرية، وكان أول ما قام به هو شنق حاجب تابيرناس فرانثيسكو لوبيث(*)، وكان لا يزال فى الأسر. كما أمر بصعود قطعتين من أسلحة المدفعية وبعض الذخيرة -التى كانت السفن قد جلبتها من كارتاخينا - إلى القلعة. وأصدر أوامره للقيام ببعض الإصلاحات الضرورية فى الأسوار، وأقام ساحة للعرض والتدريب فى المدينة. بالإضافة إلى ذلك، فقد خرج عدة مرات مع كريستوبال دى بينابيديس فى بعض الغارات، فأحضرا غنائم وفيرة وثمينة من الإماء والماشية ومؤن أخرى إلى المدينة، وقتلا الكثير من المسلمين. ولم تكن الفوضى التى أحدثها الجنود العصاة فى البقاع الخاضعة بالأمر الهين.

(*) راجع الفصلين السابع والعشرين والثامن والعشرين، صفحة ١٠٣ إلى ١١٦ (المترجمة) .

الفصل السابع والثلاثون

يتناول موافقة جلالة الملك على إرسال أخيه السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة، وترتيبات أخرى تم اتخاذها فى تلك الآونة.

فى غمار كل تلك الأحداث الدائرة فى غرناطة، من الذى كان يقدر على التمييز بين الروايات المتضاربة التى ترد إلى مجلس جلالة الملك، لتدين البعض وتبرئ ساحة البعض الآخر؟ كان السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس لا يزال فى البلاط، وبات يسعى جاهدًا لنشر فكرة الاستسلام عارضًا الكثير من الحجج(٣٥)؛ بيد أن بعض من بالمجلس صموا آذانهم عن حديثه، حتى إنه لم يعد يدرى السبيل إلى مفاتحتهم فى الأمر بالكيفية التى لا تتعارض ونفوسهم العامرة بالتناقضات. فلمّا لم يعثر على طريقة أفضل، قال بأنه على جلالة الملك التفضل بزيارة تلك المملكة بشخصه؛ لأن ذهابه سيفرض على الجميع أن يخفض له جناحه، وستتوقف الفوضى، وسيدب الخوف فى نفوس الأشرار، وسيشعر الراغبون فى تهدئة الأجواء بالأمان، و سوف يتوقف كل ما يجرى بالمملكة من أحداث القتل والسرقات وإعمال القوة. وضرب مثالاً على ذلك بالملكين الكاثوليكيين، وقيامهما بذاك الأمر أثناء اندلاع الثورات السابقة، وكيف كانا يخمدان نيرانها على ذاك النحو.

---

(٣٥) لاحظ دور حفيد بنى نصر فى التخفيف عن كاهل الموريسكيين (المراجع).

لكن حتى ذاك الأمر - الذى كان من الممكن أن يجلب لهم النفع لاحقًا- لم يكن مستحقًا نظرًا للآثام التى اقترفها أولئك البانسون؛ حيث رأى أعضاء المجلس أنه حدث لا يتواءم ومكانة أمير يتمتع بذاك القدر من النفوذ، كما أن الأعباء الجسيمة للأحداث الجارية فى أنحاء أخرى لا تدع له مجالًا للقيام بذلك. واتفقوا على أنه لا ينبغى لجلالة الملك تجاهل سيادة الكاردينال دييغو دى إسبينوسا -الذى يضطلع بتلك الأمور - مع الجانب الأكبر من أعضاء المجلس. بيد إنهم رأوا - إضافةً إلى ذلك - إرسال شقيقه السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة، وكان شابًا واعداً؛ ويمكنه - استناداً إلى سلطته- تشكيل مجلس حرب، يتم فيه إقرار كافة الأشياء المتعلقة بتلك المملكة، على ألا يُبّت فى الأمور فى التو بدون التشاور مع المجلس الأعلى. كانت تلك الإضافة كبيرة، لكنها مثلت عائقًا نظرًا لما تسبب فيه من تأخر فى الشؤون التى تحتاج إلى سرعة وحزم فى اتخاذ القرار[٣٦].

فى أعقاب إقرار ذهاب السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة، أصدر جلالة الملك تكليفين. فعهد فى أولها إلى السيد لويس دى ريكيسينيس - القائد العام لرهبانية القديس سانتياغو العسكرية فى قشتالة - وكان حينئذ سفيراً فى روما، وينوب عن السيد خوان دى أوستريا فى القيادة العامة للقوات البحرية، أن يحضر إلى إسبانيا برفقة السفن التى يتولى مسؤوليتها فى إيطاليا، وثلث الجنودِ الإسبان القدامى الموجودين فى نابولى. وأن ينضم إلى السيد سانشو دى لِيّبا، ليقطع كلاهما الطريق على المراكب القادمة من بلاد المغرب، ويزودا سواحلنا بمعاقل فى البحر. كان التكليف الثانى موجهًا إلى ماركيز مونديخار، الذى أمره جلالة الملك، فى رسالة مؤرخة فى السابع عشر من مارس، أن يُبقِى فى البشرات على ألفى راجل وثلاثمائة فارس تحت إمرة من يتراءى له من: السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، أو السيد خوان دى مندوثا، أو السيد أنطونيو دى لونا. ثم يتوجه هو مع سائر رجاله الآخرين إلى

---

(٣٦) لاحظ النقد الذاتى الذى يمارسه مارمول. (المراجع).

غرناطة، لأن جلالة الملك قرر أن يذهب أخوه السيد خوان دى أوستريا إلى هناك لتولى شؤون تلك المملكة؛ ومن المناسب أن يكون الماركيز على مقربة منه، نظراً لما له من دراية كبيرة بتلك الشؤون.

تسبب ذاك القرار، الذى أُذِيع قبل أن يدخل فى قيد التنفيذ، فى إحداث أضرار بالغة. لأن الجنود الذين باتوا ينتظرون قدوم أمير ذى نفوذ واسع، لم يكونوا قد برئوا من جراح صكوك الأمان التى مُنِحَت لقرى الموريسكيين، فتمردوا وانفصلوا عن الركب من أجل شن غارات على البلدان الخاضعة. فأثاروا القلاقل فى تلك الأراضى، وأجبروا الأعداء على حمل السلاح، ودفع الكثير منهم حياتهم ثمنًا لذلك. وكان أسوأ ما فى الأمر أن من تلقوا الأوامر كانوا أكثر من أذاعوا الفوضى[٣٧]. كما صدرت الأوامر إلى ماركيز بلش بتنفيذ القرارات التى يتخذها السيد خوان دى أوستريا، وأن يرسل إلى غرناطة بيانًا بالحالة التى وصلت إليها الأمور فى تلك البقاع، حتى يتسنى للقائد إقرار الترتيبات التى تلائم صالح تلك المملكة وتسهم فى تهدئة أوضاعها بشكل أفضل. اعتقد الكثيرون أن ذهاب السيد خوان دى أوستريا إلى غرناطة كان يهدف إلى استحداث مرجعية ملكية لكسر سطوة الماركيزين. بيد أن صاحب الجلالة لم يكن يسعى سوى لأن يحشد إلى جوار أخيه كلاً من: دوق سيسا، وماركيز مونديخار، ولويس كيخادا Luis Quejada – رئيس المستعمرات الهندية–، وسيادة الرئيس بدرو دى ديثا، ورئيس أساقفة غرناطة. فإذا حدثت أمور تتعلق بالضمير يبحثوا أفضل الحلول لتهدئة الأوضاع، دون اللجوء إلى شن المعارك – إن أمكن – لأن هؤلاء وأولئك جميعهم رعايا جلالة الملك. لكنهم لم يتفقوا فيما بينهم على ذاك الأمر أيضًا، لأن الرب لم يكن يرغب فى بقاء الأمة الموريسكية فى تلك المملكة.

(٣٧) كان الأمر يمثل انتقاصاً لسلطة ماركيز مونديخار بكل تأكيد. (المراجع).

الفصل الثامن والثلاثون

يتناول قتل الموريسكيين المعتقلين فى سجون المحكمة العليا.

كان موريسكيو البيّازين، الذين كان سيادة الرئيس قد أمر باعتقالهم - عقب الاقتراح الذى تقدموا به إليه، كما أسلفنا فى الفصل الخامس من الكتاب الثالث من هذا المؤلَّف - لا يزالون فى سجن المحكمة العليا. إزاء تزايد حدة غضب أهالى المدينة تجاه الأمة الموريسكية ساعة تلو الأخرى، لما شهدوه من الحرائق وعمليات القتل والأعمال الوحشية التى اقترفوها، استغلوا الفرصة التى سنحت لهم وذبحوهم جميعًا داخل السجن. كان هناك بعض المتساهلين الذين اعتقدوا أن ما حدث كان متفقًا عليه بين كبار القائمين على شؤون العدالة، لتسفر تلك العقوبة الرادعة عن بث الخوف فى نفوس الآخرين، فلا يجرؤون على القيام بالثورة. بيد أن ما توصلنا إليه لاحقًا، من خلال ما أدلى به عدد كبير من الشهود، أفاد بأن الداعى وراء عمليات القتل هو ما سنتناوله الآن.

كانت قد سرت أنباء فى غرناطة مفادها إن ابن أمية قد أرسل إلى أهالى البيّازين يطالبهم بإمداده بالرجال لزيادة جيشه، وهكذا يكون موقف المدينة حسنًا ويستطيع هو أن يحقق بعض النتائج المرجوة. وأن البعض قد تطوع بذلك الأمر عندما يرسل إليهم من سفح جبل شلير، إبان قدومه إليه ليلاً، بإشارات من خلال إشعال النيران. وأن الأهالى - إلى جانب تزويده بالرجال - قد عرضوا عليه إطلاق سراح أبيه وشقيقه، اللذين كانا حبيسين فى سجن المحكمة العليا، بالإضافة إلى كل الموريسكيين الذين سُجِنوا معهم. أسفرت تلك الشكوك عن اتخاذ الناس جانب الحيطة، وتم إيلاء عناية

خاصة للدوريات ونوبات الحراسة فى كل من البيّازين والمدينة. وكان قادة الفرسان والمواطنون الشرفاء يجتمعون كل ليلة، فى نقطة الحراسة الكائنة بمقر المحكمة وقاعة الرئيس، بغرض تباحث تلك المخاوف؛ كما اعتادوا أن يفعلوا كلما جد عليهم ما يخشون أو يرغبون.

بينما هم منهمكون فى الحوار فى إحدى الليالى - وكانت ليلة الخميس الموافق السابع عشر من شهر مارس - هبط السيد خيرونيمو دى باديًا من البيّازين. وقد دنا من الرئيس، وهمس إليه فى أذنه على نحو لا يمكن لأحد سماعه، كيف إنه شوهدت على سفح جبل شلير نيران تبدو وكأنها إشارات، وقد أُجيب عليها بإشعال نيران أخرى من نوافذ وأسطح محددة فى البيّازين. على الرغم من إخفاء الرئيس للأمر حتى لا يثير قلق الموجودين بالمجلس، فإنه سرعان ما بعث إليه السيد خوان دى مندوثا سارمينتو - قائد رجال الحرب الموجودين بالبيّازين، والذى كان مقيمًا بها- بارتولومى دى سانتا ماريا - قائد مجموعة مكافحة التلصص- لينقل له رسالة استطاع الجميع الاستماع إليها. عندئذ قال الرئيس إنه من المناسب تحذير الناس، لكى لا يؤخذوا على غرة إذا ما حدث أى شىء. راود الرئيس الشك فى أن الثوار سيرغبون فى حشد صفوفهم لإطلاق سراح الموريسكيين المعتقلين فى السجن، فأمر بارتولومى دى سانتا ماريا ذاته أن يذهب لتفقد التحصينات التى لديهم، وإذا ما كان برفقة السيد أنطونيو دى بالور Antonio de Válor وولده السيد فرانثيسكو Francisco أحد الحجّاب والجنود الستة المكلفين بمهمة الحراسة. وأن يخبر مأمور السجن نيابةً عنه ألا يغفل عن السجناء. فى أعقاب تلقى المأمور لذلك التحذير شديد الخصوصية، قام الرجل باستدعاء أصدقائه وأقربائه، وتوسل إليهم أن يبقوا فى صحبته بأسلحتهم أثناء تلك الليلة؛ كما بحث عن الأسلحة التى بمقدوره استعارتها، ووزعها على المسيحيين المعتقلين.

بعد أن أمسى الجميع محتاطين للأمر، قام الحارس الليلى للحمراء - الذى كان موجودًا فى برج الناقوس، الذى يطلق عليه البعض برج

الشمس[٣٨] - بدق الناقوس فى وقت متأخر، وعلى نحو أكثر سرعة مما يحدث فى أحايين أخرى، وبات يحدث أصواتًا متقطعة كما لو كان يقرع جرس الإنذار؛ فظن الأهالى أن ذلك هو الأمر، وعمت الفوضى المدينة بأسرها. وقد ثار أيضًا المسيحيون الموجودون فى السجن، وكذلك الموريسكيون، حينما وردت إليهم تحذيرات أو راودتهم الشكوك؛ وقد كانت الفوضى عارمة إلى حد الاشتباك بالأيدى. قاتل الموريسكيون بالأحجار، وقوالب الطوب، والعصى التى اقتلعوها من الزنازين؛ أما المسيحيون فقد استخدموا الأسلحة التى كان المأمور قد أعطاهم إياها، أو الأغلال التى كانت فى أقدامهم؛ وبات كل منهم يسعى لكسر الحائط الموجود فى متناول يديه للتزود بالطوب، من أجل إلقائه على عدوه. مع مجيىء المأمور تجدد القتال، وأسفر عن وقوع قتلى وجرحى من كلا الجانبين، واستمر الحال هكذا على مدار أكثر من ساعتين دون أن يشعر أحد من الخارج بما يجرى.

قص علينا[٣٩] لاحقًا المأمور القضائى خوان رودريغيث دى بيّافويرتى Juan Rodríguez de Villafuerte، أنه أحس بجلبة شديدة أثناء نومه على أحد المقاعد فى قاعة المحكمة الملحقة بالسجن. فهرول صوب النوافذ المطلة على الميدان الجديد، وحينما أبصر الجنود فى نقطة الحراسة هادئين عاود الجلوس مرة أخرى. بعد مرور فترة وجيزة سمع الضجة نفسها، فظن أنها آتية من داخل السجن، فأرسل أحد الجنود إلى هناك. رجع الرجل ليخبره بالثورة التى أحدثها المعتقلون، وأن الموريسكيين والمسيحيين يقتتلون، وأن بعضهم ينادى "فلتحيا عقيدة يسوع المسيح"، بينما يقول البعض الآخر" يعيش محمد" . فتوجه فى أعقاب ذلك ليخطر الرئيس، الذى أمر أن تقوم كتيبة المشاة التى تتولى مهام الحراسة فى الميدان الجديد بمحاصرة السجن، منعاً لهرب السجناء.

---

(٣٨) لاحظ تعدد أسماء البرج الواحد. (المراجع).

(٣٩) لاحظ المصادر المباشرة التى يعتمد عليها مارمول. (المراجع).

بيد أنه في تلك الآونة كان أهالي المدينة قد استجابوا للإنذار وهرع الكثير من الجنود إلى الدوريات. فاقتحم أولئك السجن، وهجموا على الزنازين والغرف التي كان الموريسكيون قد تراجعوا للاحتماء بها، وكان الكثير منهم قد أعلن عقيدته وأفصح عما يعتمل في صدره. بينما قام آخرون في غمار اليأس- ممن لم يرغبوا في تجنب الوزر[٤٠]، أو تفادي الموت في الساعة الأخيرة من حياتهم- بتجميع الحُصُر، ومشاقات الكتان، وغيرها من الأشياء الجافة التي يمكن حرقها؛ ثم وقفوا بين ألسنة اللهب، التي أشعلوها هم بأنفسهم، لإذكائها، من أجل إحراق السجن والمحكمة، وإهلاك كل الموجودين بالداخل. لكن لم يتحقق لهم حتى رؤية ذاك الأمر؛ لأن المسيحيين أطفئوا النيران، وأجهزوا عليهم جميعًا في أجواء معبئة بالغبار والدخان؛ فلم يتركوا رجلاً على قيد الحياة، سوى اثنين أقر أفراد الحرس بانتمائهما إليهم. دام القتال على مدار سبع ساعات، ومات الموريسكيون المحتجزون الذين بلغ عددهم مائة وعشرة، وعُثِر على الكثير منهم وقد تم ختانهم. لا بد وأن جرائم أولئك القوم كانت تفوق ما ذكرناه. لأنه حينما طالب نساء القتلى وأولادهم بمخصصاتهم وضياعهم أمام مأموري الجرائم بتلك المحكمة العليا، وتولى نواب الادعاء العام جانب الدفاع، تم تشكيل دعوى بمقتضى القانون، وأُدينوا بعدة أحكام بعد الفحص والتدقيق، وصودرت كافة ممتلكاتهم لصالح الخزانة الملكية.

مات في غمار ذاك الاشتباك خمسة من المسيحيين، وجُرِحَ سبعة عشر. وحصل المأمور على قدر وفير من مغانم القتلى؛ لأنهم كانوا أناسًا أثرياء، وكانت هناك كميات كبيرة من الأموال في حوزتهم. لبى كونت تينديًا نداء ذاك الناقوس في الصباح. بينما كان يقول للرئيس إنه يود الذهاب لإيجاد حل لمسألة السجن، فإذا بالأب بدرو لوبيث دي ميسا Pedro López de Mesa - مأمور الجرائم بتلك المحكمة العليا - يحضر من السجن، ويخبره أنه ما من داع لذهابه إلى هناك، لأن الموريسكيين قد قتلوا بالفعل. لم يمر وقت طويل حتى أرسل جلالة الملك في طلب السيد أنطونيو وولده السيد فرانثيسكو دي بالور، فمنحهما ما يمكّنهما من سد حاجتهما؛ لأنه بدا لجلالته أنهما ليسا مذنبين

فيما يتعلق بمسألة الثورة، وأن كبير حجّاب أوسونا Osuna قد ألقى القبض عليهما، أثناء مجيئه إلى غرناطة قادمًا من ميناء سانتا ماريا Santa María - حيث ترسو السفن - تلبيةً للأوامر.

فى ذاك اليوم نفسه، أراد كونت تيندِيًا أن يضع ما كان يود القيام به من قبل موضع التنفيذ؛ ألا وهو حشد الرجال، والخروج فى حملة باتجاه منتميس. فأرسل يستدعى القائد لورينثو دى أبِلا – الذى كان مقيمًا فى بقاع بيثنار، والفخار، وكوغوريّوس، مع الرجال الذين أرسلتهم القرى السبع. وقد عارضته كل من المحكمة العليا والمدينة، عقب تنبيههما إلى ما جرى فى غرناطة وبقاع الغوطة؛ فتوقف عند إرسال السيد خوان دى مندوثا سارمينتو إلى أورخيبا مع ثلاثمائة من رجال البلدان. وسوف نتعرض فى الكتاب التالى لدواعى عدم استكمال إخضاع القرى، وكيف عاودت سائر بقاع البشرات المستسلمة القيام بالثورة.

المحتويات

الكتاب الخامس – (الفصل الأول)

(الفصل الرابع والعشرين)

(الفصل الخامس والعشرين)

(الفصل السادس والعشرين)

(الفصل السابع والعشرين)

(الفصل الثامن والعشرين)

(الفصل التاسع والعشرين)

(الفصل الثلاثون)

(الفصل الحادى والثلاثون)

المؤلف فى سطور

- لويس ديل مارمول كارياخال

- ولد فى غرناطة عام ١٥٢٠، وتوفى نحو عام ١٥٩٩

- اشترك فى الحملة على تونس عام ١٥٣٥، وأمضى اثنين وعشرين عامًا فى إفريقيا، منهم ثمانية أعوام قضاها أسيرا فى الجزائر.

- خلال ثورة الموريسكيين، عينه الأمير خوان دى أوستريا مفتشا على مشتريات الجيش الإسبانى.

- له كتابان آخران هما "وصف إفريقيا (فى ثلاثة أجزاء)، و"الحرب فى البشرات"

المترجمة فى سطور:

وسام محمد السيد جزر

ليسانس اللغة الإسبانية بتقدير جيد جداً مع مرتبة الشرف (كلية الألسن، جامعة عين شمس، ١٩٩٩)

دبلوم الترجمة بتقدير ممتاز (كلية الألسن، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢)

المراجع فى سطور

جمال أحمد عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) ، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا و مدريد
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩)
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.
- عضو اللجنة العالمية للدراسات الموريسكية (اعتبارا من مايو ٢٠٠٩).
- بريد إلكترونى ww.gamalabadel Ahamed Ahaman Dhotmacil . com.

التصحيح اللغوى: محـمـد شـــلبى
الإشـراف الفنـى: حســـن كـامـل